تتمة

أضواء البيان

في إيضاح القرآن بالقرآن

تأليف الفقير إلى رحمة ربه وعفوه

محمد الأمين بن محمد المختار

الجكني الشنقيطي

طبع على نفقة المحسن صاحب المعالي الشيخ

محمد بن عوض بن لادن

رحمه الله

وقفاً لله على طلبة العلم

الجزء التاسع

والثاني من التتمة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الثانية
١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ، عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ، ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ، كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ .

عم أصله عن ما أدغمت النون فى الميم ، ثم حذف ألف الميم ، لدخول حرف الجر عليه للفرق بين ما الاستفهامية وما الموصولة .

والمعنى : عن أى شىء يتساءلون ، وقد يفصل حرف الجر عن ما ، فلا يحذف الألف .

وأنشد الزمخشرى قول حسان رضى الله عنه :

على ما قام يشتمنى لئيم كخنزير تمرغ فى رماد

وقال فى الكشاف : وعن ابن كثير أنه قرأ عمه ، بهاء السكت ، ثم وجهها بقوله : إما أن يجرى الوصل مجرى الوقف ، وإما أن يقف ويبتدىء يتساءلون عن النبإ العظيم ، على أن يضمر يتساءلون ، لأن ما بعده يفسره .

وقال القرطبى : قوله : عن النبإ العظيم : ليس متعلقا بيتساءلون المذكور فى التلاوة ، ولكن بقدر فعل آخر عم يتساءلون عن النبإ

العظيم ، وإلا لأعيد الاستفهام أعن النبإ العظيم ؟

وعلى كل ، فإن ماتساءلوا عنه أبهم أولا ، ثم بين بعده بأنهم يتساءلون عن النبإ العظيم ، ولكن بقى بيان هذا النبإ العظيم ما هو ؟

فقيل : هو الرسول صلى الله عليه وسلم فى بعثته لهم .

وقيل : فى القرآن الذى أنزل عليه يدعوهم به .

وقيل : فى البعث بعد الموت .

وقد رجح ابن جرير : احتمال الجميع وألا تعارض بينها .

والواقع أنها كلها متلازمة ، لأن من كذب بواحد منها كذب بها كلها ، ومن صدق بواحد منها صدق بها كلها ، ومن اختلف فى واحد منها لا شك أنه يختلف فيها كلها .

ولكن السياق فى النبإ وهو مفرد . فما المراد به هنا بالذات ؟

قال ابن كثير والقرطبى : من قال إنه القرآن : قال بدليل قوله : (قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون)

ومن قال : إنه البعث قال بدليل الآتى بعدها : (إن يوم الفصل كان ميقاتا) .

والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن أظهرها دليلا هو يوم القيامة والبعث ، لأنه جاء بعده بدلائل وبراهين البعث كلها ، وعقبها بالنص

على يوم الفصل صراحة ، أما براهين البعث فهى معلومة أربعة : خلق الأرض والسماوات ، وإحياء الأرض بالنبات ، ونشأة الإنسان من العدم ، وإحياء الموتى بالفعل فى الدنيا لمعاينتها وكلها موجودة هنا .

أما خلق الأرض والسماوات ، فنبه عليه بقوله (ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا) ، وقوله : (وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا) ، فكلها آيات كونية دالة على قدرته تعالى كما قال : (لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس) .

وأما إحياء الأرض بالنبات فى قوله تعالى : (وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا) كما قال تعالى : (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذى أحياها لمحيى الموتى) .

وأما نشأة الإنسان من العدم ، فى قوله تعالى : (وخلقناكم أزواجا) أى أصنافا ، كما قال تعالى : (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) .

وأما إحياء الموتى فى الدنيا بالفعل ، فى قوله تعالى : (وجعلنا نومكم سباتا) والسبات : الانقطاع عن الحركة . وقيل : هو الموت ، فهو ميتة صغرى ، وقد سماه الله وفاة فى قوله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها) ، وقوله تعالى : (وهو

الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه) ، وهذا كقتيل بنى إسرائيل وطيور إبراهيم ، فهذه آيات البعث ذكرت كلها مجملة

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه إيرادها مفصلة فى أكثر من موضع ، ولذا عقبها تعالى بقوله : (إن يوم الفصل كان ميقاتا) أى للبعث الذى هم فيه مختلفون ، يكون السياق مرجحا للمراد بالنبإ هنا .

ويؤكد ذلك أيضا كثرة إنكارهم وشدة اختلافهم فى البعث أكثر منهم فى البعثة ، وفى القرآن ، فقد أقر أكثرهم ببلاغة القرآن ، وأنه ليس سحراً ولا شعراً ، كما أقروا جميعاً بصدقه عليه السلام وأمانته ، ولكن شدة اختلافهم فى البعث كما فى أول سورة صٓ و قٓ ، ففى ص قال تعالى : (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ، أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب) .

وفى قٓ قال تعالى : (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب ، أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد) ، فهم أشد استبعاداً للبعث مما قبله ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾

لم يبين هنا هل علموا أم لا . ولكن ذكر آيات القدرة الباهرة

على إحيائهم بعد الموت بمثابة إعلامهم بما اختلفوا فيه ، لأنه بمنزلة من يقول لهم : إن كنتم مختلفين فى إثبات البعث ونفيه ، فهذه هى آياته ودلائله فاعتبروا بها وقايسوه عليها ، والقادر على إيجاد تلك ، قادر على إيجاد نظيرها .

ولكن العلم الحقيقى بالمعاينة لم يأت بعد لوجود السين وهى للمستقبل ، وقد جاء فى سورة التكاثر فى قوله : (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ، كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين) ، وهذا الذى سيعلمونه يوم الفصل المنصوص عليه فى السياق ، (إن يوم الفصل كان ميقاتاً) .

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴾ .

قرىء بالإفراد ، مهداً أى كالمهد للطفل . وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك عند قوله تعالى : (الذى جعل لكم الأرض مهادا وسلك لكم فيها سبلا) من سورة طه .

قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ، وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ، وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان هذه الثلاثة ، كون النوم سباتاً : راحة أو موتاً ، والليل لباساً ، ساتراً ومريحاً ، والنهار معاشاً لطلب المعاش ، وذلك عند كلامه على قوله تعالى من

سورة الفرقان : (وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً) وكلها آيات دالات على القدرة على البعث ، كما تقدمت الإشارة إليه

قوله تعالى ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ .

أى السماوات السبع ، وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك عند قوله تعالى فى سورة قٓ (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج) وساق النصوص مماثلة هناك .

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ .

النفخ فى الصور للبعث ، وهذا معلوم ، وتأتون أفواجا : قد بين حال هذا المجىء مثل قوله تعالى : (يخرجون من الأجداث سراعا) ، وقوله : (كأنهم جراد منتشر مهطعين إلى الداع) والأفواج هنا قيل : الأمم المختلفة كقوله : (يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه — الآية) ، ولكن الآية بتاء الخطاب : فتأتون مما يشعر بأن الأفواج فى هذه الأمة .

وقد روى القرطبى وغيره أثراً عن معاذ ، أنه سأل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يامعاذ ، سألت عن أمر عظيم من الأمور ، ثم أرسل عينيه وقال : تحشر عشرة أصناف من أمتى » وساقها ،

وكذلك ساقها الزمخشرى ، وقال ابن حجر فى الكافى الشافى فى تخريج أحاديث الكشاف : أخرجه الثعلبى وابن مردويه من رواية محمد بن زهير ، عن محمد بن الهندى عن حنظلة السدوسى عن أبيه عن البراء ابن عازب عنه بطوله وهى : بعضهم على صورة القردة ، وبعضهم على صورة الخنازير ، وبعضهم منكسون أرجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها ، وبعضهم عمياً ، وبعضهم صماً ، بكما ، وبعضهم يمضغون ألسنتهم ، فهى مدلاَّت على صدورهم يسيل القيح من أفواههم يتقذرهم أهل الجمع ، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم ، وبعضهم مصلبون على جذوع من نار ، وبعضهم أشد نتناً من الجيف ، وبعضهم ملبسون جلباباً سابغة من قطران لازقة بجلودهم .

أما الذين على صورة الخنازير : فأهل السحت ، والمنكسون : أكلة الربا ، والعمى : الجائرون فى الحكم ، والصم : المعجبون بأعمالهم ، والذين يمضغون ألسنتهم : العلماء والقصَّاص الذين خالف قولهم أعمالهم ، ومقطوع الأيدى : مؤذوا الجيران ، والمصلَّبون : السعاة بالناس إلى السلطان ، والذين أشد نتناً : متبعوا الشهوات ، ومانعوا حق الله فى أموالهم ، ولابسوا الجلباب : أهل الكبر والفخر . انتهى بإيجاز بالعبارة ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ .

تقدم بيان أحوالها يوم القيامة ، وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك مفصلا ، عند قوله تعالى من سورة طه : (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً) وعند قوله تعالى فى سورة النمل : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) .

قوله تعالى ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ، لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ، إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ .

لم يبين الأحقاب هنا كم عددها ، وهذه مسألة فناء النار ، وعدم فنـــائها .

وقيل : المراد بالأحقاب هنا جزء من الزمن لا كله ، وهى الأحقاب الموصوف حالهم فيها لما بعده من كونهم لا يذوقون فيها ، أى فى النار أحقاباً من الزمن ، لا يذوقون برداً ولا شراباً إلا حميما وغساقاً .

أما بقية الأحقاب فيقال لهم : فلن نزيدكم إلا عذاباً ، وهذه المسألة د بحثها الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى كتاب دفع إيهام الاضطراب ، عند الكلام على هذه الآية ، وفى سورة الأنعام على قوله تعالى : (قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله) الآية ، وهو بحث مطول ، وسيطبع الكتاب بإذن الله تعالى مع هذه التتمة .

وذكر القرطبى فى معنى الحقب : آثاراً عديدة منها : عن عمر

ابن الخطاب رضى الله عنه ، قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « والله لا يخرج من النار من دخلها حتى يكون فيها أحقاباً » الحقب : بضع وثمانون سنة ، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً ، كل يوم ألف سنة مما تعدون . فلا يتكلن أحدكم على أنه يخرج من النار » . ذكره الثعلبى .

وقد رجح القرطبى دوامهم ، أى الكفار فى النـــار أبد الآبدين . اهـ .

قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ .

قيل المراد بالشىء هنا : أعمال العباد ، أى أنه بعد قوله (جزاء وفاقاً) أى وفق أعمالهم بدون زيادة ولا نقص ، قال : وقد أحصينا أعمالهم وكتبناها ، وهـذا كقوله تعالى : (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحداً) . وقوله : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) وقوله : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ، وقوله : (أحصاه الله ونسوه) .

واللفظ عام فى كل شىء ، ويشهد له قوله تعالى : (إنا كل شىء

خلقناه بقدر) وبقدر فيه معنى الإحصاء ، وفى السنة : حديث القلم المشهور ، وكقوله : (وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين) وتقدم فى سورة الجن قوله تعالى : (وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عدداً) .

وهذه الآية أعظم الدلالات على قدرته تعالى وسعة علمه ، وألا يفوته شىء قط ، وأنه يعلم بالجزئيات علمه بالكليات .

وكما تقدم فى سورة المجادلة (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم) .

وكذلك التفصيل فى قوله : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة لا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ﴾ .

بينه بعده بقوله تعالى : (حدائق وأعناباً — إلى قوله — جزاء من ربك عطاء حساباً) .

قوله تعالى ﴿ عَطَآءً حِسَاباً ﴾ .

فى حق الـكفار ، قال : جزاء وفاقاً ، وفى حق المؤمنين ، قال عطاء حساباً .

ففى الأول بيان أن مجازاتهم وفق أعمالهم ولا يظلم ربك أحداً .

وفى الثانى بيان بأن هذا النعيم عطاء من الله وتفضل عليهم به من الأصل ، وهو المفاز المفسر فى قوله تعالى : (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) .

ودخول الجنة ابتداء عطاء من الله كما فى حديث : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » ، وقوله : حساباً : إشعار بأن تفاوت أهل الجنة فى الجنة بالحساب ونتائج الأعمال . وقيل حساباً : بمعنى كفاية ، حتى يقول كل واحد منهم : حسبى حسبى . أى كافينى .

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه ، عند الـكلام على قوله تعالى من سورة الـكهف : (وعرضوا على ربك صفاً) .

وقد ذكر ابن كثير لمعنى الروح هنا سبعة أقوال هى : أرواح بنى آدم ، أو بنو آدم أنفسهم ، أو خلق من خلق الله على صور بنى آدم ليسوا بملائـكة ولا بشر ، ويأكلون ويشربون ، أو جبريل أو القرآن ، أو ملك عظيم بقدر جميع المخلوقات . ونقلها الزمخشرى وحكاها

القرطبي ، وزاد : ثامنا وهم حفظة على الملائكة ، وتوقف ابن جرير في ترجيح واحد منها .

والذى يشهد له القرآن بمثل هذا النص أنه جبريل عليه السلام ، كما فى قوله تعالى : (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) ، ففيه عطف الملائكة على الروح من باب عطف العام على الخاص ، وفى سورة القدر عطف الخاص على العام . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ .

قال الزمخشرى : لشدة هول الموقف ، وهؤلاء وهم أكرم الخلق على الله وأقربهم إلى الله ، لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن ، فغيرهم من الخلق من باب أولى .

وقال ابن كثير : هو مثل قوله تعالى : (يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه) ومثله قوله تعالى : (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه)

والواقع أن هـــذا كله مما يدل على أن ذلك اليوم لا سلطة ولا سلطان لأحد قط ، حتى ولا بكلمة إلا ما أذن فيها ، كما قال تعالى (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) .

قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ﴾ .

هو يوم القيامة لاسم الإشارة ، وقد أشير إليه بالاسم الخاص بالبعيد ذلك بدلا من هذا ، مع قرب التكلم عنه ، ولكن إما لبعده زمانياً عن زمن التحدث عنه ، وإما لبعد منزلته وعظم شأنه ، كقوله تعالى : (ألم ذلك الكتاب) ، وفى هذا عود على بدء فى أول السورة ، وهو إذا كانوا يتساءلون مستغربين أو منكرين ليوم القيامة ، فإنهم سيعلمون حقاً ، وها هو اليوم الحق لا لبس فيه ولا شك ليرونه عين اليقين .

قوله تعالى ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾ .

المآب : المرجع ، كما تقدم مثله (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) ، فإذا كان هذا اليوم كائنا حقاً ، والناس فيه إما إلى جهنم ، كانت مرصاداً للطاغين مآبا ، وإما إلى مفازا حدائق وأعناباً ، فبعد هذا البيان ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ، يؤب به عند ربه مآبا يرضاه لنفسه ، ومن شاء هنا نص فى التخيير ، ولكن المقام ليس مقام تخيير ، وإنما هو بمثابة قوله تعالى : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً) الآية .

فهو إلى التهديد أقرب ، كما أن فيه اعتبار مشيئة العبد فيما يسلك ، والله تعالى أعلم .

ويدل على التهديد ما جاء بعده .

قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ .

وقوله : (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) ، وهـذا كله تحذير شديد ، وحث أكيد على السعى الحثيث لفعل الخير ، وطلب النجاة فى اليوم الحق ، نسأل الله السلامة والعافية .

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَاقَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ .

قد بيّن تعالى نتيجة هذا النظر إما المسرة به وإما الفزع منه ، كما فى قوله (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء ، تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد) .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النازعات

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴾ .

الواو للقسم ، والمقسم به محذوف ، ذكرت صفاته فى كل المذكورات ، إلى قوله : (فالمدبرات أمرا) .

وقد اختلف فى المقسم به فيها كلها ، على ما سيأتى بيانه إن شاء الله .

والنازعات : جمع نازعة ، والنزع : جذب الشيء بقوة من مقره ، كنزع القوس عن كبده ، ويستعمل فى المحسوس والمعنوى ، فمن الأول نزع القوس كما قدمنا ، ومنه قوله : ونزع يده ، وقوله : (تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) وينزع عنهما لباسهما ، ومن المعنوى قوله تعالى : (ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا) ، وقوله : (فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول) ، والحديث : لعله نزعه عرق .

والإغراق المبالغة ، والاستغراق : الاستيعاب

أما المراد بالنازعات غرقا هنا ، فقد اختلف فيه إلى حوالى عشرة

أقوال منها : أنها الملائكة تنزع الأرواح ، والنجوم تنتقل من مكان إلى مكان آخر ، والأقواس تنزع السهام ، والغزاة ينزعون على الأقواس ، والغزاة ينزعون من دار الإسلام إلى دار الحرب للقتال ، والوحوش تنزع إلى الطلا ، أى الحيوان الوحشى .

والناشطات : قيل أصل الكلمة : النشاط والخفة ، والأنشوطة : العقدة سهلة الحل ، ونشطه بمعنى ربطه ، وأنشطه حله بسرعة وخفة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « كأنما أنشط من عقال » .

أما المراد به هنا فقد اختلف فيه على النحو المتقدم تقريباً ، فقيل : الملائكة تنشط الأرواح ، وقيل : أرواح المؤمنين تنشط عند الفزع ، ولم يرجح ابن جرير معنى منها ، وقال : كلها محتملة ، وحكاها غيره كلها .

وقد ذكر فى الجلالين المعنى الأول منها فقط ، والذى يشهد له السياق والنصوص الأخرى : أن كلا من النازعات والناشطات : هم الملائكة ، وهو مما روى عن ابن عباس ومجاهد ، وهى صفات لها فى قبض الأرواح .

ودلالة السياق على هذا المعنى : هو أنهما وصفان متقابلان : الأول نزع بشدة ، والآخر نشاط بخفة ، فيكون النزع غرقا لأرواح

الكفار ، والنشط بخفة لأرواح المؤمنين ، وقد جاء ذلك مفسراً فى قوله تعالى فى حق نزع أرواح الكفار (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون) الآية . وقوله تعالى : (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق) وقال تعالى فى حق المؤمنين : (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية) ، وقوله : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) .

وهذا يتناسب كل المناسبة مع آخر السورة التى قبلها إذ جاء فيها : (إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) ، ونظر المرء ماقدمت يداه يبدأ من حالة النزع حينما يثقل اللسان عن النطق فى حالة الحشرجة ، حين لا تقبل التوبة عند المعاينة لما سيئول إليه ، فينظر حينئذ ما قدمت يداه ، وهذا عند نزع الروح أو نشطها ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ، فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴾ .

قيل : السابحات النجوم . وقيل : الشمس والقمر والليل والنهار ،

والسحاب والسفن والحيتان فى البحار ، والخيل فى الميدان .

وذكرها كلها أيضاً ابن جرير ولم يرجح . وقال : كلها محتملة ، وذكرها غيره كذلك .

والواقع ، فإنها كلها آيات عظام تدل على قدرته تعالى ، إلا أن السياق فى أمر البحث والمعاد ، وأقرب مايكون إليه الآيات الكونية : الشمس والقمر والنجوم ، وقد وصف الله الشمس والقمر بالسبحات فى قوله تعالى : (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون) والسابقات من النجوم ، السيارة .

قوله تعالى : ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾ .

اتفق المفسرون على أنها الملائكة ، وذكر الفخر الرازى رأياً له بعيدا ، وهو أنها الأرواح ، وأنها قد تدبر أمر الإنسان فى المنامات ، وهو قول لا يعول عليه كما ترى .

والذى يشهد له النص أنها الملائكة ، كما فى قوله تعالى : (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) وكما وصف الله الملائكة بقوله : (لا يعصون الله ماأمرهم ويفعلون ما يؤمرون) .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ، تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴾ .

هما النفختان فى الصور ، الراجفة هى الأولى ، والرادفة هى الثانية ، كما فى قوله تعالى : (ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة يس عند قوله تعالى : (ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) ، وسميت الأولى الراجفة ، لما يأخذ العالم كله من شدة الرجفة ، كما فى قوله تعالى : (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) ، وقوله (فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض) .

وذكر ابن كثير عن الإمام أحمد رحمه الله بسنده : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه. فقال رجل : يا رسول الله : أرأيت إن جعلت صلاتى كلها عليك ؟ قال : إذاً يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك » وسنده قال أحمد : حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن أبى الطفيل ابن أبى بن كعب عن أبيه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — الحديث » .

قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴾ .

قال ابن كثير : يستنكر المشركون البعث بعد الموت ، والحافرة الحياة بعد موتهم ومصيرهم إلى القبور .

ونقل أن الحافرة النار ، وأكثر المفسرين على أنها الحياة الأولى : يقال : عاد فى حافرته رجع فى طريقه ، كأن محياه الأول حفر طريقه بمشيه فيها ، وعليه لاعلاقة له بحفرة القبر ، وإنما هو تعبير عربى عن العودة فى الأمر ، ويشهد له قول الشاعر :

أحافرة على صلع وشيب معاذ الله من صلع وعار

أى أرجع إلى الصبا بعد الصلع والشيب .

وقول الآخر :

أقدم أخا نهم على الأساوره ولا يهولنك رءوس نادره
فإنما قصرك ترب الساهره حتى تعود بعدها فى الحافره
* من بعد ماصرت عظاما ناخره *

وقد دلت الآية بعدها ، إلى أن المراد بالحافرة العودة إلى الحياة مرة أخرى ، فى قوله : (قالوا تلك إذاً كرة خاسرة) .

والكرة : هى العودة إلى الحياة الأولى ، وهى ماقبل حفرة القبر من تكرار الحياة السابقة . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴾ .

العظام النخرة البالية ، والتى تخللها الريح ، كما فى قول الشاعر :

وأخليتها من مخها فكأنها قوارير فى أجوافها الريح تنخر

ونخرة الريح شدة صوتها ، ومنه المنخر ، لأخذ الهواء منه ، ويدل لهذا قوله تعالى : (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم) .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴾ .

بين تعالى هذا الحديث وموضوعه ومكانه بقوله تعالى بعده : (إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى إذهب إلى فرعون إنه طغى - إلى قوله - فقال أنا ربكم الأعلى) .

قوله تعالى : (ناداه ربه بالواد المقدس) بين القرآن الكريم ، أنه الطور فى قوله تعالى : (فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا - إلى قوله - فلما آتاها نودى من شاطىء الواد الأيمن فى البقعة المباركة) والمباركة تساوى المقدس .

فبين تعالى أن المناداة كانت بالطور وهو الواد المقدس ، وهو طوى ، وفى البقعة المباركة . وقد بين تعالى ما كان فى ذلك المكان من مناجاة وأمر العصا والآيات الأخرى فى سورة طه من أول قوله تعالى (وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا - إلى قوله - اذهب إلى فرعون) .

وقد فصّل الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه القول فى ذلك

الموقف فى سورة مريم عند قوله تعالى : (وناديناه من جانب الطور الأيمن) .

وقد بين تعالى فى سورة طه ، كامل قصة المناداة من قوله : (إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ، إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى ، إن الساعة آتية) .

ثم قصة العصا والآية فى يده عليه السلام ، وإرساله إلى فرعون إنه طغى ، وسؤال موسى : (رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى) واستوزار أخيه معه ، دون التعرض إلى أسلوب الدعوة ، وفى هذه السورة الكريمة بيان لمنهج الدعوة ، وماينبغى أن يكون عليه نبى الله موسى مع عدو الله فرعون .

وأسلوب العرض : هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى ، ثم تقديم الآية الكبرى ، ودليل صحة دعواه مما يلزم كل داعية اليوم أن يقف هذا الموقف ، حيث لايوجد اليوم أكثر من فرعون ، ولا أشد طغياناً منه حيث ادعى الربوبية والألوهية معاً فقال : (أنا ربكم الأعلى) ، وقال : (ماعلمت لكم من إله غيرى) ، ولايوجد اليوم أكرم على الله من نبى الله موسى وأخيه هارون .

ومع ذلك فيكون منهج الدعوة من أكرم خلق الله إلى أكفر عباد الله بهذا الأسلوب الهادىء اللين الحكيم منطلقا من قوله تعالى :

(فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى) فكانا كما أمرهما الله ، وقالا كما علمهما الله ، (هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى) ، وهذا المنهج هو تحقيق لقوله تعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) .

وقد وضع القرآن منهجاً متكاملا للدعوة إلى الله ، وفصله العلماء بما يشترط فى الداعى والمدعو إليه ، ومراعاة حال المدعو .

وقد قدم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم) من سورة المائدة . وقوله تعالى (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) فى سورة هود.

وقوله تعالى : (وجادلهم بالتى هى أحسن) فى سورة النحل .

ومجموع ذلك كله يشكل منهجاً كاملا لمادة طريق الدعوة إلى الله تعالى ، فيما يتعلق بالداعى والمدعو وما يدعو إليه ، وكيفية ذلك والحمد لله

قوله تعالى : ﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ، فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴾

ذكر هنا الآية الكبرى فقط ، وذكر تعالى عنه ان فرعون جمع بين التكذيب والعصيان ، وتقدم سورة القمر قوله : (ولقد جاء آل فرعون النذر ، كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك هناك .

قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْأَخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ .

النكال : هو اسم لما جعل نكالا للغير ، أى عقوبة له حتى يعتبر به ، والكلمة من الامتناع ، ومنه النكول عن اليمين ، والنكل القيد. قاله القرطبي .

واختلف فى الآخرة والأولى : أهم الدنيا والآخرة ؟ أم هم الكلمتان العظيمتان اللتان تكلم بهما فرعون فى قوله (ماعلمت لكم من إله غيرى) .

والثانية قوله : (أنا ربكم الأعلى) .

قال ابن عباس : وكان بينهما أربعون سنة . وقد اختار ابن كثير الأول ، واختار ابن جرير الثانى ، ومعه كثير من المفسرين .

ولكن يرد على اختيار ابن كثير : أن السياق قدم الآخرة ، مع أن تعذيب فرعون مقدم فيه نكال الأولى ، وهى الدنيا .

كما يرد على اختيار ابن جرير ، أن الله تعالى جعل أخذه إياه نكالا ، ليعتبر به من يخشى ، والعبرة تكون أشد بالمحسوس ، وكلتاه قيلتا فى زمنه .

والقرآن يشهد لما قاله ابن كثير ، فى قوله تعالى : (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية) ، وهذا هو محل الاعتبار .

وقد قال تعالى بعد الآية (إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) .

واسم الإشارة فى قوله : إن فى ذلك : راجع إلى الأخذ والنكال المذكورين ، أى المصدر المفهوم ضمناً فى قوله تعالى (فأخذه الله) وقوله: نكال ، بل إن نكال مصدر بنفسه ، أى فأخذه الله ونكل به ، وجعل نكاله به عبرة لمن يخشى .

قوله تعالى ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ .

لما كان فرعون على تلك المثابة من الطغيان والكفر ، وكان من أسباب طغيانه الملك والقوة ، كما فى قوله تعالى : (وفرعون ذى الأوتاد) ، وقوله : (إن فرعون علا فى الأرض) ، وقوله عنه : (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى) .

وهذه كلها مظاهر طغيانه وعوامل قوته ، خاطبهم الله بما آل إليه هذا الطغيان ، ثم خاطبهم فى أنفسهم محذراً من طغيان القوة (أأنتم أشد خلقاً أم السماء) حتى لو ادعيتم أنكم أشد قوة من فرعون ، الذى أخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فهل أنتم أشد خلقاً أم السماء؟.

وقد جاء الجواب مصرحاً بأن السماء أشد خلقاً منهم فى قوله تعالى : (لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لايعلمون) .

وبين ضعف الإنسان فى قوله فى نفس المعنى (فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب) .

وفى هذا بيان على قدرته تعالى على بعثهم بعد إماتتهم وصيرورتهم عظاماً نخرة .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، شىء من ذلك عند آية الصافات (فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا) .

قوله تعالى : ﴿ بَنَاهَا ، رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك . فى سورة ق عند قوله تعالى : (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها) .

قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ، أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ، وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ .

فى هذه الآية الكريمة وصف الأرض بأن الله تعالى : دحاها ، وجاء فى آية أخرى أنه طحاها بالطاء ، وجاء فى آية أخرى أنه بسطها ، وهى قوله تعالى : (وإلى الأرض كيف سطحت) .

وقد اختلف فى تفسير قوله : دحاها ، فقال ابن كثير : تفسيره مابعده (أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها) وهذا قول ابن جرير عن ابن عباس .

وقال القرطبى : دحاها أى بسطها .

والعرب تقول : دحا الشىء إذا بسطه .

وقال أبوحيان : دحاها بسطها ومهدها للسكنى والاستقرار عليها ، ثم فسر ذلك التمهيد بما لابد منه من إخراج الماء والمرعى ، وإرسائها بالجبال .

ومما ذكر يتأتى أمر السكنى والمعيشة حتى الملح والمأكل والمشرب ، وهذا هو كلام الزمخشرى بعينه .

وقال الفخر الرازى : دحاها بسطها ، فترى أن جميع المفسرين تقريباً متفقون على أن دحاها بمعنى بسطها .

وقول ابن جرير وابن كثير : إن دحاها فسر بما بعده لايتعارض مع البسط والتمهيد ، كما قال أبوحيان : إنه ذكر لوازم التسكن إلى المعيشة عليها من إخراج مائها ومرعاها لأن بهما قوام الحياة .

ومما يستأنس به أن الدحو معروف بمعنى البسط ، قول ابن الرومى :

ما أنس لا أنس خبازا مررت به
يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
مابين رؤيتها فى كفه كرة
وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ماتنداح دائرة
فى صفحة الماء ترمى فيه بالحجر

وقد أثير حول هذه الآية مبحث شكل الأرض أمبسوطة هى أم كروية مستديرة ؟

وإذا رجعنا إلى أمهات كتب اللغـة نجد الآتى :

أولا : فى مفردات الراغب : قال دحاها ، أزالها من موضعها ومقرها .

ومنه قولهم : دحا المطر الحصى من وجه الأرض أى جرفهـا ، ومر الفرس يدحو دحواً : إذا جر يده على وجه الأرض فيدحو ترابها .

ومنه أدحى النعام ، وقال : الطحو كالدحو ، وهو بسط الشىء والذهاب به والأرض وما طحاها ، وأنشد قول الشاعر :

* طحا بك قلب فى الحسان طروب *

أى ذهب بك .

وفى معجم مقاييس اللغـة ، مادة دحو : الدال والحاء والواو أصل واحد يدل على بسط وتمهيد .

يقال : دحى الله الأرض يدحوها دحواً إذا بسطها .

ويقال : دحا المطر : الحصا عن وجه الأرض ، وهذا لأنه إذا كان كذلك فقد مهد الأرض .

ويقال للفرس ، إذا رمى بيده رمياً لا يرفع سنبكه عن الأرض كثيرا : حرّ يدحو دحواً ، ومن البـاب أدحى النعام الموضع الذى يفرخ فيـه

أفعول من دحوت ، لأنه يدحوه برجله ثم يبيض فيه ، وليس للنعامة عش .

وفى لسان العرب مادة دحا ، والدحو : البسط ، دحى الأرض يدحوها دحواً : بسطها.

وقال الفراء فى قوله عز وجل (والأرض بعد ذلك دحاها) قال بسطها ، وذكر الأدحى مبيض النعام فى الرمل ، لأن النعامة تدحوه برجلها ، ثم تبيض فيه .

وذكر حديث ابن عمر : فدحا السيل فيه بالبطحاء ، أى رمى وألقى .

قال : وسئل ابن المسيب عن الدحو بالحجارة ، فقال : لابأس به ، أى المراماة بها والمسابقة .

وعن ابن الأعرابى : هو يدحو بالحجر ، أى يرمى به ويدفعه ، والداحى : الذى يدحو الحجر بيده ، وأنشد لأوس بن حجر بمعنى ينزع قوله :

ينزع جلد الحصا أحسين مبترك كأنه فاحص أو لاعب داح؟

وفى حديث أبى رافع : « كنت ألاعب الحسن والحسين رضوان الله عليهما بالمداحى ، هى أحجار أمثال القرصة ، كانوا يحفرون حفرة يدحون فيها بتلك الحجارة ، فإذا وقع الحجر فيها غلب صاحبها ، وإن لم يقع غلب .

والدحو : هو رمى اللاعب بالحجر والجوز وغيره . اهـ.

وما ذكره صاحب اللسان عن أبى رافع لازال موجودا حتى الآن بالمدينة ، ويسمى الدحل باللام ، كما وصف تماما .

وبعد إيراد أقوال أصول مراجع اللغة ، وما تقدم من أقوال المفسرين . فإننا نواجه الجدل القائم بين بعض علماء الهيئة ، وبعض العلماء الآخرين ، فى موضوع شكل الأرض ، ولعلنا نوفق بفضل من الله إلى بيان الحقيقة فى ذلك ، حتى لايظن ظانّ تعارض القرآن ، وما يثبت من علوم الهيئة أو يغتر جاهل بما يقال فى الإسلام .

وبتأمل قول المفسرين نجدها متفقة فى مجموعها : بأن دحاها مهدها وسهل الحياة عليها ، وذكر لوازم التمكين من الحياة عليها من إخراج الماء ، والمرعى ، ووضع الجبال ، وهو المتفق مع نصوص القرآن فى قوله : (ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتادا) .

وقوله : (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) .

وكل ذلك من باب واحد ، وهو تمهيدها والتمكين للعيش عليها ، وليس فيه معنى التكوير والاستدارة .

وإذا جئنا إلى كتب اللغة نجدها كلها ، تنص على أن الدحو :

البسط ، والرمى ، والإزالة ، والتمهيد ، فالبسط والتمهيد والرمى بالحجر المستدير فى الحفرة الصغيرة معانٍ مشتركة ؟ وكلها تفسر دحاها ، بمعنى بسطها ومهدها . وأن الأدحية مبيض النعام لا بيضه ، كما يقولون . وسمى بذلك لأنها تدحوه بيدها لتبيض فيه ، إذ لا عش لها .

وعليه ، فلا دليل من كتب اللغة على أن الدحو هو التكوير ، ولكن ما قول العلماء فى شكل الأرض ، بصرف النظر عن كون القرآن تعرض له أو لم يتعرض ؟

إذا رجعنا إلى كلام من نظر فى علم الهيئة من المسلمين ، فإنا نجدهم متفقين على أن شكل الأرض مستدير .

وقبل إيراد شىء من أقوالهم ننبه على أنه لا علاقة لهذا البحث بموضوع الحركة ، سواء للأرض أو غيرها ، فذاك بحث مستقل ، ليس هذا محله ، وإنما البحث فى الشكل .

أما أقوال العلماء فى شكل الأرض ، فإن أجمع ما وقفت عليه ، وأصرح وأبين ، هو كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى رسالة الهلال ، جاء فيها : قال فى موضع منها قوله ، وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع من علماء الأمة ، أن الأفلاك مستديرة ، قال تعالى : (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر) وقال : (وهو الذى

خلق الليل والنهار والشمس والقمر فى فلك يسبحون) وقال تعالى : (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) .

قال ابن عباس : فى فلكة مثل فلكة المغزل . وهكذا هو فى لسان العرب : الفلك الشىء المستدير . ومنه يقال : تفلك ثدى الجارية إذا استدار . قال تعالى : (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) والتكوير هو التدوير . ومنه قيل : كار العمامة وكورها ، ولهذا يقال للأفلاك : كروية الشكل ؛ لأن أصل الكرة كورة تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفا .

وقال : (والشمس والقمر بحسبان) مثل حسبان الرحى ، وقال : (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) وهذا إنما يكون فيما يستدير من أشكال الأجسام دون المضلعات من المثلث أو المربع أو غيرهما ، فإنه يتفاوت لأن زواياه مخالفة لقوائمه .

والجسم المستدير متشابه الجوانب والنواحى ، ليس بعضه مخالفاً لبعض .

وجاء فيها قوله أيضاً : وقال الإمام أبو الحسين أحمد بن جعفر بن المنادى ، من أعيان العلماء المشهورين بمعرفة الآثار والتصانيف الكبار ، فى متون العلوم الدينية من الطبقة الثانية من أصحاب أحمد : لاخلاف بين العلماء أن السماء على مثال الكرة ، وأنها تدور بجميع ما فيها

من الكواكب ، كدورة الكرة على قطبين ثابتين غير متحركين ، أحدهما فى الشمال ، والآخر فى ناحية الجنوب .

قال : ويدل على ذلك أن الكواكب جميعها تدور من المشرق تقع قليلا على ترتيب واحد فى حركتها ومقادير أجزائها ، إلى أن تتوسط السماء ، ثم تنحدر على ذلك الترتيب ، فكأنها ثابتة فى كرة تديرها جميعها دوراً واحداً .

هذه نبذة من أقوال علماء المسلمين فى شكل الأفلاك ، ثم قال : وهذا محل القصد بالذات ، وكذلك أجمعوا على أن الأرض بجميع حركاتها من البر والبحر مثل الكرة .

قال : ويدل عليه أن الشمس والقمر والكواكب ، لا يوجد طلوعها وغروبها على جميع من فى نواحى الأرض فى وقت واحد ، بل على المشرق قبل المغرب .

قال : فكرة الأرض مثبتة فى وسط كرة السماء ، كالنقطة فى الدائرة ، يدل على ذلك أن جرم كل كوكب يرى فى جميع نواحى السماء ، على قدر واحد ، فيدل ذلك على بعد ما بين السماء والأرض من جميع الجهات بقدر واحد ، فاضطرار أن تكون الأرض وسط السماء اهـ . بلفظه .

فهذا نقل لإجماع الأمة ، من إمام جليل فى علمى المعقول والمنقول ،

على أن الأرض على شكل الكرة ، وقد ساق الأدلة الاضطرارية من حركة الأفلاك على ذلك .

ومن جهة العقل أيضاً يقال : إن أكمل الأجرام هو المستدير كما قال فى قوله : (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) .

وعليه ، فلو قدر لسائر على وجه الأرض ، وافترضنا الأرض مسطحة كسطح البيت أو القرطاس مثلا ، لكان لهذا السائر من نهاية ينتهى إليها ، وهى منتهى التسطيح أو يسقط فى هاوية ، وباعتبارها كرة ، فإنه يكمل دورته ، ويكررها ولو سار طيلة عمره لما كان لمسيره منتهى ، لأنه يدور على سطحها من جميع جهاتها . والعلم عند الله تعالى .

تنبيـــه

كان من الممكن أن نقدم هذه النتيجة من أول الأمر مادامت متفقة فى النهاية مع قول علماء الهيئة ، ولا نطيل النقول من هنا وهناك ، ولكن قد سقنا ذلك كله لغرض أعم من هذا كله ، وقضية أشمل وهى من جهتين :

أولاهما : أن علماء المسلمين مدركون ما قال به علماء الهيئة ،

ولكن لا من طريق النقل أو دلالة خاصة على هذه الجزئية من القرآن، ولكن عن طريق النظر ، والاستدلال ، إذ علماء المسلمين لم يجهلوا هذه النظرية ، ولم تخف عليهم هذه الحقيقة .

ثانيتهما : مع علمهم بهذه الحقيقة وإدراكهم لهذه النظرية ، لم يعز واحداً منهم دلالتها النصوص الكتاب أو السنة .

وبناء عليه نقول : إذا لم تكن النصوص صريحة فى نظرية من النظريات الحديثة ، لا ينبغى أن نقحمها فى مباحثها نفياً أو إثباتاً ، وإنما نتطلب العلم من طريقه ، فعلوم الهيئة من النظر الاستدلال ، وعلوم الطب مَن التجارب والاستقراء ، وهكذا يبقى القرآن مصاناً عن مجال الجدل فى نظرية قابلة للثبوت والنفى ، أو التغيير والتبديل ، كما لا ينبغى لمن لم يعلم حقيقة أمر فى فنه أن يبادر بإنكارها مالم تكن مصادمة لنص صريح .

وعليه أن يتثبت أولا وقد نهنا سابقا على ذلك فى مثل ذلك فى قصة نبى الله سليمان مع بلقيس والهدهد حينما جاءه ، فقال : (أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبإ بنبإ يقين) وقصّ عليه خبرها مع قومها ، فلم يبادر عليه السلام بالإنكار . لكون الآتى بالخبر هدهداً ، ولم يكن عنده علم به ولم يسارع أيضاً بتصديقه ، لأنه ليس لديه مستند عليه ، بل أخذ فى طريق التثبت بواسطة الطريق الذى

جاءه الخبر به قال : (سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين) ، وأرسله بالكتاب إليهم ، فإذا كان هذا من نبي الله سليمان ولديه وسائل وإمكانيات كما تعلم ؛ فغيره من باب أولى .

تنبيه آخر

إذا كان علماء الإسلام يثبتون كروية الأرض ، فماذا يقولون فى قوله تعالى : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت - إلى قوله - وإلى الأرض كيف سطحت) . وجوابهم كجوابهم على قوله تعالى : (حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة) أى فى نظر العين ، لأن الشمس تغرب عن أمة ، وتستمر فى الأفق على أمة أخرى ، حتى تأتى مطلعها من الشرق فى صبيحة اليوم الثانى ، ويكون بسط الأرض وتمهيدها ، نظراً لكل إقليم وجزء منها لسعتها وعظم جرمها .

وهذا لايتنافى مع حقيقة شكلها ، فقد نرى الجبل الشاهق ، وإذا تسلقناه ووصلنا قمته وجدنا سطحاً مستوياً ، ووجدنا أمة بكامل لوازمها ، وقد لا يعلم بعض من فيه عن بقية العالم ، وهكذا ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ .

العشية : ما بين الزوال إلى الغروب ، والضحى : ما بين طلوع الشمس إلى الزوال ، وهذا تحديد بنصف نهار .

وقد جاء التحديد بساعة من نهار .

وجاء (يوماً أو بعض يوم .

وجاء : (إن لبثتم إلا عشراً) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك عند قوله تعالى فى سورة يونس : (ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار) ، وأحال على دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، وسيطبع إن شاء الله مع هذه التتمة .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة عبس

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ، أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ .

سبب نزول هذه السورة باتفاق المفسرين ، أنه صلى الله عليه وسلم كان مشغولا بدعوة صناديد قريش ، فأتاه ابن أم مكتوم ، وهو رجل أعمى وقال : « أقرئنى يا رسول الله ، وعلّمنى مما علمك الله » وكرر ذلك ، فلم يتفق ذلك وما هو مشتغل به صلى الله عليه وسلم ، ومايرجوه مما هو أعظم ، فعبس وتولى عنه منصرفا ، لما هو مشتغل به .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى دفع إيهام الاضطراب على قوله تعالى : (أن جاءه الأعمى) ما نصه : عبّر تعالى عن هذا الصحابى الجليل الذى هو عبد الله ابن أم مكتوم ، بلقب يكرهه الناس ، مع أنه قال : (ولا تنابزوا بالألقاب) .

والجواب : هو مانبه عليه بعض العلماء : من أن السر فى التعبير عنه بلفظ الأعمى ، للاشعار بعذره فى الإقدام على قطع كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأنه لو كان يرى ما هو مشتغل به مع صناديد الكفار لما قطع كلامه . اهـ . منه بلفظه .

وقال الفخر الرازى : إنه وإن كان أعمى لا يرى ، فإنه يسمع وبسماعه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإقدامه على مقاطعته يكون مرتكبا معصية ، فكيف يعاتب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فكلامه هذا يشعر بأنه إن كان معذوراً لعدم الرؤية ، فليس معذوراً لإمكان سماعه ، ولكن ذكره بوصفه ليوجب العطف عليه والرفق به .

والظاهر والله تعالى أعلم : أن كلام الرازى ليس بعيداً عما ذكره الشيخ ، لأن معناه أنه عاتبه لعدم رفقه به . ومراعاة حالة عماه .

فعليه ، يكون ذكره بهذا الوصف من باب التعريض بغيره من أولئك الصناديد وسادة القوم ، وكأنه يقول لهم : (إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) ، فهذا كفيف البصر ، ولكن وقاد البصيرة أبصر الحق وآمن ، وجاء مع عماه يسعى طلباً للمزيد ، وأنتم تغلقت قلوبكم وعميت بصائركم فلم تدركوا الحقيقة ولم تبصروا نور الإيمان ، كما فى الآية الكريمة : (إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) والعلم عند الله تعالى .

تنبيـه

مما اتفق عليه المحدثون : جواز ذكر مثل هـذه الأوصاف إذا كانت للتعريف لا للتنقيص ، فقالوا : الأعمى والأعور والأعرج . وفى الحرف قالوا : الخراز ، والخرقى ، ونحو ذلك ، وهذا ما فيه مصلحة لترجمة الرجال فى السند .

ومثله : ليس تنابزاً بالألقاب فى هذا الفن . والله تعالى أعلم .

ومثله : إذا كان للتعريف فى غرض سليم دون تنقص كما قدمنا .

وقوله تعالى (عبس وتولى) ، فان فيه مثل مافى قوله تعالى : (أن جاءه الأعمى) لأن العبوسة أمر لايتفق فى الظاهر مع قوله تعالى فى حقه صلى الله عليه وسلم ، (وإنك لعلى خلق عظيم) ، وقوله : (واخفض جناحك للمؤمنين) ؛ ولم أقف على جواب لذلك ، ولم يتعرض له الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى دفع إيهام الاضطراب .

والذى يظهر والله تعالى أعلم ، أنه لايتأتى معـه ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يتكلم بما يسىء إلى هـذا الصحابى فى نفسه بشىء يسمعه فيزعجه ، كل ما كان منه صلى الله عليه وسلم إنما هو تقطيب الجبين ، وهذه حركة مرئية لامسموعة .

والحال : أن هذا أعمى لايرى تلك الحركة ، فكأنه لم يلق إساءة منه صلى الله عليه وسلم .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم مطمئن له لما هو عليه من خير فى دينه. كما قال فى حنين: وأكل أقواما إلى مافى قلوبهم، أى لما أعطى المؤلفة قلوبهم، ولم يعط الأنصار على ماهو معروف فى القصة، فلم يعاتبه الله على ذلك؛ ورضى الأنصار وبكوا فرحاً ورضا.

ثم إن تقطيب الجبين وانبساط أسارير الوجه لحزن أو فرح، يكاد يكون جبليا مما كان منه صلى الله عليه وسلم، فهو من باب الجبلية تقريباً، كأن المثير له غرض عام من خصوص الرسالة ومهمتها.

ومع ذلك فقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان بعد نزولها يقول له: «مرحباً فيمن عاتبنى فيه ربى»، ويكرمه، وقد استخلفه على المدينة مرتين.

وعلى هذا يكون المراد بهذا أمران:

الأول: التسامى بأخلاقه صلى الله عليه وسلم إلى ما لانهاية له، إلى حد اللحظ بالعين، والتقطيب بالجبين، ولو لمن لا يراه، كما قال صلى الله عليه وسلم «ما كان لنبى أن تكون له خائنة الأعين» وذلك فى صلح الحديبية.

والثانى: تأديب للأمة وللدعاة خاصة، فى شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما علمهم فى شخصيته فى بر الوالدين، فى قوله تعالى: (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما).

وهذا السياق بكامله من أول السورة إلى قوله تعالى : (كلا إنها تذكرة ، فمن شاء ذكره) بيان لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يراعى فى الدعوة إلى الله غنياً ولا فقيرا ، وأن يصبر على ضعفة المؤمنين . لأن الرسالة تبليغ وليس عليه ما وراء ذلك من مسئولية ، فلا يتكلف لهم .

وقد حثه الله تعالى على الصبر مع المؤمنين ، لإيمانهم فى قوله تعالى : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ، وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) .

ومثله قوله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شىء ومامن حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين) .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، شىء من هذا البيان عند هذه الآية ، وبين أن هذه التنبيه قد وقع من نبى الله نوح إلى قومه ، حينما ازدروا ضعفة المؤمنين فى قوله تعالى : (فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادِيَ الرأى ـ إلى قوله ـ وأما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوماً تجهلون) .

وقد دلت هذه الآية وأمثالها ، على صدق مقالة هرقل حينما سأل أبا سفيان ، عن أتباع محمد صلى الله عليه وسلم : أهم سادة القوم أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم . فقال : هكذا هم أتباع الرسل .

وقال العلماء فى ذلك : لأنهم أقرب إلى الفطرة ، وأبعد عن السلطان والجاه ، فليس لديهم حرص على منصب يضيع ، ولا جاه يهدر ، ويجدون فى الدين عزاً ورفعة ، وهكذا كان بلال وصهيب وعمار ، وهكذا هو ابن أم مكتوم رضى الله عنهم .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ، فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ، وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾ .

بيان لموقفه صلى الله عليه وسلم من جميع الأمة ، وحرصه على إسلام الجميع حتى من أعرض واستغنى ، شفقة بهم ورحمة ، كما بين تعالى حاله صلى الله عليه وسلم بقوله : (عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم) وكقوله (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) .

وقوله : (وما عليك ألا يزكى) بيان أنه صلى الله عليه وسلم ليس عليه ممن لا يتزكى ، وقد صرح تعالى بذلك فى قوله (إنما أنت منذر) وقوله (إن عليك إلا البلاغ) ، وقوله : (ليس عليك هداهم) ، ومثل ذلك .

وقد جمع الأمرين من الجانبين فى قوله تعالى عن نوح عليه السلام (وما أنا بطارد المؤمنين إن أنا إلا نذير مبين) .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ، فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ، فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ، مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ، بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ، كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ .

معلوم أن كلمة : كلا : ردع عما سبق ، وهو فى جملته منصب على التصدى لمن استغنى ؟ والإلحاح عليهم والحرص على سماعهم منه ، ولكن الله تعالى يقول : إن منزلة القرآن والوحى والدين أعلى منزلة من أن تبذل لقوم هذه حالتهم فهى على ما هى عليه من تكريم ورفعة وطهرة وصيانة ، وما عليها من حفظة سفرة كرام برررة أحرى بأن يسعى إليها ، والخير لمن أتاها يطلبها

(فمن شاء ذكره) ، وهذا للتهديد لا للتخيير بدليل ما بعده (قتل الإنسان ما أكفره) قتل الإنسان : دعاء عليه ، والإنسان : للجنس الكافر ، وما أكفره : أى ما أشد كفره بها ، بعد هذا كله من علو منزلتها .

وقوله تعالى : (قتل الإنسان ما أكفره) قيل : ما أكفره هنا ، ما أفعله أى ما أشد كفره .

وقال الزمخشرى : هى تعجب من إفراطه فى كفران نعم الله .

وقيل : أى شىء حمله على التكذيب والكفر ؟ وكلها محتملة .

ولعل المعنى الأول أظهر لقوله قبله : قتل الإنسان ، ولمجىء هذا المعنى فى مواضع أخر : إن الإنسان لظلوم كفار ، وكذلك فعول فى قوله : (وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور) ، وهكذا صفة الجاحدين لآيات الله ، كما فى قوله (وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور) .

ثم رد تعالى عليه ذلك برده إياه إلى أصل خلقته ، ليتعظ من نفسه فى قوله تعالى (من أى شىء خلقه . من نطفة خلقه فقدّره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره) ، لأن هذه الثلاثة مسلم بها ، ورتب عليها الرابعة (ثم إذا شاء أنشره) .

وقوله : (من نطفة خلقه فقدره) تقدم مراراً بيان أصل خلق الإنسان وأطواره .

وقوله : (ثم السبيل يسره) قيل : السبيل إلى خروجه من بطن أمه ، حيث أدار رأسه إلى جهة الخروج ، بدلا مما كان عليه إلى أعلى ، وهذا من التيسير فى سبيل خروجه ، وهذا مروى عن ابن عباس وغيره ، وهو اختيار ابن جرير .

وقيل : السبيل : أى الدين فى وضوحه ، ويسر العمل به ، كقوله تعالى : (إنا هديناه السبيل ، إما شاكراً وإما كفوراً)

وهو مروى عن الحسن وابن زيد ، ورجحه ابن كثير .

ولعل ما رجحه ابن كثير هو الأرجح ، لأن تيسير الولادة أمر عام فى كل حيوان ، وهو مشاهد ملموس ، فلا مزية للانسان فيه على غيره ، كما أن ما قبله دال عليه أو على مدلوله ، وهو القدرة فى قوله تعالى : (من نطفة خلقه فقدره)

وقد يكون تيسير الولادة داخلا تحت قوله : فقدره . أى قدر تخلقه وزمن وجوده وزمن خروجه ، وتقديرات جسمه وقدر حياته ، وقدر مماته ، كما هو معلوم .

أما تيسير سبيل الدين ، فهو الخاص بالإنسان . وهو المطلوب التوجه إليه . وهو الذى يتعلق بغيره ما بين تخلقه من نطفة وتقديره . وبين إماتته وإقباره . أى فترة حياته فى الدنيا ، أى خلقه من نطفة وقدر مجيئه إلى الدنيا . ويسر له الدين فى التكاليف . ثم أماته ليرى ماذا عمل (ثم إذا شاء أنشره) .

ولذا جاء فى النهاية بقوله : كلا لما يقض ما أمره . وليس هنا ما يدل على الأمر . إلا السبيل يسره . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ، أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ

صَبًّا ، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ، فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ، وَعِنَبًا وَقَضْبًا ، وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ، وَحَدَائِقَ غُلْبًا ، وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ .

بعد ما بين له مم خلق ، بين له هنا كيف يطعمه ، وفى كليهما آية على القدرة .

وقد اتفقت الآيتان على خطوات ثلاث متطابقة فيهما . فصب الماء من السماء إلى الأرض . يقابل دفق الماء فى الرحم . وشق الأرض للنبات . يقابل خروجه إلى الدنيا . وإنبات أنواع النباتات ، يقابل تقادير الخلق المختلفة .

وفى التنصيص على أنواع النبات من حب وقضب وعنب ورمان وزيتون ونخيل وفواكه متعددة . وحدائق ملتفة . لظهور معنى المغايرة فيها ، مع أنها من أصلين مشتركين : الماء من السماء . والتربة فى الأرض ، يسقى بماء واحد .

ومرة أخرى . يقال للشيوعيين والدهريين : (قتل الإنسان ما أكفره . من أى شىء خلقه) . (أفرأيتم ماتمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون . نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين) . (أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاماً) .

إنهم بلا شك لايدعون لأنفسهم فعل شىء من ذلك . وإنهم ليعلمون أن لها خالقاً مدبراً . ولكنهم يكابرون .

(وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) صدق الله العظيم ، وكذب كل كفار أثيم .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان خلق الإنسان فى مواطن متعددة سابقة آخرها فى سورة الرحمن (خلق الإنسان من صلصال كالفخار) ، وبيان طعامه فى كل من سورتى الواقعة والجاثية .

قوله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ، ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ .

الإسفار : الإضاءة ، وهو تهلل الوجه بالسرور ، كما قال تعالى : (ولقاهم نضرة وسروراً) والاستبشار من تقدم البشرى فى قوله تعالى : (تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) .

وقوله تعالى : (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بُشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار).

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك فى سورة الحديد .

وقوله تعالى : (ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة) بينهم تعالى بأنهم هم الكفرة الفجرة .

وتقدم بيان ذلك للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، فى سورة الرحمن على الكلام على قوله تعالى : (يعرف المجرمين بسيماهم) .

وقد جمع لهم هنا بين الكفر والفجور ، وهما الكفر فى الاعتقاد والفجور فى الأعمال ، كما فى قوله تعالى : (ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) والعلم عند الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التكوير

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ .

اختلف فى معنى كورت هنا أكثر من عشرة أقوال ، وكلها تدور على نهاية أمرها :

فقيل : كورت : لف بعضها على بعض ، فانطمس نورها .

وقيل : حجبت بكارة ، أى لفت بها .

وقيل : ألقيت فى البحر .

وقيل : دخلت فى العرش

وقيل : اضمحلت .

وقيل : نكست .

وقال ابن جرير : نقول كما قال الله تعالى : (كورت) .

والذى يشهد له القرآن ، أن هذا كله راجع إلى تغير حالها فى آخر أمرها ، لأن الله تعالى جعل لها أجلا مسمى ، ومعنى ذلك أنها تنتهى إليه على الوجه الذى يعلمه سبحانه وتعالى ، كما فى قوله تعالى : (وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى) .

فمفهومه : أنه إذا جاء هذا الأجل توقفت عن جريانها .

وهو ما يشير إليه قوله تعالى : (فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر) أى بعد أن لم يجتمعا قط ، وما كان لهما أن يجتمعا قبل ذلك الوقت ، كما قوله تعالى (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون) .

ولعل أقرب الأقوال المنقولة فى ذلك : هو القول بأنه بمعنى نكست . أى ردت إلى حيث أتت ، كما فى الحديث ، فتطلع من مغربها ، وعليه فتجتمع مع القمر .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾ .

قيل : انكدرت انصبت ، وقيل: تغيرت من الكدرة ، وكلها متلازمة ولا تعارض .

ويشهد للأول قوله تعالى : (وإذا الكواكب انتثرت) .

ويشهد للثانى (فإذا النجوم طمست) لأنها إذا تناثرت وذهبت من أماكنها وتغير نظامها ، فقد ذهب نورها وطمست .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ .

أى ذهب بها من مكانها .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى بينا وعليه ، بيان حالة الجبال

فى نهاية الدنيا فى عدة مواطن . من أهمها عند قوله تعالى فى سوررة طه (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا) ، وعنـد قوله تعالى من سورة السكهف : (ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ، بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ .

الوأد : الثقل ، كما فى قوله تعالى : (ولا يؤوده حفظهما) .

والموءودة : المثقـــلة بالتراب حتى الموت ، وهى الجارية ، كانت تدفن حية ، فكانوا يحفرون لها الحفرة ويلقونها فيها ، ثم يهيلون عليها التراب .

وقوله تعالى (: بأى ذنب قتلت) إشعار بأنه لاذنب لها ، فتقتل بسببه ، بل الجرم على قاتلها .

ولـكن لعظم الجرم يتوجه السؤال إليها تبكيتاً لوائدها .

وقد جاء عن عمر رضى الله عنه قوله : أمران فى الجاهلية . أحدهما : يبكينى والآخر يضحكنى .

أما الذى يبكينى : فقد ذهبت بابنة لى لوأدها ، فكنت أحفر لهـا الحفرة وتنفض التراب عن لحيتى وهى لاتدرى ماذا أريد لهـا ، فإذا تذكرت ذلك بكيت .

والأخرى : كنت أصنع إلهـاً من التمر أضعه عند رأسى يحرسنى ليلا ، فإذا أصبحت معافًى أكلته ، فاذا تذكرت ذلك ضحكت من نفسى.

أما سبب إقدامهم على هذه الجريمة الشنيعة وما دفعهم على ارتكابها ، فقد ناقشه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بتوسع ، عند قوله تعالى من سورة النحل (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون ، وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء مابشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألاساء مايحكمون) .

وبهذه المناسبة ، فإن هنا تنبيهين لابد من إيرادهما .

الأول منهما : مايشبه الوأد فى هذه الآونة الحديثة ، وهو التعرض لمنع الحمل بأى وسيلة كانت .

وقد بحثت هذه المسألة قديماً وحديثاً . أما قديماً ففى عملية العزل ، وجاء فيه حديث جابر « كنا نعزل والقرآن ينزل » رواه مسلم .

زاد إسحاق قال سفيان : لو كان شيئا ينهى عنه لنهانا عنه القرآن . وجاء فيه : فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا .

كما جاء التحذير الشديد فى حديث حذامة بنت وهب أخت عكاشة قالت : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أناس قال : « لقد هممت أن أنهى عن الغيلة فنظرت فى الروم وفارس فإذا هم يغيلون أولادهم فلا يضر أولادهم ذلك شيئاً » ، فسألوه عن العزل ، فقال : « ذلك الوأد الخفى »

زاد عبد الله فى حديثه عن المقرى زيادة وهى : وإذا الموءودة سئلت

فى الحديث الأول : مايفيد التقرير .

وفى الثانى : مايفيد شدة النكير .

وجاء فى صحيح مسلم أيضاً عن أبى سعيد « غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة بنى المصطلق ، فسبينا كرائم العرب ، فطالت علينا الغربة ، ورغبنا فى الفداء ، فأردنا أن نستمتع ونعزل ، فقلنا : نفعل ذلك ؟ ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ، لانسأله ، فسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لاعليكم ألا تفعلوا ما كتب الله خلق نسمة هى كائنة إلى يوم القيامة إلا ستكون » .

وفى رواية : « إن الله كتب من هو خالق إلى يوم القيامة »

وفى رواية : « فقال لنا : وإنكم لتفعلون ، وإنكم لتفعلون ، وإنكم لتفعلون . مامن نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا هى كائنة »

وفى رواية : « لاعليكم ألا تفعلوا ، فإنما هو القدر » .

قال أبو محمد : وقوله : لاعليكم أقرب إلى النهى .

وقال الحسن : والله لكان هذا زجراً ، فأنت ترى قوله صلى الله عليه وسلم : وإنكم لتفعلون ، مشعر بعدم علمه سابقاً ، مما يتعارض مع

الزيادة فى حديث جابر ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا ، فبقى قول جابر ، مما يستدل به المجوزون ، ويعارضه : وهى الموءودة ، أو الوأد الخفى .

وكان للوأد عند العرب فى الجاهلية سببان :

الأول : اقتصادى ، خشية إملاق ، ومن إملاق حاضر .

والثانى : حمية وغيرة .

وقد رد القرآن عليهم فى السبب الأول ، فى قوله تعالى : (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا) .

وقوله : (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) .

وأخيراً كان هذا التساؤل شديد التوبيخ لهم ، (وإذا الموءودة سئلت) .

وفى هـذه الآية أثيرت مرة أخرى وبشكل آخر أثارها أعداء المسلمين مكيدة للسذج ، فأثيرت من الناحية الاقتصادية .

وكان مبدؤها المعروف عند كتاب هذا العصر بنظرية « مالتس » والآن لغرض عسكرى لتقليل عدد جنود المسلمين ، حينما علم العدو أن الإسلام يبيح تعدد الزوجات مثنى وثلاث ورباع ، فأرادوا أن يوقفوا هذا النمو .

ويكفى أن نورد هنا قوله صلى الله عليه وسلم : « تناكحوا تناسلوا فإنى مباهٍ بكم الأمم » .

وفى رواية « مكاثر بكم الأمم » .

وفيه « تزوجوا الولود الودود » ونحو ذلك .

وقد كنت جمعت فى ذلك بحثاً فى محاضرة وافية فى هذا الغرض ، من حيث السياسة والاقتصاد ، والدفاع مع عمل إحصائيات للدول التى تطالب بهذا العمل ، مما يدفع رأى كل قائل به .

والذى يهمنا فى هذا المقام تنبيه المسلمين ، إلى أن هذه الدعوة إلى تحديد أو تنظيم النسل منشؤها من اليهود ، وتشجيعها فى الشرق من دول الغرب ، وكثير من الدول الغربية تبذل المال الطائل لتفشى هذا الأمر فى دول الشرق الأوسط وخاصة الإسلامية والعربية .

التنبيه الثانى

وهو حول مايصرح به دعاة تحرير المرأة فى صورة مناصرة لها ، والواقع أنهم دعاة شقائها ومعاداة لها ، وهدم لما مكنها الله منه فى ظل الإسلام .

وذلك أن المرأة فى الجاهلية كانت هذه حالة من حالاتها توأد حية ، وتورث كالمتاع ، ومهملة الشخصية إلى غير ذلك . فحباها الإسلام مايثبت شخصيتها ابتداء من إيفائها حقها فى الحياة كالرجل ، ثم اختيارها فى الزواج ، وحقها فى الميراث إلى غير ذلك .

وقد تقدم الحديث عن ذلك فى عدة محلات ، منها للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، عند قوله تعالى : (الرجال قوامون على النساء) .

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان هذا المعنى عند الكلام على قوله تعالى من سورة الحج : (ومن الناس من يجادل بغير علم ويتبع كل شيطان مريد كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير) .

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ .

الزلفى : القربى ، وأزلفت : قربت ، وتقدم بيان ذلك للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة قٓ عند قوله تعالى : (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد) .

قوله تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ .

المراد بالنفس هنا : العموم ، أى كل نفس ، كما فى قوله تعالى : (يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا) الآية .

قوله تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ، ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ، وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ، وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ، إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ .

ظاهر قوله تعالى : (فلا أقسم) نفى القسم ، ولكنه قسم قطعا ،

بدليل التصريح بجواب القسم فى قوله تعالى : (إنه لقول رسول كريم) .

وبهذا يترجح ماتقدم فى أول سورة القيامة (لا أقسم بيوم القيامة) .

ومثل الآتى (لا أقسم بهذا البلد) .

تنبيـــــه

يجمع المفسرون أن لله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته ، لأنها دالة على قدرته ، وليس للمخلوق أن يحلف لا بالله تعالى .

ولكن هل فى المغايرة بما يقسم الله تعالى به معنى مقصود ، أم لمجرد الذكر ، وتعدد المقسم به ؟

وبعد التأمل ، ظهر والله تعالى أعلم ، أنه سبحانه لا يقسم بشىء فى موضع دون غيره ، إلا لغرض يتعلق بهذا الموضع ، يكون بين المقسم به ، والمقسم عليه مناسبة وارتباط ، وقد يظهر ذلك جلياً ، وقد يكون خفياً .

وهذا فعلا ماتقتضيه الحكمة والإعجاز فى القرآن ، وإن كنت لم أقف على بحث فيه .

ولكن مما يشير إلى هذا الموضوع ، ماجاء بالإقسام بمكة مرتين ، وفى حالتين متغايرتين .

الأولى : قوله تعالى : (لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ووالد وما ولد لقد خلقنا الإنسان فى كبد) .

والموضع الثانى : قوله تعالى : (والتين والزيتون وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ، لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) .

فالمقسم به فى الموضعين : مكة المكرمة ، والمقسم عليه فى الموضعين خلق الإنسان ، ولكن فى الموضع الأول كان المقسم عليه مكابدة الإنسان من أول ولادته إلى نشأته ، إلى كده فى حياته ، إلى نهايته ومماته .

من ذلك مكابدته صلى الله عليه وسلم منذ ولادته إلى حيث مات أبوه قبله ، ولحقت به أمه ، وهو فى طفولته ، وبعد الوحى كابد مع قومه ولقى منهم عنتاً شديداً ، حتى تآمروا على قتله ، فكأنه يقول له : اصبر على ذلك ، فإن المكابدة لابد منها ، وهى ملازمة للانسان كملازمتك لهذا البلد منذ ولادتك .

وفى ذكر (والد وما ولد) إشعار ببدء المكابدة ، وبأشدها من حالة الولادة وطبيعة الطفولة ، ولذا ذكر هنا هذا البلد بدون أى وصف .

أما فى الموضع الثانى : فالمقسم عليه ، وإن كان هو خلق الإنسان ، إلا أنه فى أحسن تقويم ، وهى أعظم نعمة عليه جاء بالمقسم به عرضا

للنعم ، وتعددها من التين والزيتون ، سواء كان المراد بهما الفاكهة المذكورة أو أماكنها ، وهو بيت المقدس مع طور سينين .

فجاء بمكة أيضًا ولكن بوصف مناسب فقال : (وهذا البلد الأمين) ، فكأنه يقول : إن من أنعم على تلك البقاع بالخير والبركة والقداسة ، أنعم على الإنسان بنعمة حسن خلقته وحسن تقويمه وفضله على سائر مخلوقاته . والله تعالى أعلم .

وهنا يقسم بحالات الكواكب على أصح الأقوال ، فى ظهورها واختفائها وجريانها ، وبالليل إذا عسعس : أقبل وأدبر ، أو أضاء وأظلم ، والصبح إذا تنفس : أى أظهر وأشرق ، وهما أثران من آثار الشمس فى غروبها وشروقها .

والمقسم عليه : هو أن القرآن قول رسول كريم كأنه يقول : إن القرآن المقسم عليه حاله فى الثبوت والظهور ، وحال الناس معه . كحال هذه الكواكب الثوابت لديكم فى ظهورها تارة ، واختفائها أخرى .

وكحال الليل والصبح ، فهو عند أناس موضع ثقة وهداية كالصبح فى إسفاره ، قلوبهم متفتحة إليه وعقولهم مهتدية به ، فهو لهم روح ونور ، وعند أناس مظلمة أمامه قلوبهم عمى عنه بصائرهم ، وفى آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى ، وأناس تارة وتارة كالنجوم أحيانًا ، وأحيانًا ، تارة ينقدح نوره فى قلوبهم ، فتظهر معالمه فيسيرون معه ، وتارة يغيب

عنهم نوره فتخنس عنه عقولهم وتكنس دونه قلوبهم ، كما قال تعالى عنهم : (كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا) .

وليس بعيداً أن يقال : إنه من وجه آخر ، تعتبر النجوم كالكتب السابقة ، مضى عليها الظهور فى حينها والخفاء بعدها .

والليل إذا عسعس : هو ظلام الجاهلية .

والصبح إذا تنفس : يقابله ظهور الإسلام ، وأنه سينتشر انتشار ضوء النهار ، ولا تقوى قوة قط على حجبه ، وسيعم الآفاق كلها ، مهما وقفوا دونه (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون) .

وقد يكون فى هذا الإيراد غرابة على بعض الناس ، ولاسيما وأنى لم أقف على بحث مستقل فيه ، ولا توجيه يشير إليه ، ولكن مع التتبع وجدت اطراده فى مواضع متعددة ، وجدير بأن يفرد برسالة

ومما اطرد فيه هذا التوجيه سورة الضحى ، يقول الله تعالى : (والضحى والليل إذا سجى ، ماودعك ربك وماقلى) فإن المقسم عليه عدم تركه صلى الله عليه وسلم ولا التخلى عنه ، فجاء بالمقسم به قسمى الزمن ليلا ونهاراً ، كأنه يقول له : ماقلاك ربك ولا تخلى عنك ، لا فى ضحى النهار حيث تنطلق لسعيك ، ولا فى ظلمة الليل حين تأوى إلى بيتك .

ومعلوم ما كان من عمه أبي طالب حينما كان يجعله ينام مع أولاده ليلا ، حتى إذا أخذ الجميع مضاجعهم يأتى خفية فيقيمه من مكانه . ويضع أحد أولاده محله ، حتى لو كان أحد نواه بسوء ، وقد رآه فى مكانه الأول يصادف ولده ، ويسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقوله : (وللآخرة خير لك من الأولى) أى من كل ماطلعت عليه الشمس وسجاه الليل .

ومنه أيضاً : وهو أشد ظهوراً فى سورة العصر قال تعالى : (والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا) إلى آخر السورة . فإن المقسم عليه هو حالة الإنسان ، الغالية عليه من خسر ، إلا من استثنى الله تعالى ، فكان المقسم به ، والعصر للعاصر للانسان : طيلة حياته وهو محل عمله ، الذى به يخسر ويربح ، وهو معاصر له وأصدق شاهد عليه .

وكنت قد سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه يقول : إن العمر وزمن الحياة حجة على الانسان كالرسالة والنذارة سواء ، وذكر قوله تعالى : (أو لم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) ، فجعل فى الآية التعمير ، وهو إشغال العمر موجباً للتذكر والتأمل ، ومهلة للعمل ، كما تخبر إنساناً بأمر ثم تمهله إلى أن يفعل ما مر به ، فهو أمكن فى الحجة عليه .

فكان القسم فى العصر على الربح والخسران ، أنسب مايكون بينهما ، إذ جعلت حياة الانسان كسوق قائمة والسلعة فيه العمل والعامل هو الانسان . كما قال تعالى : (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله) .

وفى الحديث الصحيح عند مسلم : « سبحان الله تملأ الميزان ، وفيه كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها ، فإن كان يشغل عمره فى الخير فقد ربح ، وأعتق نفسه وإلا فقد خسر وأهلكها » .

ويشير لذلك أيضاً قوله تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) .

فصح أن الدنيا سوق ، والسلعة فيها عمل الإنسان ، والمعاملة فيه مع الله تعالى ، فظهر الربط والمناسبة مع المقسم به ، والمقسم عليه .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ .

أجمعوا على أن المراد بالقول هو القرآن ، وأما المراد بالرسول الكريم جبريل عليه السلام بدليل قوله تعالى : (ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثمّ أمين . وما صاحبكم بمجنون) .

فصاحبكم هنا : هو محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى صحبهم منذ ولادته وذو القوة عند ذى العرش : هو جبريل عليه السلام ، وفى إسناد القول

إليه ماقد يثير شبهة أن القول منه ، مع أنه كلام الله تعالى .

وقد أجاب الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى دفع إيهام الاضطراب ، بإيراد النصوص الصريحة فى أن القرآن كلام الله تعالى ، وقال : وإن فى نفس هذه الآية مايرد هذه الشبهة ، ويثبت تلك الحقيقة ، وهى قوله تعالى : (لقول رسول) لأن الرسول لا يأتى بقول من عنده ، وإنما القول الذى جاء به هو ما أرسل به من غيره ، إلى ما أرسل إليه به .

تنبيه

فى وصف جبريل عليه السلام بتلك الأوصاف

نص فى تمكينه من حفظ ما أرسل به ، وصيانته عن التغيير والتبديل ، لأنه مكين ، فلايصل إليه مايخل برسالته ، ولأنه مطاع ثم . والمطاع لايؤثر عليه غيره ، والأمين لايخون ولا يبدل ، فكان القرآن الذى جاء به مصوناً من أن يتسلط أحد عليه فيغيره ، ومن أن يغيره الذى جاء به ، وهذا كله بمثابة الترجمة لسند تلقى القرآن الكريم .

وقوله : (وما صاحبكم بمجنون) بيان لتتمة السند ، حيث قال : (ولقد رآه بالأفق المبين وماهو على الغيب بضنين) ، فنفى عنه صلى الله عليه وسلم نقص التلقى بنفى آفة الجنون ، فهو فى كمال العقل

وقوة الإدراك ، ومن قبل أثبت له كمال الخلق (وإنك لعلى خلق عظيم) .

وأثبت له اللقيا ، فلم يلتبس عليه جبريل بغيره ، وهى أعلى درجات السند ، فاجتمع له صلى الله عليه وسلم الكمال الخلقى .

والكمال الخلقى — بضم الخاء وكسرها — أى الكمال حساً ومعنى ، ثم نفى عنه التهمة بأن يضن بشىء مما أرسل به مع نفاسته وعلو منزلته وجليل علومه ، وأنه كلام رب العالمين .

وفى الختام إفهامهم : بأنه ليس بقول شيطان رجيم ، حيث تقدم (إنهم عن السمع لمعزولون) .

وأن من يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ، فلم يبق لهم موجب للانصراف عنه ، وألزموا بالأخذ به حيث أصبح من الثابت أنه كلام الله ، جاء به رسول كريم ، وبلغه لصاحبكم صاحب الخلق العظيم ، وليس بقول شيطان رجيم .

فلزمهم الأخذ به ، وإلا فأين تذهبون . أين تسيرون عنه ، بعد أن ثبت لكم سنده ومصدره ؟

ونظير هذا السند فى تمجيد القرآن وإثبات تبيانه من الله ، قوله تعالى فى أول سورة النجم : (وما ضل صاحبكم وما غوى ، وماينطق عن الهوى ، إن هو الا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى) .

وقوله تعالى : (فأين تذهبون) بمثابة من يسد عليهم الطريق إلا له لأنه — أى القرآن — ليس فى نزوله من الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم أى شبهة ولا تهمة ، فليس للعاقل أن يحيد عنه ، وكل ذهاب إلى غيره فطريق مسدود ، وضلال وهلاك .

قوله تعالى ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ .

أى بعد هذا البيان وقوة هذا السند ، وإظهار ثبوت الرسالة ، فقد أعذر من أنذر ، لمن شاء منكم أن يستقيم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَـٰلَمِينَ ﴾ .

فيه قضية القدر والإرادة الكونية والقدرية .

وقد بحثها الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى عدة مواطن .

منها فى سورة الزخرف عند قوله تعالى : (لو شاء الرحمن ماعبدناهم) وفيها مناظرة المعتزلى مع السنى .

ومنها فى سورة الذاريات : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق) ، والفرق بين الإرادة الكونية والقدرية .

تنبيه

إذا كان الكثيرون يستدلون فى قضية القضاء والقدر بهذه الآية ،

فإنه ينبغى ألا تغفل أهميتها فى جانب الضراعة إلى الله دائما ، بطلب التفضل من الله تعالى علينا بالمشيئة بالاستقامة فضلا من عنده ، كما أمرنا فى الصلاة فى كل ركعة منهـا أن نطلبه هـذا الطلب (اهدنا الصراط المستقيم) .

تنبيه آخر

لقد أجملت الاستقامة هنا ، وهى منبه عليها فى سورة الفاتحة : إلى صراط الذين أنعم الله عليهم ، كما هو معلوم . والعلم عند الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الانفطار

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ .

أى انشقت ، كما فى سورة الانشقاق (إذا السماء انشقت) قيل: هيبة لله .

وقيل : لنزول للملائكة ، كقوله تعالى : (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، فى سورة الشورى عند الكلام على قوله تعالى فى وصف أهوال القيامة (يوما يجعل الولدان شيبا . السماء منفطر به) .

ومثل الانفطار والتشقق الانفراج ، كقوله : (فإذا النجوم طمست ، وإذا السماء فرجت) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ .

أى بعثر من فيها . كما فى قوله تعالى : (أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور ، وحصل ما فى الصدور) .

وقد دل هذا اللفظ على سرعة الانتشار ، كبعثرة الحب من الكف

كما فى قوله تعالى : (يوم يخرجون من الأجداث سراعا) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة ق عند قوله تعالى : (يوم تشقق الأرض عنهم سراعا)

قوله تعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ .

أى كل نفس ، كما تقدم فى سورة التكوير .

وقد تكلم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه على ذلك فى دفع إيهام الاضطراب فى سورة الانفطار هذه ، عند نفس الآية .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ، فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك فى سورة الكهف عند قوله تعالى : (قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا) أى هذه أطوار الإنسان فى خلقته .

ومما يشهد لحسن الخلقة ، وكمال الصورة قوله تعالى : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) .

واختلاف الصور إنما هو من آيات الله وابتداء من الرحم ،

كما قال : (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء) .

وتقدم فى سورة الحشر (هو الله الخالق البارىء المصور) .

وفى اختلاف الصور على تشابهها من أعظم آيات الله تعالى

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ، كِرَاماً كَاتِبِينَ ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك فى سورة ق عند الكلام على قوله تعالى : (إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .

وأحال عندها على بعض ماجاء فى سورة مريم عند قوله تعالى : (كلا سنكتب مايقول) .

وبين رحمة الله تعالى علينا وعليه أن هذه الكتابة لإقامة الحجة على الإنسان ، كما فى قوله : (ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) .

وقيل فى حافظين : يحفظون بدن الإنسان .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة الأنعام عند الكلام على قوله تعالى : (ويرسل عليكم حفظة) مستدلا بقوله تعالى : (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله)

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن فى وصف الحفظة هنا بهذه الصفات ، من كونهم حافظين كراما يعلمون ، فاجتمعت لهم كل صفات التأهيل ، لا على درجات الكناية من حفظ وعلو منزلة ، وعلم بما يكتبون .

وكأنه توجيه لما ينبغى لولاة الأمور مراعاته فى استكتاب الكتاب والأمناء .

ولذا قالوا : على القاضى أن يتخير كاتباً أميناً حسن الخط فاهما .

ومن هذا الوصف يعلم أنه لايختلط عليهم عمل بعمل ، وكونهم حفظة لايضيعون شيئاً ، ولو كان مثقال الذرة (فمن يعمل مثقال ذرة خير يره) الآية .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ .

أى دائم ، كما فى قوله تعالى : (يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً) .

قوله تعالى ﴿ وَمَاهُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾

دال من دلة خلود الكفار فى النار .

لقوله : (وإن الفجار لفى جحيم ، يصلونها يوم الدين ، وماهم عنها بغائبين) .

كقوله تعالى : وقال الذين تبعوا لو ان لنا كرة فنتبرأ منهم ،

كما تبرءوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار) .

وهكذا غالبا أسلوب المقابلة بين الفريقين ومآلهما .

ثم بين أن ذلك يوم الدين وهو يوم الجزاء ، كما تقدم فى سورة الفاتحة (مالك يوم الدين) .

ثم بين تعالى شدة الهول فى ذلك اليوم (وما أدراك ما يوم الدين).

وتقدم فى (الحاقة ما الحاقة) .

ومثله قوله تعالى : (القارعة ما القارعة) .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ .

أى لشدة هوله وضعف الخلائق ، كما تقدم فى قوله تعالى : (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه) ، وقوله : (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) .

ولحديث الشفاعة : « كل نبى يقول : نفسى نفسى ، إلى أن تنتهى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فيقول : أنا لها » .

وحديث فاطمة : « اعملى . . . . »

وقوله تعالى (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) ، ونحو ذلك .

وقوله : (والأمر يومئذ لله) ظاهر هذه الآية تقييد الأمر بالظرف المذكور ، ولكن الأمر لله فى ذلك اليوم ، وقيل ذلك اليوم ، كما فى قوله تعالى : (لله الأمر من قبل ومن بعد) .

و بقوله : (ألا له الخلق والأمر) أى يتصرف فى خلقه بما يشاء من أمره لا يشركه أحد ، كما لا يشركه أحد فى خلقه .

ولذا قال لرسوله صلى الله عليه وسلم : (قل إن الأمر كله لله) .

وقال : (ليس لك من الأمر شىء) ونحو ذلك .

ولكن جاء الظرف هنا لزيادة تأكيد ، لأنه قد يكون فى الدنيا لبعض الناس بعض الأوامر ، كما فى مثل قوله تعالى : (وأمر أهلك بالصلاة) .

وقوله : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) .

وقوله : (فاتبعوا أمر فرعون ، وما أمر فرعون برشيد) ، وهى كلها فى الواقع أوامر نسبية . وما تشاءون إلا أن يشاء الله .

ولكن يوم القيامة حقيقة الأمر كله ، والملك كله لله تعالى وحده ، لقوله تعالى : (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) .

فلا أمر مع أمره ، ولا متقدم عليه حى ولا بكلمة ، إلا من أذن

له الرحمن وقال صوابا ، وهو كقوله : (الملك يومئذ الحق للرحمن) مع أن هنا فى الدنيا ملوكا ، كما فى قصة يوسف ، (وقال الملك : ائتونى به) .

وفى قصة الخضر وموسى (وكان وراءهم ملك)

أما يوم القيامة فيكونون كما قال تعالى : (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم) .

وكقوله : (هلك عنى سلطانيه) ، فقد ذهب كل سلطان وكل ملك ، والملك يومئذ لله الواحد القهار .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المطففين

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ .

التطفيف : التنقيص من الطفيف ، وهو الشيء القليل .

وقد فسره ما بعده فى قوله تعالى (الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) .

قالوا : نزلت فى رجل كان له مكيالان كبير وصغير ، إذا اكتال لنفسه على غيره ، اكتال بالمكيل الكبير ، وإذا كال من عنده لغيره ، اكتال بالمكيل الصغير ، ففى كلتا الحالتين تطفيف ، أى تنقيص على الناس من حقوقهم .

والتقديم فى افتتاحية هذه السورة بالويل للمطففين ، يشعر بشدة خطر هذا العمل ، وهو فعلا خطيراً ، لأنه مقياس اقتصاد العالم وميزان التعامل ، فإذا اختل أحدث خللا فى اقتصاده ، وبالتالى اختلال فى التعامل ، وهو فساد كبير .

وأكبر من هذا كله ، وجود الربا إذا بيع جنس بجنسه ، وحصل تفاوت فى الكيل أو الوزن .

وفيه كما قال تعالى : (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) .

ولذا فقد ورد ذكر الكيل والوزن ، والحث على العناية بهما فى عدة مواطن ، بعدة أساليب منها الخاص ومنها العام .

فقد ورد فى الأنعام والأعراف وهود وبنى إسرائيل والرحمن والحديد ، أى فى ست سور من القرآن الكريم .

أولا فى سورة الأنعام ، فى سياق ما يعرف بالوصايا العشر : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً) . وذكر برّ الوالدين والنهى عن قتل الأولاد والقرب من الفواحش ، وقتل النفس التى حرم الله ، والنهى عن مال اليتيم .

ثم قال : (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفساً إلا وسعها . وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا .

وتكلم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عندها كلاماً موجزاً مفيداً ، بأن الأمر هنا بقدر الوسع ، ومن أخل من غير قصد التعدى ، لا حرج عليه .

وقال : ولم يذكر هنا عقوبة لمن تعمد ذلك ، ولكنه توعده بالويل فى موضع آخر ، وساق أول هذه السورة : (ويل للمطففين) .

كما بين عاقبة الوفاء بالكيل بقوله : (ذلك خير وأحسن تأويلا) أى مآلا .

وهنا يلفت كلامه رحمه الله النظر إلى نقطة هامة . وهى فى قوله تعالى : (لا نكلف نفساً إلا وسعها) حيث إن التطفيف الزيادة الطفيفة ، والشىء الطفيف القليل .

فكأن الآية هنا تقول : تحروا بقدر المستطاع من التطفيف ولو يسيراً .

وبعد بذل الجهد لا نكلف نفسا إلا وسعها ، وهذا غاية فى التحرى مع شدة التحذير والتوعد بالويل ، وإذا كان الوعيد بالويل على الشىء الطفيف ، فما فوقه من باب أولى .

الموضع الثانى فى سورة الأعراف من قوله تعالى : (وإلى مدين أخاهم شعيباً ، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين) .

فاقترن الأمر بالوفاء بالكيل ، بالأمر بعبادة الله وحده ، لأن فى الأمرين إعطاء كل ذى حق حقه ، من غير ما نقص .

وبين أن فى عدم الإيفاء المطلوب بخس الناس أشياءهم ، وفساد فى الأرض بعد إصلاحها .

الموضع الثالث فى سورة هود ، ومع شعيب أيضاً : (وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ) .

وبنفس الأسلوب أيضاً كما تقدم ، ربطه بعبادة الله تعالى وحده ، وتكرار الأمر بعد النهى ، ولا تنقصوا المكيال والميزان ، ثم أوفوا الكيل والميزان بالقسط نهى عن نقصه ، وأمر بإيفائه نص على المفهوم بالتأكيد . ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، مع التوجيه بأن ما عند الله خير لهم .

الموضع الرابع فى سورة بنى إسرائيل (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) أى اعتدال فى الإنفاق مع نفسه ، فضلا عن غيره ، ثم إن الله يبسط الرزق لمن يشاء ، ثم (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) وكلها فى مجال الاقتصاد وبعدها (ولا تقربوا الزنا) (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق) .

وقد يكون الباعث عليهما أيضاً غرض مالى (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن) ، وهو من أخص أبواب المال .

ثم الوفاء بالعهد ثم (وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا) ، فمع ضروريات الحياة حفظ النفس والعرض والمال يأتى الحفاظ على الكيل والوزن .

الموضع الخامس فى سورة الشورى وهو أعم مما تقدم ، وجعله مقرونا بإنزال الكتاب فى قوله تعالى : (الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ومايدريك لعل الساعة قريب) .

وتكلم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند هذه الآية ، بما أشرنا إلى أنه عام ، فقال : الميزان هنا مراد به العدل والإنصاف ، وأن هذا المعنى متضمن آلة الوزن وزيادة .

وأورد بقية الآيات هنا فى مبحث مفصل ، فذكر آية الرحمن وآية الحديد ، وتكلم على الجميع بالتفصيل .

وفى قوله تعالى فى سورة الرحمن : (والسماء رفعها ووضع الميزان) مقابلة عظيمة بين رفع السماء الذى هو حق وعدل وقدرة ، والميزان وضعه فى الأرض ، لتقوموا بالعدل والإنصاف ، وبهذا العدل قامت السماوات والأرض .

وفى سورة الحديد اقتران الميزان بإرسال الرسل وإنزال الكتب (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) .

ومعلوم أن الميزان الذى أنزل مع الكتاب هو ميزان الحق

والعدل ، والنهى عن أكل أموال الناس بغير حق ، وعدم بخس الناس أشياءهم .

فكانت هذه الآية أعم وأشمل آيات الوفاء فى الكيل والوزن، بمثابة قوله تعالى : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) .

وقد جمع لفظ الأمانة ليعم به كل ما يمكن أن يؤتمن الإنسان عليه .

وكذلك هنا الميزان مع الكتاب المنزل ، وبه يستوفى كل إنسان حقه فى أى نوع من أنواع التعامل ، فكل من غش فى سلعة أو دلّس أو زاد فى عدد ، أو نقص أو زاد فى ذر ، أو نقص فهو مطفف للكيل ، داخل تحت الوعيد بالويل .

فمن باع ذهباً مثلا على أنه صافٍ من الغش وزن درهم، وفيه من النحاس عشر الدرهم ، فقد نقص وطفف لنفسه فأخذ حق درهم كامل . ذهبا ، ونقص حيث أعطى درهما إلا عشراً

ومن باع رطلا سمنا وفيه عشر الرطل شحماً ، فقد طفف بمقدار هذا العشر لنفسه ، ونقص وبخس المشترى بمقدار ذلك :

وهكذا من باع ثوبا عشر أمتار وهو ينقص ربع المتر فقد طفف وبخس بمقدار هذا الربع .

وهكذا فى القسمة بين الناس وبين الأولاد ، وبين الأهل وكل ما فيه عطاء ، وأخذ بين اثنين ، والله تعالى أعلم .

ومن باب مايذكره العلماء فى مناسبات السور بعضها من بعض .

فقد قال أبوحيان لما ذكر السورة التى قبلها مصير الأبرار والفجار يوم القيامة ، ذكر هنا من موجبات ذلك وأهمها تطفيف الكيل ، وبخس الوزن ، وهذا فى الجملة متوجه ، ولكن صريح قوله تعالى فى السورة السابقة (وإذا القبور بعثرت علمت نفس ماقدمت وأخرت) فهو وإن كان عاما فى كل ماقدمه لنفسه من عمل الخير ، وما أخر من أداء الواجبات عليه ، فإنه يتضمن أيضاً خصوص ماقدم من وفاء فى الكيل ورجحان فى الوزن ، وما أخر من تطفيف فى الكيل وبخس طمعاً فى المال وجمعاً للتراث ، كما قال تعالى : (وتأكلون التراث أكلا لما ، وتحبون المال حبا جما ، كلا إذا دكت الأرض دكا دكا ، وجاء ربك والملك صفا صفا ، وجىء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ، يقول ياليتنى قدمت لحياتى) .

ومن هنا يعلم للعاقل أن ماطفف من كيل أو بخس من وزن ، مهما جمع منه ، فإنه يؤخره وراءه ومسئول عنه ، ونادم عليه ، وقائل: ياليتنى قدمت لحياتى ، ولات ساعة مندم .

قوله تعالى ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

تقريع وتوبيخ لهؤلاء الناس ، وفيه مسألتان :

الأولى : أن الباعث على هذا العمل هو عدم اليقين بالبعث أو

اليقين موجود ، لكنهم يعملون على غير الموقنين أى غير مبالين ، كما قال الشاعر فى مثل ذلك ، وهو مايسمى فى البـــلاغة بلازم الفائدة :

جاء شقيق عارضا رمحـــه إن بنى عمك فيهم رماح

فالمتكلم يعلم أن شقيقا عالم بوجود الرماح فى بنى عمه ، وأنهم مستعدون للحرب معه ، ولكنه رأى منه عدم المبالاة وعدم الاستعداد ، بأن وضع رمحه أمامه معترضا فهو بمنزلة من لايؤمن بوجود الرماح فى بنى عمه ، وهو لم يرد بكلامه معه أن يخبره بأمر يجهله ، ولكنه أراد أن ينبهه لما يجب عليه فعله من التأهب والاستعداد ، وهكذا هنا ، وهذا عام فى كل مسوّف ومتساهل كما جاء : « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » إلخ .

أى وهو مؤمن بالإيمان ولوازمه من الجزاء والحساب .

المسألة الثانية من قوله تعالى : (يوم يقوم الناس لرب العالمين) يفهم أن مطفف الكيل والوزن وهم يعلمون هذا حقيقة غالبا ولا يطلع عليه الطرف الآخر ، فيكون الله تعالى هو المطلع على فعله ، فهو الذى سيحاسبه ويناقشه ، لأنه خان الله الذي لاتخفى عليه خافية سبحانه ، ولذا قال تعالى : (يوم يقوم الناس لرب العالمين ولم يقل : يوم يقتص لكل إنسان من غريمه ، ويستوفى كل ذى حق حقه .

تحـــــذير شديد

قال القرطبي عند هذه الآية : وعن عبـد الملك بن مروان أن أعرابيا قال له : قد سمعت ما قال الله فى المطففين ، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن . ا هـ .

إنها مقالة ينبغى أن تقال لكل آكل أموال الناس بغير حق أيّاً كان هو ، وبأى وجه يكون ذلك .

تنبيـــــه

من المعلوم أن كل متبايعين يطلب كل منهما الأحظ لنفسه ، فالطفف لابد أن يخفى طريقه على غريمه .

وذكر علمـاء الحسبة طرقا عديدة مما ينبغى لولى الأمر خاصة ، وللتعامل مع غيره عامة ، أن يتنبه لهـا .

من ذلك قالوا : أولا من ناحية المكيال قد يكون جرم الميكال ليناً فيضغطه بين يديه ، فتتقـارب جوانبه فينقص مايحتوى عليه ، ولذا يجب أن يكون إناء الـكيل صلبـا ، والغالب جعله من الخشب أو مايعادله .

ومنها : أنه قد يـكون خشباً منقوراً من حوفه ، ولـكن لايبلغ

بالتجويف إلى نهاية المقدار المطلوب ، فيرى من خارجه كبيرا ، ولكنه من الداخل صغير لقرب قعره .

ومنها : قد يكون منقوراً إلى نهاية الحد المطلوب ، ولكنه يدخل فيه شيئاً يشغل فراغه من أسفله ، ويثبته في قعره . فينقص مايكال بقدر مايشغل الفراغ المذكور ، فقد يضع ورقا أو خرقا أو جبسا أو نحو ذلك .

ثانياً : من ناحية الميزان قد يبرد السنج ، أى معايير الوزن حتى ينقص وزنها ، وقد يجوف منها شيئاً ويملأ التجويف بمادة أخف منها .

ولذا يجب أن يتفقد أجزاء المعايير ، وقد يتخذ معياراً من الحجر فتتناقص بكثرة الاستعمال بسبب مايتحتت منها على طول الأيام .

ومنها : أن يضع تحت الكفة التى يزن فيها السلعة شيئاً مثقلا لاصقا فيها ، لينتقص من الموزون بقدر هذا الشيء .

ولكيلا يظهر هذا ، فتراه دائما يضع المعيار فى الكفة الثانية لتكون راجحة بها .

وهناك أنواع كثيرة ، كأن يطرح السلعة فى الكفة بقوة ، فترجح بسبب قوة الدفع ، فيأخذ السلعة حالا قبل أن ترجع إلى أعلا ، موهما الناظر أنها راجحة بالميزان .

أما آلة الذرع فقد يكون المقياس كاملا وافيا ، ولكنه بعد أن يقيس المتر الأول يدفع بالآلة إلى الخلف ، ويسحب بالمذروع إلى الأمام بمقدار الكف مثلا ، فيكون النقص من المذروع بقدر ماسحب من القماش .

وكلها أمور قد تخفى على كثير من الناس ، وقد وقع لى مع بائع أن لاحظت عليه فى ميزان مما يرفعه بيده حتى أعاد الوزن خمس مرات فى كل مرة ، يأتى بطريقة تغاير الأخرى ، حتى قضى ماعنده فالتفت إلىّ وقال لى : لا أبيع بهذا السعر ، فقلت له : خذ ماتريد وزن كما أريد ، فطلب ضعف الثمن فأعطيته فأعطانى الميزان لأزن بنفسى .

وهنا ينبغى أن ننبه على حالات الباعة حينما يكون السعر مرتفعا ونجد بائعا يبيع برخص ، فقد يكون لعلة فى الوزن أو فى السلعة أو مضرة الآخر .

تنبيه آخر

بهذه الأسباب وحقائقها وشدة خطرها كان عمر رضى الله عنه يتجول فى السوق بنفسه ، ويتفقد المكيال والميزان . يخرج من السوق من يجد فى مكياله أو ميزانه نقصانا ، ويقول : لاتمنع عنا المطر .

وهكذا يجب على ولاة الأمور تفقد ذلك باستمرار ، ولا سيما فى البلاد التى يقل فيها الوازع الدينى وتشتد فيها الأسعار ، بما يلجىء الباعة إلى التحايل أو العناد .

وقد منع عمر بائع زبيب أرخص السعر لعلمه أن تاجراً قدم ومعه زبيب بكثرة ، فقيل لعمر : لماذا منعت البيع برخص ؟ فقال : لأنه يفسد السوق ، فيخسر القادم فيمتنع من الجلب إلى المدينة ، وهذا قد ربح من قبل .

تنبيه آخر

مما ينبغى أن يعلم أن نوع المكيال ومقداره ونوع الميزان ومقداره مرجعه إلى السلطان ، كما قال علماء الحسبة : أن على الأمة أن تطيع السلطان فى أربع : فى نوع المكيال والميزان ، ونوع العملة التى يطرحها للتعامل بها ، وإعلان الحرب أو قبول الصلح .

فإذا اتخذ الصاع أو المد أو الكيلة أو الويبة أو القدح ، أوأى نوع كبيراً كان أو صغيرا ، فيجب التقييد به فى الأسواق .

وكذلك الوزن اتخذ الدرهم والأوقية والرطل أو الأقة أو اتخذ الجرام والكيلو فكل ذلك له .

أما إذا كان الأمر بين اثنين فى قسمة مثلا كقسمة صبرة من حب فتراضوا على أن يقتسموها بإناء كبير للسرعة وكان مضبوطا ، لاتختلف به المرات ، بأن يكون صلبا ويمكن الكيل به .

أو كذلك الوزن اتفقوا على قطعة حديد مميزة ، لكل واحد وزنها

عدة مرات فلا بأس بذلك ، لأن الغرض قسمة المجموع لامثامنة على على الأجزاء .

أما المكاييل الإسلامية الأساسية والموازين ، فقد تقدم بيانها من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى زكاة مايخرج من الأرض ، وزكاة النقدين ، وقدمنا بيان مقابلها بالوزن الحديث فى زكاة الفطر ، عند قوله تعالى : (وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) . وبالله تعالى التوفيق .

غريبة

فى ليلة الفراغ من كتابة هذا المبحث رأيت الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فيما يرى النائم ، وبعد أن ذهب عنى رأيت من يقول لى : إن التطفيف الكيل والوزن دخلا فى الربا ، فألحقته فى أول البحث ، بعد أن تأملته فوجدته صحيحاً بسبب المفاضلة .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾.

ران : بمعنى غطى كما فى الحديث « إذا أذنب العبد نكت فى قلبه نكتة سوداء ، ومايزال كذلك حتى يغطيه » الحديث .

وقال الشاعر :

وكم ران من ذنب على قلب فاجر فتاب من الذنب الذى ران فانجلى

وقال أبوحيان : وأصل الرين : الغلبة : يقال : رانت الخمر على عقل شاربها واشتدت :

ثم لما رآه رانت به الخمـــر وألا يريه بانتفاء

بيان القراءات فى هذه الآية :

قال أبوحيان : قرىء بل ران بإدغام اللام فى الراء وبالإظهار وقف حفص على بل وقفاً خفيفاً يسيراً ليتبين الإظهار .

وقال أبوجعفر بن الباذش : وأجمعوا ، يعنى القراء ، على إدغام اللام فى الراء ، إلا ما كان من سكت حفص على بل ، ثم يقول : ران .

وهذا الذى ذكره كما ذكر من الإجماع .

ففى كتاب اللوامع عن قالون من جميع طرقه : إظهار اللام عند الراء نحو قوله : بل رفعه الله إليه بل ربكم .

وفى كتاب ابن عطية . وقرأ نافع : بل ران من غير مدغم .

وفيه أيضاً : وقرأ نافع أيضاً : بالادغام والإمالة .

وقال سيبويه : البيان والإدغام حسنان .

وقال الزمخشرى : وقرىء بإدغام اللام فى الراء ، وبالإظهار والإدغام أجود ، وأميلت الألف وفخمت . اهـ .

أما المعنى فقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، ببيان ذلك وافيا فى سورة الكهف عند الكلام على قوله تعالى : (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه) الآية .

قوله تعالى : ﴿ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ .

توجيه إلى ما ينبغى أن تكون فيه المنافسة ، وهى بمعنى الرغبة فى الشىء .

قال أبو حيان : نافس فى الشىء رغب فيه ، ونفست عليه بالشىء أنفس نفاسة ، إذا بخلت به عليه ولم تحب أن يصير إليه .

والذى يظهر لى والله تعالى أعلم : أن ذلك من المطالبة والمكاثرة بالشىء النفيس ، فكل يسابق إليه ليحوزه لنفسه .

وفى هذه الآية الكريمة لفت لأول السورة ، إذا كان أولئك يسعون لجمع المال بالتطفيف ، فلهم الويل يوم القيامة .

وإذا كان الأبرار لفى نعيم يوم القيامة ، وهذا شرابهم ، فهذا هو محل المنافسة ، لا فى التطفيف من الحب أو أى مكيل أو موزون .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ، وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ .

وصفهم بالإجرام هنا يشعر بأنه السبب فى ضحكهم من المؤمنين

وتغامزهم بهم ، وتقدم فى سورة البقرة بيان موجب آخر فى قوله تعالى : (زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا) .

وقد بين تعالى فى سورة البقرة أن الذين اتقوا فوق هؤلاء يوم القيامة ، والله يرزق من يشاء بغير حساب .

وتكلم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هناك ، وأحال على هذه الآية فى البيان لنوع السخرية ، وزاد البيان فى سورة الأحقاف على قوله تعالى : (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه) .

ومن الدافع لهم على هذا القول ونتيجة قولهم ، وساق آية المطففين عندها ، وكذلك عند أول سورة الواقعة على قوله تعالى (خافضة رافعة) .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن هذه الحالة ليست خاصة بهذه الأمة ، بل تقدم التنبيه على أنها فى غيرها ممن تقدم من الأمم .

ففى قوم نوح : (ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه)

وكان نفس الجواب عليهم : (قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم)

وجاء بما يفيد أكثر من ذلك حتى بالرسل فى قوله تعالى : ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون ﴾ .

ومثلها فى سورة الأنبياء بنص الآية المذكورة .

تنبيه

إذا كان هذا حال بعض الذين أجرموا مع بعض ضعفة المؤمنين ، وكذلك حال بعض الأمم مع رسلها ، فإن الداعية إلى الله تعالى يجب عليه ألا يتأثر بسخرية أحد منه ، ويعلم أنه على سنن غيره من الدعاة إلى الله تعالى ، وأن الله تعالى سينتصر له إما عاجلا وإما آجلا ، كما فى نهاية كل سياق من هذه الآيات .

قوله تعالى : ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ، عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ، هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ .

وهذا رد على سخرية المشركين منه فى الدنيا ، وهو كما قال تعالى : (والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه فى سورة المؤمنون على الكلام على قوله (إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون) والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الانشقاق

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ .

تقدم الكلام عليه فى أول سورة الانفطار ، عند قوله تعالى : (إذا السماء انفطرت) ، والإحالة على كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورتى الشورى وقَ

قوله تعالى : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾

تقدم بيان مادة أذن فى سورة الجمعة ، عند الكلام على الأذان ، وأذنت هنا بمعنى استمعت وأطاعت ، وحقت أى حق لها أو هى محقوقة بذلك ، أى لايوجد مانع لهذا الأمر .

وقد حمله بعض المفسرين على المعنى المجازى فى أذنت ، أى لما لم يكن مانعة من تشققها ، كان ذلك بمثابة الامتثال والاستماع .

وقد قدمنا أن للجمادات بالنسبة إلى الله تعالى حالة لا كهى بالنسبة للمخلوقين ، فى مبحث أول الحشر فى معنى التسبيح من الجمادات .

وقد جاء صريحاً فى حق السماء والأرض من ذلك قوله تعالى : إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها

وأشفقن منها) ، وقال تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ .

أى سويت وأزيلت جبالها ، وسويت وهادها ، كما قال تعالى : (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا ، لاترى فيها عوجا ولا أمتا) .

ومن هذا الحديث عن ابن عباس وعن على . وساق هذا الثانى ابن كثير عن ابن جرير بسنده إلى ء بن الحسين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان يوم القيامة مد الله الأرض مد الأديم ، حتى لايكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه ، فأكون أول من يدعى » الحديث .

وعن ابن عباس « تمد كما يمد الأديم العكاظى » .

وعند القرطبي عن ابن عباس « يزاد فيها كذا وكذا » .

وقال الرازى : هو بمعنى تبدل الأرض غير الأرض ، والواقع أن استبدال الأرض غير الأرض ليس على معنى الذهاب بهذه الموجودة والإتيان بأرض جديدة ، لما جاء فى حديث الأذان : « مامن حجر ولا مدر ولا شجر ، يسمع صوت المؤذن إلا سيشهد له يوم القيامة » والذى يؤتى . من جديد ، لايتأتى له أ يشهد على شىء لم يشهده ،

وعلى كل فإن تسيير الجبال وتسوية الأرض لاشك أنه يوجد زيادة فى وجه الأرض ومساحتها ، فسواء مدت بكذا وكذا . كما قال ابن عباس، أو مدت بتوسعة أديمها وزيد فى بسطها ، بعد أن تلقى مافى جوفها كالشىء السميك إذا ماضغط ، نخفت سماكته وزادت مساحته ، كما يشير إليه قوله تعالى : (كلا إذا دكت الأرض دكا دكا) .

وقوله : (فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية) .

فيكون مد الأرض بسبب دكها ، فيزاد فى بسطها ، ولعل هذا الوجه هو مايشهد له القرآن لجمع الأمرين هنا ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء ، فهو وفق ما فى هذه السورة (إذا السماء انشقت) ، وبعدها (وإذا الأرض مدت) والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ .

قيل : ألقت كنوزها وتخلت عنها ، ورد هذا بأن ذلك قد يكون قبل الساعة .

وقيل : ألقت الموتى وتخلت عنهم بعد قيامهم وبعثهم من قبورهم فلم يبق فى جوف الأرض أحد .

وقوله تعالى : وتخلت : أى بعد أن كانت لهم كفاتاً أحيـــاء وأمواتا ، وبعد أن كانت لهم مهادا ، لفظتهم وتخلت عنهم ، وهذا مايزيد فى رهبة الموقف وشدته والتضييق على العباد ، وألا ملجأ لهم ولا منجى إلا إلى الله ، كما قال تعالى : (كلا لاوزر إلى ربك يومئذ المستقر)

قوله تعالى : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ .

أى كما أذنت السماء ، فالكون كله إذن مطيع منقاد لأوامر الله ، طوعاً أو كرهاً.

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ .

قيل : الإنسان للجنس وقيل لفرد ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن السياق يدل للأول للتقسيم الآتى ، فأما من أوتى كتابه بيمينه ، وأما من أوتى كتابه بشماله ، لأنه لايكون لفرد ، وإنما للجنس وعلى أنه للجنس فالكدح العمل جهد النفس .

وقال ابن مقبل :

وما الدهر إلا تارتان فمنهما أموت وأخرى أبتغى العيش أكدح

وقال غيره مشيراً إلى أن الكدح فيه معنى النصب :

ومضت بشاشة كل عيش صالح وبقيت أكدح للحيـاة وأنصب

ويشهد لهذا قوله تعالى : (لقد خلقنا الإنسان فى كبد) كما قدمنا فى محله .

تنبيـــه

من هذا العرض القرآنى الكريم من مقدمة تغيير أوضاع الكون سماء وأرضاً ، ووضع الإنسان فيه يكدح إلى ربه كدحاً فملاقيه ، أى بعمله الذى يحصل عليه من خلال كدحه ، فإن العاقل المتبصر لايجعل كدحه إلا فيما يرضى الله ويرضى هو به ، إذا لقى ربه مادام أنه كادح ، لامحالة كما هو مشاهد .

تنبيه آخر

قوله تعالى : (يأيها الإنسان) عام فى الشمول لكل إنسان مهما كان حاله من مؤمن وكافر ، ومن بر وفاجر ، والكل يكدح ويعمل جاهد التحصيل ماهو مقبل عليه ، كما فى الحديث : « اعملوا كل ميسر لما خلق له » أى ومجد فيه وراض به ، وهذا منتهى حكمة العليم الخبير .

ومما هو جدير بالتنبيه عليه ، هو أنه إذا كانت السماء مع عظم جرمها ، والأرض مع مساحة أصلها أذنت لربها وحقت ، مع أنهما لم تتحمل أمانة ، ولن تسأل عن واجب فكيف بالإنسان على ضعفه ، (أأنتم أشد خلقا أم السماء) ، وقد تحمل أمانة التكليف فأشفقن

منها وحملها الإنسان ، فكان أحق بالسمع والطاعة فى كدحه ، إلى أن يلقى ربه لما يرضيه .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ، فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ، وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ، وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ، فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ، وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ، إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ، إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ

فى هذا التفصيل بيان لمصير الإنسان نتيجة كدحه ، وماسجل عليه فى كتاب أعماله ، وذلك بعد أن تقدم فى الانفطار قوله : (وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم) .

وجاء فى المطففين (كلا إن كتاب الفجار لفى سجين) ثم بعده (كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين) .

جاء هنا بيان إتيانهم هذه الكتب مما يشير إلى ارتباط هذه السور بعضها ببعض ، فى بيان مآل العلم كله ومصير الإنسان نتيجة عمله .

وتقدم للشيخ مباحث إتيان الكتب باليمين وبالشمال ومن وراء الظهر ، عند كل من قوله تعالى : (يوم ندعوا كل أناس بإمامهم) فى سورة الإسراء — إلى قوله تعالى — (فمن أوتى كتابه بيمينه)

وبين أحوال الفريقين أهل اليمين وأهل الشمال ، وأحال على أول السورة .

وقوله (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه) فى سورة الكهف وهنا ذكر سبحانه وتعالى حالة من حالات كلا الفريقين .

فالأولى يحاسب حساباً يسيراً وهو العرض فقط دون مناقشة ، كما فى حديث عائشة رضى الله عنها « من نوقش الحساب عذّب »

والثانية : يدعو على نفسه بالثبور وهو الهلاك ، ومنه : المواطأة على الشىء سميت مثابرة ، لأنه كأنه يريد أن يهلك نفسه فى طلبه .

وهنا مقابلة عجيبة بالغة الأهمية ، وذلك بين سرورين أحدهما آجل والآخر عاجل .

فالأول فى حق من أوتى كتابه بيمينه ، أنه ينقلب إلى أهله مسروراً ينادى فرحا (هؤم اقرءوا كتابيه) ، وأهله آنذاك فى الجنة من الحور والولدان ، ومن أقاربه الذين دخلوا الجنة ، كما فى قوله تعالى (جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم)

وقوله : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) ، فهم وإن كانوا ملحقين بهم إلا أنهم من أهلهم ، وهذ من تمام النعمة أن يعلم بها من يعرفه من أهله ، وهذا مما يزيد سرور العبد ، وهو السرور الدائم .

والآخر سرور عاجل ، وهو لمن أعطوا كتبهم بشمالهم ، لأنهم كانوا فى أهلهم مسرورين فى الدنيا ، وشتان بين سرور وسرور .

وقد بين هنا نتيجة سرور أولئك فى الدنيا ، بأنهم يصلون سعيرا ، ولم يبين سبب سرور الآخرين ، ولكن بينه فى موضع آخر وهو خوفهم من الله فى قوله تعالى : (قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين ، فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم ، إنا كنا من قبل ندعوه أنه هو البر الرحيم) .

وهنا يقال : إن الله سبحانه لم يجمع على عبده خوفان ، ولم يعطه الأمنان معاً ، فمن خافه فى الدنيا أمنه فى الآخرة (ولمن خاف مقام ربه جنتان) .

(فأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هى المأوى) .

ومن أمن مكر الله وقضى كل شهواته وكان لايبالى فيؤتى كتابه بشماله ويصلى سعيرا ، كما فى قوله تعالى : (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال فى سموم وحميم وظل من يحموم لابارد ولا كريم ، إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) تكذيبا للبعث.

وقوله هذا هو بعينه المذكور فى هذه الآيات (إنه ظن أن لن يحور) .

وقوله : (إنه ظن أن لن يحور) ، هذا الظن مثل ماتقدم فى حق المطففين (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم) مما يشعر أن عدم الإيمان بالبعث أو الشك فيه ، هو الدافع لكل سوء والمضيع لكل خير ، وأن الإيمان باليوم الآخر هو المنطاق لكل خير والمانع لكل شر ، والإيمان بالبعث هو منطاق جميع الأعمال الصالحة كما فى مستهل المصحف (هدى للمتقين) الآيات .

قوله تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ، وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ، وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ، لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ .

الشفق لغة : رقة الشىء .

قال القرطبى : يقال شىء شفيق ، أى لاتماسك له لرقته ، وأشفق عليه أى رق قلبه عليه ، والشفقة الاسم من الإشفاق وهو رقة القلب ، وكذلك الشفق .

قال الشاعر :

تهوى حياتى وأهوى موتها شفقا والموت أكرم نزال على الحرم

فالشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها ، فكأن تلك الرقة من ضوء الشمس .

ونقل عن الخليل : الشفق : الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة إذا ذهب ، قيل : غاب الشفق . اهـ .

وهذا ماعليه الأئمة الثلاثة فى توقيت وقت المغرب من غروب الشمس إلى غياب الشفق ، وهو الحمرة بعد الغروب ، كما قال الخليل .

وعند أبى حنيفة رحمه الله : أن الشفق هو البياض الذى بعده .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى بيان أوقات الصلوات الخمس عند قوله تعالى : (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون) ورجح أن الشفق : الحمرة .

ونقل القرطبى قولا ، قال : وزعم الحكماء أن البياض لايغيب أصلا .

وقال الخليل : صعدت منارة الاسكندرية فرمقت البياض فرأيته يتردد من أفق لى أفق ولم أره يغيب .

وقال ابن أويس : رأيته يتمادى إلى طلوع الفجر ، ثم قال : قال علماؤنا : فلما لم يتجدد وقته سقط اعتباره . اهـ .

فهو بهذا يرجح مذهب الجمهور فى معنى الشفق ، والنصوص فى ذلك من السنة فيها مقال .

فقد روى الدارقطنى حديثاً مرفوعا : الشفق الحمرة .

وتكلم عليه الشوكانى ثم ذكر من يقو به من الصحابة وهم ابن عمر ، وابن عباس ، وأبوهريرة ، وعبادة . ومن الأئمة : الشافعى ،

وابن أبى ليلى ، والثورى ، وأبويوسف ومحمد ، من الفقهاء ، والخليل والفراء من أهل اللغة .

فأنت ترى أن أبا يوسف ومحمداً من أصحاب أبى حنيفة وافقا الجمهور .

وفى شرح الهداية أيضاً : رواية عن أبى حنيفة .

أما ماذكره القرطبى ففيه نظر ، أى من جهة عدم غياب البياض ، فإن المعروف عند علماء الفلك أن بين الأحمر والأبيض مقدار درجتين ، والدرجة تعادل أربع دقائق ، وعليه فالفرق بسيط ، والله تعالى أعلم

وقوله : (والليل وما وسق) هو الجمع والضم للشىء الكثير ، ومنه سمى الوسق بمقدار معين من مكيل الحب ، وهو ستون صاعا . وقيل : فيه معانٍ أخرى ، ولكن هذا أرجحها .

والمعنى هنا : والليل وما جمعه من المخلوقات . قيل : كأنه أقسم بكل شىء كقوله تعالى : (فلا أقسم بما تبصرون وما لاتبصرون) .

وقوله : (والقمر إذا اتسق) أى اتسع أى تكامل نوره ، وهو افتعل من وسق ، والقاعدة الصرفية أن فاء الفعل المثالى ، أى الذى فاؤه واو ، إذا بنى على افتعل تقلب الواو تاء وتدغم التاء فى التاء ، كما فى : وصلته فاتصل ووزنته فاتزن ، أو تصل أو تزن ، وهكذا هنا أو تسق .

وقوله : (لتركبن طبقاً عن طبق) .

قال ابن جرير : اختلف القراء فى قراءته ، فقرأه عمر بن الخطاب وابن مسعود وأصحابه وابن عباس وعامة قراء مكة والكوفة لتركبن بفتح التاء والباء ، واختلف قارؤا ذلك فى معناه ، فقال بعضهم : يعنى يامحمد ، ويعنى حالات الترقى والعلو والشدائد مع القوم ، وهذا المعنى عن مجاهد وابن عباس .

وقيل : طبقا عن طبق : يعنى سماء بعد سماء ، أى طباق السماء ، وهو عن الحسن وأبى العالية ومسروق .

وعن ابن مسعود : أنها السماء تتغير أحوالها تتشقق بالغمام ، ثم تحمر كالمهل ، إلى غير ذلك . وقد رجح القراءة الأولى والمعنى الأول .

وقرأ عامة قراء المدينة وبعض الكوفيين : لتركبن بالتاء وبضم الباء على وجه الخطاب للناس كافة .

وذكر المفسرون لمعناه حالا بعد حال معان عديدة طفولة وشباباً وشيخوخة ، فقراً وغنى ، وقوة وضعفا ، حياة وموتا وبعثاً ، رخاء وشدة ، إلى كل ماتحتمله الكلمة .

وقال القرطبى : الكل محتمل ، وكله مراد ، والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن ذلك إنما هو بعامة الناس ويكون يوم القيامة ، إذ السياق فى أصول البعث ، إذا السماء انشقت ، وإذا الأرض مدت ،

فأما من أوتى كتابه بيمينه وذكر الحساب المنقلب ، ثم التعبير بالمستقبل لتركبن ، ولو كان لأمر الدنيا من تغير الأحوال لكان أولى به الحاضر أو الماضى ، وإن كان من المستقبل ماسيأتى من الزمن لكنه ليس بجديد ، إذ تقلب الأحوال فى شأن الحياة أمر مستقر فى الأذهان ، ولايحتاج إلى هذا الأسلوب .

أما أمور الآخرة من بعث ، وحشر ، وعرض ، وميزان وصراط وتطاير كتب ، واختلاف أحوال الناس باختلاف المواقف ، فى عرصات القيامة فهى الحرية بالتنبيه عليها والتحذير منها والعمل لأجلها فى كدحه إلى ربه ، فلذا جاء بذلك وهو مشعر باستمرار حالة الإنسان بعد الكدح إلى حالات متعددة ودرجات متفاوتة .

ولو اعتبرنا حال المقسم به من حيث تطور الحال من شفق أو آخر ضوء الشمس ثم ليل ، وما جمع وغطى بظلامه ، ثم قمر يبدأ هلالا إلى اتساق نوره ، لكان إنتقالا من تغير حركات الزمن إلى تغير أحوال الإنسان قطعا ، وأن القادر على ذلك فى الدنيا قادر على ذلك فى الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ .

قيل : المن : القطع والنقص ، ومنه قول الشاعر :

لمعفر قهد تنائر شلوه عنس كواسب مايمن طعامها

والقهد : ضرب من الضأن تعلوه حمرة صغيرة آذانه ، والكواسب : الوحوش ، أى ذئاب أو سباع لا ينقطع طعامها .

وقال القرطبي : مقنت الحبل إذا قطعته .

وسأل نافع بن الأزرق ، ابن عباس عنها فقال : غير مقطوع ، فقال هل تعرف ذلك العرب ؟ قال : نعم ، قد عرفه أخو يشكر ، حيث يقول :

فترى خلفهن من سرعة الرجـــع منيناً كأنه أهباء

قال المبرد : المنين الغبار لأنها تقطعه وراءها .

وقيل : غير ممنون أى غير ممنون به عليهم ، لتكمل النعمة عليهم .

وقال ابن جرير : غير ممنون : أى غير محسوب ولامنقوص . وذكره عن ابن عباس ومجاهد .

وقال ابن كثير : غير مقطوع ، كقوله تعالى (عطاء غـير مجذوذ) ورد قول من قال إنه غير مومن به عليهم ، لأن الله تعالى أن يمتن على عباده وهم ما دخلوا الجنة إلا بفضل من الله ومنه عليهم . انتهى.

ومما يشهد لقول ابن جرير غير محسوب عموم قوله تعالى : (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) وخصوص قوله تعالى : (ومن

عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يرزقون فيها بغير حساب) .

وقوله تعالى : (جزاء من ربك عطاء حسابا) فهو بمعنى كافيا من قولك : حسبي بمعنى كافيني .

والذى يظهر والله تعالى أعلم أن كلا من المعنيين مقصود ولا مانع منه ، وما ذهب إليه ابن كثير لايتعارض مع قول الآخرين ، لأن المن الممنوع هو مافيه أذى وتنقيص ، كما فى قوله : (ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولاأذى) أما المن من الله تعالى على عبده ، فهو عين الإكرام والزلفى إليه سبحانه . والعلم عند الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة البروج

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ .

البروج : جمع برج ، واختلف فى المعنى المراد به هنا هل هى المنازل أو الكواكب أو قصور فى السماء عليها حراسها ؟

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك فى سورة الحجر ، عند الكلام على قوله تعالى (ولقد جعلنا فى السماء بروجا) ، وفى سورة الفرقان عند قوله تعالى (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمراً منيراً) .

وقال : إن أصل هذه المادة من الظهور ، ومنه تبرج المرأة ، وساق بيان المعنى المقصود من بروج السماء وعدد المنازل المذكورة .

وبمناسبة ارتباط السور بعضها ببعض ، فإن بعض المفسرين يقول : لما ذكر مآل الفريقين وتطاير الصحف فى السورة الأولى ، ذكر هنا عملا من أشد أعمال الكفار مع المؤمنين فى قصة الأخدود .

والذى يظهر أقوى من هذا ، هو والله تعالى أعلم : أنه لما ذكر

سابقا انفطار السماء وتناثر النجوم وانشقاق السماء ، وإذنها لربها وحق لها ذلك ، جاء هنا بيان كنه هذه السماء أنها عظيمة البنية بأبراجها الضخمة أو بروجها الكبيرة ، فهى مع ذلك تأذن لربها وتطيع وتنشق لهول ذلك اليوم وتنفطر ، فأولى بك أيها الإنسان ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴾ .

هو يوم القيامة بإجماع المفسرين ، وقد كانوا يوعدون به فى الدنيا فهو اليوم الموعود به كل من الفريقين ، كما قال تعالى فى حق المؤمنين (لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون) وفى حق الكفار (فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) وسيعترفون بذلك عند البعث حينما يقولون : (قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) .

فاليوم الموعود هو يوم القيامة الموعود به لمجازات كلا الفريقين على عملهم .

قوله تعالى : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ .

لم يصرح هنا من الشاهد وما المشهود ، وقد ذكر الشاهد فى القرآن بمعنى الحاضر ، كقوله تعالى : (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) ، وقوله : (عالم الغيب والشهادة) .

وذكر المشهود بمعنى المشاهد باسم المفعول ، كقوله تعالى : (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) .

فالشاهد والمشهود قد يكونان من المشاهدة ، وذكر الشاهد من الشهادة ، والمشهود من المشهود به أو عليه ، كما فى قوله تعالى : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) .

فشهيد الأولى : أى شهيد على الأمة التى بعثت فيها ، وشهيد الثانية : أى شاهد على الرسل فى أممهم .

ومن هنا اختلف أقوال المفسرين إلى ما يقرب من عشرين قولا .

قال ابن جرير : ما ملخصه : الشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة أو النحر ، وعزاه لعلى وأبى هريرة ، والشاهد محمد

صلى الله عليه وسلم ، والمشهود يوم القيامة . وعزاه لابن عباس والحسن ابن على .

والشاهد الإنسان ، والمشهود يوم القيامة . وعزاه لمجاهد وعكرمة .

والشاهد هو الله ، والمشهود هو يوم القيامة ، وعزاه لابن عباس .

ثم قال : والصواب عندى أنه صالح لكل ما يقال له مشاهد ، ويقال له مشهود فلم يفصل ما إذا كان بمعنى الحضور ، أو الشهادة ، ومثله القرطبي وابن كثير .

وقد فصل أبو حيان على ما قدمنا ، فقال : إن كان بمعنى الحضور ، فالشاهد الإنسان والمشهود يوم القيامة ، ولما ذكر اليوم الموعود ناسب أن يذكر كل من يشهد فى ذلك اليوم ، ومن يشهد عليه ، وذكر نحواً من عشرين قولا .

وقال : كل له متمسك ، والذى يظهر والله تعالى أعلم : أنه من باب الشهادة لأن ذكر اليوم الموعود وهو يكفى عن اليوم المشهود ، بل إنه يحتاج إلى من يشهد فيه وتقام الشهادة على ما سيعرض فيه لإقامة الحجة على الخلق لا لإثبات الحق .

وقد جاء فى القرآن تعداد الشهود فى ذلك اليوم ، مما يتناسب مع العرض والحساب .

ومجمل ذلك أنها تكون خاصة وعامة وأعم من العامة ، فمن الخاصة شهادة الجوارح على الإنسان كما فى قوله تعالى : (حتى إذا جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) ، وقوله (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) وهذه شهادة فعل ومقال لا شهادة حال ، كما بينها قوله تعالى عنهم : (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون) ، ورد الله زعمهم ذلك بقوله : (وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) .

وتقدم للشيخ بيان شهادة الأعضاء فى سورة يس وفى سورة النساء عند قوله تعالى : (ولا يكتمون الله حديثا ، وشهادة الملائكة وهم الحفظة كما فى قوله تعالى : (وقال قرينه هذا ما لدى عتيد) ، وقوله : (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) ، ثم شهادة الرسل كل رسول على أمته ، كما فى قوله عن عيسى عليه وعلى نبينا أفضل

الصلاة والتسليم ،(وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم) فهذا وإن كان فى الحياة فسيؤديها يوم القيامة .

وكقوله فى عموم الأمم (ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم) .

ومنها : شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم على جميع الرسل كما فى قوله تعالى : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) .

ومنها : شهادة هذه الأمة على سائر الأمم ، كما فى قوله تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) .

ومنها : شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم على هذه الأمة لقوله تعالى : (ويكون الرسول عليكم شهيدا) .

ومنها : شهادة الله تعالى على الجميع .

وهذا ما يتناسب مع ذكر اليوم الموعود وما يكون فيه من الجزاء والحساب على الأعمال ومجازاة الخلائق عليها : وسيأتى فى نفس السياق قوله (والله على كل شىء شهيد) ، وهو كما ترى لا يتقيد بشاهد واحد ، وأيضا لا يعارض بعضها بعضا .

فاختلاف الشهود وتعددهم باختلاف للشهود عليه ، وتعدده من فرد إلى أمة إلى رسل ، إلى غير ذلك . وكلها داخلة فى المعنى وواقعة بالفعل .

وقد ذكرت أقوال أخرى ، ولكن لا تختص بيوم القيامة .

ومنها : أن الشاهد الله والملائكة وأولوا العلم ، والمشهود به وحدانية الله تعالى .

ومنها : الشاهد المخلوقات ، والمشهود به قدرة الله تعالى ، فتكون الشهادة بمعنى العلامة .

وأكثر المفسرين إيرادا فى ذلك الفخر الرازى حيث ساقها كلها بأدلتها إلا ما ذكرناه من السنة فلم يورده .

وقد جاء فى السنة تعيين الشهادات لغير ما ذكر .

منها الشهادة للمؤذن : ما يسمع صوته شجر ولا حجر ولا مدر ، إلا شهد له يوم القيامة .

ومنها : شهادة الأرض على الإنسان بما عليها المشار إليه فى قوله تعالى : (يومئذ تحدث أخبارها) .

ومنها : شهادة المال على صاحبه فيم أنفقه .

ومنها : شهادة الصيام والقرآن وشفاعتهما لصاحبهما . ونحو ذلك والله تعالى أعلم .

تنبيـه

فى هذا العرض إشعار يتعلق بالقضاء وكمال العدالة ، وهو إذا كان رب العزة سبحانه وتعالى ، وهو على كل شىء شهيد ، وبكل شىء عليم ، وموكل حفظة يكتبون أعمال العباد ، ومع ذلك لم يقض بين الخلائق بما يعلمه منهم ولا بما سجلته ملائكته ويستنطق أعضاءهم ، ويستشهد الرسل على الأمم والرسول صلى الله عليه وسلم على الرسل ، أى بأنهم بلّغوا أممهم رسالات الله إليهم ، فلأن لا يقضى القاضى بعلمه من باب أولى . والعلم عند الله تعالى .

وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « إنكم تختصمون إلىّ ، وإنما أنا بشر أقضى لكم على نحو ما أسمع ، فمن اقتطعت له شيئا من حق أخيه ، فإنما أقطع له قطعة من نار » الحديث . أى كان من الممكن أن ينزل عليه الوحى ، ولا سيما فى تلك القضية بعينها ، إذ قالوا فى مواريث درست معالمها ولا بينة بينهما ، ولكن إذا نزل الوحى عليه صلى الله عليه وسلم فيها ، فمن بالوحى لمن يأتى بعده فى القضاء ؟

ولذا قال صلى الله عليه وسلم « البينة على المدعى ، واليمين على من أنكر » .

ومعلوم أن البينة فعيلة من البيان ، فتشمل كل ما يبين الحق من شهادة وقرينة ، كما فى قصة يوسف من القرائن مع إخوته ومع امرأة العزيز . إلخ .

قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ، ٱلنَّار ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴾ .

قال أبو حيان ، وجواب القسم فى قوله تعالى : (والسماء ذات البروج) ، قيل : محذوف ، فقيل : لتبعثن ونحوه ، وقيل : مذكور ، فقيل : إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ونحوه ، وقيل : قتل ، وهذا نختاره ، وحذفت اللام أى لقتل وحسن حذفها كما حسن فى قوله : (والشمس وضحاها) ، ثم قال : (قد أفلح من زكاها) أى لقد أفلح ، ويكون الجواب دليلا على لعنة الله على من فعل ذلك ، وتنبيها لكفار قريش الذين يؤذون المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم .

وإذا كان قتل هى الجواب فهى جملة خبرية ، وإذا كان الجواب غيرها فهى جملة إنشائية ، دعاء عليهم .

وقرىء : قتّل بالتشديد ، قرأها الحسن وابن مقسم ، وقرأها الجمهور بالتخفيف اهـ .

والأخدود : جمع خد ، وهو الشق فى الأرض طويلا . وقوله : (النار ذات الوقود)الوقود بالضم وبالفتح ، والقراءة بالفتح كالسحور ، والوضوء. فبالفتح ماتوقد به كصبور والماء المتوضأ به والطعام المتسحر به ، وبالضم المصدر ، والفعل والوقود بالضم ما توقد به .

ذكر صاحب القاموس ، والنار ذات الوقود : بدل من الأخدود .

وقيل فى معناها : عدة أقوال ، حتى قال أبو حيان : كملت عن نظمها .

ونقل الفخر الرازى ثلاثة منها .

والمشهور عند ابن كثير ما رواه أحمد ومسلم : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كان فيمن كان قبلكم ملك ، وكان له ساحر ، فلما كبر الساحر قال للملك : إنى قد كبر سنى وحضر أجلى ، فادفع إلىّ غلاما لأعلّمه السحر ، فدفع إليه غلاما كان يعلمه السحر ، وكان بين الساحر والملك راهب ، فأتى الغلام الراهب فسمع من كلامه فأعجبه ، وكان إذا أتى الساحر ضربه ، وقال ما حبسك ؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا : ماحبسك ؟ فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا أراد الساحر ضربك فقل : حبسنى أهلى ، وإذا أراد أهلك أن يضربوك ، فقل : حبسنى الساحر ، فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة عظيمة فظيعة

قد حبست الناس ، فلا يستطيعون أن يجوزوا ، فقال : اليوم أعلم أمر الراهب أحبّ إلى الله أم أمر الساحر ؟ قال : فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحبّ إليك وأرضى من أمر الساحر ، فاقتل هذه الدابة ، حتى يجوز الناس ورماها فقتلها ، ومضى الناس فأخبر الراهب بذلك ، فقال : أى بنى أنت أفضل منى ، وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل علىّ ، فكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم ، وكان للملك جليس أعمى فسمع به ، فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : اشفنى . فقال : ما أنا أشفى أحدا ، إنما يشفى الله عز وجل ، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك ، فآمن فدعا الله فشفاه ، ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس ، فقال له الملك : يافلان من ردّ عليك بصرك ؟ فقال : ربى ، فقال : أنا . قال : لا ، ربى وربك الله ، قال : ولك رب غيرى ؟ قال : نعم ، ربى وربك الله ، فلم يزل يعذبه حتى دلّه على الغلام ، فبعث إليه فقال : أى بنى بلغ من سحرك أن تبرىء الأكمه والأبرص ، وهذه الأدواء ، فقال : أما أشفى أحداً إنما يشفى الله عز وجل ، قال : أنا . قالا : لا ، قال : أو لك رب غيرى ؟ قال : ربى وربك الله فأخذه أيضاً بالعذاب حتى دل على الراهب فأوتى بالراهب فقيل : ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه ، وقال للأعمى : ارجع عن دينك ، فأبى ، فوضع المنشار فى مفرقه أيضاً ، وقال للغلام : ارجع عن دينك فأبى ،

فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا ، وقال : إذا بلغتم ذروته ، فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه ، فذهبوا به فلما علوا به الجبل ، قال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون ، وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك . فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله تعالى ، فبعث به نفراً إلى البحر فى قرقور ، فقال : إذا لججتم به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فأغرقوه ، فقال الغلام : اللهم اكفنيهم بما شئت فغرقوا هم ، وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال للملك : إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به ، قال : ماهو؟ قال : تجمع الناس فى صعيد واحد ، ثم تصلبنى على جذع وتأخذ سهما من كنانتى . ثم قل : بسم الله رب الغلام ، فإنك إن فعلت ذلك قتلتنى ففعل ، ووضع السهم فى قوسه ورماه به صدغه ، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات ، فقال الناس آمنا برب الغلام ، فقيل للملك : أرأيت ما كنت تحذر ، فقد والله وقع بك ، قد آمن الناس كلهم فأمر بأفواه السكك ، فخدت فيها الأخاديد وأضرمت فيها النيران ، وقال : من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها . قال : فكانوا يتعادون ويتدافعون ، فجاءت امرأة بابنٍ لها ترضعه فكأنها تقاعست أن تقع فى فى النار ، فقال الصبى : اصبرى يا أماه فإنك على الحق . وقد قيل : إن الغلام دفن فوجد زمن عمر بن الخطاب ويده على صدغه ، كلما رفعت خرج الدم من جرحه ، وإذا تركت أعيدت على الجرح » .

وقد سقنا هذه القصة ، وهى من أمثل ما جاء فى هذه المعنى لما فيها من العبر ، والتى يمكن أن يستفاد منها بعض الأحكام ، حيث إن ابن كثير ، عزاها للامام أحمد بن ومسلم ، أى لصحة سندها مرفوعة إلى النبى صلى الله عليه وسلم من ذلك الآتى :

الأول : أن السحر بالتعلم كما جاء قصة الملكين ببابل ، هاروت وماروت يعلمان الناس السحر .

الثانى : إمكان اجتماع الخير مع الشر : إذا كان الشخص جاهلا بحال الشر ، كاجتماع الإيمان مع الراهب مع تعلم السحر من الساحر .

ثالثاً : إجراء خوارق العادات على أيدى دعاة الخير ، لبيان الحق والتثبت فى الأمر ، كما قال الغلام : اليوم أعلم أمر الراهب أحبّ إلى الله أم أمر الساحر ؟

الرابع : أنه كان أميل بقلبه إلى أمر الراهب ، إذ قال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك ، فسأل عن أمر الراهب ولم يسل عن أمر الساحر ؟

الخامس : اعتراف العالم بالفضل لمن هو أفضل منه ، كاعتراف الراهب للغلام .

السادس : ابتلاء الدعاة إلى الله ووجوب الصبر على ذلك ، وتفاوت درجات الناس فى ذلك .

السابع : إسناد الفعل كله لله ، إنما يشفى الله .

الثامن : رفض الداعى إلى الله الأجر على عمله وهدايته (قل لا أسألكم عليه أجراً) .

التاسع : بيان ركن أصيل فى قضية التوسل ، وهو أن مبناه على الإيمان بالله ثم الدعاء وسؤال الله تعالى .

العاشر : غباوة الملك المشرك المغلق قلبه بظلام الشرك ، حيث ظن فى نفسه أنه الذى شفى جليسه . وهو لم يفعل له شيئاً ، وكيف يكون وهو لا يعلم ؟

الحادى عشر : اللجوء إلى العنف والبطش عند العجز عن الإقناع والإفهام ، أسلوب الجهلة والجبابرة .

الثانى عشر : منتهى القسوة والغلظة فى نشر الإنسان ، بدون هوادة .

الثالث عشر : منتهى الصبر وعدم الرجوع عن الدين ، وهكذا كان فى الأمم الأولى ، وبيان فضل الله على هذه الأمة ، إذ جاز لها التلفظ بما يخالف عقيدتها وقلبها مطمئن بالإيمان .

وقد جاء عن الفخر الرازى قوله : الآية تدل على أن المكره على

الكفر بالإهلاك العظيم الأولى به أن يصبر على ما خوف منه ، وأن إظهار كلمة الكفر كالرخصة فى ذلك ، وقال . وروى الحسن أن مسيلمة أخذ رجلين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقال لأحدهما : تشهد أنى رسول الله ؟ فقال : نعم ، فتركه ، وقال للآخر مثله ، فقال : لا بل أنت كذاب . فقتله ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أما الذى ترك فأخذ بالرخصة فلا تبعة عليه ، وأما الذى قتل فأخذ بالأفضل فهنيئاً له » .

وتقدم بحث هذه المسألة للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه .

الرابع عشر : إجابة دعوة الغلام ونصرة الله لعباده المؤمنين : اللهم اكفنيهم بما شئت .

الخامس عشر : التضحية بالنفس فى سبيل نشر الدعوة ، حيث دل الغلام الملك على الطريقة التى يتمكن الغلام بها من إقناع الناس بالإيمان بالله ، ولو كان الوصول لذلك على حياته هو .

السادس عشر : إبقاء جسمه حتى زمن عمر رضى الله عنه إكراما لأولياء الله ، والدعاة من أن تأكل الأرض أجسامهم .

السابع عشر : إثبات دلالة القدرة على البعث .

الثامن عشر : حياة الشهداء لوجود الدم وعودة اليد مكانها ، بحركة مقصودة .

التاسع عشر : معرفة تلك القصة عند أهل مكة حيث حدثوا بها تخويفاً من عواقب أفعالهم بضعفة المؤمنين ، كما هو موضح فى تمام القصة .

العشرون : نطق الصبى الرضيع بالحق .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ .

الضمير فى قوله : هم ، والضمير فى قوله : قعود ، ذكر فيهما خلاف .

فقيل : راجعان إلى من أحرقوا وأقعدوا عليها .

وقيل : راجعان إلى الكفار .

وعليه ففى قوله : عليها قعود ، إشكال وهو كيف يتمكن لهم القعود على النار .

فقيل : إنها رجعت عليهم فأحرقتهم ، فقعودهم عليها حقيقة .

وقيل : قعود على حافتها كما تقول : قعود على النهر أو على البئر أو على حافته وحوله ، كما يقال : نزل فلان على ماء كذا ، أى عنده .

وأنشد أبو حيان بيت الأعشى :

تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

و د استدل صاحب القول الأول بقوله تعالى الآتى (فلهم عذاب جهنم ولهم عـذاب الحريق) ، فقال : الحريق فى الدنيـا وجهنم فى الآخرة .

ولـكن فى الآية قرينة ، على أن الضمائر راجعة إلى الـكفار الذين قتلوا المؤمنين وأحرقوهم ، وهى قوله : (ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم) حيث رتب العذاب المذكور على عدم التوبة ، وجاء بثم التى هى للتراخى ، مما يدل على أنهم لم تحرقهم نارهم انتقاماً منهم حالا ، بل أمهلوا ليتوبوا من فعلتهم الشنيعة ، وإلا فلهم العذاب المذكور فى الآخرة . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ .

بمعنى حضور يتفق قوله تعالى : (إذ هم عليها قعود) أى حضور يشاهدون إحراق المؤمنين ، وهذا زيادة فى التبكيت بهم ، إذ يرون هذا المظهر بأعينهم ولم يشفقوا بهم ولم يعتبروا بثباتهم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ .

هذا ما يسمى أسلوب المدح بما يشبه الذم ونظيره فى العربية أقوال الشاعر :

ولاعيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وذكر أبو حيان قول الشاعر ، وهو قيس الرقيات :

ما نقموا من بنى أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا

وقول الآخر :

ولاعيب فيها غير شكلة عينها كذاك عناق الطير شكلا عيونها

يقال عين شكلاء : إذا كان فى بياضها حمرة قليلة يسيرة .

وقدمنا أن نقمتهم عليهم للمستقبل ، كما فى قوله تعالى : (إلا أن يؤمنوا بالله) لا على الماضى إلا أن آمنوا ، لأنهم كانوا يقولون لهم : إما أن ترجعوا عن دينكم ، وإما أن تلقوا فى النار ، ولم يحرقوهم على إيمانهم السابق ، بل على إصرارهم على الإيمان للمستقبل .

والإتيان هنا بصفتى الله تعالى العزيز الحميد إشعار بأنه سبحانه قادر على نصرة المؤمنين والانتقام من الكافرين ، إذ العزيز هو الغالب ، كما يقولون: من عزّ بز ، ولكن جاء وصفه بالحميد ، ليشعر بأمرين .

الأول : أن المؤمنين آمنوا رغبة ورهبة ، رغبة فى الحميد على ما يأتى الغفور الودود ، ورهبة من العزيز كما سيأتى فى قوله : (إن بطش ربك لشديد) وهذا كمال الإيمان رغبة ورهبة وأحسن حالات المؤمن .

والأمر الثانى : حتى لا ييأس أولئك الكفار من فضله ورحمته ، كما

قال : (ثم لم يتوبوا) إذ أعطاهم المهلة من آثار صفته الحميد سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

تأكيد وبيان العزيز الحميد ، إذ لا يخرج عن سلطانه أحد ، فهو القاهر فوق عباده ، وهو المدبر أمر ملكه ، سبحانه وتعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

ربط بأول السورة وشاهد ومشهود ، فهو سبحانه على كل شيء شهيد ، ومن ذلك فعل أولئك ، وفيه شدة تخويف أولئك وتحذيرهم ومن على شاكلتهم ، بأن الله تعالى شهيد على أفعالهم فلن تخفى عليه خافية .

وقد جاء بصيغة المبالغة فى شهيد ، لما يتناسب مع هذا المقام كما فيه المقابلة بالفعل ، كما كانوا قعوداً على النار وشهوداً على إحراق أولياء الله تعالى ، فإنه سبحانه سيعاملهم بالمثل ، إذ يحرقهم وهو عليهم شهيد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ ﴾ .

يحتمل أن يكون مراداً به أصحاب الأخدود ، وفتنوا بمعنى أحرقوا ، ويحتمل أن يكون عاما فى كل من أذى المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم ويردوهم عنه بأى أنواع الفتنة والتعذيب .

وقد رجح الأخير أبو حيان وحمله على العموم أولى ، ليشمل كفار

قريش بالوعيد والتهديد، وتوجيههم إلى التوبة مما أوقعوه بضعفة المؤمنين، كعمار وبلال وصهيب وغيرهم.

ويرجح هذا العموم، العموم الآخر الذى يقابله فى قوله: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير) فهذا عام بلا خلاف فى كل من اتصف بهذه الصفات.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾.

فى مقام المنطوق بالمفهوم من العزيز الحميد، كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾.

قيل: يبدىء الخلق ويعيده، كالزرع والنبات والإنسان بالمولد والموت، ثم بالبعث.

وقيل: يبدأ الكفار بالعذاب ويعيده عليهم، واستدل لهذا بقوله (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب).

وفى الحديث: « ما من صاحب إبل لا يؤدى زكاتها إلا إذا كان يوم القيامة، بطح لها بقاع قرقر، ثم يأتى بها أوفر ما تكون سمنا فتطؤه بخفافها فتستن عليه كلما مر عليه أخراها أعيد عليه أولها، حتى يقضى بين الخلائق فيرى مصيره إما إلى جنة، وإما إلى نار » إلى آخر الحديث فى صاحب البقر والغنم والذهب.

ولكن الذى يظهر والله تعالى أعلم هو الأول، لأنه يكثر فى

القرآن كقوله تعالى : (إنه يبدأ الخلق ثم يعيده) . وقوله : (قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون) .

وجعله آية على قدرته ودليلا على عجز ونقص الشركاء ، فى قوله فى أول هذه الآية : قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ورد عليهم بقوله : (قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) ، وقوله (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) .

قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ، فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ .

بعد عرض قصة أصحاب الأخدود تسلية للمؤمنين وتثبيتا لهم، وزجراً للمشركين وردعاً لهم ، جاء بأخبار لبعض من سبق من الأمم وفرعون وثمود بدل من الجنود ، وهم جمع جند، وهم الكثرة وأصحاب القوة ، وحديثه ماقص الله من خبره مع موسى وبنى إسرائيل .

وفى اختيار فرعون هنا بعد أصحاب الأخدود لما بينهما من المشاكلة والمشابهة ، إذ فرعون طغى وادّعى الربوبية ، كذلك أصحاب الأخدود الذى قال لجليسه : ألك رب غيرى ؟ ولتعذيبه بنى إسرائيل بتقتيل الأولاد واستحياء النساء ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ، ولتقديم الآيات والبراهين على صدق الداعية ، إذ موسى عليه السلام قدّم لفرعون من آيات ربه الكبرى فكذّب وعصى ، والغلام قدّم لهذا الملك الآيات الكبرى : إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله ،

وعجز فرعون عن موسى وإدراكه ، وعجز الملك عن قتل الغلام إذ نجاه الله من الإغراق والدهدهة من قمة الجبل ، فكان لهذا أن يرعوى عن ذلك ويتفطن للحقيقة ، ولكن سلطانه أعماه كما أعمى فرعون .

وكذلك آمن السحرة لما رأوا آية موسى وخروا لله سجداً .

وهكذا هنا آمن الناس برب الغلام ، فوقع الملك فيما وقع فيه فرعون . إذ جمع فرعون السحرة ليشهد الناس عجز موسى وقدرته ، فانقلب الموقف عليه ، وكان أول الناس إيماناً هم أعوان فرعون على موسى ، وهكذا هنا كان أسرع الناس إيماناً الذى جمعهم الملك ليشهدوا قتله للغلام .

فظهر تناسب ذكر فرعون دون غيره من الأمم الطاغية السابقة ، وإن كان فى الكل عظة وعبرة ، ولكن هذا منتهى الإعجاز فى قصص القرآن وأسلوبه ، والله تعالى أعلم .

وكذلك ثمود لما كان منهم من مظاهر القوة والطغيان ، وقد جمعهما الله أيضاً معاً فى سورة الفجر فى قوله : (وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الأوتاد) وهكذا جمعهما هنا فرعون وثمود .

قوله تعالى ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴾ .

أى مستمر فى كل الأمم ، وتقدم فى سورة الانفطار قبلها (بل الذين كفروا يكذبون) .

فقال الكرمانى ، محمود بن حمزة بن نصر تاج القراء فى كتابه أسرار التكرار فى القرآن : إن المغايرة لمراعاة رءوس الآى والفواصل ، ولكن الظاهر من السياق فى الموضعين مراعاة السياق لا فواصل الآى ، لأن فى سورة الانشقاق الحديث مع المشركين (لتركبن طبقاً عن طبق فما لهم لايؤمنون ، وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ، بل الذين كفروا يكذبون) .

وفى سورة البروج هنا ذكر الأمم من فرعون وثمود وأصحاب الأخدود والمشركين فى مكة ، ثم قال (بل الذين كفروا فى تكذيب) فناسب هذا هنا ، وناسب ذاك هناك . والله تعالى أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الطارق

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴾ .

أصل الطرق فى اللغة : الدق ، ومنه المطرقة ، ولذا قالوا للآتى ليلا : طارق ، لأنه يحتاج إلى طرق الباب .

وعليه قول امرىء القيس :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذى تمائم محول

أى جئتها ليلا ، وقول الآخر :

ألم تريانى كلما جئت طارقا وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

وقول جرير :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعى بسلام

وفى الحديث : « أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار ، إلا طارقا يطرق بخير يارحمن » ، فهو لفظ عم فى كل ما يأتى شيئه المفاجىء ، ولكأنه يأتى فى حالة غير متوقعة ، ولكنه هنا خص بما فسر به بعده فى قوله تعالى : (وما أدراك ما الطارق ، النجم الثاقب) .

فقيل : مايثقب الشياطين عند استراق السمع ، كما تقدم فى قوله تعالى : (فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً) فيكون عاما فى كل نجم.

وقيل : حاص ، فقيل : زحل وقيل : المريخ ، وقيل : الثريا ، لأنه إذا أطلق النجم عند العرب ، كان مراداً به الثريا .

وتقدم هذا للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى أول سورة النجم.

وقيل : الثاقب المضىء ، يثقب الظلام بضوئه ، وعليه فهو للجنس عامة ، لأن النجوم كلها مضيئة .

قال القرطبى ، وقال سفيان : كل مافى القرآن وما أدراك فقد أخبره به ، وكل شىء قال فيه : ومايدريك ، لم يخبره به .

والواقع أنه الغالب ، فقد جاءت : وما أدراك ثلاث عشرة مرة كلها أخبره بها إلا واحدة ، وهى فى الحاقة (وما أدراك ما الحاقة) وما عداها ، فقد أخبره بها ، وهى : (وما أدراك ماسقر ، لا تبقى ولاتذر) .

وفى المرسلات (وما أدراك مايوم الفصل) .

وفى الانفطار : (وما أدراك مايوم الدين ، يوم لاتملك نفس لنفس شيئا) .

وفى المطففين : (وما أدراك ماسجين ، كتاب مرقوم) .

وفى البلد : (وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة) .

وفى القدر : (وما أدراك ماليلة القدر ؛ ليلة القدر خير من ألف شهر)

وفى القارعة (وما أدراك ما القارعة) .

وأيضاً : (فأمه هاوية وما أدراك ماهيه نار حامية) ، وفى هذه السورة (وما أدراك ما الطارق ، النجم الثاقب) ، فكلها أخبره عنها إلا فى الحاقة .

تنبيـــه

يلاحظ أنها كلها فى قصار السور من الحاقة وما بعدها ، أما ما يدريك ، فقد جاءت ثلاث مرات فقط ، (وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً) فى الأحزاب ، (وما يدريك لعل الساعة قريب) فى الشورى ، (وما يدريك لعله يزكى) فى عبس وتولى ، فلم يخبره فيها صراحة ، إلا أنه فى الثالثة قد يكون أخبره لأنه قال (لعله يزكى) فهو وإن لم يصرح هل هو تزكى أم لا ، إلا أن لعل من الله تعالى للتحقيق ، كما هو معلوم .

تنبيه آخر

قال كثير من المفسرين : أقسم الله بالسماء ، وبالنجم الطارق لعظم أمرهما ، وكبر خلقهما كما فى قوله (فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) ، ولأنه أقسم بالنجم إذا هوى .

وفيما تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ترجيح كون مواقع

النجوم ، والنجم إذا هوى : إنما هو نجوم القرآن وتنزيله منجماً وهوبة نزول الملك به على النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ .

قيل : حافظ لأعماله يحصيها عليه ، كما فى قوله : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .

وقيل : حافظ ، أى حارس ، كقوله تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) ، والسياق يشهد للمعنيين معا ، لأن قوله تعالى بعده (فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب) يدل على أنه فى تلك المراحل فى حفظ ، فهو أولا فى قرار مكين .

وفى الحديث : « أن الله وكل بالرحم ملكا » الحديث .

وبعد بلوغه سن التكليف يجرى عليه القلم فيحفظ عليه عمله ، فلا مانع من إرادة المعنيين معا ، وليس هذا من حمل المشترك على معنييه ، لأن كلا من المعنيين له متعلق ، يختص بزمن خلاف الآخر .

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ .

الإنسان هنا خاص ببنى آدم وذريته عامة ، ولم يدخل فيه آدم

ولا حواء ولا عيسى عليه السلام لأنه بيّن ما خلق منه ، وهو فى قوله تعالى (خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان هـذه الآية عند قوله تعالى (خلق الإنسان من نطفة) فى سورة النحل ، وفى سورة الواقعة عند قوله تعالى : (أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) ، وتقدمت الإشارة إليه عند قوله تعالى (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) فى سورة الدهر .

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ .

إنه هنا أى إن الله على رجعه ، الضمير فيه ، قيل : راجع للماء الدافق ، أى أنه سبحانه قادر على رجع هـذا المـاء من حيث خرج ، كرد اللبن إلى الضرع مثلا ، ورد الطفل إلى الرحم ، وهذا مروى عن عكرمة ومجاهد .

وقيل : على رجع الإنسان بعد الموت ، وهذا وإن كان فى الأول دلالة على القدرة ، ولا يقدر عليه إلا الله ، إلا أن فى السياق مايدل على أن المراد ، هو الثانى لعدة أمور :

الأول : أن رد المـاء لم يتعلق به حكم ولا أمر آخر سوى إثبات

القدرة بخلاف رجع الإنسان بعد الموت ، فهو قضية الإيمان بالبعث . ويتعلق به كل أحكام يوم القيامة .

الثانى : مجيء القرآن بالخلق الأول ، دليل على الإعادة بعد الموت ، كقوله تعالى فى يس : (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ـ أى من ماء دافق — قال من يحيي العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) ، أى من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب .

الثالث : أن الأول يحتاج معه إلى تقدير عامل ليوم تبلى السرائر ، نحو اذكر مثلا بخلاف الثانى ، فإن العامل فيه : هو لقادر ، أى لقادر على رجعه يوم تبلى السرائر .

ونقل أبو حيان عن ابن عطية قوله : وكل من خالف ذلك إنما فر من أن يكون لقادر هو العامل فى الظرف ، لأنه يوهم أن قدرته على رجعه مقيدة بذلك .

ولكن بتأمل أسلوب العرب يعلم جوازه ، لأنه قال : إنه على رجعه لقادر على الإطلاق أولا وآخراً ، وفى كل وقت ثم ذكر تعالى : وخصص من الأوقات الوقت الأهم على الكفار ، لأنه وقت الجزاء والوصول إلى العذاب للتحذير منه . اهـ

فظهر بذلك أن الضمير فى رجعه عائد للإنسان أى بعد موته بالبعث ، وأن العامل هو لقادر .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه عند الكلام على قوله تعالى : (هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت) ، وساق عندها هذه الآية ، وسيأتى التصريح به فى سورة العاديات عند قوله تعالى : (أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور وحصّل ما فى الصدور) وقد أجمل ابتلاء السرائر .

وكذلك أجمل الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بإيراد الآيات .

وذكر المفسرون : أن المراد بها أمانة التكليف فيما لا يعلمه إلا الله ، ومثلوا لذلك بالحفاظ على الطهارة للصلاة ، وغسل الجنابة ، وحفظ الصوم ، ونحو ذلك . ومنه العقائد وصدق الإيمان أو النفاق ، عياذًا بالله .

والسرائر : هى كل ما يخفيه الإنسان حتى فى المعاملات مع الناس ، كما فى الأثر « الكيّس من كانت له عند الله خبيئة سر » ، وقوله : (وأسروا قولكم أو اجهروا به) ، فالسر ضد الجهر ، وقال الأحوص :

سيبقى لها فى مضمر القلب والحشا سريرة ود يوم تبلى السرائر

قال أبو حيان : سمعه الحسن ، فقال : ما أغفله عما فى السماء والطارق .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾

قالوا : ليس من قوة فى نفسه لضعفه ، وبدل عليه قوله (وعرضوا على ربك صفاً ، لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) .

وقوله : (خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة) أى من الضعف وشدة الخوف ، ولا ناصر له من غيره ، كما فى قوله : (ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً) .

وقوله : (يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله) .

قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ، وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ .

قيل : رجع السماء : إعادة ضوء النجوم والشمس والقمر .

وقيل : الرجع : الملائكة ترجع بأعمال العباد .

وقيل الرجع : المطر وأرزاق العباد . والأرض ذات الصدع ، قيل : تنشق عن الخلائق يوم البعث .

وقيل : تنشق بالنبات .

والذى يشهد له القرآن : أن الرجع والصدع متقابلان من السماء والأرض بالمطر والنبات ، كما فى قوله تعالى . (فلينظر الإنسان إلى

طعامه أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً) والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ .

قال ابن كثير : قال ابن عباس حق . وكذا قال قتادة ، وقال آخرون : حكم عدل . وقال القرطبي : إنه أى القرآن ، يفصل بين الحق والباطل .

وقيل : هو ما تقدم من الوعيد فى هذه السورة (إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر) .

وقال أبو حيان بما قال به القرطبي أولا ، ثم جوّز أن يكون مراداً به الثانى ، أى أن الإخبار عن رجع الإنسان يوم تبلى السرائر ، قول فصل ، وهذا ما يفيده كلام ابن جرير ، وعزاه النيسابورى إلى القفال .

وسياق السورة يشهد لهذا القول الثانى ، لأن السورة كلها فى معرض إثبات القدرة على البحث ، وإعادة الإنسان بعد الفناء ، حيث تضمنت ثلاثة أدلة من أدلة البعث .

الأول : السماء ذات الطارق . لعظم خلقتها ، وعظم دلالتها على القدرة .

الثانى : خلق الإنسان أولا من ماء دافق ، كما فى قوله : (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) .

الثالث : مجموع قوله : (والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع) أى إنزال المطر ، وإنبات النبات وهو إحياء الأرض بعد موتها . فناسب أن يكون الإقسام على تحقق البعث .

وأكد هذا ما جاء بعده من الوعيد بالإمهال رويدا ، وقد سمى يوم القيامة بيوم الفصل ، كما فى قوله : (لأى يوم أجلت ، ليوم الفصل ، وما أدراك ما يوم الفصل ، ويل يومئذ للمكذبين) .

وذكر الويل فى هذه الآية للمكذبين يعادل الإمهال فى هذه السورة للكافرين ، وإذا ربطنا بين القسم والمقسم عليه ، لكان أظهر وأوضح ، لأن رجع الماء بعد فنائه بتلقيح السحاب من جديد يعادل رجع الإنسان بعد فنائه فى الأرض ، وتشقق الأرض عن النبات يناسب تشققها يوم البعث عن الخلائق ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُوا كَيْدًا ، وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾

نسبة هذا الفعل له تعالى قالوا إنه : من باب المقابلة كقوله : (ومكروا ومكر الله) ، وقوله : (إنما نحن مستهزءون ، الله يستهزىء

بهم) ، وهو فى اللغة ، كقول القائل ، لما سئل عن أى الطعام يريد ، وهو عارٍ يريد كسوة .

قالوا اختر طعاما نجد لك طبخه قلت اطبخوا لى جبة وقميصا

وقد اتفق السلف ، أنه لا ينسب إلى الله تعالى على سبيـــل الإطلاق ، ولا يجوز أن يشتق له منه اسم ، وإنما يطلق فى مقابل فعل العبـاد ، لأنه فى غير المقـابلة لا يليق بالله تعـالى ، وفى معرض المقـابلة فهو فى غاية العلم والحـكمة والقدرة ، والـكيد أصله المعالجة للشىء بقوة .

وقال ابن فارس فى معجم مقاييس اللغة : والعرب قد تطلق الـكيد على المـكر ، والعرب قد يسمون المـكر كيداً ، قال الله تعالى : (أم يريدون كيداً) ، وعليه فالـكيد هنا لم يبين ، فإذا كان بمعنى المـكر ، فقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان شىء منه عند قوله تعالى : (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) ، بأن مكرهم محاولتهم قتل عيسى ، ومكر الله إلقـاء الشبه ، أى شبه عيسى على غير عيسى .

وتقدم قوله تعالى : (قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم

من القواعد فخرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) ، وهـذا فى قصة النمرود ، فـكان مكرهم بنيان الصرح ليصعد إلى السماء ، فـكان مكر الله بهم أن تركهم حى تصاعدوا بالبناء ، فأتى الله بنيانهم من القواعد ، فهدمه عليهم .

وهـكذا الـكيد هنا ، إنهم يكيدون للاسلام والمسلمين يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله يـكيد لهم بالاستدراج حتى يأتى موعد إهلا كهم ، وقد وقع تحقيقه فى بدر ، إذ خرجوا محادة لله ولرسوله ، وفى خيلائهم ومفاخرتهم وكيد الله لهم أن قلل المؤمنين فى أعينهم ، حتى طمعوا فى القتال ، وأمطر أرض المعركة ، وهم فى أرض سبخة ، والمسلمون فى أرض رملية فـكان زلقا عليهم وثباتا للمؤمنين ، ثم أنزل ملائـكته لقتالهم . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْـكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى دفع إيهام الاضطراب ، مانصه : هذا الإمهال المذكور هنا ينافيه قوله تعالى (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) الآية .

والجواب : أن الإمهال منسوخ بآيات السيف . اهـ .

وهذا ما يفيده كلام الطبرى ، وإن لم يصرح به وهو منصوص القرطبي . ولعل فى نفس الآية ما يدل على ذلك وهو قوله : (أمهلهم رويداً) لأن رويدا بمعنى قليلا ، فقد قيد الإمهال بالقلة مما يشعر بمجيء النسخ وأنه ليس نهائياً . والله تعالى أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ .

تقدم معنى التسبيح وهو التنزيه عن كل ما لا يليق ، والأمر بالتسبيح هنا منصب على اسم ربك ، وفى آيات أخر ، جاء الأمر بتسبيح الله تعالى كقوله : (ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) .

ومثل : (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) .

وتسبيح الرب سبحانه كقوله : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) ، فاختلف فى هذه الآية ، هل المراد تسبيح الله سبحانه أو المراد تسبيح اسمه تعالى ، كما هو هنا ؟

ثم اختلف فى المراد بتسبيح اسم الله تعالى ، وجاءت مسألة الاسم والمسمى .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة الواقعة ، عند قوله تعالى : (فسبح باسم ربك العظيم) ، قوله : إن الباء هناك داخلة على المفعول كدخولها عليه فى قوله : (وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً) ، وأحال على متقدم فى ذلك ، وحكى كلام القرطبى أن الاسم بمعنى المسمى ، واستشهد له من كلام العرب بقول لبيد :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

وقال : لايلزم فى نظرى أن الاسم بمعنى المسمى هنا ، لإمكان كون المراد نفس الاسم ، لأن أسماء الله ألحد فيها قوم ونزّهها آخرون ، ووصفها الله بأنها بالغة غاية الحسن ، لاشتمالها على صفاته الكريمة ، كما فى قوله : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) .

وقوله تعالى : (أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) .

ثم قال : ولسنا نريد أن نذكر كلام المتكلمين فى الاسم والمسمى ، هل الاسم هو المسمى أو لا ؟ لأن مرادنا هنا بيان معنى الآية . اهـ .

فتضمن كلامه رحمة الله تعالى علينا وعليه ، احتمال كون المراد : تنزيه اسم الله عما ألحد فيه الملحدون ، كاحتمال تنزيه الله تعالى عن كل ما لايليق بجلاله ، كما تضمن عدم لزوم كون الاسم هنا بمعنى المسمى ، ولعلنا نورد مجمل بيان تلك النقاط إن شاء الله .

أما تنزيه أسماء الله فهو على عدة معان .

منها : تنزيهها عن إطلاقها على الأصنام كاللات والعزى واسم الآلهة .

ومنها : تنزيهها عن اللهو بها واللعب ، كالتلفظ بها فى حالة تنافى الخشوع والإجلال كمن يعبث بها ويلهو ، ونظيره من يلهو ويسهو عن صلاته ، فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، أو

وضعها فى غير مواضعها ، كنقش الثوب أو الفراش الممتهن .

ومنها : تنزيهها عن المواطن غير الطاهرة ، وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء نزع خاتمه لما فيه من نقش محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنه : صيانة الأوراق المكتوبة من الابتذال صوناً لاسم الله .

وعلى هذا تكون هذه الآية موضحة لآية الواقعة ، وأن اسم ربك واقع موقع المفعول به ، وهو المراد بالتسبيح ، وعلى أن المراد تسبيح الله تعالى ، فقالوا : إن الاسم هو المسمى ، كما قال القرطبى وغيره ، وقالوا : الاسم صلة ، كما فى بيت لبيد المتقدم .

أما مسألة الاسم هل هو عين المسمى أم لا ، فقد أشار إليها الفخر الرازى ، وقال : إنه وصف ركيك .

أما قول الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، ولا يلزم فى نظرى كون الاسم بمعنى المسمى هنا ، فإنه يلازم إلى بسط قليل ، ليظهر صحة ما قاله .

وقد ناقشها الرازى بعد مقدمة ، قال فيها : من الناس من تمسك بهذه الآية ، فى أن الاسم نفس المسمى .

فأقول : إن الخوض فى الاستدلال لا يمكن إلا بعد تلخيص محل

النزاع ، فلابد ها هنا من بيان أن الاسم ماهو والمسمى ماهو .

فنقول : إن كان المراد من الاسم هو هذا اللفظ ، وبالمسمى تلك الذات ، فالعاقل لايمكن أن يقول : الاسم هو المسمى ، وإن كان المراد من الاسم هو تلك الذات ، وبالمسمى أيضاً تلك الذات . كان قولنا الاسم نفس المسمى ، هو أن تلك الذات هى تلك الذات . وهذا لايمكن أن ينازع فيه عاقل ، فعلمنا أن هذه المسألة فى وصفها ركيكة ، وذكر الاشتباه على المتأخرين بسبب لفظ الاسم الذى هو قسيم الفعل والحرف ، إذ هو مراد المتقدمين فى إطلاقه وإرادة مسماه .

ومن هنا تعلم : لماذا أعرض الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عن بيانها ؟ وقد أوردنا هذا البيان المجمل ، لنطلع القارىء إليه ، وعلى كل تقدير عند المتقدمين أو المتأخرين فإنه إن وقع الاحتمال فى الذوات الأخرى ، فلا يقع فى ذات الله وأسمائه ، لأن لأسماء الله أحكاما لا لأسماء الآخرين ، ولأسمائه سبحانه حق التسبيح والتنزيه والدعاء بها كما تقدم .

وهنا وجهة نظر لم أر من صرح بها ، ولكن قد تفهم من كلام بعض المفسرين وتشير إليها السنة. وهى : أن يكون التسبيح هنا بمعنى الذكر والتعبد ، كالتحميد والتهليل والتكبير .

وقد جاء فى كلام الرازى قوله : ويكون المعنى سبح ربك بذكر أسمائه ، ونحوه فى بعض نقول الطبرى .

أما إشارة السنة إلى ذلك ، فقد روى الطبرى وغيره عنه صلى الله عليه وسلم أنها لما نزلت ، قال صلى الله عليه وسلم بعد أن قرأها (سبحان ربى الأعلى) .

وكذلك ما روى أنه صلى الله عليه وسلم لما نزلت (فسبح باسم ربك العظيم) قال : « اجعلوها فى ركوعكم » ولما نزلت هذه قال: « اجعلوها فى سجودكم » .

وساق القرطبى أثراً طويلا فى فضلها فى الصلاة وخارج الصلاة ، لكنه ليس بصحيح .

وجاء الحديث الصحيح « تسبحون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين ، وتكبرون ثلاثا وثلاثين ، وتختمون المائة بلا إله إلا الله » .

وقد صح عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « ماصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة ، بعد أن نزلت عليه (إذا جاء نصر الله والفتح) إلا يقول : سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى ، وقالت : يتأول القرآن » .

وقالت أم سلمة « إنه كان يقولها فى قيامه وقعوده ، ومجيئه وذهابه ، صلى الله عليه وسلم » فيكون سبح اسم ربك : أى اذكر ربك .

وهذا مادلت عليه الآية الأخرى فى هذه السورة نفسها فى قوله تعالى : (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) فصرح بذكر

اسم ربك ، كما جاء سبح اسم ربك ، فوضع الذكر موضع التسبيح ، وهو ما أشرنا إليه . وبالله تعالى التوفيق .

قوله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ .

أطلق الخلق ليعم كل مخلوق كما تقدم فى السجدة ، الذى أحسن كل شىء خلقه ، والتسوية التقويم والتعديل ، وقد خلق الله كل مخلوق مستوٍ على أحسن مايتناسب لخلقتـــه وماخلق له ، فخلق السماوات فسواها فى أقوى بناء ، وأعلى سمك ، وأشد تماسك ، لاترى فيها من تشقق ولا فطور ، وزيّنها بالنجوم ، وخلق الأرض ودحاها ، وأخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها وجعلها فراشا ومهاداً ، وخلق الأشجار فسوّاها على ماتصلح له من ذوات الثمار ووقود النـار وغير ذلك .

وهذه الحيوانات فى خلقتها وتسويتها آية (أفلاينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت) .

أما الإنسان فهو فى أحسن تقويم ، كل ذلك مما يستوجب حقاً له سبحانه أن يسبح اسمه فى ذاته ، وجميع صفاته ، حيث جمع بين الخلق والتسوية ، فلكمال القدرة والتنزيه عن كل نقص .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ .

أطلق هنا التقدير ليعم كل مقدور ، وهو عائد على كل مخلوق ،

لأن من لوازم الخلق التقدير ، كما قال تعالى : (إنا كل شيء خلقناه بقدر) ، وقوله (قد جعل الله لكل شيء قدرا) ، وهذه الآية ومثيلاتها من أعظم آيات القدرة ، وقد جمعها تعالى عند التعريف التام لله تعالى ، لما سأل فرعون نبي الله موسى عن ربه قال : (فمن ربكما يا موسى ؟ قال : ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) .

وقد تقدم بيان عموم قوله تعالى : (الذى خلق فسوى) ، وهنا قدر كل ماخلق ، وهدى كل مخلوق إلى الله ماقدره له ، ففى العالم العلوى قدَّر مقادير الأمور ، وهدَى الملائكة لتنفيذها ، وقدَّر مسير الأفلاك ، وهداها إلى ماقدر لها ، كل فى فلك يسبحون .

وفى الأشجار والنباتات قدر لها أزمنة معينة فى إبتائها وهدايتها إلى ماقدر لها ، فالجذر ينزل إلى أسفل والنبتة تنمو إلى أعلى ، وهكذا الحيوانات فى تلقيحها ونتاجها وإرضاعها ، كل قد هداه إلى ماقدر له ، وهكذا الإنسان .

وقد قال الفخر الرازى : إن العالم كله داخل تحت منطوق هذه الآية .

أما معناها بالتفصيل ، فتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة طه عند الكلام على قوله تعالى : (قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) .

قوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه معنى نقرئك فى سورة طه فى الكلام على قوله تعالى : (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) ، وبينه بآية القيامة (لاتحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه) .

وقوله : فلا تنسى : بحثه رحمة الله تعالى علينا وعليه فى دفع إيهام الاضطراب مع ماينسخ من الآيات فينساه ، وسيطبع إن شاء الله تعالى مع هذه التتمة ، تتمة للفائدة .

قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴾ .

هل ، إن هنا بمعنى إذ أو أنها بشرطية ؟ وهل للشرط مفهوم مخالفة أم لا ؟ كل ذلك بحثه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بتوسع فى دفع إيهام الاضطراب ، ورجح أنها شرطية ، وقسم المدعو إلى ثلاثة أقسام مقطوع بنفعه ، ومقطوع بعدم نفعه ، ومحتمل وقال : محل التذكير مالم يكن مقطوعا بعدم نفعه ، كمن بين له مراراً فأعرض ، كأنى لمب ، وقد أخبر الله عنه بمآله فلانفع فى تذكيره .

قوله تعالى : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان الحكمة من الذكرى :

ومنها تذكير المؤمنين ، وذلك فى الكلام على قوله تعالى : (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) فى سورة الذاريات .

قوله تعالى : ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى، الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴾.

أى بسبب شقائهم السابق أزلا ، كما قال تعالى : (فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق) .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ .

نفى عنه الضدين ، لأن الإنسان بالذات إما حى وإما ميت ، ولا واسطة بينهما ، ولكن فى يوم القيامة تتغير الموازين والمعايير ، وهذا أبلغ فى التعذيب ، إذ لو مات لاستراح ، ومع أنه يتلقى من العذاب ما لاحياة معه ، كما فى قوله تعالى : (لايقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها) .

وقوله : (ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان معنى ذلك فى سورة طه عند الكلام على قوله تعالى : (إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لايموت فيها ولا يحيى) .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ .

أسند الفلاح هنا إلى من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ، وفى غير هذه الآية أسند التزكية لمشيئة الله فى قوله : (ولولا فضل الله عليكم

ورحمته مازكى منكم من أحد أبدا) ، وفى آية أخرى ، نهى عن تزكية النفس .

وقد تقدم للشيخ بيان ذلك فى سورة النور عند الكلام على قوله تعالى : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد) على أن زكى بمعنى تطهر من الشرك والمعاصى ، لاعلى أنه أخرج الزكاة ، والذى يظهر أن آية النجم إنما نهى فيها عن تزكية النفس لما فيه من امتداحها ، وقد لا يكون صحيحاً كما فى سورة الحجرات (قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ، وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ، إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ، صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ .

قرىء : تؤثرون بالتاء وبالياء راجعاً إلى (الأشقى الذى يصلى النار الكبرى) ، وعلى أنها بالتاء للخطاب أعم ، وحيث إن هذا الأمر عام فى الأمم الماضية ، ويذكر فى الصحف الأولى كلها عامة ، وفى صحف إبراهيم وموسى ، مما يدل على خطورته ، وأنه أمر غالب على الناس .

وقد جاءت آيات دالة على أسباب ذلك منها الجهل وعدم العلم بالحقائق ، كما فى قوله تعالى : (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ،

وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون) أى الحياة الدائمة .

وقد روى القرطبى عن مالك بن دينار قوله : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من خزف يبقى ، لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى ، فكيف والآخرة من ذهب يبقى والدنيا من خزف يفنى ؟

ومن أسباب ذلك أن الدنيا زينت للناس وعجلت لهم كما فى قوله (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث) .

ثم قال : (ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) .

وبيّن تعالى هذا المآب الحسن وهو فى وصفه يقابل والآخرة خير وأبقى ، فقال : (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد) .

تأمل هذا البديل ، ففى الدنيا ذهب وخيل ونساء والأنعام والحرث ، وقد قابل ذلك كله بالجنة فعمت وشملت ، ولكن نص على أزواج مطهرة ليعرف الفرق بين نساء الدنيا ونساء الآخرة ، كما تقدم فى (أنهار من عسل مصفى ولبن لم يتغير طعمه ، وماء آسن وخمر لذة للشاربين لا يصدعون عنها ولا ينزفون) وغير ذلك مما ينص على الخيرية فى الآخرة .

ولاشك أن من آثر الآخرة غالب على من آثر الدنيا ، وظاهر عليه ، كما صرح تعالى بذلك فى قوله : (زين للذين كفروا الحياة ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب) .

فمن هذا يظهر أن أسباب إيثار الناس للحياة الدنيا هو تزيينها وزخرفتها فى أعينهم بالمال والبنين والخيل والأنعام (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) .

وقد سيق هذا ، لاعلى سبيل الإخبار بالواقع فحسب ، بل إن من ورائه مايسمى لازم الفائدة ، وهو ذم من كان هذا حاله ، فوجب البحث عن العلاج لهذه الحالة .

وإذا ذهبنا نتطلب العلاج فإننا فى الواقع نواجه أخطر موضوع على الإنسان ، لأنه يشمل حياته الدنيا ومآله فى الآخرة ، ويتحكم فى سعادته وفوزه أو شقاوته وحرمانه ، وإن أقرب مأخذ لنا لهو هذا الموطن بالذات من هذه السورة ، وهو بضميمة ما قبلها إليها من قوله تعالى : (سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى) ، وبعدها (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) فقد قسمت هذه الآيات الأمة كلها أمة الدعوة إلى قسمين .

أما التذكير والإنذار ، إذ قال تعالى : (فذكر إن نفعت

الذكرى)، فهذا موقف النبي صلى الله عليه وسلم ، وجاء تقسيم الأمة إلى القسمين الآيتين : سيذكر من يخشى : فينتفع بالذكرى وتنفعه ، ويتجنبها الأشقى : فلا تنفعه ولا ينتفع بها ، ثم جاء الحكم بالفلاح : قد أفلح من تزكى ، أى من يخشى وذكر اسم ربه فصلى ، ولم يغفل عن ذكر الله تعالى ، وهذا الموقف بنفسه هو المفصل فى سورة الحديد ، وفى معرض التوجيه لنا والتوبيخ للأمم الماضية أيضاً (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) .

فقسوة القلب وطول الأمد والتسويف : هى العوامل الأساسية للغفلة وإيثار الدنيا . والخشية والذكر : هى العوامل الأساسية لإيثار الآخرة ثم عرض الدنيا فى حقيقتها بقوله : (اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث — إلى قوله — والله ذو الفضل العظيم) .

فوصف الداء والدواء معاً فى هذا السياق . فالداء : هو الغرور ، والدواء : هو المسابقة إلى مغفرة من الله ورضوانه .

وقوله : (إن هذا لفى الصحف الأولى) قيل : اسم الإشارة راجع إلى السورة ، كلها لتضمنها معنى التوحيد والمعاد والذكر والعبادات ،

والصحف الأولى : هى صحف إبراهيم وموسى ، على أنهـا بدل من الأولى .

وجاء عند القرطبى : أن صحف إبراهيم كانت أمثالا ، وصحف موسى كانت مواعظ ، وذكر نماذج لها .

وعند الفخر الرازى من رواية أبى ذر رضى الله عنه ، أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم « كم أنزل الله من كتاب ؟ فقال : مائة وأربعة كتب على آدم عشر صحف ، وعلى شئث خمسين صحيفة ، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عشر صحائف والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان » .

وفى هذا نص على أن فى القرآن مما فى الصحف الأولى ، وقد جاء مايدل أن ممـان أخرى كذلك فى صحف إبراهيم وموسى كما فى سورة النجم فى قوله : (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفّى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للانسان إلا ماسعى ، وأن سعيـه سوف يرى) إلى آخره .

وهذا يؤيد أنها أكثرها أمثالا ومواعظ ، كما يؤكد ترابط الكتب السماوية .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الغاشية

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ، وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ، عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ، تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ، تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ، لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ، لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ .

الكلام فى هل هنا ، كالكلام فى هل التى فى أول سورة الإنسان ، أنها استفامية أو أنها بمعنى قد ؟

ورجح أبو السعود وغيره أنها استفهامية للفت النظر وشدة التعجب والتنويه ، بشأن هذا الحديث ، وهو مروى عن ابن عباس قال : رضى الله عنه : « لم يكن أتاه فأخبره به » وحديث الغاشية هو خبرها الذى يتحدث عنها .

والغاشية قال أبو حيان : أصلها فى اللغة : الداهية تغشى الناس ، واختلف فى المراد بها هنا ، فقيل : يوم القيامة .

وقيل : النار . واستدل كل قائل بنصوص . فمن الأول قوله : (يوم يغشاهم العذاب) .

قال الفخر الرازى · وإنما سميت القيامة بهذا الاسم ، لأن ما أحاط بالشىء من جميع جهاته فهو غاش له ، والقيامة كذلك من وجوه . الأول ، أنها ترد على الخلق بغتة ، وهو كقوله : (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة) .

والثانى : أنها تغشى الناس جميعاً من الأولين والآخرين .

والثالث : أنها تغشى الناس بالأهوال والشدائد .

ومن استدلالهم على أنها النار ، قوله تعالى : (وتغشى وجوههم النار) .

وقيل الغاشية : أهل النار يغشونها أى يدخلونها ، فالغاشية كالدافة فى حديث الأضاحى .

وقال الطبرى : والراجح عندى أن الله تعالى أطلق ليعم ، فيجب أن تطلق ليعم أيضا .

والذى يظهر رجحانه والله تعالى أعلم : أنها فى عموم القيامة وليس فى خصوص النار ، فالنار من أهوال ودواهى القيامة ، وهو ما يشهد له القرآن فى هذا السياق من عدة وجوه ، ومنها : أنه جاء بعدها قوله : (وجوه يومئذ) ويوم أنسب للقيامة منه للنار .

ومنها : التصريح بعد ذلك ، بأن من كانت تلك صفاتهم تصلى

ناراً حامية ، مما يدل على أن الغاشية شيء آخر سوى النار الحامية .

ومنها : أن التعميم ليوم القيامة يشمل جميع الخلائق ، وهو الأنسب بالموقف ، ثم ينجى الله الذين اتقوا .

وقد بين تعالى قسيم هذا الصنف ، مما يدل على أن الحديث المراد إلقاؤه ، إنما هو عن حالة عموم الموقف .

قوله تعالى (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارا حامية) الآيات.

اتفقوا على أن يومئذ ، يعنى يوم القيامة .

وقال أبو حيان : والتنوين فيه تنوين عوض . وهو تنوين عوض عن جملة ، ولم تتقدم جملة تصلح أن يكون التنوين عوضا عنها ، لكن لما تقدم لفظ الغاشية .

وأل موصولة باسم الفاعل ، فتنحل للتى غشيت أى للداهية التى غشيت ، فالتنوين عوض من هذه الجملة التى انحل لفظ الغاشية إليها ، وإلى الموصول الذى هو التى ، وهذا مما يرجح ويؤيد ما قدمناه ، من أن الغاشية هى القيامة . وجوه يومئذ خاشعة ، بمعنى ذليلة .

قال أبو السعود : هذا وما بعده وقع جوابا عن سؤال ، نشأ من

الاستفهام التشويقى المتقدم ، كأنه قيل من جانبه صلى الله عليه وسلم « ما أتانى حديثها ، فأخبره الله تعالى . فقال : وجوه » . إلخ .

قال : ولا بأس بتنكيرها لأنها فى موقع التنويع ، أى سوغ الابتداء بالنكرة كونها فى موقع التنويع : وجوه كذا ، ووجوه كذا .

وخاشعة : خبر المبتدإ ، أى وما بعده من صفاتهم .

وقوله (عاملة ناصبة) العمل معروف ، والنصب : التعب ، وقد اختلف فى زمن العمل والنصب هذين ، هل هو كان منها فى الدنيا أم هو واقع منهم فعلا فى الآخرة ، وما هو على كلا التقديرين : فالذين قالوا : هو كان منهم فى الدنيا ، منهم من قال : عمل ونصب فى العبادات الفاسدة كعمل الرهبان والقسيسين والمبتدعة الضالين ، فلم ينفعهم يوم القيامة ، أى كما فى قوله (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) .

ومنهم من قال : عمل ونصب والتذ ، فيما لا يرضى الله ، فعامله الله بنقيض قصده فى الآخرة ، ولكن هذا الوجه ضعفه ظاهر ، لأن من هذه حالهم لا يعدون فى عمل ونصب بل فى متعة ولذة .

والذين قالوا : سيقع منهم بالفعل يوم القيامة ، اتفقوا على أنه عمل ونصب فى النار من جر السلاسل ، عياذاً بالله . وصعودهم وهبوطهم الوهاد

والوديان ، أى كما فى قوله (سأرهقه صعودا) ، وقوله (ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا) .

وقد ذكر الفخر الرازى تقسيما ثلاثيا ، فقال : إما أن يكون ذلك كله فى الدنيا أو كله فى الآخرة ، أو بعضه فى الدنيا وبعضه فى الآخرة ، ولم يرجح قسما منها إلا أن وجه القول بأنها فى الدنيا وهى فى القسيسين ، ونحوهم . فقال : لما نصبوا فى عبادة إله وصفوه بما ليس متصفا به ، وإنما تخيلوه تخيلا أى بقولهم ثالث ثلاثة وقولهم : (عزير ابن الله) فكانت عبادتهم لتلك الذات المتخيلة لا لحقيقة الإله سبحانه .

ولا يبعد أن يقال على هذا الوجه : إن من كان ممن لا ينطق بالشهادتين ويعمل على جهالة فيما لا يعذر بجهله أن يخشى عليه من هذه الآية ، كما يخشى على من يعمل على علم ، ولكن فى بدعة وضلالة .

ومما يشهد للأول حديث المسىء صلاته ولأثر حذيفة « رأى رجلا يصلى فطفق فقال له : منذ كم تصلى هذه الصلاة ؟ قال : منذ أربعين سنة . قال له : ما صليت منذ أربعين سنة ولو مت على ذلك ، مت على غير فطرة محمد صلى الله عليه وسلم » .

والأحاديث الواردة فى ذلك على سبيل العمومات مثل قوله صلى الله عليه وسلم « من عمل عملا ليس عليه أمرى فهو رد » أى مردود .

وحديث الحوض « فيذاد أقوام عن حوضى ، فأقول : أمتى أمتى ، فيقال : إنك لا تدرى ماذا أحدثوا بعدك إنهم غيّروا وبدّلوا » .

ونحو ذلك مما يوجب الانتباه إلى صحة العمل وموافقته لما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم .

وكذلك القسم الثانى كما فى قوله : (قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم) الآية .

أما الراجح من القولين فى زمن عاملة ناصبة أهو فى الدنيا أم فى الآخرة ؟ فإنه القول بيوم القيامة ، وهو مروى عن ابن عباس وجماعة . والأدلة على ذلك من نفس السياق .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام جيد جداً فى هذا الترجيح ، ولم أقف على قول لغيره أقوى منه ، نسوق مجمله للفائدة :

قال فى المجموع فى تفسير هذه السورة بعد حكاية القولين : الحق هو الثانى لوجوه ، وساق سبعة وجوه :

الأول : أنه على القول الثانى يتعلق الظرف بما يليه ، أى وجوه يوم الغاشية ، خاشعة عاملة ناصبة صالية .

أما على القول الأول فلا يتعلق إلا بقوله : تصلى . ويكون قوله :

خاشعة صفة للوجوه ، قد فصل بينها وبين الموصوف بأجنبي متعلق بصفة أخرى . والتقدير : وجوه خاشعة عاملة ناصبة يومئذ تصلى ناراً حامية . والتقديم والتأخير على خلاف الأصل ، فالأصل إقرار الكلام على نظمه وترتيبه لا تغيير ترتيبه ، والتقديم والتأخير ، إنما يكون مع قرينة .

والثانى : أن الله ذكر وجوه الأشقياء ووجوه السعداء فى السورة بعد ذلك (وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية فى جنة عالية) أى فى ذلك اليوم ، وهو يوم الآخرة : فالواجب تناظر القسمين أى فى الظرف.

الثالث : أن نظير هذين القسمين ما ذكر فى موضع آخر فى قوله (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة . ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة) ، وفى موضع آخر فى قوله (وجوه يومئذ مسفرة، ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة) وهذا كله وصف للوجوه فى الآخرة .

الرابع : أن المراد بالوجوه أصحابها لأن الغالب فى القرآن وصف الوجوه بالعلامة كقوله : (سيماهم فى وجوههم) وقوله : (فلعرفتهم بسيماهم) ، وهذا الوجه لم تتضح دلالته على المقصود .

الخامس : أن قوله : خاشعة عاملة ناصبة ، لو جعل صفة لهم

فى الدنيا لم يكن فى هذا اللفظ ذم ، فإن هـذا إلى المدح أقرب ، وغايته أنه وصف مشترك بين عباده المؤمنين وعباده الـكافرين ، والذم لا يكون بالوصف المشترك ولو أريد المختص ، لقيل : خاشعة للأوثان مثلا ، عاملة لغير الله ، ناصبة فى طاعة الشيطان ، وليس فى القرآن ذم لهذا الوصف مطلقا ولا وعيد عليه ، فحمله على هذا المعنى خروج عن الخطاب المعروف فى القرآن ، وهـذا الوجه من أقواهـا فى المعنى وأوضحها دلالة .

وقد يشهد له أن هؤلاء قد يكون منهم العوام للمغرورون بغيرهم ، ويندمون غاية الندم يوم القيامة على اتباعهم إياهم ، كما فى قوله تعالى : (وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليـكونا من الأسفلين) .

السادس : وهو مهم أيضاً ، أنه لو جعل لهم فى الدنيا لـكان خاصا ببعض الـكفار دون بعض ، وكان مختصا بالعباد منهم ، مع أن غير العباد منهم يكونون أسوأ عملا ويستوجبون أشد عقوبة .

السابع : أن هذا الخطاب لو جعل لهم فى الدنيا لـكان مثله ينفر من أصل العبادة والتنسك ابتداء ، أى وقد جاءت السنة بترك أصحاب الصوامع والمتنسكين دون التعرض لهم بقتل ولا قتال ، كما أنهـا

أقرت أصحاب الديانات على دياناتهم ، مما يشعر باحترام أصل التعبد لعموم الجنس ، كما أشار رحمة الله تعالى عليه .

وقد أوردنا مجمل كلامه رحمه الله ، لئلا تتخذ الآية على غير ما هو الراجح فيها ، أو يحمل السياق على غير ما سبق له ، وقد ختم كلامه بتوجيه لطيف بقوله : ثم إذا قيد ذلك بعبادة الكفار والمبتدعة ، وليس فى الخطاب تقييد ، كان هذا سعياً فى إصلاح الخطاب بما لم يذكر فيه . اهـ .

ومن الذى يعطى نفسه حق إصلاح الخطاب فى كلام رب العالمين ، إنها لفتة إلى ضرورة ومدى أهمية تفسير القرآن بالقرآن ، الذى نهجه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى أضواء البيان فى تفسير القرآن بالقرآن .

وقد بدا لى وجه آخر ، وهو لو جعل هذا العمل الكفار والمبتدعة ، لكان منطوقه أن العذاب وقع عليهم مجازاة على عملهم ونصبهم فى عبادتهم تلك ، والحال أن عذاب الكفار عموماً إنما هو على ترك العمل لله وحده ، وعقاب المبتدعة فيما ابتدعوه من ضلال ، فإذا كان ما ابتدعوه لاعلاقة له بأركان الإسلام ولا بالعقيدة ، وإنما هو فى فروع من العبادات ابتدعوها لم تكن فى السنة ، فإنهم وإن عملوا ونصبوا فلا أجر لهم فيها ،

ولا يقال : إنهم يعذبون عليها بطل ذلك المذكور مع سلامة العقيدة فى التوحيد ، والقيام بالواجب فى أركان الإسلام ، إذ العذاب المذكور ليس مقابلا بالعمل والنصيب المذكور ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴾ :

قيل : حاضرة ، وقيل : شديدة الحرارة ، وهذا الأخير هو ما يشهد له القرآن فى قوله تعالى : (يطوفون بينها وبين حميم آن) ، ومعلوم أن الحميم شديد الحرارة ، كما أن حملها على معنى حاضرة لم يكن فيه بيان معنى ما فى تلك العين من أنواع الشراب المعد والمحضر لهم ، وفى المعجم حميم آن : قد انتهى حره ، والفعل : أنى الماء المسخن يأنى بكسر النون . قال عباس :

علانيه والخيل يغشى متونها حميم وآن من دم الجوف ناقع

قوله تعالى ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴾ .

تكلم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب فى الجمع بينه وبين قوله تعالى : (فليس له اليوم ها هنا حميم ولا طعام إلا من غسلين) ، وبين الصحيح من معنى الضريع ماهو ، وأنه نبت معروف للعرب ، وهو على الحقيقة لا المجاز

وقد أورد الفخر الرازى سؤالا والجواب عليه ، وهو كيف ينبت الضريع فى النار ؟ فأجاب بالإحالة على تصور كيف يبقى جسم الكفار حياً فى النار ، وكذلك الحيات والعقارب فى النار .

وهذا وإن كان وجيهاً من حيث منطق القدرة ، ولكن القرآن قد صرح بأن النار فيها شجرة الزقوم ، وأنها فتنة للظالمين فى قوله : (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ، إنا جعلناها فتنة للظالمين ، إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين فإنهم لآكلون منها فمالؤن منها البطون) فأثبت شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، وأثبت لها لازمها وهو طلعها فى تلك الصورة البشعة ، وأثبت لازم اللازم وهو أكلهم منها حتى ملء البطون .

والحق أن هذا السؤال وجوابه قد أثاره المبطلون ، ولكن غاية مافى الأمر سلب خاصية الإحراق فى النار عن النبات ، وليس هذا ببعيد على قدرة من خلق النار وجعل لها الخاصية .

وقد وجد نظيره فى الدنيا فتلك نار النمروذ ، كانت تحرق الطير فى الجو إذا اقترب منها . وعجزوا عن الدنو إليها ليلقوا فيها إبراهيم ووضعوه فى المنجنيق ورموه من بعيد ، ومع ذلك حفظه الله منها بقوله

تعالى لها : (كونى برداً وسلاماً على إبراهيم) فسبحان من بيده ملكوت كل شيء .

قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ، لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ، لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ، فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ، فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ، وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ، وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ، وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ .

وهذا هو قسيم القسم الأول فى بيان حال أهل الجنة ، ولم يعطف بالواو إيذانا بكمال تباين مضمونيهما . ويومئذ : هو يوم الغاشية المتقدم ، وهذا يقتضى أن الغاشية عامة فى الفريقين . وإن اختلفت أحوالها مع مختلف الناس ، وعليه فمنهم من تغشاه بهولها ، ومنهم من تغشاه بنعيمها . وهى بالنسبة لكل منهما متناهية فيما تغشاهم به ، وهى صادقة على الفريقين .

ومعلوم أن الغاشية تطلق على الخير كما تطلق على الشر ، بمعنى الشمول والإحاطة التامة . ومن إطلاقها على الخير ماجاء فى الحديث : « ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله تعالى فيه إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ، وذكرهم الله فيمن عنده » أخرجه مسلم .

وبيان ذلك وتحقيقه فى حق كلا القسمين كالآتى :

أما الأول منهما : وهو الغاشية فى حق أهل النار فقد غشيهم العذاب حساً ومعنى ظاهراً وباطناً أو لا خشوع فى ذلة ، وهى ناحية نفسية ، وهى أثقل أحياناً من الناحية المادية ، فقد يختار بعض الناس الموت عنها ، ثم مع الذلة العمل والنصب حساً وبدناً ، ومع النصب الشديد تصلى ناراً حامية ، وكان يكفى تصلى ناراً . ولكن إتباعها بوصفها حامية فهو زيادة فى إبراز عذابهم وزيادة فى غشيان العذاب لهم ، ثم يسقون من عين آنية متناهية فى الحرارة فيكونون بين نار حامية من الخارج وحميم من الداخل تصهر منه البطون ، فهو أتم فى الشمول للغاشية لهم من جميع الوجوه ، وفى حق القسم المقابل تعميم كامل وسرور شامل كالآتى ، وجوه ناعمة مكتملة النعمة ، تعرف فى وجوههم نضرة النعيم .

وهذا فى شموله من الناحية المعنوية كمقابله فى القسم الأول بدلا من خاشعة فى ذلة ناعمة فى نضرة لسعيها راضية الذى سعته فى الدنيا ، والذى تسعى لتحصيله أو ثوابه فى جنة عالية بدلا من عمل ونصب ، لا تسمع فيها لاغية : منزلة أدبية رفيعة حيث لا تسمع فيها كلمة لغو ولا يليق بها ، فهو إكرام لهم حتى فى الكلمة التى يسمعونها ، كما فى قوله : (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قليلا سلاماً سلاماً) . فيها عين جارية . ومعلوم أنها عيون وأنهار تجرى ، كقوله : (فى

جنات وعيون) ، ومن لوازم العيون والأنهار ، هو كمال النعيم ، فأشجار ورياحين ، فروح وريحان وجنة نعيم . وهذا فى التعميم يقابل العين الآنية فى الحميم للقسم الأول ، فيها سرر مرفوعة وهم عليها متكؤن بدل من عمل الآخرين فى نصب وشقاء . وأكواب موضوعة لإتمام التمتع وكمال الخدمة والرفاهية . ونمارق مصفوفة متكا وزرابى مبثوثة مفروشة فى كل مكان ، فاكتمل النعيم من كل جانب ، حيث اشتمل ما تراه العين وما تسمعه الأذن وما يتذوقون طعمه من شراب وغيره .

فيكون بذلك قد غشيتهم النعمة ، كما غشيت أولئك النقمة . وتكون الغاشية بمعنى الشاملة ، وعلى عمومها للفريقين ، وهى صالحة لغة وشرعاً للمعذبين بالعذاب ، وللمنعمين بالنعيم . وبالله تعالى التوفيق .

تنبيـــه

مجىء فيها مرتين : فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة . للدلالة على قسمى نعيم الجنة . الأول : عيون ونزهة . والثانى : سرر وسكن .

قوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ . فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ .

توجيه الأنظار إلى تلك المذكورات الأربعة ، لما فيها من عظيم الدلائل على القدرة وعلى البعث وتم الإقرار لله تعالى بالوحدانية والألوهية، نتيجة لإثبات ربوبيته تعالى لجميع خلقه .

أما الإبل فلعلها أقرب المعلومات للعرب وألصقها بحياتهم فى مطعمهم من لحمها ومشربهم من ألبانها ، وملبسهم من أوبارها وجلودها ، وفى حلهم وترحالهم بالحمل عليها مما لا يوجد فى غيرها فى العالم كله لا فى الخيل ولا فى الغيلة ، ولا فى أى حيوان آخر ، وقد وجه الأنظار إليها مع غيرها فى معرض امتنانه تعالى عليهم فى قوله : (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون ، وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون) .

وكذلك فى خصوصها فى قوله : (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم) .

إنها نعم متعددة ومنافع بالغة لم توجد فى سواها البتة ، وكل منها دليل على القدرة بذاته . أما الجبال فهى مما يملأ عيونهم فى كل وقت ويشغل تفكيرهم فى كل حين ، لقربها من حياتهم فى الأمطار والمرعى فى سهولها ، والمقيل فى كهوفها وظلها ، والرهبة والعظمة فى تطاولها وثباتها

فى مكانها . وقد وجه الأنظار إليها أيضاً فى موطن آخر فى قوله تعالى : (ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتادا) ثوابت ، كما بين تعالى أنها : رواسى للأرض أن تميد بكم والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم . فهى مرتبطة بحياتهم وحياة أنعامهم كما أسلفنا .

أما السماء ورفعها أى ورفعتها فى خلقها وبدون عمد ترونها وبدون فطور أو تشقق على تطاول زمنها ، فهى أيضاً محط أنظارهم ، وملتقى طلباتهم فى سقيا أنعامهم .

ومعلوم أن خلق السماء والأرض من آيات الله الدالة على البعث ، كما تقدم مرار .

وتقدم للشيخ عند قوله تعالى : (إن فى خلق السموات والأرض) الآية . بيان كونها آية . أما الأرض وكيف سطحت ، فإن الآية فيها مع عمومها كما فى قوله : (لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس) .

وقوله : (كيف سطحت) آية ثابتة ، لأن جرمها مع إجماع المفسرين على تكويرها ، فإنها ترى مسطحة أى من النقطة التى هى فى امتداد البصر ، وذلك يدل على سعتها وكبر حجمها ، لأن الجرم المتكور إذا بلغ من الكبر والضخامة حداً بعيداً يكاد سطحه يرى مسطحاً من نقطة النظر إليه ، وفى كل ذلك آيات متعددات للدلالة على

قدرته تعالى على بعث الخلائق ، وعلى إيقاع مايغشـــاهم على مختلف أحوالهم .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه التنبيه على هـذا المعنى ، عند الكلام على قوله تعالى : (قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض) الآية . من سورة يونس .

تنبيـــه

التوجيه هنا بالنظر إلى الكيفية فى خلق الإبل ونصب الجبال ، ورفع السماء ، وتسطيح الأرض ، مع أن الكيف للحالة ، والله تعالى لم يشهد أحداً على شىء من ذلك كله (ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض) فكيف يوجه السؤال إليهم للنظر إلى الكيفية وهى شىء لم يشهدوه .

والجواب والله تعالى أعلم : هو أنه بالتأمل فى نتائج خلق الإبل ، ونصب الجبـال إلخ . وإن لم يعلموا الكيف ، بل ويعجزون عن كنهه وتحقيقه ، فهو أبلغ فى إقامة الدليـل عليهم ، كمن يقف أمام صنعة بديعة يجهل سر صنعتها ، فيتساءل كيف تم صنعها ؟ وقد وقع مثل ذلك وهو الإحالة على الأثر بدلا من كشف الكنه والكيف ، وذلك فى سؤال الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ربه ، أن يريه كيف يحيى الموتى . فكان الجواب : أن أراه الطيور تطير ، بعد أن ذبحها بيده وقطعها ، وجعل على كل جبل منها جزءاً . فلم يشاهد كيفية وكنه ، وحقيقة الإحياء ،

وهو دبيب الروح فيها وعودة الحياة إليها . لأن ذلك ليس فى استطاعته، ولـكن شاهد الآثار المترتبة على ذلك ، وهى تحركها وطيرانها وعودتهـا إلى ما كانت عليه قبل ذبحها . مع أنه كان للعزير موقف مماثل وإن كان أوضح فى البيان حيث شاهد العظام وهو سبحـانه ينشزها ، ثم يكسوها لحما . والله تعالى أعلم .

أما قوله تعالى بعد ذلك (فذكر إنما أنت مذكر) فإن مجىء هذا الأمر بالفـاء فى هـذا الموطن ، فإنه يشعر بأن النظر الدقيق والفكر الدارس ، ممـا قد يؤدى بصاحبـه إلى الاستدلال على وجود الله وعلى قدرته ، كما نطق مؤمن الجاهلية قس بن ساعدة فى خطبته المشهورة : ليل داج، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحـار تزخر ، وجبال مرساه ، وأرض مدحاه ، وأنهار مجراه . فقد ذكر السماء والجبال والأرض .

وكقول زيد بن عمرو بن نفيل ، مؤمن الجاهلية المعروف :

وأسلمت وجهى لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرا ثقالا
دحاها فلمـا استوت شـدها سواء وأرسى عليهـا الجبالا
وأسلمت وجهى لمن أسلمت له المزن تحمل عـذبا زلالا
إذا هى سيقت إلى بلدة أطاعت فصبت عليها سجالا
وأسلمت وجهى لمن أسلمت له الريح تصرف حالا فحالا

فكان على هؤلاء العقلاء أن ينظروا بدقة وتأمل ، فيما يحيط بهم

عامة . وفى تلك الآيات الكبار خاصة ، فيجدون فيها مايكفيهم .

كما قيل :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

فإذا لم يهدهم تفكيرهم ولم تتجه أنظارهم . فذكرهم إنما أنت مذكر . وهذا عام ، أى سواء بالدلالة على القدرة من تلك المصنوعات أو بالتلاوة من آيات الوحى . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾

فيه الدلالة على أن الإياب هو المرجع .

قال عبيد :

وكل ذى غيبة يؤوب وغائب الموت لايؤوب

كما فى قوله : (إليه مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) وهو على الحقيقة كما فى صريح منطوق قوله تعالى : (ثم إلىّ مرجعكم فأحكم بينكم) الآية .

وقوله : (ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) .

وقوله : (ثم إن علينا حسابهم) الإتيان بثم للاشعار مابين إيابهم وبدء حسابهم ، (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) .

وقوله : (إن علينا) بتقدم حرف التأكيد ، وإسناد ذلك لله تعالى ،

ويحرف على مما يؤكد ذلك لامحالة ، وأنه بأدق ما يكون ، وعلى الصغيرة والكبيرة كما فى قوله : (إن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) .

ومن الواضح مجىء (إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم) بعد قوله تعالى : (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر) تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ، وتخويف لأولئك الذين تولوا وأعرضوا ، ثم إن الحساب فى اليوم الآخر ليس خاصا بهؤلاء ، بل هو عام بجميع الخلائق . ولكن إسناده لله تعالى مما يدل على المعانى المتقدمة .

نسأل الله العفو والسلامة .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ وَٱلْفَجْرِ . وَلَيَالٍ عَشْرٍ . وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ . وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾

اختلف فى المراد بالفجر ، فقيل : انفجار النهار من ظلمة الليل .

وقيل : صلاة الفجر .

وكلا القولين له شاهد من القرآن . أما انفجار النهار ، فكما فى قوله تعالى : (والصبح إذا تنفس) .

وأما صلاة الفجر فكما فى قوله : (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) ، ولكن فى السياق مايقرب القول الأول ، إذ هو فى الأيام والليالى الفجر وليال عشر ، الليل إذا يسرى ، وكلها آيات زمنية أنسب لها انفجار النهار .

بقى بعد ذلك اختلافهم فى أى الفجر عنى هنا ، فقيل بالعموم فى كل يوم ، وقيل : بالخصوص . والأول قول ابن عباس وابن الزبير وعلى رضى الله عنهم .

وعلى الثانى فقيل : خصوص الفجر يوم النحر . وقيل : أول يوم المحرم ، وليس هناك نص يعول عليه . إلا أن فجر يوم النحر أقرب إلى الليالى العشر ، إن قلنا : هى عشر ذى الحجة على مايأتى إن شاء الله .

أما الليالى العشر فأقوال المفسرين محصورة فى عشر ذى الحجة ، وعشر المحرم والعشر الأواخر من رمضان . والأول جاء عن مسروق أنها العشر التى ذكرها الله فى قصة موسى عليه السلام وأتممناها بعشر ، وكلها الأقوال الثلاثة مروية عن ابن عباس . وليس فى القرآن نص بعينها .

وفى السنة بيان فضيلة عشر ذى الحجة وعشر رمضان كما هو معلوم ، فإن جعل الفجر خاصا بيوم النحر ، كان عشر ذى الحجة أقرب للسياق . والله تعالى أعلم .

والشفع والوتر : ذكر المفسرون أكثر من عشرين قولا ومجموعها يشمل جميع المخلوقات جملة وتفصيلا .

أما جملة فقالوا : إنما الوتر هو الله ، للحديث : « إن الله وتر يحب الوتر » ، وما سواه شفع ، كما فى قوله تعالى : (ومن كل شىء خلقنا زوجين) ، فهذا شمل كل الوجود الخالق والمخلوق ، كما فى عموم (فلا أقسم بما تبصرون وما لاتبصرون) .

أما التفصيل فقالوا : المخلوقات إما شفع كالحيوانات أزواجا ، والسماء والأرض والجبل والبحر والنار والماء . وهكذا ذكروا لكل شىء مقابلة ، ومن الأشياء الفرد كالهواء وكلها من باب الأمثلة .

والواقع أن أقرب الأقوال عندى والله أعلم : أنه هو الأول لأنه

ثبت علمياً أنه لايوجد كائن موجود بمعنى الوتر قط حتى الحصاة الصغيرة .

فإنه ثبت أن كل كائن جماد أو غيره مكون من ذرات والذرة لها نواة ومحيط ، وبينهما ارتباط وعن طريقهما التفجير الذى اكتشف فى هذا العصر ، حتى فى أدق عالم الصناعة كالكهرباء ، فإنها من سالب وموجب ، وهكذا لابد من دورة كهربائية للحصول على النتيجة من أى جهاز كان ، حتى الماء الذى كان يظن به البساطة فهو زوج وشفع من عنصرين ، أكسجين وهدروجين ، ينفصلان إذا وصلت درجة حرارة الماء إلى مائة أى الغليان ، ويتآلفان إذا نزلت الدرجة إلى حد معين فيتقاطران ماء . وهكذا .

ونفس الهواء عدة غازات وتراكيب ، فلم يبق فى الكون شىء قط فرداً وتراً بذاته ، إلا مانص عليه الحديث « إن الله وتر يحب الوتر » ويمكن حمل الحديث على معنى الوتر فيه مستغنى بذاته عن غيره ، والواحد فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله . فصفاته كلها وتر كالعلم بلا جهل والحياة بلا موت . إلخ . بخلاف المخلوق ، وقلنا : المستغنى بذاته عن غيره ، لأن كل مخلوق شفعا ، فإن كل عنصر منه فى حاجة إلى العنصر الثانى ، ليكون معه ذاك الشىء والله سبحانه بخلاف ذلك. ولهذا كان القول الأول ، وهو أن الوتر هو الله ، والشفع هو المخلوقات جميعها ، هو القول الراجح ، وهو الأعم فى المعنى .

قوله : (والليل إذا يسر) اتفق المفسرون على المعنى وهو سريان الليل ، ولكن الخلاف فى التعيين هل المراد به عموم الليالى فى كل ليلة أم ليلة معينة ، وما هى ؟

فقيل : بالعموم كقوله : (والليل إذا عسعس) .

وقيل : بالخصوص فى ليلة مزدلفة أو ليلة القدر .

وأيضاً يقال : إذا كان الفجر فجر النحر ، والعشر عشر ذى الحجة فيكون (والليل إذا يسر) ليلة الجمع . والله تعالى أعلم .

وقد رجح القرطبى وغيره عموم الليل ، وقد جمع فى هذا القسم جميع الموجودات جملة وتفصيلا ، فشملت الخالق والمخلوق والشفع والوتر إجمالا وتفصيلا ، فى انفجار الفجر وانتشار الخلق وسريان الليل وسكون الكون ، والعبادات فى الليالى العشر .

فكان من أعظم ما أقسم الله به قوله تعالى : (هل فى ذلك قسم لذى حجر) أى عقل ، والحجر كل مادته تدور على الإحكام والقوة ، فالحجر لقوته ، والحجرة لإحكام مافيها ، والعقل سمى حجراً بكسر الحاء . لأنه يحجر صاحبه عما لايليق ، والمحجور عليه لمنعه من تصرفه وإحكام أمره ، وحجر المرأة لطفلها ، فهذه المقسم بها الخمسة هل فيها قسم كاف لذى عقل ، والجواب : بلى ، وهذا مايقوى هذا القسم بلا شك .

ثم اختلف فى جواب هذا القسم حيث لم يصرح تعالى به ، كما صرح به فى نظيره ، وهو قوله : (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) .

ثم صرح بالمقسم عليه (إنه لقرآن كريم) الآية . وهنا لم يصرح به مع عظم القسم فوقع الخلاف فى تعيينه .

فقيل : هو مقدر تقديره ليعذبن يدل له قوله (ألم تر كيف فعل ربك بعاد — إلى قوله — فصب عليهم ربك سوط عذاب) .

وقيل : موجود وهو قوله : (إن ربك لبالمرصاد) قاله القرطبى .

وهذا من حيث الصناعة فى اللغة وأساليب التفسير وجيه ، ولكن يوجد فى نظرى والله تعالى أعلم : ارتباط بين القسم وجوابه وبينما يجىء فى آخر السورة من قوله : (كلا إذا دكت الأرض دكا دكا) إلى آخر السورة .

كما أنه يظهر ارتباط كبير بينه وبين آخر السورة التى قبلها ، إذ جاء فيها (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر) ، (والفجر وليال عشر — إلى قوله — هل فى ذلك قسم لذى حجر) ، لأن مافيه من الوعيد بالعذاب الأكبر والقصر فى إيابهم إلى الله وحده وحسابهم عليه فحسب يتناسب معه هذا القسم العظيم .

أما ارتباطه بما فى آخر السورة ، فهو أن المقسم به هنا خمس مسميات (والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر) والذى فى آخر السورة أيضاً خمس مسميات : دكّ الأرض دكاً دكاً ، وجاء ربك والملك صفاً صفاً ، وجىء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى .

صور اشتملت على اليوم الآخر كله من أول النفخ فى الصور ، ودك الأرض إلى نهاية الحساب ، وتذكر كل إنسان ماله وما عليه ، تقابل ما اشتمل عليه القسم المتقدم من أمور الدنيا .

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ . وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ . وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ . الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴾ .

لم يبين هنا ماذا ولا كيف فعل ، بمن ذكروا ، وهم عاد وثمود وفرعون .

وقد تقدم ذكر ثلاثتهم فى سورة الحاقة عند قوله تعالى : (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم - إلى قوله - فأخذهم أخذة رابية) .

والجديد هنا : هو وصف كل من عاد من أنها ذات العماد ، ولم يخلق

مثلها فى البلاد ، وثمود أنهم جابوا الصخر بالواد ، وفرعون أنه ذو أوتاد .

وقد اختلف فى المعنى بهذه الصفات كلها .

أما عاد ، فقيل : العماد عماد بيوت الشعر ، والمراد بها القبيلة . وطول عماد بيوتها : كناية عن طول أجسامهم ، كما قيل فى صخر :

* رفيع العماد طويل النجـاد *

وطول الأجسام يدل على قوة أصحابها .

وقيل : إرم : كانت مدينة رفيعة البنيان ، وذكروا فى أخبارها قصصاً تفوق الخيال ، وأنها فى الربع الخالى ، ولكن حيث لم تثبت أخبارها بسند يعول عليه ، ولم يصدقه الواقع ، فقال قوم : قد خسف بها ولم تعد موجودة .

أما ثمود : فقد جابوا ، أى نحتوا الصخر بالواد ، بواد القرى فى مدائن صالح ، وهى بيوتهم موجودة حتى الآن .

وأما فرعون ذو الأوتاد ، فقيل : هى أوتاد الخيام ، كان يتدها لمن يعذبهم .

وقيل : هى كناية عن الجنود يثبت بها ملكه .

وقيل : هى أكمات وأسوار مرتفعات ، يلعب له فى مرابعها .

قال ابن جرير مانصه : حدثنا بشر قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة « وفرعون ذى الأوتاد ، ذكر لنا أنها كانت مطال ، وملاعب يلعب له تحتها من أوتاد وجبال »

والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن هذا القول هو الصحيح ، وأنها مرتفعة ، وأنها هى المعروفة الآن بالأهرام بمصر ، ويرجح ذلك عدة أمور :

منها : أنها تشبه الأوتاد فى منظرها طرفه إلى أعلا ، إذ القمة شبه الوتد ، مدببة بالنسبة لضخامتها ، فهى بشكل مثلث ، قاعدته إلى أسفل وطرفه إلى أعلا .

ومنها : ذكره مع ثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، بجامع مظاهر القوة ، فأولئك نحتوا الصخر بيوتاً فارهين ، وهؤلاء قطعوا الصخر الكبير من موطن لاجبال حوله ، مما يدل أنها نقلت من مكان بعيد . والحال أنها قطع كبار صخرات عظام فى اقتطاعها وفى نقلها إلى محل بنائها ، وفى نفس البناء كل ذلك مما يدل على القوة والجبروت ، وتسخير العباد فى ذلك .

ومنها : أن حملها على الأهرام القائمة بالذات والمشاهدة فى كل زمان ولكل جيل ، أوقع فى الموعظة والاعتبار ، بأن من أهلك تلك الأمم ، قادر على إهلاك المكذبين من قريش وغيرهم .

وصدق الله العظيم : (إن ربك لبالمرصاد) .

قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ، كَلَّا ﴾

بيَّن تعالى أنه يعطى ويمسك ابتلاء للعبد .

وقوله تعالى : كلا ، وهى كلمة زجر وردع ، وبيان أن المعنى لا كما قلتم فيه تعديل لمفاهيم الكفار ، بأن العطاء والمنع لا عن إكرام ولا لإهانة ، ولكنه ابتلاء كما فى قوله تعالى : (كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة) .

وقوله : (اعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) .

قوله تعالى ﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ . وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ . وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا . وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ .

بعد ما بين سبحانه صحة المفاهيم فى العطاء والمنع ، جاء فى هذه الآيات وبين حقيقة فتنة المال إيجاباً وسلباً جمعاً وبذلا ، فبدأ بأقبح الوجوه من الإمساك من عدم إكرام اليتيم ، مهيض الجناح ، مكسور الخاطر ، والتقاعس عن إطعام المسكين ، خالى اليد جائع البطن ، ساكن الحركة ،

وهذان الجانبان أهم مهمات بذل المـال وهم يمسكون عنها ، وقد بين تعالى أن هذا الجانب هو اقتحام العقبة عند الشدة ، فى قوله تعالى فى سورة البلد (فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة)

ومن الجانب الآخر (وتأكلون التراث أكلا لما) أى الميراث ، فلا يعطون النسوة وهن ضعيفات الشخصية ، أحوج إلى مال مورثهن ، وتحبون المال حباً حتى استعبدكم وألهاكم التـكاثر فيه .

وهنـا لفت نظر للفريقين ، فمن أعطى منهم لاينبغى له أن يغفل طرق البذل الهامة ، ومن منع لاينبغى له أن يستشرف إلى مالاينبغى له ، وبالله تعالى التوفيق .

قوله تعالى ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا . وَجَآءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ .

تقدم فى سورة الحاقة أيضاً هذا السياق نفسه ، بعد ذكر ثمود وعاد وفرعون فى قوله (فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ـ إلى قوله ـ والملك على أرجائها) الآية . مما يبين معنى صفاً صفاً ، أى على أرجائها صفاً بعد صف .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، الإحالة على مايفسرها

فى سورة الرحمن على قوله تعالى : (إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض) . وقوله تعالى : (وجاء ربك والملك صفا صفا) وجاء ربك : من آيات الصفات .

مواضع البحث والنظر

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مراراً فى الأضواء فى عدة محلات ، وليعلم أنها والاستواء وحديث النزول والإتيان المذكور فى قوله تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام ، والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور) سواء .

وقد أورد الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مبحث آيات الصفات كاملة فى محاضرة أسماها « آيات الصفات » وطبعت مستقلة .

كما تقدم له رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة الأعراف عند قوله تعالى : (ثم استوى على العرش يغشى الليل والنهار) وإن كان لم يتعرض لصفة المجىء بذاتها ، إلا أنه قال : إن جميع الصفات من باب واحد ، أى أنها ثابتة لله تعالى على مبدأ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، على غير مثال للمخلوق ، فثبت استواء يليق بجلاله على غير مثال للمخلوق .

وكذلك هنا كما ثبت استواء ثبت مجىء وكما ثبت مجىء ثبت نزول.

والكل من باب ليس كمثله شىء ، أى على ماقال الشافعى رحمه الله:

نحن كلفنا بالإيمان ، فعلينا أن نؤمن بصفات الله على ما يليق بالله على مراد الله ، وليس علينا أن نكيف ، إذ الكيف ممنوع على الله سبحانه.

قوله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾

قد بين تعالى موضوع تذكر الإنسان ، وهو قوله : (يقول ياليتنى قدمت لحياتى) .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك فى سورة الفرقان عند قوله تعالى : (ويوم يعض الظالم على يديه ، يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا) الآيات .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة البلد

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴾ .

تقدم الكلام على هذه اللام ، وهل هى لنفى القسم أو لتأكيده ، وذلك عند قوله تعالى : (لا أقسم بيوم القيامة) إلا أنها هنا ليست للنفى ، لأن الله تعالى قد أقسم بهذا البلد فى موضع آخر ، وهو فى قوله تعالى : (والتين والزيتون وطور سينين ، وهذا البلد الأمين) ، لأن هذا البلد مراد به مكة إجماعا لقوله تعالى بعده : (وأنت - أى الرسول صلى الله عليه وسلم - حل) أى حال أو حلال (بهذا البلد) ، أى مكة ، على ماسيأتى إن شاء الله .

وقد ذكر القرطبى وغيره نظائرها من القرآن ، والشعر العربى مما لايدل على نفى ، كقوله تعالى : (مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك) مع أن المراد مامنعك من السجود ، وكقول الشاعر :

تذكرت ليلى فاعترتنى صبابة وكاد صميم القلب لايتقطع

أى وكاد صميم القلب يتقطع .

وقد بحثها الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بحثاً مطولا فى دفع إيهام الاضطراب .

وقوله تعالى : (وأنت حل بهـذا البـلد) حل : بمعنى حال ، والفعل المضعف يأتى مضارعه من باب ، نصر ، وضرب ، فإن كان متعديا كان من باب نصر .

تقول : حل العقـدة يحلهـا بالضم ، وتقول : حل بالمكان يحل بالكسر إذا أقام فيه ، والإحلال دون الإحرام .

وقد اختلف فى المراد بحل هل هو من الإحـلال بالمكان ، أو هو من التحلل ضد الإحرام ؟

فأكثر المفسرين أنه من الإحلال ضـد الإحرام ، واختلفوا فى المراد بالإحلال هذا .

فقيل : هو إحلال مكة له فى عام الفتح ، ولم تحل لأحد قبـله ولا بعـده .

وقيل : حل : أى حلال له مايفعل بمـكة غـير آثم ، بينما هم آثمون بفعلهم .

وقيل : حل : أى أن المشركين معظمون هذا البلد وحرمته فى نفوسهم ، ولـكنهم مستحلون إيذاءك وإخراجك .

وذكر أبو حيان : أنه من الحـلول والبقـاء والسكن ، أى وأنت حال بها . اهـ .

وعلى الأول يكون إخباراً عن المستقبل ووعداً بالفتح ، وأنها تحل له بعد أن كانت حراما ، فيقاتل أهلها وينتصر عليهم أو أنه تسلية له ، وأن الله عالم بما يفعلون به ، وسينصره عليهم .

وعلى الثانى : يكون تأكيداً لشرف مكة ، إذ هى أولا فيها بيت الله وهو شرف عظيم ، ثم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم حالٌ فيها بين أهلها .

والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن هذا الثانى هو الراجح ، وإن كان أقل قائلا ، وذلك القرائن من نفس السورة ومن غيرها من القرآن الكريم.

منها : أن حلوله صلى الله عليه وسلم بهذا البلد له شأن عظيم فعلا ، وأهمه أن الله رافع عنهم العذاب لوجوده فيهم ، كما فى قوله تعالى : (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) فكأنه تعالى يقول : وهذا البلد الأمين من العذاب ، وهؤلاء الآمنون من العـــذاب بفضل وجودك فيهم .

ومنها : أنه صلى الله عليه وسلم بحلوله فيها بين أظهرهم ، يلاقى من المشاق ويصبر عليها .

وفيه أروع المثل للصبر على المشاق فى الدعوة ، فقد آذوه كل الإيذاء حتى وضعوا سلا الجزور عليه وهو يصلى عند الكعبة ، وهو يصبر

عليهم ، وآذوه فى عودته من الطائف ، وجاءه ملك الجبال نصرة له ، فأبى وصبر ودعا لهم ، ومنعوه الدخول إلى بلده مسقط رأسه فصبر ، ولم يدع عليهم ، ورضى الدخول فى جوار رجل مشرك وهذا هو المناسب لقوله بعده (لقد خلقنا الإنسان فى كبد) ، وهذا من أعظمه .

فإذا كان كل إنسان يكابد فى حياته ، أيًا كان هو ، ولأى غرض كان ، فمكابدتك تلك جديرة بالتقدير والإعظام ، حتى يقسم بها . والله تعالى أعلم .

قولة تعالى ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾.

قيل : الوالد هو آدم ، وما ولد ، قيل : ما نافية . وقيل : مصدرية .

فعلى أنها نافية : أى وكل عظيم لم يولد له .

وعلى المصدرية : أى بمعنى الولادة من تخليص نفس من نفس ، وما يسبق ذلك من تلقيح وحمل ونمو الجنين وتفصيله وتخليقه وتسهيل ولادته .

وقيل : ووالد وما ولد : كل والد مولود من حيوان وإنسان .

وقد رجح بعض العلماء أن الوالد هو آدم ، وما ولد ذريته ،

بأنه المناسب مع هـــذا البلد لأنها أم القرى ، وهو أبو البشر، فكأنه أقسم بأصول الموجودات وفروعها .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ .

تقدم بيانه عند قوله تعالى : (يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه) .

قوله تعالى: ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا . أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ .

لم يبين أيراه أحد؟ ومن الذى يراه ؟

ومعلوم أنه سبحانه وتعالى يراه ، ولكن جاء الجواب مقروناً بالدليل والإحصاء فى قوله تعالى بعده (ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين) لأن من جعل للانسان عينين يبصر بهما ويعلم منه خائنة الأعين ، ولساناً ينطق به ويحصى عليه ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، وهداه الطريق ، طريق البذل وطريق الإمساك ، وإذا كان الأمر كذلك فان ينفق درهما إلا وهو سبحانه يعلمه ويراه .

قوله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ .

النجد : الطريق ، وهو كما تقدم فى سورة الإنسان بعد تفصيل

خلق الإنسان (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ، إنا هديناه السبيل) أى الطريق على كلا الأمرين بدليل (إما شاكراً وإما كفو .

وتقدم المعنى هناك ، ويأتى فى السورة بعدها عند قوله تعالى : (فألهمها فجورها وتقواها) زيادة إيضاح له ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ .

وقد بين المراد بالعقبة فيما بعد بقوله : (وما أدراك ما العقبة) ثم ذكر تفصيلها .

وقد ذكر أن كل ماجاء بصيغة وما أدراك ، فقد جاء تفصيله بعده كقوله تعالى : (القارعة ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث) وما بعدها .

وتقدم عند قوله تعالى : (الحاقة ما الحاقة) .

وفى تفسير العقبة بالمذكورات ، فك الرقبة ، وإطعام اليتيم والمسكين توجيه إلى ضرورة الإنفاق حقاً لامايدعيه الإنسان بدون حقيقة فى قوله : (أهلكت مالا لبداً) .

أما فك الرقبة : فإنه الإسهام فى عتق الرقيق والاستقلال فى عتقها يعبر عنه بفك النسمة .

وهذا العنصر من العمل بالغ الأهمية ، حيث قدم فى سلم الاقتحام لتلك العقبة .

وقد جاءت السنة ببيان فضل هذا العمل حتى أصبح عتق الرقبة أو فك النسمة ، يعادل به عتق المعتق من النار كل عضو بعضو ، وفيه نصوص عديدة ساقها ابن كثير ، وفى هذا إشعار بحقيقة موقف الإسلام من الرق ، ومدى حرصه وتطلعه إلى تحرير الرقاب .

فهاهو هنا يجعل عتق الرقبة ، سلم اقتحام العقبة ، وجعله عتقاً للمعتق من النار كل عضو بعضو . ومعلوم أن كل مسلم يسعى لذلك وجعله كفارة لكل يمين وللظهار بين الزوجين ، وكفارة القتل الخطأ ، كل ذلك نوافذ إطلاق الأسارى وفك الرقاب فى الوقت الذى لم يفتح للاسترقاق إلا باب واحد ، هو الأسر فى القتال مع المشركين لاغير ، وهما مما سبق تنبيها عليه رداً على المستشرقين ومن تأثر بهم ؛ فى ادعائهم على الإسلام أنه متعطش لاسترقاق الأحرار .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام على قوله تعالى: ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾ فى سورة الإسراء .

وقوله تعالى : (أو إطعام فى يوم ذى مسغبة) أى شدة وجوع . والساغب : الجائع ؛ قال القرطبى : وأنشد أبوعبيدة :

فلو كنت جارا يابن قيس لعاصم لما بت شبعانا وجارك ساغبا

أى لو كنت جاراً بحق تعنى بحق الجار ، لما حدث لجارك هذا .

وهذا القيد لحال الاطعام دليل على قوة الإيمان بالجزاء وتقديم ما عند الله على ما فى قوله تعالى : (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيراً) ، على ما تقدم من أن الضمير فى حبه أنه للطعام ، وهذا غالب فى حالات الشدة والمسغبة .

وقوله : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) فهى أعلى منازل الفضيلة فى الإطعام .

وقوله : (يتيما ذا مقربة) فاليتيم من حرم أبويه أو أحدهما ، وقد خصوا فى اللغة يتيم الحيوان ، من فقد الأم ، وفى الطيور من فقد الأبوين ، وفى الإنسان من فقد الأب .

وذا مقربة : أى قرابة ، وخص به ؛ لأن الإطعام فى حقه أفضل وأولى من غيره ، وفيه الحديث « أن الصدقة على الغريب صدقة وصلة ، وعلى البعيد صدقة فقط » .

والأحاديث فى الإحسان إلى اليتيم متضافرة ، ويكفى قوله صلى الله عليه وسلم : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهذين » أى السبابة والتى تليها

قوله تعالى : (أو مسكيناً ذا متربة) ، قيل : المسكين من السكون وقلة الحركة ، والمتربة : اللصوق بالتراب .

وقد اختلف فى التفريق بين المسكين والفقير أنهما أشد احتياجا وما حد كل منهما ، فاتفقوا أولا على أنه إذا افترقا اجتمعا وإذا اجتمعا افترقا ، وإذا ذكر أحدهما فقط ، فيشمل الثانى معه ، ويكون الحكم جامعاً لهما كما هو هنا : فالإطعام يشمل الاثنين معاً ، وإذا اجتمعا فرق بينهما بالتعريف .

فالمسكين كما تقدم والفقير ، قالوا : مأخوذ من الفقرة وهى الحفرة تحفر للنخلة ونحوها للغرس ، فكأنه نزل إلى حفرة لم يخرج منها .

وقيل : من فقار الظهر ، وإذا أخذت فقار منها عجز عن الحركة ، فقيل : على هذا الفقير أشد حاجة ، ويرجحه ما جاء فى قوله تعالى : (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر) فسماهم مساكين مع وجود سفينة لهم يتسببون عليها للمعيشة ، ولقوله صلى الله عليه وسلم « اللهم أحينى مسكيناً وأمتنى مسكيناً » الحديث . مع قوله صلى الله عليه وسلم « اللهم إنى أعوذ بك من الفقر » ، وهذا الذى عليه الجمهور ، خلافا لمالك .

وقد قالوا فى تعريف كل منهما : المسكين من يجد أقل ما يكفيه ،

والفقير : من لا يجد شيئاً ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ .

هذا قيد فى اقتحام العقبة ، بتلك الأعمال من عتق أو إطعام ، لأن عمل غير المؤمن لا يجعله يقتحم العقبة يوم القيامة لإحباط عمله ولاستيفائه إياه فى الدنيا ، وثم هنا للترتيب الذكرى لا الزمنى ، لأن الإيمان مشروط وجوده عند العمل .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان شروط قبول العمل وصحته فى سورة الإسراء عند قوله تعالى : (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن) ، وكقوله : (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن) ، وقوله : (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) لأن الإيمان هو العمل الأساسى فى حمل العبد على عمل الخير يبتغى به الثواب ، وخاصة الإنفاق فى سبيل الله ، لأنه بذل بدون عوض عاجل .

وقد بحث العلماء موضوع عمل الكافر الذى عمله حالة كفره ثم أسلم ، هل ينتفع به بعد إسلامه أم لا ؟

والراجح : أنه ينتفع به ، كما ذكر القرطبى أن حكيم بن حزام بعد ما أسلم قال : يا رسول الله إنا كنا نتحنث بأعمال فى الجاهلية فهل لنا منها شىء ؟ فقال عليه السلام « أسلمت على ما أسلفت من الخير » ، وحديث عائشة قالت : « يارسول الله إن ابن جدعان كان فى الجاهلية

يصل الرحم ويطعم الطعام ويفك العانى ويعتق الرقاب ، ويحمل على إبله لله ، فهل يفعمه ذلك شيئاً ؟ قال : لا ، إنه لم يقل يوما : رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين » .

ومفهومه أنه لو قالها ، أى لو أسلم فقالها كان ينفعه ، والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾

تتمة لصفاتهم ، والصبر عام على الطاعة وعن المعصية ، والمرحمة زيادة فى الرحمة ، والحديث « الراحمون يرحمهم الرحمن » .

وذكر المرحمة هنا يتناسب مع العطف على الرقيق والمسكين واليتيم ، والله تعالى أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا . وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا . وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا . وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا . وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا . وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ .

فى تلك الآيات العشر يقسم الله تعالى سبع مرات بسبع آيات كونية ، هى الشمس ، والقمر ، والليل ، والنهار ، والسماء ، والأرض ، والنفس البشرية ، مع حالة لكل مقسم به ، وذلك على شىء واحد ، وهو فلاح من زكى تلك النفس وخيبة من دساها ، ومع كل آية جاء القسم بها توجيها إلى أثرها العظيم المشاهد الملموس ، الدال على القدرة الباهرة .

وذلك كالآتى أولا : (والشمس وضحاها) فالشمس وحدها آية دالة على قدرة خالقها ، لما فيها من طاقة حرارية فى ذاتها تفوق كل تقدير ، وهى على الزمان بدون انتقاص ، فهى فى ذاتها آية .

ثم جاء وصف أثرها وهو : ضحاها ، وهو انتشار ضوئها ضحوة

النهار ، وهذا وحده آية ، لأنه نتيجة لحركتها ، وحركتها آية من آيات الله كما قال تعالى : (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) ، وهى الآية التى حاج بها إبراهيم عليه السلام نمروذ فى قوله : (فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها أنت من المغرب فبهت الذى كفر) .

فى هذا السير قدرة باهرة ودقة متناهية ، وضحاها : نتيجة لهذا السير ، ثم ضحاها نعم جزيلة على الكون كله ، من انتشار فى الأرض وانتفاع بضوئها وأشعتها .

وقد قالوا : لو اقتربت درجة أو ارتفعت درجة لما استطاع أحد أن ينتفع منها بشىء ، لأنها تحرق باقترابها ، ويتجمد العالم من بعدها ، ذلك تقدير العزيز العليم .

فالضحى وحده آية وهو حرها كقوله : (وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) أى بحرّ الشمس ، وقد أقسم تعالى بالضحى وحده فى قوله تعالى : (والضحى والليل إذا سجى) .

وقوله : (والقمر إذا تلاها) فهو كذلك القمر وحده آية ، وكذلك تلوه للشمس ونظام مسيره بهذه الدقة ، وهذا النظام فلا يسبقها

ولا تفوته : (لا الشمس ينبغى أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) .

وفى قوله تعالى : (إذا تلاها) أى تلا الشمس ، دلالة على سير الجميع ، وأنها سابقته وهو تاليها .

فقيل : تاليها عند أول الشهر تغرب ، ويظهر من مكان غروبها .

وقد قال بعض أهل الهيأة : تاليها فى منزلة الحجم ، أى كبرى وهو كبير بعدها فى الحجم ، وفيه نظر .

ولا يخفى ما فى القمر من فوائد للخليقة ، من تخفيف ظلمة الليل ، وكذلك بعض الخصائص على الزرع ، وأهم خصائصه بيان الشهور بتقسيم السنة ومعرفة العبادات من صوم ، وحج ، وزكاة ، وعده النساء ، وكفارات بصوم ، وحلول الديون ، وشروط المعاملات ، وكل ماله صلة بالحساب فى عبادة أو معاملة .

وقد جاء القسم بالقمر فى المدثر فى قوله : (كلا والقمر والليل إذا أدبر) الآية .

وقوله : (والقمر إذا اتسق) مما يدل على عظم آيته ودقيق دلالته .

وقوله : (والنهار إذا جلاها) والنهار هو أثر من آثار ضوء الشمس.

وجلاها . قيل : الضمير فيه راجع للشمس كما فى الذى قبله ، ولكن اختار ابن كثير أن يكون راجعاً للأرض ، أى كشفها وأوضح كل ما فيها ليتيسر طلب المعاش والسعى ، كقوله : (هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً) وقوله : (وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً ، وجعل النهار نشوراً) .

وقد أقسم تعالى بالنهار إذا تجلى : أى ظهر ووضح بدون ضمير إلى غيره فى قوله تعالى : (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى) أى فى مقابلة غشاوة الليل يكون بتجلى النهار .

وقد بين تعالى عظم آية النهار وعظم آية الليل ، وأنه لا يقدر على الإتيان بهما إلا الله ، كما فى قوله : (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون) .

وقوله : (والليل إذا يغشاها) قالوا : يغشى الشمس فينحجب

ضياؤها ، والكلام على الليل ، كالكلام على النهار ، من حيث الآية . والدلالة على قدرته تعالى .

وتقدمت النصوص الكافية وسيأتى الإقسام بالليل فى قوله : (والليل إذا يغشى) أى يغشى الكون كله ، كما فى قوله : (والليل وما وسق) أى جمع واشتمل بظلامه .

والضمير فى يغشاها : راجع إلى الشمس ، وعليه ، قيل : إن الإقسام فى هذه الأربعة راجع كله إلى الشمس فى حالات مختلفة ، فى ضحاها ثم تجليها ، ثم تلو القمر لها ، ثم يغشيان الليل إياها ، وهنا سؤال : كيف يغشى الليل الشمس ، مع أن الليل وهو الظلمة نتيجة لغروب الشمس عن الجهة التى فيها الليل ؟

فقيل : إن الليل يغطى ضوء الشمس ، فتتكون الظلمة ، والواقع خلاف ذلك : وهو أن الشمس ظاهرة وضوؤها منتشر ، ولكن فى قسم الأرض المقابل للظلمة الموجودة ، كما أن الظلمة تكون فى القسم المقابل للنهار ، وهكذا .

ولذا قال ابن كثير : إن الضمير فى يغشاها وجلاها راجع إلى الأرض ، إلا أن فيه مغايرة فى مرجع الضمير ، والله تعالى أعلم .

وقوله : (والسماء وما بناها) قيل : ما ، بمعنى الذى ، وجىء بها بدلا عن من ، التى لأولى العلم ، لإشعارها معنى الوصفية ، أى والسماء والقادر الذى بناها ، وكذلك ما بعدها فى الأرض ، وما طحاها ونفس ، والحكيم العليم الذى سواها ، وما مشترك بين العالم وغيره ، كقوله : (ولا أنتم عابدون ما أعبد) ، ومثله : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) .

وتقدم مراراً أحوال السماء فى بنائها ورفعها ، وجعلها سبعاً طباقاً ، وقد بين فى تلك النصوص كيفية بنائها ، وأنه سبحانه وتعالى بناها بقوة ، كما فى قوله تعالى : (والسماء بنيناها بأييد) أى بقوة ، وقوله تعالى : (والأرض وما طحاها) مثل دحاها

وقالوا : إبدال الدال طاء مشهور ، وطحا تأتى بمعنى خلق ، وبمعنى ذهب فى كل شىء ، فمن الأول :

وما تدرى جذيمة من طحاها ولا من ساكن العرش الرفيع

ومن الثانى قول علقمة :

طحا بك قلب فى الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

ولا منافاة فى ذلك بأنه تعالى خلقها ومدها ، وذهب بأطرافها بكل مذهب ، أى فى مدها .

تنبيـــه

قالوا : ذكر السماء وما بناها ، للدلالة على حدوثها ، وبالتالى على حدوث الشمس والقمر ، وأن تدبيرهما لله .

وقوله : (ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها) قالوا : النفس تحمل كامل خلقة الإنسان بجسمه وروحه وقواه الإنسانية ، من تفكير وسلوك .. إلخ .

وقيل : النفس هنا بمعنى القوى المفكرة المدركة منـــاط الرغبة والاختيار ، وعليه فذكر النفس بالمعنى الأول ، تكون تسويتها فى استواء خلقتها وتركيب أعضائها ، وهى غاية فى الدلالة على القدرة والكمال والعلم ، كما فى قوله : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) وقال : (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) أى من أعضاء وأجزاء وتراكيب وعدة أجهزة تبهر العقول فى السمع ، وفى البصر ، وفى الشم ، وفى الذوق ، وفى الحس ، ومن داخل الجسم ما هو أعظم ، فحق أن يقسم بها .

وما سواها : أى بالقدرة الباهرة ، والعلم الشامل . وذكرها بالمعنى الثانى ، فإنه فى نظرى أعظم من المعنى الأول ، وذلك أن القوى

المدركة والمفكرة والمقـــدرة للأمور التي لها الاختيار ، ومنها القبول والرفض والرضى والسخط والأخذ والمنع ، فإنها عالم مستقل .

وإنها كما قلنا أعظم مما تقدم ، لأن الجانب الخلقي قال تعالى فيه : (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) ولكن في هذا الجانب قال : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنســـان إنه كان ظلوماً جهولا) .

ومعلوم أن بعض أفراد الإنسان حملها بصدق وأداها بوفاء ، ونال رضى الله تعالى رضي الله عنهم ورضوا عنه .

فهذه النفس في تسويتها لتلقي معاني الخير والشر ، واستقبال الإلهام الإلهي للفجور ، والتقوى أعظم دلالة على القدرة من تلك الجمادات التي لا تبدي ولا تعيد ، والتي لا تملك سلباً ولا إيجاباً .

وهنا مثال بسيط فيما استحدث من آلات حفظ وحساب ، كالآلة الحاسبة والعقل الألكتروني ، فإنها لا تخطىء كما يقولون ، وقد بهرت العقول في صفتها ، ولكن بنظرة بسيطة نجدها أمام النفس الإنسانية كقطرة من بحر .

فنقول : إنها أولا من صنع هذه النفس ذات الإدراك النامى والاستنتاج الباهر .

ثانياً : هى لا تخطىء لأنها لا تقدر أن تخطىء ، لأن الخطأ ناشىء عن اجتهاد فكرى ، وهى لا اجتهاد لها ، إنما تشير وفق مارسم لها كالمادة المسجلة فى شريط ، فإن المسجل مع دقة حفظه لها فإنه لا يقدر أن يزيد ولا ينقص حرفاً واحداً .

أما الإنسان فإنه يغير ويبدل ، وعندما يبدل كلمة مكان كلمة ، فلقدرته على إيجاد الكلمة الأخرى ، أو لاختياره ترك الكلمة الأولى .

وهكذا هنا ، فالله تعالى هنا خلق تلك النفس أولا ، ثم سواها على حالة تقبل تلقى الإلهام بقسميه : الفجور والتقوى ، ثم تسلك أحد الطريقين ، فكأن مجىء القسم بها بعد تلك المسميات دلالة على عظم ذاتها وقوة دلالتها على قدرة خالقها ، وما سواها مستعدة قابلة لتلقى إلهام الله إياها .

تنبيه

وفى مجيئها بعد الآيات الكونية ؛ من شمس وقمر وليل ونهار ،

وسماء وأرض ، لفت إلى وجوب التأمل فى تلك المخلوقات ، يستلهم منها الدلالة على قدرة خالقها والاستدلال على تغير الأزمان ، وحركة الأفلاك ، وإحداث السماء بالبناء أنه لابد لهذا العالم من صانع ، ولابد للمحدث المتجدد من فناء وعدم .

كما عرض إبراهيم عليه السلام على النمروذ نماذج الاستدلال على الربوبية والألوهية ، فأشار إلى الشمس أولا ، ثم إلى القمر ، ثم انتقل به إلى الله سبحانه .

وقوله : (فألهمها فجورها وتقواها) إن كان ألهمها بمعنى هداها وبيّن لها ، فهو كما فى قوله : (وهديناه النجدين) وقوله : (إنا هديناه السبيل) ، وهذا على الهداية العامة ، التى بمعنى الدلالة والبيان .

وإن كان بمعنى التيسير والإلزام ، ففيه إشكال القدر فى الخير الاختيار .

وقد بحث هذا المعنى الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى دفع إيهام الاضطراب بحثاً وافياً .

قوله تعالى (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) .

هذا هو جواب القسم فيما تقدم ، فالواو قد حذفت منه اللام لطول ما بين المقسم به والمقسم عليه .

وقد نوه عنه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند الكلام على قوله تعالى : (إن ذلك لحق تخاصم أهل النار) من سورة ص، وأنهم استدلوا لهذه الآية عليه .

والأصل : لقد أفلح ، فحذفت اللام لطول الفصل ، وزكاها بمعنى طهّرها ، وأول ما يطهرها منه دنس الشرك ورجسه ، كما قال تعالى : (إنما المشركون نجس) وتطهيرها منه بالإيمان ثم من المعاصي بالتقوى ، كما في قوله تعالى : فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) ثم بعمل الطاعات (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى)

واختلف في مرجع الضمير في زكاها ودساها ، وهو يرجع إلى اختلافهم في (فألهمها فجورها وتقواها) فهل يعود على الله كما في (ونفس وما سواها) أم يعود على العبد .

ويمكن أن يستدل لكل قول ببعض النصوص . فمما يستدل به للقول الأول قوله تعالى : (بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا) وقوله : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا) وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول عند هذه الآية : « اللهم ائت نفسي تقواها وزكها ، أنت خير من زكاها ، وأنت وليها ومولاها » .

ومما استدل به للقول الثاني قوله : (قد أفلح من تزكى

وذكر اسم ربه فصلى) ، وقوله : (ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير) وقوله : (فقل هل لك إلى أن تزكى ، وأهديك إلى ربك فتخشى) . وقوله : (وما يدريك لعله يزكى) ، وكلها كما ترى محتملة ، والإشكال فيها كالإشكال فيما قبلها .

والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن الجمع بين تلك النصوص كالجمع فى التى قبلها ، وأن ما يتزكى به العبد من إيمان وعمل فى طاعة وترك لمعصية ، فإنه بفضل من الله ، كما فى قوله تعالى المصرح بذلك (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا) .

وكل النصوص التى فيها عود الضمير أو إسناد التزكية إلى العبد ، فإنها بفضل من الله ورحمة ، كما تفضل عليه بالهدى والتوفيق للايمان ، فهو الذى يتفضل عليه بالتوفيق إلى العمل الصالح . وترك المعاصى ، كما فى قولك « لا حول ولا قوة إلا بالله » وقوله : (فلا تزكوا أنفسكم) ، وقوله : (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) إنما هو بمعنى المدح والثناء ، كما فى قوله تعالى : (قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) بل إن فى قوله تعالى : (بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا) الجمع بين الأمرين ، القدرى

والشرعى ، بل الله يزكى من يشاء بفضله ، ولا تظلمون فتيلا بعدله . والله والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا . إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا . فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا . فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ .

ثمود : اسم للقبيلة أسند إليها التكذيب ، أى بنبى الله صالح ، وأشقاها هو عاقر الناقة أسند الانبعاث له وحده بين ما جاء بعده ، (فكذبوه فعقروها) فأسند العقر لهم .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الجمع بين ذلك فى سورة الزخرف ، ومضمونه أنهم متواطئون معه كما فى قوله : (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر) فكانوا شركاء له فى عقرها ، كما قال الشاعر :

والسامع الذم شريك لقائله ومطعم المأكول شريك للآكل

وفى قصة أبى طلحة فى صيد الحمار الوحشى ، سألهم النبى صلى الله عليه وسلم وهم محرمون للعمرة « هل دله عليه منكم أحد ؟ قالوا : لا ، قال : هل عاونه عليه منكم أحد ؟ قالوا : لا ، قال : فكلوا إذا » ، لأن مفهومه : لو عاونوا أو دلوا لكانوا شركاء فى صيده ، فيحرم عليهم لقوله تعالى : (ولا تقتلوا الصيد

وأنتم حرم) وبعدم اشتراكهم حل لهم ، فلو عاونوا أو شاركوا لحرم عليهم ، وهنا لما كانوا راضين ونادوه وتعاطى سواء عهودهم أو عطاؤهم أو غير ذلك فعقرها وحده ، كان هذا باسم الجميع ، فكانت العقوبة باسم الجميع ، ويؤخذ من هذا قتل الجماعة بالواحد ، وعقوبة الربيئة مع الجانى ، والله تعالى أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ . وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ .

يقسم الله تعالى بالليل والنهار وأثرهما على الكون ، على أنهما يتان عظيمتان .

وتقدم الكلام عليهما فى السورة قبلها عند قوله : (والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام على هاتين الآيتين ، عند قوله تعالى : (وجعل الليل والنهار آيتين) فى سورة بنى إسرائيل ، وذكر كل النصوص فى هذا المعنى . وأثر الليل والنهار فى حياة الناس ، ومعرفة الحساب ونحوه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بحث هذه المسألة ، وإيراد كل النصوص فى عدة مواضع ، أشار إليها كلها فى سورة النجم عند قوله تعالى : (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى) وقد قرئت بعدة قراءات منها (والذى خلق الذكر والأنثى) ، ومنها (والذكر والأنثى) .

وذكرها ابن كثير مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في صحيح البخاري ومسلم ، وعلى القراءة المشهورة .

(وما خلق الذكر والأنثى) ، اختلف في لفظة « ما » فقيل : إنها مصدرية ، أي وخلق الذكر والأنثى .

وقيل : بمعنى من ، أي والذي خلق الذكر والأنثى . فعلى الأول يكون القسم بصفة من صفات الله وهي صفة الخلق ، ويكون خص الذكر والأنثى لما فيهما من بديع صنع الله وقوة قدرته سبحانه على ما يأتي .

وعلى قراءة : والذكر والأنثى . يكون القسم بالمخلوق كالليل والنهار ، لما في الخلق من قدرة الخالق أيضاً ، وعلى أنها بمعنى الذي يكون القسم بالخالق سبحانه ، وتكون ما هنا مثل ما في قوله : (والسماء وما بناها) وغاية ما فيه استعمالها وهي في الأصل لغير أولي العلم ، إلا أنها لوحظ فيها معنى الصفة ، وهي صفة الخلق أو على ما تستعمله العرب عند القرينة ، كقوله تعالى : (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم) وقوله : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) لما لوحظ فيه معنى الصفة وهو الاستمتاع ، ساغ استعمال ما بدلا عمن .

وفي اختصاص خلق الذكر والأنثى في هذا المقام لفت نظر إلى

هذه الصفة ، لما فيها من إعجاز البشر عنها ، كما فى الليل والنهار من الإعجاز للبشر من أن يقدروا على شىء فى خصوصه ، كما قدمنا فى السورة قبلها .

وذلك : أن أصل التذكير والتأنيث أمر فوق إدراك وقوى البشر ، وهى كالآتى أولا فى الحيوانات الثديية ، وهى ذوات الرحم تحمل وتلد ، فإنها تنتج عن طريق اتصال الذكور بالإناث .

وتذكير الجنين أو تأنيثه ليس لأبويه دخل فيه ، إنه من نطفة أمشاج ، أى أخلاط من ماء الأب والأم ، وجعل هذا ذكراً وذاك أنثى ، فهو هبة من الله كما فى قوله : (يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرانا وإناثاً ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير) .

وقد ثبت علمياً أن سبب التذكير والتأنيث من جانب الرجل ، أى أن ماء المرأة صالح لهذا وذاك ، وماء الرجل هو الذى به يكون التمييز لانقسام يقع فيه ، فالمرأة لا تعدو أن تكون حرثاً ، والرجل هو الزارع ، ونوع الزرع يكون عن طريقه ، كما أشارت إليه الآية الكريمة (نساؤكم حرث لكم) ، والحرث لا يتصرف فى الزرع ، وإنما التصرف من طريق الحارث .

ويتم ذلك عن طريق مبدء معلوم علمياً ، وهو أن خلية التلقيح

فى الأنثى دائماً وأبداً مكونة من ثمانية وأربعين جزءاً ، وهى دائماً وأبداً تنقسم إلى قسمين متساويين أربعة وعشرين ، فيلتحم قسم منها مع قسم خلية الذكر ، وخلية الذكر سبعة وأربعون ، وإنما أبداً تنقسم أيضاً عند التلقيح إلى قسمين ، ولكن أحدهما أربعة وعشرون ، والآخر ثلاثة وعشرون ، فإذا أراد الله تذكير الحمل سبق القسم الذى من ثلاثة وعشرين . فيندمج مع قسيم خلية الأنثى ، وهو أربعة وعشرون ، فيكون مجموعهما سبعة وأربعين ، فيكون الذكر بإذن الله .

وإذا أراد الله تأنيث الحمل سبق القسم الذى هو أربعة وعشرون من الرجل ، فيندمج مع قسيم خلية المرأة أربعة وعشرين ، فيكون من مجموعهما ثمانية وأربعون ، فتكون الأنثى بإذن الله ، وهكذا فى جميع الحيوانات .

أما النباتات فإن بعض الأشجار تتميز فيه الذكور من الإناث ، كالنخل والتوت مثلا ، وبقية الأشجار تكون الشجرة الواحدة تحمل زهرة الذكورة وزهرة الأنوثة ، فتلقح الرياح بعضها من بعض .

وقد حدثنى عدة أشخاص عن غريبتين فى ذلك .

إحداهما : أن نخلة موجودة حتى الآن فى بعض السنين فحلا

يؤخذ منه ليؤبر النخيل ، وفى بعض السنين نخلة تطلع وتثمر .

وحدثنى اخر فى نفس المجلس : من أنه توجد عندهم شجرة نخل يكون أحد شقيها فحلا يؤخذ منه الطلع يلقح به النخل ، وشقها الآخر نخلة يتلقح من الشق الآخر لمجاورته .

كما حدثنى ثالث : أن والده قطع بعض فحل النخل لكثرته فى النخيل ، وبعد قطعه نبت فى أصله ومن جذعه وجذوره نخلة تثمر . وكل ذلك على خلاف العادة ، ولكنه دال على قدرة الله تعالى ، وأنه خالق الذكر والأنثى .

أما عمل هذا الجهاز فى الحيونات ، بل وفى الحشرات الدقيقة ، وتكاثرها ، فهو فوق الحصر والحد .

وقد ذكروا فى عالم الحشرات ، ما يلقح نفسه بنفسه ، باحتكاك بعض فخذيه ببعض ، وكل ذلك مما لا يعلمه ولا يقدر على إيجاده إلا الله سبحانه وتعالى ، مما لو تأمله العاقل لوجد فيه كما أسلفنا القدرة الباهرة ، أعظم مما فى الليل إذا يغشى وما فى النهار إذا تجلى ، ولا سيما إذا صغر الكائن كالبعوضة فما دونها مما لا يكاد يرى بالعين ، ومع ذلك فإن فيه الذكورة والأنوثة . سبحانك اللهم ما أعظم شأنك .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ .

تقدم فى السورة الأولى قوله تعالى : (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) وكلاهما بالسعى إليه والعمل من أجله ، وهنا نقول : إن سعيكم مهما كان لشتى ، أى متباعد بعض عن بعض.

والشتات : التباعد والافتراق ، وشتى : جمع شتيت . كمرضى ومريض ، وقتلى وقتيل ونحوه ، ومنه قول الشاعر :

قد يجمع الله الشتيتين بعد ما يظنان كل الظن ألا تلاقيا

وهذا جواب القسم ، وفى القسم ما يشعر بالارتباط به ، كبعد ما بين الليل والنهار ، وما بين الذكر والأنثى ، فهما مختلفان تماماً ، وهكذا هما مفترقان فى النتائج والوسائل ، كبعد ما بين فلاح من زكاها ، وخيبة من دساها المتقدم فى السورة قبلها .

ثم فصل هذا الشتات فى التفصيل الآتى (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) .

وما أبعد ما بين العطاء والبخل والتصديق والتكذيب واليسرى والعسرى ، وقد أطلق أعطى ليعم كل عطاء من ماله وجاهه وجهده حتى الكلمة الطيبة ، بل حتى طلاقة الوجه ، كما فى الحديث « ولو أن أخاك بوجه طلق » .

والحسنى : قيل المجازاة على الأعمال .

وقيل : الخلف على الإنفاق .

وقيل : لا إله إلا الله .

وقيل : الجنة .

والذى يشهد له القرآن هو الأخير لقوله تعالى : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) فقالوا : الحسنى هى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجهه الكريم ، وهذا المعنى يشمل كل المعانى لأنها أحسن خلف لكل ما ينفق العبد ، وخير وأحسن مجازاة على أى عمل مهما كان ، ولا يتوصل إليها إلا بلا إله إلا الله .

وقوله : (فسنيسره لليسرى) وقوله : (فسنيسره للعسرى) بعد ذكر أعطى واتقى فى الأولى . وبخل واستغنى فى الثانية .

قيل : هو دلالة على أن فعل الطاعة ييسر إلى طاعة أخرى ، وفعل المعصية يدفع إلى معصية أخرى .

قال ابن كثير : مثل قوله تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) .

ثم قال : والآيات فى هذا المعنى كثيرة ، دالة على أن الله عز وجل

يجازى من قصد الخير بالتوفيق له ، ومن قصد الشر بالخذلان ، وكل ذلك بقدر مقدر .

والأحاديث الدالة على ذلك كثيرة . وذكر عن أبى بكر عند أحمد ، وعن علىّ عند البخارى ، وعبد الله بن عمر عند أحمد ، وعدد كثير بروايات متعددة ، أشملها وأصحها حديث علىّ عند البخارى قال على : « كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى بقيع الغرقد فى جنازة. فقال : مامنكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار ، فقالوا : يا رسول الله ، أفلا نتكل؟ فقال : اعملوا ، فكل ميسّر لما خلق له ، ثم قرأ (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى - إلى قوله - للعسرى) » فهى من الآيات التى لها تعلق ببحث القدر .

وتقدم مراراً بحث هذه المسألة . والعلم عند الله تعالى .

تنبيـــــه

قال أبو حيان : جاء قوله (فسنيسره للعسرى) على سبيل المقابلة ، لأن العسرى لا تيسير فيها . اهـ .

وهذا من حيث الأسلوب ممكن ، ولكن لا يبعد أن يكون

معنى التيسير موجوداً بالفعل ، إذ للشاهد أن من خذلهم الله - عياذاً بالله - يوجد منهم إقبال وقبول وارتياح ، لما يكون أثقل وأشق ما يكون على غيرهم ، ويرون ما هم فيه سهلا ميسراً لا غضاضة عليهم فيه ، بل وقد يستمرؤون الحرام ويستطعمونه .

كما ذكر لى شخص : أن لصاً قد كفّ عن السرقة حياءً من الناس، وبعد أن كثر ماله وكبر سنه أعطى رجلا دراهم ليسرق له من زرع جاره ، فذهب الرجل ودار من جهة أخرى وأتاه بثمرة من زرعه هو ، أى زرع اللص نفسه ، فلما أكلها تفلها ، وقال : ليس فيه طعمة المسروق ، فمن أين أتيت به ؟ قال : أتيت به من زرعك ، ألا تستحى من نفسك ، تسرق وعندك ما يغنيك . فخجل وكف .

وقد جاء عن عمر نقيض ذلك تماما ، وهو أنه لما طلب من غلامه أن يسقيه مما فى شكوته من لبنه ، فلما طعمه استنكر طعمه ، فقال للغلام : من أين هذا ؟ فقال : مررت على إبل الصدقة فحلبوا لى منها ، وها هو ذا ، فوضع عمر إصبعه فى فِيه ، واستقاء ما شرب .

إنها حساسية الحرام استنكرها عمر ، وأحسّ بالحرام فاستقاءه ، وهذا وذاك بتيسير من الله تعالى ، وصدق صلى الله عليه وسلم « اعملوا فكلٌّ ميسّر لما خلق له » .

ونحن نشاهد فى الأمور العادية أصحاب المهن والحرف كل واحد راضٍ بعمله وميسر له ، وهكذا نظام الكون كله ، والذى يهم هنا أن كلا من الطاعة أو المعصية له أثره على ما بعده .

تنبيـــــــه

قيل : إن هذه المقارنة بين : من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، واقعة بين أبى بكر رضى الله عنه ، وبين غيره من المشركين .

ومعلوم أن العبرة بعموم اللفظ فهى عامة فى كل من أعطى واتقى وصدق ، أو بخل واستغنى وكذب . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ .

رد على من بخل واستغنى ، وما هنا يمكن أن تكون نافية أى لا يغنى عنه شىء ، كما فى قوله : (ما أغنى عنى ماليه) ، وقوله : (يوم لا ينفع مال ولا بنون) .

ويمكن أن تكون استفهامية وقوله (إذا تردى) أى فى النار عياذاً بالله ، أو تردى فى أعماله ، فآله إلى النار بسبب بخله فى الدنيا ، كما يشهد له قوله تعالى : (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) الآية .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾

فيه للعلماء أوجه ، منها : إن طريق الهدى دال وموصل علينا بخلاف الضلال .

ومنها : التزام الله للخلق عليه لهم الهدى ، وهذا الوجه محل إشكال ، إذ أن بعض الخلق لم يهدهم الله .

وقد بحث هذا الأمر الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى دفع إيهام الاضطراب ، من أن الجواب عليه من حيث إن الهدى عام وخاص . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴾ .

أى بكمال التصرف والأمر ، وقد بينه تعالى فى سورة الفاتحة (الحمد لله رب العالمين) أى المتصرف فى الدنيا (مالك يوم الدين) أى المتصرف فى الآخرة وحده (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) .

وهذا كدليل على تيسيره لعباده إلى ما يشاء فى الدنيا ، ومجازاتهم بما شاء فى الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ .

أى تتلظى ، واللظى : اللهب الخالص ، وفى وصف النار هنا بتلظى

مع أن لها صفات عديدة منها : السعير ، وسقر ، والجحيم ، والهاوية ، وغير ذلك .

وذكر هنا صنفاً خاصاً ، وهو من كذب وتولى ، كما تقدم فى موضع آخر فى وصفها أيضاً بلظى فى قوله تعالى : (إنها لظى نزاعة للشوى) ، ثم بين أهلها بقوله : (تدعوا من أدبر وتولى ، وجمع فأوعى) .

وهو كما هو هنا (فأنذرتكم ناراً تلظى لا يصلاها إلا الأشقى . الذى كذب وتولى) ، وهو المعنى فى قوله قبله : (وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى) مما يدل أن للنار عدة حالات أو مناطق أو منازل ، كل منزلة تختص بصنف من الناس ، فاختصت لظى بهذا الصنف ، واختصت سقر بمن لم يكن من المصلين ، وكانوا يخوضون مع الخائضين ، ونحو ذلك . ويشهد له قوله : (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) كما أن الجنة منازل ودرجات ، حسب أعمال المؤمنين . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ . وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴾ .

هذه الآية من مواضع الإيهام ، ولم يتعرض لها فى دفع إيهام الاضطراب ، وهو أنها تنص وعلى سبيل الحصر ، أنه لا يصلى النار إلا

الأشقى مع مجيء قوله تعالى : (وإن منـكم إلا واردها ، كان على ربك حقاً مقضياً) مما يدل على ورود الجميع .

والجواب من وجهين : الأول كما قال الزمخشرى : إن الآية بين حالىْ عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين ، فأريد أن يبالغ فى صفتيهما المتناقضتين .

فقيل : الأشقى وجعل مختصاً بالصلى ، كأن النار لم تخلق إلا له ، وقال الأتقى ، وجعل مختصاً بالجنة ، وكأن الجنة لم تخلق إلا له ، وقيل : عنهما هما أبو جهل أو أمية بن خلف المشركين ، وأبو بكر الصديق رضى الله عنه ، حكاه أبو حيان عن الزمخشرى .

والوجه الثانى : هو أن الصلى الدخول والشى ، وأن يكون وقود النار على سبيل الخلود ، والورود والدخول المؤقت بزمن غير الصلى لقوله فى آية الورود ، التى هى قوله تعالى : (وإن منـكم إلا واردها) ، (ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً) ويبقى الإشكال ، بين الذين اتقوا وبين الأتقى ويجاب عنه : بأن التقى يرد ، والأتقى لا يشعر بورودها ، كمن يمر عليها كالبرق الخاطف . والله تعالى أعلم .

ولولا التأكيد فى آية الورود بالمجيء بحرف من وإلا وقوله : (كان على ربك حتما مقضياً) لولا هذه المذكورات لكان يمكن أن

يقال : إنها مخصوصة بهذه الآية ، وأن الأتقى لا يردها ، إلا أن وجود تلك المذكورات يمنع من القول بالتخصيص . والله تعالى أعلم .

وفيه تقرير مصير القسمين المتقدمين ، من أعطى واتقى وصدق ، ومن بخل واستغنى وكذب ، وأن صليها بسبب التكذيب والتولى والإعراض وهو عين الشقاء ، ويتجنبها الأتقى الذى صدق ، وكان نتيجة تصديقه أنه أعطى ماله يتزكى ، وجعل إتيان المال نتيجة التصديق أمر بالغ الأهمية .

وذلك أن العبد لا يخرج من ماله شيئاً إلا بعوض ، لأن الدنيا كلها معاوضة حتى الحيوان تعطيه علفاً يعطيك ما يقابله من خدمة أو حليب . إلخ .

فالمؤمن المصدق بالحسنى يعطى وينتظر الجزاء الأوفى الحسنة بعشر أمثالها ، لأنه مؤمن أنه متعامل مع الله ، كما فى قوله : (من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً) .

أما المكذب : فلم يؤمن بالجزاء آجلا ، فلا يخرج شيئاً لأنه لم يجد عوضاً معجلا ، ولا ينتظر ثواباً مؤجلا ، ولذا كان الذين تبوءوا الدار والإيمان ، يحبون من هاجر إليهم ويواسونهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم

خصاصة ، إيماناً بما عند الله ، بينما كان المنافقون لا ينفقون إلا كره ولا يخرجون إلا الرديء ، الذى لم يكونوا ليأخذوه من غيرهم إلا ليغمضوا فيه ، وكل ذلك سببه التصديق بالحسنى أو التكذيب بها

ولذا جاء فى الحديث الصحيح « والصدقة برهان » أى على صحة الإيمان بما وعد الله المتقين ، من الخلف المضاعفة الحسنة .

وقوله : (يؤتى ماله يتزكى) أى يتطهر ويستزيد ، إذ التزكية تأتى بمعنى النماء ، كقوله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) وهذا رد على قولة تعالى : (قد أفلح من تزكى) ، وعلى عموم : (فأما من أعطى واتقى) ، ولا يقال : إنها زكاة المال ، لأن الزكاة لم تشرع إلا بالمدينة ، والسورة مكية عند الجمهور ، وقيل : مدنية . والصحيح الأول .

تنبيه

قد قيل أيضاً : إن المراد بقوله : (وسيجنبها الأتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى) إلى آخر السورة . نازل فى أبى بكر رضى الله عنه ، لما كان يعتق ضعفة المسلمين ، ومن يعذبون على إسلامهم فى مكة ، فقيل له : لو اشتريت الأقوياء يساعدونك ويدافعون عنك . فأنزل الله الآيات إلى قوله : (وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء

وجه ربه الأعلى) وابتغاء وجه رب هو بعينه ، وصدق بالحسنى أى لوجه الله يرجو الثواب من الله .

وكما تقدم ، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وإن صورة السبب قطعية الدخول . فهذه بشرى عظيمة للصديق رضى الله عنه ، ولسوف يرضى فى غاية من التأكيد من الله تعالى ، على وعده إياه صلى الله عليه وسلم وأرضاه .

وذكر ابن كثير : أن فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أنفق زوجين فى سبيل الله دعته خزنة الجنة : يا عبد الله هذا خير ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، ما على من يدعى منها ضرورة ، فهل يدعى منها كلها أحد ؟ قال : نعم ، وأرجو أن تكون منهم » . اهـ .

وإنا لنرجو الله كذلك فضلا منه تعالى .

تنبيه

فى قوله تعالى : (ولسوف يرضى) ، وذكر ابن كثير إجماع المفسرين أنها فى أبى بكر رضى الله عنه أعلى منازل البشرى ، لأن هذا الوصف بعينه ، قيل للرسول صلى الله عليه وسلم قطعاً فى السورة بعدها ، سورة الضحى (وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك

ربك فترضى)، فهو وعد مشترك للصديق وللرسول صلى الله عليه وسلم، إلا أنه فى حق الرسول صلى الله عليه وسلم أسند العطاء فيه لله تعالى بصفة الربوبية (ولسوف يعطيك ربك) كما ذكر فيه العطاء، مما يدل على غيره صلى الله عليه وسلم ، وهو معلوم بالضرورة من أنه صلى الله عليه وسلم له عطاءات لا يشاركه فيها أحد ، على ما سيأتى إن شاء الله .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الضحى

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ .

تقدم معنى الضحى فى السورة المتقدمة .

وقيل : المراد به هنا النهار كله ، كما فى قوله : (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ، أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) . وقوله : (والليل إذا سجى) قيل : أقبل ، وقيل : شدة ظلامه ، وقيل : غطى ، وقيل : سكن .

واختار الشيخ رحمة الله علينا وعليه فى إملائه معنى : سكن

واختار ابن جرير أنه سكن بأهله ، وثبت بظلامه ، قال كما يقال بحر ساج ، إذا كان ساكنا ، ومنه قول الأعشى :

فما ذنبنا إن جاش بحر ابن عمكم ... وبحرك ساج ما يوارى الدعامصا

وقول الراجز :

يا حبذا القمراء والليل الساج وطرق مثل ملاء النساج

وأنشدها القرطبي ، وذكر قول جرير :

ولقد رميتك يوم رحن بأعين ينظرن من خلل الستور سواج

أقسم تعالى بالضحى والليل هنا فقط لمناسبتها للمقسم عليه ، لأنهما طرفا الزمن وظرف الحركة والسكون ، فإنه يقول له مؤانسا : ما ودعك ربك وما قلى ، لا فى ليل ولا فى نهار ، على ما سيأتى تفصيله إن شاء الله .

وقوله : (ما ودعك ربك) قرىء بالتشديد من توديع المفارق . وقرىء : ما ودعك ، بالتخفيف من الودع ، أى من الترك ، كما قال أبو الأسود :

ليت شعرى عن خليل ما الذى نما له فى الحب حتى ودعه

أى تركه ، وقول الآخر :

وثم ودعنا آل عمرو وعامر فرائس أطراف المثقفة السمر

أى تركوهم فرائس السيوف .

قال أبو حيان : والتوديع مبالغة فى الودع ، لأن من ودعك مفارقا ، فقد بالغ فى تركك . اهـ .

والقراءة الأولى أشهر وأولى ، لأن استعمال ودع بمعنى ترك قليل .

قال القرطبي ، وقال المبرد : لا يكادون يقولون : ودع ولا وذر ، لضعف الواو إذا قدمت واستغنوا عنها بترك ، ويدل على قول المبرد سقوط الواو فى المضارع ، فتقول فى مضارع: ودع يدع كيزن ويهب ويرث ، من وزن ووهب وورث ، وتقول فى الأمر : دعْ وزنْ ، وهبْ ، أما ذر بمعنى اترك ، فلم يأت منه الماضى ، وجاء المضارع : يذرم ، والأمر : ذرم . فترجحت قراءة الجمهور بالتشديد من ودعك من التوديع .

وقد ذكرنا هذا الترجيح ، لأن ودع بمعنى ترك فيها شدة وشبه جفوة وقطيعة ، وهذا لا يليق بمقام المصطفى صلى الله عليه وسلم عند ربه . أما الموادعة والوداع ، فقد يكون مع المودة والصلة ، كما يكون بين المحبين عند الافتراق ، فهو وإن وادعه بجسمه فإنه لم يوادعه بحبه وعطفه ، والسؤال عنه وهو ما يتناسب مع قوله تعالى : (وما قلى) ،

تنبيـــه

هما ماودعك بصيغة الماضى ، وهو كذلك المستقبل ، بدليل الواقع

وبدليل (ولا الآخرة خير لك من الأولى) لأنها تدل على مواصلة عناية الله به حتى يصل إلى الآخرة فيجدها خيراً له من الأولى ، فيكون ما بين ذلك كله فى عناية ورعاية ربه .

وقد جاء فى صلح الحديبية ، قال لعمر : أنا عبد الله ورسوله ، أى تحت رحمته وفى رعايته .

وقوله : وما قلى ، حذف كاف الخطاب لثبوتها فيما معها ، فدلت عليها هكذا . قال المفسرون :

وقال بعضهم : تركت لرأس الآية ، والذى يظهر من لطيف الخطاب ورقيق الإيناس ومداخل اللطف ، أن المودعة تشعر بالوفاء والود ، فأبرزت فيها كاف الخطاب ، أى لم تقلك موادعتك وأنت الحبيب ، والمصطفى المقرب.

أما قلى : ففيها معنى البغض ، فلم يناسب إبرازها إمعاناً فى إبعاد قصده صلى الله عليه وسلم بشىء من هذا المعنى ، كما تقول لعزيز عليك : لقد أكرمتك ، وما أهنت لقد قربتك ، وما أبعدت كراهية أن تنطق باهانته وكراهيته ، أو تصرح بها فى حقه ، والقلى : يمد ويقصر هو للبغض ، يمد إذا فتحت القاف ، ويقصر إذا كسرتها ، وهو واوى ويائى ، وذكر القرطبى ، قال : أنشد ثعلب :

أيام أم الغمر لا نقلاها ولو تشاء قبلت عيناها

وقال كثير عزة :

أسيئى بنا أو أحسنى لاملومة لدينا ولا مقلية إن تقلت

فالأول قال : فقلاها من الواوى ، والثانى قال : مقلية من الياء ، وهما فى اللسان شواهد .

وقد جاء فى السيرة ما يشهد لهذا المعنى ويثبت دوام موالاته سبحانه لحبيبه وعنايته به وحفظه له بما كان يكلؤه به عمه ، وقد قال عمه فى ذلك :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد فى التراب دفينا

وذكر ابن هشام فى رعاية عمه له ، أنه كان إذا جن الليل وأرادوا أن يناموا ، تركه مع أولاده ينامون ، حتى إذا أخذ كل مضجعه ، عمد عمه إلى واحد من أبنائه ، فأقامه وأتى بمحمد صلى الله عليه وسلم ينام موضعه ، وذهب بولده ينام مكان محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كان هناك من يريد به سوءاً فرآى مكانه فى أول الليل ، ثم جاء من يريده بسوء وقع السوء بابنه ، وسلم محمد صلى الله عليه وسلم ، كما فعل الصديق رضى الله عنه عند الخروج إلى الهجرة فى طريقهما إلى الغار ،

فكان رضى الله عنه تارة يمشى أمامه صلى الله عليه وسلم ، وتارة يمشى وراءه ، فسأله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : « أذكر الرصيد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون وراءك ، فقال : أتريد لو كان سوء يكون بك يا أبا بكر ؟ قال : بلى ، فداك أبى وأمى يارسول الله ، ثم قال : إن أهلك أهلك وحدى ، وإن تهلك تهلك معك الدعوة » : فذاك عمه فى جاهلية وليس على دينه صلى الله عليه وسلم ، وهذا أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ .

خير تأتى مصدراً كقوله : إن ترك خيرا أى مالا كثيراً ، وتأتى أفعل تفضيل محذوفة الهمزة ، وهى هنا أفعل تفضيل بدليل ذكر المقابل ، وذكر حرف من ، مما يدل على أنه سبحانه أعطاه فى الدنيا خيرات كثيرة ، ولكن ما يكون له فى الآخرة فهو خير وأفضل مما أعطاه فى الدنيا ، ويوم أن الآخرة خير له صلى الله عليه وسلم وحده من الأولى ، ولكن جاء النص على أنها خير للأبرار جميعاً ، وهو قوله تعالى : (وما عند الله خير للأبرار) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان الخيرية للأبرار عند الله ، أى يوم القيامة مما أعد لهم ، كما فى قوله : (إن الأبرار لفى

نعيم) ، وقوله : (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا) .

أما بيان الخيرية هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبيان الخير فى الدنيا أولا ، ثم بيان الأفضل منه فى الآخرة .

أما فى الدنيا المدلول عليه بأفعل التفضيل ، أى لدلالته على اشتراك الأمرين فى الوصف ، وزيادة أحدهما على الآخر ، فقد أشار إليه فى هذه السورة والتى بعدها ، ففى هذه السورة قوله تعالى : (ألم يجدك يتيماً فآوى) أى منذ ولادته ونشأته ، ولقد تعهده الله سبحانه من صغره فصانه عن دنس الشرك ، وطهّره وشق صدره ونقاه ، وكان رغم يتمه سيد شباب قريش ، حيث قال عمه عند خطبته خديجة لزواجه بها فقال : « فتى لا يعادله فتى من قريش ، حلماً وعقلا وخلقاً ، إلا رجح عليه » .

وقوله : (ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى) .

على ما سيأتى بيانه كله ، فهى نعم يعددها تعالى عليه ، وهى من أعظم خيرات الدنيا من صغره إلى شبابه وكبره ، ثم اصطفائه بالرسالة ، ثم حفظه من الناس ، ثم نصره على الأعداء ، وإظهار دينه وإعلاء كلمته .

ومن الناحية المعنوية ما جاء فى السورة بعدها : (ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك) .

أما خيرية الآخرة على الأولى ، فعلى حد قوله : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) وليس بعد الرضى مطلب ، وفى الجملة : فإن الأولى دار عمل وتكليف وجهاد ، والآخرة دار جزاء وثواب وإكرام ، فهى لا شك أفضل من الأولى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ .

جاء مؤكداً باللام وسوف ، وقال بعض العلماء : يعطيه فى الدنيا من إتمام الدين وإعلاء كلمة الله ، والنصر على الأعداء .

والجمهور : أنه فى الآخرة ، وهذا وإن كان على سبيل الإجمال ، إلا أنه فصل فى بعض المواضع ، فأعظمها ما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) .

وجاء فى السنة بيان المقام المحمود وهو الذى يغبطه عليه الأولون والآخرون ، كما فى حديث الشفاعة العظمى حين يتخلى كل نبى ،

ويقول : « نفسى نفسى ، حتى يصلوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فيقول : أنا لها أنا لها » إلخ .

ومنها : الحوض المورود ، وما حصت به أمته غراً محجلين ، يردون عليه الحوض .

ومنها : الوسيلة ، وهى منزلة رفيعة عالية لا تنبغى إلا لعبد واحد ، كما فى الحديث : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علىّ وسلوا الله لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد واحد ، وأرجو أن أكون أنا هو » .

وإذا كانت لعبد واحد فمن يستقدم عليها ، وإذا رجا ربه أن تكون له طلب من الأمة طلبها له ، فهو مما يؤكد أنها له ، وإلا لما طلبها ولا ترجاها ، ولا أمر بطلبها له ، وهو بلاشك أحق بها من جميع الخلق ، إذ الخلق أفضلهم الرسل ، وهو صلى الله عليه وسلم مقدم عليهم فى الدنيا ، كما فى الإسراء تقدم عليهم فى الصلاة فى بيت المقدس .

ومنها : الشفاعة فى دخول الجنة كما فى الحديث : « أنه صلى الله عليه وسلم أول من تفتح له الجنة ، وأن رضوانا خازن الجنة يقول له : أمرت ألا أفتح لأحد قبلك » .

ومنها : الشفاعة ، المتعددة حتى لا يبقى أحد من أمته فى النار ، كما فى الحديث : « لا أرضى وأحد من أمتى فى النار » أسأل الله أن يرزقنا شفاعته ، ويوردنا حوضه . آمين .

وشفاعته الخاصة فى الخاص فى عمه أبى طالب ، فيخفف عنه بها ما كان فيه .

ومنها : شهادته على الرسل ، وشهادة أمته على الأمم وغير ذلك ، وهذه بلا شك عطايا من الله العزيز الحكيم لحبيبه وصفيه الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

تنبيه

اللام فى « وللآخرة » وفى « ولسوف » التأكيد وليست للقسم ، وهى فى الأول دخلت على المبتدإ ، وفى الثانية المبتدأ محذوف تقديره ، لأنت سوف يعطيك ربك فترضى . قاله أبو حيان وأبو السعود .

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ ﴾ .

تقدم بيان معنى اليتيم عند قوله تعالى : (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً) .

والرسول صلى الله عليه وسلم مات أبوه ، وهو حمل له ستة

أشهر ، وماتت أمه وهى عائدة من المدينة بالأبواء وعمره صلى الله عليه وسلم

وقد قيل : إن يتمه لأنه لايكون لأحد حق عليه ، نقله أبو حيان .

والذى يظهر أن يتمه راجع إلى قوله (ماودعكَ ربك) أى ليتولى الله تعالى أمره من صغره ، وتقدم معنى إيواء الله له ، فكان يتمه لإبراز فضله ، لأن يتيم الأمس أصبح سيد الغد ، وكافل اليتامى .

قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ .

الضلال : يكون حساً ومعنى ، فالأول : كمن تاه فى طريق يسلكه ، والثانى : كمن ترك الحق فلم يتبعه .

فقال قوم : المراد هنا هو الأول ، كأن قد ضل فى شعب من شعاب مكة ، أو فى طريقه إلى الشام . ونحو ذلك .

وقال آخرون : إنما هو عبارة عن عدم التعليم أولا ثم منحه من العلم مما لم يكن يعلم ، كقوله : (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشـــــاء من عبادنا) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بحث هذه المسألة فى عدة مواضع : أولا فى سورة يوسف عند قوله تعالى : (إن أبانا

لفى ضلال مبين) ، وساق شواهد الضلال لغة هناك .

وثانياً : فى سورة الكهف عند قوله تعالى : (الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا) .

وثالثاً : فى سورة الشعراء عند قوله تعالى : (قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين) .

وفى دفع إيهام الاضطراب أيضاً : وهذا كله يغنى عن أى بحث آخر .

ومن الطريف ما ذكره أبو حيان عند هذه الآية ، حيث قال : ولقد رأيت فى النوم ، أنى أفكر فى هذه الجملة ، فأقول على الفور : ووجدك : أى وجد رهطك ضالا فهداه بك ، ثم أقول : على حذف مضاف ، نحو : واسأل القرية . ا هـ .

وقد أورد النيسابورى هذا وجهاً فى الآية ، وبهذه المناسبة أذكر منامين كنت رأيتهما ولم أرد ذكرهما حتى رأيت هذا لأبى حيان ، فاستأنست به لذكرهما ، وهما : الأول عندما وصلت إلى سورة ن عند قوله تعالى : (وإنك لعلى خلق عظيم) ، ومن منهج الأضواء تفسير القرآن بالقرآن ، وهذا وصف مجمل ، وحديث عائشة « كان خُلقه القرآن » فأخذت فى التفكير ، كيف أفصل هذا المعنى من

القرآن ، وأبين حكمه وصفحه وصبره وكرمه وعطفه ورحمته ورأفته وجهاده وعبادته ، وكل ذلك مما جعلنى أقف حائراً وأمكث عن الكتابة عدة أيام ، فرأيت الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى النوم ، كأننا فى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وكأنه ليس فى نشاطه العادى ، فسألته ماذا عندك اليوم ؟

فقال : عندى تفسير .

فقلت : أتدرس اليوم ؟ قال : لا ، فقلت : وما هذا الذى بيدك؟ لدفتر فى يده ، فقال : مذكرة تفسير ، أى التى كان سيفسرها وهى مخطوطة ، فقلت له : من أين فى القرآن ؟ فقال : من أول نَ إلى آخر القرآن ، فحرصت على أخذها لأكتب منها ، ولم أتجرأ على طلبها صراحة ، ولكن قلت له : إذا كنت لم تدرس اليوم فأعطنيها أبيضها وأجلدها لك ، وآتيك بها غداً ، فأعطانيها فانتبهت فرحا بذلك وبدأت فى الكتابة .

والمرة الثانية فى سورة المطففين ، لما كتبت على معنى التطفيف ، ثم فكرت فى التوعد الشديد عليه مع يتأتى فيه من شىء طفيف ، حتى فكرت فى أن له صلة بالربا ، إذا ما بيع جنس بجنسه ، فحصلت مغايرة فى الكيل ووقع تفاضل ، ولكنى لم أجد من قال به ، فرأيت فيما يرى النائم ، أنى مع الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، ولكن لم يتحدث معى فى شىء من التفسير .

وبعد أن راح عنى ، فإذا بشخص لا أعرفه يقول : وأنا أسمع دون أن يوجه الحديث إلىّ إن فى التطفيف ربا ، إذا بيع الحديد بحديد ، وكلمة أخرى فى معناها نسيتها بعد أن انتبهت .

وقد ذكرت ذلك تأسياً بأبى حيان ، لما أجد فيه من إيناس ، والله أسأل أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه ، وأن يهدينا سواء السبيل ، وعلى ما جاء فى الرؤيا من مبشرات : وبالله تعالى التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾

العائل : صاحب العيال ، وقيل : العائل الفقير ، على أنه من لازم العيال الحاجة ، ولكن ليس بلازم ، ومقابلة عائلا بأغنى ، تدل على أن معنى عائلا أى فقيراً ، ولذا قال الشاعر :

فما يدرى الفقير متى غناه وما يدرى الغنى متى يعيل
وما تدرى وإن ذمرت سقباً لغيرك أم يكون لك الفصيل

وهذا مما يذكره الله لنبيه صلى الله عليه وسلم من تعداد النعم عليه ، وأنه لم يودعه وما قلاه ، لقد كان فقيراً من المال فأغناه الله بمال عمه .

وقد قال عمه فى خطبة نكاحه بخديجة : وإن كان فى المال قلّ فما أحببتم من الصداق ، فعلىّ ، ثم أغناه الله بمال خديجة ، حيث جعلت مالها تحت يده .

قال النيسابورى ما نصه : يروى أنه صلى الله عليه وسلم دخل على خديجة وهو مغموم ، فقالت : مالك ؟ فقال : الزمان زمان قحط، فإن أنا بذلت المال ينفد مالك ، فأستحيي منك ، وإن أنا لم أبذل أخاف الله ، فدعت قريشاً وفيهم الصديق ، قال الصديق : فأخرجت دنانير حتى وضعتها ، بلغت مبلغاً لم يقع بصرى على من كان جالساً قدامى ، ثم قالت : اشهدوا أن هذا المال ماله ، إن شاء فرقه وإن شاء أمسكه .

فهذه القصة وإن لم يذكر سندها ، فليس بغريب على خديجة رضى الله عنها أن تفعل ذلك له صلى الله عليه وسلم ، وقد فعلت ما هو أعظم من ذلك ، حين دخلت معه الشعب فتركت مالها ، واختارت مشاركته صلى الله عليه وسلم لما هو فيه من ضيق العيش ، حتى أكلوا ورق الشجر ، وأموالها طائلة فى بيتها .

ثم كانت الهجرة وكانت مواساة الأنصار ، لقد قدم المدينة تاركاً ماله ومال خديجة ، حتى إن الصديق ليدفع ثمن المربد لبناء المسجد، وكان بعد ذلك فىء بنى النضير ، وكان يقضى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ، لا يوقد فى بيته صلى الله عليه وسلم نار ، إنما هما الأسودان : التمر والماء .

ثم جاءت غنائم حنين ، فأعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، ورجع

بدون شيء ، وجاء مال البحرين فأخذ العباس ما يطيق حمله ، وأخيراً توفى صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة فى آصع من شعير .

وقوله تعالى : (ووجدك عائلا فأغنى) يشير إلى هذا الموضع ، لأن أغنى تعبير بالفعل ، وهو يدل على التجدد والحدوث ، فقد كان صلى الله عليه وسلم من حيث المال حالا فحالا ، والواقع أن غناه صلى الله عليه وسلم كان قبل كل شيء ، هو غنى النفس والاستغناء عن الناس ، ويكفى أنه صلى الله عليه وسلم أجود الناس .

وكان إذا لقيه جبريل ودارسه القرآن كالريح المرسلة ، فكان صلى الله عليه وسلم القدوة فى الحالتين ، فى حالى الفقر والغنى ، إن قلّ ماله صبر ، وإن كثر بذل وشكر .

استغن ما أغناك ربك بالغنى وإذا تصبك خصاصة فتجمل

ومما يدل على عظم عطاء الله له مما فاق كل عطاء . قوله تعالى : (ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم) ثم قال : (لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ، ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين) .

وقد اختلفوا فى المقارنة بين الفقير الصابر والغنى الشاكر ، ولكن الله تعالى قد جمع لرسوله صلى الله عليه وسلم كلا الأمرين ، ليرسم القدوة المثلى فى الحالتين .

تنبيـــه

فى الآية إشارة إلى أن الإيواء والهدى والغنى من الله لإسنادها هنا لله تعالى .

ولـكن فى السياق لطيفة دقيقـــة ، وهى معرض التقرير ، يأتى بكاف الخطاب : ألم يجدك يتيما ، ألم يجدك ضالا ، ألم يجدك عائلا ، لتأكيد التقرير ، لم يسند اليتم ولا الإضـلال ولا الفقر لله ، مع أن كله من الله ، فهو الذى أوقع عليه اليتم ، وهو سبحـانه الذى منه كلما وجده عليه ، ذلك لما فيه من إيلام له ، فما يسنده لله ظاهراً ولما فيه من التقرير عليه أبرز ضمير الخطاب .

وفى تعداد النعم : فآوى ، فهدى ، فأغنى . أسند كله إلى ضمير المنعم ، ولم يبرز ضمير الخطاب .

قال المفسرون : لمراعاة رؤوس الآى والفواصل ، ولـكن الذى يظهر والله تعالى أعلم : أنه لما كان فيه امتنان ، وأنها نعم مادية لم يبرز الضمير لئلا يثقل عليه المنة ، بينما أبرزه فى : ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، ورفعنا لك ذكرك . لأنها نعم معنوية ، انفرد بها صلى الله عليه وسلم . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ . وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .

مجيء الفاء هنا مشعر ، إما بتفريع وهذا ضعيف ، وإما بإفصاح عن تعدد ، وقد ذكر الجمل بتقدير ، مهما يكن من شيء .

وقد ساق تعالى هنا ثلاث مسائل : الأولى معاملة الأيتام فقال : (فأما اليتيم فلا تقهر) ، أى كما آواك الله فآوه ، وكما أكرمك فأكرمه .

وقالوا : قهر اليتيم أخذ ماله وظلمه .

وقيل : قرىء بالكاف « تكهر » ، فقالوا : هو بمعنى القهر إلا أنه أشد .

وقيل : هو بمعنى عبوسة الوجه ، والمعنى أعم ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ومن العجز والكسل ، ومن الجبن والبخل ، ومن غلبة الدَّيْن وقهر الرجال » ، فالقهر أعم من ذلك .

وبالنظر فى نصوص القرآن العديدة فى شأن اليتيم ، والتى زادت على العشرين موضعاً ، فإنه يمكن تصنيفها إلى خمسة أبواب كلها تدور حول دفع المضار عنه ، وجلب المصالح له فى ماله وفى نفسه ،

فهذه أربعة ، وفى الحالة الزوجية ، وهى الخامسة . أما دفع الضرار عنه فى ماله ، ففى قوله تعالى : (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن) جاءت مرتين فى سورة الأنعام والأخرى فى سورة الإسراء ، وفى كل من السورتين ضمن الوصايا العشر المعروفة فى سورة الأنعام ، بدأت بقوله تعالى : (قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا) .

وذكر قتل الولد وقربان الفواحش وقتل النفس ثم مال اليتيم . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن .

ويلاحظ أن النهى منصب على مجرد الاقتراب من ماله إلا بالتى هى أحسن ، وقد بين تعالى التى هى أحسن بقوله : (ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف) .

وقد نص الفقهاء على أن من ولى مال اليتيم واستحق أجراً ، فله الأقل من أحد أمرين : إما نفقته فى نفسه ، وإما أجرته على عمله ، أى إن كان العمل يستحق أجرة ألف ريال ، ونفقته يكفى لها خمسمائة أخذ نفقته فقط ، وإن كان العمل يكفيه أجرة مائة ريال ، ونفقته خمسمائة أخذ أجرته مائة فقط ، حفظاً لماله .

ثم بعد النهى عن اقتراب مال اليتيم ذلك ، فقد تتطلع بعض النفوس إلى فوارق بسيطة من باب التحيل أو نحوه ، من استبدال

شيء مكان شيء ، فيكون طريقاً لاستبدال طيب بخبيث ، فجاء قوله تعالى : (وآتوا اليتامى أموالهم ولاتتبدلوا الخبيث بالطيب ولاتأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا) .

والحوب : أعظم الذنب ، ففيه النهى عن استبدال طيب ماله ، بخبيث مال الولى أو غيره حسداً له على ماله ، كما نهى عن خلط ماله مع مال غيره كوسيلة لأكله مع مال الغير ، وهذا منع للتحيل وسد للذريعة ، حفظاً لماله .

ثم يأتى الوعيد الشديد فى صورة مفزعة فى قوله تعالى : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا) .

وقد اتفق العلماء : أن الآية شملت فى النهى عن أكل أموال اليتامى كل مافيه إتلاف أو تفويت سواء كان بأكل حقيقة أو باختلاس أو بإحراق أو إغراق ، وهو المعروف عند الأصوليين بالإلحاق بنفى الفارق ، إذ لافرق فى ضياع مال اليتيم عليه ، بين كونه بأكل أو إحراق بنار أو إغراق فى ماء حتى الإهمال فيه ، فهو تفويت عليه وكل ذلك حفظاً لماله .

وأخيراً ، فإذا تم الحفاظ على ماله لم يقربه إلا بالتى هى أحسن ، ولم يبدله بغيره أقل منه ، ولم يخلطه بماله ليأكله عليه ، ولم يعتد

عليه بأى إتلاف كان محفوظا له ، إلى أن يذهب يتمه ويثبت رشده، فيأتى قوله تعالى : (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منه رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا) .

ثم أحاط دفع المال إليه بموجبات الحفظ بقوله فى آخر الآية : (فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم) أى حتى لاتكون مناكرة فيما بعد .

وفى الختام ينبه الله فيهم وازع مراقبة الله بقوله : (وكفى بالله حسيباً) ، وفيه إشعار بأن أمواله تدفع إليه بعد محاسبة دقيقة فيما له وعليه .

ومهما يكن من دقة فى الحساب ، فالله سيحاسب عنه ، وكفى بالله حسيبا ، وهذا كله فى حفظ ماله .

أما جلب المصالح ، فإننا نجد فيها أولا جعله مع الوالدين ، والأقربين ، فى عدة مواطن ، منها قوله تعالى : (قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى) .

ومنها قوله : إيراده فى أنواع البر من الإيمان بالله وإنفاق المال (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين) إلى آخر الآية .

ومنها : ماهو أدخل فى الموضوع حيث جعل له نصيباً فى التركة فى قوله : (وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه) بصرف النظر عن مباحث الآية من جهات أخرى ، ومرة أخرى يجعل لهم نصيباً فيما هو أعلى منزلة فى قوله تعالى : (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله) الآية

وكذلك فى سورة الحشر فى قوله تعالى : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) الآية .

فجعلهم الله مع ذى القربى من رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقد جعله الله فى عموم وصف الأبرار ، وسبباً للوصول إلى أعلى درجات النعيم فى قوله تعالى : (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا) .

وذكر أفعالهم التى منها : أنهم يوفون بالنذر ، ثم بعدها : أنهم يطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيرا .

وجعل هذا الإطعام اجتياز العقبة فى قوله : (فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة) الآية .

ولقد وجدنا ماهو أعظم من ذلك ، وهو أن يسوق الله الخضر وموسى عليهما السلام ليقيما جداراً ليتيمين على كنز لهما حتى يبلغا أشدهما ، فى قوله تعالى : (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمرى)

هذا هو الجانب المالى من دفع المضرة عنه فى حفظ ماله ، ومن جانب جلب النفع إليه عن طريق المال .

أما الجانب النفسى فكالآتى :

أولا : عدم مساءته فى نفسه ، فمنها قوله تعالى : (أرأيت الذى يكذب بالدين ، فذلك الذى يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين) .

ومنها قوله (كلا بل لاتكرمون اليتيم ، ولا تحاضون على طعام المسكين) فقدم إكرامه إشارة له .

ثانياً : فى الإحسان إليه ، منها قوله تعالى : (لاتعبدوا إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى) فيحسن إليه كما يحسن لوالديه ولذى القربى .

ومنها سؤال ، وجوابه من الله تعالى (ويسألونك عن اليتامى قل

إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح) أى تعاملونهم كما تعاملون الإخوان ، وهذا أعلى درجات الإحسان والمعروف ، ولذا قال تعالى : (والله يعلم المفسد من المصلح) .

وفى تقديم ذكر المفسد على المصلح : إشعار لشدة التحذير من الإفساد فى معاملته ، ولأنه محل التحذير فى موطن آخر جعلهم بمنزلة الأولاد فى قوله : (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا) .

أى حتى فى مخاطبتهم إياهم لأنهم بمنزلة أولادهم ، بل ربما كان لهم أولاد فيما بعد أيتاماً من بعدهم ، فكما يخشون على أولادهم إذا صاروا أيتاماً من بعدهم ، فليحسنوا معاملة الأيتام فى أيديهم وهذه غاية درجات العناية والرعاية .

تلك هى نصوص القرآن فى حسن معاملة اليتيم وعدم الإساءة إليه ، مما يفصل مجمل قوله : (فأما اليتيم فلا تقهر) .

لا بكلمة غير سديدة ولا بحرمانه من شىء يحتاجه ، ولا بإتلاف ماله ، ولا بالتحيل على أكله وإضاعته ، ولا بشىء بالكلية ، لا فى نفسه ولا فى ماله .

والأحاديث من السنة على ذلك عديدة بالغة مبلغها فى حقه ، وكان صلى الله عليه وسلم أرحم الناس به وأشفقهم عليه ، حتى قال : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين ـ يشير إلى السبابة والوسطى ـ وفرّج بينهما » رواه البخارى وأبو داود والترمذى .

وفى رواية أبى هريرة عند مسلم ومالك : « كافل اليتيم له أو لغيره » أى قريب له أو بعيد عنه .

وعند أحمد والطبرانى مرفوعا : « من ضم يتيما من بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه ، وجبت له الجنة » قال المنذرى : رواه أحمد ، محتج بهم إلا على بن زيد .

وعند ابن ماجه عن أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال : « خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم ، يُحسن إليه . وشر بيت فى المسلمين ، بيت فيه يتيم يُساء إليه » .

وجاء عند أبى داود ما هو أبعد من هذا وذلك ، حتى إن الأم لتعطل مصالحها من أجل أيتامها ، فى قوله صلى الله عليه وسلم « أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة ـ وأومأ بيده ـ يزيد بن زريع ـ بفتح الزاى وإسكان الباء ـ بالوسطى والسبابة امرأة آمت زوجها ـ بألف ممدودة وميم مفتوحة وتاء ـ أصبحت أيما ، بوفاة

زوجها - ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا » .

وجعله الله دواء لقساوة القلب ، كما روى أحمد ورجاله رجال الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رجلا شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه فقال « امسح رأس اليتيم ، وأطعم المسكين » .

وهنا يتجلى سر لطيف فى مثالية التشريع الإسلامى ، حيث يخاطب الله تعالى أفضل الخلق وأرحمهم ، وأرأفهم بعباد الله ، الموصوف بقوله تعالى : (بالمؤمنين رؤوف رحيم) وبقوله (وإنك لعلى خلق عظيم) ليكون مثالا مثاليا فى أمة قست قلوبها وغلظت طباعها ، فلا يرحمون ضعيفا ، ولا يؤدون حقا إلا من قوة يدينون لمبدأ «من عزّ بزّ ، ومن غلب استلب » يفاخرون بالظلم ويتهاجون بالأمانة ، كما قال شاعرهم :

قبيـــلة لا يخفرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

ويقول حكيمهم :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لم يظلم الناس يظلم

قوم يئدون بناتهم ، ويحرمون من الميراث نساءهم ، يأكلون

التراث أكلا لمّاً ، ويحبون المال حباً ، فقلب مقاييسهم وعدل مفاهيمهم ، فألان قلوبهم ورقق طباعهم ، فلانوا مع هذا الضعيف وحفظوا حقه .

وحقيقة هذا التشريع الإلهى الحكيم منذ أربعة عشر قرنا تأتى فوق كل ما تتطلع إليه آمال الحضارات الإنسانية كلها ، مما يحقق كمال التكامل الاجتماعى بأبهى معانيه ، المنوه عنه فى الآية الكريمة (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا) ، فجعل كافل اليتيم اليوم ، إنما يعمل حتى فيما بعد لو ترك ذرية ضعافا ، وعبّر هنا عن الأيتام بلازمهم وهو الضعف إبرازاً لحاجة اليتيم إلى الإحسان ، بسبب ضعفه فيكونون موضع خوفهم عليهم لضعفهم ، فليعاملوا الأيتام تحت أيديهم ، كما يحبون أن يعامل غيرهم أيتامهم من بعدهم .

وهكذا تضع الآية أمامنا تكافلا اجتماعياً فى كفالة اليتيم ، بل إن اليتيم نفسه ، فإنه يتيم اليوم ورجل الغد ، فكما تحسن إليه يحسن هو إلى أيتامك من بعدك ، وكما تدين تدان ، فإن كان خيراً كان الخير بالخير والبادىء أكرم ، وإن شراً كان بمثله والبادىء أظلم .

ومع هذا الحق المتبادل ، فإن الإسلام يحث عليه ويعنى به ، ورغّب

فى الإحسان إليه وأجزل المثوبة عليه ، وحذّر من الإساءة عليه ، وشدد العقوبة فيه .

وقد يكون فيما أوردناه إطالة ، ولكنه وفاء بحق اليتيم أولا ، وتأثر بكثرة ما يلاقيه اليتيم ثانيا .

تنبيـــه

ليس من باب الإساءة إلى اليتيم تأديبه والحزم معه ، بل ذلك من مصلحته كما قيل :

قس ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

وقـــــوله :

(وأما السائل فلا تنهر) ، قالوا : السائل الفقير والمحتاج ، يسأل ما يسد حاجته وهو مقابل لقوله : (ووجدك عائلا فأغنى) أى فكما أغناك الله وبدون سؤال ، فإذا أتاك سائل فلا تنهره ، ولو فى رد الجواب بالتى هى أحسن .

ومعلوم : أن الجواب بلطف ، قد يقوم مقام العطاء فى إجابة

السائل ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا لم يجد ما يعطيه للسائل يعده وعداً حسناً لحين مسيره ، أخذاً من قوله تعالى : (وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا) .

وقد أورد الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيتين عند هذه الآية فى هذا المعنى ، هما قول الشاعر :

إن لم تكن ورق يوما أجود بها للسائلين فإنى لين العود

لا يعدم السائلون الخير من خلقى إما نوالى وإما حسن مردود

فليسعد النطق إن لم يسعد المال .

وقيل : السائل المستفسر عن مسائل الدين والمسترشد ، وقالوا هذا مقابل قوله : (ووجدك ضالا فهدى) أى لا تنهر مستغنيا ولا مسترشداً ، كقوله تعالى : (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) .

وقد كان صلى الله عليه وسلم رحيما شفيقا على الجاهل حتى يتعلم ، كما فى قصة الأعرابى الذى بال فى المسجد حين صاح به الصحابة فقال لهم « لا تزرموه ، إلى أن قال الأعرابى : اللهم ارحمنى

وارحم محمداً ولا ترحم معنا أحداً أبداً » وكالآخر الذى جاء يضرب صدره وينتف شعره ويقول : « هلكت وأهلكت ، واقعت أهلى فى رمضان ، حتى كان من أمره أن أعطاه فرقاً من طعامه يكفّر به عن ذنبه ، فقال : أعلى أفقر منا يا رسول الله ؟ فقال : قم فأطعمه أهلك » .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يقف المرأة فى الطريق يصغى إليها حتى يضيق من معه وهو يصبر لها ولم ينهرها ، بل يجيبها على أسئلتها .

وقد حث صلى الله عليه وسلم على إكرام طالب العلم ، وبين أن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم ، وأن الحيتان فى البحر لتستغفر له رضى بما يصنع .

وقوله : (وأما بنعمة ربك فحدث) : النعمة كل ما أنعم الله به على العبد ، وهى كل ما ينعم به العبد من مال وعافية وهداية ونصرة من النعومة واللين ، فقيل : المراد بها المذكورات والتحدث بها شكرها عملياً من إيواء اليتيم كما آواه الله ، وإعطاء السائل كما أغناه الله ، وتعليم المسترشد كما علمه الله ، وهذا من شكر النعمة ، أى كما أنعم الله عليك ، فتنعم أنت على غيرك تأسياً بفعل الله معك .

وقيل : التحدث بنعمة الله هو التبليغ عن الله من آية وحديث ، والنعمة هنا عامة لتنكيرها وإضافتها ، كما فى قوله تعالى : (وما بكم من نعمة فمن الله) أى كل نعمة . ولكن الذى يظهر أنها فى الوحى أظهر أو هو أولى بها ، أو هو أعظمها ، لقوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمى ورضيت لكم الإسلام دينا) فقال : نعمتى ، وهنا نعمة ربك . ولا يبعد عندى أن يكون صلى الله عليه وسلم إنما نحر مائة ناقة فى حجة الوداع ، لما أنزل الله عليه هذه الآية ، ففعل شكراً لله على إتمام النعمة بإكمال الدين .

وقد قالوا فى مناسبة هذه السورة بما قبلها : إن التى قبلها فى الصديق (وسيجنبها الأتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى) وهنا فى الرسول صلى الله عليه وسلم (ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى) مع الفارق الكبير فى العطاء والخطاب .

والواقع أن مناسبات السور القصار ، أظهر من مناسبات الآى فى السورة الواحدة ، كما بين هاتين السورتين والليل مع والضحى ، ثم ما بين والضحى وألم نشرح ، إنها تتمة النعم التى يعددها الله تعالى على رسوله .

وهكذا على ما ستأتى الإشارة إليه فى محله إن شاء الله تعالى .
أعلم علماً بأن بعض العلماء لم يعتبر تلك المناسبات .

ولكن ما كانت المناسبة فيه واضحة ، فلا ينبغى إغفاله ، وما كانت خفية لا ينبغى التكلف له .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشرح

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ . الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ .

ذكر تعالى هنا ثلاث مسائل : شرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر .

وهى وإن كانت مصدرة بالاستفهام ، فهو استفهام تقريرى لتقرير الإثبات ، فقوله تعالى (ألم نشرح) بمعنى شرحنا على المبدأ المعروف ، من أن نفى النفى إثبات . وذلك لأن همزة الاستفهام وهى فيها معنى النفى دخلت على لم وهى للنفى ، فترافعا فبقى الفعل مثبتاً . قالوا : ومثله قوله تعالى (أليس الله بكافٍ عبده) . وقوله (ألم ربّك فينا وليدا) .

وعليه قول الشاعر :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

فتقرر بذلك أنه تعالى يعدد عليه نعمه العظمى ، وقد ذكرنا سابقاً ارتباط هذه السورة بالتى قبلها فى تتمة نعم الله تعالى على رسوله ، صلى الله عليه وسلم .

وروى النيسابورى عن عطاء وعمر بن عبد العزيز : أنهما كانا يقولان : هذه السورة وسورة الضحى سورة واحدة ، وكانا يقرآنهما فى الركعة الواحدة ، وما كانا يفصلان بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم . والذى دعاهما إلى ذلك هو أن قوله تعالى (ألم نشرح لك صدرك) كالعطف على قوله (ألم يجدك يتيما) ورد هذا الإدعاء ـ أى من كونهما سورة واحدة ـ وعلى كل فإن هذا إذا لم يجعلهما سورة واحدة فإنه يجعلهما مرتبطتين . معاً فى المعنى ، كما فى الأنفال والتوبة .

واختلف فى معنى شرح الصدر ، إلا أنه لا منافاة فيما قالوا ، وكلها يكمل بعضها بعضا .

فقيل : هو شق الصدر سواء كان مرة أو أكثر ، وغسله وملؤه إيمانا وحكمة ، كما فى رواية مالك بن صعصعة فى ليلة الإسراء ، ورواية أبى هريرة فى غيرها .

وفيه كما فى رواية أحمد : أنه شق صدره وأخرج منه الغل والحسد ، فى شىء كهيئة العلقة ، وأدخلت الرأفة والرحمة .

وقيل : شرح الصدر ، إنما هو توسيعه للمعرفة والإيمان ومعرفة الحق ، وجعل قلبه وعاء للحكمة .

وفى البخارى عن ابن عباس « شرح الله صدره للاسلام »

وعند ابن كثير : نورناه وجعلناه فسيحا رحيباً واسعاً ، كقوله (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) .

والذى يشهد له القرآن : أن الشرح هو الانشراح والارتياح . وهذه حالة نتيجة استقرار الإيمان والمعرفة والنور والحكمة . كما فى قوله تعالى (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه) فقوله : فهو على نور من ربه : بيان لشرح الصدر للاسلام .

كما أن ضيق الصدر ، دليل على الضلال ، كما فى نفس الآية (ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجا) الآية .

وفى حاشية الشيخ زادة على البيضاوى قال : لم يشرح صدر أحد من العالمين ، كما شرح صدره عليه السلام ، حتى وسع علوم الأولين والآخرين . فقال « أوتيت جوامع الكلم » . اهـ .

ومراده بعلوم الأولين والآخرين ، ماجاء فى القرآن من أخبار الأمم الماضية مع رسلهم وأخبار المعاد ، وما بينه وبين ذلك مما علمه الله تعالى .

والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن شرح الصدر الممتن به عليه صلى الله عليه وسلم ، أوسع وأعم من ذلك ، حتى إنه ليشمل صبره وصفحه وعفوه عن أعدائه ، ومقابلته الإساءة بالإحسان ، حتى إنه ليسع العدو ، كما يسع الصديق .

كقصة عودته من ثقيف : إذ آذوه سفهاؤهم ، حتى ضاق ملك الجبال بفعلهم ، وقال له جبريل : إن ملك الجبال معى ، إن أردت أن يطبق عليهم الأخشبين فعل ، فينشرح صدره إلى ما هو أبعد من ذلك ، ولكأنهم لم يسيئوا إليه فيقول : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون ، إنى لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

وتلك أعظم نعمة وأقوى عدة فى تبليغ الدعوة وتحمل أعباء الرسالة ، ولذا توجه نبى الله موسى إلى ربه يطلبه إياها ، لما كلف الذهاب إلى الطاغية فرعون كما فى قوله تعالى (اذهب إلى فرعون إنه طغى ، قال رب اشرح لى صدرى ، ويسّر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيراً من أهلى ، هارون أخى ، اشدد به أزرى) إلى آخر السياق .

فذكر هنا من دواعى العون على أداء الرسالة أربعة عوامل : بدأها بشرح الصدر ، ثم تيسير الأمر ، وهذان عاملان ذاتيان ، ثم الوسيلة بينه وبين فرعون ، وهو اللسان فى الإقناع ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ، ثم العامل المادى أخيراً فى المؤازرة ، واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى اشدد به أزرى ، فقدم شرح الصدر على هذا كله لأهميته ، لأنه به يقابل كل الصعاب ، ولذا قابل به ما جاء به السحرة

من سحر عظيم ، وما قابلهم به فرعون من عنت أعظم .

وقد بيّن تعالى من دواعى انشراح الصدر وإنارته ، ما يكون من رفعة وحكمة وتيسير ، وقد يكون من هذا الباب مما يساعد عليه تلقى تلك التعاليم من الوحى ، كقوله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وكقوله (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) ، مما لا يتأتى إلا ممن شرح الله صدره .

ومما يعين الملازمة عليه على انشراح الصدر ، وفعلا قد صبر على أذى المشركين بمكة ومخادعة المنافقين بالمدينة ، وتلقى كل ذلك بصدر رحب .

وفى هذا كما قدمنا توجيه لكل داعية إلى الله ، أن يكون رحب الصدر هادىء النفس متجملا بالصبر .

وقوله (ووضعنا عنك وزرك) ، والوضع يكون للحط والتخفيف ، ويكون للحمل والتثقيل ، فإن عدى بعن كان للحط ، وإن عدى بعلى كان للحمل ، فى قولهم : وضعت عنك ، ووضعت عليك ، والوزر لغة الثقل .

ومنه : حتى تضع الحرب أوزارها ، أى ثقلها من سلاح ونحوه ..

ومنه الوزير : المتحمل ثقل أميره وشغله ، وشرعاً الذنب كما فى الحديث : « ومن سن سنة سيئة ، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » ، وقد يتعاوران فى التعبير كقوله تعالى (ليحملوا أوزارهم كاملة) وقوله مرة أخرى (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) .

وقد أفرد لفظ الوزر هنا وأطلق ، ولم يبين ما هو وما نوعه ، فاختلف فيه اختلافاً كثيراً .

فقيل : ما كان فيه من أمر الجاهلية ، وحفظه من مشاركته معهم ، فلم يلحقه شىء منه .

وقيل : ثقل تألمه مما كان عليه قومه ، ولم يستطع تغييره ، وشفقته صلى الله عليه وسلم بهم ، أى كقوله تعالى : (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) أى أسفاً عليهم .

وقال أبو حيان : هو كناية عن عصمته صلى الله عليه وسلم من الذنوب ، وتطهيره من الأرجاس .

وقال ابن جرير : وغفرنا لك ما سلف من ذنوبك ، وحططنا عنك ثقل أيام الجاهلية التى كنت فيها .

وقال ابن كثير : هو بمعنى : ليغفرلك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر .

فكلام أبى حيان : يدل على العصمة ، وكلام ابن جرير يدل على شىء فى الجاهلية ، وكلام ابن كثير مجمل .

وفى هذا المجال مبحث عصمة الأنبياء عموما ، وهو مبحث أصولى تحققه كتب الأصول لسلامة الدعوة ، وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى عليها وعليه بحثه فى سورة طه عند الكلام على قوله تعالى (وعصى آدم ربه فغوى) ، وأورد كلام المعتزلة والشيعة والحشوية ، ومقياس ذلك ، عقلا وشرعاً ، وفى سورة ص عند قوله تعالى (وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه) ، ونبه عندها على أن كل ما يقال فى داود عليه السلام حول هذا المعنى ، كله إسرائيليات لا تليق بمقام النبوة . اهـ .

أما فى خصوصه صلى الله عليه وسلم ، فإنا نورد الآتى : إنه مهما يكن من شىء ، فإن عصمته صلى الله عليه وسلم من الكبائر والصغائر بعد البعثة يجب القطع بها ، لنص القرآن الكريم فى قوله تعالى (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) لوجوب التأسى به وامتناع أن يكون فيه شىء من ذلك قطعاً .

أما قبل البعثة ، فالعصمة من الكبائر أيضاً ، يجب الجزم بها لأنه صلى الله عليه وسلم كان فى مقام التهيؤ للنبوة من صغره ، وقد شق

صدره فى سن الرضاع ، وأخرج منه حظ الشيطان ، ثم إنه لو كان قد وقع منه شىء لأخذوه عليه حين عارضوه فى دعوته ، ولم يذكر من ذلك ولا شىء فلم يبق إلا القول فى الصغائر ، فهى دائرة بين الجواز والمنع ، فإن كانت جائزة ووقعت ، فلا تمس مقامه صلى الله عليه وسلم لوقوعها قبل البعثة والتكليف ، وأنها قد غفرت وحط عنه ثقلها ، فإن لم تقع ولم تكن جائزة فى حقه ، فهذا المطلوب .

وقد ساق الألوسى رحمه الله فى تفسيره : أن عمه أبا طالب ، قال لأخيه العباس يوماً : « لقد ضمته إلىّ وما فارقته ليلا ولا نهاراً ولا ائتمنت عليه أحداً » ، وذكر قصة بنبيه ومنامه فى وسط أولاده أول الليل ، ثم نقله إياه محل أحد أبنائه حفاظاً عليه ، ثم قال : « ولم أر منه كذبة ولا ضحكا ولا جاهلية ، ولا وقف مع الصبيان وهم يلعبون » .

وذكرت كتب التفسير أنه صلى الله عليه وسلم أراد مرة فى صغره ، أن يذهب لمحل عرس ليرى ما فيه ، فلما دنا منه أخذه النوم ولم يصح إلا على حر الشمس ، فصانه الله من رؤية أو سماع ، شىء من ذلك .

ومنه قصة مشاركته فى بناء الكعبة حين تعرى ومنع منه حالا ، وعلى المنع من وقوع شىء منه صلى الله عليه وسلم بقى الجواب على معنى الآية ، فيقال والله تعالى أعلم : إنه تكريم له صلى الله عليه وسلم كما جاء فى أهل بدر ، قوله صلى الله عليه وسلم : « لعل الله اطلع

على أهل بدر فقال : افعلوا ماشئتم فقد غفرت لكم » مع أنهم لن يفعلوا محرما بذلك ، ولكنه تكريم لهم ورفع لمنزلتهم .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يتوب ويستغفر ويقوم الليل حتى تورّمت قدماه ، وقال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » .

فكان كل ذلك منه شكراً لله تعالى ، ورفعاً لدرجاته صلى الله عليه وسلم .

وقد جاء : « نعم العبد صهيب ، لولم يخف الله لم يعصه » ، وهو حسنة من حسناته صلى الله عليه وسلم .

أو أنه صلى الله عليه وسلم كان يعتد على نفسه بالتقصير ، ويعتبره ذنبا يستثقله ويستغفر منه ، كما كان إذا خرج من الخلاء قال « غفرانك » .

ومعلوم أنه ليس من موجب للاستغفار ، إلا ما قيل شعوره بترك الذكر فى تلك الحالة ، استوجب منه ذلك .

وقد استحسن العلماء قول الجنيد : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، أو أن المراد مثل ما جاء فى القرآن من بعض اجتهاداته صلى الله عليه وسلم ، وفى سبيل الدعوة ، فيرد اجتهاده فيعظم عليه كقصة ابن أم مكتوم ، وعوتب فيه (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) الآية ، ونظيرها ولو كان بعد نزول هذه السورة ، إلا أنه من بابه

واحد كقوله : (عفا الله عنك لم أذنت لهم) ، وقصة أسارى بدر ، وقوله : (ليس لك من الأمر شيء) واجتهاده فى إيمان عمه ، حتى قيل له : (إنك لاتهدى من أحببت) ونحو ذلك . فنحمل الآية عليه ، أو أن الوزر بمعناه اللغوى ، وهو ما كان يثقله من أعباء الدعوة ، وتبليغ الرسالة ، كما ذكر ابن كثير فى سورة الإسراء عن الإمام أحمد من حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما كان ليلة أسرى بى فأصبحت بمكة فظعت ، وعرفت أن الناس مكذبى ، فقعدت معتزلا حزيناً ، فمرّ بى أبو جهل ، فجاء حتى جلس إليه ، فقال له كالمستهزىء : هل كان من شيء ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، وقصّ عليه الإسراء » .

ففيه التصريح بأنه صلى الله عليه وسلم فظع ، والفظاعة : ثقل وحزن ، والحزن : ثقل . وتوقع تكذيبهم إياه أثقل على النفس من كل شيء . والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى : (الذى أنقض ظهرك) أى ثقله مشعر بأن للذنب ثقلا على المؤمن ينوء به ، ولا يخففه إلا التوبة وحطه عنه .

وقوله : (ورفعنا لك ذكرك) لم يبين هنا بم ولا كيف رفع له ذكره ، والرفع يكون حسياً ويكون معنوياً ، فاختلف فى المراد به أيضا .

فقيل : هو حسى فى الأذان والإقامة ، وفى الخطب على المنابر

وافتتاحيات الكلام فى الأمور الهامة ، واستدلوا لذلك بالواقع فعلا ، واستشهدوا بقول حسان رضى الله عنه ، وهى أبيات فى ديوانه من قصيدة دالية :

أغـــر عليه للنبوة خاتم من الله مشهود يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبى إلى اسمه إذا قال فى الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمـــه ليجله فذوا العرش محمود وهذا محمد

ومن رفع الذكر معنى أى من الرفعة ، ذكره صلى الله عليه وسلم فى كتب الأنبياء قبله ، حتى عرف للأمم الماضية قبل مجيئه .

وقد نص القرآن أن الله جعل الوحى ذكراً له ولقومه ، فى قوله تعالى : (فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم ، وإنه لذكر لك ولقومك) ، ومعلوم أن ذكر قومه ذكر له ، كما قال الشاعر :

وكم أب قد علا بابن ذرى رتب
كما علت برسول الله عـــدنان

فتبين أن رفع ذكره صلى الله عليه وسلم ، إنما هو عن طريق الوحى سواء كان بنصوص من توجيه الخطاب إليه بمثل (يا أيها الرسول) ، (يا أيها النبى) ، (يا أيها المدثر) ، والتصريح باسمه فى مقام الرسالة (محمد رسول الله) أو كان فى فروع التشريع ، كما تقدم فى

أذان وإقامة وتشهد وخطب وصلاة عليه صلى الله عليه وسلم. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ. وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾.

النصب: التعب بعد الاجتهاد، كما فى قوله: (وجوه يومئذ خاشعة، عاملة ناصبة).

وقد يكون النصب للدنيا أو للآخرة، ولم يبين المراد بالنصب فى أى شىء، فاختلف فيه، ولكنها أقوال متقاربة.

فقيل: فى الدعاء بعد الفراغ من الصلاة.

وقيل: فى النافلة من الفريضة، والذى يشهد له القرآن، أنه توجيه عام للأخذ بحظ الآخرة بعد الفراغ من عمل الدنيا، كما فى مثل قوله تعالى: (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً)، وقوله: (إن ناشئة الليل، هى أشد وطئاً وأقوم قيلا) أى لأنها وقت الفراغ من عمل النهار وفى سكون الليل، وقوله: (إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا)، فيكون وقته كله مشغولا، إما للدنيا وإما للدين.

وفى قوله: (فإذا فرغت فانصب) حل لمشكلة الفراغ التى شغلت

العالم حيث لم تترك للمسلم فراغاً فى وقته ، لأنه إما فى عمل للدنيا ، وإما فى عمل للآخرة .

وقد روى عن ابن عباس : « أنه مرّ على رجلين يتصارعان فقال لهما : ما بهذا أمرنا بعد فراغنا » .

وروى عن عمر أنه قال : « إنى لأكره لأحدكم أن يكون خالياً سبهللا ، لا فى عمل دنيا ولا دين » ولهذا لم يَشْكُ الصدر الأول فراغاً فى الوقت .

ومما يشير إلى وضع الصدر الأول ، مارواه مالك عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال : قلت لعائشة رضى الله عنها ـ وأنا يومئذ حديث السن ـ : « أرأيت قول الله تعالى : (إن الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما) ، فما على الرجل شىء ألا يطوف بهما ؟ فقالت عائشة : كلا لو كان كما تقول لكانت ، فلا جناح عليه ألا يطوف بهما » .

فانظر رحمك الله وإياى ، فيم يفكر حديث السن ، وكيف يستشكل معانى القرآن ، فمثله لا يوجد عنده فراغ .

تنبيـــــه

ذكر الألوسى فى قوله تعالى : (فانصب) قراءة شاذة بكسر

الصاد ، وأخذها الشيعة على الفراغ من النبوة ، ونصب على إماما ، وقال : ليس الأمر متعينا بعلى فالسُّنى يمكن أن يقول : فانصب أبا بكر ، فإن احتج الشيعى بما كان فى غدير خم ، احتج السنى بأن وقته لم يكن وقت الفراغ من النبوة .

بلى إن قوله صلى الله عليه وسلم : « مروا أبا بكر فليصلّ بالناس » كان بعده ، وفى قرب فراغه صلى الله عليه وسلم من النبوة ، إذ كان فى مرضه الذى مات فيه .

فإن احتج الشيعى بالفراغ من حجة الوداع ، رده السنى بأن الآية قبل ذلك انتهى .

وعلى كل إذا كان الشيعة يحتجون بها ، فيكفى لرد احتجاجهم أنها شاذة ، وتتبع الشواذ قريب من التأويل المسمى باللعب عند علماء التفسير ، وهو صرف اللفظ عن ظاهره ، لا لقرينة صارفة ولا علاقة رابطة .

ومن اللعب فى التأويل فى هذه الآية ، ما يفعله بعض العوام : رأيت رجلا عاميا عادياً ، قد لبس حلة كاملة من عمامة وثوب صقيل وحزام جميل مما يسمونه نصبة ، أى بدلة كاملة ، فقال له رجل : ما هذه النصبة يا فلان ؟ فقال له : لما فرغت من عملى نصبت ، كما قال تعالى : (فإذا فرغت فانصب) .

كما سمعت آخر يتوجع لقلة ماق يده ، ويقول لزميله : ألا تعرف

لى شخصاً أنصب عليه ، أى آخذ قرضة منه ، فقلت له : ولم تنصب عليه ؟ والنصب كذب وحرام . فقال : إذا لم يكن عند الإنسان شيء ، ويده خالية فلا بأس ، لأن الله قال : (فإذا فرغت فانصب) ، وهذا وأمثاله مما يتجرأ عليه العامة لجهلهم ، أو أصحاب الأهواء لتحلهم

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾

التقديم هنا مشعر بالتخصيص وهو كقوله تعالى : (إياك نعبد ﴾ أى لا نعبد غيرك : وهكذا هنا لا ترغب إلى غيره سبحانه ، كأنه يقول : الذى أنعم عليك بكل ما تقدم ، هو الذى ترغب فيما عنده لا سواه .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التين

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ . وَطُورِ سِينِينَ . وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ .

التين هو الثمرة المعروفة التى لا عجم لها ولا قشرة ، والزيتون هو كذلك الثمرة التى منها الزيت ، وطور سينين هو جبل الطور الذى ناجى موسى عنده ربه ، والبلد الأمين هو مكة المكرمة ، والواو للقسم .

وقد اختلف فى المراد بالمقسم به فى الأول ، والثانى التين والزيتون ، واتفقوا عليه فى الثالث والرابع على ما سيأتى .

أما التين والزيتون ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما « أنهما الثمرتان المعروفتان » وهو قول عكرمة والحسن ومجاهد . كلهم يقول : التين : تينكم الذى تأكلون ، والزيتون : زيتونكم الذى تعصرون .

وعن كعب : التين : مسجد دمشق ، والزيتون بيت المقدس ، وكذا عن قتادة . وأرادوا منابت التين والزيتون بقرينة الطور

والبلد الأمين ، على أن منبت التين والزيتون لعيسى ، وطور سينين لموسى والبلد الأمين لمحمد صلى الله عليه وسلم .

ولكن حمل التين والزيتون على منابتهما لا دليل عليه ، فالأولى إبقاؤهما على أصلهما ، ويشهد لذلك الآتى :

أولا التين : قالوا : إنه أشبه ما يكون من الثمار بثمر الجنة ، إذ لا عجم له ولا قشر ، وجاء عنه فى السنة « أنه صلى الله عليه وسلم أهدى له طبق فيه تين ، فأكل منه ثم قال لأصحابه : فلو قلت : إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه ، لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوه ، فإنه يقطع البواسير وينفع من النقرس » ، ذكره النيسابورى ولم يذكر من خرّجه .

وذكره ابن القيم رحمه الله فى زاد المعاد ، قائلا : ويذكر عن أبى الدرداء « أهدى إلى النبى صلى الله عليه وسلم طبق من تين » وساق النص المتقدم . ثم قال : وفى ثبوت هذا نظر .

وقد ذكر المفسرون وابن القيم وصاحب القاموس : للتين خواص ، وقالوا : إنها مما تجعله محلا للقسم به ، وجزم ابن القيم : أنه المراد فى السورة .

ومما ذكروا من خواصه ، قالوا : إنه يجلو رمل الكلى والمثانة ويؤمن من السموم ، وينفع خشونة الحلق والصدر وقصبة الرئة ، ويغسل الكبد والطحال ، وينقى الخلط البلغمى من المعدة ، ويغذى البدن غذاء جيداً ، ويابسه يغذى وينفع العصب .

وقال جالينوس : وإذا أكل مع الجوز والسذاب ، قبل أخذ السم القاتل نفع ، وحفظ من الضر ، وينفع السعال المزمن ويدر البول ويسكن العطش الكائن عن البلغم المالح ، ولأكله على الريق منفعة عجيبة .

وقال ابن القيم : لما لم يكن بأرض الحجاز والمدينة ، لم يأت له ذكر فى السنة ، ولكن قد أقسم الله به فى كتابه ، لكثرة منافعه وفوائده .

والصحيح : أن المقسم به هو التين المعروف . اهـ .

وكما قال ابن القيم رحمه الله : لم يذكر فى السنة لعدم وجوده بالحجاز والمدينة ، فكذلك لم يأت ذكره فى القرآن قط إلا فى هذا الموضع ، ولم يكن من منابت الحجاز والمدينة لمنافاة جوه لجوها ، وهو وإن وجد أخيراً إلا أنه لا يجود فيها جودته فى غيرها .

فترجح أن المراد بالتين هو هـذا المأكول ، كما جاء عمن سمينا : ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن .

أما الزيتون ، فقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى المقدمة، أن من أنواع البيان إذا اختلف فى المعنى المراد ، وكان مجيء أحـد المعنيين أو المعانى المحتملة أكثر فى القرآن ، فإنه يكون أولى بحمل اللفظ عليه .

وقد جاء ذكر الزيتون فى القرآن عدة مرات مقصوداً به تلك الشجرة المباركة ، فذكر فى ضمن الأشجار خاصة فى قوله تعالى من سورة الأنعام (وجنات من أعناب والزيتون والرمان ـ إلى قوله ـ إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) وسماها بذاتها فى قوله تعالى من سورة المؤمنين (وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين) وذكرها مع النخل والزرع فى عبس فى قوله تعالى : (فأنبتنا فيها حباً ، وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلا) وذكر من أخص خصائص الأشجار ، فى قوله فى سورة النور فى المثل العظيم المضروب ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دُرِّيٌّ يُوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور) . فوصفها بالبركة ووصف زيتها بأنه يكاد يضيء ، ولو لم

تمسسه نار ، واختيارها لهذا المثل العظيم ، يجعلها أهلا لهذا القسم العظيم هنا .

أما طور سينين : فأكثرهم على أنه جبل الطور ، الذى ناجى الله موسى عنده ، كما جاء فى عدة مواطن ، وذكر الطور فيها للتكريم وللقسم فمن ذكره للتكريم قوله تعالى : (وناديناه من جانب الطور الأيمن) ، ومن ذكره للقسم به ، قوله تعالى : (والطور وكتاب مسطور) .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة الطور قوله ، وقد أقسم الله بالطور فى قوله تعالى : (والتين والزيتون وطور سينين) . ا هـ .

أما البلد الأمين فهو مكة لقوله تعالى : (ومن دخله كان آمنا) فالأمين بمعنى الأمن ، أى من الأعداء ، أن يحاربوا أهله أو يغزوهم ، كما قال تعالى : (أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم) والأمين بمعنى أمن جاء فى قول الشاعر :

ألم تعلمى يا أسم ويحك أننى حلفت يمينا لا أخون أميني

يريد : آمنى .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾

هذا هو المقسم عليه ، والتقويم التعديل كما فى قوله : (ولم يجعل له عوجاً ، قيما) وأحسن تقويم شامل لخلق الإنسان حساً ومعنى أى شكلا وصورة وإنسانية ، وكلها من آيات القدرة ودلالة البعث .

وروى عن على رضى الله عنه :

دواؤك منك ولا تشعر ودواؤك منك ولا تبصر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الكبير

وقد بين تعالى خلقه ابتداء من نطفة فعلقة إلى آخره فى أكثر من موضع ، كما فى قوله : (ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) .

وكذلك فى هذه السورة التنبيه على البعث بقوله : (فما يكذبك بعد بالدين) .

أما الجانب المعنوى فهو الجانب الإنسانى ، وهو المتقدم فى قوله : (ونفس وما سواها) على ما قدمنا هناك ، من أن النفس البشرية هى مناط التكليف ، وهو الجانب الذى به كان الإنسان إنساناً ، وبهما كان خلقه فى أحسن تقويم ، ونال بذلك أعلى درجات التكريم : (ولقد كرمنا بنى آدم) .

والإنسان وإن كان لفظاً مفرداً إلا أنه للجنس بدلالة قوله : (ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا) ، وهذا مثل ما فى سورة (والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا) فباستثناء الجمع منه ، علم أن المراد به الجنس .

والتأكيد بالقسم المتقدم على خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، يشعر أن المخاطب منكر لذلك ، مع أن هذا أمر ملموس محسوس ، لا ينكره إنسان .

وقد أجاب الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى دفع إيهام الاضطراب على ذلك : بأن غير المنكر إذا ظهرت عليه علامات الإنكار ، عومل معاملة المنكر ، كقول الشاعر :

جاء شقيق عارضاً رمحه وإن بنى عمك فيهم رماح

وأمارات الإنكار على المخاطبين ، إنما هى عدم إيمانهم بالبعث ، لأن العاقل لو تأمل خلق الإنسان ، لعرف منه أن القادر على خلقه فى هذه الصورة ، قادر على بعثه .

وهذه المسألة أفردها الشيخ فى سورة الجاثية بتنبيه على قوله تعالى : (وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون) ، وتكرر

هذا البحث فى عدة مواضع ، وأصرح دلالة على هذا المعنى ما جاء فى آخر يس ، (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم)

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾

قيل : رد إلى الكبر والهرم وضعف الجسم والعقل .

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

كما فى قوله تعالى : (ومن نعمره ننكسه فى الخلق) .

وذكر الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هذا القول ، وساق معه قوله : (الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة) ، وساق آية التين هذه (ثم رددناه أسفل سافلين) ، وقال : على أحد التفسيرين ، وقوله : (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً) ، وهذا المعنى مروى عن ابن عباس رواه ابن جرير .

وقيل : رد النار إلى بسبب كفره ، وهـــذا مروى عن مجاهد والحسن .

وقد رجح ابن جرير المعنى الأول ، وهو كما ترى ، ما يشهد له

القرآن فى النصوص التى قدمنا ، واستدل لهذا الوجه من نفس السورة. وذلك لأن الله تعالى قال فى آخرها (فما يكذبك بعد بالدين) أى بعد هذه الحجج الواضحة ، وهى بدء خلق الإنسان وتطوره إلى أحسن أمره ، ثم رده إلى أحط درجات العجز أسفل سافلين ، وهـذا هو المشاهد لهم ، يحتج به عليهم .

أما رده إلى النار فأمر لم يشهده ولم يؤمنوا به ، فلا يصلح أن يكون دليلا يقيمه عليهم ، لأن من شأن الدليل أن ينقل من المعلوم إلى المجهول والبعث هو موضع إنـكارهم ، فلا يحتج عليهم لإثبات ما ينـكرونه بما ينـكرونه ، وهذا الذى ذهب إليه واضح .

ومما يشهد لهذا الوجه : أن حالة الإنسان هذه فى نشأته من نطفة ، فعلقة ، فطفلا ، فغلاماً ، فشيخاً ، فهرم ، وعجز . جاء مثلها فى النبات وكلاهما من دلائل البعث ، كما فى قوله : (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو — إلى قوله — كمثل غيث أعجب الـكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان) ، وقوله : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلـكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاما ، إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب) .

فـكذلك الإنسـان ، لأنه كالنبات سواء كما قال تعالى: (والله

أنبتكم من الأرض نباتاً ، ثم يعيدكم فيها ، ويخرجكم إخراجاً) .

ويكون الاستثناء إلا الذين آمنوا فإنهم لا يصلون إلى حالة الخرف وأرذل العمر ، لأن المؤمن مهما طال عمره ، فهو في طاعة ، وفي ذكر الله فهو كامل العقل ، وقد تواتر عند العامة والخاصة أن حافظ كتاب الله المداوم على تلاوته ، لا يصاب بالخرف ولا الهذيان .

وقد شاهدنا شيخ القراء بالمدينة المنورة الشيخ حسن الشاعر ، لا زال على قيد الحياة عند كتابة هذه الأسطر تجاوز المائة بكثير ، وهو لا يزال يقرىء تلاميذه القرآن ، ويعلمهم القراءات العشر ، وقد يسمع لأكثر من شخص يقرءون في أكثر من موضع وهو يضبط على الجميع .

وقد روى الشوكاني مثله ، عن ابن عباس أنه قال ، ذلك .

قوله تعالى : ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

أي غير مقطوع أو غير ممنون به عليهم .

وعلى الأول : فالأجر هو الثواب ، إما بدوام أعمالهم لكمال

عقولهم ، وإما بأن الله يأمر الملائكة أن تكتب لهم من الأجر ما كانوا يعملونه فى حال قوتهم من صيام وقيام ، وتصدق من كسبهم ونحو ذلك ، للأحاديث فى حق المريض والمسافر ، فيظل ثواب أعمالهم مستمراً عليهم غير مقطوع .

وعلى الثانى : فيكون الأجر هو النعيم فى الجنة يعطونه ولا يمنّ عليهم ، ولا يقطع عنهم كما قال تعالى (أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا) .

تنبيـــه

وهنا وجهة نظر من وجهين : وجه خاص وآخر عام .

أما الخاص : فإن كلة رددناه ، فالرد يشعر إلى رد لأمر سابق ، والأمر السابق هو خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وأحسن تقويم شامل لشكله ومعناه ، أى جسمه وإنسانيته ، فرده إلى أسفل سافلين ، يكون بعدم الإيمان كالحيوان بل هو فى تلك الحالة أسفل دركاً من الحيوان ، وأشرس نفساً من الوحش ، فلا إيمان يحكمه ولا إنسانية تهذبه ، فيكون طاغية جباراً يعيث فى الأرض فساداً ، وعليه يكون الاستثناء ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فبإيمانهم وعملهم الصالحات يترفعون عن السفالة ، ويرتفعون إلى الأعلى فلهم أجر غير ممنون .

والوجهة العامة وهى الشاملة لموضوع السورة من أولها ابتداء من التين والزيتون وما معه فى القسم إلى (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا) الآية .

فإنه إن صح ما جاء فى قصة آدم فى قوله : (فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) . روى المفسرون أن آدم لما بدت له سوأته ذهب إلى أشجار الجنة ليأخذ من الورق ليستر نفسه ، وكلما جاء شجرة زجرته ولم تعطه ، حتى مرّ بشجرة التين فأعطته ، فأخلفها الله الثمرة مرتين فى السنة ، وكافأها بجعل ثمرتها باطنها كظاهرها لاقشر لها ولا عجم .

وقد روى الشوكانى فى أنها شجرة التين التى أخذ منها الورق ـ فقال : وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال « لما أسكن الله آدم الجنة كساه سربالا من الظفر ، فلما أصاب الخطيئة سلبه السربال فبقى فى أطراف أصابعه » .

قال : وأخرج الفريابى وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى وابن عساكر عن ابن عباس قال : « كان لباس آدم وحواء كالظفر ـ وذكر الأثر ـ وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة » قال : ينزعان ورق التين فيجعلانه على سوءاتهما .

وبهذا النقل يكون ذكر التين هنا مع خلق الإنسان فى أحسن تقويم، ثم رده أسفل سافلين إلا الذين آمنوا سر لطيف جداً ، وهو إشعار الإنسان الآن، أن جنس الإنسان كله بالإنسان الأول أبى البشر، وقد خلقه الله فى أحسن حالة حساً ومعنى، حتى رفعه إلى منزلة إسجاد الملائكة له وسكناه الجنة ، فهى أعلى منزلة التكريم، وله فيها أنه لا يجوع ولا يعرى ولا يظمأ فيها ولا يضحى ، وظل كذلك على ذلك إلى أن أغواه الشيطان ونسى عهد ربه إليه ، ووقع فيما وقع فيه وكان له ما كان، فدلاهما بغرور وانتقلا من أعلى عليين إلى أسفل سافلين، فنزل إلى الأرض يحرث ويزرع ويحصد ويطحن ويعجن ويخبز ، حتى يجد لقمة العيش ، فهذا خلق الإنسان فى أحسن تقويم ورده أسفل سافلين .

وهذا شأن أهل الأرض جميعاً ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فلهم أجر غير ممنون ، برجوعهم إلى الجنة كما رجع إليها آدم بالتوبة، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، ثم اجتباه ربه، فتاب عليه وهدى .

وإن فى ذكر البلد الأمين لترشيح لهذا المعنى ، لأن الله جعل الحرم لأهل مكة أمناً كصورة الآمن فى الجنة ، فإن امتثلوا وأطاعوا

تعموا بهذا الأمن ، وإن تمردوا وعصوا ، فيخرجون منها ويحرمون أمنها .

وهكذا تكون السورة ربطاً بين الماضى والحاضر ، وانطلاقاً من الحاضر إلى المستقبل ، فما يكذبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين . فيما فعل بآدم وفيما يفعل بأولئك ، حيث أنعم عليهم بالأمن والعيش الرغد ، وإرسالك إليهم وفيما يفعل لمن آمن أو بمن يكفر ، اللهم بلى .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾

فالدين هو الجزاء كما فى سورة الفاتحة (مالك يوم الدين) والخطاب قيل للرسول صلى الله عليه وسلم . وأن مافى قوله : فما هى بمعنى من أى ، فمن الذى يكذبك بعد هذا البيان ، بمجىء الجزاء والحساب ليلقى كل جزاء عمله .

قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

السؤال كما تقدم فى (ألم نشرح) أى للاثبات ، وهو سبحانه وتعالى بلا شك أحكم الحاكمين ، كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قرأها قال : « اللهم بلى » كما سيأتى .

وأحكم الحاكمين ، قيل : أفعل تفضيل من الحكم أى أعدل الحاكمين ، كما فى قوله تعالى : (ولا يظلم ربك أحدا) .

وقيل : من الحكمة ، أى فى الصنع والإتقان والخلق ، فيكون اللفظ مشتركا ، ولا يبعد أن يكون من المعنيين معاً ، وإن كان هو فى الحكم أظهر ، لأن الحكيم من الحكمة يجمع على الحكماء .

فعلى القول بالأمرين : يكون من استعمال المشترك فى معنييه معاً ، وهو هنا لا تعارض بل هما متلازمان ، لأن الحكيم لابد أن يعدل ، والعادل لا بدأن يكون حكيما يضع الأمور فى مواضعها .

وقد بين تعالى هذا المعنى فى عدة مواطن كقوله تعالى (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) ، الجواب : لا ، وكقوله (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون) ، وفى قوله (ساء مايحكمون) بيان لعدم عدالتهم فى الحكم ، وبعده عن الحكمة .

ومعلوم أن عدم التسوية بينهم فى مماتهم أنه بالبعث والجزاء ، فهو سبحانه أحكم الحاكمين فى صنعه وخلقه . خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وأعدل الحكام فى حكمه لم يسوّ بين المحسن والمسىء .

وقد اتفق المفسرون على رواية الترمذى لحديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً : « من قرأ والتين والزيتون ، فقرأ أليس الله بأحكم الحاكمين ، فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين » .

ومثله عن جابر مرفوعاً ، وعن ابن عباس قوله « سبحانك اللهم ، فبلى » . والعلم عند الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العلق

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

فى هذه الآيات الخمس تسع مسائل مرتبط بعضها ببعض ارتباط السبب بالمسبب ، والعام بالخاص ، والدليل بالمدلول عليه ، وكلها من منهج هذا الكتاب المبارك . وفى الواقع أنها كلها مسائل أساسية بالغة الأهمية عظيمة الدلالة .

وقد قال عنها شيخ الإسلام ابن تيمية : إنها وأمثالها من السور التى فيها العجائب ، وذلك لما جاء فيها من التأسيس لافتتاحية تلك الرسالة العظيمة ، ولا تستطيع إيفاءها حقها عجزاً وقصوراً .

وقد كتب فيها شيخ الإسلام ابن تيمية بأسلوبه مائتين وعشرين صفحة متتالية ، وفصلا آخر فى مباحث تتصل بها ، ولو أوردنا كل مايسعنا مما تحتمله ، لكان خروجاً عن موضوع الكتاب ، ولذا فإنا نقصر

القول على مايتصل بموضوعه ، إلا ماجرى القلم به مما لايمكن تركه ، وبالله تعالى التوفيق .

أما المسائل التسع التى ذكرت هنا ، فإنا نوردها لنتقيد بها وهى :

أولا : الأمر بالقراءة ، يوجه لنبى أمى .

والثانية : كون القراءة هذه باسم الرب سبحانه مضافاً للمخاطب صلى الله عليه وسلم باسم ربك .

الثالثة : وصف للرب الذى خلق بدلا من اسم الله ، واسم الذى يحيى ويميت أو غير ذلك .

الرابعة : خلق الإنسان بخصوصه ، بعد عموم خلق وإطلاقه .

الخامسة : خلق الإنسان من علق ، ولم يذكر ما قبل العلقة من نطفة أو خلق آدم من تراب .

السادسة : إعادة الأمر بالقراءة مع وربك الأكرم ، بدلا من أى صفة أخرى ، وبدلا من الذى خلق المتقدم ذكره .

الثامنة : التعليم بالقلم .

التاسعة : تعليم الإنسان مالم يعلم .

لما كانت هذه السورة هى أول سورة نزلت من القرآن ، وكانت تلك الآيات الخمس أول مانزل منها على الصحيح ، فهى بحق افتتاحية الوحى ، فكانت موضع عناية المفسرين وغيرهم ، والكلام على ذلك مستفيض فى كتب التفسير والحديث والسيرة ، فلا موجب لإيراده هنا. ولكن نورد الكلام على ماذكرنا من موضوع الكتاب إن شاء الله .

أما المسألة الأولى قوله تعالى : (اقرأ) فالقراءة لغة الإظهار ، والإبراز ، كما قيل فى وصف الناقة : لم تقرأ جنينا ، أى لم تلقح .

وتقدم للشيخ بيان هذا المعنى لغة وتوجيه الأمر بالقراءة إلى نبى أمى لاتعارض فيه ، لأن القراءة تكون من مكتوب وتكون من متلو ، وهنا من متلو يتلوه عليه جبريل عليه السلام ، وهذا إبراز المعجزة أكثر ، لأن الأمى بالأمس صار معلماً اليوم . وقد أشار السياق إلى نوعى القراءة هذين ، حيث جمع القراءة مع التعليم بالقلم .

وفى قوله تعالى : (اقرأ) بدء للنبوة وإشعار بالرسالة ، لأنه يقرأ كلام غيره .

وقوله تعالى : (باسم ربك) تؤكد لهذا الإشعار ، أى ليس من عندك ولا من عند جبريل الذى يقرئك .

وقد قدمنا الرد على كونه صلى الله عليه وسلم لم يكتب ولا يقرأ

مكتوباً ، من أنه صيانة للرسالة ، كما أنه لم يكن يقول الشعر وما ينبغي له ، إذاً لارتاب المبطلون .

كما قال تعالى : (وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) الآية . وذلك عند قوله تعالى : (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته) .

وهنا لم يبين مايقرؤه ولكن مجيء سورة القدر بعدها بمثابة البيان لما يقرؤه وهى : (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) ، وجاء بيان ما أنزل فى سورة الدخان (حم ، والكتاب المبين ، إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) .

والشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان لذلك عند قوله تعالى : (وعلّمك مالم تكن تعلم) فكأنه فى قوة اقرأ مايوحى إليك من ربك ، والمراد به هو القرآن بالإجماع .

المسألة الثانية قوله : (باسم ربك) أى اقرأ باسم ربك منشئاً ومبتدئاً القراءة باسم ربك ، وقد تكلم المفسرون على الباء أهى صلة ، ويكون اقرأ اسم ربك ، أى قل باسم الله ، كما فى أوائل السور .

وقيل : الباء بمعنى على ، أى على اسم ربك ، وعليه : فالمقروء محذوف .

والذى يظهر والله تعالى أعلم أن قوله : (باسم ربك) أى أن ماتقرؤه هو من ربك ، وتبلغه للناس باسم ربك ، وأنت مبلغ عن ربك على حد قوله : (وماينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى) .

وقوله : (ماعلى الرسول إلا البلاغ) أى عن الله تعالى .

وكقوله : (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) .

ونظير هذا فى الأعراف الحاضرة خطاب الحكم ، أو مايسمى خطاب العرش ، حينما يقول ملقيه باسم الملك ، أو باسم الأمة ، أو باسم الشعب ، على حسب نظام الدولة ، أى باسم السلطة التى منها مصدر التشريع والتوجيه السياسى .

وهنا باسم الله ، باسم ربك ، وصفة ربك هنا لها مدلول الربوبية الذى ينبه العبد إلى ما أولاه الله إياه من التربية والرعاية والعناية ، إذ الرب يفعل لعبده مايصلحه ، ومن كمال إصلاحه أن يرسل إليه من يقرأ عليه وحيه بخيرى الدنيا والآخرة ، وفى إضافته إلى المخاطب إيناس له .

المسألة الثالثة : وصف الرب بالذى خلق مع إطلاق الوصف ، وذلك لأن صفة الخلق هى أقرب الصفات إلى معنى الربوبية ، ولأنها

أجمع الصفات للتعريف بالله تعالى لخلقه ، وهى الصفة التى يسلمون بها (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله) .

(ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) .

ولأن كل مخلوق لابد له من خالق (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون) ، وقد أطلق صفة الخلق عن ذكر مخلوق ليعم ويشمل الوجود كله ، خالق كل شىء فى قوله : (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء) .

(الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل) .

(هو الله الخالق البارىء المصور) .

وتلك المسائل الثلاث : هى الأصول فى الرسالة وما بعدها دلالة عليها ، فالأمر بالقراءة تكليف لتحمل الوحى ، وباسم ربك بيان لجهة التكليف ، والذى خلق تدليل لتلك الجهة ، أى الرسالة والرسول والمرسل مع الدليل المجمل . ولاشك أن المرسل إليهم لم يؤمنوا ولا بواحدة منها ، فكان لابد من إقامة الأدلة على ثبوتها بالتفصيل .

ولما كانت جهة المرسل هى الأساس وهى المصدر ، كان التدليل عليها أولا ، فجاء التفصيل فى شأنها بما يسلمون به ويسلمونه فى أنفسهم ، وهى المسألة الرابعة

والخامسة : خلق الإنسان من علق ، وهذا تفصيل بعد إجمال ببيان للبعض من الكل ، فالإنسان بعض مما خلق ، وذكره من ذكر العام بعد الخاص أولا ، ومن إلزامهم مما يسلمون به ثم لانتقالهم مما يعلمون، ويقرون به إلى مالا يعلمون وينكرون .

وفى ذكر الإنسان بعد عموم الخلق تكريم له ، كذكر الروح بعد عموم الملائكة ، تنزل الملائكة والروح فيها ونحوه ، والإنسان هنا الجنس بدليل الجمع فى علق جمع علقة ، ولأنه أوضح دلالة عنده ، ليستدل بنفسه من نفسه كما سيأتى .

وقوله (من علق) وهو جمع علقة ، وهى القطعة من الدم ، كالعرق أو الخيط بيان على قدرته تعالى ، وذلك لأنهم يشاهدون ذلك أحيانا فيما تلقى به الرحم ، ويعلمون أنه مبدأ خلقة الإنسان .

فالقادر على إيجاد إنسان فى أحسن تقويم من هذه العلقة ، قادر على جعلك قارئا وإن لم تكن تعلم القراءة من قبل ، كما أوجد الإنسان من تلك العلقة ولم يكن موجودا من قبل ، ولأن الذى يتعهد تلك العلقة حتى تكتمل إنسانا يتعهدها بالرسالة .

وقد يكون فى اختيار الإنسان بالذات وبخصوصه لتفصيل مرحلة

وجوده ، أن غيره من المخلوقات لم تعلم مبادىء خلقتها كعلمهم بالإنسان ، ولأن الإنسان قد مرّ ذكره فى السورة قبلها (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) ، فبين أنه من هذه العلقة كان فى أحسن تقويم ، ومن حسن تقويم إنزال الكتاب القيم .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : إن المقام هنا مقام دلالة على وجود الله ، فبدأ بما يعرفونه ويسلمون به لله ، ولم يبدأ من النطفة أو التراب ، لأن خلق آدم من تراب لم يشاهدوه ، ولأن النطفة ليست بلازم لها خلق الإنسان ، فقد تقذف فى غير رحم كالمحتلم ، وقد تكون فيه ، ولا تكون مخلقة . اهـ .

وهذا فى ذاته وجيه ، ولكن لا يبعد أن يقال : إن السورة فى مستهل الوحى وبدايته ، فهى كالذى يقول : إذا كنت بدأت بالوحى إليه ولم يكن من قبل ، ولم يوجد منه شىء بالنسبة إليك ، فليس هو بأكثر من إيجاد الإنسان من علقة ، بعد أن لم يكن شيئاً .

وعليه يقال : لقد تركت مرحلة النطفة مقابل مرحلة من الوحى ، قد تركت أيضاً وهى فترة الرؤيا الصالحة ، كما فى الصحيحين « أنه صلى الله عليه سلم كان أول ما بدىء به الوحى الرؤيا الصالحة ، يراها فتأتى كفلق الصبح » فكان ذلك إرهاصاً للنبوة وتمهيداً لها لمدة ستة أشهر ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم : « الرؤيا الصالحة يراها

الرجل الصالح ، أو ترى له جزء من ست وأربعين جزءاً من النبوة ، وهى نسبة نصف السنة من ثلاث وعشرين مدة الوحى ، ولكن الرؤيا الصالحة قد يراها الرجل الصالح ، ومثل ذلك تماما فترة النطفة ، فقد تكون النطفة ولا يكون الإنسان ، كما تكون الرؤيا ولا تكون النبوة ، أما العلقة فلا تكون إلا فى رحم وقرار مكين ، ومن ثم يأتى الإنسان مخلقاً كاملا ، أو غير مخلق على ما يقدر له .

فلما كانت فترة النطفة ليست بلازمة لخلق الإنسان ، وكان مثلها فترة الرؤية ليست لازمة للنبوة ترك كل منها مقابل الآخر ، ويبدأ الدليل بما هو الواقع المسلم على أن الله تعالى هو الخالق ، والخالق للانسان من علقة ، فكان فيه إقامة الدليل من ذاتية المستدل ، فالدليل هو خلق الانسان ، والمستدل به هو الإنسان نفسه ، كما فى قوله تعالى : (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) فيستدل لنفسه من نفسه على قدرة خالقه سبحانه .

وإذا تم بهذا الاستدلال على قدرة الرب الخالق ، كان بعده إقامة الدليل على صحة النبوة ورسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فجاءت المسألة السادسة وهى إعادة القراءة فى قوله : (اقرأ وربك الأكرم) إذ أقام الدليل على أنك مرسل من الله تبلّغ عنه وتقرأ باسمه ، فاعلم أن تلك القراءة وهذا الوحى من ربك الأكرم ، والأكرم

قالوا : هو الذى يعطى بدون مقابل ، ولا انتظار مقابل ، والواقع أن مجيء الوصف هنا بالأكرم بدلا من أى صفة أخرى ، لما فى هذه الصفة من تلاؤم للسياق ، مالا يناسب مكانها غيرها لعظم العطاء وجزيل المنة .

فأولا : رحمة الخليقة بهذه القراءة التى ربطت العباد بربهم . وكفى

وثانياً : نعمة الخلق والإيجاد ، فهما نعمتان متكاملتان : الإيجاد من العدم بالخلق ، والإيجاد الثانى من الجهل إلى العلم ، ولا يكون هذا كله إلا من الرب الأكرم سبحانه .

ثم تأتى المسألة الثامنة : وهى من الدلالة على النبوة والرسالة ، وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، سواء كان الوقف على : اقرأ ، وابتداء الكلام : وربك الأكرم الذى علم بالقلم . أو الوقف على الأكرم وابتداء الكلام . الذى علم بالقلم ، لأن من يعلم الجاهل بالقلم ، يعلّم غيره بدون القلم بجامع التعليم بعد الجهل . فالقادر على هذا قادر على ذلك .

والتاسعة : بيان لهذا الإجمال حيث لم يبين ما الذى علمه بالقلم . فقال (علم الإنسان مالم يعلم) وهذا مشاهد ملموس فى أشخاصهم

(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً) .

فالله الذى علم الإنسان مالم يعلم ، وكل ما تعلمه الإنسان فهو من الله تعلمونهن مما علمكم الله ، وهل الرسالة والنبوة إلا تعليم الرسول مالم يكن يعلم ؟ وبهذا تم إقامة الدليل على صحة النبوة ، أى الرسالة والرسول والمرسل ، وهى أسس الدعوة والبعثة الجديدة .

وقد اشتهر عند الناس أنه نبىء « باقرأ » وأرسل « بالمدثر » ولكن فى نفس هذه السورة معنى الرسالة ، لما قدمنا من أن القراءة باسم ربك ، إشعار بأنه مرسل من ربه إلى من يقرأ عليهم ، ففيها إثبات الرسالة من أول بدء الوحى .

تنبيه

فى قوله تعالى : (الذى علّم بالقلم) مبحث التعليم ومورد سؤال ، وهو إذا كان تعالى تمدح بأنه علّم بالقلم وأنه علّم الإنسان مالم يعلم ، فكان فيه الإشادة بشأن القلم ، حيث إن الله تعالى قد علم به ، وهذا أعلى مراتب الشرف مع أنه سبحانه قادر على التعليم بدون القلم ، ثم أورده فى معرض التكريم فى قوله : (نَ والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون) وعظم المقسم عليه وهو نعمة الله على

رسوله صلى الله عليه وسلم بالوحى ، يدل على عظم المقسم به ، وهو القلم وما يسطرون به من كتابة الوحى وغيره .

وقد ذكر القلم فى السنة أنواعاً متفاوتة ، وكلها بالغة الأهمية .

منها : أولها وأعلاها : القلم الذى كتب ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة ، والوارد فى الحديث « أول ما خلق الله القلم ، قال له : اكتب » الحديث .

فعلى رواية الرفع ، يكون هو أول المخلوقات ثم جرى بالقدر كله ، وبما قدر وجوده كله .

ثانيها : القلم الذى يكتب مقادير العام فى ليلة القدر من كل سنة ، المشار إليه بقوله : « فيها يفرق كل أمر حكيم » .

ثالثها : القلم الذى يكتب به الملك فى الرحم ما يخص العبد من رزق وعمل .

ثالثها : القلم الذى بأيدى الكرام الكاتبين المنوه عنه بقوله تعالى : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) أى بالكتابة كما فى قوله :

(كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون) إذا قلنا إن الكتابة فى ذلك تستلزم قلماً ، كما هو الظاهر .

رابعاً : القلم الذى بأيدى الناس يكتبون به ما يعلمهم الله ، ومن أهمها أقلام كتاب الوحى ، الذين كانوا يكتبون الوحى بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتابة سليمان لبلقيس .

وقوله تعالى : (الذى علم بالقلم) شامل لهذا كله ، إذا كان هذا كله شأن القلم وعظم أمره ، وعظيم المنة به على الأمة ، بل وعلى الخليقة كلها .

وقد افتتحت الرسالة بالقراءة والكتابة ، فلماذا لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم الذى أعلن عن هذا الفضل كله للقلم ! لم يكن هو كاتباً به ، ولا من أهله بل هو أمى لا يقرأ ولا يكتب ، كما فى قوله : (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم) .

والجواب : أنا أشرنا أولا إلى ناحية منه ، وهى أنه أكمل للمعجزة ، حيث أصبح النبى الأمى معلماً كما قال تعالى : (يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب الحكمة) .

وثانياً : لم يكن هذا النبى الأمى مُغْفِلاً شأن القلم ، بل عنى به كل

العناية ، وأولها وأعظمها أنه اتخذ كتّاباً للوحى يكتبون ما يوحى إليه بين يديه ، مع أنه يحفظه ويضبطه ، وتعهد الله له بحفظه وبضبطه فى قوله تعالى : (سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله) حتى الذى ينساه يعوضه الله بخير منه أو مثله ، كما فى قوله تعالى : (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) ووعد الله تعالى بحفظه فى قوله : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

ومع ذلك ، فقد كان يأمر بكتابة هذا المحفوظ وكان له عدة كتاب ، وهذا غاية فى العناية بالقلم .

وذكر ابن القيم من الكتاب الخلفاء الأربعة ، ومعهم تتمة سبعة عشر شخصاً ، ثم لم يقتصر صلى الله عليه وسلم فى عنايته بالقلم والتعليم به عند كتابة الوحى ، بل جعل التعليم به أعم ، كما جاء خبر عبد الله ابن سعيد بن العاص « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن يعلّم الناس الكتابة بالمدينة ، وكان كاتباً محسناً » ذكره صاحب الترتيبات الإدارية عن ابن عبد البر فى الاستيعاب .

وفى سنن أبى داود عن عبادة بن الصامت قال « علّمت ناساً من أهل الصفّة الكتابة والقرآن » .

وقد كانت دعوته صلى الله عليه وسلم ، الملوك إلى الإسلام بالكتابة كما هو معلوم .

وأبعد من ذلك ، ما جاء فى قصة أسارى بدر، حيث كان يفادى بالمال من يقدر على الفداء ، ومن لم يقدر . وكان يعرف الكتابة كانت مفاداته أن يعلِّم عشرة من الغلمان الكتابة ، فكثرت الكتابة فى المدينة بعد ذلك .

وكان ممن تعلم : زيد بن ثابت وغيره .

فإذا كان المسلمون وهم فى بادىء أمرهم وأحوج مايكون إلى المال والسلاح ، بل واسترقاق الأسارى فيقدمون تعليم الغلمان الكتابة على ذلك كله ، ليدل على أمرين :

أولهما : شدة وزيادة العناية بالتعليم .

وثانيهما : جواز تعليم الكافر للمسلم مالا تعلق له بالدين ، كما يوجد الآن من الأمور الصناعية ، فى الهندسة ، والطب ، والزراعة ، والقتال ، ونحو ذلك .

وقد كثر المتعلمون بسبب ذلك ، حتى كان عدد كتاب الوحى اثنين وأربعين رجلا ثم كان انتشار الكتابة مع الإسلام ، وجاء النص على الكتابة فى توثيق الدين فى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه) الآية ، وهى أطول آية فى كتاب الله تعالى رسمت فيهم كتابة العدل الحديثة كلها .

وإذا كان هذا شأن القلم وتعلمه ، فقد وقع الكلام فى تعليمه للنساء على أنهن شقائق الرجال فى التكليف والعلم ، فهل كن كذلك فى تعلم الكتابة أم لا ؟

مبحث تعليم النساء الكتابة

وقع الخلاف بسبب نصين فى المسألة :

الأول : حديث الشفاء بنت عبد الله قالت « دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عند حفصة ، فقال لى : ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتيها الكتابة ؟ » رواه المجد فى المنتقى عن أحمد وأبى داود . وقال بعده : وهو دليل على جواز تعلم النساء الكتابة .

والثانى : حديث عائشة رواه الحاكم وصححه البيهقى مرفوعا . لا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة - يعنى النساء - وعلموهن الغزل وسورة النور » قال الشوكانى فى نيل الأوطار ، على حديث المنتقى وحديث عائشة : إن حديث الشفاء دليل على جواز تعليمهن ، وحديث النهى : محمول على من يخشى من تعليمها الفساد ، أعنى تعليم الكتابة والقراءة .

أما تعليم العلم فليس محل خلاف ، والواقع أن هذه المسألة

واضحة المعالم ، إذا نظرت كالآتى :

أولا : لاشك أن العلم من حيث هو خير من الجهل ، والعلم قسمان : علم سماع وتلقى ، وهذه سيرة زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعائشة كانت القدوة الحسنة الحسنة فى ذلك فى فقه الكتاب والسنة ، وكم استدركت على الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، وهذا مشهور ومعلوم .

والثانى : علم تحصيل بالقراءة والكتابة ، وهذا يدور مع تحقق المصلحة من عدمها ، فمن رأى أن تعليمهن مفسدة منعه ، كما روى عن علىّ رضى الله عنه : أنه مرّ على رجل يعلم امرأة الكتابة . فقال : لا تزد الشر شراً .

وروى عن بعض الحكماء : أنه رأى امرأة تتعلم الكتابة ، فقال : أفعى تسقى سما ، وأنشدوا الآتى :

ما للنساء والكتا بة والعمالة والخطابه
هذا لنا ولمن مضا أن يبتن على جنابه

ومثله ما قاله المنفلوطى :

يا قوم لم تخلق بنات الورى للدرس والطرس وقال وقيل،

لها علوم ولها غيرها فعلّموها كيف نشر الغسيل

والثوب والإبرة فى كفها طرس عليه كل خط جميل

وهذا نظر إلى تعليمهن وموقفهن من زاوية واحدة . كما قال الشاعر الآخر :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جرّ الذيول

مع أننا وجدنا فى تاريخ المرأة نسوة شاركن فى القتال ، حتى عائشة رضى الله عنها كانت تسقى الماء ، وأم سلمة تداوى الجرحى ، إذ لا يؤخذ قول كل منهما على عمومه .

قال صاحب التراتيب الإدارية : أورد القلقشندى أن جماعة من النساء كن يكتبن ، ولم ير أن أحداً من السلف أنكر عليهن . ا هـ .

ومن المعلوم رواية « كريمة » لصحيح البخارى ، وهى من الرواية المعتبرة عن المحدثين ، فقد رأيت بنفسى وأنا مدرس بالأحساء نسخة لسنن أبى دواد عند آل المبارك وعليها تعليق لأخت صلاح الدين الأيوبى ، وذكر صاحب التراتيب الإدارية قوله : وقد ثبت عن كثير من نساء أهل الصحراء الأفريقية خصوصاً شنقيط : شنجط ، أى

شنقيط ، وهى المعروفة الآن بموريتانيا ، وتيمبكتو ، وقبيلة كنت المعجب ، حتى جاء أن الشيخ المختار الكنتى الشهير ، ختم مختصر خليل للرجال ، وختمته زوجته فى جهة أخرى للنساء . اهـ .

ومما يؤيد ما ذكره أننا ونحن فى بعثة الجامعة الإسلامية لإفريقيا ، سمعنا ونحن فى مدينة أطار وهى على مقربة من مدينة شنجيط المذكورة ، سمعنا من كبار أهلها أنه كان يوجد بها سابقاً مائتا فتاة يحفظن المدونة كاملة .

وقد سمعت فى الآونة الأخيرة ، أنه كانت توجد امرأة تدرس فى المسجد النبوى ، الحديث ، والسيرة ، واللغة العربية وهى شنقيطية .

ويجب أن تكون النظرة لهذه المسألة على ضوء واقع الحياة اليوم وفى كل يوم ، وقد أصبح تعليم المرأة من متطلبات الحياة ، ولكن المشكلة تكمن فى منهج تعليمها ، وكيفية تلقيها العلم

فكان من اللازم أن يكون منهج تعليمها قاصراً على النواحى التى يحسن أن تعمل فيها كالتعليم والطب وكنى .

أما كيفية تعليمها ، فإن مشكلتها إنما جاءت من الاختلاط فى

مدرجات الجامعات ، وفصول الدراسة فى الثانويات فى فترة المراهقة ، وقلة المراقبة ، وفى هذا يكمن الخطر منها وعليها فى آن واحد ، فإذا كان لابد من تعليمها ، فلابد أيضاً من المنهج الذى يحقق الغاية منه ويضمن السلامة فيه ، والتوفيق من الله سبحانه .

أما مايخشى عليها من الاتصال عن طريق الكتابة ، فقد وجد ماهو أقرب وأسرع منها لمن شاءت وهو الهاتف فى البيوت ، فإنه فى متناول المتعلمة والجاهلة . والمدار فى ذلك كله على الحصانة التربوية والمتانة الدينية والقوة الأخلاقية .

وقد أوردت هذا المبحث استطراداً لبيان وجهة النظر فى هذه المسألة ، اقتباساً من قوله تعالى : (الذى علم بالقلم) وبالله التوفيق

مسألة

بيان أولية الكتابة عامة والعربية خاصة ، وأول من خط بالقلم على الأرض :

جاء فى المطالع النصرية للمطابع المصرية فى الأصول الخطية المطبوع سنة ١٣٠٤ مانصه : وإنما أصول الكتابة اثنى عشر على ماقاله ابن خلكان ، وتبعه كثير من المؤلفين ، كالدميرى فى حياة الحيوان ، والحلبى فى السيرة وغيرهما .

قال : إن جميع كتابات الأمم من سكان المشرق والمغرب اثنتى عشرة كتابة ، خس منها ذهب من يعرفها وبطل استعمالها وهى : الحميرية ، والقبطية ، والبربرية ، والأندلسية ، واليونانية ، وثلاث منها فقد من يعرفها فى بلاد الإسلام ومستعملة فى بلادها ، وهى السريانية والفارسية والعبرانية والعربية . اهـ . كلامه باختصار وفيه مافيه .

قال: والحميرية : هى خط أهل اليمن قوم هود وهم عاد الأولى ، وهى عاد إرم ، وكانت كتابتهم تسمى المسند الحميرى ، وكانت حروفها كلها منفصلة ، وكانوا يمنعون العامة من تعلمها فلا يتعاطاها أحد إلا بإذنهم ، حتى جاءت دولة الإسلام ، وليس بجميع اليمن من يكتب ويقرأ .

وقال المقريزى فى الخطط : القلم المسند ، هو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد . اهـ .

والمعروف الآن أن الحروف المستعملة فى الكتابة فى العالم كله بصرف النظر عن اللغات المنطوق بها هى ثلاثة فقط ، الخط العربى بحروف ألف باء وبها لغات الشرق . والحروف اللاتينية وبها لغات أوربا والحروف الصينية .

أما اللغات ، وهى فوق ألفى لغة « والأمهرية بحرف قريب من اللاتينى » .

أما أولية الكتابة العربية، فقال صاحب المطالع النصرية : قد اختلفت الروايات فيها، كما قاله الحافظ السيوطى فى الأوائل .

وكذا فى المزهر فى النوع الثانى والأربعين، قال : إنه يرى أن آدم عليه السلام أول من كتب بالقلم ، وأن الكتابات كلها من وضعه ، كان قد كتبها فى طين وطبخه ، يعنى أحرقه ودفنه قبل موته بثلاثمائة سنة ، وبعد الطوفان وجد كل قوم كتابا فتعلموه ، وكانت اثنى عشر كتاباً ، فتعلموه بإلهام إلهى .

وقيل : إن أول من خط بالعربى إسماعيل عليه السلام . اهـ .

وقد أطال السيوطى فى المزهر الكلام فى هذه المسألة ، نقلا عن ابن فارس الشدبامى .

وعن العسكرى عن الأوائل فى ذلك أقوال ، فقيل إسماعيل ، وقيل : مرار بن مرة ، وهما من أهل الأنبار ، وفى ذلك يقول الشاعر :

كتبت أبا جاد وخطى مرامز وصورت سربالى ولست بكاتب

وقيل : أول من وضعه أبجد ، وهوز وحطى ، وكلمن ، وصعفص ، وقرشت ، وكانوا ملوكا فسمى الهجاء بأسمائهم .

وذكر عن الحافظ أبى طاهر السلفى بسنده عن الشعبى قال : أول من كتب بالعربية حرب بن أمية بن عبد شمس ، تعلّم من أهل الحيرة ، وتعلم أهل الحيرة من أهل الأنبار .

وقال أبوبكر ابن أبى داود فى كتاب المصاحف : حدثنا عبد الله ابن محمد الزهرى حدثنا سفيان عن مجاهد عن الشعبى قال : سألنا المهاجرين من أين تعلمتم الكتابة ؟ قالوا : تعلمنا من أهل الحيرة ، وسألنا أهل الحيرة : من أين تعلمتم الكتابة ؟ قالوا : من أهل الأنبار ، ثم قال ابن فارس : والذى نقوله إن : الخط توقيفى ، وذلك لظاهر قوله تعالى : (الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم) .

وقوله : (نۤ والقلم ومايسطرون) .

وإذا كان هذا فليس ببعيد ، أن يوقف الله آدم أو غيره من الأنبياء عليهم السلام على الكتابة ، فأما أن يكون شيئاً مخترعا اخترعه من تلقاء نفسه ، فهذا شىء لانعلم صحته إلا من خبر صحيح .

قال السيوطى : قلت يؤيد ماقاله من التوقيف ، ما أخرجه ابن شقة من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : « أول كتاب أنزله الله من السماء أبا جاد » .

وأخرج الإمام أحمد فى مسنده عن أبى ذر ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أول من خط بالقلم إدريس عليه السلام » . اهـ .

وقد أطال النقول فى ذلك مما يرجع إلى الأول ، وليس فيه نقل صحيح يقطع به .

وقد أوردنا هذه النبذة بخصوص كلام ابن فارس ، من أن تعليم الكتابة أمر توقيفى ، وما استدل به السيوطى من أول كتاب أنزله الله من السماء ، فإن فى القرآن مايشهد لإمكان ذلك ، وهو أن الله تعالى أنزل الصحف لموسى مكتوبة .

وفى الحديث « إن الله كتب الألواح لموسى بيده ، وغرس جنة عدن بيده » .

وإذا كان موسى تلقى ألواحاً مكتوبة ، فلابد أن تكون الكتابة معلومة له قبل إنزالها ، وإلا لما عرفها .

أما المشهور فى الأحرف التى نكتب بها الآن ، فكما قال السيوطى فى المزهر ، ونقله عنه صاحب المطالع المصرية مانصه :

المشهور عند أهل العلم ماروواه ابن الكلبى عن عوانة ، قال : أول من كتب بخطنا هذا . وهو الجزم مرامر بن مرة ، وأسلم بن سدرة ، وعامر بن جدرة . كما فى القاموس . وهم من عرب طيىء تعلموه

من كتاب الوحى لسيدنا هود عليه السلام ، ثم علّموه أهل الأنبار، ومنهم انتشرت الكتابة فى العراق والحيرة وغيرها ، فتعلمها بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، وكانت له صحبة بحرب بن أمية فتعلم حرب منه ، ثم سافر معه بشر إلى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب أخت أبى سفيان . فتعلم منه جماعة من أهل مكة .

فبهذا كثر من يكتب بمكة من قريش قبيل الإسلام.

ولذا قال رجل كندى من أهل دومة الجندل ، يمن على قريش بذلك :

لاتجحدوا نعماء بشر عليكم فقد كان ميمون النقيبة أزهرا
أتاكم بخط الجزم حتى حفظتموا من المال ما قد كان شتى مبعثرا
وأتقنتموا ما كان بالمال مهملا وطأمنتموا ما كان منه مهقرا
فأجريتم الأقلام عودا وبدأة وضاهيتم كتاب كسرى وقيصرا
وأغنيتم عن مسند إلى حميرا ومازبرت فى الصحف أقلام حميرا

قال : وكذلك ذكر النووى فى شرح مسلم نقل عن الفراء ، أنه قال : إنما كتبوا الربا فى المصحف بالواو ، لأن أهل الحجاز تعلموا

الخط من أهل الحـــيرة ، ولغتهم الربوا ، فعلموهم صورة الخط على لغتهم . اهـ .

تنبيـــه آخر

قوله تعالى : (الذى علم بالقلم) لايمنع تعليمه تعالى بغـير القلم ، كما فى قصة الخضر مع موسى عليه السـلام فى قوله تعالى : (فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما) .

وكما فى حديث « نفث فى روعى أنه لن تموت نفس ، حتى تستكمل رزقها وأجلها » الحديث .

وكما فى حديث الرقية بالفاتحة لمن لدغته العقرب فى قصـة السرية المعروفة ، فلما سأله صلى الله عليه وسلم « ومايدريك أنها رقية ؟ » قال : شىء نفث فى روعى » .

وحديث علىّ لما سئل « هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم ؟ قال : لا ، إلا فهمـا يؤتيه الله من شاء فى كتابه . وما فى هذه الصحيفة » .

وقوله : واتقوا الله ويعلمكم الله . نسأل الله علم مالم نعلم ، والعمل بما نعلم . وبالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ . أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ .

ظاهر هذه الآية أن الاستغناء موجب للطغيان عند الإنسان ، ولفظ الإنسان هنا عام ، ولكن وجدنا بعض الإنسان يستغنى ولا يطغى ، فيكون هذا من العام المخصوص ، ومخصصه إما من نفس الآية أو من خارج عنها ، ففى نفس الآية ما يفيده قوله تعالى : (أن رآه) أى إن رأى الإنسان نفسه ، وقد يكون رأيا واهما ويكون الحقيقة خلاف ذلك ، ومع ذلك يطغى ، فلا يكون الاستغناء هو سبب الطغيان .

ولذا جاء فى السنة : ذم المائل المتكبر ، لأنه مع فقره يرى نفسه استغنى ، فهو معنى فى نفسه لا بسبب غناه .

أما من خارج الآية ، فقد دل على هذا المعنى قوله تعالى : (فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى) ، فإيثار الحياة الدنيا هو موجب الطغيان ، وكما فى قوله (الذى جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده كلا) الآية .

ومفهومه : أن من لم يؤثر الحياة الدنيا ، ولم يحسب أن ماله أخلده ، لن يطغيه ماله ولا غناه ، كما جاء فى قصة النفر الثلاثة الأعمى والأبرص والأقرع من بنى إسرائيل .

وقد نص القرآن على أوسع غنى فى الدنيا فى نبى الله سليمان ،

آتاه الله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، ومع هذا قال : (إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب ، ردوها علىّ) الآية .

وقصة السحابى الموجودة فى الموطأ : لما شغل ببستانه فى الصلاة ، حين رأى الطائر لا يجد فرجة من الأغصان ، ينفذ منه ، فجاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال : « يا رسول الله : إنى فتنت ببستانى فى صلاتى ، فهو فى سبيل الله » فعرفنا أن الغنى وحده ليس موجبا للطغيان ، ولكن إذا صحبه إيثار الحياة الدنيا على الآخرة ، وقد يكون طغيان النفس من لوازمها لو لم يكن غنى . إن النفس لأمارة بالسوء . وأنه لا يقى منه إلا التهذيب بالدين كما قال تعالى : (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء) الآية .

وقد ذكر عن فرعون تحقيق ذلك حين قال (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون) ، وكذلك قال قارون (إنما أوتيته على علم عندى) ، وقال : ثالث الثلاثة من بنى إسرائيل « إنما ورثته كابراً عن كابر » بخلاف المسلم إلى آخره . فلا يزيده غناه إلا تواضعاً وشكراً للنعمة ، كما قال نبى الله سليمان (قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن

شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم) وقد نص فى نفس السورة أنه شكر الله (فتبسم ضاحكا من قولها وقال : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) .

وفى العموم قوله : (حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة . قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لى فى ذريتى ، إنى تبت إليك وإنى من المسلمين) .

وقد كان فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحاب المال الوفير فلم يزدهم إلا قرباً لله ، كعثمان بن عفان رضى الله عنه ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأمثالهم ، وفى الآية ربط لطيف بأول السورة ، إذا كان خلق الإنسان من علق ، وهى أحوج ما يكون إلى لطف الله وعنايته ورحمته فى رحم أمه ، فإذا بها مضغة ثم عظام ، ثم تكسى لحماً ، ثم تنشأ خلقاً آخر ، ثم يأتى إلى الدنيا طفلا رضيعا لا يملك إلا البكاء ، فيجرى الله له نهرين من لبن أمه ، ثم ينبت له الأسنان ، ويفتق له الأمعاء ، ثم يشب ويصير غلاما يافعا ، فإذا ما ابتلاه ربه بشىء من المال أو العافية ، فإذا هو ينسى كل ما تقدم ، وينسى حتى ربه ويطغى ويتجاوز حده حتى مع الله

خالقه ورازقه ، كما رد عليه تعالى بقوله : (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) الآية .

ومما فى الآية من لطف التعبير قوله تعالى : (أن رآه استغنى) أى أن الطغيان الذى وقع فيه عن وهم ، تراءى له ، أنه استغنى سواء بماله أو بقوته . لأن حقيقة المال ولو كان جبالا ، ليس له منه إلا ما أكل ولبس وأنفق .

وهل يستطيع أن يأكل لقمة واحدة إلا بنعمة العافية ، فإذا مرض فماذا ينفعه ماله ، وإذا أكلها وهل يستفيد منها إلا بنعمة من الله عليه .

ومن هذه الآية أخذ بعض الناس ، أن الغنى الشاكر أعظم من الفقير الصابر ، لأن الغنى موجب للطغيان .

وقد قال بعض الناس : الصبر على العافية ، أشد من الصبر على الحاجة .

قوله تعالى : ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ .

قال الشيخ رحمة الله تعالى عليه وعليه فى دفع إيهام الاضطراب : أسند الكذب إلى الناصية ، وفى مواضع أخرى أسنده إلى غير الناصية ، كقوله : (إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون) .

وذكر الجواب بأنه أطلق الناصية وأراد صاحبها على أسلوب لإطلاق البعض وإيراد الكل ، وذكر الشواهد عليه من القرآن كقوله تعالى : (تبت يدا أبى لهب وتب) .

والذى ينبغى التنبيه عليه من جهة البلاغة : أن البعض الذى يطلق ويراد به الكل ، لا بد فى هذا البعض من مزيد مزية للمعنى المساق فيه الكلام .

فمثلا هنا ذم الكذب وأخذ الكاذب بكذبه ، فجاء ذكر الناصية وهى مقدم شعر الرأس ، لأنها أشد نكارة على صاحبها ونكالا به ، إذ الصدق يرفع الرأس والكذب ينكسه ذلة وخزيا .

فكانت هى هنا أنسب من اليد أو غيرها ، بينما فى أبى لهب تطاول بماله ، والغرض مذمة ماله وكسبه الذى تطاول به ، واليد هى جارحة الكسب وآلة التصرف فى المال ، فكانت اليد أولى فيه من الناصية .

وهكذا كما يقولون : بث الأمير عيونه : يريدون جواسيس له ، لأن العين من الإنسان أهم ما فيه لمهمته تلك . ولم يقولوا : بث أرجله ولا رؤوسا ولا أيد ، لأنها كلها ليست كالعين فى ذلك .

ومن هذا القبيل (قلوب يومئذ واجفة) ، (يا أيتها النفس المطمئنة) .

لأن القلب هو مصدر الخوف والنفس هى محط الطمأنينة ، على أن النفس جزء من الإنسان ، وهكذا ، ومنه الآتى (واسجد واقترب) أطلق السجود وأراد الصلاة ، لأن السجود أخص صفاتها .

قوله تعالى : ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ .

ربط بين السجود والاقتراب من الله كما قال : (ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) وقوله : فى وصف أصحابه رضى الله عنهم : (تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً) فقوله :

(يبتغون فضلا من الله ورضوانا) فى معنى يتقربون إليه يبين قوله: (واسجد واقترب) .

وهذا مما يدل لأول وهلة أن الصلاة أعظم قربة إلى الله ، حيث وجه إليها الرسول صلى الله عليه وسلم من أول الأمر ، كما بين تعالى فى قوله : (واستعينوا بالصبر والصلاة) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد » .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾

الضمير فى أنزلناه للقرآن قطعاً .

وحكى الألوسى عليه الإجماع ، وقال : ما يفيد أن هناك قولا ضعيفاً لا يعتبر من أنه لجبريل .

وما قاله عن الضعف لهذا القول ، يشهد له السياق ، وهو قوله تعالى (تنزل الملائكة والروح فيها) .

والمشهور : أن الروح هنا هو جبريل عليه السلام ، فيكون الضمير فى أنزلنا لغيره ، وجىء بضمير الغيبة ، تعظيما لشأن القرآن ، وإشعاراً بعلو قدره .

وقد يقال : ذكر سورة القدر قبلها مشعرة به فى قوله (اقرأ باسم ربك) ثم جاءت (إنا أنزلناه) أى القرآن للقروء والضمير المتصل فى إنا ، ونا فى إنا أنزلناه مستعمل للجمع وللتعظيم ؛ ومثلها نحن ، وقد اجتمعا فى قوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر) والمراد بهما هنا التعظيم قطعاً لاستحالة التعدد أو إرادة معنى الجمع .

فقد صرح فى موضع آخر باللفظ الصريح فى قوله تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثانى) والمراد به القرآن قطعاً ، فدل على أن المراد بتلك الضمائر تعظيم الله تعالى .

وقد يشعر بذلك المعنى وبالاختصاص تقديم الضمير المتصل إنا ، وهذا المقام مقام تعظيم واختصاص لله تعالى سبحانه ، ومثله (إنا أعطيناك الكوثر) ، وقوله (إنا أرسلنا نوحا) (إنا نحن نحيى ونميت) وإنزال القرآن منة عظمى .

وقد دل على تعظيم المنة وتعظيم الله سبحانه فى قوله (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) ، فقال : كتاب أنزلناه بضمير التعظيم ، ثم قال فى وصف الكتاب : مبارك .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى عليها وعليه التنصيص على أنه للتعظيم عند الكلام على آية ص من هذه (كتاب أنزلناه إليك مبارك) .

والواقع أنه جاءت الضمائر بالنسبة إلى الله تعالى بصيغ الجمع للتعظيم وبصيغ الإفراد ، فمن صيغ الجمع ماتقدم ، ومن صيغ الإفراد قوله (إنى جاعل فى الأرض خليفة) ، وقوله (إنى خالق بشراً من طين) ، وقوله (إنى أعلم ما لاتعلمون) .

ويلاحظ فى صيغ الإفراد : أنها فى مواضع التعظيم والإجلال ، كالأول فى مقام خلق البشر من طين ، ولا يقدر عليه إلا الله .

والثانى : فى مقام أنه يعلم ما لاتعلمه الملائكة ، وهذا لا يكون إلا لله سبحانه ، فسواء جىء بضمير بصيغة الجمع أو الإفراد ، ففيها كلها تعظيم لله سبحانه وتعالى سواء بنصها ، أصل الوضع أو بالقرينة فى السياق .

ثم اختلف فى المنزل ليلة القدر ، هل هو الكل أو البعض ؟

فقيل : وهو رأى الجمهور أنه أوائل تلك السورة فقط أى بداية الوحى بالقرآن ، وهو مروى عن ابن عباس ، قال : « ثم تعالى نزول الوحى ، بعد ذلك وكان بين أوله وآخره عشرون سنة » .

وقيل : المنزل فى تلك الليلة ، هو جميع القرآن جملة واحدة ، وكله إلى سماء الدنيا ، ثم صار ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم منجماً حسب الوقائع .

وهذا الأخير هو رأى الجمهور كما قدمنا ، وقد اختاره الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند الكلام على قوله تعالى (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) وحكاه الألوسى وحكى عليه الإجماع .

وعن ابن حجر فى فتح البارى ، ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قول يجمع فيه بين القولين الأخيرين ، وهو أنه لا منافاة بين القولين ، ويمكن الجمع بينهما ، بأن يكون نزل جملة إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر ، وبدء نزول أوله (اقرأ باسم ربك) فى ليلة القدر .

وقد أثير حول هذه المسألة جدال ونقاش كلامى حول كيفية نزول القرآن ، وأدخلوا فيها القول بخلق القرآن ، وأن جبريل نقله من اللوح المحفوظ ، وأن الله لم يتكلم به ، عند نزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد سئل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله عن ذلك ، وكتب جوابه وطبع ، فكان كافياً . وقد نقل فيه كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ، وبيّن أن الله تعالى تكلم به عند وحيه ، ورد على كل شبهة فى ذلك .

والواقع أنه لا تعارض كما تقدم ، بين كونه فى اللوح المحفوظ ونزوله إلى السماء الدنيا جملة ، ونزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم منجماً ، لأن كونه فى اللوح المحفوظ ، فإن اللوح فيه كل ما هو كائن وما سيكون إلى يوم القيامة ، ومن جملة ذلك القرآن الذى سينزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم .

ونزوله جملة إلى سماء الدنيا ، فهو بمثابة نقل جزء مما فى اللوح وهو جملة القرآن ، فأصبح القرآن موجوداً فى كل من اللوح المحفوظ كغيره مما هو فيه ، وموجوداً فى سماء الدنيا ثم ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم منجماً .

ومعلوم أنه الآن هو أيضاً موجود فى اللوح المحفوظ ، لم يخل منه

اللوح ، وقد يستدل لإنزاله جملة ثم تنزيله منجماً بقوله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) لأن نزل بالتضعيف تدل على التكرار كقوله (تنزل الملائكة) أى فى كل ليلة قدر .

وقد جاء (أنزلناه) فتدل على الجملة .

وقد بينت السنة تفصيل تنزيله مفرقاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث أبى هريرة وغيره أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله : كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك ، حتى إذا فزع عن قلوبهم . قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق ، وهو العلى الكبير » الحديث فى صحيح البخارى .

وفى أبى داود وغيره « إذا تكلم الله بالوحى سمع أهل السماوات صلصلة كجر السلسلة على الصفوان » .

وعلى هذا يكون القرآن موجوداً فى اللوح المحفوظ حينما جرى القلم بما هو كائن وما سيكون ، ثم جرى نقله إلى سماء الدنيا جملة فى ليلة القدر ، ثم نزل منجماً فى عشرين سنة . وكلما أراد الله إنزال شىء منه تكلم سبحانه بما أراد أن ينزله ، فيسمعه جبريل عليه السلام عن الله تعالى . ولا منافاة بين تلك الحالات الثلاث . والله تعالى أعلم .

وقد قدمنا الكلام على صور كيفية نزول الوحى وتلقى الرسول صلى الله عليه وسلم للوحى .

وقيل : معنى (أنزلناه فى ليلة القدر) أى أنزلنا القرآن فى شأن ليلة القدر تعظيما لها ، فلم تكن ظرفا على هذا الوجه .

والواقع : أن هذا القول وإن كان من حيث الأسلوب ممكناً إلا أن ما بعده يغنى عنه ، لأن إعظام ليلة القدر وبيان منزلتها قد نزل فيها قرآن فعلا ، وهو ما بعدها مباشرة فى قوله : (وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر) إلى آخر السورة .

وعليه ، فيكون أول السورة فى شأن إنزال القرآن وبيان ظرف إنزاله ، وآخر السورة فى ليلة القدر وبيان منزلتها .

وقد ذكرت ليلة القدر مبهمة ، ولكن جاء فى القرآن ما يعين الشهر التى هى فيه ، وهو شهر رمضان لقوله تعالى (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة الدخان بيان ذلك ، وأنها الليلة التى فيها يبرم كل أمر حكيم ، وليست ليلة النصف من شعبان كما يزعم بعض الناس .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان الحكمة من إنزاله

مفرقاً عند قوله تعالى (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) .

قوله تعالى : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .

القدر : الرفعة ، والقدر : بمعنى المقدار .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى مذكرة الإملاء ووجه تسميتها ليلة القدر فيه وجهان :

أحدهما : أن معنى القدر الشرف والرفعة ، كما تقول العرب : فلان ذو قدر ، أى رفعة وشرف .

الوجه الثانى : أنها سميت ليلة القدر ، لأن الله تعالى يقدر فيها وقائع السنة ، ويدل لهذا التفسير الأخير قوله تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ، إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا) .

وهذا المعنى قد ذكره رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة الدخان من الأضواء .

والواقع أن فى السورة ما يدل للوجه الأول وهو القدر والرفعة ، وهو قوله : (وما أدراك ماليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر) .

فالتساؤل بهذا الأسلوب للتعظيم كقوله (القارعة ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة) ، وقوله (خير من ألف شهر) فيه النص صراحة على علو قدرها ورفعتها ، إذ أنها تعدل فى الزمن فوق ثلاث وثمانين سنة ، أى فوق متوسط أعمار هذه الأمة .

وأيضا كونها اختصت بإنزال القرآن فيها ، وبتنزل الملائكة والروح فيها ، وبكونها سلاما هى حتى مطلع الفجر ، ففيه الكفاية بما لم تختص وتشاركها فيه ليلة من ليالى السنة .

وعليه : فلا مانع من أن تكون سميت بليلة القدر ، لكونها محلا لتقدير الأمور فى كل سنة ، وأنها بهذا وبغيره علا قدرها وعظم شأنها ، والله تعالى أعلم ، تذكير بنعمة كبرى .

إذا كانت أعمال العبد تتضاعف فى تلك الليلة ، حتى تكون خيراً من ألف شهر ، كما فى هذا النص الكريم . فإذا صادفها العبد فى المسجد النبوى يصلى ، وصلاة فيه بألف صلاة ، فكم تكون النعمة وعظم المنة ، من المنعم المتفضل سبحانه ، إنه لما يعلى الهمة ويعظم الرغبة .

وقد اقتصرت على ذكر المسجد النبوى دون المسجد الحرام ، مع زيادة المضاعفة فيه ، لأن بعض المفسرين قال بمضاعفة السيئة فيها .

كذلك أى أن المعصية فى ليله القدر كالمعصية فى ألف شهر ، . والمسجد الحرام يحاسب فيه العبد على مجرد الإرادة ، فيكون الخطر أعظم ، وفى المدينة أسلم .

ولعل مما يؤيد ذلك أن ليالى القدر كلها ، كانت لرسول الله

صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، وقد أثبتها أهل السنة كافة ، وادعت الشيعة نسخها ورفعها كلية ، وهـذا لا يلتفت إليه لصحة النصوص وشبه المتواترة .

تنبيـــه

لم يأت تحديد لتلك الليلة من أى رمضان تـكون ، وقد أكثر العلماء فى ذلك القول وإيراد النصوص .

فالأقوال منها على أعم ما يكون ، من أنهـا فى عموم السنة ، وهذا لم يأت بحديد ، وهو عن ابن مسعود وإنما أراد الاجتهاد .

ومنها : أنها فى عموم رمضان ، وهذا حسب عموم نص القرآن .

ومنهـا : أنهـا فى العشر الأواخر منه ، وهـــذا أخص من الذى قبله .

ومنها : أنها فى الوتر من العشر الأواخر ، وهـذا أخص من الذى قبله .

ومنها : أنها فى آحاد الوتر من العشر الأواخر .

فقيل : فى إحدى وعشرين .

وقيل : ثلاث وعشرين .

وقيل : خمس وعشرين .

وقيل : سبع وعشرين .

وقيل : تسع وعشرين .

وقيل : آخر ليلة من رمضان على التعيين . وفى كل من ذلك نصـــوص .

ولـكن أشهرها وأكثرها وأصحها ، ماجاء أنها فى سبع وعشرين ، وإحدى وعشرين ، ولا حاجة إلى سرد النصوص الواردة فى كل ذلك ، فلم يبق كتاب من كتب التفسير إلا ذكرها ، ولا سيما ابن كثير والقرطبي .

تنبيـــه

إذا كانت كل النصوص التى وردت فى الوتر من العشر الأواخر صحيحة ، فإنه لا يبعد أن تـكون ليـلة القدر دائرة بينهـا ، وليست بلازمة فى ليلة منهـا ولا تخرج عنها ، فقد تـكون فى سنة هى ليـلة إحدى وعشرين ، بينما فى سنة أخرى ليلة خمس أو سبع وعشرين ،

وفى أخرى ليلة ثلاث أو تسع وعشرين ، وهكذا . والله تعالى أعلم .

وقد حكى هذا الوجه ابن كثير عن مالك والشافعى وأحمد وغيرهم ، وقال : وهو الأشبه ، والله تعالى أعلم .

وقد قيل : إنه صلى الله عليه وسلم قد أنسيها ، لتجتهد الأمة فى الشهر كله أو فى العشر كلها ، ومما يؤكد أنها فى العشر الأواخر اعتكافه صلى الله عليه وسلم ، التماساً لليلة القدر .

وقد جاء فى فضلها ما استفاضت به كتب الحديث والتفسير ، ويكفى فيها نص القرآن الكريم .

وفى هذه الليلة مباحث عديدة يطول تتبعها ، منها ما يذكر من أماراتها .

ومنها : محاولة البعض استخراجها من القرآن .

ومنها : علاقتها بحكم بنى أمية ، وليس على شىء من ذلك نص يمكن التعويل عليه ، لذا لا حاجة إلى إيراده ، اللهم إلا ما جاء فى بعض أمارات نهارها صبيحتها ، حيث جاء التنويه عن شىء منه فى الحديث « أرويتنى أسجد صبيحتها فى ماء وطين » .

فذكروا من علامات يومها أن تطلع الشمس بيضاء ، وقالوا :

لأن أنوار الملائكة عند صعودها ، تتلاقى مع أشعة الشمس فتحدث فيها بياض الضوء ، وهذا مروى عن أبي في صحيح مسلم .

ومنها : اعتدال هوائها وجوها ونحو ذلك ؛ ومما يمكن أن يكون له صلة بالسورة ذاتها ، ما حكاه ابن كثير أن بعض السلف ، أراد استخراجها من كتاب الله في نفس السورة ، فقال : إن كلمة هي في قوله : (سلام هي) تقع السابعة والعشرين من عدّ كلماتها ، فتكون ليلة سبع وعشرين .

وقيل أيضا : إن حروف كلمة ليلة القدر تسعة أحرف ، وقد تكررت ثلاث مرات ، فيكون مجموعها سبعة وعشرين حرفاً ، فتكون ليلة سبع وعشرين .

ولعل أصوب ما يقال : هو ما قدمنا من أنها تتصل في ليالي الوتر من العشر الأواخر ، ولا تخرج عنها . والله تعالى أعلم[1] .

---

(١) ومن أهم مباحثها ماجاء عن عائشة رضي الله عنها « ماذا أقول إن أنا صادفتها يارسول الله ؟ قال : قولي : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني » ، وهذا على إيجازه جامع لخيري الدنيا والآخرة ، فالعافية في الدنيا سعادة ، وفي الآخرة نجاة .

قوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾

قيل : الروح هو جبريل ، كما فى قوله : (فنفخنا فيها من روحنا) ويكون فيها أى فى جماعة الملائكة ، أو معطوف على الملائكة من عطف الخاص على العام .

وقيل : إن الروح نوع من الملائكة مستقل ، ويكون فيها ظرف للنزول أى فى تلك الليلة .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ .

الأمر يكون واحد الأمور وواحد الأوامر ، والذى يظهر أنه شامل لهما معا ، لأن الأمر من الأمور لا يكون إلا بأمر من الأوامر (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) .

ويشهد له ما جاء فى شأنها فى سورة الدخان (فيها يفرق كل أمر حكيم ، أمراً من عندنا) .

والذي يفرق من الأمر ، هو أحد الأمور . حيث يفصل بين الخير والشر والضر والنفع إلى آخره ، ثم قال : (أمراً من عندنا) كما أشار إليه السياق (لا إله إلا هو يحيي ويميت) ، فكل أمر من

الأمور يقتضى أمراً من الأوامر ، وهذا يمكن أن يكون من الألفاظ المشتركة المستعملة فى معنييها ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ .

قيل - سلام ، هى أى إن الملائكة تسلم على كل مؤمن لقيته .

وقيل : سلام ، هى أى كل أمر فيها فهو سلام ، ولا يصاب أحد فيها بسوء ، وعلى كل فلا تعارض بين القولين ، فالأول جزء من الثانى ، لأن الثانى يجعلها ظرفاً لكل خير ، وينفى عنها كل شر ، ومن الخير العظيم ، سلام الملائكة على المؤمنين .

لطيفـــة

كون إنزال القرآن هنا فى الليل دون النهار ، مشعر بفضل اختصاص الليل .

وقد أشار القرآن والسنة إلى نظائره ، فمن القرآن قوله تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) ، ومنه قوله (ومن الليل فتهجد به نافلة لك) (ومن الليل فسبحه وأدبار السجود إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا) . وقوله : (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) .

ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان ثلث الليل الآخر ، ينزل ربنا إلى سماء الدنيا » الحديث .

وهذا يدل على أن الليل أخص بالنفحات الإلهية ، وبتجليات الرب سبحانه لعباده ، وذلك لخلو القلب وانقطاع الشواغل وسكون الليل ، وزهبته أقوى على استحضار القلب وصفائه .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة البينة

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة البينة

قال الألوسى : وتسمى سورة القيامة ، وسورة البلد ، وسورة المنفكين ، وسورة البرية ، وسورة لم يكن .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ : رَسُولٌ مِّنَ اللهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُطَهَّرَةً . فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ . وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَاجَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ .

ذكر هنا الذين كفروا ، ثم جاءت من ، وجاء بعدها أهل الكتاب والمشركين ، مما يشعر بأن وصف الكفر يشمل كلا من أهل الكتاب والمشركين ، كما يشعر مرة أخرى أن المشركين ليسوا من أهل الكتاب لوجود العطف ، وأن أهل الكتاب ليسوا من المشركين .

وهذا المبحث معروف عند المتكلمين وعلماء التفسير ، واتفقوا

على : أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى ، وأن المشركين هم عبدة الأوثان ، والكفر يجمع القسمين .

وأهل الكتاب مختص باليهود والنصارى ، ولكن الخلاف هل الشرك يجمعهما أيضاً أم لا ؟

فبين الفريقين عموم وخصوص ، عموم فى الكفر وخصوص فى أهل الكتاب لليهود والنصارى ، وخصوص فى المشركين لعبدة الأوثان .

ولكن جاءت آيات تدل على أن مسمى الشرك يشمل أهل الكتاب أيضاً ، كما فى قوله تعالى : (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) .

فجعل مقالة كل من اليهود والنصارى إشراكا .

وجاء عن عبد الله بن عمر منع نكاح الكتابية وقال : « وهل كبر إشراكا من قولها : (اتخذ الله ولدا) » فهو وإن كان مخالفاً للجمهور فى منع الزواج من الكتابيات ، إلا أنه اعتبرهن مشركات .

ولهذا الخلاف والاحتمال وقع النزاع فى مسمى الشرك ، هل يشمل أهل الكتاب أم لا ؟ مع أننا وجدنا فرقاً فى الشرع فى معاملة أهل الكتاب ومعاملة المشركين ، فأحل ذبائح أهل الكتاب ولم يحلها من المشركين ، وأحل نكاح الكتابيات ولم يحله من المشركات ، كما قال تعالى : (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) .

وقوله : (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) .

وقال : (لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن) بين ما فى حق الكتابيات قال : (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن) فكان بينهما مغايرة فى الحكم .

وقد جمع والدنا الشيخ محمد الأمين رحمة الله تعالى علينا وعليه بين تلك النصوص فى دفع إيهام الاضطراب عند قوله تعالى : (وقالت اليهود عزير ابن الله) المتقدم . ذكرها جمعا مفصلا مفاده أن الشرك الأكبر المخرج من الملة انواع ، وأهل الكتاب متصفون ببعض دون دون بعض ، إلى آخر ما أورده رحمة الله تعالى علينا وعليه .

ولعل فى نفس آية (وقالت اليهود عزير ابن الله) فيها إشارة إلى ما ذكره رحمة الله تعالى علينا وعليه من وجهين :

الأول : قوله تعالى : (يضاهئون قول الذين كفروا) أى

أى يشابهونهم فى مقالتهم ، وهـذا القـدر اتصف به المشركون من أنواع الشرك .

الثـانى : تذييل الآية بصيغة المضـارع عما يشركون بين ماوصفه عبدة الأوثان فى سورة البينة بالاسم والمشركين .

ومعلوم أن صيغة الفعل تدل على التجدد والحدوث ، وصيغة الاسم تدل على الدوام والثبوت ، فمشركو مكة وغيرهم دائمون على الإشراك وعبادة الأصنام ، وأهل الـكتاب يقع منهم حيناً وحيناً .

وقد أخذ بعض العلماء : أن الـكفر مـلة واحدة ، فورث الجميع من بعض ، ومنع الآخرون على أساس المغايرة . والعلم عند الله تعالى .

تنبيـــه

بقى المجوس وجاءت السنة أنهم يعاملون معـاملة أهل الـكتاب لحديث : « سنوا بهم سنة أهل الـكتاب » .

وقوله تعالى : (منفـكين حتى تأتيهم البينـة) اختلف فى منفكين اختلافاً كثيراً عند جميع المفسرين ، حتى قال الفخر الرازى عنـد أول هذه السورة مانصه : قال الواحدى فى كتاب البسيط . هـذه الآية من أصعب مافى القرآن العظيم نظماً وتفسيراً ، وقد تخبط فيها الكبار من العلماء .

ثم إنه رحمه الله لم يلخص كيفية الإشكال فيها .

وأنا أقول وجه الإشكال : أن تقدير الآية :(لم يكن الذين كفروا منفكين حتى تأتيهم البينة) ، التى هى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم إنه لم يذكر أنهم منفكون عماذا لكنه معلوم ، إذ المراد هو الكفر الذى كانوا عليه .

فصار التقدير : لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة ، التى هى الرسول ، ثم قال بعد ذلك (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة) وهذا يقتضى أن كفرهم قد ازداد عند مجىء الرسول عليه السلام ، فحينئذ يحصل بين الآية الأولى والآية الثانية تناقض فى الظاهر ، هذا منتهى الإشكال فيما أظن . اهـ . حرفيا .

وقد سقت كلامه لبيان مدى الإشكال فى الآيتين ، وهو مبنى على أن منفكين بمعنى تاركين : وعليه جميع المفسرين .

والذى جاء عن الشيخ رحمة الله تعالى وعلينا وعليه فى إملائه : أن منفكين أى مرتدعين عن الكفر والضلال ، حتى تأتيهم البينة ، أى أتتهم .

ولكن فى منفكين ، وجه يرفع هذا الإشكال ، وهو أن تكون منفكين بمعنى متروكين لا بمعنى تاركين ، أى لم يكونوا جميعاً متروكين على ما هم عليه من الكفر والشرك حتى تأتيهم البينة على معنى قوله تعالى : (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) وقوله :(ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) أى لن يتركوا وقريب منه قوله تعالى : (قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك) .

وقد حكى أبو حيان قولا عن ابن عطية قوله ، ويتجه فى معنى الآية قول ثالث بارع المعنى ، وذلك أن يكون المراد : لم يكن هؤلاء القوم منفكين من أمر الله تعالى وقدرته ونظره لهم ، حتى يبعث الله تعالى إليهم رسولا منذراً ، تقوم عليهم به الحجة ، ويتم على من آمن النعمة ، فكأنه قال : ما كانوا ليتركوا سدى ، ولهذا نظائر فى كتاب الله تعالى . اهـ .

فقول ابن عطية يتفق مع ما ذكرناه ، ويزيل الإشكال الكبير عن المفسرين ، كما أسلفنا

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قول فى ذلك نسوقه لشموله ،

وهو ضمن كلامه على هذه السورة فى المجموع جلد ١٦ ص ٤٩٥ قال :

وفى معنى قوله تعالى : لم يكن هؤلاء وهؤلاء منفكين . ثلاثة أقول ذكرها غير واحد من المفسرين .

هل المراد : لم يكونوا منفكين عن الكفر ؟

أو هل لم يكونوا مكذبين بمحمد حتى بعث ، فلم يكونوا منفكين عن محمد والتصديق بنبوته حتى بعث .

أوالمراد : أنهم لم يكونوا متروكين حتى يرسل إليهم رسول .

وناقش تلك الأقوال وردها كلها ثم قال : فقوله (ولم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين) أى لم يكونوا متروكين باختيار أنفسهم يفعلون مايهوونه لا حجر عليهم ، كما أن المنفك لا حجر عليه ، وهو لم يقل منفكوكين ، بل قال : منفكين ، وهذا أحسن ، إلى أن قال : والمقصود أنهم لم يكونوا متروكين لا يؤمرون ولا ينهون ولاترسل إليهم رسل .

والمعنى : أن الله لا يخليهم ولا يتركهم ، فهو لا يفكهم حتى يبعث

إليهم رسولا ، وهذا كقوله : (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) لا يؤمر ، ولا ينهى ، أى : أيظن أن هذا يكون ؟ هذا مالا يكون البتة ، بل لا بد أن يؤمر وينهى .

وقريب من ذلك قوله تعالى (إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ، وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ، أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين) وهذا استفهام إنكار أى لأجل إسرافكم نترك إنزال الذكر ، ونعرض عن إرسال الرسل .

تبين من ذلك كله أن الأصح فى « منفكين » معنى « متروكين » وبه يزول الإشكال الذى أورده الفخر الرازى ، ويستقيم السياق ، ويتضح المعنى ، وبالله تعالى التوفيق .

قوله تعالى :

(حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلوا صحفاً مطهرة) .

أجمل البينة ثم فصلها فيما بعدها (رسول من الله يتلوا صحفاً) .

وفى هذا قيل : إن البينة هى نفس الرسول فى شخصه ، لما كانوا يعرفونه قبل مجيئه ، كما فى قوله : (ومبشراً برسول يأتى من بعدى

اسمه أحمد)، وقوله : (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) .

فكأن وجوده صلى الله عليه وسلم بذاته بينة لهم .

ولذا جاء فى الآثار الصحيحة أنهم عرفوا يوم مولده بظهور نجم نبى الختان إلى آخر أخباره صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، وكذلك المشركون كانوا يعرفونه عن طريق أهل الكتاب ، وبما كان متصفاً به صلى الله عليه وسلم ، ومن جميل الصفات كما قالت له خديجة عند بدء الوحى له وفزعه منه : « كلا والله لن يخزيك الله ، والله إنك لتحمل الكلّ وتعين على نوائب الدهر » إلى آخره .

وقول عمه أبى طالب : « والله ما رأيته لعب مع الصبيان ولا علمت عليه كذبة » إلخ . وقد لقبوه بالأمين .

وحادثة شق الصدر فى رضاعه ، بل وقبل ذلك فى قصة أبيه عبد الله ، لما تعرضت له المرأة تريده لنفسها ، فأبى . ولما تزوج ودخل بآمنة أم النبى صلى الله عليه وسلم لقيها بعد ذلك ، فقالت له : لا حاجة لى بك ، فقال : وكيف كنت تتعرضين لى ؟ فقالت : رأيت نوراً فى وجهك ، فأحببت أن يكون بى ، فلما تزوجت وضعته فى آمنة ولم أره فيك الآن ، فلا حاجة لى فيك .

فكلها دلائل على أنه صلى الله عليه وسلم كان فى شخصه بينة لهم ، ثم أكرمه الله بالرسالة ، فكان رسولا يتلو صحفاً مطهرة ، من الأباطيل والزيغ ومالا يليق بالقرآن .

ومما استدل به لذلك قوله تعالى عنه : (وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا) فعليه يكون رسول من الله بدل من البينة مرفوع على البدلية ، أو أن البينة ما يأتيهم به الرسول مما يتلوه عليهم من الصحف المطهرة فيها كتب قيمة .

فالتشريع الذى فيها والإخبار الذى أعلنه تكون البينة . وعلى كل ، فإن البينة تصدق على الجميع ، كما تصدق على المجموع ، ولا ينفك أحدهما عن الآخر ، فلا رسول إلا برسالة تتلى ، ولا رسالة تتلى إلا برسول يتلوها .

وقد عرف لفظ البينة ، للاشارة إلى وجود علم عنها مسبق عليها .

فكأنه قيل : حتى تأتيهم البينة الموصوفة لهم فى كتبهم ، ويشير إليها ما قدمنا فى أخبار عيسى عليه السلام عنه ، وآخر سورة الفتح

(ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه) الآية .

قوله تعالى :

(فيها كتب) .

جمع كتاب ، وقال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى إملائه : كتب : بمعنى مكتوبات .

وقال ابن جرير : فى الصحف المطهرة كتب من الله قيمة . يذكر القرآن بأحسن الذكر ، ويثنى عليه بأحسن الثناء

وحكاه ابن كثير واقتصر عليه .

وقال القرطبى : إن الكتب بمعنى الأحكام ، مستدلا بمثل قوله تعالى : (كتب عليكم الصيام) وقوله (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى) .

وقيل : الكتب القيمة : هى القرآن ، فجعله كتباً ، لأنه يشتمل على أبواب من البيان .

وذكر الفخر الرازى : أنه يحتمل فى كتب أى الآيات المكتوبة

فى المصحف ، وهو قريب من قول الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه .

وقال الشوكانى : المراد : الآيات والأحكام المكتوبة فيها ، وهذه المعانى وإن كانت صحيحة ، إلا أن ظاهر اللفظ أدل على تضمن معنى كتب منه على معنى كتابة أحكام .

والذى يظهر أن مدلول كتب على ظاهرها ، وهو تضمن تلك الصحف المطهرة لكتب سابقة قيمة ، كما ينص عليه قوله تعالى : (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) ، ثم قال : (إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى) ، وكقوله فى عموم الكتب الأولى : (قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه) ، وقوله : (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل) .

ولذا قال : (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) أى بما فيه من كتبهم القيمة المتقدم إنزالها ، كما فى قوله : (ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم)

وقوله : (إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون) .

وقال : (وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه) ونحو ذلك من الآيات ، مما يدل على أن آى القرآن متضمنة كتباً قيمة مما أنزلت من قبل ، وقد جاء عملياً فى آية الرجم وقوله : (وكتبنا عليهم فيها — أى فى التوراة — أن النفس بالنفس والعين بالعين) فهذه من الكتب القيمة التى تضمنها القرآن الكريم ، كما قال (ولكم فى القصاص حياة) .

ولعل هذا بين وجه المعنى فيما رواه المفسرون عن الإمام أحمد ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأبى بن كعب « أمرت أن أقرأ عليك سورة البينة ، فقال : أو ذكرت ، ثم »

وبكى رضى الله عنه ، لأن فيها زيادة طمأنينة له على إيمانه بأنه آمن بكتاب تضمن الكتب القيمة المتقدمة ، والتى يعرفها عبد الله بن سلام أن الرجم فى التوراة لما غطاها الآتى بها ، كما هو معروف فى القصة . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ .

يلاحظ أن السورة فى أولها عن الكفار عموماً من أهل الكتاب والمشركين معاً ، وهنا الحديث عن أهل الكتاب فقط ، وذلك مما

يخصهم فى هذا المقام دون المشركين ، وهو أنهم لأنهم أهل كتاب ، وعندهم علم به صلى الله عليه وسلم ، وبما سيأتى به ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به .

وكقوله صراحة : (وما تفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم) ، فلمعرفتهم به قبل مجيئه ، واختلافهم فيه بعد مجيئه ، وخصهم هنا بالذكر فى قوله : (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة) .

تنبيـــه

مما يدل على ماذكرنا من معنى كتب قيمة ، أمران من كتاب الله .

الأول منهما : اختصاص أهل الكتاب هنا بعدم عموم الحديث عن الذين كفروا ، وما قدمنا من نصوص .

الثانى : أن القرآن لما ذكر الرسول يتلو على المشركين قال (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته) ، فهذا نفس الأسلوب ، ولكن قال : آياته ، لأنهم لم يكن لهم علم بالكتب الأخرى ، فاقتصر على الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ .

وهذا لا يستوجب التفرق فى أمره صلى الله عليه وسلم

ولكن هنا لم يبين موضع الأمر عليهم بعبادة الله مخلصين له الدين ، هل هو فى كتبهم السابقة ، أم فى هـذا القرآن الذى يتلى عليهم فى صحف مطهرة ؟.

وقد بيَّن القرآن العظيم أن هذا الأمر موجود فى كل من كتبهم والقرآن الكريم ، فما فى كتبهم قوله تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله) .

وقوله : (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينـــا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) .

فإقامة الدين وعدم التفرقة فيـه ، هو عين عبـادة الله مخلصين له الدين .

ومما فى القرآن قوله تعالى : (يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون ، وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ، ولا تشتروا

بآياتى ثمناً قليلا وإياى فاتقون ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين)

فقد نص على كامل المسألة هنا ، أن الكتب القيمة المنصوص عليها فى الصحف المطهرة هى كتب أهل الكتاب ، لقوله تعالى : (وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم) وأنهم أمروا فى هذا القرآن بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة مع التعليلات المذكورة نفسها ، وإقام الصلاة لا يكون إلا عبادة الله بإخلاص

وهذه الأوامر سواء كانت فى كتبهم أو فى القرآن لا تقتضى التفرق ، بل تستوجب الاجتماع والوحدة .

قوله تعالى : ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾

القيمة : فيعلة من القوامة ، وهى غاية الاستقامة .

وقد جاء بعد قوله : (فيها كتب قيمة) أى مستقيمة بتعاليمها .

وقد نص تعالى على أن القرآن أقومها وأعدلها كما فى قوله : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) ، وقال تعالى : (الحمد لله الذى أنزل

على عهده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيما) فنفى عنه العوج ، وأثبت له الاستقامة .

وهذا غاية فى القوامة كما قدمنا من قبل ، من أن المستقيم قد يكون فيه انحناء كالطريق المعبد المستقيم عن المرتفعات والمنخفضات، لكنه ينحرف تارة يميناً وشمالا مع استقامته ، فهو مع الاستقامة لم يخل من العوج .

ولكن ما ينتفى عنه العوج وتثبت له الاستقامة ، هو الطريق الذى يمتد فى اتجاه واحد بدون أى اعوجاج إلى أى الجانبين ، مع استقامته فى سطحه .

وهكذا هو القرآن ، فهو الصراط المستقيم ، ولذا قال تعالى : (وذلك دين القيمة) الملة القيمة ، قيمة فى ذاتها ، وقيمة على غيرها ، ومهيمنة عليه ، وكقوله : (ذلك الدين القيم) وقوله : (قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) .

تنبيه

إن فى هذه الآية رداً صريحاً على أولئك الذين ينادون بدون علم إلى دعوة لا تخلو من تشكيك ، حيث لم تسلم من لبس ، وهى دعوة وحدة الأديان ، ومحل اللبس فيها أن هذا القول منه حق ، ومنه باطل .

أما الحق فهو وحدة الأصول ، كما قال تعالى : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) ، وأما الباطل فهو الإبهام ، بأن هذا ينجر على الفروع مع الجزم عند الجميع ، بأن فروع كل دين قد لا تتفق كلها مع فروع الدين الآخر ، فلم تتحد الصلاة فى جميع الأديان ولا الصيام ، ونحو ذلك .

وقد أجمع المسلمون على أن العبرة بما فى القرآن من تفصيل للفروع والسنة ، تكمل تفصيل ما أجمل .

وهنا النص الصريح بأن ذلك الذى جاء به القرآن هو دين القيمة ، وأن القرآن يهدى للتى هى أقوم ، وهى أفعل تفضيل ، فلا يمكن أن يعادل ويساوى مع غيره أبداً مع نصوص القرآن ، بأن الله أخذ العهد على

جميع الأنبياء لئن أدركوا محمداً صلى الله عليه وسلم ليؤمنن به ، ولينصرنه وليتبعنه ، وأخذ عليهم العهد بذلك . وقد أخبر الرسل أممهم بذلك . فلم يبق مجال فى هذا الوقت ولا غيره لدعوة الجاهلية بعنوان مجوف وحدة الأديان ، بل الدين الإسلامى وحده (إن الدين عند الله الإسلام) ، (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) وبالله تعالى التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ .

قرئت البرية بالهمزة وبالياء ، فقرأ بالهمز : نافع وابن ذكوان . والباقون بالياء ، فاختلف فى أخذها .

قال القرطبى : قال الفراء : إن أخذت البرية من البراءة بفتح الباء والراء : أى التراب . فأصله غير مهموز بقوله منه : براه الله يبروه بروءا ، أى خلقه ، وقيل : البرية من بريت القلم أى قدرته .

وقد تضمنت هذه الآية مسألتين : الأولى منهما : أن أولئك فى نار جهنم خالدين فيها ، ومبحث خلود الكفار فى النار ، تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه وافياً .

والمسألة الثانية أنهم شر البرية ، والبرية أصلها البريئة ، قلبت الهمزة

ياء تسهيلا ، وأدغمت الياء فى الباء ، والبريئة الخليقة والله تعالى بارىء النسم ، هو الخالق البارى المصور سبحانه .

ومن البرية الدواب والطيور ، وهنا النص على عمومه، فأفهم أن أولئك شر من الحيوانات والدواب .

وقد جاء النص صريحاً فى هذا المعنى فى قوله تعالى : (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) وقد بين أن المراد بهم الكفار فى قوله : (أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) وقال عنهم : (أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين) فهم لصممهم وعماهم فى ضلال مبين .

وقد ثبت أن الدواب ليست فى ضلال مبين ، لأنها تعلم وتؤمن بوحدانية الله ، كما جاء فى هدهد سليمان ، أنكر على بلقيس وقومها سجودهم للشمس والقمر من دون الله .

ونص مالك فى الموطأ فى فضل يوم الجمعة « أنه وما من دابة إلا تصيخ بأذنها من فجر يوم الجمعة إلى طلوع الشمس خشية الساعة » ، وهذا كله ليس عند الكافر منه شىء ، ثم فى الآخرة لما يجمع الله جميع الدواب ويقتص للجماء من القرناء ، فيقول لها : كونى تراباً ، فيتمنى الكافر لو كان مثلها فلم يحصل له ، كما قال : (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ، ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا) .

وذلك والله تعالى أعلم : أن الدواب لم تعمل خيراً فتبقى لتجازى عليه ، ولم تعمل شراً لتعاقب عليه فكانت لاهلها ولا عليها إلا ما كان فيما بينها وبين بعضها ، فلما اقتص لها من بعضها انتهى أمرها ، فكانت نهايتها عودتها إلى منبتها وهو التراب . بخلاف الكافر فإن عليه حساب التكاليف وعقاب المخالفة . فيعاقب بالخلود فى النار ، فكان شر البرية .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ .

الحكم هنا بالعموم ، كالحكم هناك . ولكنه هنا بالخيرية والتفضيل .

أما من حيث الجنس فلا إشكال ، لأن الإنسان أفضل الأجناس (ولقد كرمنا بنى آدم) .

وأما من حيث العموم ، فقال بعض العلماء فيها ما يدل على صالح المؤمنين أفضل من الملائكة .

ولعل مما يقوى هذا الاستدلال ، هو أن بعض أفراد جنس الإنسان

أفضل من عموم أفراد جنس الملائكة ، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإذا فضل بعض أفراد الجنس لا يمنع فى البعض الآخر ولكن هل بعض أفراد الأمة بعده أفضل من عموم أو بعض أفراد الملائكة ؟ هذا هو محل الخلاف .

وللقرطبي مبحث فى ذلك : مبناه على أصل المادة وورود النصوص من جهة أصل المادة إن كانت البرية مأخوذة من البرى وهو التراب ، فلا تدخل الملائكة تحت هذا التفضيل وإلا فتدخل .

وأما من جهة النصوص ، فقال فى سورة البقرة عند قوله : (قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم) ، قال المسألة الثالثة : اختلف العلماء فى هذا الباب أيهما أفضل ، الملائكة أو بنو آدم ؟ على قولين ، فذهب قوم إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة ، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة .

وذهب آخرون — إلى أن الملأ الأعلى أفضل ، واحتج من فضل الملائكة بأنهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وقوله : (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك) .

ومما فى البخارى : « يقول الله : من ذكرنى فى ملأ ذكرته فى

فى ملإ خير منه » وهذا نص على أن الملأ الأعلى خير من ملا الأرض

واحتج من فضل بنى آدم بقوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية)بالهمز من برأ الله الخلق ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الملائكة لتضع أجنحتها رضًى لطالب العلم » أخرجه أبو داود .

وبأن الله يباهى بأهل عرفات الملائكة ، ولا يباهى إلا بالأفضل والله تعالى أعلم .

وقال بعض العلماء : ولا طريق إلى القطع بأن الملائكة خير منهم ، لأن طريق ذلك خبر الله ، وخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو إجماع الأمة .

وليس هاهنا شيء من ذلك خلافاً للقدرية والقاضى أبى بكر ، حيث قالوا : الملائكة أفضل . قال : وأما من قال من أصحابنا والشيعة : إن الأنبياء أفضل ، لأن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، إلى آخره .

ثم رد هذا الاستدلال .

وقد سقنا هذا البحث لبيان الخلاف فى هذه المسألة المشتمل عليها

لفظ البرية ، وأعتقد أن المفاضلة جزئية لا كلية ، وذلك أن جنس البشر خلاف جنس الملائكة ، والملائكة فيهم النص بأنهم (عباد مكرمون) والبشر فيهم النص (ولقد كرمنا بنى آدم) ، والفرق بينهما ، كالفرق بين الاسم والفعل فى الدلالة .

فنى الملائكة بالاسم : مكرمون ، وهو يدل على الدوام والثبوت ، وفى بنى آدم كرمنا ، وهو يدل على التجدد والحدوث .

وهذا هو الواقع ، فالتكريم ثابت ولازم ودائم للملائكة بخلافه فى بنى آدم إذ فيهم وفيهم ، ولا يبعد أن يقال : إن التفضيل فى الأعمال من حيث صدورها من بنى آدم ومن الملائكة ، إذ الملائكة تصدر عنها أعمال الخير جبلة أو بدون نوازع شر ، بخلاف بنى آدم ، وإن أعمال الخير تصدر عنها بمجهود مزدوج ، حيث ركبت فيه النفس اللوامة والأمارة بالسوء . ونحو ذلك من الجانب الحيوانى .

وازدواجية المجهود ، هو أنه ينازع عوامل الشر حتى يتغلب عليها ، ويبذل الجهد فى فعل الخير ، فهو يجاهد للتخليص من نوازع ثم الشر ، هو يجاهد للقيام بفعل الخير ، وهذا مجهود يقتضى التفضيل على المجهود من جانب واحد .

وقد جاء فى السنة ما يشهد لذلك ، لما ذكر صلى الله عليه وسلم لأصحابه « أن يأتى بعدهم من أن العامل منهم له أجر خمسين ، فقالوا:

خمسين منا أو منهم يا رسول الله ! قال : بل خمسين منكم ، لأنكم تجدون أعواناً على الخير وهم لا يجدون » .

وحديث « سبق درهم مائة ألف درهم » وبيّن صلى الله عليه وسلم ، أن الدرهم سبق الأضعاف المضاعفة ، لأنه ثانى اثنين فقط ، والمائة ألف جزء من مجموع كثير .

فالنفس التى تجود بنصف ما تملك ، ولا يتبقى لها إلا درهم ، خير بكثير ممن تنفق جزءا ضئيلا مما تملك ويتبقى لها المال الكثير ، فكانت عوامل التصدق ودوافعه مختلفة منزلة فى النفس متضادة . فالدرهم فى ذاته وماهيته من جنس الدراهم الأخرى ، لم تتفاوت الماهية ولا الجنس ، ولكن تفاوتت الدوافع والعوامل لإنفاقه ، ولعل المفاضلة المقصودة تكون من هذ القبيل أولى . والله تعالى أء

قوله تعالى ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ .

فيه أربع مسائل . ثلاثة مجملة جاء بيانها فى القرآن . والرابعة مفصّلة ولها شواهد .

أما الثلاثة المجملة فأولها قوله : (جزاؤهم عند ربهم) إذ

الجزاء فى مقابل شىء يستوجبه ، وعند ربهم تشعر بأنه تفضل منه ، وإلا لقال : جزاؤهم على ربهم .

وقد بين ذلك صريح قوله تعالى : (إن المتقين مفازا حدائق وأعنابا وكواعب أترابا وكأساً دهاقا لا يسمعون فيها لغواً ولا كذابا جزاء من ربك عطاء حسابا) فنص على أن هذا الجزاء كله من ربهم عطاء لهم من عنده .

الثانية والثالثة قوله : (جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار) فأجمل مافى الجنات ، ونص على أنها تجرى من تحتها الأنهار ، مع إجمال تلك الأنهار ، وقد فصلت آية (عم يتساءلون) ما أعد لهم فى الجنة من حدائق وأعناب وكواعب وشراب وطمأنينة ، وعدم سماع اللغو إلى آخره كما جاء تفصيل الأنهار فى سورة القتال ، فى قوله تعالى : (مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم) ، والخلود فى هذا النعيم هو تمام النعيم .

قوله تعالى : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ .

يعتبر هذا الإخبار من حيث رضوان الله تعالى على العباد فى الجنة ، من باب العام بعد الخاص .

وقد تقدم فى سورة الليل فى قوله تعالى : (وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى — إلى قوله — ولسوف يرضى) واتفقوا على أنها فى الصديق رضى الله عنه كما تقدم ، وجاء فى التى بعدها سورة والضحى قوله تعالى : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) أى للرسول صلى الله عليه وسلم .

وهنا فى عموم (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) فهى عامة فى جميع المؤمنين الذين هذه صفاتهم ، ثم قال رضى الله عنهم ، وقد جاء ما يبين سبب رضوان الله تعالى عليهم وهو سبب أعمالهم ، كما فى قوله تعالى : (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) فكانت المبايعة سبباً للرضوان .

وفى هذه الآية الإخبار بأن الله رضى عنهم ورضوا عنه ، ولم يبين زمن هذا الرضوان أهو سابق فى الدنيا أم حاصل فى الجنة ، وقد جاءت آية تبين أنه سابق فى الدنيا ، وهى قوله تعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا

ذلك الفوز العظيم) فقوله تعالى : (رضى الله عنهم ورضوا عنه) ، ثم يأتى بعدها (وأعد لهم جنات).

فهو فى قوة الوعد فى المستقبل ، فيكون الإخبار بالرضى مسبقاً عليه .

وكذلك آية سورة الفتح فى البيعة تحت الشجرة إذ فيها (لقد رضى الله عن المؤمنين) وهو إخبار بصيغة الماضى ، وقد سميت « بيعة الرضوان » .

تنبيه

فى هذا الأسلوب الكريم سؤال ، وهو أن العبد حقاً فى حاجة إلى أن يعلم رضوان الله تعالى عليه ، لأنه غاية أمانيه ، كما قال تعالى : (ذلك الفوز العظيم)

أما الإخبار عن رضى العبد عن الله ، فهل من حق العبد أن يسأل عما إذا كان هو راضياً عن الله أم لا ؟ إنه ليس من حقه ذلك فعلا ، فيكون الإخبار عن ذلك بلازم الفائدة ، وهى أنهم فى غاية من السعادة والرضى فيما هم فيه من النعيم إلى الحد الذى

رضوا وتجاوزا رضاهم حد النعيم إلى الرضى عن المنعم .

كما يشير إلى شيء من ذلك آخر آية والنازعات (عطاء حساباً) ، قالوا : إنهم يعطون حتى يقولوا : حسبي حسبي ، أى كافيني .

قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ .

اسم الإشارة منصب على مجموع الجزاء المتقدم ، وقد تقدم أنه للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وهنا يقول : إنه لمن خشى ربه ، مما يفيد أن تلك الأعمال تصدر منهم عن رغبة ورهبة .

رغبة فيما عند الله ، ورهبة من الله ، ومثله قوله تعا (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ، وقوله : (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى) .

والواقع أن صفة الخوف من الله تعالى ، هى أجمع صفات الخير فى الإنسان ، لأنها صفة للملائكة المقربين .

كما قال تعالى عنهم (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون .

وقد عم الحكم فى ذلك بقوله تعالى : (إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير) .

وفى هذه الآية السر الأعظم ، وهو كون الخشيـــة فى الغيبة عن الناس ، وهذا أعلى مراتب المراقبة لله ، والخشية أشد الخوف .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الزلزلة

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا . وَقَالَ الْإِنسَانُ مَالَهَا . يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا . يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ .

الزلزلة : الحركة الشديدة بسرعة ، ويدل لذلك فقه اللغة من وجهين :

الأول : تكرار الحروف ، أو ما يقال تكرار المقطع الواحد ، مثل صلصل وقلقل وزقزق ، فهذا التكرار يدل على الحركة .

والثانى : وزن فعّل بالتضعيف كغلق وكسر وفتح ، فقد اجتمع فى هذه الكلمة تكرار المقطع وتضعيف الوزن .

ولذا ، فإن الزلزال أشد ما شهد العالم من حركة ، وقد شوهدت حركات زلزال فى أقل من ربع الثانية ، فدمر مدناً وحطم قصوراً .

ولذا فقد جاء وصف هذا الزلزال بكونه شيئاً عظيما فى قوله تعالى : (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) ويدل على هذه الشدة تكرار

الـكلمة فى زلزلت وفى زلزالها ، كما تشعر به هذه الإضافة .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، إيراد النصوص المبينة لذلك فى أول سورة الحج كقوله تعالى : (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) ، وقوله : (إذا رجت الأرض رجاً وبست الجبال بساً) ، وقوله : (يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة) وساق قوله : (وأخرجت الأرض أثقالها) .

واختلف فى الأثقال ما هى على ثلاثة أقوال :

فقيل : موتاها . وقيل : كنوزها ، وقيل : التحدث بما عمل عليها الإنسان . ولعل الأول أرجح هـذه الثلاثة ، لأن إخراج كنوزها سيكون قبل النفخة ، والتحدث بالأعمال منصوص عليه بذاته ، فليس هو الأثقال . ورجحوا القول الأول لقوله تعالى : (ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا) .

وقالوا : الإنس والجن ثقلان على ظهرها ، فهما ثقل عليها ، وفى بطنها فهم ثقل فيها ، ولذا سميا بالثقلين . قاله الفخر الرازى وابن جرير .

وروى عن ابن عباس : أنه موتاها .

وشبيه بذلك قوله : (وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت)

ولا يبعد أن يكون الجميع إذا راعينا صيغة الجمع أثقالها ، ولم يقل ثقلها وإرادة الجميع مروية أيضاً عن ابن عباس . ذكره الألوسى ، وابن جرير عنه وعن مجاهد .

وحكى الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه القولين فى إملائه : أى موتاها ، وقيل : كنوزها وقوله تعالى : (وقال الإنسان مالها) لفظ الإنسان هنا عام . وظاهره أن كل إنسان يقول ذلك ، ولكن جاء ما يدل على أن الذى يقول ذلك هو الكافر . أما المؤمن فيقول : (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلين) ، وذلك فى قوله : (ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) .

فالكافر يدعو بالويل والمؤمن يطمئن للوعد ، ومما يدل على أن الجواب من المؤمنين ، لا من الملائكة ، كما يقول بعض الناس ، ما جاء فى آخر السياق قوله : (فإذا هم جميع - أى كلا الفريقين - لدينا محضرون) .

وقوله ، (مالها) سؤال استيضاح ، وذهول من هول ما يشاهد . وقوله : (يومئذ تحدث أخبارها) التحديث هنا صريح فى الحديث وهو على حقيقته ، لأن فى ذلك اليوم تتغير أوضاع كل شىء وتظهر

حقائق كل شيء ، وكما أنطق الله الجلود ينطق الأرض ، فتحدث بأخبارها ، (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا : أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء) ، وتقدم تفصيل ذلك عند أول سورة الحشر ، لأن الله أودع فى الجمادات القدرة على الإدراك والنطق . والمراد بإخبارها أنها تخبر عن أعمال كل إنسان عليها فى حال حياته .

ومما يشهد لهذا المعنى حديث المؤذن « لا يسمع صوته حجر ولا مدر إلا وشهد له يوم القيامة » ، وذكر ابن جرير وجها آخر ، وهو أن إخبارها هو ما أخرجته من أثقالها بوحى الله لها والأول أظهر ، لأنه يثبت معنى جديداً . ويشهد له الحديث الصحيح .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .

فى هاتين الآيتين مبحثان أحدهما فى معنى من لعمومه ، والآخر فى صيغة يعمل .

أما الأول فهو مطروق فى جميع كتب التفسير على حد قولهم : من للعموم المسلم والكافر ، مع أن الكافر لا يرى من عمل الخير شيئاً ، لقوله تعالى : (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً)

وفى حق المسلم ، قد لا يرى كل ما عمل من شر ، لقوله تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)

وقد بحث الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هذه المسألة بتوسع فى دفع إيهام الاضطراب بما يغنى عن إيراده .

أما المبحث الثانى فلم أر من تناوله بالبحث ، وهو فى صيغة يعمل ، لأنها صيغة مضارع ، وهى للحال والاستقبال .

والمقام فى هذا السياق (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً) وهو يوم البعث ، وليس هناك مجال للعمل ، وكان مقتضى السياق أن يقال : فمن عمل مثقال ذرة خيرا يره . ولكن الصيغة هنا صيغة مضارع ، والمقام ليس مقام عمل ، ولكن فى السياق ما يدل على أن المراد بعمل مثقال ذرة أى من الصنفين ما كان من قبل ذلك ، لقوله تعالى (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم) فهم إنما يروا فى ذلك اليوم أعمالهم التى عملوها من قبل ، فتكون صيغة المضارع هنا من باب الالتفات ، حيث كان السياق أولا من أول السورة فى معرض الإخبار عن المستقبل : إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وإذا أخرجت الأرض أثقالها ، وإذا قال الإنسان مالها . فى ذلك اليوم الآتى تحدث أخبارها ، وفى ذلك اليوم يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم التى

عملوها من قبل كما فى قوله : (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) ، وقوله : (ووجدوا ما عملوا حاضراً).

ثم جاء الالتفات بمخاطبتهم على سبيل التنبيه والتحذير ، فمن يعمل الآن فى الدنيا مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل الآن فى الدنيا مثقال ذرة شراً يره فى الآخرة ، ومثقال الذرة ، قيل : هى النملة الصغيرة ، لقول الشاعر :

من القاصرات الطرف لو دب محول من الذر فوق الإتب منها لأثرا

والإتب : قال فى القاموس : الإتب بالكسر ، والمئتبة كمكنسة برد يشق ، فتلبسه المرأة من غير جيب ولا كمين ، وقيل : هى الهباء التى ترى فى أشعة الشمس ، وكلاهما مروى عن ابن عباس رضى الله عنه .

وسيأتى زيادة إيضاح لكيفية الوزن فى سورة القارعة إن شاء الله .

ولعل ذكر الذرة هنا على سبيل المثال لمعرفتهم لصغرها ، لأنه تعالى عمم العمل فى قوله : (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) أيا كان هو مثقال ذرة أو مثاقيل القناطير ، وقد جاء النص صريحا بذلك فى قوله تعالى : (وما يعزب عن ربك مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) .

وهنا تنبيهان : الأول من ناحية الأصول ، وهو أن النص على

مثقال الذرة من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى ، فلا يمنع رؤية مثاقيل الجبال ، بل هى أولى وأحرى .

وهذا عند الأصوليين ما يسمى الإلحاق بنفى الفارق ، وقد يكون المسكوت عنه أولى بالحكم من المنطوق به ، وقد يكون مساوياً له . فمن الأول هذه الآية وقوله : (فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما) ، ومن المساوى قوله تعالى : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً) فإن إحراق ماله وإغراقه ملحق بأكله ، بنفى الفارق وهو مساوٍ لأكله فى عموم الإتلاف عليه ، وهو عند الشافعى ما يسمى القياس فى معنى الأصل ، أى النص .

التنبيه الثانى فى قوله تعالى : (وما يعزب عن ربك مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك) .

رد على بعض المتكلمين فى العصر الحاضر ، والمسمى بعصر الذرة ، إذ قالوا : لقد اعتبر القرآن الذرة أصغر شىء ، وأنها لا تقبل التقسيم ، كما يقول المناطقة : إنها الجوهر الفرد ، الذى لا يقبل الانقسام .

وجاء العلم الحديث ، ففتت الذرة وجعل لها أجزاء . ووجه الرد على تلك المقالة الجديدة ، على آيات من كتاب الله هو النص

الصريح من مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك إلا فى كتاب .

فمعلوم ذلك عند الله ومثبت فى كتاب ما هو أصغر من الذرة ، ولا حد لهذا الأصغر بأى نسبة كانت ، فهو شامل لتفجير الذرة ولأجزائها مهما صغرت تلك الأجزاء .

سبحانك ما أعظم شأنك ، وأعظم كتابك ، وصدق الله إذ يقول : (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا . فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا . فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى إملائه :

العاديات : جمع عادية ، والعاديات : المسرعات فى سيرها

فمعنى العاديات : أقسم بالمسرعات فى سيرها .

ثم قال : وأكثر العلماء على أن المراد به الخيل ، تعدو فى الغزو ، والقصد تعظيم شأن الجهاد فى سبيل الله

وقال بعض العلماء : المراد بالعاديات : الإبل تعدو بالحجيج من عرفات إلى مزدلفة ومِنَى .

ومعنى قوله : ضَبْحًا : أنها تضبح ضبحاً ، فهو مفعول مطلق ، والضبح : صوت أجواف الخيل عند جريها .

وهذا يؤيد القول الأول الذى يقول هى الإبل ، ولا يختص الضبح بالخيل

فالموريات قدحاً : أى الخيل تورى النار بحوافرها من الحجارة ، إذا سارت ليلا .

وكذلك الذى قال : العاديات : الإبل . قال : يرفعها الحجارة فيضرب بعضها بعضاً .

ويدل لهذا المعنى قول الشاعر

تنفى يداها الحصا فى كل هاجرة نفى الدراهم تنقاد الصيارف

فالمغيرات صبحا ، الخيل تغير على العدو وقت الصبح .

وعلى القول الأول : فالإبل تغير بالحجاج صبحاً من مزدلفة إلى منى يوم النحر .

فأثرن به نقعاً : أى غباراً . قال به . اى : بالصبح أو به . أى بالعدو .

والمفهوم من العاديات : توسطن به جمعاً ، أى دخلن فى وسط جمع أى خلق كثير من الكفار .

ونظير هذا المعنى قول بشر بن أبى حازم :

فوسن جمعهم وأفلت حاجب تحت العجاجة فى الغبار الأقتم

وعلى القول الثانى الذى يقول : العاديات الإبل تحمل ، الحجيج .

فمعنى قوله : (فوسطن به جمعا) أى صرن بسبب ذلك العدو ، وسط جمع . وهى المزدلفة ، وجمع اسم من أسماء المزدلفة

ويدل لهذا المعنى قول صفية بنت عبد المطلب ، عمة النبى صلى الله عليه وسلم وأم الزبير بن العوام رضى الله عنهما :

فلا والعاديات مغيرات جمع بأيدها إذا سطع الغبار

وهذا الذى ساقه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، قد جمع أقوال جميع المفسرين فى هذه الآيات ، وقد سقته بحروفه لبيانه للمعنى كاملا .

ولكن مما قدمه رحمة الله تعالى علينا وعليه أن من أنواع البيان فى الأضواء : أنه إذا اختلف علماء التفسير فى معنى وفى الآية قرينة . ترد أحد القولين أو تؤيد أحدهما فإنه يشير إليه .

وقد وجد اختلاف المفسرين فى هذه الآيات فى نقطة أساسية من هذه الآيات مع اتفاقهم فى الألفاظ ، ومعانيها . والأسلوب وتراكيبه .

ونقطة الخلاف هى معنى الجمع الذى توسطن به ، أهو المزدلفة لأن

عن أسمائها جمعاً كما فى الحديث : « وقفت ها هنا وجمع كلها موقف » وهذا مروى عن على رضى الله عنه ، فى نقاش بينه وبين ابن عباس . ساقه ابن جرير

أم الجمع جمع الجيش فى القتال على ما تقدم ، وهو قول ابن عباس وغيره . حكاه ابن جرير وغيره .

وقد وجدنا قرائن عديدة فى الآية تمنع من إرادة المزدلفة بمعنى جمع ، وهى كالآتى : أولا وصف الخيل أو الإبل على حد سواء بالعاديات ، حتى حد الضبح وورى النار بالحوافر وبالحصا ، لأنها أوصاف تدل على الجرى السريع .

ومعلوم أن الإفاضة عن عرفات ثم من المزدلفة لا تحتمل هذا العدو ، وليس هو فيها بمحمود ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان ينادى « السكينة السكينة » فلو وجد لما كان موضع تعظيم وتفخيم .

ثانياً : أن المشهور أن إثارة النقع من لوازم الحرب ، كما قال بشار :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

أى : لشدة الكر والفر .

ثالثاً : قوله تعالى : (فالمغيرات صبحاً . فأثرن به نقعاً . فوسطن به جمعاً) جاء مرتباً بالفاء ، وهى تدل على الترتيب والتعقيب .

وقد تقدم المغيرات صبحاً ، وبعدها فوسطن به جمعاً .

وجمع هى المزدلفة ، وإنما يؤتى إليها ليلا . فكيف يقرن صبحاً ، ويتوطن المزدلفة ليلا .

وعلى ما حكاه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، أنهم يغيرون صبحاً من المزدلفة إلى منى ، تكون تلك الإغارة صبحاً بعد التوسط بجمع ، والسياق يؤخرها عن الإغارة ولم يقدمها عليها .

فتبين بذلك أن إرادة المزدلفة غير متأتية فى هذا السياق .

ويبقى القول الآخر وهو الأصح . والله تعالى أعلم .

ولو رجعنا إلى نظرية ترابط السور لكان فيها ترشيحاً لهذا المعنى ، وهو أنه فى السورة السابقة ، ذكرت الزلزلة وصدور الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم .

وهنا حث على أفضل الأعمال التى تورث الحياة الأبدية والسعادة الدائمة فى صورة مماثلة ، وهى عدوهم أشتاتاً فى سبيل الله لتحصيل ذاك

العمل الذى يحبون رؤيته فى ذلك الوقت ، وهو نصرة دين الله أو الشهادة فى سبيل الله ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : (إن الإنسان لربه لكنود ، وإنه على ذلك لشهيد، وإنه لحب الخير لشديد) .

هذا الجواب قال القرطبي : الكنود : الكفور الجحود لنعم الله ، وهو قول ابن عباس .

وقال الحسن : يذكر المصائب وينسى النعم ، أخذه الشاعر فنظمه :

يا أيها الظالم فى فعله والظلم مردود على من ظلم
إلى متى أنت وحتى متى تشكو المصيبات وتنسى النعم

وروى أبو أمامة الباهلى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الكنود هو الذى يأكل وحده ، ويمنع رفده ، ويضرب عبده » .

وروى ابن عباس قال : « ألا أبشركم بشراركم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : من نزل وحده ، ومنع رفده ، وجلد عبده »

خرجهما الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول .

وروى ابن عباس أيضاً أنه قال : « الكنود بلسان كندة : العاصى ، وبلسان ربيعة ومضر : الكفور ، وبلسان كنانة : البخيل السيء الملكة » .

وقال مقاتل . وقال الشا

كنود لنعماء الرجال ومن يكن كنوداً لنعماء الرجال يبعد

أى كفور .

ثم قيل : هو الذى يكفر اليسير ، ولا يشكر الكثير .

وقيل : الجاحد للحق .

وقيل : سميت كندة كندة ، لأنها جحدت أباها .

وقال إبراهيم بن هرمة الشاعر :

دع البخلاء إن شمخوا وصدوا وذكرى بخل ثمانية كنود

فى نقول كثيرة وشواهد .

ومنها : الكنود الذى ينفق نعم الله فى معصية الله .

وعن ذى النون : الهلوع والكنود : هو الذى إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعا .

وقيل : الحسود الحقود .

ثم قال القرطبي رحمه الله فى آخر البحث :

قلت : هذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى الكفران والجحود .

وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم معنى الكنود بخصال مذمومة، وأحوال غير محمودة ، فإن صح فهو أعلى ما يقال ، ولا يبقى لأحد معه مقال . اهـ .

وهكذا كما قال : إن صح الأثر فلا قول لأحد ، ولكن كل هذه الصفات من باب اختلاف التنوع ، لأنها داخلة ضمن معنى الجحود للحق أو للنعم .

وقد استدل ذو النون المصرى بالآية الكريمة ، وهى مفسرة للكنود على المعانى المتقدمة بأنه هو الهلوع (إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً) .

ومثلها قوله : (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعّمه فيقول ربى أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن)

وقد عقب عليه هناك بمثل ما عقب عليه هنا .

فهناك قال تعالى : (كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين ، وتأكلون التراث أكلا لما . وتحبون المال حباً جماً) .

وهنا عقب عليه بقوله : وإنه لحب الخير لشديد) والله تعالى أعلم .

وقوله : إن الإنسان عام فى كل إنسان ، ومعلوم أن بعض الإنسان ليس كذلك ، كما قال تعالى : (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى) مما يدل على أنه من العام المخصوص .

وأن هذه الصفات من طبيعة الإنسان إلا ما هذبه الشرع ، كما قال تعالى : (وأحضرت الأنفس الشح) .

وقوله : (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) .
ونص الشيخ فى إملائه أن المراد به الكافر .

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ .

اختلف فى مرجع الضمير فى : وإنه ، فقيل : راجع للانسان ، ورجحه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى دفع إيهام الاضطراب ، مستدلا بقوله تعالى بعده (وإنه لحب الخير لشديد) .

وقيل : راجع إلى رب الإنسان .

واختار هذا القرطبي وقدمه .

وجميع المفسرين يذكرون الخلاف ، وقد عرفت الراجح منها، وعليه ، فعلى أنه راجع لرب الإنسان فلا إشكال فى الآية ، وعلى أنه راجع للانسان ففيه إشكال أورده الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى دفع إيهام الاضطراب وأجاب عليه .

وهو أنه جاءت نصوص تدل على أنه ينكر ذلك ، وأنه كان يحب أنه يحسن صنعاً ، ونحو ذلك .

ومن الجواب عليه : أن شهادته بلسان الحال .

وقد أورد بعض المفسرين شهادتهم بلسان المقال فى قوله تعالى : (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر) إلا أن هذه الشهادة بالكفر هى الشرك . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ .

الخير عام ، كما تقدم فى قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) .

ولكنه هنا خاص بالمال ، فهو من العام الذى أريد به الخاص.

من قصر العام على بعض أفراده ، لأن المال فرد من أفراد الخير ، كقوله تعالى : (إن ترك خيراً) أى مالا ، لأن عمل الخير يصحبه معه ولا يتركه .

وفى معنى هذا وجهان : الأول وإنه لحب الخير أى بسبب حبه الخير لشديد بخيل ، شديد البخل .

كما قيل :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى
عقيلة مال الفاحش المتشدد

أى شديد البخل على هذه الرواية من هذا البيت .

والوجه الثانى : وإنه لشديد حب المال . قالهما ابن كثير .

وقال : كلاهما صحيح ، والواقع أن الثانى يتضمن الأول .

ويشهد للوجه الثانى ، قوله تعالى : (وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حباً جما) .

وقلنا : إن الثانى يتضمن الأول ، لأن من أحب المال حباً جماً سيحمله حبه على البخل .

وفى هذا النص مذمة حب المال وهو جبلة فى الإنسان ، إلا من

هذّبه الإسلام ، إلا أن الذم ينصب على شدة الحب التى تحمل صاحبها على ضياع الحقوق أو تعدى الحدود .

وهذه الآية وما قبلها نازلة فى الكفار كما قدمنا كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى إملائه .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ .

البعثرة : الإنتثار .

وقال الزمخشرى : إن هذه الكلمة مأخوذة من أصلين : البعث والنثر .

فالبعث : خروجهم أحياء .

والنثر : الانتشار كنثر الحب . فهى تدل على بعثهم منتشرين .

وقد نص تعالى على هذا المعنى فى قوله : (وإذا القبور بعثرت) أى بعثر من فيها .

وقوله (يوم يخرجون من الأجداث سراعاً) .

وقوله : (كأنهم جراد منتشر) .

وقوله : (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث) .

قوله تعالى ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾

قيل : حصل أى أبرز . قاله ابن عباس .

وقيل ميز الخير من الشر .

والحاصل من كل شيء ما بقى .

قال لبيد :

وكل امرىء يوماً سيعلم سعيه إذا حصلت عند الإله الحصائل

والمراد بما فى الصدور الأعمال ، وهذا كقوله : (يوم تبلى السرائر) .

ونص على الصدور هنا ، مع أن المراد القلوب ، لأنها هى مناط العمل ومعقد النية .

والعقيدة وصحة الأعمال كلها مدارها على النية ، كما فى حديث « إنما الأعمال بالنيات » وحديث « ألا إن فى الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله » الحديث

وقال الفخر الرازى : خصص القلب بالذكر ، لأنه محل لأصول الأعمال .

ولذا ذكره فى معرض الذم ، فإنه (آثم قلبه) ، وفى معرض المدح (وجلت قلوبهم) .

ويشهد لما قاله قوله : إلا من أتى الله بقلب سليم) .

وقوله : (ثم قست قلوبكم) .

وقال : (ثم تلين جلودهم وقلوبهم) .

وقوله : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) ونحو ذلك .

ومما يدل على أن المراد بالصدور ما فيها هو القلب .

قوله : (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) .

وقال الفخر الرازى : نص على الصدور ليشمل الخير والشر ، لأن القلب محل الإيمان .

والصدر محل الوسوسة لقوله تعالى : (الذى يوسوس فى صدور الناس) .

وهذا وإن كان وجيهاً ، إلا أن محل الوسوسة أيضاً هو القلب ، فيرجع إلى المعنى الأول . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ .

ذكر الظرف هنا يشعر بقصر الوصف عليه مع أنه سبحانه خبير بهم في كل ، وقت في ذلك اليوم ، وقبل ذلك اليوم ، ولكنه في ذلك اليوم يظهر ما كان خفياً ، فهو سبحانه يعلم السر وأخفى ، وهو سبحانه لا يخفى عليه خافية .

ولكن ذكر الظرف هنا للتحذير مع الوصف بخبير ، أخص من عليم ، كما في قوله : (قال نبأني العليم الخبير) .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القارعة

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ الْقَارِعَةُ . مَا الْقَارِعَةُ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى أول سورة الواقعة ، وقال : كالطامة والصاخة ، والآزفة ، والقارعة . ا هـ . أى وكذلك الصاخة والساعة

ومعلوم أن الشيء إذا عظم خطره كثرت أسماؤه .

أو كما روى عن الإمام على : كثرة الأسماء تدل على عظم المسمى .

ومعلوم أن ذلك ليس من المترادفات ، فإن لكل اسم دلالة على معنى خاص به .

فالواقعة لصدق وقوعها ، والحاقة لتحقق وقوعها ، والطامة لأنها تطم وتعم بأحوالها ، والآزفة من قرب وقوعها أزفة الآزفة مثل اقتربت الساعة ، وهكذا هنا .

قالوا : القارعة : من قرع الصوت الشديد لشدة أهوالها .

وقيل : القارعة اسم للشدة .

قال القرطبي : تقول العرب : قرعتهم القارعة وفقرتهم الفاقرة ، إذا وقع بهم أمر فظيع .

قال ابن جرير :

وقارعة من الأيام لولا سبيلهم لزاحت عندك حينا

وقال تعالى : (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة) وهى الشديدة من شدائد الدهر .

وقوله (وما أدراك ما القارعة) تقدم قولهم : إن كل ما جاء وما أدراك أنه يدريه وما جاء وما يدريك لا يدريه .

وقد أدراه هنا بقوله : (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش) ، وهذا حال من أحوالها .

وقد بيّن بعض الأحوال الأخرى فى الواقعة بأنها خافضة رافعة ، وفى الطامة والصاخة : ينظر المرء ما قدمت يداه .

وقوله : (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه) .

وأيضاً فإن كل حالة يذكر معها الحال الذى يناسبها ، فالقارعة من القرع وهو الضرب ، ناسب أن يذكر معها ما يوهن قوى

الإنسان إلى ضعف الفراش المبثوث ، ويفكك ترابط الجبال إلى هباء العهن المنفوش .

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ .

الفراش : جمع فراشة .

وقيل : هى التى تطير وتتهافت فى النار .

وقيل : طير رقيق يقصد النار ولا زال يقتحم على المصباح ونحوه حتى يحترق .

و ذكر الشيخ فى إملائه قول جرير :

إن الفرزدق ما علمت وقومه مثل الفراش غشين نار المصطلى

وقال الفراء : هو غوغاء الجراد الذى ينتشر فى الأرض ويركب بعضه بعضاً من الهول .

ونقل القرطبى عن الفراء : أنه الهمج الطائر من بعوض وغيره ومنه الجراد . ويقال : هو أطيش من فراشة قال :

طويش من نفر أطياش أطيش من طائرة الفراش

وفى صحيح مسلم عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش

يقعن فيها ، وهو يزيدهن عنها ، وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدى » .

والمبثوث : المنتشر .

ومثله قوله : (يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم جراد منتشر) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيانه فى « سورة اقتربت الساعة » ، سورة ق والقرآن ، وسورة يس والقرآن الحكيم . بما يغنى عن إعادته هنا .

وقد قيل : إن وصفها بالفراش فى أول حالها فى الاضطراب والحيرة .

ووصفهم كالجراد فى الكثرة ووحدة الاتجاه (مهطعين إلى الداع) .

قوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة الواقعة بيان أحوال الجبال يوم القيامة من بدئها بكثيب مهيل ، ثم كالعهن المنفوش ، ثم تسير كالسراب .

وأحال فيها على غيرها ، كقوله : (تحسبها جامدة وهى تمر مرّ السحاب) .

وتقدمت الإشارة إلى ذلك فى سورة سأل سائل .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ . فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ .

فى قوله : (ثقلت موازينه) دلالة على وقوع الوزن لكل إنسان .

والموازين : يراد بها الموزون ، ويراد بها آلة الوزن ، كالمعايير ، وهما متلازمان .

وتقدم أن المعايير بالذرة وأقل منها .

وقد جاء نصوص على وضع الموازين وإقامتها بالعدل والقسط .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك عند قوله تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) .

وقوله : (فهو فى عيشة راضية) قالوا : بمعنى مرضية ، وراضية أصلها مرضية ، كما فى قوله : (وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية) ، إسناد الرضى للعيشة ، على أنها هى فاعلة الرضى ، لأن كلمة العيشة جامعة لنعيم الجنة وأسباب النعيم ، راضية طائعة لينة لأصحاب الجنة ، فتفجر لهم الأنهار طواعية ، وتدنو الثمار طواعية ، كما فى قوله : (قطوفها دانية) .

فالقول الأول : هو المعروف فى البلاغة بإطلاق المحل وإرادة الحال ، كقوله تعالى (فليدع ناديه) .

والنادى : مكان منتدى القوم ، أى ينادى بعضهم بعضاً للاجتماع فيه .

والمراد : من يحل فى هذا النادى ، ويكون هنا أطلق المحل وهو محل العيشة ، وأراد الحال فيها .

وعلى الثانى : فهو إسناد حقيقى من إسناد الرضى لمن وقع منه أو قام به ؛ ومما هو جدير بالذكر أن حمله على الأسلوب البيانى ليس متجهاً كالآية الأخرى ، لأن العيشة ليست محلا لغيرها بل هى حالة ، والمحل الحقيقى هو الجنة والعيشة حالة فيها ، وهى اسم لمعانى النعيم كما تقدم ، فيكون حمل الإسناد على الحقيقة أصح .

وقد جاءت الأحاديث : أن الجنة تحس بأهلها وتفرح بعمل الخير ، كما أنها تتزين وتتبهج فى رمضان ، وأنها تناظرت مع النار وكل يدلى بأهله وفرحه بهم ، حتى وعد الله كلا بملئها .

ونصوص تلقى الحور والولدان والملائكة فى الجنة لأهل الجنة بالرضى والتحية معلومة .

وقوله : (لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون) أى لا يتأخر عنهم شىء .

وقوله : (وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) .

وقوله : (فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) وقاصرات الطرف عن رضى بأهلهن . ومثه (حور مقصورات فى الخيام) أى على أزواجهن .

وقوله : (ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا) ونحو ذلك ، مما يشعر بأن نعيم الجنة بنفسه راض بأهل الجنة . والله سبحانه وتعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ . فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ .

وقع الخلاف فى المراد من قوله (فأمه هاوية) هل المراد بأمه مأواه وهى النار ، وأن هاوية من أسمائها ، أم المراد بأمه رأسه وأن هاوية من الهوى ، فيلقى فى النار منكساً رأسه يهوى فى النار .

وقد بحث الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ذلك فى دفع إيهام الاضطراب ، ولا يبعد من يقول إنه لا تعارض بين القولين .

فتكون أمه هاويه ، وهى النار ويلقى فيها منكساً تهوى رأسه والعياذ بالله .

وحكى القرطبى على أن الأم بمعنى قول لبيد :

فالأرض معقلنا وكانت أمنا فيها مقابرنا وفيها نولد

وعلى ومعنى الهاوية البعيدة والداهية ، قول الشاعر :

يا عمرو لو نالتك رماحنا كنت كمن تهوى به الهاويه

والهاوية : مكان الهوى .

كما قيل :

أكلت دما إن لم أرعك بضرة

بعيدة مهوى القرط مياسة القد

أو طيبة النشر .

وفى الحديث : « إن أحدكم ليتكلم بالكلمة لا يلقى لها بالا يهوى بها فى النار أربعين خريفاً » .

نسأل الله السلامة .

وقد فسر الهاوية بما بعدها : (وما أدراك ماهيه نار حاميه) .

وقد فسر الهاوية بأنها أسفل دركات النار . عياذاً بالله .

وقد جاء قوله تعالى : (كلا لينبذن فى الحطمة، وما أدراك ما الحطمة، نار الله الموقدة) .

والنبذ : الطرح ، مما يرجح ما قلناه من إمكان إرادة المعنيين كون أمه هى الهاوية أى النار ، يهوى فيها على أم رأسه ، وذلك بالنبذ فى الهاوية بعيدة المهوى ، وعادة الجسم إذا ألقى من شاهق بعيداً يسبقه إلى أسفل أثقله ، وأثقل جسم الإنسان رأسه . والله تعالى أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التكاثر

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ .

ألهاكم : أى شغلكم ، ولهاه : تلهيه ، أى ملله .

ومنه قول امرىء القيس :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذى تمائم محول

أى شغلتها .

والتكاثر : المكاثرة . ولم يذكر هنا فى أى شىء كانت المكاثرة ، التى ألهتهم .

قال ابن القيم : ترك ذكره ، إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشىء لا المتكاثر به ، وإما إرادة الإطلاق . اهـ .

ويعنى رحمه الله بالأول : ذم الهلع ، والنهم .

وبالثانى : ليعم كل ما هو صالح للتكاثر به ، مال وولد وجاه ، وبناء وغراس .

ولم أجد لأحد من المفسرين ذكر نظير لهذه الآية .

ولكنهم اتفقوا على ذكر سبب نزولها فى الجملة ، من أن حيين تفاخرا بالآباء وأمجاد الأجداد ، فعددوا الأحياء ، ثم ذهبوا إلى المقابر ، وعدّد كل منهما مالهم من الموتى يفخرون بهم ، ويتكاثرون بتعدادهم .

وقيل : فى قريش بين بنى عبد مناف وبنى سهم .

وقيل : فى الأنصار .

وقيل : فى اليهود وغيرهم ، مما يشعر بأن التكاثر كان فى مفاخر الآباء .

وقال القرطبي : الآية تعم جميع ما ذكر وغيره .

وسياق حديث الصحيح : « لو أن لابن آدم وادياً من ذهب ، لأحب أن يكون له واديان ، ولن يملأ فاه إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » .

قال ثابت : عن أنس عن أبى : كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت (ألهاكم التكاثر) .

وكأن القرطبي يشير بذلك ، إلى أن التكاثر بالمال أيضاً .

وقد جاءت نصوص من كتاب الله تدل على أن التكاثر الذى ألهاهم ، والذى ذمّهم الله بسببه أو حذّرهم منه ، إنما هو فى الجميع ، كما فى قوله تعالى : (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً ـ إلى قوله ـ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) .

ففيه التصريح : بأن التفاخر والتكاثر بينهم فى الأموال والأولاد .

ثم جاءت نصوص أخرى فى هذا المعنى كقوله : (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون) .

وقوله (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون) .

ولكون الحياة الدنيا بهذه المثابة ، جاء التحذير منها والنهى عن أن تلهيهم ، فى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) .

وبين تعالى أن ما عند الله للمؤمنين خير من هذا كله فى قوله

(وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله حير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين) .

ومما يرجح أن التكاثر فى الأموال والأولاد فى نفس السورة ، ما جاء فى آخرها من قوله : (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) لمناسبتها لأول السورة .

هو ظاهر بشمول النعيم المال شمولا أولياً .

وقوله (حتى زرتم المقابر) .

أخذ منه من قال : إن تفاخرهم ، حملهم على الذهاب إلى المقابر ليتكاثروا بأمواتهم ، كما جاء فى أخبار أسباب النزول المتقدمة .

والصحيح فى : زرتم المقابر : يعنى متم ، لأن الميت يأتى إلى القبر كالزائر لأن وجوده فيه مؤقتاً .

وقد روى : أن أعرابياً سمع هذه الآية ، فقال : بعثوا ورب الكعبة ، فقيل له فى ذلك ، فقال : لأن الزائر لابد أن يرتحل .

تنبيـــه

قد بحث بعض العلماء مسألة زيارة القبور هنا لحديث : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، ألا فزوروها فإنها تزهّد فى الدنيا وتذكّر فى الآخرة » .

وقالوا : إن المنع كان عاماً من أجل ذكر مآثر الآباء والموتى ، ثم بعد ذلك رخص فى الزيارة ، واختلفوا فيمن رخص له . فقيل : للرجال دون النساء لعدم دخولهن فى واو الجمـــاعة فى قوله : « فزوروها » .

وقيل : هو عام للرجال وللنساء ، واستدل كل فريق بأدلة يطول إيرادها .

ولـكن على سبيل الإجمال لبيان الأرجح ، نورد نبذة من البحث .

فقال المانعون للنساء : إنهن على أصل المنـــع ، ولم تشملهن الرخصة ، ومجيء اللعن بالزيارة فيهن .

وقال المجيزون : إنهن يدخلن ضمناً فى خطاب الرجال ،

كدخولهن فى مثل قوله : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) فإنهن يدخلن قطعاً .

وقالوا : إن اللعن المنوه عنه جاء فى الحديث بروايتين رواية : « لعن الله زائرات القبور » .

وجاء « لعن الله زوّارات القبور والمتّخذات عليهن السرج » إلى آخره .

فعلى صيغة المبالغة : زوّارات لا تشمل مطلق الزيارة ، وإنما تختص المكثرات ، لأنهن بالإكثار لا يسلمن من عادات الجاهلية من تعداد مآثر الموتى المحظور فى أصل الآية .

أما مجرد زيارة بدون إكثار ولا مكث ، فلا .

واستدلوا لذلك بحديث عائشة رضى الله عنها لما ذكر لها صلى الله عليه وسلم ، السلام على أهل البقيع ، فقالت « وماذا أقول يا رسول الله ، إن أنا زرت القبور ؟ قال : قولى : السلام عليكم آل دار قوم مؤمنين » الحديث .

فأقرها صلى الله عليه وسلم ، على أنها تزور القبور وعلّمها ماذا تقول إن هى زارت .

وكذلك بقصة مروره على المرأة التى تبكى عند القبر فكلَّمها ، فقالت : إليك عنى ، وهى لا تعلم من هو ، فلما ذهب عنها قيل لها : إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاءت تعتذر فقال لها : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » .

ولم يذكر لها المنع من زيارة القبور ، مع أنه رآها تبكى .

وهذه أدلة صريحة فى السماح بالزيارة . ومن ناحية المعنى ، فإن النتيجة من الزيارة للرجال هن فى حاجة إليها كذلك ، وهى كون زيارة القبور تزهِّد فى الدنيا وترغِّب فى الآخرة .

وليست هذه بخاصة فى الرجال دون النساء ، بل قد يكن أحوج إليه من الرجال .

وعلى كل ، فإن الراجح من هذه النصوص والله تعالى أعلم ، هو الجواز لمن لم يكثرن ولا يتكلمن بما لا يليق ، مما كان سبباً للمنع الأول ، والعلم عند الله تعالى .

تنبيه آخر

من لطائف القول فى التفسير ، ما ذكره أبو حيان عن التكاثر فى قوله : (حتى زرتم المقابر) ما نصه :

وقيل هذا تأنيب على الإكثار من زيارة ، تكثيراً بمن سلف وإشادة بذكره ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ثم قال : « فزوروها » أمر إباحة للاتعاظ بها ، لا لمعنى المباهاة والتفاخر .

ثم قال : قال ابن عطية : كما يصنع الناس فى ملازمتها وتسنيمها بالحجارة والرخام وتلوينها شرفاً ، وبيان النواويس عليها ، أى الفوانيس ، وهى السرج .

ثم قال أبو حيان ، وابن عطية : لم ير إلا قبور أهل الأندلس ، فكيف لو رأى ما يتباهى به أهل مصر فى مدافنهم بالقرافة الكبرى والقرافة الصغرى ، وباب النصر وغير ذلك . وما يضيع فيها من الأموال ، لتعجب من ذلك ولرأى ما لم يخطر ببال .

وأما التباهى بالزيارة : فنى هؤلاء المنتمين إلى الصوفية أقوام ليس لهم شغل لا زيار قبور : زرت قبر سيدى فلان بكذا ، وقبر فلان بكذا ، والشيخ فلان بكذا ، والشيخ فلانا بكذا ، فيذكرون أقاليم طوفوا على قسم التجريد .

وقد حفظوا حكايات عن أصحاب تلك القبور وأولئك المشايخ ، بحيث لو كتبت لجاءت أسفار . وهم مع ذلك لا يعرفون فروض الوضوء ولا سننه .

وقد سخر لهم الملوك وعوام الناس فى تحسين الظن بهم وبذل المال لهم ، وأما من شذ منهم لأنه يتكلم للعامة فيأتى بعجائب ، يقولون : هذا فتح من العلم الدنى على الخضر .

حتى إن من ينتمى إلى العلم ، لما رأى رواج هذه الطائفة سلك مسلكهم ، ونقل كثيرا من حكاياتهم ، ومزج ذلك بيسير من العلم طلباً المال والجاه وتقبيل اليد .

ونحن نسأل الله عز وجل أن يوفقنا لطاعته . اهـ . بحروفه .

وهذا الذى قاله رحمه الله من أعظم ما افتتن به المسلمون فى دينهم ودنياهم معاً .

أما فى دينهم : فهو الغلو الذى نهى عنه صلى الله عليه وسلم ، صيانة للتوحيد ، من سؤال غير الله .

وأما فى الدنيا فإن الكثير من هؤلاء يتركون مصالح دنياهم من زراعة أو تجارة أو صناعة ، ويطوف بتلك الأماكن تاركا ومضيعاً من يكون السعى عليه أفضل من نوافل العبادات .

مما يلزم على طلبة العلم فى كل مكان وزمان ، أن يرشدوا الجهلة منهم ، وأن يبينوا للناس عامة خطأ وجهل أولئك ، وأن الرحيل لتلك

القبور ليس من سنة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، ولا كان من عمل الخلفاء الراشدين ، ولا من عامة الصحابة ولا التابعين ، ولا من عمل أئمة المذاهب الأربعة رحمهم الله .

وإنما كان عمل الجميع زيارة ماجاورهم من المقابر للسلام عليهم والدعاء لهم ، والانعاظ بحالهم ، والاستعداد لما صاروا إليه .

نسأل الله الهداية والتوفيق ، لاتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاقتفاء بآثار سلف الأمة . آمين .

قوله تعالى ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

كلا : زجر عن التلهى والتكاثر المذكور ، وسوف تعلمون : أى حقيقة الأمر ، ومغبة هذا التلهى ، ثم كلا سوف تعلمون ، تكرار للتأكيد .

وقيل : إنه لا تكرار ، لما روى عن علىّ رضى الله عنه : أن الأولى فى القبر ، والثانية يوم القيامة . وهو معقول .

واستدل به البعض على عذاب القبر .

ومعلوم صحة حديث القبر « إما روضة من رياض الجنة ، وإما حفرة من حفر النار »

والسؤال فيه معلوم ، ولكن أرادوا مأخذه من القرآن .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى الكلام على سورة غافر ، عند (وحاق بآل فرعون سوء العذب) إثبات عذاب القبر من القرآن

وكذلك بيان معناه فى آخر سورة الزخرف عند الكلام على قوله تعالى (فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون) .

وهذا الزجر هنا والتحذير لهم رداً على ما كانوا عليه فى التكاثر .

كما قال الشاعر :

ولست بالأكثر منهم حصى وإنما العزة للكاثر

وأصرح دليل لإثبات عذاب القبر من القرآن ، هو قوله تعالى : (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) لأن الأول فى الدنيا ، والثانى فى الآخرة .

قوله تعالى ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ . لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ .

لو : هنا شرطية ، جوابها محذوف باتفاق قدره ابن كثير .

أى لو علمتم حق العلم ، لما ألهاكم التكاثر عن طلب الآخرة ،

حتى صرتم إلى المقابر ، وعلم اليقين : أجاز أبو حيان إضافة الشيء لنفسه ، أى لمغايرة الوصف ، إذ العلم هو اليقين ، ولكنه آكد منه .

وعن حسان قوله :

سرنا وساروا إلى بدر لحتفهم لو يعلمون يقين العلم ماساروا

ولترون الجحيم : جواب لقسم محذوف .

وقال : المراد برؤيتها عند أول البعث ، أو عند الورود ، أو عند مايتكشف الحال فى القبر .

ثم لترونها عين اليقين :

قيل : هذا للكافر عند دخولها ، هذا حاصل كلام المفسرين .

ومعلوم أن هذا ليس لمجرد الإخبار برؤيتها ، ولكن وعيد شديد وتخويف بها ، لأن مجرد الرؤية معلوم .

وإن منكم إلا واردها ، ولكن هذه الرؤية أخص ، كما فى قوله : (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) أى أيقنوا بدليل قوله : (ولم يجدوا عنها مصرفا) .

وقد يبدو وجه فى هذا المقام ، وهو أن الرؤية هنا للنار نوعان :

الرؤية الأولى : رؤية علم وتيقن ، فى قوله : (لو تعلمون علم اليقين) علماً تستيقنون به حقيقة يوم القيامة لأصبحتم بمثابة من يشاهد أهواله ويشهد بأحواله ، كما فى حديث الإحسان : « تعبد الله كأنك تراه » .

وقد وقع مثله فى قصة الصديق لما أخبر نبأ الإسراء ، فقال : « صدق محمد ، فقالوا : تصدقه وأنت لم تسمع منه ؟ قال: إنى لأصدقه على أكثر من ذلك » .

فلعلمه علم اليقين بصدقه صلى الله عليه وسلم فيما يخبر ، صدق بالإسراء كأنه يراه .

وتكون الرؤية الثانية ، رؤية عين ومشاهدة ، فهو عين يقين .

وقد قدمنا مراتب العلم الثلاث : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين .

فالعلم : ما كان عن دلائل .

وعين اليقين : ما كان عن مشاهدة .

وحق اليقين : ما كان عن ملابسة ومخالطة ، كما يحصل العلم بالكعبة ، ووجهتها فهو علم اليقين ، فإذا رآها فهو عين اليقين بوجودها . فإذا دخلها وكان فى جوفها فهو حق اليقين بوجودها . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ .

أصل النعيم كل حال ناعمة من النعومة والليونة ، ضد الخشونة واليبوسة ، والشدائد ، كما يشير إليه قوله تعالى : (وما بكم من نعمة فمن الله) .

ثم قال : (إذا مسكم الضر فإليه تجأرون) فقابل النعمة بالضر .

ومثله قوله تعالى : (ولئن أذقناه نعماء ، بعد ضراء مسته ليقولن : ذهب السيئات عنى) .

وعلى هذا فإن نعم الله عديدة ، كما قال (وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها) .

وبهذا تعلم أن كل ماقاله المفسرون ، فهو من قبيل التمثيل لا الحصر ، كما قال تعالى (لاتحصوها) .

وأصول هذه النعم أولها الإسلام (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) .

ويدخل فيها نعم التشريع والتخفيف ، عما كان على الأمم الماضية .

كما يدخل فيها نعمة الإخاء فى الله (واذكروا نعمة الله عليكم

إذ كنتم إخوانا فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا) ، وغير ذلك كثيرا .

وثانيها : الصحة ، وكمال الخلقة والعافية ، فمن كمال الخلقة الحواس (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين) .

ثم قال : (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) .

وثالثها : المال فى كسبه وإنفاقه سواء ، ففى كسبه من حله نعمة ، وفى إنفاقه فى أوجهه نعمة .

هذه أصول النعم ، فماذا يسأل عنه ، مهما جاءت السنة بأنه سيسأل عن كل ذلك جملة وتفصيلا .

أما عن الدين والمال والصحة ، ففى مجمل الحديث « إذا كان يوم القيامة ، لاتزال قدم عبد حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيم أبلاه ، وعن علمه فيم عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن شبابه فيم أفناه » .

ولعظم هذه الآية وشمولها ، فإنها أصبحت من قبيل النصوص مضرب المثل ، فقد فصلت السنة جزئيات ما كانت تخطر ببال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد روى القرطبي ماجاء فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم أو ليلة ، فإذا هو بأبى بكر وعمر ، فقال : ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟ قالا : الجوع يارسول الله ، قال : وأنا ، والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما ، قوما فقاما معه ، فأتى رجلا من الأنصار ، فإذا هو ليس فى بيته ، فلما رأته المرأة قالت : مرحباً وأهلا ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين فلان ؟ قالت : يستعذب لنا من الماء — أى يطلب ماء عذبا — إذ جاء الأنصارى ، فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، ثم قال : الحمد لله ، ما أحد اليوم أكرم ضيفاً منى . قال : فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب ، فقال : كلوا من هذه ، وأخذ المدية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إياك والحلوب ، فذبح لهم فأكلوا من الشاة ، ومن ذلك العذق ، وشربوا ، فلما أن شبعوا ورووا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر : والذى نفسى بيده لتسألن عن نعيم هذا اليوم يوم القيامة ، أخرجكم من بيوتكم الجوع ، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم » وخرجه الترمذى .

وقال فيه : « هذا والذى نفسى بيده ، من النعيم الذى تسألون عنه يوم القيامة ، ظل بارد ورطب طيب ، وماء بارد » وكنى الرجل الذى من الأنصار .

فقال : أبو الهيثم بن التيهان .

قال القرطبي : قلت : اسم هذا الرجل مالك بن التيهان ، ويكنى أبا الهيثم .

وقد ذكر ابن كثير هذه القصة من عدة طرق .

ومنها : عند أحمد أن عمر رضي الله عنه أخذ بالفرق وضرب به الأرض ، وقال « إنا لمؤولون عن هذا يا رسول الله ؟ قال : نعم ، إلا من ثلاثة : خرقة لف الرجل بها عورته ، أو كسرة سد بها جوعته ، أو حجر يدخل فيه من الحر والقر » .

وقال سفيان بن عيينة : إن ما سد الجوع ، وستر العورة من خشن الطعام ، لا يسأل عنه المرء يوم القيامة ، وإنما يسأل عن النعيم ، والدليل عليه أن الله أسكن آدم الجنة فقال له : (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) .

فكانت هذه الأشياء الأربعة ما يسد به الجوع ، وما يدفع به العطش ، وما يسكن فيه من الحر ويستر به عورته ، لآدم عليه السلام بالإطلاق ، لا حساب عليه فيها لأنه لابد له منها .

وذكر عن أحمد أيضاً بسنده « أنهم كانوا جلوساً فطلع عليهم النبي صلى الله عليه وسلم وعلى رأسه أثر ماء ، فقلنا :

يا رسول الله ، نراك طيب النفس ؟

قال : أجل ، قال : خاض الناس فى ذكر الغنى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا بأس بالغنى لمن اتقى الله ، والصحة لمن اتقى الله ، خير من الغنى ، وطيب النفس من النعيم » .

قال : ورواه ابن ماجه عن أبى هريرة .

وبهـذا ، فقد ثبت من الكتاب والسنة ، أن النعيم الذى هو محل السؤال يوم القيامة عام فى كل ما يتنعم به الإنسان فى الدنيا ، حساً كان أو معنى .

حتى قالوا : النوم مع العافية ، وقالوا : إن السؤال عام للكافر والمسلم ، فهو للكافر توبيخ وتقريع وحساب ، وللمؤمن تقرير بحسب شكر النعمة وجحودها وكيفية تصريفها . والعلم عند الله تعالى .

وكل ذلك يراد منه الحث على شكر النعمة ، والإقرار للمنعم

والقيام بحقه سبحانه فيها ، كما قال تعالى عن نبي الله : (رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأصلح لي في ذريتي ، إني تبت إليك وإني من المسلمين) .

اللهم أوزعنا شكر نعمتك ، واجعل ما أنعمت علينا عوناً لنا على طاعتك .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ وَٱلْعَصْرِ . إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ .

العصر : اسم للزمن كله أو جزء منه .

ولذا اختلف فى المراد منه ، حيث لم يبين هنا .

فقيل : هو الدهر كله ، أقسم الله به لما فيه من العجائب ، أمة تذهب وأمة تأتى ، وقد ينفذ ، وآية تظهر ، وهو هو لا يتغير ، ليل يعقبه نهار ، ونهار يطرده ليل ، فهو فى نفسه عجب .

كما قيل :

موجود شبيه المعدوم ، ومتحرك يضاهى الساكن .

كما قيل :

وأرى الزمان سفينة تجرى بنا نحو المنون ولا نرى حركاته

فهو فى نفسه آية ، سواء فى ماضيه لا يعلم متى كان ، أو فى حاضره لا يعلم كيف ينقضى ، أو فى مستقبله .

واستدل لهذا القول بما جاء موقوفا على علىّ رضى الله عنه ، ومرفوعاً من قراءة شاذة : والعصر ونوائب الدهر . وحمل على التفسير إن

لم يصح قرآنا ، وهذا المعنى مروى عن ابن عباس .

وعليه قول الشاعر :

سبيل الهوى وعر ، وبحر الهوى غمر
ويوم الهوى شهر ، وشهر الهوى دهر

وقيل العصر : الليل والنهار .

قال حميد بن ثور :

ولم يلبث العصران يوم وليلة إذا طلبا أن يدركا مايتمما

والعصران : أيضاً الغداة والعشى .

كما قيل :

وأمطله العصرين حتى يملنى ويرضى بنصف الدين والأنف راغم

والمطل : التسويف وتأخير الدين .

كما قيل:

قضى كل ذى دين فوفّى غريمه وعزة ممطول معنى غريمها

وقيل : إن العشى مابعد زوال الشمس إلى غروبها ، وهو قول الحسن وقتادة .

ومنه قول الشاعر :

تروح بنا ياعمرو قد قصر العصر
وفى الروحة الأولى الغنيمة والاجر

وعن قتادة أيضاً : هو آخر ساعة من ساعات النهار ، لتعظيم اليمين فيه ، وللقسم بالفجر والضحى .

وقيل : هو صلاة العصر لكونها الوسطى .

وقيل : عصر النبي صلى الله عليه وسلم أو زمن أمته ، لأنه يشبه عصر عمر الدنيا .

والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن أقرب هذه الأقوال كلها قولان : إما العموم بمعنى الدهر للقراءة الشاذة ، إذ أقل درجاتها التفسير ، ولأنه يشمل بعمومه بقية الأقوال .

وإما عصر الإنسان أى عمره ومدة حياته الذى هو محل الكسب والخسران لإشعار السياق ، ولأنه يخص العبد فى نفسه موعظة وانتفاعاً .

ويرشح لهذا المعنى مايكتنف هذه السورة من سور التكاثر قبلها ، والهمزة بعدها ، إذ الأولى تذم هذا التلهى والتكاثر بالمال والولد ، حتى زيارة المقابر بالموت ، ومحل ذلك هو حياة الإنسان .

وسورة الهمزة فى نفس المعنى تقريباً ، فى الذى جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخلده .

فجمع المال وتعداده فى حياة الإنسان وحياته محدودة ، وليس مخلداً فى الدنيا ، كما أن الإيمان وعمل الصالحات مرتبط بحياة الإنسان .

وعليه ، فإما أن يكون المراد بالعصر فى هذه السورة العموم لشموله الجميع وللقراءة الشاذة ، وهذا أقواها .

وإما حياة الإنسان ، لأنه ألزم له فى عمله ، وتكون كل الإطلاقات الأخرى من إطلاق الكل ، وإرادة البعض ، والله تعالى أعلم .

وقوله : (إن الإنسان لفى خسر)

لفظ الإنسان وإن كان مفرداً ، فإن أل فيه جعلته للجنس .

وقد بينه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى دفع إيهام الاضطراب ، وتقدم التنبيه عليه مراراً ، فهو شامل للمسلم والكافر ، إلا من استثنى الله تعالى .

وقيل : خاص بالكافر . والأول أرجح للعموم .

وإن الإنسان لفى خسر ، جواب القسم ، والخسر : قيل : هو

الغبن ، وقيل : النقص ، وقيل : العقوبة ، وقيل : الهلكة ، والكل متقارب .

وأصل الخسر والخسران كالكفر والكفران ، النقص من رأس المال ، ولم يبين هنا نوع الخسران فى أى شىء ، بل أطلق ليعم ، وجاء بحرف الظرفية ، ليشعر أن الإنسان مستغرق فى الخسران ، وهو محيط به من كل جهة .

ولو نظرنا إلى أمرين وهما المستثنى والسورة التى قبلها ، لاتضح هذا العموم ، لأن مفهوم المستثنى يشمل أربعة أمور : عدم الإيمان وهو الكفر ، وعدم العمل الصالح وهو العمل الفاسد ، وعدم التواصى بالحق وهو انعدام التواصى كلية أو التواصى بالباطل ، وعدم التواصى بالصبر ، وهو إما انعدام التواصى كلية أو الهلع والجزع .

والسورة التى قبلها تلهى الإنسان بالتكاثر فى المال والولد ، بغية الغنى والتكثر فيه ، وضده ضياع المال والولد وهو الخسران .

فعليه يكون الخسران فى الدين من حيث الإيمان بسبب الكفر ، وفى الإسلام وهو ترك العمل ، وإن كان يشمله الإيمان فى الاصطلاح والتلهى فى الباطل وترك الحق ، وفى الهلع والفزع .

ومن ثم ترك الأمر والنهى بما فيه مصلحة العبد وفلاحه وصلاح

دينه ودنياه ، وكل ذلك جاء فى القرآن مايدل عليه نجمله كالآتى :

أما الخسران بالكفر . فكما فى قوله تعالى . (لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) .

وقوله : (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) ، أى لأنهم لم يعملوا لهذا اللقاء ، وقصروا أمرهم فى الحياة الدنيا فضيعوا أنفسهم ، وحظهم من الآخرة .

وأما الخسران بترك العمل ، فكما فى قوله تعالى : (ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم) لأن الموازين هى معايير الأعمال كما تقدم (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) .

ومثله : (ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً) ، لأنه سيكون من حزب الشيطان (ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) أى بطاعتهم إياه فى معصية الله .

وأما الخسران بترك التواصى بالحق فليس بعد الحق إلا الضلال ، والحق هو الإسلام بكامله ، وقد قال تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) .

وأما الخسران بترك التواصى بالصبر والوقوع فى الهلع والفزع ،

فكما قال تعالى : (ومن الناس من يعبـد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين) .

تحقيق المناط فى حقيقة خسران الإنسان

اتفقوا على أن رأس مال الإنسان فى حياته هو عمره . كلف بإعماله فى فترة وجوده فى الدنيا ، فهى له كالسوق . فإن أعمله فى خير ربح ، وإن أعمله فى شر خسر .

ويدل لهذا المعنى قوله تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) الآية .

وقوله : (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله) الآية .

وفى الحديث عند مسلم : « الطهور شطر الإيمان » .

وفى آخره « كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » مما يؤكد أن رأس مال الإنسان عمره .

ولأهمية هذا العمر جاء قسيم الرسالة والنذارة فى قوله : (أو لم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) .

وعلى هذا قالوا : إن الله تعالى أرسل رسوله بالهدى .

وهدى كل إنسان النجدين ، وجعل لكل إنسان منزلة فى الجنة ومنزلة فى النار .

فمن آمن وعمل صالحا كان مآله إلى منزلة الجنة ، وسلم من منزلة النار . ومن كفر كان مآله إلى منزلة النار ، وترك منزلته فى الجنة .

كما جاء فى حديث القبر « أول ما يدخل فى قبره إن كان مؤمناً يفتح له باب إلى النار ، ويقال له : ذاك مقعدك من النار لو لم تؤمن ثم يقفل عنه ، ويفتح له باب إلى الجنة ويقال له : هذا منزلك يوم تقوم الساعة ، فيقول : رب ، أقم الساعة » .

وإن كان كافراً كان على العكس تماماً ، فإذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فيأخذ كل منزلته فيها ، وتبقى منازل أهل النار فى الجنة خالية فيتوارثها أهل الجنة ، وتبقى منازل أهل الجنة فى النار خالية ، فتوزع على أهل النار ، وهنا يظهر الخسران المبين ، لأن من ترك منزلة فى الجنة وذهب إلى منزلة فى النار ، فهو بلا شك خاسر ، وإذا ترك منزلته فى الجنة لغيره وأخذ هو بدلا منها منزلة غيره فى النار ، كان هو الخسران المبين ، عياذاً بالله .

أما فى غير الكافر وفى عموم المسلمين ، فإن الخسران فى التفريط بحيث لو دخل الجنة ولم ينل أعلى الدرجات يُحسّ بالخسران فى الوقت الذى فرط فيه ، ولم يتنافس فى فعل الخير ، لينال أعلى الدرجات .

فهذه السورة فعلا دافع لكل فرد إلى الجد والعمل المربح ، ودرجات الجنة رفيعة ومنازلها عالية مهما بذل العبد من جهد ، فإن أمامه مجال للكسب والربح ، نسأل الله التوفيق والفلاح .

وقد قالوا : لايخرج إنسان من الدنيا إلا حزيناً ، فإن كان مسيئا فعلى إساءته ، وإن كان محسناً فلتقصيره . وقد يشهد لهذا المعنى قوله تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) .

فالخوف من المستقبل أمامهم ، والحزن على الماضى خلفهم ، والله تعالى أعلم .

ويبين خطر هذه المسألة : أن الانسان إذا كان فى آخر عمره ، وشعر بأيامه المعدودة وساعاته المحدودة ، وأراد زيادة يوم فيها ، يتزود منها أو ساعة وجيزة يستدرك بعضاً مما فاته ، لم يستطع لذلك سبيلا ، فيشعر بالأسى والحزن على الأيام والليالى والشهور والسنين التى ضاعت عليه فى غير ما كسب ولا فائدة ، كان من الممكن أن

تكون مربحة له ، وفى الحديث الصحيح : « نعمتان مغبون فيهما الإنسان : الصحة والفراغ » .

أى أنهما يمضيان لا يستغلهما فى أوجه الكسب المكتملة ، فيفوتان عليه بدون عوض يذكر ثم يندم ، ولات حين مندم .

كما قيل فى ذلك :

بدلت جمة برأس أزعرا وبالثنايا البيض الدر دررا
* كما اشترى المسلم إذ تنصرا *

تنبيـــه

فى سورة التكاثر تقبيح التلهى بالتكاثر بالمال والولد ونحوه ، ثم الإشعار بأن سببه الجهل ، لأنهم لو كانوا يعلمون علم اليقين لما ألهاهم ذلك حتى باغتهم الموت .

وهنا إشعار أيضاً بأن سبب هذا الخسران الذى يقع فيه الإنسان ، هو الجهل الذى يجر إلى الكفر والتمادى فى الباطل ، ويساعد على هذا قسوة القلب ، وطول الأمل . كما قال تعالى : (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون)

تنبيه آخر

قوله تعالى (إن الإنسان لفى خسر) نص على الإنسان على ماتقدم وقد جاءت آية أخرى تدل على أن الجن كالإنس فى قوله تعالى : (أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين) .

وتقدم بيان تكليف الجن بالدعوة واستجابتهم لها . والدعوة إليها.

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ .

هذا هو المستثنى من الإنسان المتقدم ، مما دل على العموم كما قدمنا ، والإيمان لغة التصديق وشرعا الاعتقاد الجازم بأركان الإيمان الست ، فى حديث جبريل عليه السلام مع الرسول صلى الله عليه وسلم لما سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان .

وعملوا الصالحات : العطف يقتضى المغايرة .

ولذا قال بعض الناس : إن الأعمال ليست داخلة فى تعريف الإيمان ومقالاتهم معروفة .

والجمهور : أن الإيمان اعتقاد بالجنان ، ونطق باللسان ، وعمل بالجوارح.

فالعمل داخل فيه ويزيد وينقص ، وقد قدمنا : أن العمل شرط

أقرب من أن يكون جزءا ، أى أن الإيمان يصدق بالاعتقاد ، ولا يتوقف وجوده على العمل ، ولكن العمل شرط فى الانتفاع بالإيمان ، إذا تمكن العبد من العمل ، ومما يدل لكون الإيمان يصدق عليه حد الإعتقاد والنطق ، ولو لم يتمكن العبد من العمل ، قصة الصحابى الذى أسلم عند بدء المعركة ، وقاتل ، واستشهد ولم يصلّ لله ركعة ، فدخل الجنة .

والجمهور : على أن مجرد الاعتقاد لا ينفع صاحبه ، كما كان يعتقد عم النبى صلى الله عليه وسلم صحة رسالته ، ولكنه لم يقل كلمة يحاج له صلى الله عليه وسلم بها ، وكذلك لو اعتقد ونطق بالشهادتين ، ولم يعمل كان مناقضاً لقوله .

وقد قدمنا هذه المسألة مفصلة .

والصالحات : جمع صالحة . وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه تعريفه وشروط كون العمل صالحا بأدلته من كونه موافقاً لكتاب الله وعمله صاحبه خالصاً لوجه الله ، وكونه صادراً من مؤمن بالله . إلخ .

وقوله : (وتواصوا بالحق) .

يعتبر التواصى بالحق ، من الخاص بعد العام ، لأنه داخل فى عمل الصالحات .

وقيل : إن التواصى ، أن يوصى بعضهم بعضاً بالحق .

وقيل : الحق كل ما كان ضد الباطل ، فيشمل عمل الطاعات ، وترك المعاصى .

واعتبر هذا أساساً من أسس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بقرينة التواصى بالصبر ، أى على الأمر والنهى . على ما سيأتى إن شاء الله

وقيل : الحق ، هو القرآن . لشموله كل أمر وكل نهى ، وكل خير ، ويشهد لذلك قوله تعالى فى حق القرآن (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل)

وقوله : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين) .

وقد جاءت آيات فى القرآن تدل على أن الوصية بالحق تشمل الشريعة كلها ، أصولها وفروعها ، ماضيها وحاضرها ، من ذلك ما وصى الله به الأنبياء وعموما ، من نوح وإبراهيم ومن بعدهم فى قوله تعالى

(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) .

وإقامة الدين القيام بكليته ، وقد كانت هذه الوصية عمل الرسل لأممهم ومن بعدهم ، فنفذها إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى : (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) .

ومن بعد إبراهيم يعقوب كما قال تعالى :

(أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون) .

فهذا تواصى الأمم بأصل الإيمان وعموم الشريعة ، وكذلك بالعبادة من صلاة وزكاة ، كما فى قوله تعالى عن نبى الله عيسى عليه السلام (وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبراً بوالدتى) .

وكذلك الحالة الاجتماعية ماثلة فى الوصية بالوالدين والأولاد ، لترابط الأسرة ، ففى الوالدين قوله تعالى (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا) .

وفى الأبناء قال : (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) .

وفى الحقوق العامة أوامر ونواهى ، عبادات ومعاملات ، جاءت آيات الوصايا العشر التى قال عنها ابن مسعود رضى الله عنه « من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم التى عليها خاتمه فليقرأ : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) » .

تلك الوصايا الجامعة أبواب الخير الموصدة أبواب الشر والمذيلة بهذا التبيين والتعريف ، وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل

ولو أردنا أن نربط بين هذا وبين التواصى بالحق وبينهما وبين فاتحة الكتاب ، لكانت النتيجة كالآتى فى قوله : (وتواصوا بالحق) إحالة على تلك الوصايا ، وهى شاملة جامعة ومعنون لها بأنها صراط الله المستقيم .

فكأن قوله : (وتواصوا بالحق) مساويا لقوله : وتواصوا بالصراط المستقيم . واستقيموا عليه .

ثم فى سورة الفاتحة (اهدنا الصراط المستقيم) وهذا صراط الله المستقيم فاتبعوه .

فكانت سورة العصر مشتملة على التواصى بالاستقامة على صراط الله المستقيم واتباعه ، ويأتى عقبها قوله (وتواصوا بالصبر) بمثابة التثبيت على هذا الصراط المستقيم ، إذ الصبر لازم على عمل الطاعات ، كما هو لازم لترك المنكرات .

وتلك الوصايا العشر جمعت أمراً ونهياً فعلا وتركا ، وكذلك فيه الإشارة إلى ما يقوله دعاة الإسلام من أن العمل الصالح والدعوة إلى الحق والتواصى به ، فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وغالباً من يقوم به يتعرض لأذى الناس ، فلزمهم التواصى بالصبر ، كما قال

لإبنه يوصيه وجامعاً فى وصيته وصية سورة العصر إذ قال : (يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا عليه بيان قواعد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالتفصيل عند قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ) فى سورة المائدة .

فصارت هذه السورة بحق جامعة لأصول الرسالة .

كما روى عن الشافعى رحمه الله أنه قال : لو تأمل الناس هذه السورة لكفتهم .

قوله : (وتواصوا بالصبر) جاء الحث على التواصى بالرحمة أيضاً مع الصبر ، فى قوله تعالى : (ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) .

وبهذه الوصايا الثلاث : بالتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر والتواصى بالمرحمة ، تكتمل مقومات المجتمع المتكامل قوامه الفضائل المثلى ، والقيم الفضلى .

لأن بالتواصى بالحق إقامة الحق ، والاستقامة على الطريق المستقيم .

وبالتواصى بالصبر ، يستطيعون مواصلة سيرهم على هـذا الصراط ، ويتخطون كل عقبات تواجههم .

وبالتواصى بالمرحمة : يكونون مرتبطين كالجسد الواحد ، وتلك أعطيات لم يعطها إلا القرآن وأعطاها فى هـذه السورة الموجزة . وبالله التوفيق .

تنبيـه

قال الفخر الرازى : إن الله تعالى لما أخبر عن هؤلاء بالنجاة من الخسران ، وفوزهم بالعمل الصالح والإيمان ، أخبر عنهم أنهم لم يكتفوا بما يتعلق بهم أنفسهم بل تعدوا إلى غيرهم ، فدعوهم إلى ما فازوا به على حد قوله صلى الله عليه وسلم « حب لأخيك ما تحب لنفـك » اهـ . ملخصاً

ويشهد لهذا قوله تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة — إلى قوله ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صـالحاً وقال إننى من المسـلمين ، ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) .

فقد بين تعالى أن الناس أقسام ثلاثة ، إزاء دعوة الرسل .

قوم آمنوا وقالوا : ربنا الله ، واستقاموا على ذلك بالعمل الصالح .

وقوم : ارتفعت همتهم إلى دعوة غيرهم وهم أحسن قولا بلا شك .

وقوم : عادوا الدعاة وأساؤوا إليهم .

ثم بين موقف الدعاة من أولئك المسيئين فى غضون قوله تعالى : (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع) أى إساءة المسيئين (بالتى هى أحسن) فيصبحوا أولياء لك وبين أن هذه المنزلة (لا يلقاها إلا الذين صبروا) ثم بين أن من ارتفع إليها وسلك مسلكها (أنه ذو حظ عظيم) .

تنبيـــه

كنت سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، قوله للدعاة عدوان : أحدهما : من الإنس . والآخر من الشياطين .

وقد أرشدنا الله لكيفية التغلب عليهما واكتفاء شرهما .

أما عداوة الإنس فبمقابلة الإساءة بالإحسان ، فيصبح ولياً حميماً .

وأما عدو الجن فبالاستعاذة منه (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) .

نسأل الله تعالى الهداية والتوفيق .

وقد أشرنا إلى أن الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه قدم مبحث الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عند قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم) .

وذكر سورة العصر عندها ، وعقد مسائل متعددة فى منهج الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، مما لا غنى عنه .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ .

اختلف فى معنى كلمة ويل .

فقيل : هو واد فى جهنم .

وقيل : هى كلمة عذاب وهلاك .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، ذكر هذين المعنيين فى سورة الجاثية عند قوله تعالى : (ويل لكل أفاك أثيم) ، وبين أنها مصدر لا لفظ له من فعله ، وأن المسوغ للابتداء بها مع أنها نكرة كونها فى معرض الدعاء عليهم بالهلاك .

وقد استظهر رحمه الله تعالى هذا المعنى .

ومما يشهد لما استظهره رحمه الله ، ماجاء فى حق أصحاب الجنة التى أصبحت كالصريم ، أنهم قالوا عند رؤيتهم إياها (قالوا ياويلنا إنا كنا ظالمين) فهى كلمة تقال عند نزول المصائب ، وعند التقبيح .

وقال الفخر الرازى : أصل الويل لفظة السخط والدم ، وأصلها

وى لفلان ، ثم كثرت فى كلامهم فوصلت باللام ، ويقال : ويح بالحاء للترحم اهـ.

ومما يدل لقول الرازى أيضاً قول قارون (ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) .

ومثله للتعجب فى قوله : (قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا) .

وقوله : (قال ياويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى) .

فالظاهر : أنها كلمة تقال عند الشدة والهلكة ، أو شدة التعجب مما يشبه المستبعد .

والذى يشهد له القرآن : هو هذا المعنى ، وسبب الخلاف قد يرجع لمجيئها تارة مطلقة كقوله : (ويل يومئذ للمكذبين) ، وهنا (ويل لكل همزة لمزة) .

ويجىء مع ذكر مايتوعد به كقوله : (فويل للذين كفروا من النار) ، وقوله : (فويل للذين ظلموا من عذاب يوم ألم) ، فذكر النار والعذاب الأليم .

وكذلك قوله : (فويل للذين ظلموا من مشهد يوم عظيم) ، فهى فى هذا كله للوعيد الشديد ، مما ذكر معها من النار والعذاب الأليم ومشهد يوم عظيم ، وليست مقصودة بذاتها دون ماذكر معها ، والعلم عند الله تعالى .

وقوله : (همزة لمزة) قيل : هما بمعنى واحد ، وهو الغيبة .

وأنشد ابن جرير قول زياد الأعجم :

تدلى بودى إذا لاقيتنى كذبا وإن أغيب فأنت الهامز الهمزه

وعزا هذا لابن عباس ، وهو الذى يصيب الناس ويطعن فيهم .

وقد جاء فى القرآن استعمال كل من الكلمتين مفردة عن الأخرى ، بما يدل على المغايرة .

ففى الهمزة قوله : (ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم) مما يدل على الكذب والنميمة .

وفى الهمزة قوله تعالى : (ولا تلمزوا أنفسكم ولاتنابزوا بالألقاب) .

وقوله : (ومنهم من يلمزك فى الصدقات) مما يدل على أنها أقرب للتنقص والعيب فى الحضور لا فى الغيبة ، فتغاير الهمز فى المعنى ، وفى

الصفة ، والجمع بينهما جمع بين القبيحين ، فكان مستحقاً لهذا الوعيد الشديد بكلمة ويل .

وقد قيل : الهمز باليـد : وقيل : باللسان فى الحضرة ، والهمز فى الغيبة .

وقيل : الهمز باليد ، واللمز باللسان ، والغمز بالعين ، وكلها معان متقاربة تشترك فى تنقص الآخرين .

قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾ .

هذا الوصف يشعر بأنه علة فيما قبله ، إذ الموصول هنا يدل من كل المتقدمة ، وليس العيب فى جمع مالا بل فى عدده . يحسب أن ماله أخلده . وفى عدده عدة معان :

قيل : عده كل وقت وآخر ، تحفظاً عليه .

وقيل : عدده كنزه

وقيل : عدده أعده للحاجة .

وقرىء : جمّع وعدّد بالتشديد وبالتخفيف . والمراد به من لم يؤد حق الله فيه شحاً وبخلا ، كما تقدم فى سورة (ألهاكم التكاثر) .

قولة تعالى ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ .

هذا الحسبان هو المذموم عليه ، والمنصب عليه الوعيد ، لأنه كفر بالبعث . كما قال صاحب الجنة فى الكهف (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال : ما أظن أن تبيد هذه أبداً ، وما أظن الساعة قائمة) .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾ .

كلا : ردع وزجر له على حسبانه الباطل ، ولينبذن فى جواب قسم محذوف دل عليه قوله : كلا .

وهذا يفسره ماتقدم فى قوله : (فأمه هاوية) أى ينبذ نبذا ، فيهوى على أم رأسه . عياذاً بالله .

والحطمة : فعلة من الحطم ، وهو الكسر ، ثم الأكل الكثير .

وقد فسرت بما بعدها (نار الله الموقدة) ، وسميت « حطمة » لأنها تحطم كل ما ألقى فيها ، وتقول : هل من مزيد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ .

قيل : مؤصدة فى عمد . بأن العمد صارت وصداً للباب كالقفل ، والغلق له .

وقيل : فى عمد : أنهم يدخلون فى عمد كالقصبة ، مجوفة الداخل .

وقيل : فى عمد : أى توضع أرجلهم فى العمد على صورة القيد فى الخشبة المقيدة ، يشد فيها عدد من الأشخاص فى أرجلهم

وكنت سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى ذلك : أن العمد بمعنى القصبة المجوفة تضيق عليهم ، كما فى قوله : (وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا) .

فيكون أرجح فى هذا المعنى .

وقد نص عليه فى إملائه رحمة الله تعالى علينا وعليه .

بسم الله الرحمن الرحيم

١٩

سورة الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ .

اختلف فى معنى السجيل هنا .

فقال قوم : هو السجين ، أبدلت النون لاما ، والسجين النار .

وقيل : إن السجيل من السجل ، كأنه علم للديوان الذى كتب فيه عذاب الكفار ، كما أن سجينا لديوان أعمالهم واشتقاقه من الإسجال وهو الإرسال ، ومنه السجل الدلو المملوء ماء ، وهى حجارة مرسلة لقوله (وأرسل عليهم طيراً أبابيل) .

وقوله : إن سجينا ، ء ديوان أعمالهم ، يعنى قوله تعالى : (كلا إن كتاب الفجار لفى سجين) .

وقيل : معنى سجيل ستك وطين ، يعنى بعض حجر وبعض طين .

وقيل : معناه الشديد .

وقيل : السجيل اسم لسماء الدنيا .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، ترجيح أنها من طين شديد القوة .

وهذا مايشهد له القرآن لما فى سورة الذاريات (قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ، لنرسل عليهم حجارة من طين ، مسومة عند ربك للمسرفين) فنص على أنها من طين .

والحجارة من الطين : هى الآجر وهو الطين المطبـــوخ حتى يتحجر .

وجاء النص الآخر أنها من سجيل منضوض فى قوله : (فلما جاء أمرنا جعلنـا عاليها سافلهـا وأمطرنا عليها حجـارة من سجيل منضود) .

وقيل فيها : كالحصة والعدسة ، والضمير فى عليهم راجع لأصحاب الفيل ، وقصتهم طويلة مشهورة .

تنبيـــه

قد أوردنا نصوص معنى سجيل ، وترجيح الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه : أنها حجارة من طين شـديد القوة تنبيهـاً على ماقيل من استبعاد ذلك ، ورداً على من صرف معناها إلى غير الحجـارة المحسوسة .

أما من استبعدها ، فقد حكاه الفخر الرازى بقوله : واعلم أن من الناس من أنكر ذلك .

وقالوا : لو جوزنا أن يكون فى الحجارة التى تكون مثل العدسة من الثقل مايقوى به على أن ينفذ من رأس الإنسان ويخرج من أسفله، لجوزنا أن يكون الجبل العظيم خالياً عن الثقل ، وأن يكون فى وزن القبنة ، وذلك يرفع الأمان عن المشاهدات .

فإنه متى جاز ذلك فليجز أن يكون بحضرتنا شموس وأقمار ، ولا نراها ، وأن يحصل الإدراك فى عين الضرير ، حتى يكون هو بالمشرق ، ويرى قطعة من الأرض بالأنداس ، وكل ذلك محال .

ثم قال : واعلم أن ذلك جائز فى مذهبنا ، إلا أن العادة جارية بأنها لاتقع .

وهذا القول يحكيه الفخر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ ستمائة وست ، فنرى استبعادهم إياها مبنى على تحكيم العقل ، وهذا باطل لأن خوارق العادات دائماً فوق قانون العقل ، بل إن تصورات العقل نفسه منشؤها من تصوراتنا لما نشاهده .

وإذا حدث العقل بما لم يشهده أو يعلم كنه وجوده لاستبعده كما هو فى واقعنا اليوم ، لو حدثت به العقول سابقا من نقل الحديث ، والصورة على الأثير ، وتوجيه الطائرات وأمثالها ، لما قوى على تصورها لأنها فوق نطاق محسوساته ومشاهداته .

وحتى نحن لو لم يسايرها من علم بما يحمله الأثير من تيار كهربائى ، وما له من دور فعال فى ذلك لما أمكننا تصوره ، ثم من يمنع شيئاً من ذلك على قدرته تعالى .

وقد أخبرنا أن تلك الجبال سيأتى يوم تكون فيه كالعهن المنفوش أخف من التبنة ، التى مثلوا بها ، بل ستكون أقل من ذلك ، كما قال تعالى : (وسيرت الجبال فكانت سرابا) ، فظهر بطلان هـذا القول الذى استبعدها لعدم إدراك العقل لها .

أما من يؤول هذا المعنى إلى معنى آخر ، فهو قريب من الأول من حيث المبدأ ، إلا أنه أثبت الأصل وفسره بما يتناسب والعقل .

وهو محكى عن الإمام محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا ، إذ فسرا الحجارة من سجيل ، بأنه وباء الجدرى .

وبالتالى : فالطير الأبابيل : هى البعوض وما أشبهه .

وقد اعتذر له السيد قطب : بأن الدافع لذلك هو ما كان شائعاً فى عصره من موجات متضـاربة ، موج انحراف فى التفكير نحو الإسلام واستغلال الإسرائيليات ، كمثال على مايشبه الأباطيل فى تشويه حقائق الإسلام عند غير المسلمين .

ومن ناحية أخرى طوفان علمى حديث ، من إنتاج العقل البشرى فبدلا من أن تثبت حادثة كهذه صرفت إلى ما يألفه العقل من إيقاع ميكروب الجدرى بجيش أبرهة حتى أهلكه ، لكى لا يتصادم فى إثبات الحادثة على ما نص عليه القرآن بواقع العقلية العلمانية الحديثة .

هذا ملخص ما اعتذر به السيد قطب عن هذا القول .

ولكن من الناحية العلمية والنصوص القرآنية ، فقد تقدم : أن الحجارة التى من سجيل ، جاء النص على أنها ليست خاصة بهؤلاء القوم ، بل ألقيت على قوم لوط ، بعد أن جعل عاليها سافلها ، فما موقع الجدرى منهم بعد إهلاكهم بإفكها المذكور ؟

ثم جاء أيضاً : أنها من طين ، فأين الطين من الجراثيم الجدرية ؟

ومن الناحية العلمية : من أين جيء بميكروب الجدرى ؟ وأين كان قبل أن تأتى به الطير الأبابيل ؟

ومتى كان ميكروب الجدرى أو غيره ، يميز بين قرشى وحبشى ؟

ومتى كان أى ميكروب يفتك بقوم وبسرعة ، يجعلهم كعصف مأكول ، مع أن : فجعلهم ، تشعر بالسرعة فى إهلاكهم ، والعصف اليابس الذى تعصف به الريح لخفته .

ومتى كان وجود الجدرى طفرة وفجاءة ، إنه يظهر فى حالات فردية ، ثم ينتشر هذا من الناحية العلمية ، وإدراك العقل ، لما عرف من ميكروب الجدرى .

ولكن ملابسات الحادثة تمنع من تصور ذلك عقلا لعدم انتشاره فى جميع أفراد المنطقة ، ولعدم تأثيره فعلا بهذه الصورة ، ولعدم أيضاً تصور مجيئه فجاءة ، فدل العقل بنفسه على عدم صحة هذا القول .

ثم من ناحية أخرى إذا رددنا خوارق العادات لعدم تصور العقل لها ، فكيف نثبت مثل : حنين الجذع ، ونبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك ، وتسبيح الحصى فى كفه صلوات الله وسلامه عليه ؟

وقد شاهد العقل الصورة القصوى ، وهى خروج الناقة من الصخرة لقوم صالح ، بل إننا الآن بالحس والعقل نشاهد مالاندرك كنهه فى وسائل الإعلام ، ونسمع الصوت من الجماد مسجلا على شريط بسيط جداً .

فهل ينفى الباقى ؟ بل كيف أثبت النصارى عيسى ابن مريم عليه السلام إبراء الأكمه والأبرص . وإحياء الموتى ، وعمل الطير من الطين ، ثم ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله .

وكيف أثبت اليهود لموسى أمر العصا وشق البحر ؟ وأين العقل من ذلك كله ؟

الواقع أننا فى كل زمان ومع كل قضية ، يجب أن نلتزم جانب الاعتدال، لا هو جرى وراء كل خبر ، ولو كان إسرائيلياً ولا هو رد لكل نص ولو كان صريحا قرآنيا ، بل كما قال السيد قطب فى ذلك :

يجب أن نستمد فكرنا من نصوص القرآن ، وأن مايقرره نعتقده ونقول به .

وقد ناقشنا هاتين الفكرتين القديمة التى استبعدت ذلك كلية ، والحديثة التى أولتها .

ونضيف شيئاً آخر فى جانب الفكرة الثانية ، وهى لعل مما حدا بأصحابها إلى ذلك ماجاء عن قتادة قوله : إنه لم ير الجدرى بأرض العرب مثل تلك السنة .

وقيل أيضاً : لم ير شجر الحنظل ، إلا فى ذلك التاريخ .

فيقال أيضاً : إن العقل لايستبعد هنا أن يكون إهلاك هذا الجيش الكبير بقلك الحجارة فى مكان معسكره فى بطن الوادى ، ووقوع

الجثث مصابة بها ، لا يمنع أن تتعفن ثم يتولد منها مكروب الجدرى ، ولا مانع من ذلك . والعلم عند الله تعالى .

تنبيـــه آخر

قالوا : إن أصحاب هذا الجيش نصارى وهم أهل دين وكتاب ، وأهل مكة وثنيون لادين لهم ، والكعبة ممتلأة بالأصنام ، فكيف أهلك الله النصارى أصحاب الدين ولم يسلطهم على الوثنيين ؟

وأجيب عن ذلك بعدة أجوبة .

منهـا : أن الجيش ظالم باغ ، والبغى مرتعه وخيم ، ولو كان المظلوم أقل من الظـالم ، ويشهد لذلك الحديث « فى نصرة المظلوم ، واستجابة دعوته ولو كان كافرا » .

ومنها : أن الوثنية اعتداء على حق الله فى العبادة ، وغزو هـذا الجيش اعتداء على حقوق العباد .

ومنها : أنه إرهاص لمولد النبى صلى الله عليه وسلم ، إذ ولد فى هذا العام نفسه .

وكلها وإن كانت لها وجه من النظر ، إلا أنه يبدو لى وجه ه

وهو أن الأصل فى نشأة البيت وإقامته ، إنما هو الله رفع قواعده وأقام الصلاة فى رحابه ، وكان طاهراً مطهراً للعاكفين فيه والركع السجود ، وإنما الوثنية طارئة عليه وإلى أمد قصير مداه ودنا منتهاه ، لدين جديد .

والمسيحية بنفسها تعلم ذلك وتنص عليه وتبشر به ، فكانت معتدية على الحقين معاً ، حق الله فى بيته ، والذى تعلم حرمته وماله ، وحق العباد الذين حوله .

وكانت لو سلطت عليه بمثابة المنتصرة على مبدأ صحيح ، مع فسادها مبدأ صحة وسلامة بناء البيت ، ووضعه البيت الذى من خصائصه أن يكون مثابة للناس وأمنا .

فكيف لايأمن هو نفسه من غزو الغزاة وطغيان الطغاة ، فصانه الله تعالى صيانة لمبدإ وجوده ، وحفاظا على أصل وضعه فى الأرض ، ويكفى نسبته لله بيت الله .

وقد أدرك أبوطالب هذا المعنى بعينه إذ قال لأبرهة :

أنا رب الإبل وللبيت رب يحميه . وأتى باب الكعبة فتعلق بها وقال :

لاهم إن العبد يمنـــــع رحله فامنع حلالك

لا يغلبن صليبهـــــم ومحالهم عدوا بوالك
إن يدخلوا البلد الحرا م فأمـر مابدا لك

وقيل : إنه قال :

يارب لا أرجو لهم سواكا يارب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا إنهم ان يقهروا قواكا

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ . إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴾ .

اختلف فى اللام فى لإيلاف قريش ، هل هى متعلقة بما قبلها ، وعلى أى معنى . أم متعلقة بما بعدها ، وعلى أى معنى .

فمن قال : متعلقة بما قبلها ، قال متعلقة بجعل فى قوله : (فجعلهم كعصف مأكول)

وتكون بمعنى لأجل إيلاف قريش يدوم لهم ويبقى تعظيم العرب إياهم ، لأنهم أهل حرم الله ، أو بمعنى إلى أى جعلنا العدو كعصف مأكول ، هزيمة له ونصرة لقريش نعمة عليهم ، إلى نعمة إيلافهم رحلة الشتاء والصيف .

ومن قال : متعلقة بما بعدها ، قال لإيلاف قريش إيلافهم الذى

ألفوه أى بمثابة التقرير له ، ورتب عليه ، فليعبدوا رب هذا البيت . أى أثبته إليهم وحفظه لهم .

وهذا القول الأخير هو اختيار ابن جرير ، ورواه ابن عباس ، ورد جواز القول الأول ، لأنه يلزمه فصل السورتين عن بعض .

وقيل : إنها للتعجب ، أى اعجبوا لإيلاف قريش ، حكاه القرطبي عن الكسائى والأخفش ، والقول الأول لغيره .

وروى أيضاً عن ابن عباس وغيره ، واستدلوا بقراءة السورتين معاً فى الصلاة فى ركعة قرأ بهما عمر بن الخطاب ، وبأن السورتين فى أبى بن كعب متصلتان ، ولا فصل بينهما .

وحكى القرطبي القولين ، ولم يرجح أحدهما ، ولا يبعد اعتبار الوجهين لأنه لا يعارض بعضها بعضاً .

وما اعترض به ابن جرير بأنه يلزم عليه اتصال السورتين فليس بلازم ، لأنه إن أراد اتصالهما فى المعنى ، فالقرآن كله متصلة سوره معنى .

ألا ترى إلى فاتحة الكتاب وفيها (اهدنا الصراط المستقيم) فجاءت سورة البقرة : (ذلك الكتاب لا ريب فيه) وبعدها ذكر

أوصافهم وقال (أولئك على هدى من ربهم) فأى ارتباط أقوى من هذا ، كأنه يقول : الهدى الذى تطلبونه فى هذا الكتاب فهو هدى للمتقين ، وإن إراد اتصالا حسناً بعدم البسملة ، فنظيرها سورة براءة مع الأنفال ، ولكن لا حاجة إلى ذلك ، لأن إجماع القراء على إثبات البسملة بينهما ، اللهم إلا مصحف أبى بن كعب ، وليس فى هذين الوجهين وجه أرجح من وجه .

ولذا لم يرجح بينهما أحد من المفسرين ، سوى ابن جرير رحمه الله :

وصحة الوجهين أقوى وأعم فى الامتنان وتعداد النعم .

والإيلاف : قيل من التأليف ، إذ كانوا فى رحلتيهم يألفون الملوك فى الشام واليمن ، أو كانوا هم فى أنفسهم مؤلفين ومجمعين ، وهو امتنان عليهم بهذا التجمع والتألف ، ولو سلط عليهم لفرقهم وشتتهم ، وأنشدوا :

أبونا قصى كان يدعى مجمعاً به جمع الله القبائل من فهر

وقيل : من الألف والتعود ، أى ألفوا الرحلتين .

فللابقاء لهم على ما ألفوه وقريش . قال أبو حيان : علم على القبيلة .

وقيل : أصلها من القرش ، وهو الاجتماع أو التكسب والجمع .

وقيل : من دابة البحر المسماة بالقرش وهى أخطر حيواناته ، وهو مروى عن ابن عباس فى جوابه لمعاوية .

وأنشد قول نه :

وقريش هى التى تسكن البحـــــر بها سميت قريش قريشاً
تأكل الرث والسمين ولا تترك فيها لذى جناحين ريشا
هكذا فى البلاد حى قريش يأكلون البلاد أكلا كميشا
ولهـــم آخر الزمان نبى يكثر القتل فيهم والخموشا

وقوله تعالى : (رحلة الشتاء والصيف) هو تفسير لإيلاف سواء على ما كانوا يؤالفون بين الملوك فى تلك الرحلات ، أو ما كانوا يألفونه فيهما .

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾ .

المراد بالبيت : البيت الحرام ، كما جاء فى دعوة إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم) .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ .

بمثابة التعليل لموجب أمرهم بالعبادة ، لأنه سبحانه الذى هيأ لهم هاتين الرحلتين اللتين كانتا سبباً فى تلك النعم عليهم ، فكان من واجبهم أن يشكروه على نعمه ويعبدوه وحده .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان هذا المعنى ، عند قوله تعالى : (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) وساق النصوص بهذا المعنى بما أغنى عن إعادته .

تنبيـــه

فى قوله تعالى : (فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) ربط بين النعمة وموجبها ، كالربط بين السبب والمسبب .

ففيه بيان لموجب عبادة الله تعالى وحده ، وحقه فى ذلك على عباده جميعاً ، وليس خاصاً بقريش .

وهذا الحق قرره أول لفظ فى القرآن ، وأول نداء فى المصحف ،

فالأول قوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين) كأنه يقول هو سبحانه مستحق للحمد ، لأنه رب العالمين ، أى خالقهم ورازقهم ، وراحمهم إلى آخره .

والثانى : (يا أيها الناس ، اعبدوا ربكم) .

ثم بين الموجب بقوله : (الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) .

ثم عدد عليهم نعمه بقوله : (الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) .

فهذه النعم تعادل الإطعام من جوع ، والأمن من خوف ، فى حق قريش ، ومن ذلك قوله تعالى : (إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر) .

وقد بين تعالى أن الشكر يزيد النعم والكفر يذهبها ، إلا ما كان استدراجا ، فقال فى شكر النعمة : (لئن شكرتم لأزيدنكم) .

وقال فى الكفران وعواقبه : (وضرب الله مثلا قرية كانت

آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) .

وبهذه المناسبة إن على كل مسلم أفراداً وجماعات ، أن يقابلوا نعم الله بالشكر ، وأن يشكروها بالطاعة والعبادة لله ، وأن يحذروا كفران النعم .

تنبيـــه آخر

فى الجمع بين إطعامهم من جوع وأمنهم من خوف ، نعمة عظمى . لأن الإنسان لا ينعم ولا يسعد إلا بتحصيل النعمتين هاتين معاً ، إذ لا عيش مع الجوع ، ولا أمن مـــع الخوف . وتكمل النعمة باجتماعهما .

ولذا جاء الحديث « من أصبح معافى بدنه آمنا فى سربه عنده قوت يومه ، فقد اجتمعت عنده الدنيا بحذافيرها » .

تنبيـــه آخر

إن فى هذه السورة دليلا على أن دعوة الأنبياء مستجابة ، لأن الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة السلام دعا لأهل الحرام بقوله :

(فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات) .

وقال : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك) فأطعمهم الله من جوع وآمنهم من خوف ، وبعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياته .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الماعون

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ . فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ . وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ .

الذى يكذب بالدين ، فيه اسم الموصول مبهم بينه مابعده ، وهو الذى يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين .

وقد بين تعالى فى آية أخرى ، أن الإيمان بيوم الدين يحمل صاحبه على إطعام اليتيم والمسكين ، فى قوله تعالى : (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيرا) .

ثم قال مبيناً الدافع على إطعامهم إياهم : (إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا) .

وهنا سؤال : وهو لم خص المكذبين بيوم الدين عمن يرتكب هذين الأمرين دع اليتيم ، وهو دفعه وزجره ، وعدم الحض على إطعام المسكين ، وبالتالى عدم إطعامه هو من عنده ؟

والجواب : أنهما نموذجان ، ومثالان فقط .

والأول منهما : مثال للفعل القبيح .

والثانى : مثال للترك المذموم .

ولأنهما عملان إن لم يكونا إسلاميين فهما إنسانيان ، قبل كل شىء .

وفى الآية الأخرى توجيه للجواب ، وهو أن المؤمن يخاف من الله يوماً عبوساً ، وعبر بالعبوس فى حق يوم القيامة ، لئلا يعبس هو فى وجه اليتيم والمسكين لضعفهما .

ومن جانب آخر فإن كان التكذيب بيوم الدين ، يحمل على كل الموبقات ، إلا أنها قد تجد مايمنع منها ، كالقتل والزنى والخمر لتعلق حق الآخرين ، وكذلك السرقة والنهب .

أما إيذاء اليتيم وضياع المسكين ، فليس هناك من يدفع عنه ، ولايمنع إيذاء هؤلاء عنهما ، وليس لديهما الجزاء الذى ينتظره أولئك منهم على الإحسان إليهم

وجبلت النفوس على ألا تبذل إلا بعوض ، ولا تكف إلا عن خوف ، فالخوف مأمون من جانبى اليتيم والمسكين ، والجزاء غير مأمول منهما ، فلم يبق دافع للاحسان إليهما ، ولا رادع عن الإساءة

لهما إلا الإيمان بيوم الدين والجزاء ، فيحاسب الإنسان على مثقال الذرة من الخير .

وقيل : إن دع اليتيم : هو طرده عن حقه ، وعدم الحض على طعام المسكين : عدم إخراج الزكاة .

ولكن فى الآية مايمنع ذلك ، لأن الزكاة إنما يطالب بها المؤمن والسياق فيمكن يكذب بيوم الدين فلا زكاة .

قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ . ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ .

اختلف فى المصلين الذين توجه إليهم الوعيد بالويل هنا .

والجمهور : على أنهم الذين يسهون عن أدائها ، ويتساهلون فى أمر المحافظة عليها .

وقيل : عن الخشوع فيها وتدبر معانيها .

ولكن الصحيح أنه الأول .

وقد جاء عن عطاء وعن ابن عباس أنهما قالا : الحمد لله الذى قال عن صلاتهم ، ولم يقل فى صلاتهم ، كما أن السهو فى الصلاة لم يسلم منه أحد ، حتى أنه وقع من النبى صلى الله عليه وسلم لما سلم من ركعتين فى الظهر كما هو معلوم من حديث ذى اليدين ، وقال : « إنى

لا أنسى ، ولكنى أنسى لأسنّ » فكيف ينسيه الله ليسنّ للناس أحكام السهو ، ويقع الناس فى السهو بدون عمد منهم .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه » .

وقد عقد الفقهاء باب سجود السهو تصحيحاً لذلك .

لذلك بقى من المراد بالذين هم عن صلاتهم ساهون .

قيل : نزلت فى أشخاص بأعيانهم .

وقيل : فى كل من أخّر الصلاة عن أول وقتها ، أو عن وقتها كله ، إلى غير ذلك ، أو عن أدائها فى المساجد وفى الجماعة .

وقيل : فى المنافقين .

وفى السورة تفسير صريح لهؤلاء ، وهو قوله تعالى : (الذين هم يراءون ويمنعون الماعون) .

والمرائى فى صلاته قد يكون منافقاً ، وقد يكون غير منافق .

فالرياء أعم من جهة ، والنفاق أعم من جهة أخرى ، أى قد يرائى فى عمل ما ، ويكون مؤمناً بالبعث والجزاء وبكل أركان الإيمان ، ولا يرائى فى عمل آخر ، بل يكون مخلصاً فيه كل الإخلاص .

والمنافق دائماً ظاهره مخالف لباطنه فى كل شىء ، لا فى الصلاة فقط .

ولكن جاء النص : بأن المراءاة فى الصـــلاة ، من أعمال المنافقين .

وجاء النص أيضاً . بأن منع الماعون من طبيعة الإنسان إلا المصلين ، كما فى قوله تعالى : (إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين) .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان السهو عنها وإضاعتها عند قوله تعالى : (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غياً ، إلا من تاب) الآية .

وبيّن فى آخر المبحث تحت عنوان : مسألة فى حكم تارك الصلاة جحداً أو كسلا . وزاده بياناً ، عند قوله تعالى : (والذين هم على صلاتهم يحافظون) فى دفع إيهام الاضطراب للجمع بين هـذه الآية وآية (ما سلككم فى سقر) .

وذكر قول الشاعر :

* دع المساجد للعباد تسكنها *

على ما سنذكره بعد ، ثم نبه قائلا : إذا كان الوعيد عمن يسهو عنها فكيف بمن يتركها ؟! اهـ .

وقد تساءل بعض المفسرين عن موجب اقتران هذه الآية بالتى قبلها .

وأجابوا : بأن الكل من دوافع عدم الإيمان بالبعث ، ومن موجبات التكذيب بيوم الدين ، فهى مع ما قبلها فى قوة ، فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ، وعن صلاتهم ساهون ، فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون .

فجمعهم مع الأول ، ونص على وعيده الشديد ، وبيَّن وصفاً ولهم ، وهو أنهم يمنعون الماعون .

تنبيـــه

فى هذه السورة ، وفى آية (والذين هم على صلواتهم يحافظون) التى هى من صفات المؤمنين معادلة كبيرة .

إحداها : فى المنافقين تاركى الصلاة أو مضيعيها .

ولأخرى فى المؤمنين المحافظين عليها ، أى أن الصلاة هى المقياس والحد الفاصل .

وعليه قوله صلى الله عليه وسلم : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمن ترك الصلاة فقد كفر » .

أما أثر الصلاة فى الاسلام ، وعلى الفرد والجماعة ، فهى أعظم من أن تذكر .

وقد وجدنا بعض آثارها وهو المراءاة فى العمل ، أى ازدواج الشخصية والانعزال فى منع الماعون ، أى لا يمد يد العون ولو باليسير لمجتمعه الذى يعيش فيه ، وقد جاءت نصوص صريحة فى مهمة الصلاة عاجله وآجلة .

فى العاجل قوله تعالى : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) ، ومن الفحشاء : دع اليتيم وعدم إطعام المسكين ، فى الدرجة الأولى .

ومنها : كل رذيلة منكرة ، فهى إذن سياج للإنسان يصونه عن كل رذيلة ، وهى عون على كل شديدة ، كما قال تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة) فجعلها قرينة الصبر فى التغلب على الصعاب ، وهى فى الآخرة نور ، كما قال تعالى : (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) الآية . مع قوله صلى الله عليه وسلم : « إن أمتى يأتون يوم القيامة غراً محجلين من أثر الوضوء » .

وقوله (يمنعون الماعون) قيل : فى الماعون الزكاة لقلتها ،

والماعون : القليل ، والماعون : المال فى لغة قريش .

وقيل : هو ما يعين على أى عمل ، ومنه الدلو والفأس والإبرة والقدر . ونحو ذلك .

وإذا كان السهو عن الصلاة يحمل على منع الماعون ، فإن من يمنع الماعون وهو الآلة أو الإناء يقضى به الحاجة ثم يرد ، كما هو بدون نقصان ، فلأن يمنع الصدقة أو الزكاة من باب أولى .

ومن هنا : لم يكن المنافق ليزكى ماله ولا يتصدق على محتاج ، بل ولا يقرض آخر قرضاً حسناً . ولذا نجد تفشى الربا فى المنافقين أشد وأكثر .

وهنا يأتى مبحثان :

الأول منهما : حكم الرياء وما حده ؟

والثانى : حكم العارية .

أما الرياء : فقيل هو مشتق من الرؤية ، والمراد به إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمد عليها ، وقد جاء فى الحديث تسميته الشرك الخفى : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفى ،

قالوا : وما الشرك الخفى يا رسول الله ؟ قال : الرياء ، فإنه أخفى فى نفوسكم من دبيب النمل » .

وجاء قوله تعالى : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

وبيان الشرك فيه أنه يعمل العمل مما هو أصلا لله ، كالصلاة أو الصدقة أو الحج ، ولكنه يظهره لقصد أن يحمده الناس عليه .

فكأن هذا الجزء منه مشاركة مع الله ، حيث أصبح من عمله جزء لطلب الثناء من الناس عليه .

وقد جاء حديث أبى هريرة عند مسلم : يقول الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملا أشرك معى غيرى تركته وشركه » .

أما حكم الرياء فى العمل ، ففى هذا النص دلالة على رد العمل على صاحبه ، وتركه له .

فقيل : إنه يكون لا له فيه ، ولا عليه منه .

. . ل : لا يخلو من ذم ، كما حذر الله تعالى منه بقوله :

(ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس) .

وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من راءى راء الله به ، ومن سمع سمع الله به » رواه مسلم .

والتسميع : هو العمل ليسمع الناس به كما فى حديث الوليمة « فى اليوم الأول والثانى والثالث سمعة . ومن سمع سمع به » .

فالرياء مرجعه إلى الرؤية ، والتسميع مرجعه إلى السماع .

ومعلوم أنها نزلت فى قريش يوم بدر ، وقد أحبط الله عملهم ، وردهم على أعقابهم .

وفى حديث أبى هريرة . وقيل : إنه محبط للأعمال لمسمى الشرك لقوله تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به) .

وأجيب : بأنه يحبط العمل الذى هو فيه فقط ، فإن راءى فى الصلاة أحبطها ولا يتعدى إلى الصوم ، وإن راءى فى صلاة نافلة لا يتعدى إحباطها إلى صلاة فريضة ، وهكذا ، قد يبدأ عملا خالصاً لله ، ثم يطرأ عليه شبح الرياء ، فهل يسلم له عمله أو يحبطه ما طرأ عليه من الرياء ؟

فقالوا : إن كان خاطرا ودفعه عنه فلا يضره ، وإن استرسل معه . فقد رجح أحمد وابن جرير ، عدم بطلان العمل نظراً لسلامة القصد ابتداء .

ودليلهم فى ذلك : ما روى أبو داود فى مراسيله عن عطاء الخراسانى أن رجلا قال : يا رسول الله ، إن بنى سلمة كلهم يقاتل ، فمنهم من يقاتل للدنيا ، ومنهم من يقاتل نجدة ، ومنهم من يقاتل ابتغاء وجه الله تعالى قال : « كلهم إذا كان أصل أمره ، أن تكون كلمة الله هى العليا »

وذكر عن ابن جرير : أن هذا فى العمل الذى يرتبط آخره بأوله ، كالصلاة والصيام .

أما ما كان مثل القراءة والعلم ، فإنه يلزمه تجديد النية الخالصة لله ، أى لأن كل جزء من القراءة ، وكل جزء من طلب العلم مستقل بنفسه ، فلا يرتبط بما قبله .

وهناك مسألة : وهى أن العبد يعمل العمل لله خالصاً ، ثم يطلع عليه بعض الناس ، فيحسنون الثناء عليه فيعجبه ذلك . فلا خلاف أنه ليس من الرياء فى شىء لما جاء فى حديث أبى ذر رضى الله عنه ، أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن الرجل يعمل من الخير يحمده الناس

عليه ، فقال صلى الله عليه وسلم « عاجل بشرى المسلم » رواه مسلم .

وقد ذكر بعض العلماء : أن من كان يعمل عملا خفياً ، ثم حضر بعض الناس فتركه من أجلهم خشية الرياء ، أنه يدخل فى الرياء ، لأنه يضعف فى نفسه أن يخلص النية لله ، وفى هذا بُعد ومشقة .

أما منع الماعون وإعطاؤه ، وهو العارية كما تقدم .

فإن مبحث العارية فى ناحيتين : ما هى العارية ، والثانى : حكمها أواجب أم مباح ، وحكم ضمانها مضمونة أم لا ؟

أما تعريفها عند الفقهاء : هى إباحة الانتفاع بعين من أعيان المال ، مع بقاء عينه .

وقولهم مع بقاء عينه : كالقدر والفأس والإبرة والمنخل ، ونحو ذلك ، بخلاف مايكون إتلافه فى استعماله ، كالشمع للاضاءة ، والزيت للدهن ، والكحل للاكتحال ، ونحو ذلك ، مما تنفد عينه باستعماله ، فلا يكون عارية ، ولكن يكون قرضا ، وقرض يكون معاوضته بمثله .

أما حكم العارية . فقيل : جائز .

وقيل : بل واجب .

وقيل : مستحب .

وحكى ابن قدامة الإجماع على استحبابها ، ودليل من قال بالوجوب بنص الآية : (ويمنعون الماعون) ولحديث أبى هريرة رضى الله عنه فى حق الإبل لما ذكر الزكاة « وأن حقها إعارة دلوها ، وإطراق فحلها ، ومنحه لبنها ، يوم ورودها » .

والواقع أن هذا الحديث ذكر فيه ماليس بعارية قطعا ، مثل طرق الفحل ومنح اللبن ، مما يضعف الاستدلال به .

وقد ساق المجد فى المنتقى برواية أحمد ولهم .

أما الوعيد فى الآية فقالوا : هو منصب على الصفات الثلاث : السهو عن الصلاة ، والرياء فى العمل ، ومنع الماعون جميعا ، ومن اتصف بواحد فله قدره من الوعيد بحسبه .

وأقل مايقال فيها ماجاء فى قوله تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى) والحديث الصحيح فى حق الزكاة ، لما ذكر صلى الله عليه وسلم الذهب والفضة والإبل والبقر والخيل ، وقال : « ولا ينسى حق الله فى ظهرها » .

ثم سئل عن الحمر ، فقال : « لم أجد إلا الآية الشاذة الفاذة : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) » .

وإعارة المتاع إباحة المنفعة وهى خير كثير .

والحديث الآخر : « لايحل مال امرىء مسلم إلا عن طيب نفس »

ونقل الشوكانى عن الكشاف قولا : أنها تكون واجبة عند الاضطرار ، وقبيح فى غير الضرورة مروءة . اهـ .

والضرورة : مثل الدلو إذا وردت الماء ولا دلو معك ، وفى اضطرار إلى الماء .

وقياس الفقهاء : أنه لو تلف شيء بسبب ذلك لضمن المانع .

كما قالوا فى الامتناع فى بعض الصور : هل هو فعل أم ترك ؟ مثل من كان عنده خيط ، واحتيج إليه فى خياطة جرح إنسان ، أو قطنة فات ، فهل يعد ترك إعطاء الخيط مجرد ترك لايؤاخذ عليه، أو يعتبر فعلا لأنه تسبب عنه موت إنسان . ومثله منع الدلو ليروى أو يسقى إبله أو يشرب هو ؟

والصحيح عندهم : أن الترك فى مثل هذه الحالة يؤاخذ عليه مؤاخذة الفعل ، كما قال صاحب مراقى السعود .

* والترك فعل فى صحيح المذهب *

وهنا مايشهد له الاستعمال العربى الصحيح ، كما قيل فى بناء المسجد :

لئن قعدنا والنبى يعمل لذاك منا العمل المضلل

فسمى القعود عن العمل عملا مضللا ، فتحصل من هذا أن العارية مستحبة شرعا ومروءة وعرفا فى حالة الاختيار ، وواجبـــة فى حالة الاضطرار ، مع ملاحظة أن حالات الاستعارة أغلبها اضطرار ، إلا أن حالات الاضطرار تتفاوت ظروفها .

وقد امتدح الله الأنصار بأنهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، فالعارية من باب أولى ، لأنه ينتفع بها وترد لصاحبها .

وقد امتدح الشاعر القوم بعدم منعهم الماعون ، بقوله :

قوم على الإسلام ولما يمنعوا ماعونهم ويضيع التهليلا

وإن كان بعض الناس حمل الماعون هنا على الزكاة ، ولكن قول الشاعر : قوم على الإسلام ، يتضمن إخراجهم الزكاة ضمن إسلامهم ، فيكون الباقى امتداد حالهم فى خصوص الماعون .

بقى مبحث ضمانها : تختلف الأقوال فى ضمان العـارية ، فبعضهم يعتبرها أمانة ، وعليه فلا تكون مضمونة وهذا مذهب الحنفية والمالكية ، إذا لم يحصل منه تعد .

وعند الشـافعى وأحمد : أنهـا مضمونة ، إلا إذا كانت على الوجه المأذون فيه .

كما قالوا فى السيف : يستعيره فينكسر فى القتال فلا ضمان فيه .

واستدل من قال بضمانها بالحديث العام « على اليد ما أخذت ، حتى تؤديه » رواه المجد فى المنتقى ، وقال: رواه الخمسة إلا النسائى .

وبحديث صفوان بن أمية ، أن النبى صلى الله عليه وسلم استعار منه يوم حنين أدرعاً قيل ثلاثين ، وقيل ثمانين ، وقيل مائة . فقال: أغصباً يامحمد ؟ قال : « بل عارية مضمونة ، فقال : فضاع بعضها ، فعرض عليه النبى صلى الله عليه وسلم أن يضمنها له ، فقال : أنا اليوم فى الإسلام أرغب » رواه أحمد وأبوداود .

ونص الفقهاء : أن ضمانها بقيمتها يوم تلفت أو بمثلها ، إن كانت مثلية ، ويستدل له بما جاء فى قصعة حفصة لما ضربتها عائشة فسقطت على الأرض فانكسرت ، وانتثر الطعام . فأخذ صلى الله عليه وسلم قصعة عائشة وردها إلى حفصة ، وقال : « قصعة بقصعة ، وطعام بطعام » أى أن الضمان إما بالمثل إن كان مثليا ، أو بالقيمة إن كان متوما .

وإذا كانت العارية مضمونة وحكمها الجواز ، فللمستعير طلب ردها متى شاء ، إلا إذا تعلقت بها مصلحة المستعير ، ولا يمكن ردها إلا بمضرة عليه .

قالوا : كمن أعار سفينـــــة وتوسط بها المستعير عرض البحر ؛

فلا يملك المعير ردها لتعذر ذلك وسط البحر .

وقيل : له طلبها ، وتكون بالأجرة على المستعير ، والأول أرجح .

وكالذى أعار أرضا للزرع ، وقبل أن يستحصد الزرع يطلبها صاحبها ، وهكذا . والله تعالى أعلم .

حكم من جحد العارية

إن حديث المرأة المخزومية مشهور ، وهو أنها كانت تستعير المتاع وتجحده ، فاشتهرت بذلك ، ثم أنها سرقت فقطعت فى السرقة ، لا فى جحد المتاع المستعار ، وهذا هو الأصح . لأن السرقة لاتكون إلا على وجه التخفى ومن حرز .

والاستعارة خلاف ذلك ، وإنما تدخل فى قوله تعالى : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « على اليد ما أخذت حتى تؤديه »

وحديث « أدِّ الأمانة لمن ائتمنك ، ولا تخن من خانك » رواه أبو داود والترمذى ، وقال : حديث حسن .

وهذا مجمل مباحث العارية ، وتفصيل فروعها فى كتب الفقه

أوجزنا منه مايتعلق بمنع الماعون وعدم جواز منعه ، ومايتعلق ببذله ، وبالله تعالى التوفيق .

تنبيه

فى هذه السورة بيان منهج علمى يلزم كل باحث ، وهو جمع أطراف النصوص وعدم الاقتصار على جزء منه ، وذلك فى قوله تعالى : (فويل للمصلين) وهى آية مستقلة ، ولو أخذت وحدها لكانت وعيداً للمصلين .

كما قال الشاعر الماجن فى قوله :

دع المساجد للعباد تسكنها وسر إلى خانة الخمار يسقينا
ماقال ربك ويل للألى سكروا وإنما قال ويل للمصلينا

ولذا لابد من ضميمة مابعدها للتفسير والبيان ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، ثم فسر هذا التفسير أيضاً بقوله : (الذين هم يراءون ويمنعون الماعون) .

ومثل هذه الآية من الحديث ، ماجاء عند ابن ماجه مانصه بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قيل للنبى صلى الله عليه وسلم : « إن مسيرة المسجد تعطلت : فقال النبى صلى الله عليه وسلم : من عمّر مسيرة المسجد كتب له كفلان من الأجر » .

هذا الحديث وإن كان فى الزوائد ، قال عنه : فى إسناده ليث بن أبى سليم ضعيف ، إلا أنه نص فيما تمثل له لأن من اقتصر على جوابه صلى الله عليه وسلم اعتبر مسيرة المسجد أفضل ، ومن جمع طرق الحديث عرف المقصود منه .

ويتفرع على هذا ما أخذه مالك رحمه الله فى باب الشهادة : أن الشخص لايحق له أن يشهد على مجرد قول سمعه ، إلا إذا استشهدوه عليه ، وقالوا : أشهد عليه ، أو إلا إذا سمع الحديث من أوله مخافة أن يكون فى أوله ماهو مرتبط بآخره ، كما لو قال المتكلم للآخر : لى عندك فرس ، ولك عندى مائة درهم ، فيسمع قوله : لك عندى مائة درهم ، ولم يسمع ماقبلها ، فإذا شهد على ماسمع كان إضرارا بالمشهود عليه ، وهذه السورة تدل لهذا المأخذ ، والله تعالى أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ .

الكوثر فوعل من الكثرة ، وأعطيناك قرىء : أنطيناك ، بإبدال العين نونا ، وليست النون مبدلة عن العين ، كإبدال الألف من الواو أو العين فى الأجوف ونحوه ، ولكن كلا منهما أصل بذاته ، وقراءة مستقلة . قاله أبو حيان .

واختلف فى الكوثر .

فقيل : علم .

وقيل : وصف .

وعلى العلمية قالوا : إنه علم على نهر فى الجنة ، وعلى الوصف قالوا : الخير الكثير .

ومما استدل به على العلمية ، ما جاء فى السنة من الأحاديث الصحاح . ذكرها ابن كثير وغيره .

وفى صحيح البخارى عن أنس قال : لما عرج برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء قال « أتيت نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوف . فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر) » .

وبسنده أيضاً عن عائشة رضى الله عنها « سئلت عن قوله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) قالت : هو نهر أعطيه نبيكم صلى الله عليه وسلم ، شاطئاه عليهما در مجوف ، آنيته كعدد النجوم » .

وبسنده أيضاً عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى الكوثر : هو الخير الذى أعطاه الله إياه .

قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير : فإن الناس يزعمون أنه نهر فى الجنة ، فقال سعيد : النهر الذى فى الجنة من الخير ، الذى أعطاه الله إياه .

وذكر ابن كثير هذه الأحاديث وغيرها عن أحمد رحمه الله : ومنها بسند أحمد إلى أنس بن مالك قال : « أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة ، فرفع رأسه متبسماً إما قال لهم ، وإما قالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه نزلت علىّ آنفاً سورة ، فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا أعطيناك الكوثر ، حتى ختمها ،

فقال : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال = نهر أعطانيه ربى عز وجل فى الجنة ، عليه خير كثير ، ترد عليه أمتى يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب يختلج العبد منهم ، فأقول : يارب إنه من أمتى ، فيقال : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعبدك » .

وذكر ابن كثير ماجاء فى صفة الحوض ، وهذه النصوص على أن الكوثر نهر فى الجنة ، أعطاه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم .

وفى الحديث الأخير عن الإمام أحمد قوله : « عليه خير كثير » يشعر بأن معنى الوصفية موجود .

ولذا قال بعض المفسرين : إنه الخير الكثير .

وممن قال ذلك ابن عباس ، كما تقدم فى حديث البخارى عنه

واستدلوا على المعنى ، بقول الشاعر الكميت :

وأنت كثير يا بن مروان طيب وكان أبوك ابن الفصائل

والذى تطمئن إليه النفس أن الكوثر ، هو الخير الكثير ، وأن الحوض أو النهر من جملة ذلك .

وقد أتت آيات تدل على إعطاء الله لرسوله الخير الكثير ، كما جاء

فى قوله تعالى : (ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم) الآية .

وفى القريب سورة الضحى وفيها : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) أعقبها بنعم جليلة من شرح الصدور ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر ، واليسر بعد العسر .

وبعدها فى سورة التين جعل بلده الأمين ، وأعطى المؤمنين الذين يعملون الصالحات أجراً غير ممنون .

وبعدها سورة اقرأ . امتن عليه بالقرآن ، وعلمه ما لم يكن يعلم .

وبعدها سورة القدر : أعطاه ليلة خيراً من ألف شهر .

وبعدها سورة البينة : جعل أمته خير البرية ، ومنحهم رضاه عنهم ، وأرضاهم عنه .

وبعدها سورة الزلزلة : حفظ لهم أعمالهم ، فلم يضيع عليهم مثقال الذرة من الخير .

وفى سورة العاديات : أكبر عمل الجهاد ، فأقسم بالعاديات فى سبيل الله ، والنصر على الأعداء .

وفى سورة التكاثر : تربيتهم على نعمه ليشكروها ، فيزيدهم من فضله .

وفى سورة العصر : جعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، تؤمن بالله وتعمل الصالحات ، وتتواصى بالحق وتدعو إليه ، وتتواصى بالصبر ، وتصبر عليه .

وبعدها فى سورة قريش : أكرم الله قومه ، فآمنهم وأعطاهم رحلتيهم .

وفى السورة التى قبلها مباشرة ، وهى سورة الماعون : يمكن عمل مقارنة تامة أولا

وفى الجملة ، لئن كان المنافقون يمنعون الماعون ، فقد أعطيناك الخير الكثير ، ثانياً .

وعلى التفصيل ففى الأولى : وصف المنافقين والمكذبين بدع اليتيم ، وفى الضحى قد بين له حق اليتيم (فأما اليتيم فلا تقهر) فكان هو خير موكل ، وخير كافل ، ووصفهم هنا بأنهم لا يحضون على طعام المسكين .

وقد أوضح له فى الضحى ، (وأما السائل فلا تنهر) فكان يؤثر السائل على نفسه ، وهؤلاء ساهون عن صلاتهم يراءون باعمالهم .

وفى هذه السورة (فصل لربك) أداء الصلاة وخالصة لربه ، وإطعام المسكين بنحر الهدى والضحية والصدقة ، وكل ذلك خير كثير ، يضاف إليه ما جاءت به السنة ، كما فى حديث : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة ، وحلّت لى المغانم ، ولم تكن تحل لأحد قبلى . وكان النبى يبعث لقومه خاصة ، فبعثت للناس كافة ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل أدركته الصلاة فليصلّ » .

وقوله : « رفع لى عن أمتى الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه » .

وفى قوله تعالى : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحمّلنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) .

قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى قال : قد فعلت ، قد فعلت » .

وقوله تعالى : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى أن يبعثك

ربك مقاماً محموداً) ، وهو المقـــام الذى يغبطه عليه الأولون والآخرون .

إلى غير ذلك من النصوص ، مما يؤكد قول ابن عباس ، عند البخارى : إن الكوثر : الخير الكثير .

وأن النهر فى الجنة من هذا الكوثر الذى أعطيه صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ .

فى هذا مع ما قبله ربط بين النعم وشكرها ، وبين العبادات وموجبها ، فكما أعطاه الكوثر فليصل لربه سبحانه ولينحر له ، كما تقدم فى سورة لإيلاف قريش ، فى قوله تعالى : (فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) .

وهناك (إنا أعطيناك الكوثر) وهو أكثر من رحلتيهم وأمنهم ، (فصل لربك) مقابل (فليعبدوا رب هذا البيت) .

وقيل : إنه لما كان فى السورة قبلها بيان حال المنافقين فى السهو عن الصلاة والرياء فى العمل ، جاء هنا بالقدوة الحسنة (فصل لربك) مخلصاً له فى عبادتك ، كما تقدم فى السورة قبلها (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

وقوله تعالى فى تعليم الأمة ، فى خطاب شخصه صلى الله عليه وسلم

(لئن أشركت ليحبطن عملك) مع عصمته صلى الله عليه وسلم من أقل من ذلك ، والصلاة عامة والفريضة أحصها .

وقيل : صلاة العيد ، والنحر : قيل فيه أقوال عديدة :

أولها : فى نحر الهدى أو نحر الضحية : وهى مرتبطة بقول من حمل الصلاة على صلاة العيد ، وأن النحر بعد الصلاة كما فى حديث البراء بن عازب « لما ضحى قبل أن يصلى ، وسمع النبى صلى الله عليه وسلم يحث على الضحية بعد الصلاة ، فقال : إنى علمت اليوم يوم لحم فعجلت بضحيتى ، فقال له : شاتك شاة لحم ؟ فقال : إن عندنا لعناقا أحبّ إلينا من شاة ، أفتجزىء عنى ؟ قال : اذبحها ، ولن تجزىء عن أحد غيرك » .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه مبحث الضحية وافيا عند قوله تعالى : (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) وقد ذكروا فى معانى : وانحر : أى ضع يدك اليمنى على اليسرى على نحرك فى الصلاة ، وهذا مروى عن علىّ رضى الله عنه .

وأقوال أخرى ليس عليها نص .

والنحر : هو طعن الإبل فى اللبة عند المنحر ملتقى الرقبة ، بالصدر .

وأصح الأقوال فى الصلاة .

وفى النحر هو ما تقدم من عموم الصلاة وعموم النحر أو الذبح لما جاء فى قوله تعالى : (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) .

واتفق الفقهاء أن النحر للإبل ، والذبح للغنم ، والبقر متردد فيه بين النحر والذبح ، وأجمعوا على ذلك هو الأفضل ، ولو عم النحر فى الجميع ، أو عم الذبح فى الجميع لكان جائزاً ، ولكنه خلاف السنة .

وقالوا : إن الحكمة فى تخصيص الإبل بالنحر ، هو طول العنق ، إذ لو ذبحت لكان مجرى الدم من القلب إلى محل الذبح بعيداً فلا يساعد على إخراج جميع الدم بيسر ، بخلاف النحر فى المنحر ، فإنه يقرب المسافة ويساعد القلب على دفع الدم كله ، أما الغنم فالذبح مناسب لها ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ .

قال البخارى ، عن ابن عباس رضى الله عنهما : شانئك : عدوك اه

والأبتر : هو الأقطع الذى لا عقب له .

وأنشد أبو حيان، قول الشاعر :

لئيم بدت فى أنفه خزوانة على قطع ذى القربى أجذ أباتر

وقال : شانئك : مبغضك .

وفى هذه الآية يخبر سبحانه تعالى : أن مبغض رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأقطع .

فقيل : نزلت فى العاصى بن وائل .

قال لقريش : دعوه، فإنه أبتر لا عقب له ، إذا مات استرحتم، فأنزلها الله تعالى رداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقد جاء مصداقها بالفعل فى قوله تعالى : فى غزوة بدر فى قوله تعالى (ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين) .

فقتل صناديد قريش ، وصدق الوعيد فيهم

ومثله عموم قوله تعالى : (فقطع دابر القوم الذين ظلموا . والحمد لله رب العالمين) .

وجاء : (تبت يدا أبى لهب وتب) .

فهى فى معناها أيضاً .

وبقى ذكر رسول صلى الله عليه وسلم فى عقبه من آل بيته ، وفى أمته كلها .

كما تقدم فىّ قوله تعالى : (ورفعنا لك ذكرك) .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ .

نداء للمشركين بمكة ، لما عرضوا عليه صلى الله عليه وسلم أن يترك دعوته ويملّكوه عليهم أو يعطوه من المال مايرضيه ونحوه فرفض ، فقالوا : تقبل منا مانعرضه عليك : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فسكت عنهم فنزلت ، وقالوا له : إن يكن الخير معنا أصبته ، وإن يكن معك أصبناه .

وفى مجىء : قل ، مع أن مقول القول كان قد يكفى فى البلاغ ، ولكن مجيئها لغاية فما هى ؟

قال الفخر الرازى : إما لأنهم عابوه صلى الله عليه وسلم فى السورة التى قبلها بقولهم : (إنه أبتر) فجاء قوله : (قل) إشعاراً بأن الله يرد عن رسوله بهذا الخطاب ، الذى ينادى عليهم فى ناديهم بأثقل الأوصاف عليهم ، فقال له : (قل يا أيها الكافرون) .

أو أنه لما كان هذا الخطاب فيه مغايرة المألوف من تخاطبه معهم من أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة ، وكان فيه من التقريع لهم ومجابهتهم ، قال له : قل : إشعاراً بأنه مبلغ عن الله ما أمر به ،

وجاءت يا ، وهى لنداء البعيد ، لبعدهم فى الكفر والعناد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾

قيل : تكرار فى العبارات للتوكيد ، كتكرار (ويل يومئذ للمكذبين) وتكرار : (فبأى آلاء ربكما تكذبان) .

ونظيره فى الشعر أكثر من أن يحصر ، من ذلك ما أورده القرطبى رحمه الله :

هل لا سألت جموع كندة يوم ولو أين أينا

وقول الآخر :

يا علقمة ياعلقمة ياعلقمه خير تميم كلها وأكرمه

وقول الآخر :

يا أقرع بن حابس يا أقرع إنك إن يصرع أخوك تصرع

وقول الآخر :

ألا ياسلمى ثم اسلمى ثمت اسلمى ثلاث تحيات وإن لم تكلم

وقد جاءت فى أبيات لبعض تلاميذ الشيخ رحمه الله تعالى ، ضمن مساجلة له معه قال فيها :

تالله إنك قد ملأت مسامعى درًّا عليه قد انطوت أحشائى
زدنى وزدنى ثم زدنى ولتكن منك الزيادة شافياً للداء

فكرر قوله : زدنى ثلاث مرات .

وقيل : ليس فيه تكرار ، على أن الجملة الأولى عن الماضى والثانية عن المستقبل .

وقيل : الأولى عن العبادة ، والثانية عن المعبود .

وقيل غير ذلك ، على ماسيأتى إن شاء الله .

والسورة فى الجملة نص على أنه صلى الله عليه وسلم لايعبد معبودهم ، ولا هم عابدون معبوده ، وقد فسره قوله تعالى : (فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام على هذا المعنى ، عند آية يونس تلك ، وذكر هذه السورة هناك .

وقد ذكر أيضاً فى دفع إيهام الاضطراب جوابا على إشكال فى السورة وهو قوله تعالى : (لا أعبد ماتعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد) نفى لعبادة كل منهما معبود الآخر مطلقاً ، مع أنا قد آمن بعضهم فيما بعد وعبد مايعبده صلى الله عليه وسلم ، وأجاب عن ذلك بأحد أمرين : موجزهما أنها فى جنس الكفار ، وإن أسلموا فيما بعد

فهو خطاب لهم ماداموا كفاراً إلى آخره ، أو أنها من العام المخصوص ، فتكون فى خصوص من حقت عليهم كلمات ربك . اهـ ملخصا .

وقد ذكر أبوحيان وجهاً عن الزمخشرى : أن مايتعلق بالكفار خاص بالحاضر ، لأن ما إذا دخلت على اسم الفاعل تعينه للحاضر .

وناقشه أبو حيان ، بأن ذلك فى مغالب لا على سبيل القطع

والذى يظهر من سياق السورة ، قد يشهد لما ذهب إليه الزمخشرى ، وهو أن السورة تتكلم عن الجانبين على سبيل المقابلة جهة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجهة الكفار فى عدم عبادة كل منهما معبود الآخر .

ولكنها لم يساو فى اللفظ بين الطرفين ، فمن جهة الرسول صلى الله عليه وسلم جاء فى الجملة الأولى (لا أعبد ماتعبدون) عبر عن كل منهما بالفعل المضارع الدال على الحال : أى لا أعبد الآن ماتعبدون الآن بالفعل . ثم قال : (ولا أنتم عابدون ما أعبد) فعبر عنهم بالإسمية وعنه هو بالفعلية ، أى ولا أنتم متصفون بعبادة ما أعبد الآن .

وفى الجملة الثانية قال : ولا أنا عابد ماعبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد . فعبر عنه بأنه ليس متصفا بعبادة مايعبدون ولاهم عابدون مايعبد ، فكان وصفه هو صلى الله عليه وسلم فى الجملتين بوصفين مختلفين

بالجملة الفعلية تارة وبالجملة الإسمية تارة أخرى ، فكانت إحداهما لنفى الوصف الثابت ، والأخرى لنفى حدوثه فيما بعد .

أما هم فلم يوصفوا فى الجملتين إلا بالجملة الإسمية الدالة على الوصف الثابت ، أى فى الماضى إلى الحاضر ، ولم يكن فيما وصفوا به جملة فعلية من خصائصها التجدد والحدوث ، فلم يكن فيها مايتعرض للمستقبل فلم يكن إشكال ، والله تعالى أعلم .

فإن قيل : إن الوصف باسم الفاعل يحتمل الحال والاستقبال ، فيبقى الإشكال محتملا .

قيل : ماذكره الزمخشرى من أن دخول ماعليه تعينه للحال ، يكفى فى نفى هذا الاحتمال ، فإن قيل : قد ناقشه أبو حيان .

وقال : إنها أغلبية وليست قطعية .

قلنا : يكفى فى ذلك حكم الأغلب ، وهو مايصدقه الواقع ، إذ آمن بعضهم وعبد معبوده صلى الله عليه وسلم ، وما فى قوله (ماتعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد) واقعة فى الأولى على غير ذى علم ، وهى أصنامهم وهو استعمالها الأساسى .

وفى الثانية : فى حق الله تعالى وهو استعمالها فى غير استعمالها الأساسى ، فقيل : من أجل المقابلة ، وقد استعملت فيمن يعلم ، كقوله تعالى

(فأنكحوا ماطاب لكم من النساء) لأنهن فى معرض الاستمتاع بهن، فللقرينة جاز ذلك .

وقيل : إنها مع ماقبلها مصدرية ، أى ما مصدرية بمعنى عبادتكم الباطلة ، ولا تعبدون عباداتى الصحيحة .

وهذا المعنى قوى ، وإن تعارض مع ماذكر من سبب النزول ، إلا أن له شاهداً من نفس السورة ويتضمن المعنى الأول ، ودليله من السورة قوله تعالى فى آخر السورة : (لكم دينكم ولى دين) فأحالهم على عبادتهم ، ولم يحلهم على معبودهم .

قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ .

هو نظير ماتقدم فى سورة يونس (أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون) .

وكقوله : (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) .

وليس فى هذا تقريرهم على دينهم الذى هم عليه ، ولكن من قبيل التهديد والوعيد كقوله :

(وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها) .

وفى هذه السورة قوله (قل يا أيها الكافرون) وصف يكفى بأن عبادتهم وديانتهم كفر .

وقد قال لهم الحق (لا أعبد ماتعبدون) لأنها عبادة باطلة ، عبادة الكفار ، وبعد ذلك إن أبيتم إلا هى ، فلكم دينكم ولى دين .

تنبيه

فى هذه السورة منهج إصلاحى ، وهو عدم قبول ولا صلاحية أنصاف الحلول ، لأن ماعرضوه عليه صلى الله عليه وسلم من المشاركة فى العبادة ، يعتبر فى مقياس المنطق حلا وسطاً لاحتمال إصابة الحق فى أحد الجانبين ، فجاء الرد حاسماً وزاجراً وبشدة ، لأن فيه أى فيما عرضوه مساواة للباطل بالحق ، وفيه تعليق المشكلة ، وفيه تقرير الباطل ، إن هو وافقهم ولو لحظة .

وقد تعتبر هذه السورة مميزه وفاصلة بين الطرفين ، ونهاية المهادنة ، وبداية المجابهة .

وقد قالوا : إن ذلك بناء على ما أمره الله به فى السورة قبلها (إنا أعطيناك الكوثر) أى وإن كنت وحيدك قلة ، فإن معك الخير الكثير ، ولمجىء قل لما فيها من إشعار بأنك مبلغ عن الله ، وهو الذى ينصرك ، ولذا جاء بعدها حالا سورة النصر وبعد النصر : تبٌ العدو .

وهذا فى غاية الوضوح ، ولله الحمد .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النصر

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ .

فيه ذكر النصر والفتح ، مع أن كلا منهما مرتبط بالآخر ، فمع كل نصر فتح ، ومع كل فتح نصر .

فهل هما متلازمان أم لا ؟

كما جاء النصر مضافاً إلى الله تعالى ، والفتح مطلقاً .

أولا اتفقوا على نزول هذه السورة بعد فتح مكة .

ومعلوم : أنه سبق فتح مكة عدة فتوحات .

منها فتح خيبر ، ومنها صلح الحديبية ، سماه الله تعالى فتحاً فى قوله : (فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) .

والنصر يكون فى معارك القتال ويكون بالحجة والسلطان ، ويكون بكف العدو ، كما فى الأحزاب . (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً) .

وكما فى اليهود قوله : (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديرا) .

فالنصر حق من الله ، (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) .

وقد علم المسلمون ذلك ، كما جاء فى قوله تعالى : (مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) فهم يتطلعون إلى النصر .

ويأتيهم الجواب (ألا إن نصر الله قريب) .

وجاء قوله صلى الله عليه وسلم : « نُصرت بالرعب مسيرة شهر »

وقد قال تعالى لموسى وأخيه (لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى) فهو نصر معية وتأييد ، فالنصر هنا عام .

وكذلك الفتح فى الدين بانتشار الإسلام ، وأعظم الفتح فتحان : فتح الحديبية ، وفتح مكة .

إذ الأول تمهيد للثانى ، والثانى قضاء على دولة الشرك فى

الجزيرة ، ويدل لإرادة العموم فى النصر والفتح .

قوله تعالى ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ﴾

فكأن الناس يأتون من كل جهة حتى من اليمن ، وهذا يدل على كمال الدعوة ونجاح الرسالة .

ويدل لهذا مجيء آية (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) ، وكان نزولها فى حج تلك السنة .

ويلاحظ أن النصر هنا جاء بلفظ نصر الله ، وفى غير هذا جاء نصر الله ، وما النصر إلا من عند الله .

ومعلوم أن هذه الإضافة هنا لها دلالة تمام وكمال ، كما فى بيت الله. مع أن المساجد كلها بيوت لله ، فهو مشعر بالنصر كل النصر ، أو بتمام النصر كله لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

والفتح ، هنا قيل : هو فتح مكة ، وقيل فتح المدائن وغيرها .

وتقدمت الإشارة إلى فتوحات عديدة ، قبل مكة .

وهناك فتوحات موعود بها بعد فتح مكة نص صلى الله عليه وسلم

عليها منها فى غزوة الأحزاب وهم ، يحفرون الخندق ، لما اعترضتهم كدية وأعجزتهم ، ودعى إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأخذ ماء وتمضمض ودعا ما شاء الله أن يدعو ثم ضرب ، فكانت كالكثيب .

وقد جاء فيها ابن كثير بعدة روايات وطرق مختلفة ، وكلها تذكر أنه صلى الله عليه وسلم ضرب ثلاث ضربات ، فأبرقت تحت كل ضربة برقة ، وكبّر صلى الله عليه وسلم عند كل واحدة منها ، فسألوه فقال « فى الأولى : أعطيت مفاتيح فارس » وذكر اليمن والشام ، وكلها روايات لا تخلو من نقاش ، ولكن لكثرتها يقوى بعضها بعضاً .

وأقواها رواية النسائى بسنده قال : « لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق ، عرضت لهم صخرة حالت بينهم وبين الحفر ، فقام النبى صلى الله عليه وسلم وأخذ المعول ووضع رداءه ناحية الخندق ، وقال : وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا ، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ، فندر ثلث الحجر وسلمان الفارسى قائم ينظر ، فبرق مع ضربة رسول الله صلى الله عليه وسلم برقة ثم ضرب الثانية ، وقرأ ما قرأه أولا ، وبرقت أيضاً . ثم الثالثة ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تكسرت ، فأخذ رداءه صلى الله عليه وسلم

وجلس ، فسأله سلمان لما رآى من البرقات الثلاث : فقال له : أرأيت ذلك ؟ قال : أى والذى بعثك بالحق يا رسول الله ، فأخبرهم أنه رفعت له فى الأولى مدائن كسرى وما حولها ومدائن كثيرة حتى رآها بعينه ، فقالوا : ادعو الله لنا أن يفتح علينا .

فدعا لهم ، وفى الثانية : رفعت له مدائن قيصر وما حولها ، وفى الثالثة مدائن الحبشة ، وكلها يطلبون منه صلى الله عليه وسلم أن يدعو لهم فتفتح عليهم ، فدعا لهم إلا فى الحبشة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « دعوا الحبشة ما ودعوكم . واتركوا الترك ما تركوكم » انتهى ملخصاً .

وقد رواه كل من ابن كثير والنسائى مطولا ، فهذه الروايات وإن كانت تحتمل مقالا .

فقد جاء فى الموطإ ما لا يحتمل مقالا ، ولا شك فى صحته ، ولا فى دلالته ، وهو ما رواه مالك عن هشام عن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير عن سفيان بن أبى زهير أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يفتح اليمن فيأتى قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، وتفتح الشام ، فيأتى قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم ، والمدينة

خير لهم لو كانوا يعلمون ، ويفتح العراق فيأتى قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » .

فهذا نص صحيح صريح منه صلى الله عليه وسلم فى حياته بفتح اليمن والشام والعراق ، ومافتحت كلها إلا من بعده صلى الله عليه وسلم إلا اليمن .

ويؤيد هذا القول ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينه ، إذ قال : الله أكبر ، الله أكبر ، جاء نصر الله والفتح ، جاء أهل اليمن ، قيل : يارسول الله ، وما أهل اليمن ؟ قال : قوم رقيقة قلوبهم ، ليّنة طباعهم ، الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية » رواه ابن كثير عنه .

وقد كان فتح مكة عام ثمان من الهجرة ، وجاءت الوفود فى دين الله أفواجا عام تسع منها ، وجاء وفد اليمن وأرسل صلى الله عليه وسلم عماله إلى اليمن بعد فتح مكة ، وقدم عليه علىّ رضى الله عنه من اليمن فى العام العاشر فى موسم الحج ، ففتحت اليمن بعد فتح مكة فى حياته صلى الله عليه وسلم .

وعليه : تكون فتوحات قد وقعت بعد فتح مكة ، يمكن أن يشملها هنا قوله تعالى : (والفتح) ، وليس مقصوراً على فتح مكة كما قالوا .

وقد يؤخذ بدلالة لإيماء : الوعد بفتوحات شاملة ، لمناطق شاسعة من قوله تعالى : (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) لأن الإتيان من كل فج عميق ، يدل على الإتيان إلى الحج من بعيد ، والإتيان إلى الحج يدل على الإسلام ، وبالتالى يدل على مجىء المسلمين من بعيد . وهو محل الاستدلال والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ .

تقدم الكلام على التسبيح ومتعلقه وتصريفه .

وهنا قرن التسبيح بحمد الله ، وفيه ارتباط لطيف بأول السورة وموضوعها ، إذ هى فى الدلالة على كمال مهمة الرسالة بمجيء نصر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ولدينه . ومجىء الفتح العام على المسلمين لبلاد الله بالفعل أو بالوعد الصادق كما تقدم ، وهى نعمة تستوجب الشكر ويستحق مولاها الحمد .

فكان التسبيح مقترناً بالحمد فى مقابل ذلك وقوله : (بحمد ربك) ليشعر أنه سبحانه المولى للنعم ، كما جاء فى سورة الضحى فى قوله تعالى (ماودعك ربك وما قلى) .

وقوله فى سورة اقرأ : (اقرأ باسم ربك) وتكرارها (اقرأ

وربك الأكرم) لأن صفة الربوبية مشعرة بالإنعام .

وقوله : (واستغفره) قال البعض : إن الاستغفار عن ذنب فما هو . وتقدم الكلام على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عند قوله تعالى : (ووضعنا عنك وزرك) .

ومما تجدر الإشارة إليه أن التوبة دعوة الرسل ، ولو بدأنا من آدم عليه السلام مع قصته ففيها (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) ، ومعلوم موجب تلك التوبة .

ثم نوح عليه السلام يقول : (رب اغفر لى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات) الآية .

وإبراهيم عليه السلام يقول : (وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) .

وبناء عليه قال بعض العلماء : إن الاستغفار نفسه عبادة كالتسبيح ، فلا يلزم منه وجود ذنب .

وقيل : هو تعليم لأمته .

وقيل : رفع لدرجاته صلى الله عليه وسلم .

وقد جاء فى السنة ، أنه صلى الله عليه وسلم قال : « توبوا إلى الله ،

فإنى أتوب إلى الله فى اليوم مائة مرة » ، فتكون أيضاً من باب الاستكثار من الخير ، والإنابة إلى الله .

تنبيـــه

جاء فى التفسير عند الجميع أنه صلى الله عليه وسلم منـذ أن نزلت هـذه السورة وهو لم يكن يدع قوله : « سبحانك اللهم وبحمـدك » تقول عائشة رضى الله عنها : « يتأول القرآن » أى يفسره ، ويعمل به .

ونقل أبوحيـان عن الزمخشرى أنه قال : والأمر بالاستغفار مع التسبيح تكميل للأمر بما هو قوام أمر الدين ، من الجمع بين الطاعة والاحتراز من المعصية ، وليكون أمره بذلك مع عصمته لطفاً لأمته ، ولأن الاستغفار من التواضع وهضم النفس فهو عبادة فى نفسه .

وفى هذا لفت نظر لأصحاب الأذكار والأوراد الذين يحرصون على دوام ذكر الله تعالى ، حيث هذا كان من أكثر مايداوم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع ماورد عنه صلى الله عليه وسلم فى أذكار الصباح والمساء دون الملازمة على ذكر اسم من أسماء الله تعالى وحده ، منفرداً مما لم يرد به نص صحيح ولاصريح .

ولاشك أن الخير كل الخير فى الاتباع لا فى الابتداع ، وأى خير

أعظم مما اختاره الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فى آخر حياته ، ويأمر به ، ويلازم هو عليه .

وقلنا فى آخر حياته : لأنه صلى الله عليه وسلم توفى بعدها بمدة يسيرة .

وفى هذه الآية دلالة الإيمان ، كما قالوا : ودلالة الالتزام كما جاء عن ابن عباس فى قصة عمر رضى الله عنه مع كبار المهـــاجرين والأنصار ، حيثما كان يسمح له بالجلوس معهم ، ويرى فى وجوههم ، وسألوه وقالوا :

إن لنا أولادا فى سنه ، فقال : إنه من حيث علمتم .

وفى يوم اجتمعوا عنده فدعاه عمر ، قال ابن عباس : فعلمت أنه مادعانى إلا لأمر ، فســألهم عن قوله تعـالى : (إذا جاء نصر الله والفتح) السورة .

فقالوا : إنها بشرى بالفتح وبالنصر ، فقال : ماتقول أنت يا ابن عباس ؟

قال : فقلت ، لا والله ، إنها نعت إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بين أظهرنا .

فقال عمر : وأنا لا أعرف فيهـــا إلا كما قلت ، أى أنه

صلى الله عليه وسلم جاء لمهمة ، وقد تمت بمجيء النصر والفتح والدخول في الدين أفواجا .

وعليه يكون قد أدى الأمانة وبلّغ الرسالة . فعليه أن يتأهب للقاء ربه ليلقى جزاء عمله ، وهو مأخذ في غاية الدقة ، وبيان لقول عليّ رضى الله عنه : أو فهم أعطاه الله من شاء في كتاب الله .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المسد

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ .

التب : القطع .

ومن المادة : بت بتقديم الباء ، فهى تدور على معنى القطع ، كما يفيده فقه اللغة فى دوران المادة على معنى واحد .

وقال : التب ، والتبب ، والتباب ، والتبيب ، والتتبيب : النقص والخسار ، إلى أن قال : وتبت يداه : ضلتا وخسرتا .

وقال الفخر الرازى : التبات : الهلاك ، ونظيره قوله تعالى : (وما كيد فرعون إلا فى تباب) أى فى هلاك .

وذلك لأن أبا لهب أهلك نفسه بفساد اعتقاده وسوء فعاله ، كما جاء فى السنة قول الأعرابى : هلكت وأهلكت : أى بوقاعه أهله فى رمضان ، وجاء قوله تعالى : (فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب) .

فقالوا : غير خسران ، والخسران يؤدى إلى الهلاك ، والقطع .

كما جاء فى معناه فى قصة صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام . وله تعالى : (فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير) فظهر من هذا كله أن معنى : تبت يدا أبى لهب ، دائر بين معنى القطع والهلاك والخسران .

أما قطعها فلم يقدر عليه قطع يديه قبل موته .

وأما الهلاك والخسران : فقد هلك بالغدة .

وأما الخسران : فما أشد خسرانه بعد هذا الحكم عليه من الله تعالى .

وإذا كان المعنى قد تعين بنص القرآن فى الهلاك والخسران ، فما معنى إسناد التب لليدين ؟

الجواب : أن ذلك من باب إطلاق البعض وإرادة الكل كما تقدم فى قوله تعالى : (ناصية كاذبة) مع أن الكاذب هو صاحبها .

وقد قدمنا هناك أن مثل هذا الأسلوب لابد فيه من زيادة اختصاص الجزء المنطوق فى المعنى المراد .

لما كان الكذب يسوّد الوجه ويذل الناصية ، وعكسه الصدق يبيض الوجه ويعز الناصية ، أسند هناك الكذب إلى الناصية لزيادة اختصاصها بالكذب عن اليد مثلا .

ولما كان الهلاك والخسران غالباً بما تكسبه الجوارح واليد أشد اختصاصاً فى ذلك أسند إليها البت .

ومما يدل على أن المراد صاحب اليدين ، ما جاء بعدها ، قوله تعالى : (وتب) أى أبو لهب نفسه .

وسواء كان قوله تعالى : (تبت يدا أبى لهب) على سبيل الإخبار أو الإنشاء ، فإنه محتمل من حيث اللفظ .

ولكن قوله تعالى بعده : (وتب) فهو إخبار ، فيكون الأول للانشاء كقوله : (قتل الإنسان ما أكفره) .

ثم جاء الثانى تصديقاً له ، وجاءت قراءة ابن مسعود (وقد تب)

قوله تعالى ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾

سواء كانت ما استفهامية فهو استفهام إنكار ، أو كانت نافية

فإنه نص ، على أن ماله لم يغن عنه شـــيئاً .

وقوله : (وما كسب)

فقيل : أى من المال الأول ما ورثه أو ما كسب من عمل جرّ عليه هذا الهلاك ، وهو عداؤه لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونظير هذه الآية المتقدمة (وما يغنى عنه ماله إذا تردى) .

وتقدم الـكلام عليه هناك .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه بيان معنى (ما أغنى عنه ماله وما كسب) عند قوله تعالى : (من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم).

وساق كل النصوص فى هذه المعنى بتمامها .

تنبيـه

فى هذه الآية سؤالان هما :

أولا : لقد كان صلى الله عليه وسلم مع قومه فى مكة ملاطفاً حليما ، فكيف جاء به عمه بهذا الدعاء : (تبت يدا أبى لهب) ؟ والجواب:

أنه كان يلاطفهم ما دام يطمع فى إسلامهم ، فلما يئس من ذلك ، كان هذا الدعاء فى محله ، كما وقع من إبراهيم عليه السلام ، كان يلاطف أباه (يا أبت لا تعبد الشيطان) . (يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً) فلما يئس منه تبرأ منه كما قال تعالى : (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأوّاه حليم) .

والسؤال الثانى : وهو مجىء قوله تعالى (وتب) بعد قوله (تبت يدا أبى لهب) مع أنها كافية سواء كانت إنشاء للدعاء عليه أو إخباراً بوقوع ذلك منه .

والجواب ، والله تعالى أعلم : أن الأول لما كان محتملا الخبر ، وقد يمحو الله ما يشاء ويثبت ، أو إنشاء وقد لا ينفذ كقوله : (قتل الإنسان ما أكفره) ، أو يحمل على الذم فقط ، والتقبيح فجاء « وتب » لبيان أنه واقع به لا محالة ، وأنه ممن حقت عليهم كلمات ربك ليبأس صلى الله عليه وسلم ، والمسلمون من إسلامه ؛ وتنقطع الملاطفة معه ، والله تعالى أعلم .

وقد وقع ما أخبر الله به ، فهو من إعجاز القرآن أن وقع ما أخبر به ، كما أخبر ولم يتخلف .

(وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا) . وقوله : (كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لايؤمنون) .

نسأل الله العافية ، إنه سميع مجيب .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ قلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ .

الأحـــد :

قال القرطبي : أى الواحد الوتر ، الذى لاشبيه له ولا نظير ، ولا صاحبة ولا ولد ، ولا شريك . ا هـ .

ومعلوم أن كل هذه المعانى صحيحة ، فى حقه تعالى .

وأصل أحد : وحد ، قلبت الواو همزة .

ومنه قول النابغة :

كأن رحلى وقد زال النهار بنا بذى الجليل على مستأنس وحد

وقال الفخر الرازى فى أحد وجهان :

أحدهما : أنه بمعنى واحد .

قال الخليل : يجوز أن يقال : أحد اثنان ثلاثة ، ثم ذكر أصلها وحد ، وقلبت الواو همزة للتخفيف .

والثانى : أن الواحد والأحد لبسا اسمين مترادفين .

قال الأزهرى : لايوصف شيء بالأحدية غير الله تعالى ، لايقال: رجل أحد ولا درهم أحد ، كما يقال : رجل واحد أى فرد به ، بل أحد صفة من صفات الله تعالى استأثر بها فلا يشركه فيها شيء .

ثم قال : ذكروا فى الفرق بين الواحد والأحد وجوها :

أحدها : أن الواحد يدخل فى الأحد ، والأحد لايدخل فيه .

وثانيها : أنك لوقلت : فلان لايقاومه واحد ، جاز أن يقال: لكنه يقاومه اثنان بخلاف الأحد .

فإنك لو قلت : فلان لايقاومه أحد ، لايجوز أن يقال : لكنه يقاومه اثنان .

وثالثها : أن الواحد ، يستعمل فى الإثبات ، والأحد يستعمل فى النفى .

تقول فى الإثبات : رأيت رجلا واحدا .

وتقول فى النفى : مارأيت أحداً ، فيفيد العموم .

أما مانقله عن الخليل ، وقد حكاه صاحب القاموس فقال : ورجل وحد وأحد ، أى خلافا لما قاله الأزهرى .

وأما قوله : إن أحداً تستعمل فى النفى فقد جاء استعمالها فى الإثبات أيضاً .

كقوله : (أو جاء أحد منكم من الغائط) .

فتكون أغلبية فى استعمالها ودلالتها فى العموم واضحة .

وقال فى معجم مقاييس اللغة فى باب الهمزة والحاء وما بعدها : أحد ، إنها فرع والأصل الواو وحد .

وقد ذكر فى الواو وفى مادة وحد . قال : الواو والحاء والدال أصل واحد يدل على الانفراد ، من ذلك الوحدة بفتح الواو وهو واحد قبيلته ، إذا لم يكن فيهم مثله .

قال :

يا واحد العرب الذى ما فى الأنام له نظير

وقيل : إن هذا البيت لبشار يمدح عقبة بن مسلم ، أو إلى ابن المولى يزيد بن حاتم ، نقلا عن الأغانى .

فيكون بهذا ثبت أن الأصل بالواو والهمزة فرع عنه .

وتقدم أن دلالتها على العموم أوضح أى أحد .

وقد دلت الآية الكريمة ، على أن الله سبحانه وتعالى أحد ، أى فى ذاته وصفاته لاشبيه ولا شريك ، ولا نظير ولا ند له ، سبحانه وتعالى .

وقد فسره ضمنا قوله : (ولم يكن له كفوا أحد) .

وقوله : (ليس كمثله شيء) أما المعنى العام فإن القرآن كله ، والرسالة المحمـدية كلها ، بل وجميع الرسالات ، إنما جاءت لتقرير هذا المعنى ، بأن الله سبحانه واحد أحد . بل كل ما فى الوجود شاهد على ذلك .

كما قيل:

وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

أما نصوص القرآن على ذلك فهى أكثر من أن تحصى ، لأنهـا بمعنى لا إله إلا الله .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، إشارة إلى ذلك فى أول الصافات وفى غيرها ، وفى البقرة (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) .

وفى التوبة : (وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو) فجاء مقرونا بلا إله إلا الله .

وفى ص قوله : (قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهـار) .

وكما قدمنا أن الرسالة كلها جاءت لتقرير هـذا المعنى ، كما فى قوله : (هذا بلاغ للنـاس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد)

سبحانه جل جلاله وتقدست أسماؤه ، وتنزهت صفاته ، فهو واحد أحد فى ذاته وفى أسمائه وفى صفاته وفى أفعاله

وقد جاء القرآن بتقرير هذا المعنى عقلا كما قرره نقلا ، وذلك فى قوله تعالى : (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيرا) .

وقوله : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) .

فدل على عدم فسادهما بعدم تعددهما ، وجمع العقل والنقل فى قوله : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون) .

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الصَّمَدُ .

قال بعض المفسرين : يفسره مابعده (لم يلد ولم يولد) .

وقال ابن كثير ، وهذا معنى حسن .

وقال بعض العلماء : هو المتناهى فى السؤدد ، وفى الكمال من كل شىء

وقيل : من يصمد الخلائق إليه فى حاجاتهم ، ولا يحتاج هو إلى أحد .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه، معنى الصمد فى سورة الأنعام عند قوله تعالى : (وهو يطعم ولا يطعم) ، فذكر شواهد هذه الأقوال كلها .

وبإمعان النظر فى مبدأ يفسره مابعده ، يتضح أن السورة كلها تفسير لأولها (قل هو الله أحد) لأن الأحدية ، هى تفرده سبحانه بصفات الجلال والكمال كلها ، ولأن المولود ليس بأحد ، لأنه جزء من والده .

والوالد ليس بأحد ، لأن جزءاً منه فى ولده .

وكذلك من يكون له كفء ، فليس بأحد لوجود الكفء ، وهكذا السورة كلها لتقرير (قل هو الله أحد) .

قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان شواهده عند قوله تعالى : (الذى له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك) الآية من سورة الإسراء .

تنبيه

نفى اتخاذ الولد لايستلزم نفى الولادة ، لأن اتخاذ الولد قد يكون

بدون ولادة كالتبنى أو غيره ، كما فى قصة يوسف فى قوله تعالى عن عزيز مصر : (أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) .

ففى هذه السورة نفى أخص ، فلزم التنبيه عليه فى هـذه السورة الكريمة وهى سورة الإخلاص . والتى تعدل ثلث القرآن لاختصاصها بحق الله تعالى فى ذاته وصفاته من الوحدانية والصمدية ، ونفى الولادة والولد ، ونفى الكفء ، وكلها صفات انفراد لله سبحانه .

وقد جاء فيها النص الصريح بعدم الولادة ، وأنه سبحانه وتعالى لم يلد ولم يولد ، فهى أخص من تلك ، وهـذا من المسلمات عنـد المسلمين جميعا بدون شك ولا نزاع . ولم يؤثر فيها أى خلاف .

ولـكن غير المسلمين لم يسلموا بذلك ، فاليهود قالوا : عزيز ابن الله ، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله ، والمشركون قالوا : الملائكة بنات الله .

فاتفقوا على ادعاء الولد لله ، ولم يدع أحد أنه سبحانه مولود .

وقد جاءت النصوص الصريحة فى نفى الولد عن الله سبحانه وتعالى، إلا أن مجرد النص الذى لم يؤمن به الخصم لايكفى لإقناعه ، وفى هذه السورة وهى المختصة بصفات الله ، لم يأت التنو ا فيها عن المانع من اتخاذ الله للولد ، ومن كونه سبحانه لم يولد .

ولما كان بيان المانع أو الموجب من منهج هذا الكتاب، إذا كان يوجد للحكم موجب أو مانع ولم تتقدم الإشارة إلى ذلك ، فيما تقدم من كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مع أنه رحمه الله ، قد تكلم على آيات الأسماء والصفات جملة وتفصيلا ، بما يكفى ويشفى .

ولكن جاء فى القرآن الكريم ذكر ادعاء الولد لله ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيرا .

وجاء الرد من الله تعالى مع بيان المانع مفصلا مع الإشعار بالدليل العقلى . ولذا لزم التنويه عليه ، وذلك فى قوله تعالى : (وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل ، مافى السماوات والأرض كل له قانتون ، بديع السماوات والأرض ، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) .

فهذا نص صريح فيما قالوه : (اتخذ الله ولدا) .

ونص صريح فى تنزيه الله سبحانه وتسبيحه عما قالوا .

ثم جاء حرف الإضراب عن قولهم : (بل له مافى السماوات والأرض كل له قانتون) ، ففيه بيان المانع عقلا من اتخاذ الولد بما يلزم الخصم ، وذلك أن غاية اتخاذ الولد أن يكون باراً بوالده ، وأن ينتفع الوالد بولده ، كما فى قوله تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) أو يكون الولد وارثا لأبيه كما فى قوله تعالى عن نبى الله تعالى زكريا عليه السلام :

(وهب لى من لدنك ولياً يرثنى ويرث من آل يعقوب) الآية .

والله سبحانه وتعالى حيٌّ باقٍ يرث ولا يورث كما قال تعالى : (كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك) الآية

وقوله : (ولله ميراث السماوات والأرض) .

فإذا كان لله سبحانه وتعالى كل مافى السماوات والأرض فى قنوت وامتثال طوعاً أو كرهاً ، كما قال تعالى : (وماينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ، إن كل مافى السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا)

فهو سبحانه وتعالى ليس فى حاجة إلى الولد لغناه عنه .

ثم بين سبحانه قدرته على الإيجاد والإبداع فى قوله تعالى : (بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون)

وهذا واضح فى نفى الولد عنه سبحانه وتعالى .

وقد تمدح سبحانه فى قوله : (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبّره تكبيرا) .

أما أنه لم يولد . فلم يدع أحد عليه ذلك ، لأنه ممتنع عقلا ، بدليل الممانعة المعروف وهو كالآتى :

لوتوقف وجوده سبحانه على أن يولد لكان فى وجوده محتاجا إلى من يوجده ، ثم يكون من يلده فى حاجة إلى والد ، وهـكذا يأتى الدور والتسلسل وهذا باطل .

وكذلك فإن الحاجة إلى الولد ينفيها معنى الصمدية المتقدم ذكره، ولو كان له والد لكان الوالد أسبق وأحق ، تعالى الله عن ذلك .

وقد يقال : من جانب الممانعة العقلية لو افترض على حد قوله : (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) .

فنقول على هذا الافتراض : لو كان له ولد فما مبدأ وجود هذا الولد وما مصيره ؟ فإن كان حادثا فمتى حدوثه ؟ وإن كان قديما تعدد القدم . وهذا ممنوع .

ثم إن كان باقيا تعدد البقاء ، وإن كان منتهيا فمتى انتهاؤه ؟

وإذا كان مآله إلى الانتهاء فما الحاجة إلى إيجاده مع عدم الحاجة إليه ، فانتفى اتخاذ الولد عقلا ونقـلا ، كما انتفت الولادة كذلك عقلا ونقلا .

وقد أورد بعض المفسرين سؤالا فى هذه الآية ، وهو لماذا قدم نفى الولد على نفى الولادة ؟ مع أن الأصل فى المشـــاهد أن يولد ثم يلد ؟

وأجاب بأنه من تقديم الأهم لأنه رد على النصارى فى قولهم : عيسى ابن الله ، وعلى اليهود فى قولهم : عزير ابن الله ، وعلى قول المشركين : الملائكة بنات الله ، ولأنه لم يدع أحد أنه سبحانه مولود لأحد ، فكانت دعواهم الولد لله فرية عظمى . اهـ .

كما قال تعالى : (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) .

وقوله : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدًّا تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا) .

فلشناعة هذه الفرية قدم ذكرها ، ثم الرد على عدم إمكانها بقوله : (وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدًا إن كل من فى السماوات والأرض الا آتى الرحمن عبدا) .

وقد قدمنا دليل المنع عقلا ونقلا .

وهنا سؤال أيضاً ، وهو إذا كان ادعاء الولد قد وقع ، وجاء الرد عليه : فإن ادعاء الولادة لم يقع ، فلماذا ذكر نفيه مع عدم ادعائه ؟

والجواب والله تعالى أعلم : أن من جوّز الولادة له وأن يكون له

ولد ، فقد يجوز الولادة عليه ، وأن يكون مولوداً فجاء نفيها تتمة للنفى والتنزيه ، كما فى حديث البحر ، كان السؤال عن الوضوء من مائة فقط ، فجاء الجواب عن مائه وميتته ، لأن ما احتمل السؤال فى مائه يحتمل الاشتباه فى ميتته . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .

قالوا : كفؤا وكفوا وكفاء ، بمعنى واحد ، وهو المثل .

وقد تعددت أقوال المفسرين فى معنى الآية ، وكلها تدور على معنى نفى المماثلة .

فعن كعب وعطاء : لم يكن له مثل ولا عديل .

وروى ابن جرير عن ابن عباس : أنه بمعنى ليس كمثله شىء .

وعن مجاهد : أى لا صاحبة له .

وقد جاء نفى الكفء والمثل والند والعدل ، فالكفء فى هذه السورة والمثل فى قوله : (ليس كمثله شىء) ، وقوله : (فلا تضربوا لله الأمثال) .

والند فى قوله : (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) .

والعدل فى قوله : (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند آية الأنعام بيان لذلك ، أى يساوونه بغيره من العدل بكسر أوله ، وهو أحد شقى حمل البعير على أحد التفسيرين ، والآخر من العدول عنه إلى غيره .

وفى هذه السورة مبحثان بوردها المفسرون . أحدهما : أسباب نزولها ، والآخر : ما جاء فى فضلها ، ولم يكن من موضوع هـذا الـكتاب تتبع ذلك ، إلا ما كان له دوافع تتعلق بالمعنى

أما ما جاء فى فضلها ، فقد قال أبو حيان فى تفسيره : لقد أكثر المفسرون إيراد الآثار فى ذلك ، وليس هذا محلها ، وهو كما قال ، فقد أوردها ابن كثير والفخر الرازى والقرطبى وابن حجر فى الإصابة فى ترجمة معاذ بن جبل وغيرهم ، وليس هـذا محل إيرادها ، اللهم إلا ما جاء فى الصحيح : أن تلاوتها تعدل ثلث القرآن . لتعلق موضوعها بالتوحيد

أما المبحث الآخر وهو سبب نزولها ، فقيل فيه : إن المشركين طلبوا منه صلى الله عليه وسـلم أن ينسب لهم ربه ، فنزلت .

وقوله فيها (لم يلد ولم يولد) رد على إثبات النسب له سبحانه وتعالى .

وقد جاء مثل هذا المعنى حينما سأل فرعون موسى عن ربه ، فقال له : (وما رب العالمين ؟) .

فجاء جوابه (قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) قال لمن حوله : ألا تستمعون ، قال : ربكم ورب آبائكم الأولين ، قال : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) .

وكنت سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، أن موجب قول فرعون عن موسى لمجنون ، لأنه سأله بما فى قوله : (قال فرعون وما رب العالمين) ؟ وما يسأل بها عن شرح الماهية فكان مقتضى السؤال بها أن يبين ماهية الرب سبحانه وتعالى ، من أى شىء هو ، كما يقال فى جواب : ما الإنسان إنه حيوان ناطق .

ولكن موسى عليه السلام أعرض عن سؤال فرعون لجهله عن حقيقة الله تعالى أو لتجاهله ، كما فى قوله تعالى : (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) وأجابه عما يخصه ويلزمه الاعتراف به من أنه سبحانه رب السماوات والأرض وما بينهما ، لا ربوبية فرعون الكاذبة .

ومثل ذلك فى القرآن ، لما سألوا عن الأهلة ، ما بالها تبدو صغيرة ، ثم تكبر ؟ فهو سؤال عن حقيقة تغيرها ، فترك القرآن جوابهم على سؤالهم وأجابهم بما يلزمهم وينفعهم .

وكذلك جواب الخليل عليه السلام للنمرود حينما حاجّه فى ربه (إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت) .

فذكره سبحانه بصفاته ، وفى هذه السورة لما سألوا عن حقيقة الله ونسبه جاء الجواب بصفاته ، لأن ما يسألون عنه إنما يكون فى المخلوقات لا فى الخالق سبحانه ، وفى الممكن لا فى الواجب لوجود لذاته ، سبحان ما لا يدرك كنهه غيره ، وصدق الله العظيم فى قوله : (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً) .

المعوذتان

سورة الفلق وسورة الناس

يذكر المفسرون عن ابن مسعود، أنه كان يراهما معوذتين من غير القرآن، ولـكن أبى بن كعب قال: أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أخبرنى أن جبريل عليه السلام قال له: (قل أعوذ برب الفلق) فقلتها وقال: (قل أعوذ برب الناس) فقلتها، فنحن نقول ما قاله النبى صـلى الله عليه وسلم، ذكره ابن كثير عن الإمام أحمد.

وذكر نحوه عن البخارى ثم قال: ثم قد رجع عن قوله إلى قول الجماعة، فإن الصحابة رضى الله عنهم أثبتوهما فى المصاحف الأئمة، ونفذوها إلى سائر الآفاق.

وروى عن الإمام أحمد أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ بهما فى الصلاة وساق عدة طرق فى إثبات أنهما قرآن، مما ينفى أى خلاف بعد ذلك فى إثباتهما.

وقد اعتذر القرطبى عن ابن مسعود، بأنه لم يسمعهما من النبى

صلى الله عليه وسلم ، على أنهما قرآن وسمعهما فظنهما أنهما دعاء من الأدعية ، كقوله صلى الله عليه وسلم « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق » .

ولما بلغه إثباتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع إلى قول الجمهور .

ومن الجدير بالذكر التنويه عن ارتباطهما بسورة الإخلاص قبلهما .

وهو أنه سبحانه ، لما ذكر أنه سبحانه وتعالى الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، والصمد من معانيه الذى تصمد الخلائق إليه فى حاجاتهم ، جاء فى هاتين السورتين توجيه العباد إلى من يستعيذون ويلوذون به ، وهو الله الصمد سبحانه ، فهو وحده الذى يعيذهم ويحفظهم وهو الذى يلجئون إليه سبحانه .

وقل أعوذ برب الفلق : تعاذل الاستعاذة بالخالق مما خلق ، لأن كل موجود منفلق عن غيره ، إلا الله الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد .

وجاءت السورة الثانية بعدها قل أعوذ برب الناس إله الناس صفات العظمة كلها لله تعالى .

وسيأتى إن شاء الله تعالى تنبيه على ما يعطيه السياق من ختم المصحف الشريف بهاتين السورتين الكريمتين ، وللمقارنة بينهما لبيان عظم منزلتهما .

كما أن الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، قد أحال على سورة الناس لإتمام مبحث إفراد الله تعالى بالعبادة ، كما سنوضحه كله إن شاء الله فى محله . وبالله تعالى التوفيق .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفلق

سورة الفلق

قيل: إنه لما صرح تعالى بخالص التوحيد فى سورة الإخلاص، وهى معركة الإيمان والشرك، ومثار الخلاف والخصومة بين النبى صلى الله عليه وسلم وأعدائه، أمر صلى الله عليه وسلم أن يتعوذ من شرور الخلق فلا يضروه. إلخ.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾.

قال أبو حيان وغيره: الفلق فعل بمعنى مفعول أى مفلوق، واختلف فى المراد بذلك.

فقيل: إنه الصبح يتفلق عنه الليل.

وقيل: الحب والنوى.

وقيل: هو جب فى جهنم.

وقال بعض المفسرين: كل ما فلقه الله عن غيره، كالليل عن الصبح، والحب والنوى عن النبت، والأرض عن النبات، والجبال

عن العون ، والأرحام عن الأولاد ، والسحاب عن المطر .

وقال ابن جرير : إن الله أطلق ولم يقيد ، فنطلق كذلك كما أطلق .

والذى يظهر أن كل الأقوال ما عدا القول بأنه جب فى جهم من قبيل اختلاف التنوع ، وأنها كلها محتملة ، قال ابن جرير على الإطلاق .

أما القول بأنه جب فى جهم ، فلم يثبت فيه نص ، وليست فيه أية مشاهدة يحال عليها للدلالة على قدرة الله تعالى ، كما فى الأشياء الأخرى المشاهدة .

والذى يشهد له القرآن هو الأول ، كما جاء النص الصريح فى الصبح والحب والنوى ، كقوله تعالى (إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم) .

وكلها آيات دالة على قدرة الله ، وجاء فى حديث عائشة رضى الله عنها فى بدء الوحى ، وأنه صلى الله عليه وسلم ما كان يرى رؤيا ، إلا جاءت كفلق الصبح .

والفلق : بمعنى الصبح . معروف فى كلام العرب .

وعليه قول الشاعر :

باليلة لم أنمها بت مرتقبا أرعى النجوم إلى أن قدر الفلق

وقول الآخر مثله وفيه : إلى أن نور الفلق بدل قدر ، والواقع أنه فى قوة الإقسام برب الكون كله يتفلق بعضه عن بعض .

قوله تعالى ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ .

وهذا عام وهو على عمومه ، حتى قال الحسن : إن إبليس وجهنم مما خلق .

والمعتزلة فى هذه الآية كلام حول خلق أفعال العباد ، وأن الله لا يخلق الشر ، وقالوا : كيف يخلقه ويقدره ، ثم يأمر بالاستعاذة به سبحانه مما خلقه وقدره ؟

وأجيب من أهل السنة : بأنه لا مانع من ذلك ، كما فى قوله صلى الله عليه وسلم : « وأعوذ بك منك » .

وقد قال تعالى : (الله خالق كل شىء) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، مناقشة هذه المسألة

فى مناظرة الأسفرائينى مع الجبـائى فى القدر .

ومعلوم أن المخلوق لا يتأتى منـه شىء قط إلا بمشيئة الخالق ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله .

قوله تعالى ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ .

الغاسق : قيل الليل ، لقوله تعالى : (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل) .

ووقب : أى دخل .

وعليه قول الشاعر :

إن هـذا الليل قد غســـقا واشـتكيت الهـم والأرقا

وقول الآخر :

يا طيف هند قد أبقيت لى أرقا إذ جئتنا طارقا والليل قد غسقا

قال القرطبى : وهذا قول ابن عباس والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم .

وقيل : الغاسق : القمر إذا كان فى آخر الشهر ، لحديث عائشة عند

الترمذى « أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لها : تعوّذى من هذا فإنه الغاسق إذا وقب » . أى القمر .

وقائل هذا القول يقول : إنه أنسب لما يجىء بعده من السحر ، لأنه أكثر ما يكون عندهم فى آخر الشهر .

ونقل القرطبى عن ثعلب ، عن ابن الاعرابى ، أن أهل الريب يتحينون وجبة القمر ، أى سقوطه وغيوبته .

وأنشد قول الشاعر :

أراحنى الله من أشياء أكرهها
منها العجوز ومنها الكلب والقمر
هذا يبوح وهذا يستضاء به
وهـــذه ضمرز قوامة السحر

والضمرز : الناقة المسنة ، والمرأة الغليظة .

والصحيح الأول ، الذى هو الليل بشهادة القرآن .

والثانى : تابع له ، لأن القمر فى ظهوره واختفائه مرتبط بالليل ، فهو بعض ما يكون فى الليل ، وفى الليل تنتشر الشياطين وأهل الفساد ، من الإنسان والحيوان ويقل فيه المغيث إلا الله .

وفى الحديث « أطفئوا السرج فإن الفويسقة تضرم على الناس بيوتهم ليلا » . أى الفأرة .

قوله تعالى ﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾

المراد به السحرة قطعاً ، سواء كان النفث من النساء كما هو ظاهر اللفظ ، أو من الرجال على معنى الجماعات ، أو النفوس الشريرة فتشمل النوعين .

وأجمع المفسرون : أنها نزلت فى لبيد بن الأعصم ، لما سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أتاه جبريل عليه السلام وأخبره .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مبحث السحر وأقسامه وأحكامه وكل ما يتعلق به ، عند الكلام على قوله تعالى : (ولا يفلح الساحر حيث أتى) من سورة طه ، ما عدا مسألة واحدة ، وهى حكم ما لو قتل أو أتلف شيئاً بسحره ، فما يكون حكمه ، ونوردها موجزة .

مسـألة

ذكر ابن قدامة فى المغنى رحمه الله النوع السادس من أنواع القتل : أن يقتله بسحر يقتل غالباً فيلزمه القود ، وإن كان مما لا يقتل غالباً ، ففيه الدية . اهـ .

وذكر النووى فى المنهاج شرح مغنى المحتاج للشافعية : التنبيه على أنه يقتل كذلك .

وذكر مثله ابن حجر فى الفتح : أن الساحر يقتل إذا قتل بسحره .

تنبيـه

يقع تأثير السحر على الحيوان كما يقع على الإنسان .

قال أبو حيان : أخبرنى أنه رأى فى بعض الصحراء عند البعض خيطا أحمر ، قد عقدت فيه عقد على فصلان أى جمع فصيل ، فمنعت من رضاع أمهاتها بذلك ، فكان إذا حل عقدة جرى ذلك الفصيل إلى أمه فى الحين فرضع . اهـ .

كما يقع الحسد أيضاً على الحيوان ، بل وعلى الجماد أى عين العائن تؤثر فى الحيوان والجماد والنبات ، كما تؤثر فى الإنسان

على ما سيأتى إن شاء الله .

قوله تعالي ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

اقتران الحسد بالسحر هنا ، يشير إلى وجود علاقة بين كل من السحر والحسد ، وأقل ما يكون هو التأثير الخفى الذى يكون من الساحر بالسحر ، ومن الحاسد بالحسد مع الاشتراك فى عموم الضرر ، فكلاهما إيقاع ضرر فى خفاء ، وكلاهما منهى عنه .

وقد أوضح فضيلة الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، أنواع السحر وأحكامه وأورد فيه كلاماً وافياً .

وقد ظهر بما قدمنا : أن الحسد له علاقة بالسحر نوعاً ما ، فلزم إيضاحه وبيان أمره بقدر المستطاع ، إن شاء الله .

أولا : تعريفه : قالوا : إن الحسد هو تمنى زوال نعمة الغير ، أو عدم حصول النعمة للغير شحاً عليه بها .

وقد قيدت الاستعاذة من شر الحاسد إذا حسد ، أى عند إيقاعه الحسد بالفعل ، ولم يقيدها من شر الساحر إذا سحر .

وذلك والله تعالى أعلم : أن النفث فى العقد هو عين السحر ،

فتكون الاستعاذة واقعة موقعها عند سحره الواقع منه بنفثه الحاصل منه فى العقد .

أما الحاسد فلم يستعذ منه إلا عند إيقاعه الحسد بالفعل ، أى عند توجهه إلى المحسود ، لأنه قبل توجهه إلى المحسود بالحسد لا يتأتى منه شر ، فلا محل للاستعاذة منه .

أما حقيقة الحسد : فيتعذر تعريفه منطقياً .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه أنه قال فى السحر : لا يمكن تعريفه لخفائه .

ومعلوم أن الحسد أشد خفاء ، لأنه عمل نفسى وأثر قلبى ، وقد قيل فيه : إنه كإشعاع غير مرئى ، ينتقل من قلب الحاسد إلى المحسود ، عند تحرقه بقلبه على المحسود ، وقد شبه حسد الحاسد بالنار فى قولهم :

اصبر على مضض الحسود فإن صبرك قاتله
كالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

وقد أنكر بعض الفلاسفة وقوع الحسد ، حيث إنه غير مشاهد وهم محجوجون بكل موجود غير مشاهد ، كالنفس والروح والعقل

وقد شوهدت اليوم أشعة [إكس] وهى غير مرئية ، ولكنها تنفذ إلى داخل الجسم من إنسان وحيوان ، بل وخشب ونحوه . ولا يردها إلا مادة الرصاص لكثافة معدنه ، فتصور داخل جسم الإنسان من عظام وأمعاء وغيرها ، فلا معنى لرد شىء لعدم رؤيته .

تنبيه

قد أطلق الحسد هنا ولم يبين المحسود عليه ، ما هو مع أنه كما تقدم زوال النعمة عن الغير .

وقد نبه القرآن الكريم على أعظم النعمة التى حسد عليها المسلمون عامة ، والرسول صلى الله عليه وسلم خاصة ، وهى نعمة الإسلام ونعمة الوحى وتحصيل الغنائم .

فأهل الكتاب حسدوا المسلمين على الإسلام فى قوله تعالى : ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق ﴾ .

والمشركون حسدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على نعمة الوحى إليه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾ .

والناس هنا عام أريد به الخصوص ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، كما فى قوله تعالى : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم) .

فالناس الأولى عام أريد به خصوص رجل واحد ، وهو نعيم ابن مسعود الأشجعى .

ومما جاء فيه الحسد عن نعمة متوقعة . قوله تعالى : (سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا) .

فتبين بنص القرآن أن الحسد يكون فى نعمة موجودة ، ويكون فى نعمة متوقع وجودها .

تنبيه آخر

توجد العين كما يوجد الحسد ، ولم أجد من فرّق بينهما مع وجود الفرق .

وقد جاء فى الصحيح « إن العين لحق » .

كما جاء فى السنن : « لو أن شيئاً يسبق القدر لسبقته العين »

ويقال فى الحسد : حاسد ، وفى العين : عائن ، ويشتركان فى الأثر ، ويختلفان فى الوسيلة والمنطلق .

فالحاسد : قد يحسد ما لم يره ، ويحسد فى الأمر المتوقع قبل وقوعه ، ومصدره تحرق القلب واستكثار النعمة على المحسود ، وبتمنى زوالها عنه أو عدم حصولها له وهو غاية فى حطة النفس .

والعائن : لا يعين إلا ما يراه والموجود بالفعل ، ومصدره انقداح نظرة العين ، وقد يعين ما يكره أن يصاب بأذى منه كولده وماله .

وقد يطلق عليه أيضاً الحسد ، وقد يطلق الحسد ويراد به الغبطة ، وهو تمنى ما يراه عند الآخرين من غير زواله عنهم .

وعليه الحديث : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل أتاه الله ما لا فسلطه على هلكته فى الخير ، ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضى بها بين الناس » .

وقال القرطبى : روى مرفوعاً « المؤمن يغبط ، والمنافق يحسد »

وقال : الحسد أول ذنب عصى الله به فى السماء ، وأول ذنب عصى به فى الأرض ، فحسد إبليس آدم وحسد قابيل هابيل . اهـ .

تحـــذير

كنت سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه قوله : إن أول معصية وقعت هى الحسد ، وجر شؤمها إلى غيرها ، وذلك لما حسد إبليس أبانا آدم على ما آتاه الله من الكرامات من خلقه بيديه ، وأمر الملائكة بالسجود له ، فحمله الحسد على التكبر ، ومنعه التكبر من امتثال الأمر بالسجود ، فكانت النتيجة طرده ، عياذاً بالله

أسباب الحسد

وبتأمل القصة ، يظهر أن الحامل على الحسد أصله أمران :

الأول : ازدراء المحسود .

والثانى : إعجاب الحاسد بنفسه ، كما قال إبليس معللا لامتناعه من السجود : (أنا خير منه) .

ثم فصل معنى الخيرية المزعومة بقوله : (خلقتنى من نار وخلقته من طين) ويلحق بذلك جميع الأسباب .

وقد ذكروا منها التعزز فى نفسه ، ولا يريد لأحد أن يرتفع عليه ، والتعجب بأن يعجب بنفسه ، ولا يرى أحدا أولى منه ،

والخوف من فوات المقاصد عند شخص إذا رآه سيستغنى عنه ، وحب الرئاسة ممن لايريد لأحد أن يتقدم عليه فى أى فن أو مجال .

وذكرها الرازى نقلا عن الغزالى .

ومن هنا لانرى معجبـــاً بنفسه قط ، إلا ويزدرى الآخرين ويحسدهم على أدنى نعمة أنعمها الله عليهم . عافانا الله من ذلك .

تنبيـــه

إذا كانت أول معصية وقعت هى حسد إبليس بأبينـا آدم على ما أنعم الله به عليه ، وجاء حسد المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم على نعمة الوحى ، وحسد أهل الكتاب للمسلمين على نعمة الإسلام ، وجاءت هذه الصورة فى أواخر القرآن ، فكأنها جاءت فى أعقـاب القرآن لتذكر المسلمين بعظم نعمتـه عليهم وشدة حسـدهم عليـه ، ليحذروا أعداءهم الذين يكيدون لهم فى دينهم ، من كل من الجنـة والناس ، على ماسيأتى فى السورة بعدها والأخيرة ، إن شاء الله

مسـألة

فى حكم من قتل أو كسر أو أتلف شيئا بالعين

تقـدم بيان ذلك فى حق السحر ، أما فى حق العين ، فقـد قال

ابن حجر فى فتح البارى فى كتاب الطب مانصه وقد اختلف فى جريان القصاص بذلك، يعنى بالعين.

فقال القرطبى : لو أتلف العائن شيئاً ضمنه لو قتل فعليه القصاص أو الدية إذا تكرر ذلك منه ، بحيث يصير عادة وهو فى ذلك كالساحر عند من لايقتله كفرا اهـ.

ولم يتعرض الشافعية للقصاص فى ذلك بل منعوه ، وقالوا : إنه لايقتل غالبا ولا يعد مهلكا .

وقال النووى فى الروضة : ولا دية فيه ولا كفارة ، لأن الحكم إنما يترتب على منضبط عام دون مايختص ببعض الناس فى بعض الأحوال ، مما لا انضباط له ، كيف ولم يقع منه فعل أصلا ، وإنما غايته حسد وتمن لزوال نعمة .

وأيضاً ، فالذى ينشأ عن الإصابة بالعين حصوله مكروه لذلك الشخص ، ولايتعين ذلك المكروه فى زوال الحياة ، فقد يحصل له مكروه بغير ذلك من أثر العين . اهـ .

ولايمكر على ذلك إلا الحكم بقتل الساحر ، فإنه فى معناه ، والفرق بينهما عسير .

ونقل ابن بطال عن بعض أهل العلم : أنه ينبغى للامام منع

العائن إذا عرف بذلك من مداخلة الناس ، وأنه يلزمه بيته ، فإن كان فقيراً رزقه مايقوم به ، فإن ضرره أشد من ضرر المجذوم الذى أمر عمر رضى الله عنه بمنعه من مخالطة الناس ، وأشد من ضرر الثوم الذى منع الشارع آكله من حضور الجماعة .

قال النووى : وهذا القول صحيح متعين ، لايعرف عن غيره تصريح بخلافه . اهـ . من فتح البارى .

وبتأمل قول القرطبي والنووى بدقة ، لايوجد بينهما خلاف فى الأصل ، إذ القرطبي يقيد كلامه بما يتكرر منه بحيث يصير عادة له .

والنووى يقول : إنه لايقتل غالباً ، وعليه فلو ثبت أنه يقتل غالباً وتكرر ذلك منه ، فإنه يتفق مع كلام القرطبي تماماً فى أن من أتلف بعينه وكان معتادا منه ذلك فهو ضامن ، وهذا معقول المعنى ، والله تعالى أعلم .

وعند الحنابلة فى كشاف القناع مانصه : والمعيان الذى يقتل بعينه .

قال ابن نصر الله فى حواشى الفروع : ينبغى أن يلحق بالساحر الذى يقتل بسحره غالباً ، فإذا كانت عينه يستطيع القتل بها ويفعله باختياره وجب به القصاص . اهـ .

مسألة

بيان ماتعالج به العين

لما كان الحسد أضر مايكون على الإنسان ، والإصابة بالعين حق لاشك فيها وجاء فيها : « لو أن شيئا يسبق القدر لسبقته العين » .

وحديث : « إن العين لحق » فقد فصلت السنة كيفية اتقائها قبل وقوعها ، والعلاج منها إذا وقعت .

وذلك فيما رواه مالك فى الموطأ وغيره من الصحاح ، فى حديث سهل بن حنيف ، وبوّب البخارى فى صحيحه باب رقية العين ، وذكر حديث عائشة أنها قالت : « أمرنى النبى صلى الله عليه وسلم ، أو أمر أن يسترقى من العين » .

وعقد مالك فى الموطأ باباً بعنوان « الوضوء من العين » وباب آخر بعده بعنوان « الرقية من العين » ، وساق حديث سهل بتمامه وفيه بيان كيفية اتقائها وعلاجها ، ولذا نكتفى بإيراده لشموله .

قال : عن محمد بن أبى أسامة بن سهل بن حنيف أنه سمع أباه يقول : اغتسل أبى سهل بن حنيف بالخرار فنزع جبة كانت عليه ،

وعامر بن ربيعة ينظر ، قال : وكان سهل رجل أبيض حسن الجلد ، قال : فقال له عامر بن ربيعة : مارأيت كاليوم ولا جلد عذراء ، قال : فوعك سهل مكانه واشتد وعكه ، فأُتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر أن سهلا وعك ، وأنه غير رائح معك يارسول الله ، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره سهل بالذى كان من أمر عامر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « علام يقتل أحدكم أخاه ألا بركت ، إن العين حق ، توضأ له فتوضأ له عامر ، فراح سهل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس » .

وساق مرة أخرى وفيه ، فقال صلى الله عليه وسلم « هل تتهمون له أحداً ؟ قالوا : نتهم عامر بن ربيعة ، قال : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عامراً فتغيظ عليه ، وقال : علام يقتل أحدكم أخاه ، ألا بركت ، اغتسل له ، فغسل عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه ، وداخل إزاره فى قدح ثم صب عليه فراح سهل مع الناس ، ليس به بأس » .

فهذه القصة تثبت قطعاً وقوع العين ، وهذا أمر مجمع عليه من أهل السنة وسلف الأمة ، كما أنها ترشد إلى أن من برك ، أى قال : تبارك الله .

وفى بعض الروايات لغير مالك : هلا كبّرت ، أى يقول :

الله أكبر ثلاثا ، فإن ذلك يرد عين العائن .

كما جاء فى السنة « أن الدعاء يرد البلاء » فإذا لم تدفع عند صدورها وأصابت ، فإن العلاج منها كما جاء هنا توضأ له ، واللفظ الآخر : « اغتسل له » .

وقد فصل المراد بالغسل له : أنه غسل الوجه واليدين أى الكفين فقط ، والمرفقين والركبتين والقدمين وطرف الإزار الداخلى ، ويكون ذلك فى إناء لايسقط الماء على الأرض ، ويفرغ هذا الماء على المصاب من الخلف ويكفؤ الإناء خلفه .

وقد ذكرها مفصلة القاضى الباجى فى شرح الموطأ فقال : وروى عن يحيى بن يحيى عن ابن نافع فى معنى الوضوء الذى أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

يغسل الذى يتهم بالرجل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه ورجليه وداخلة إزاره ، وقال : ولا يغسل مابين اليد والمرفق ، أى لايغسل الساعد من اليد .

وروى عن الزهرى أنه قال : الغسل الذى أدركنا علماءنا يصفونه : أن يؤتى العائن بقدح فيه ماء ، فيمسك مرتفعا من الأرض فيدخل فيه كفه فيمضمض ، ثم يمجه فى القدح ، ثم يغسل وجهه فى

القدح صبة واحدة ، ثم يدخل يده اليسرى فيصب بها على كفه اليمنى ، ثم يدخل يده اليمنى فيصب بها على ظهر كفه اليسرى صبة واحدة ، ثم يدخل يده اليسرى فيصب بها على مرفقه الأيمن ، ثم يدخل يده اليمنى فيصب على مرفقه الأيسر ، ثم يدخل يده اليسرى فيصب بها على قدمه اليمنى ، ثم يدخل يده اليمنى فيصب بها على قدمه الأيسر ، ثم يدخل يده اليسرى فيصب بها على ركبته اليمنى ، ثم يدخل يده اليمنى فيصب بها على ركبته اليسرى ، كل ذلك فى قدح ثم يدخل داخلة إزاره فى القدح ولا يوضع القدح فى الأرض ، فيصب على رأس المعين من خلفه صبة واحدة ، وقيل : يغتفل ويصب عليه ، أى فى حالة غفلته ، ثم يكفأ القدح على ظهر الأرض وراءه .

وأما داخلة إزاره : فهو الطرف المتدلى الذى يفضى من مأزره إلى جلده مكانه ، إنما يمر بالطرف الأيمن على الأيسر ، حتى يشده بذلك الطرف المتدلى الذى يكون من داخل . ا هـ .

ومما يرشد إليه هذا الحديث تغيظه صلى الله عليه وسلم على عامر ابن ربيعة .

وقوله صلى الله عليه وسلم « علام يقتل أحدكم أخاه » مما يبين شناعة هذا العمل ، وأنه قد يقتل .

ومما ينبغى مراعاته من كل من الطرفين من ابتلى بالعين ، فليبارك عند رؤيته مايعجبه لئلا يصيب أحداً بعينه ، ولئلا تسبقه عينه .

وكذلك من انهم أحداً بالعين . فليكبر ثلاثا عند تخوفه منه . فإن الله يدفع العين بذلك . والحمد لله .

وقد ذكروا للحسد دواء كذلك ، أى يداوى به الحاسد نفسه ليستريح من عناء الحسد المتوقد فى قلبه المنغص عليه عيشه الجالب عليه حزنه ، وهو على سبيل الإجمال فى أمرين . العلم ثم العمل .

والمراد بالعلم هو أن يعلم يقيناً أن النعمة التى يراها على المحسود ، إنما هى عطاء من الله بقدر سابق وقضاء لازم ، وأن حسده إياه عليها لايغير من ذلك شيئاً ، ويعلم أن ضرر الحسد يعود على الحاسد وحده فى دينه لعدم رضائه بقدر الله وقسمته لعباده ، لأنه فى حسده كالمعترض على قوله تعالى : (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا) وفى دنياه لأنه يورث السقام والأحزان والكآبة ونفرة الناس منه ومقتهم إياه ، ومن وراء هذا وذاك . العقاب فى الآخرة .

أما العمل فهو مجاهدة نفسه ضد نوازع الحسد ، كما تقدمت الإشارة إليه فى الأسباب ، فإذا رأى ذا نعمة فازدرته عينه ، فليحاول أن يقدره ويخدمه .

وإن راودته نفسه بالإعجاب بنفسه ، ردّها إلى التواضع وإظهار العجز والافتقار .

وإن سوّلت له نفسه تمنى زوال النعمة عن غيره ، صرف ذلك إلى تمنى مثلها لنفسه . وفضل الله عظيم .

وإن دعاه الحسد إلى الإساءة إلى المحسود ، سعى إلى الإحسان إليه ، وهكذا . فيسلم من شدة الحسد ، ويسلم غيره من شره .

وكما فى الأثر : « المؤمن يغبط ، والمنافق يحسد » .

نسأل الله العافية والمعافاة .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَهِ النَّاسِ ﴾

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، الإحالة على هذه السورة عند كلامه على قوله تعالى : (ألا تعبدوا إلا إياه إننى لكم منه نذير وبشير) فى سورة هود ، فقال على تلك الآية : فيها الدلالة الواضحة على أن الحكمة العظمى التى أنزل القرآن من أجلها ، هى أن يعبد الله تعالى وحده ولا يشرك به فى عبادته شيء .

وساق الآيات المماثلة لها ثم قال : وقد أشرنا إلى هذا البحث فى سورة الفاتحة ، وسنتقصى الكلام عليه إن شاء الله تعالى فى سورة الناس ، ليكون خاتمة هذا الكتاب المبارك حسنى . اهـ .

وإن فى هذه الإحالة منه رحمة الله تعالى علينا وعليه لتنبيها على المعانى التى اشتملتها هذه السورة الكريمة ، وتوجيهاً لمراعاة تلك الخاتمة .

كما أن فى تلك الإحالة تحميل مسئولية الاستقصاء حيث لم يكتف بما قدمه فى سورة الفاتحة ، ولا فيما قدمه فى سورة هود ، وجعل

الاستقصاء فى هذه السورة، ومعنى الاستقصاء: الاستيعاب إلى أقصى حد .

وما أظن أحداً يستطيع استقصاء مايريده غيره ، ولاسيما ما كان يريده الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه وما يستطيعه هو .

ولكن على ماقدمنا فى البداية : أنه جهد المقل ووسع الطاقة. فنستعين الله ونستهديه مسترشدين بما قدمه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورتى الفاتحة وهود ، ثم نورد وجهة نظر فى السورتين معاً الفلق والناس ، ثم منهما وفى نسق المصحف الشريف ، آمل من الله تعالى ورجاء توفيقه ومعونته .

أما الإحالة فالذى يظهر أن موجبها هو أنه فى هذه السورة الكريمة اجتمعت ثلاث صفات لله تعالى من صفات العظمة والكمال : رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، ولكأنها لأول وهلة تشير إلى الرب الملك هو الإله الحق الذى يستحق أن يعبد وحده .

ولعله مايرشد إليه مضمون سورة الإخلاص قبلها : هو الله أحد ، الله الصمد ، وهذا هو منطق العقل والقول الحق لأن مقتضى الملك يستلزم العبودية . والعبودية تستلزم التأليه والتوحيد فى الألوهية ، لأن العبد المملوك تجب عليه الطاعة والسمع لمالكه بمجرد الملك ، وإن كان

مالكه عبداً مثله ، فكيف بالعبد المملوك لربه وإلهه ، وكيف بالمالك الإله الواحد الأحد الفرد الصمد ؟

وقد جاءت تلك الصفات الثلاث : الرب الملك الإله ، فى أول افتتاحية أول المصحف : (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) . والقراءة الأخرى (ملك يوم الدين) .

وفى أول سورة البقرة أول نداء يوجه للناس بعبادة الله تعالى وحده ، لأنه ربهم مع بيان الموجبات لذلك فى قوله تعالى : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) .

ثم بين الموجب لذلك بقوله : (الذى خلقكم والذين من قبلكم) :

وقوله : (الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم) .

وهذا كله من آثار الربوبية واستحقاقه تعالى على خلقه العبادة ، ثم بين موجب إفراده وحده بذلك بقوله : (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) .

أى كما أنه لا ندّ له فى الخلق ولا فى الرزق ولا فى شىء مما ذكر ، فلا تجعلوا لله أندادا أيضاً فى عبادة ، وأنتم تعلمون حقيقة ذلك .

وعبادته تعالى وحده ونفى الأنداد، هو ماقال عنه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه: معنى لا إله إلا الله نفياً وإثباتاً.

فالإثبات فى قوله تعالى: (اعبدوا الله).

والنفى فى قوله: (فلا تجعلوا لله أنداداً).

وكون الربوبية تستوجب العبادة، جاء صريحاً فى قوله تعالى: (فليعبـــدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف).

فالموصول وصلته فى معنى التعليل لموجب العبادة، وسيأتى لذلك زيادة إيضاح إن شاء الله تعالى فى نهاية السورة.

وقد جاء هنا لفظ (رب الناس) بإضافة الرب إلى الناس، مما يشعر بالاختصاص، مع أنه سبحانه رب العالمين ورب كل شىء، كما فى أول الفاتحة: (الحمد لله رب العالمين).

وفى قوله: (قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شىء).

فالإضافة هنا إلى بعض أفراد العام.

وقد أضيف إلى بعض أفراد أخرى كالسماوات والأرض وغيرها.

من بعض كل شيء ، كقوله : (قل من رب السماوات والأرض ، قل الله) .

وقوله : (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) .

وإلى البيت (فليعبدوا رب هذا البيت) .

وإلى البلد الحرام (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة) .

وإلى العرش (رب العرش الكريم) .

وإلى الرسول (اتبع ما أوحى إليك من ربك) .

وقوله : (وربك فكبر) إلى غير ذلك .

ولكن يلاحظ أنه مع كل إضافة من ذلك مايفيد العموم ، وأنه مع إضافته لفرد من أفراد العموم ، فهو رب العالمين ، ورب كل شيء ، ففى إضافته إلى السماوات والأرض جاء معها (قل الله) .

وفى الإضافة إلى المشرق والمغرب جاء (لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) .

وفى الإضافة إلى البيت جاء (الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) وهو الله سبحانه .

وفى الإضافة إلى البلدة جاء (الذى حرمها) وهو الله تعالى .

وفى الإضافة إلى العرش جاء قوله تعالى : (فتعالى الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش) .

وفى الإضافة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم جاء قوله : (ماودعك ربك) ، وغير ذلك من الإضافة ، إلى أى فرد من أفراد العموم يأتى معها مايفيد العموم ، وأن الله رب العالمين .

وهنا رب الناس جاء معها (ملك الناس إله الناس) ليفيد العموم أيضاً ؛ لأن إطلاق الرب قد يشارك فيه السيد المطاع ، كما فى قوله : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) .

وقول يوسف لصاحبه فى السجن (اذكرنى عند ربك) أى الملك على أظهر الأقوال ، وقوله : (ارجع إلى ربك فاسأله مابال النسوة) الآية .

فجاء بالملك والإله للدلالة على العموم ، فى معنى رب الناس ، فهو سبحانه رب العالمين ورب كل شىء ، ولكن إضافته هنا إلى خصوص الناس إشعار بمزيد اختصاص ، ورعاية الرب سبحانه لعبده الذى دعاه إليه ليستعيذ به من عدوه ، كما أن فيه تقوية رجاء العبد فى ربه بأنه سبحانه بربوبيته سيحمى عبده لعبوديته ويعيذه مما استعاذ به منه .

ويقوى هذا الاختصاص إضافة الرب للرسول صلى الله عليه وسلم فى جميع أطواره منذ البدأين : بدأ الخلقة وبدأ الوحى ، فى قوله : (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق) ، ثم فى نشأته (ماودعك ربك وماقلى - إلى قوله - ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى) .

وجعل الرغبة إليه فى السورة بعدها (وإلى ربك فارغب) بعد تعداد النعم عليه من شرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر ، ثم فى المنتهى قوله : (إن إلى ربك الرجعى) .

قوله تعالى : (ملك الناس) فى مجىء ملك الناس بعد رب الناس ، تدرج فى التنبيه على تلك المعانى العظام ، وانتقال بالعباد من مبدإ الإيمان بالرب لما شاهدوه من آثار الربوبية فى الخلق والرزق ، وجميع تلك الكائنات ، كما تقدم فى أول نداء وجه إليهم (اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) .

كل هذه الآثار التى لمسوها وأقروا بموجبها ، بأن الذى أوجدها هو ربهم ، ومن ثم ينتقلون إلى الدرجة الثانية ، وهى أن ربه الذى

هـذه أفعاله هو ملكه وهو المتصرف فى تلك العوالم ، ومملك لأمره وجميع شئونه ، ومالك لأمر الدنيا والآخرة جميعاً .

فإذا وصل بإقراره إلى هذا الإدراك ، أقر له ضرورة له بالألوهية وهى المرتبة النهاية . إله النـاس أى مألوههم ومعبودهم وهو ماخلقهم إليه ، (وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

وفى إضافة الملك إلى النـاس من إشعار الاختصاص ، مع أنه سبحانه ملك كل شىء ، فيه مافى إضافة الرب للناس المتقدم بحثه ، فهو سبحانه مالك الملك كما فى قوله : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء)

وقوله تعالى : (له الملك وله الحمد)

وقوله : (له ملك السماوات والأرض) وقوله (الملك القدوس)

فهو سبحانه وتعالى المتفرد بالملك لاشريك له فى ملكه ، كما قال تعالى : (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك) فبدأ بالحمد أولا .

ومثله قوله : (فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء) بدأ بتسبيح نفسه وتنزيهه لعموم الملك ومطلق التصرف ونفى الشريك لأن

حلكه ملك تصرف وتدبير مع الكمال فى الحمد والتقديس .

وكقوله : (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير) .

وبهذه النصوص يعلم كمال ملكه تعالى ، ونقص ملك ما سواه من ملوك الدنيا ، ونعلم أن ملكهم بتمليك الله تعالى إياهم كما فى قوله تعالى : (والله يؤتى ملكه من يشاء) .

وقوله : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) .

ومن المعلوم أن ملوك الدنيا ملكهم ملك سياسة ورعاية ، لا ملك تملك وتصرف ، وكما فى قوله تعالى : (وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال . قال : إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم ، والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم) .

والجدير بالتنبيه عليه بهذه المناسبة أن « بريطانيا » تحترم نظام الملكية إلى هذا الوقت الحاضر ، بدافع من هذا المعتقد ، وأنه لا ملك إلا بتمليك الله إياه ، وأن ملوك الدنيا باصطفاء من الله .

والآية تشير إلى ما نحن بصدد بيانه ، من أن ملوك الدنيا لا يملكون

أمر الرعية لأن طالوت ملكا ، وليس مالكا لأموالهم .

بينما ملك الله تعالى ملك خلق وإيجاد وتصرف ، كما فى قوله تعالى : (لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما ، إنه عليم قدير) .

وعليم قدير هنا من خصائصه سبحانه وتعالى ، فيتصرف فى ملكه بعلم وعن قدرة كاملتين سبحانه ، له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير .

وتظهر حقيقة ذلك إذا جاء اليوم الحق ، فيتلاشى كل ملك قلّ أو كثر ، ويذل كل ملك كبر أو صغر ، ولم يبق إلا ملكه تعالى يوم هم بارزون ، لا يخفى على الله منهم شىء ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار .

وفى سورة الفاتحة (ملك يوم الدين) .

والقراءة الأخرى (مالك يوم الدين)

فى القراءتين معاً إشعار بالفرق بين ملك الله وملك العباد ، كالفرق بين الملك المطلق والملك النسبى ، إذ الملك النسبى لا يملك . والملك المطلق

فهو الملك القدوس ، والذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجع الخلائق كلهم .

ومن كانت هذه صفاته ، فهو المستحق لأن يعبد وحده سبحانه ، ولا يشرك معه أحد ، وهذا هو شعار العبد فى الركن الخامس من أركان الإسلام ، حين يهلّ بالتلبية : إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

قوله تعالى : (إله الناس) .

هذه هى المرتبة الثالثة فى كمال العبودية ، وإفراد الله تعالى بالألوهية .

وهذا هو محل الإحالة ، التى عناها الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فيما يظهر ، لأن العبد إذا أقر بأن الله تعالى ربه وخالقه ، ومنعم عليه أوجده من العدم ، ورباه بالنعم ، لا رب له سواه ، ثم تدرج بعلمه ويقينه إلى الإقرار بأن ربه هو مليكه والمتصرف فى أمره وحده ، وأنه لا يملك هو نفسه مع الله شيئاً ، ولا يملك له أحد من الله شيئاً .

وأن كل تصرفات العالم كله بأمره فلا يصل إليه خير إلا بإذنه ،

ولا يصرف عنه ضرر إلا بأمره .

وعرف فى يقين : أنه عبد مملوك لمن بيده ملكوت السموات والأرض ، توصل بعلمه هذا أن من كانت هذه صفاته ، كان هو وحده المستحق لإفراده بالعبادة وبالألوهية ، لا إله إلا هو .

فيكون فى خاتمة المصحف الشريف انتزاع الإقرار من العبد لله سبحانه بطريق الإلزام ، بالمعنى الذى أرسل الله به رسله ، وأنزل من أجله كتبه ، وهو أن يعبد الله وحده ، وهو ما صرح الشيخ به فى الإحالة السابقة .

وإذا كان الشيخ رحمه الله ، قد نبه على مراعاة خاتمة المصحف ، فإنا لو رجعنا إلى أول المصحف وآخره لوجدنا ربطا بديعاً ، إذ تلك الصفات الثلاث فى سورة الناس موجودة فى سورة الفاتحة ، فاتفقت الخاتمة مع الفاتحة فى هذا المعنى العظيم ، إذ فى الفاتحة الحمد لله رب العالمين . وملك يوم الدين ، فجاءت صفة الربوبية والملك والألوهية فى لفظ الجلالة .

وتكون الخاتمة الشريفة من باب عود على بدء ، وأن القرآن كله

فيما بين ذلك شرح وبيان لتقدير هذا المعنى الكبير .

وسيأتى لذلك زيادة إيضاح فى النهاية ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى ﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ .

كلاهما صيغة مبالغة من الوسوسة والخنس ، بسكون النون .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان معنى الوسوسة ، والوسواس لغة وشرعاً ، أى المراد عند كلامه على قوله تعالى : (فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد) الآية .

وبين مشتقاتهما وأصل اشتقاقهما ، وهو يدور على أن الوسوسة : الحديث الخفى . والخنس : التأخر ، كما تكلم على ذلك فى دفع إيهام الاضطراب ، حيث اجتمع المعنيان المتنافيان .

لأن الوسواس : كثير الوسوسة ، ليضل بها الناس . والخناس : كثير التأخر والرجوع عن إضلال الناس .

وأجاب بأن لكل مقام مقالا ، وأنه يوسوس عند غفلة العبد عن ذكر ربه ، خانس عند ذكر العبد ربه تعالى ، كما دل عليه قوله

تعالى : (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطانا فهو له قرين) إلى آخره . اهـ .

قوله تعالى ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ .

اختلف فى الظرف هنا ، هل هو ظرف للوسواس حينما يوسوس ، فيكون موجوداً فى الصدور ، ويوسوس للقلب ، أو هو ظرف للوسوسة. ويكون المراد بالصدور القلوب ، لكونها حالة فى الصدور من باب إطلاق المحل ، وإرادة الحال على ما جار فى الأساليب البلاغية .

وعلى حد قوله تعالى : (فليدع ناديه) أطلق النادى ، وأراد من يحل فيه من القوم .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بحث تعدية الوسوسة تارة بإلى وتارة باللام ، ففى سورة الأعراف (فوسوس لهما الشيطان) ، وفى طه : (فوسوس إليه الشيطان) .

وحاصل ما ذكره فى الجمع بينهما أحد أمرين : إما أن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض ، وذكر شواهده ، وإما أن يكون وسوس له أى لأجله ووسوس إليه أى أنهى إليه الوسوسة ، ولكن هنا قال :

(فى صدور الناس) ولم يقل : إلى صدور الناس ، فهل هو من باب نيابة حروف الجر بعضها عن بعض أيضاً ؟ أم هى ظرف بحض ؟ .

والظاهر أنها ظرف ، ولكن هل هو الظرف للوسواس ، أوظرف للوسوسة نفسها ؟

وبالنظر إلى كلام المفسرين ، فإن كلام ابن جرير يحتمل اعتبار للمعنيين بدون تعيين .

وأما القرطبى ، والألوسى ، فصرحا بما ظهر لهما ووصلا إليه .

فقال القرطبى ، قال مقاتل : إن الشيطان فى صورة خنزير يجرى من مجرى الدم فى العروق سلّطه الله على ذلك وذكر الحديث « إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيّقوا مجاريه » .

وقال : إن أبا ثعلبة الخشنى قال : سألت ربى أن يرينى الشيطان ، ومكانه من ابن آدم ، فرأيته يداه فى يديه ورجلاه فى رجليه ومشاعيه فى جسده ، غير أن له خطما كخطم الكلب ؟ فإذا ذكر الله خنس ، وإذا سكت عن ذكر الله أخذ بقلبه .

أما الألوسى فقد صرح بالتقسيم الذى أوردناه ، فقال : الذى يوسوس فى صدور الناس .

قيل : أريد قلوبهم مجازاً .

وقال بعضهم : إن الشيطان يدخل الصدر الذى هو بمنزلة الدهليز ، فيلقى منه ما يريد إلقاءه إلى القلب ويوصله إليه ، ولا مانع عقلا من دخوله فى جوف إنسان . وساق الحديث أيضاً « إن الشيطان يجرى » إلى آخره .

ومراده بالمجاز ما قدمنا من إطلاق المحل وإرادة الحال .

وذكر ابن كثير عن ابن عباس ومجاهد أن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ، وإذا ذكر الله خنس .

والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن الصدر ظرف للوسواس ، وأنه يوقع الوسوسة فى القلب . على ما قاله ابن عباس ومجاهد رحمهم الله .

وفى لفظ الناس هنـا المضاف إليه الصدور ، اختلاف فى المراد منه ، فقيل : الإنس . لظاهر الاستعمال .

وقيل : الثقلان : الإنس والجن .

وإن إطلاق الناس على الجن مسموع ، كما حكاه القرطبى قال عن بعض العرب :

إنه كان يحدث فجاء قوم من الجن فوقفوا ، فقيل : من أنتم ؟ فقالوا : ناس من الجن ، وهذا معنى قول الفراء .

واستدل صاحب هذا القول بطريق القياس باستعمال لفظى رجال

ونفر فى قوله تعالى : (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن) وقوله (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن) .

وعليه يكون الوسواس المستعاذ منه يوسوس فى صدور الجن والإنس .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الوجه ، ولكنه رده وضعفه ، لأن لفظ الناس أظهر وأشهر فى الإنس ، وهو المعروف فى استعمال القرآن ، ولأنه على هذا يكون قسيم الشىء قسما منه ، لأنه يجعل الناس قسيم الجن ، ويجعل الجن نوعاً من الناس اهـ . ملخصاً .

وعلى كل ، فإن منهج الأضواء أن ما كان محتملا وكان أكثر استعمالات القرآن لأحد الاحتمالين ، فإن كثرة استعماله إياه تكون مرجحاً ، وجميع استعمالات القرآن للفظ الناس إنما هو فى خصوص الإنس فقط ، ولم تستعمل ولا مرة واحدة فى حق الجن مع مراعاة استعمالها فى هذه السورة وحدها خمس مرات ، حتى سميت سورة الناس .

أما القياس على لفظتى رجل ونفر ، فقد رده شيخ الاسلام ابن تيمية أيضاً بأنهما وردا مقيدين رجال من الجن ، نفراً من الجن .

أما على الإطلاق فلم يردا ، وهكذا لفظ الناس فلا مانع من

استعماله مقيداً بناس من الجن . أما على الاطلاق فلا .

وعليه ، فحيث ورد لفظ الناس هنا مطلقا فلا يصح حمله على الجن والإنس معاً ، بل يكون خاصاً بالإنس فقط ، ويكون فى صدور الناس أى فى صدور الإنس

وقد ذكر أبو السعود معنى آخر فى لفظ الناس : وهو أن الناسى من النسيان ، حذفت الياء تخفيفاً لأن الوسواس لا يوسوس إلا فى حين النسيان والغفلة .

وعليه ، يكون حذف الياء كحذفها من الداع فى قوله : (يوم يدع الداع) ونحوه .

ولكن يبقى على هذا القول بيان من المراد بالناسى ، أهو من الإنس أم من الجن ، فلم يخرج عن الاحتمالين السابقين ، مع أن هذا القول من لوازم معنى الوسواس الخناس .

ويرد على هذا القول جمع الصدور وإفراد الناس ، والجمع لا يضاف إلا إلى جمع ، أى جمع الصدور ، لأن الفرد ليس له جمع من الصدور ، فيقابل الجمع بجمع ، أو يكتفى بالمفرد بمفرد .

وقد جاء فى إضافة الجمع إلى المثنى فى قوله : (فقد صغت قلوبكما) .

قال أبو حيان : وحسنه أن المثنى جمع فى المعنى ، والجمع فى مثل هذا أكثر استعمالا من المثنى والتثنية دون الجمع .

كما قال الشاعر :

فتخالسا نفسيهما بنوافذ كنوافذ العبط التى لاترفع

وهذا كان القياس وذلك أن المعبر عن المثنى بالمثنى ، لكن كرهوا اجتماع تثنيتين فعدلوا إلى الجمع بأن التثنيـــــة جمع فى المعنى والإفراد ، لايجوز عند أصحابنا إلا فى الشعر .

كقوله

* حمامة بطن الواديين ترنمى *

يريد بطنى ، وغلط ابن مالك فى التسهيل إذ قال : ونختـــــار الإفراد على لفظ التثنية ، فتراه غلط ابن مالك فى اختياره جواز إضافة الجمع إلى المفرد ، كأنه قل : ولا يجوز ذلك إلا فى الشعر ، وأنه مع المثنى لكراهية اجتماع التثنيتين ، فظهر بطلان قول أبى السعود .

أما الراجح فى الوجهين فى معنى الناس المتقدم ذكرهما . فهو الوجه الأول ، وهو أنهم الإنس ، وأن قوله تعالى (من الجنة والناس) بيان لمن يقوم بالوسوسة ، أى بيان للوسواس الخناس وأنه من كل من وسواس الجنة ووسواس الناس .

ويظهر ذلك من أمور :

منها : أن الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ولأمته تبعاً له فهو

فى حق الناس أظهر .

ومنها : أننا لو جعلنا الناس الأولى عامة لمن يوسوس إليه كان من الجنة ، والناس مصدر الوسوسة ، فيكون من وسواس الناس من يوسوس فى صدور الجن . وهذا بعيد .

ومنها : أنه لو كان لفظ الناس يشمل الجن والانس ، لما احتيج إلى هذ التقسيم الجنة والناس ، واكتفى فى الثانية بما اكتفى به فى الأولى ، وكان يكون الذى يوسوس فى صدور الناس من الناس ، ولكن جاء بيان محل الوسوسة صدور الناس ، ثم جاء مصدر الوسوسة الجنة والناس ، والله تعالى أعلم .

تنبيه

ذكر أبوحيان فى آخر تفسيره مقارنة لطيفة بين سورتى المعوذتين ، فقال : ولما كانت مضرة الدين ، وهى آفة الوسوسة أعظم من مضرة الدنيا وإن عظمت ، جاء البناء فى الاستعاذة منها بصفات ثلاث : الرب ، والملك ، والإله ، وإن اتحد المطلوب

وفى الاستعاذة من ثلاث : الغاسق ، والنفاثات ، والحاسد ، بصفة واحدة وهى الرب ، وإن تكثر الذى يستعاذ منه .

وهذه الأخرى لفتة كريمة ، طالما كنت تطلعت إليها فى وجهتى

نظر ، إحداها : بين السورتين ، والأخرى بين سورة الناس ونسق المصحف الشريف ، سيأتى إيرادها إن شاء الله .

إلا أنه على وجهة نظر أبى حيان ، وهى أنه تعالى فى سورة الفلق جاء فى الاستعاذة بصفة واحدة وهى رب الفلق .

وفى سورة الناس جاء فى الاستعاذة بثلاث صفات ، مع أن المستعاذ منه فى الأولى ثلاثة أمور ، والمستعاذ منه فى الثانية أمر واحد ، فلخطر الأمر الواحد جاءت الصفات الثلاث .

ويقال أيضاً من جهة أخرى : إن المستعاذ منه فى السورة الأولى أمور تأتى من خارج الإنسان ، وتأتيه اعتداء عليه من غيره ، وقد تكون شروراً ظاهرة ، ومثل ذلك قد يمكن التحرز منه أو اتقاؤه قبل وقوعه ، وتجنبه إذا علم به . بينما الشر الواحد فى الثانية يأتيه من داخليته وقد تكون هواجس النفس وما لا يقدر على دفعه ، إذ الشيطان يرانا ولا نراه ، كما فى قوله : (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) .

وقد يثر عليه خلجات نفسه ونوازع فكره ، فلا يجد له خلاصاً إلا بالاستعاذة واللجوء إلى رب الناس ملك الناس إله الناس .

أما الوجهتان اللتان نوهنا عنهما ، فالأولى بين السورتين وهى مما

أورده أبوحيان : إذ فى سورة الفلق قال : (قل أعوذ برب الفلق) ورب الفلق تعادل قوله : (رب العالمين) .

لأنه مامن موجود فى هذا الكون إلا وهو مفلوق عن غيره .

ففى الزرع : (فالق الحب والنوى) .

وفى الزمن (فالق الإصباح) .

وفى الحيوانات : (الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) .

وفى الجمادات يشير إليه قوله تعالى : (أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون ، وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم) .

فرب الفلق تعادل رب العالمين ، فقابلها فى الاستعاذة بعموم المستعاذ منه ، من شر ماخلق .

ثم جاء ذكر الخاص بعد العام للاهتمام به ، وهو من شر غاسق إذا وقب ، والنفاثات فى العقد ، وحاسد إذا حسد .

فالمستعاذ به صفة واحدة ، والمستعاذ منه عموم ماخلق جملة وتفصيلا .

بينما فى السورة الثانية جاء بالمستعاذ به ثلاث صفات، هى صفات العظمة لله تعالى: الرب والملك والإله.

فقابل المستعـــاذ منه وهو شىء واحد فقط، وهو الوسواس الخناس، وهذا يدل على شدة خطورة المستعاذ منه.

وهو كذلك، لأننا لو نظرنا فى واقع الأمر لوجدنا مبعث كل فتنة ومنطلق كل شر عاجلا أو آجلا، لوجدناه بسبب الوسواس الخناس. وهو مرتبط بتاريخ وجود الإنسان.

وأول جناية وقعت على الإنسان الأول، إنما هى من هـــذا الوسواس الخناس، وذلك أن الله تعالى لما كرّم آدم، فخلقه بيده وأسجد الملائكة له وأسكنه الجنة هو وزوجه لايجوع فيها ولا يعرى، ولا يظمأ فيها ولا يضحى، يأكلان منها رغداً حيث ماشاءا، إلا من الشجرة الممنوعة، فوسوس إليهما الشيطان حتى أكلا منها ودلاهما بغرور، حتى أهبطوا منها جميعاً بعضهم لبعض عدو.

وبعد سكناهما الأرض أتى ابنيهما قابيل وهابيل فلاحقهما أيضاً بالوسوسة، حتى طوّعت نفس أحدهما قتل أخيه فأصبح من الخاسرين.

وهكذا يسأر الانسان فى حياته بالوسوسة حتى يربكه فى الدنيا، ويهلكه فى الآخرة، ولقد اتخذ من المرأة جسراً لكل مايريد.

وهاهو يعيد الكرة فى نزع اللباس عن أبوينا فى الجنة، فينتزعه عنهما فى ظل بيت الله الحرام فى طوافهم قبل البعثة ولايزال يغويه ، وعن طريق المرأة فى كل زمان ومكان ليخرجه عن الاستقامة كما أخرج أبويه من الجنة .

ولايزال يجلب على الإنسان بخيله ورجله باراً بقسمه بين يدى الله بعزته ليغوينهم أجمعين .

وإن أخطر أبواب الفساد فى المجتمعات لهى عن المال أو الدم أو العرض ، كما فى الحديث فى حجة الوداع : « ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا » إلى آخره .

وهل وحدت جناية على واحد منهما ، إلا من تأثير الوسواس الخناس . اللهم لا .

وهكذا فى الآخرة .

وقد بين تعالى الموقف جلياً فى مقالة الشيطان البليغة الصريحة : (وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل) الآية .

ولقد علم عدو المسلمين ، أن أخطر سلاح على الإنسان ، هو الشك ولا طريق إليه إلا بالوسوسة ، فأخذ عن إبليس مهمته وراح يوسوس للمسلمين فى دينهم وفى دنياهم ، ويشككهم فى قدرتهم على الحياة الكريمة مستقلين عنه ، ويشككهم فى قدرتهم على التقدم والاستقلال الحقيقى ، بل وفى استطاعتهم على الإبداع والاختراع ، ليظلوا فى فلكه ودائرة نفوذه ، فيبقى المسلمون يدورون فى حلقة مفرغة ، يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى .

والتشكك فى نتيجة عمل لايقدم عليه أبداً ، بل ما يبنيه اليوم يهدمه غداً ، وقد أعلن عن هذه النتيجة الخطيرة رئيس مؤتمر المستشرقين فى الشرق الأوسط ، منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، حينما انعقد المؤتمر فى [بيروت] لعرض نتائج أعمالهم ودراسة أساليب تبشيرهم .

فتشكى المؤتمرون من أن لهم زهاء أربعين سنة من عملهم المتواصل ، لم يستطيعوا أن ينصِّروا مسلماً ، واحداً ، فقال رئيس المؤتمر : إذا لم نستطع أن ننصِّر مسلماً ، ولكن استطعنا أن نوجد ذبذبة فى الرأى ، فقد نجحنا فى عملنا .

وهكذا منهج العدو ، تشكيك فى قضايا الإسلام ليوجد ذبذبة فى عقيدة المسلمين ، فعن طريق الميراث تارة ، وعن طريق تعدد الزوجات

أخرى ، وعن دوافع القتال ، وعن استرقاق الرقيق ، وعن وعن .

حتى وجد من أبناء المسلمين من يتخطى حدود الشك إلى التصديق، وأخذ يدعو إلى ما يدعو إليه العدو ، وما ذاك كله إلا حصاد ونتائج الوسواس الخناس .

فلا غرو إذا أن تجمع الصفات الجليلة الثلاث : رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس .

هـذه وجهة النظر الأولى بين سورتى الفلق والناس .

أما الوجهة الثانية وهى بين سورة الناس ونسق المصحف الشريف ، بقوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) .

وفى هذه البداية الكريمة بث الطمأنينة فى القلب المعبر عنها بالحمد ، عنوان الرضى والسعادة والإقرار لله بالربوبية ، ثم الإيمان بالبعث والإقرار لله بملك يوم الدين ، ثم الالتزام بالعبادة لله وحده والالتجاء إليه مستعينا به ، مستهديا الصراط المستقيم ، سائلا صحبة الذين أنعم عليهم .

ثم يأتى بعدها مباشرة فى أول سورة البقرة (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) أى إن الهدى الذى تنشده إلى الصراط المستقيم ، فهو فى هذا الكتاب لا ريب فيه ، ثم بين المتقين الذين أنعم الله عليهم بقوله : (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) .

ومرة أخرى للتأكيد : أولئك لا سواهم على هدى من ربك وأولئك هم المفلحون .

ثم تترسل السورة فى تقسيم الناس إلى الأقسام الثلاثة : مؤمنين وكافرين ومذبذبين بين بين ، وهم المنافقون .

ثم يأتى النداء الصريح وهو أول نداء فى المصحف لعموم الناس (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) ويقيم البراهين على استحقاقه للعبادة وعلى إمكان البعث بقوله (الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) .

وبعد تقرير الأصل وهى العقيدة ، تمضى السورة فى ذكر روع

الإسلام ، فتشتمل على أركان الإسلام كلها وعلى كثير من مسائل المعاملات والجهاد ، وقلّ باب من أبواب الفقه إلا وله ذكر فى هذه السورة ، ويأتى ما بعدها مبينا لما أجمل فيها أو لما يذكر ضمنها .

وهكذا حتى ينتهى القرآن بكمال الشريعة وتمام الدين .

ولما جاء فى وصف المتقين المهتدين فى أول المصحف ، أنهم يؤمنون بالغيب ومنه الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب وثواب ، أمور الغيب تستلزم اليقين ، لترتب الجزاء عليه ثواباً أو عقابا .

والثواب والعقاب هما نتيجة الفعل والترك

والفعل والترك : هما مناط التكليف ، لأن الإنسان يمتثل الأمر رجاء الثواب ، ويكف عن متعلق النهى مخافة العقاب .

فكأن نسق المصحف الشريف يشير إلى ضرورة ما يجب الانتباه إليه ، من أن القرآن بدأ بالحمد ثناء على الله بما أنعم على الإنسان بإنزاله ، وإرسال الرسول صاحبه به ، ثم نقله من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة ، وهو الأعظم قدراً وخطراً ، ثم رسم له الطريق الذى سلكه المهتدون أهل الإنعام والرضى ، ثم أوقفه عليه ليسلك سبيلهم .

وهكذا إلى أن جاء به بعد كمال البيان والإرشاد والهداية ، جاء

به إلى نهاية هذا الصراط المستقيم ، فاستوقفه ليقول له إذا اطمأننت لهذا الدين ، وآمنت بالله رب العالمين ، واعتقدت مجيء يوم الدين ، وعرفت طريق المهتدين ورأيت أقسام الناس الثلاث مؤمنين وكافرين ومنافقين ، ونهاية كل منهم ، فالزم هذا الكتاب ، وسر على هذا الصراط ورافق أهل الإنعام ، وجانب المغضوب عليهم والضالين ، واحذر من مسلك المنافقين المتشككين ، وحاذر كل الحذر من موجب ذلك كله ، وهو الوسواس الخناس ، أن يشككك فى متعلقات الإيمان ، أو فى استواء طريقك واستقامته أو فى عصمة كتابك وكماله ، وكن على يقين مما أنت عليه ، ولا تنس خطره على أبويك من قبل ، إذ هما فى الجنة دار السلام ولم يسلما منه ، ودلاّهما بغرور فحاذر منه ولُذْ بى كلما ألمّ بك أو مسّك طائف منه ، وكن كسلفك الصالح إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون .

وقد علمت عداوته لك من بعد ، وعداوته ناشئة عن الحسد .

ولكأن ارتباط السورتين ليشير إلى منشأ تلك العداوة وارتباطها بهذا التحذير ، إذ فى الأولى : ومن شر حاسد إذا حسد ، فحسد الشيطان آدم على إكرام الله إياه كما أسلفنا .

والعدو الحاسد لا يرضيه إلا زوال النعمة عن المحسود ، ولئن كانت

توبة آدم هى سبيل نجاته ، كما فى قوله تعالى : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) .

فنجاتك أيضاً فى كلمات تستعيذ بها من عدوك : برب الناس ملك الناس إله الناس ، لأن الرب هو الذى يرحم عباده ، وملك الناس هو الذى يحميهم ويحفظهم ويحرسهم . وإله الناس الذى يتألهون إليه ويتضرعون ويلوذون به سبحانه .

تنبيه

إذا كان هـذا كله خطر الوسواس الخناس من الجنة والناس ، وهما عدو مشترك ومتربص حاقد حاسد ، فما طريق النجاة منه ؟

الذى يظهر ، والله تعالى أعلم : أن طريق النجاة تعتمد على أمرين :

الأول : يؤخذ من عمومات الكتاب والسنة .

والثانى : سمعته من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه .

أما الأول فهو : إذا كانت مهمة الوسوسة التشكيك والذبذبة والتردد ، فإن عمومات التكليف تلزم المسلم بالعزم واليقين والمضى دون

تردد ، كما فى قوله : (فإذا عزمت فتوكل على الله) ، وامتدح بعض الرسل بالعزم وأمر بالاقتداء بهم (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « دع ما يريبك إلى مالا يريبك » .

والقاعدة الفقهية « اليقين لا يرفع بشك » .

والحديث : « يأتى الشيطان لأحدكم وهو فى الصلاة فينفخ فى مقعدته ، فيتخيل إليه أنه أحدث ولم يحدث ، فلا ينصرف حتى يسمع صوتاً ، يجد ريحاً » .

ومن هنا كانت التكاليف كلها على اليقين ، فالعقائد لابد فيها من اليقين .

والفروع فى العبادات لابد فيها من النية « إنما الأعمال بالنيات » .

والشرط فى النية الجزم واليقين ، فلو نوى الصلاة على أنه إن حضر فلان تركها ، لا تنعقد نيته ، ولو نوى صوماً أنه إن شاء أفطر ، لا ينعقد صومه .

ونص مالك فى الموطإ: أنه إن نوى ليوم الشك فى ليلته الصوم غداً ، على أنه إن صح من رمضان فهو لرمضان ، وإلا فهو نافلة ، لا ينعقد صومه لا فرضاً ولا نفلا حتى لو جاء رمضان لا يعتبر له منه ، وعليه قضاؤه لعدم الجزم بالنية .

والحج : لو نواه لزمه ولزمه المضى فيه ، ولا يملك الخروج منه باختياره .

وهكذا المعاملات فى جميع العقود مبناها على الجزم حتى فى المزح واللعب ، يؤاخذ فى البعض كالنكاح والطلاق والعتاق .

فمن هذا كله ، كانت دوافع الغريزة مستقاة من التكاليف ، مما يقضى على نوازع الشك والتردد ، ولم يبق فى قلب المؤمن مجال لشك ولا محل لوسوسة .

وقد كان الشيطان يفر من طريق عمر رضى الله عنه .

أما الذى كنت سمعته من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فقوله : لقد علمنا الله كيفية اتقاء العدو من الإنس ومن الجن .

أما العدو من الإنس ففى قوله تعالى : (ولا تستوى الحسنة

ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم).

فدل على أن مقابلة إساءة العدو بالإحسان إليه تذهب عداوته، وتكسب صداقته ، كما قال تعالى : (ادفع بالتى هى أحسن) السيئة .

وأما عدو الجن ففى قوله تعالى : (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) .

وهو ما يدل عليه ما تقدم من الآثار من أن الشيطان يخنس إذا سمع ذكر الله .

وعلى قوله رحمه الله : فإن شيطان الجن يندفع بالاستعاذة منه بالله، ويكفيه ذلك ، لأن كيد الشيطان كان ضعيفا .

أما شيطان الإنس فهو فى حاجة إلى مصانعة ومدافعة والصبر عليه، كما يرشد إليه قوله تعالى : (وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم)

رزقنا الله تعالى وجميع المسلمين حظاً عظيما فى الدنيا والآخرة ، إنه المسئول ، وخير مأمول .

روى ابن كثير حديث أبى سعيد رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان يتعوذ من أعين الجن والإنس ، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما » رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

وروى عن عبد الله الأسلمى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يده على صدره ثم قال « قل : فلم أدر ما أقول . ثم قال لى : قل . فقلت : هو الله أحد ، ثم قال لى : قل . قلت : أعوذ برب الفلق من شر ما خلق حتى فرغت منها ، ثم قال لى : قل . قلت : أعوذ برب الناس حتى فرغت منها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا فتعوّذ . وما تعوّذ المتعوذون بمثلهن قط » .

والحمد لله أولا وآخرا ، وصلى الله وسلم على أفضل خلقه وأكرمهم عليه ، من اصطفاه لرسالته وشرفنا ببعثته ، وختم به رسله وكرّمنا به وهدانا لاتباعه ، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وعلينا معهم أجمعين . إنه سميع مجيب .

خاتمة

نسأل الله حسنها

ورحم الله مشائخنا ووالدينا، وجزى الله عنا والدنا وشيخنا الشيخ محمد الأمين أحسن الجزاء، وعن أضوائه حسن الضياء وحلل البهاء. وجزى الله بالإحسان كل من ساهم فى إكمال هذه التتمة. بتوجيه أو إرشاد أو دلالة على إحالة، أو غير ذلك حساً أو معنى، ومن يساعد على إظهاره ونشره، وأن يجعل عملنا، وعمل من عمل معنا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله لنا ولشيخنا رحمه الله من الآثار التى تكتب لنا من بعدنا، وأن يعم نفعه، ويعظم لنا أجره، ولمن انتفع منه، إنه جواد كريم. والحمد لله رب العالمين.

وقد كان الفراغ منه فى آخر يوم من رمضان المبارك سنة ست وتسعين وثلاثمائة وألف ١٣٩٦ هـ من هجرة من له كمال العزة والشرف، فى المدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

اعتـــذار

إن ما أوردناه وما يورده الآخرون من وجهات نظر ، إنما هو بحسب ما يظهر من نسق السياق ، ومنطوق الكلام ومفهومه استنتاجاً واستظهاراً . ولا يحق لقـــائل أن يقول : من أجل ذلك كان على ما كان ، وكما قال ابن القيم رحمه الله : وأسرار كلام الله أجل وأعظم من أن تدركها عقول البشر ، وإنما غاية أولى العلم الاستدلال بما ظهر منها على ما وراءه ، وأن سبه باديه إلى الخافى يسير

لطفـــا

أذكر القارىء الكريم بما ذكرته فى مستهل التقديم ، من أنه جهد المقل ووسع الطاقة ، والخطأ لازم والعصمة ممنوعة والتحصيل متفاوت ، فمن اطلع على خلل سدّده وأصلح خطأه ، ومن رأى نقصاً أكمله لا إظهاراً لنقص ولا تظاهراً بعلم ، ولكن ابتغاء لوجه الله ، فله منى حسن الثناء ، ومن الله أحسن الجزاء .

شكر وتقدير

وإن من الواجب على تقديم الشكر الجزيل والاعتراف بالجميل ، لكل من له على اليد فى هذا العمل الفاضل ، وأخص أولا فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز حفظه الله ، على ما كان منه من حرص وتأكيد على إتمام هذا الكتاب ، وفاء بحق الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، ورجاء إتمام النفع ، وعلى ما أولانى من نصح وتكليف بهذا العمل فشرفت به ، وقد بذل الكثير من وقته ، وقرأت عليه فى بادىء الأمر بعض النماذج لما كتبت فاستحسنها وشجع على المضى مستعيناً بالله تعالى ، وعلى مساعيه الحميدة فى نفاذ طبعه على النحو السابق أجزل الله له المثوبة .

كما أشكر الجهة التى تبذل الكثير لإتمام الطبع مع عدم الرغبة فى الإعلان عنها ، فرحم الله من مات ، وأكرم الله من بقى ، وكذلك للأخوين الجليلين الشيخ محمد بن سيدى بن الحبيب والشيخ محمد الأمين ابن الحسين ، وهما من أخص تلاميذ الشيخ رحمه الله ، وكانا الأضواء فى حياته ، وهما اللذان كانا يقومان بالمقابلة مع الشيخ رحمه الله تعالى ، إذ استمرا معى بنفس العمل فى هذه التتمة المباركة ، فأسديا لى أعظم المساعدات فى التبييض والتصحيح والمراجعة والمناقشة ، وفيما يحال

عليه من الأضواء ، إذ هما بحق أوسع من عرفت استيعاباً للأضواء وبإحالاته ، وأكثر سماعاً من الشيخ نفسه فى حياته ، فجزاهما الله عنى وعن القراء الكرام أحسن الجزاء .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وأود أن يعلم أنه توجد آيات من موضوع الكتاب لو أعيد النظر لتناولها البحث . ولكن هذا شأن التجربة الأولى فى أغلب الأمور ، ولقد كان هذا العمل من الشيخ رحمه الله تجربة ناجحة من عالم مستوعب والفضل للأسبق .

* * *

بلى هذا إن شاء الله رسالة فى الناسخ والمنسوخ موجزة جداً . أصلها أبيات للسيوطى رحمه الله ، عشرة أبيات ، أوجز فيها خلاصة مائتى نسخه وشرحها الشيخ رحمه الله ، كنت درستها عليه وأعطانيها بخطه فبيضتها وصححتها عليه ، نلحقها لقوة ارتباطها بالتفسير .

ثم رسالة منع جواز المجاز عن المنزل للتعبد والإعجاز ، كان رحمه الله كتبها رداً على مناقشات أثيرت حول آيات الصفات ،

وما يدور فيها من نقاش بين مذهبي السلف والخلف ، وإبقائها على حقائقها من غير تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل . وبين صرفها عن حقائقها بنوع تأويل على أسلوب المجاز فى اللغة العربية على ماهو متعارف .

فكان القول بالمجاز فى اللغة أقوى موجب للتأويل فى آيات الصفات . فكانت هذه الرسالة لهذا الموضوع ، وكان الغرض منها هو الحفاظ على آيات الصفات من إدخال المجاز ، وعمدة مافيها أن المجاز ، وإن كان أسلوبا لغة ، فليس كل ماجاز لغة جاز قرآنا ، وساق نماذج قلّ أن توجد إلا فى هذه الرسالة .

ثم دفع إيهام الاضطراب عن آى الكتاب :

وهذا الكتاب من أخص ما كتب فى علوم القرآن وموضوعه : الجواب عن كل مايوهب تعارضاً أو اضطرابا بين بعض آيات القرآن مع بعض ، وهذا وإن كان موضوعه من حيث هو موجود ، كمفردات ترد فى محالها من التفسير ، إلا أنها لم يوجد فيها كتاب قد تتبعها فى القرآن كله وجمعها فى محل واحد يسهل تناوله ، بل ولا يوجد التنبيه على كل ماجاء فيه فى عمومات التفاسير .

وقد كان سببه سؤال عند الدرس عن مدى التوفيق بين قوله

تعالى : (وقفوهم إنهم مسؤولون . مالكم لاتناصرون) مع قوله تعالى : (فيومئذ لايسأل عن ذنبه إنس ولا جان) فأجاب رحمه الله باستفاضة ، وذكر لها أمثلة عديدة ، فسألته عن تأليف فيها فقال : لا أعلمه ، فكان رجائى منه أن يؤلف فيه لنفع المسلمين فوعد خيراً ثم فعل ، وقد تتبع هذا النوع فى القرآن من أوله إلى آخره

وهو أيضاً تجربة أولى موفقة ، ولو أعيدت كتابته فإن فى القرآن بعض مواطن من موضوع الكتاب

ثم فهارس الكتاب : ومنها فهرس فقهى لمواضيع الفقه الموجودة فى مواضع متفرقة فى جميع أجزائه ، قد جمعت مرتبة على أبواب الفقه ، ومبين مرجع كل مسألة فى أى جزء ، وعند أى آية ، ليسهل تناولها والاستفادة منها

وكان رحمه الله قد اطلع عليه إلى الجزء الخامس والسادس فاستحسنه ، ولم يمانع فى طبعه مع الجزء الأخير من الكتاب .

ثم بعض تقاريظ ونعى للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه شعراً من بعض أبناء .

ثم ترجمة لحياته العلمية ، لما فيها من مُثل عليا فى الجد والتحصيل ، وبالله تعالى التوفيق .

وقد وجدت للشيخ رحمه الله مؤلفات مخطوطة أخرى .

منهـا : فى الفقه المالـكى .

ومنها : فى المنطق .

ومنها : فى الفرائض .

ومنها : الرحلة ، وتسجيله حوادث الطريق ومحادثاته العلمية والأدبية مع من لقى من العلماء والأدباء فى طريقه من بلده إلى المدينة المنورة ، والـكل فى محاله ، لطبعه إن شاء الله .

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله وخاتم رسله سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

عطية محمد سالم

بيان الناسخ والمنسوخ

من آى الذكر الحكيم

كتبها فضيلة الوالد الشيخ الأمين رحمه الله على أبيات للسيوطى فى الإتقان، ونقلتها عن خطه وقرأتها عليه

نص الأبيات من الإتقان :

قد أكثر الناس من المنسوخ من عدد ... وأدخلوا فيه أبالیس تنحصر

وهاك تحرير أى لامزيد لها ... عشرين حررها الحذاق والكبر

أى التوجه حيث المرء كان وأن ... يوصى لأهليه عند الموت محتضر

وحرمة الأكل بعد النوم مع رفث ... وفدية لمطيق الصوم مشتهر

وحق تقواه فيما صح من أثر ... وفى الحرام قتال للأولى كفروا

والاعتداد بحول مع وصيتها ... وأن يدان حديث النفس والفكر

والحلف والحبس للزانى وترك أولى ... كفر وإشهادهم والصبر والنفر

ومنع عقد لزان أو لزانية ... وما على المصطفى فى العقد محتظر

ودفع مهر لمن جاءت وآية نجـ ... ـواه كذلك قيام الليل مستطر

وزيد آية الاستئذان من ملكت ... وآية القسمة الفضلى لمن حضروا

شرحها الشيخ رحمه الله بقوله :

١ — قوله : « أى التوجه » ، يشير إلى أن قوله تعالى : (فأينما تولوا فثم وجه الله) منسوخة على رأى ابن عباس بقوله تعالى : (فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام) .

٢ — وقوله : « وأن يوصى لأهليه » : أشار به إلى أن آية (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية) الآية . منسوخة. قيل بآية المواريث ، وقيل بحديث : « لا وصية لوارث » ، وقيل : بالإجماع. حكاه ابن العربى .

٣ — وقوله : « وحرمة الأكل بعد النوم مع رفث » يشير إلى أن آية (كتب عليكم الصيام) المتضمنة حرمة الأكل والجماع بعد النوم كما فى صوم من قبلنا منسوخة بآية (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) .

٤ — وقوله : « وفدية لمطيق » يشير إلى أن آية (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) منسوخة بآية (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) ، وقيل محكمة و « لا » مقدرة ، يعنى : وعلى الذين لا يطيقونه .

٥ — وقوله : « وحق تقواه » يشير إلى أن قوله تعالى : (اتقوا

الله حق تقاته) منسوخ بقوله : (فاتقوا الله ما استطعتم) ، وقيل : محكمة .

٦ — وقوله « وفى الحرام قتالى » يشير إلى أن قوله تعالى : (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) وقوله : (ولا الشهر الحرام) منسوخان بقوله تعالى : (وقاتلوا المشركين كافة) الآية . أخرجه ابن جرير عن عطاء بن ميسرة .

٧ — وقوله « والاعتداد بحول مع وصيتها » يعنى أن قوله تعالى (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم) الآية ، منسوخ بقوله : (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا » .

٨ — قوله : « وأن يدان حديث النفس والفكر » يشير إلى قوله تعالى : (إن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) ، منسوخ بقوله تعالى : (لايكلف الله نفساً إلا وسعها) .

٩ — قوله : « والحلف » أى المحالفة ، يشير إلى قوله تعالى : (والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم) منسوخة بقوله تعالى : (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) الآية .

١٠ — وقوله « والحبس للزانى » يشير إلى أن قوله تعالى :

(فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت) منسوخ بقوله تعالى: (فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) .

١١ — قوله « وترك أولى كفر » يشير إلى قوله تعالى : (فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) منسوخ بقوله تعالى : (وأن احكم بينهم بما أنزل الله) .

١٢ — وقوله : « وإشهادهم » يشير إلى أن قوله تعالى : (أو آخران من غيركم) منسوخ بقوله تعالى : (واشهدوا ذوى عدل منكم) .

١٣ — وقوله « والصبر » يشير به إلى قوله تعالى : (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) الآية . منسوخ بما بعده وهوقوله تعالى : (ألآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين) .

١٤ — قوله « والنفر » يشير إلى أن قوله تعالى : (انفروا خفافا وثقالا) منسوخ بقوله تعالى : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى) أو (ليس على الأعمى حرج) الآية ، أو قوله تعالى : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) الآية .

١٥ — قوله : « ومنع عقد لزان أو لزانية » يشير إلى قوله

تعالى : (الزانى لاينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لاينكحها إلا زان أو مشرك) الآية ، منسوخ بقوله تعالى : (وانكحوا الأيامى منكم) .

١٦ — وقوله : « وما على المصطفى فى العقد محتظر » يشير إلى قوله تعالى : (لايحل لك النساء من بعد ..) الآية ، منسوخ بقوله تعالى : (إنا أحللنا لك أزواجك) الآية .

١٧ — قوله « ودفع مهر لمن جاءت » يشير إلى أن قوله تعالى : (فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا) منسوخ ، قيل بآيات السيف ، وقيل : بآيات الغنيمة .

١٨ — وقوله « كذلك قيام الليل » يشير إلى أن قوله (يا أيها المزمل قم الليل) منسوخ بقوله تعالى : (علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤا ماتيسر من القرآن) وبقوله تعالى : (فاقرؤا ماتيسر منه) .

وهذا الناسخ أيضاً منسوخ بالصلوات الخمس .

١٩ — وقوله « وآية نجواه » يشير إلى أن قوله تعالى (فقدموا بين يدى نجواكم صدقة » منسوخ بقوله تعالى : (فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم) وبقوله : (فإن لم تفعلوا وتاب الله عليكم) .

١٠ — قوله « وزيد آية الاستئذان مما ملكت » . آية الاستئذان

(ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والأصح فيها عدم النسخ ، لكن تساهل الناس بالعمل بها .

٢١ — « وآية القسمة » (وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه) والصحيح فيها أيضاً عدم النسخ

ومثال نسخ الناسخ آخر سورة المزمل ، فإنه منسوخ بفرض الصلوات الخمس . وقوله : (انفروا خفافا وثقالا) فإنه ناسخ لآية الكف ، منسوخ بآية العذر .

* * *

تمت بحول الله رسالة فضيلة الشيخ محمد الأمين المختصرة فى بيان أبيات السيوطى الرمزية تقريباً فى هذا الفن . وهى على إيجازها واختصارها كافية شافية للطالب الدارس . أملاها علىّ فضيلته فى ذى الحجة سنة ١٣٧٣ هـ

أما المدرس والباحث المدقق والمناقش للأقوال فإن هناك المطولات لتتمة البحث لبيان إثبات النسخ على منكريه ، وبيان حكمة النسخ وبيان أقسامه ، وقوة الناسخ من كتاب أو سنة ، ومراتبه من شدة إلى ضعف والعكس . إلى غير ذلك .

فهرس

الجزء الثانى من التتمة والتاسع من الأضواء

الصفحة	الموضوع
	قوله تعالى (عم يتساءلون)
٥	أصل عم ومعناها والقرآن فيها
٦	الخلاف فى النبأ العظيم المتسأل عنه وبيان الراجح من سياق القرآن
٨	قوله تعالى : (كلا سيعلمون) وبيان أنهم علموا بموجب الأدلة القاطعة
٩	» » (ألم نجعل الأرض مهاداً) أدلة النبأ العظيم وهى أحد أدلة البعث
٩	» » (وجعلنا نومكم سباتاً ـ إلى ـ معاشا) إحالة على ماتقدم فى الفرقان
١٠	» » (وبنينا فوقكم سبعاً شداداً) إحالة على ماتقدم فى ق
١٠	» » (يوم ينفخ فى الصور) بيان حال تلك الأفواج وفيه أثر عثمان مطولا
١١	» » (وسيرت الجبال فكانت سراباً) إحالة على ماتقدم فى طه والنمل
١٢	» » (لابثين فيها أحقاباً ـ إلى ـ وغساقا) فيها مبحث فناء النار وقد ناقشها الشيخ رحمه الله فى دفع الإيهام
١٣	» » (وكل شىء أحصيناه كتابا) والمراد بالشىء هنا وبيان سعة علم الله بالجزئيات .
١٤	» » (إن للمتقين مفازا) بينه مابعده حدائق وأعناباً .. الخ
١٤	» » (عطاء حسابا) والمقارنة جزاء وفاقا وعطاء حسابا
١٥	» » (يوم يقوم الروح والملائكة صفا) الخلاف فى معنى الروح هنا وبيان الراجح

الصفحة	الموضوع
١٦	قوله تعالى (لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن) وبيان السبب فى منعهم عن الكلام إلا بإذن
١٦	قوله تعالى (ذلك اليوم الحق) بيان ذلك اليوم
١٧	« « (فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا) بيان المآب والمراد من التخيير
١٨	« « (إنا أنذرناكم عذابا قريبا)
١٨	« « (يوم ينظر المرء ماقدمت يداه) بينه قوله تعالى . (يوم تجد كل نفس ماعملت ..)
	سورة النازعات :
٢١	قوله تعالى (والنازعات) بيان النازعات والنزع وما بعد النازعات هنا
٢٢	« « (والناشطات نشطا) والفرق بين النازعات والناشطات
٢٣	« « (والسابحات سبحا ـ إلى ـ سبقا) الخلاف فيها وبيان الراجح
٢٤	« « (فالمدبرات أمراً) والمراد منها ومناقشة الفخر الرازى فى أنها أرواح
٢٤	« « (يوم ترجف الراجفة) وتقدم في يس عند (ونفخ فى الصور)
٢٥	« « (يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة) وبيان الحافرة والراجح فيها
٢٦	« « (أئذا كنا عظاما نخرة) معنى نخرة لغة ونظيرها هذا الاستنكار منهم
٢٧	« « (هل أتاك حديث موسى) بيان هذا الحديث ومكانه وإحالة على (ونادنياه من جانب الطور الأيمن) فى سورة مريم وبيان ذلك فى غيرها من السور
٢٩	وضع القرآن المنهج المتكامل للدعوة إلى الله
	قوله تعالى (فأراه الآية الكبرى فكذب وعصا) جمع فرعون بين التكذيب والعصيان. وتقدم بيانه فى سورة القمر عند (ولقد جاء آل فرعون النذر)
٣٠	قوله تعالى (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) بيان الراجح فى الخلاف فى المراد بالآخرة والأولى

الصفحة الموضوع

٣١ قوله تعالى (أأنتم أشد خلقا أم السماء) والجواب عليهم بأن خلقها أكبر
٣٢ « « (بناها رفع سمكها فسواها) تقدم عند (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم) فى سورة ق
قوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها ـ إلى ـ أرساها) المراد بدحاها ، وقضية كروية الأرض .
٣٣ الدحو لغة البسط ، والأدلة عليه مطولة
٣٧ أقوال أهل الهيئة فى شكل الأرض وأنها كرة . يكور الليل على النهار ..
٤٠ الدليل العقلى على كروية الأرض
٤٠ ثبوت كروية الأرض عن طريق النظر لا عن طريق النص من القرآن
٤٢ الإجابة على النصوص التى ظاهرها أنها سطح منبسط
قوله تعالى (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية) الآية . معنى العشية وضحاها وتقدم فى يونس عند (ويوم يحشرهم كان لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) وفى دفع الإيهام
سورة عبس :
قوله تعالى (عبس وتولى) سبب نزولها والتصريح بالأعمى ليس تنابذا بالألقاب وبيانه فى دفع الإيهام
٤٩ تنبيه : على جواز ذكر مثل هذا الوصف عند الحاجة والسر فى ذكره هنا
٥٠ علاقة ذلك بالأمة وبمكارم أخلاقه صلى الله عليه وسلم
٥٢ قوله تعالى (أما من استغنى فأنت له تصدى) الآية . بيان حرصه صلى لله عليه وسلم على إسلام الجميع
٥٣ قوله تعالى (كلا إنها تذكرة ـ إلى ـ برزة) ذكر المشتبه بتهديد لا تخيير
٥٤ « « (قتل الإنسان ما أكفره) ما أفعله هنا أفعل تفضيل أم تعجب ؟
٥٤ قوله تعالى (ثم السبيل يسره) المراد بالسبيل هنا وتيسيره
٥٥ « « (فلينظر الإنسان إلى طعامه) ربط خلق الإنسان بإنبات النبات

الصفحة الموضوع

والرد على الشيوعين والطبعيين فيقال لهم (قتل الإنسان ما أكفره) . الآية . وتقدم بيان خلق الإنسان فى مواطن متعددة فى الرحمن والجاثية ، والواقعة .

٥٧ قوله تعالى (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة) المراد بيومئذ وموجب الاستبشار وتقدم بيانه فى سورة الحديد

سورة التكوير :

٦١ قوله تعالى (إذا الشمس كورت) الخلاف فى كورت ، وموقف ابن جرير وبيان الراجح من الكتاب والسنة

٦٢ قوله تعالى (وإذا النجوم انكدرت) الخلاف فيه وبيانه من القرآن

« « (وإذا الجبال سيرت) تقدم فى سورة طه (ويسألونك عن الجبال) وفى الكهف (ويوم نسير الجبال)

٦٣ قوله تعالى (وإذا الموؤدة سئلت) كيف يوجه السؤال إليها وهى لاعلم لها ولاذنب . مناسبة ذلك بمنع الحمل الذى فشا فى الناس اليوم وأحاديث العزل

٦٦ أسباب الوأد فى الجاهلية والرد عليهم

التحذير من هذه الدعوة اليهودية أساساً باسم الاقتصاد

٦٧ تنبيه : حول دعاة تحرير المرأة .

٦٨ قوله تعالى (وإذا الجحيم سعرت) تقدم عند : (ومن الناس من يجادل - إلى - عذاب السعير) فى سورة الحج

قوله تعالى (وإذا الجنة أزلفت) قوله تعالى (علمت نفس ما أحضرت)

قوله تعالى (فلا أقسم بالخنس - إلى رسول كريم) هل هو قسم أو غير قسم . وتقدم عند (لاأقسم بيوم القيامة)

٦٩ تنبيه : الفرق بين إقسام الله وإقسام الخلق . والمناسبة بين كل ما أقسم الله به والمقسم عليه وهو مبحث مطول .

الصفحة الموضوع

٧٤ قوله تعالى (إنه لقول رسول كريم) وبيان المراد بالقول وبالرسول الكريم .

٧٥ تنبيه : على قوة سند اتصال القرآن ووصوله إلينا جبريل عن الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم

٧٧ قوله تعالى (ماتشاؤون إلا أن يشاء الله) : هذه أساس فى الإيمان بالقدر . وتقدم للشيخ فى الزخرف (لو شاء الرحمن ماعبدناهم) والذاريات

٧٧ تنبيه : حول القضاء والقدر

٧٨ تنبيه آخر : بيان الاستقامة فى سورة الفاتحة .

سورة الانفطار :

٨١ قوله تعالى (إذا السماء انفطرت) بيان انفطارها وتقدم فى الشورى عند (السماء منفطر به)

قوله تعالى (وإذا القبور بعثرت) أى بعثر من فيها

٨٢ » » (علمت نفس ماقدمت و خرت) بينه الشيخ فى دفع الإيهام

» » (الذى خلقك فسواك فعدلك) تقدم فى الكهف (ثم سواك رجلا)

٨٣ قوله تعالى (وإنا عليكم لحافظين) تقدم فى ق عنه (مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) وفى الأنعام عند (ويرسل عليكم حفظة) .

٨٤ توجيه لحسن اختيار كتبة ولاة الأمور

قوله تعالى : (إن الأبرار لفى نعيم) وبيان أنه دائم وهم مخلدون فيه

٨٥ » » (يوم لاتملك نفس لنفس شيئاً) الآية . وبيان السبب والنصوص فيها

سورة المطففين :

٩١ » » (ويل للمطففين) سبب نزولها وعلاقتها بالربا

٩٣ ذكر الوفاء فى الكيل مقروناً بعبادة الله وحده فى عدة مواطن مما يبين الاهتمام به وبيان ذلك

الصفحة الموضوع

٩٥ تعميم وشمول معانى الكيل والوزن ـ ربط الميزان بالكتاب فى إقامة العدالة
٩٦ ربط هذه السورة بما قبلها
٩٧ قوله تعالى (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم) وسبب جرأتهم على التطفيف
٩٨ السر فى قوله (يوم يقوم الناس لرب العالمين) بدلا من مثل ليوم الحساب
٩٩ أعرابى يحذر عبد الملك بن مروان
تنبيه : بعض حيل أصحاب المكاييل والموازين فى التطفيف
مما ينبغى أن تعنى بمراقبة البلديات والمسؤلون
١٠١ تنبيه آخر : حكم من يبيع برخص ليضر غيره والعمل على حفظ الأسعار
١٠٢ « آخر : نوع المكيال والميزان يرجع اختياره للامام
١٠٣ غريبة فى المنام
قوله تعالى (كلا بل ران) الآية . معنى ران لغة والقرآن فى الآية. وتقدم فى الكهف عند (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه)
١٠٥ قوله تعالى (ختامه مسك ـ إلى ـ المتنافسون) : عود على بدء السورة وبيان محل التنافس حقاً
١٠٥ قوله تعالى (إن الذين أجرموا ـ إلى يتغامزون) وبيان أن هذا الوصف مشترك بين جميع الأمم
١٠٦ إحالة على كلام الشيخ رحمه الله فى سورة البقرة عند (ويسخرون من الذين آمنوا)
١٠٧ تنبيه : على كل داعية إلى الله أن يتأسى بالرسل ولا يبالى بسخرية الجهال
قوله تعالى (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون) فيه رد على سخرية الكفار منهم فى الدنيا . وإحالة على كلام الشيخ فى سورة المؤمنون عند (إنى جزيتهم اليوم بما صبروا)

الصفحة الموضوع

سورة الانشقاق :

١١١ قوله تعالى (إذا السماء انشقت) مقدم فى الانفطار وللشيخ فى الشورى و ق

قوله تعالى (وأذنت لربها وحقت) تقدم مادة الإذن فى الجمعة ، وبيان أن المعنى هنا سمعت وإطاعة حقيقية لا مجازاً ولا دلالة

١١٢ قوله تعالى (وإذا الأرض مدت) فيها بيان كيفية مد الأرض آنذاك .

١١٣ « « (وألقت ما فيها وتخلت) بيان ما فيهـــا من الـكنوز أو الموتى ، وما تخلت عنه

١١٤ قوله تعالى (وأذنت لربها وحقت) تقدم .

« « (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه) وبيان المراد بالإنسان العموم أو شخص ومن هو

١١٥ تنبيه : فيما ينبغى أن يكون الـكدح فيه

« آخر : على شمول الـكدح وعموم الإنسان .

١١٦ قوله تعالى (فأما من أوتى كتابه بيمينه — إلى — لن يحور) فيها بيان نتيجة الـكدح

١١٨ لا يجمع الله على العبد خوفين ولا أمنين ، فمن خافه فى الدنيا أمنه فى الآخرة .

١١٩ قوله تعالى (فلا أقسم بالشفق — إلى — عن طبق) معانى الشفق لغة وشرعاً وتقدم .

١٢٠ كلام الشيخ رحمه الله فى بيان مواقيت الصلاة عند (فسبحان الله حين يمسون) صعود الخليل منارة الإسكندرية ليتحقق غياب الشفق الأبيض

١٢١ قوله تعالى (والليل وما وسق والقمر إذا اتسق)

١٢٢ « « (لتركبن طبقاً عن طبق) القراءات فيها ، وبيان المراد منها هل هو فى الدنيا أم فى الآخرة

١٢٣ الربط بين المقسم به والمقسم عليه

الصفحة الموضوع

١٢٤ قوله تعالى (إلا الذين آمنوا ـ إلى ـ غير ممنون) معنى المن هل هو القطع أو الانعام

سورة البروج :

١٢٩ قوله تعالى (والسماء ذات البروج) اختلف فيها هل هى المنازل أو البروج أو غير ذلك وربطها بما قبلها وتقدم ، ذلك فى سورة الحجر عند (ولقد جعلنا فى السماء بروجاً) وفى سورة الفرقان عند (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا)

١٣٠ قوله تعالى (واليوم الموعود) : دلالة النصوص على أنه يوم القيامة

١٣١ « « (وشاهد ومشهود) . تعدد الأقوال فى المراد منهما والجمع بين تلك الأقوال وهو مبحث مطول فى أنواع الشهادات

١٣٦ تنبيه : فى ربط هذه الآية بالعدالة والقضاء

١٣٧ قوله تعالى (قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود) الخلاف فيها هل هى جواب القسم أم لا ، وهل هى جملة جبرية أم هى إنشائية دعاء عليهم

١٣٨ قوله تعالى (النار ذات الوقود) : الخلاف فى المراد بهـا وبيان الراجح من السنة

١٤١ بيان مايؤخذ من القصة من حال الساحر والكاهن نحو عشرين مسألة

١٤٤ قوله تعالى (إذ هم عليها قعود) الخلاف فى مرجع الضمائر فى هم وعليها وقعود .

١٤٥ قوله تعالى (وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود) فسره قوله تعالى : قعود وبيان السر فيه .

قوله تعالى (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) شاهد على ما يسمى أسلوب المدح بما يشبه الذم وبيان عمومه أو خصوصه بأصحاب الأخدود .

١٤٦ السر فى التذييل لهذا السياق بصفتى العزيز الحميد .

١٤٧ قوله تعالى (الذى له ملك السموات والأرض) تأكيد لما قبله ولمعنى العزة

الصفحة الموضوع

قوله تعالى (والله على كل شيء شهيد) ربط بقوله وشاهد ومشهود

« « (إن الذين فتنوا المؤمنين – إلى – ثم لم يتوبوا) . بيان المراد بالذين فتنوا ومعنى الفتنة هنا

١٤٨ قوله تعالى (إن بطش ربك لشديد) بيان بالمفهوم من العزيز الحميد .

« « (إنه هو يبدىء ويعيد) بيان المراد بإبدائه وإعادته أهو الإنسان بدأ خلقه ويعيده بالبعث ، أو العذاب يبدأه ثم يعيده عليهم .

١٤٩ قوله تعالى (هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود) بيان المشابهة فى القصتين أى فرعون وصاحب الأخدود، لوجود السحر والطغيان والتكذيب والتعذيب

١٥١ قوله تعالى (بل الذين كفروا فى تكذيب) .

والفرق بين يكذبون هنا وفى تكذيب هناك فى الانفطار لمراعاة المعنى لا لرؤوس الآى كما قال البعض .

سورة الطارق:

١٥٤ قوله تعالى (والسماء والطارق) الطرق لغة . والمراد بالثاقب وتقدم فى سورة النجم فى أولها .

قول سفيان : كل ما فى القرآن وما أدراك فقد أخبره بها . وكل ومايدريك لم يخبره به . وبيان أن ذلك هو الغالب وقد جاءت وما أدراك ثلاث عشرة مرة ، كله أخبره بها صراحة إلا فى الحاقة ما الحاقة .

١٥٧ تنبيه : يلاحظ أنها كلها فى قصار السور، ومن الحاقة فما بعدها. أما مايدريك، فهى فى القرآن ثلاث مرات فقط . وبيان مواقعها

تنبيه آخر : حول السر فى الإقسام بالسماء والنجم الطارق .

١٥٨ قوله تعالى (إن كل نفس لما عليها حافظ) هل حافظ لذاتها أو يحفظ أعمالها عليها

الصفحة الموضوع

قوله تعالى (فلينظر الإنسان مم خلق)لفظ الإنسان عام مخصوص منه آدم، وحواء وعيسى ، لأنهم لم يخلقوا من ماء دافق

وتقدم عند قوله (خلق الإنسان من نطفة) فى النحل وفى الواقعة وتقدم فى الدهر .

١٥٩ قوله تعالى (إنه على رجعه لقادر) الخلاف فى المراد برجعه وترجيح المراد هل هو الماء الدافق واللبن إلى الضرع والمولود إلى الرحم . أو الإنسان يوم البعث .

١٦١ قوله تعالى (يوم تبلى السرائر) تقدم للشيخ رحمه الله عند (هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت) وسيأتى عند(وحصل ما فى الصدور) فى العاديات

وفيها اشتمالها لإماتة التكليف الخفية كالطهارة والصوم والزكاة

١٦٢ قوله تعالى(فماله من قوة ولاناصر) وبيان حالة ضعفه فى صور مختلفة

« « (والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع) والخلاف فيهما وبيان الراجح فى القرآن

١٦٣ قوله تعالى (إنه لقول فصل) قيل حق وقيل عدل وقيل تهديد ، وبيان الراجح

١٦٤ قوله تعالى (إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا) نسبة ذلك إلى الله من باب المقابلة وبيان أنه مما لا يشتق منه اسما ولا يطلق مفردا

١٦٥ إطلاق العرب الكيد بمعنى المكر

١٦٦ قوله تعالى (فمهل الكافرين أمهلهم رويدا) بحثه الشيخ فى دفع الإيهام ، وبين أنه منسوخ، وقد عارض بعض المعاصرين النسخ مع أنه فى الآية الإشارة بقوله : رويدا أى قليلا .

سورة الأعلى :

١٧١ قوله تعالى (سبح اسم ربك الأعلى) تقدم معنى التسبيح . ولكن هنا بيان

الصفحة	الموضوع
	المراد بالتسبيح هل هو تسبيح الله وتسبيح أسمائه ، ومسألة الإسم والمسمى ومبحث مطول
١٧٦	قوله تعالى (الذى خلق فسوى) للعموم والشمول
	« « (والذى قدر فهدى) بيان لما قبله فى تسوية الخلق بالتقدير .
١٧٧	من لوازم الخلق التقدير وهو مما استدل به موسى على فرعون لقدرة الله تعالى ولوجوده .
١٧٧	قوله تعالى (سنقرؤك فلا تنسى) تقدم للشيخ رحمه الله فى طه عند (ولا تعجل بالقرآن) .
	قوله تعالى (فذكر إن نفعت الذكرى) هل إن بمعنى إذ أو شرطية وما يترتب عليه .
	قوله تعالى (سيذكر من يخشى) تقدم للشيخ رحمه الله بيان الحكمة من الذكرى عند (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) فى الذاريات .
١٧٩	قوله تعالى (ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى) . فى لفظ الأشقى إشعار لعلة تجنبه الذكرى أى لشقائه .
	قوله تعالى (ثم لا يموت فيها ولا يحيى) هذه الحالة من خصائص يوم القيامة لأن فيها سلب النقيضين ، وهذا فى الدنيا محال . وتقدم فى طه عند (إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى)
	قوله تعالى : (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) .
١٨٠	إحالة على كلام الشيخ فى سورة النور عند (ولولا فضل الله عليكم) .
١٨٠	قوله تعالى : (بل تؤثرون الحياة الدنيا إلى ومو سى) القراءة فى تؤثرون بيان سبب هذا الإيثار .
١٨٣	قوله تعالى : (إن هذا لفى الصحف الأولى) المراد باسم الإشارة أى المشار إليه . وبيان موضوع صحف إبراهيم ما هو .

الصفحة الموضوع

سوره الغاشية :

١٨٧ قوله تعالى:(هل أتاك حديث الغاشية ـ إلى ـ من جوع) تحقيق معنى هل الخلاف فى معنى الغاشية ، والراجح من المراد منها وأنها فى عموم أحوال القيامة تغشى الناس .

١٨٩ قوله تعالى : (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة) الآيات . وبيان العمل والنصب ، وهل هو فى الدنيا أو فى الآخرة . وعلاقة الآية بالعمل البدعى وغير المشروع .

١٩٢ كلام ابن تيمية رحمه الله مفصل فى هذا الموضوع .

١٩٥ وجه آخر فى هذه المسألة .

١٩٦ قوله تعالى : (تسقى من عين آنية) . الخلاف فى معنى آنية .

« « (ليس لهم طعام إلا من ضريع) يأتى للشيخ رحمه الله فى دفع الإيهام.

١٩٧ سؤال للفخر الرازى وجوابه عليه . الرد على من يجعل فيها شبهة .

١٩٨ قاله تعالى : (وجوه يومئذ ناعمة ـ إلى ـ وذرابى مبثوثة). فى هذا بيان لتقسيم ماتقدم . مقارنة بين القسمين .

٢٠٠ تنبيه : تكرار كلمة فيها مرتين للدلالة على قسمى النعيم بعين جارية وبسرر مرفوعة .

قوله تعالى : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ـ إلى ـ مذكر) ،

٢٠١ بيان الارتباط بين هذه المسميات الأربعة الإبل والسماء والجبال والأرض .

٢٠٢ كلام الشيخ على خلق السموات والأرض .

بيان الجمع بين سطحت وبين ماتقدم من أنها كروية الشكل .

٢٠٣ تنبيه : بيان كيف وجه النظر هنا بكيف خلقت. والكيف لم يشهدوه .

٢٠٤ أبيات زيد بن عمرو مؤمن الجاهلية ... وأسلمت وجهى لمن أسلمت . . .

الصفحة	الموضوع
٢٠٥	قوله تعالى : (إن إلينا إيابهم ـ إلى ـ حسابهم) . معنى الإياب وما فيه من تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم .
٢٠٦	الربط بين مذكر وبين إلينا إيابهم .
	سورة الفجر :
٢٠٩	قوله تعالى : (والفجر وليال عشر ـ إلى ـ إذا يسر) الخلاف فى المراد بالفجر الاسم لأول النهار أم الوصف لكل ماتفجر عن غيره ؟
٢١٠	(الليالى العشر) ـ الشفع والوتر والخلاف فيه نحواً من عشرين قولا .
٢١١	تحقيق أنه لا وتر فى الكون كله إلا الله .
٢١٢	(والليل إذا يسر) هل هو عام فى كل الليالى أم فى خصوص ليال منها .
٢١٣	الخلاف فى جواب القسم .
٢١٤	قوله تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد ـ إلى ـ طغوا فى البلاد) . لم يبين هنا كيف فعل بهم. وتقدم بيان ذلك فى سورة الحاقة .
٢١٥	المراد (بإرم ذات العماد) .
٢١٦	التحقيق فى أوتاد فرعون وأنها الأهرام على الراجح .
٢١٧	قوله تعالى : (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه ـ إلى ـ كلا) .
٢١٧	قوله تعالى : (كلا بل لا تكرمون اليتيم ـ إلى ـ حباً جماً) . بيان فتنة المال عطاء ومنعاً .
٢١٨	قوله تعالى : (كلا إذا دكت الأرض ـ إلى ـ صفا) هذه الآية من هم يات الصفات وعندها عنده إحالات .
٢١٩	مواضع البحث والنظر وإحالة على كلام الشيخ .
	قوله تعالى : (يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى) . تقدم للشيخ رحمه الله فى الفرقان عند (ويوم يعض الظالم على يديه) .
	سورة البلد :

صفحة الموضوع

٢٢٣ قولة تعالى : (لاأقسم بهذا البلد) إحالة على المراد وعلى هذه اللام وعلى دفع الإيهام .
قوله تعالى : (وأنت حل بهذا البلد) . هل الحل من الحلول والنزول أو الإحلال والتحليل .
٢٢٥ بيان الراجح من هذا والقرائن عليه .
٢٢٦ قوله تعالى(ووالد وما ولد) . بيان أنه على عمومه ومناسبة ما بينه وبين مكة أم القرى .
٢٢٧ قوله تعالى : (لقد خلقنا الإنسان فى كبد) . وتقدم عند(إنك كادح إلى ربك كدحاً) .
قوله تعالى : (يقول أهلكت مالا لبداً أيحسب أن لم يره أحد) . لم يبين أيراه أحد ومن الذى يراه ومجيء الجواب مقرونا بالدليل .
قوله تعالى : (وهديناه النجدين) وبيان النجدين وإحالات فيها .
٢٢٨ قوله تعالى : (فلا اقتحم العقبة) يبين المراد من العقبة بما بينه . وفضل فك الرقبة .
٢٢٩ بيان فضل فك الرقاب والرد على من جعل الرق شبهة وإحالة فيها .
قوله تعالى (يتيما ذا مقربة) . معنى اليتم فى الإنسان والحيوان والطير .
٢٣١ أصل اشتقاق الفقير والمسكين. والخلاف فى الفرق بينهما والراجح فيها .
٢٣٢ قوله تعالى : (ثم كان من الذين آمنوا) . فيها اشتراط الإيمان صحة العمل وفيها إحالة مصير عمل المشرك فى شركه بعد أن يسلم .
٢٣٣ قوله تعالى : (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) علاقة المرحمة بإطعام الفقير والمسكين .
سورة الشمس :
٢٣٧ قوله تعالى : (والشمس وضحاها ـ إلى ـ قد خاب من دساها) فى ذلك يقسم الله سبع مرات بسبع آيات كونية على شيء واحد وبيان ذلك كله مفصلا .

الصفحة	الموضوع
٢٤٣	تنبيه : تسوية النفس الإنسانية أعظم من خلق الإنسان فى جسمه ورزقه وتصريفه فى كل شأنه .
٢٤٥	تنبيه : فى مجىء ذلك بعد الآيات الكونية من شمس وقمر وليل ونهار وإحالة فيها .
٢٤٦	قوله تعالى : (قد أفلح من زكاها وقدخاب من دساها) جواب القسم .
٢٤٧	الاختلاف فى مرجع الضمير فى زكاها ودساها هل هو إلى الله أم للعبد ؟
٢٤٨	الجمع بين الأقوال فيها .
٢٤٩	قوله تعالى : (كذبت ثمود بطغواها ـ إلى ـ فعقروها) . فيه إسناد الانبعاث الواحد وإسناد العقر لهم كلهم ، وبيان ذلك وإحالات فيها .
	سورة الليل :
٢٥٠	قوله تعالى : (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى) تقدم عند (والنهار إذا جلاها) قوله تعالى : (وما خلق الذكر والأنثى) ، تقدم الإحالة عليه فى سورة النجم ما فى قوله (وماخلق الذكر والأنثى) هل هى مصدرية أو بمعنى الذى .
٢٥٥	إثبات أن التذكير والتأنيث بيد الله وسببه من جهة الرجل والمرأة حرف فقط .
٢٥٧	غرائب فى التذكير والتأنيث فى الشجر .
	قوله تعالى (إن سعيكم لشتى) . هذا جواب القسم .
٢٥٩	بيان المراد بصدق بالحسنى ومايشهد له من القرآن .
٢٦٠	تنبيه : مناقشة لأبى حيان فى إيراده على التيسير للعسرى وأنه لاتيسير فيها .
٢٦١	غريبة : عن شخص كان لصاً وتاب فى تذوقه للحرام والحلال .
	غريبة : عن عمر ضد ذلك فى نفس المعنى .
٢٦٢	تنبيه : فى المقارنة بين من أعطى وبخل فى مناقب الصديق وعموم اللفظ .
	قوله تعالى : (ومايغنى عنه ماله إذا تردى) فيه الرد على من بخل وهل ماهنا نافية أم استفهامية .

الصفحة	الموضوع
٢٦٣	قوله تعالى : (إن علينا للهدى) والإحالة الذى دفع الإيهام .
	« « (وإن لنا للاخرة والأولى) فسره قوله فى الفاتحة (رب العالمين) .
	« « (فأنذرتكم ناراً تلظى) ، وصفها هنا بالتلظي ومناسبته للاشقى المتقدم .
٢٦٤	قوله تعالى : (لا يصلاها إلا الأشقى ـ إلى ـ يتزكى) ظاهره لا يصلاها إلا صنف واحد مع عموم الورود والجمع بينهما .
٢٦٦	علاقة التصدق بالمال بالتصديق بالبعث .
٢٦٧	تنبيه : على قوله (وسيجنبها الأتقى) أنها فى أبى بكر رضى الله عنه .
٢٦٨	تنبيه آخر : الإجماع على أن ولسوف يرضى هو أبو بكر رضى الله عنه وماجاء فى حقه صلى الله عليه وسلم (ولسوف يعطيك ربك فترضى) .
	سورة الضحى :
٢٧٣	قوله تعالى (والضحى والليل إذا سجى) وفيه إحالة ، وبيان اختيار الشيخ
٢٧٤	القراءات فى (ودعك)
٢٧٥	الراجح فى المراد بودعك أهو من الودع والترك أم التوديع ؟
	تنبيه : أنه سبحانه ماترك رسوله قط ولن يترك .
٢٧٨	قوله تعالى (وللاخرة خير لك من الأولى) : ظاهره أنها خير له صلى الله عليه وسلم فقط ، وبيان أنها خير له صلى الله عليه وسلم ولكل معنى وإحالة على كلام الشيخ .
٢٧٩	قوله تعالى (ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى) ، هذا من تعداد النعم عليه صلى الله علية وسلم .
٢٨٠	قوله تعالى : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) ، وبيان ما سيعطيه ربه فى الدنيا وفى الآخرة .
٢٨٢	تنبيه : اللام فى ولسوف للتأكيد وليست للقسم .

الصفحة	الموضوع
	قوله تعالى : (ألم يجدك يتيما فآوى) ، وبيان ما قيل في اختيار الله اليتيم لرسول الله .
٢٨٣	قوله تعالى : (ووجدك ضالا فهدى) . الضلال يكون حسآ ومعنى ، وفيه إحالة على كلام الشيخ رحمه الله فى عدة مواضع أولا فى سورة يوسف .
٢٨٤	رؤيا منامية لأبى حيان فى هذه الآية .
٢٨٥	إيراد رؤيا عن سورة ن نذكرها بالمناسبة .
٢٨٦	قوله تعالى : (ووجدك عائلا فأغنى) . العائل لغة وبيان كيف أغناه الله .
٢٨٨	حقيقة الغنى عن النفس . والمقارنة بين الغنى للشاكر والفقير الصابر .
٢٨٩	تنبيه : لطيفة فى السياق فى أنواع الإسناد والخطاب .
٢٩٠	قوله تعالى : (فأما اليتيم فلا تقهر ـ إلى ـ فحدث) ، معنى قهر اليتيم . مبحث فى النصوص الواردة فى حق اليتيم وهى فوق عشرين وهو مبحث مطول .
٣٠٠	تنبيه : ليس من باب الإساءة إلى اليتيم تأديبه .
	قوله تعالى : (وأما السائل فلا تنهر) ، هل السائل هنا هو المحتاج أم هو المستفسر عن العلم . أم يشمل الجميع .
٣٠٢	التحدث بالنعمة وهى هنا عامة بسبب اضافة .
	سورة الشرح
٣٠٧	قوله تعالى : (ألم نشرح لك صدرك ـ إلى ـ ورفعنا لك ذكرك) . فيها التقرير على ثلاث مسائل : شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر ، وبيانها كلها .
٣١٣	مبحث عصمة الأنبياء . وتقدم للشيخ رحمه الله في سورة طه عند (وعصى آدم ربه فغوى) وأورد كلام الشيعة والمعتزلة ، مايتعلق بخصوصه صلى الله عليه وسلم .
٣١٦	بيان (ورفعنا لك ذكرك) .
٣١٨	قوله تعالى : (فإذا فرغت فانصب) ، المراد بالفراغ وبالنصب .

الصفحة الموضوع

تنبيه : قراءة شاذة ذكرها الآلوسى احتج بها الشيعة والرد عليهم .
٣٢٠ أمثلة من تأويل اللعب
٣٢١ قوله تعالى (وإلى ربك فارغب) التقديم هنا مشعر بالتخصيص كقوله تعالى (إياك نعبد)
سورة التين :
٣٢٥ قوله تعالى (والتين والزيتون - إلى - وهذا البلد الأمين) بيان المراد هل هو الثمرة أم مكان إنباتها
٣٢٧ تصحيح ابن القيم أن الثمرة هى المقصودة
٣٢٨ الراجح من ذلك كله مما هو من أسلوب القرآن وهذا الكتاب
٣٢٩ قوله تعالى (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) هذا هو المقسم عليه وإحالات على كلام الشيخ رحمه الله
٣٣٢ قوله تعالى (ثم رددناه أسفل سافلين) المراد بهذا الرد إلى الكبر ويكون عاماً ، أم الى النار ويكون خاصا فى الكافر .
٣٣٣ بيان الراجح من ذلك
٣٣٤ حفظ القرآن لعقول حفظته عند كبر السن .
٣٣٥ تنبيه : محاولة ربط هذه السورة بأصل الخليقة وإسكان آدم الجنة ثم خروجه منها ثم رد المؤمنين إليها .
٣٣٧ سر لطيف بين المقسم به والمقسم عليه . علاقة هذا بالبلد الأمين
٣٣٨ قوله تعالى (فما يكذبك بعد بالدين) فسره مالك يوم الدين وبيان له الخطاب قوله تعالى (أليس الله بأحكم الحاكمين) . السؤال للإثبات . مايقوله من قرأ هذه السورة .
بيان أحكم الحاكمين هل من العدل فى الحكم أم من الحكمة فى الفعل .
سورة العلق :
٣٤٣ قوله تعالى (اقرأ باسم ربك - إلى - علم الإنسان ما فى هذه الآيات

الصفحة الموضوع

تسع مسائل مرتبط بعضها ببعض. ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية فيها حوالى ٢٢٠ صفحة

٣٤٤ بيان المسائل التسع إجمالا ثم التفصيل

٣٥٣ تنبيه : شرف التعليم بالقلم

٣٥٤ أقسام القلم فى السنة

٣٥٥ عنايته صلى الله عليه وسلم بالتعليم بالقلم

٣٥٦ من كتاب الوحى الخلفاء الأربعة ذكره ابن القيم رحمه الله

٣٥٧ جواز تعليم الكافر للمسلم مالا تعلق له بأصل الدين

٣٥٨ مبحث تعليم النساء القراءة والكتابة

٣٦٢ مسألة فى بيان أولية الكتابة عموماً والعربية خصوصاً الحروف المكتوب بها الآن فى لغات العالم .

٣٦٣ عدد المعروف من اللغات . تقريباً خطأ الجزم

تنبيه : التعليم بالقلم لايمنع التعليم بدون القلم

٣٦٩ قوله تعالى (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) : لفظ الإنسان عام لكنه مخصوص وبيان المخصص لها

٣٧٢ بيان أن الغنى ليس هو السبب المباشر فى الطغيان ، بل من لطيف الأسلوب أن رآه ، فقد يرى نفسه استغنى ، وهو غير مستغن .

٣٧٣ قوله تعالى (لئن لم تنته لنسفعا بالناصية ـ إلى ـ خاطئة) إحالة على ما تقدم تنبيه بلاغى فى علاقة مايسمى بالمجاز المرسل إذا كانت الجزئية .

٣٧٤ قوله تعالى (فاسجد واقترب) والربط بين السجود والاقتراب إلى الله .

سورة القدر :

٣٧٩ قوله تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) الضمير فى أنزلناه

٣٨١ بيان المنزل ليلة القدر ماهو ، وكلام ابن تيمية رحمه الله فى الجمع بين الأقوال .

الصفحة الموضوع

٣٨٢ النقاش حول كيفية إنزال القرآن وجواب سماحة المفتي الشيخ محمد بن إبراهيم
بيان عدم التعارض بين الأقوال .
٣٨٤ بيان موضع ليلة القدر انها فى رمضان .
٣٨٥ قوله تعالى (ليلة القدر خير من ألف شهر) . المراد بالقدر هل هو التقدير ،
أم هو الرفعة والشرف ، وكلام الشيخ رحمه الله ، وبيان الراجح من القرآن
وإثبات بقائها ولم ينفها إلا الشيعة .
٣٨٧ تنبيه : تحديدها من رمضان والراجح فى العشر الأواخر .
٣٨٨ الراجح من تلك الأقوال كلها والجمع بينها .
٣٨٩ السر فى عدم تعيينها .
مباحث متفرقة عن هذه الليلة .
٣٩٠ قوله تعالى (تنزل الملائكة والروح فيها) المراد بالروح هل هو جبريل
أو نوع من الملائكة .
٣٩١ قوله تعالى (من كل أمر) هل هو واحد الأمور ، أم واحد الأوامر .
٣٩٢ قوله تعالى (سلام هى حتى مطلع الفجر) معنى السلام هل التحية أم السلامة .
لطيفة : فى جعل الليل ظرف المكرمات إنزال القرآن ـ الإسراء ـ التهجد .
سورة البينة :
٣٩٧ أسماء سورة البينة .
قوله تعالى (لم يكن الذين كفروا ـ إلى ـ من بعد ماجاءتهم البينة)
بيان الفرق بين المشركين والكافرين
٣٩٩ إحالة على دفع الإيهام ونبذة منه .
٤٠٠ هل الكفر ملة واحدة . وحكم المجوس
الإختلاف فى منفكين اختلافاً كثيراً ، يقيد المفسرون هذه الآية من
أصعب مافى كتاب الله نظماً وتفسيراً . بيان الإشكال فيها ـ ماجاء عن الشيخ
رحمه الله فى إملائه عنها .

الصفحة	الموضوع
٤٠٢	وجهة نظر فى « منفكين » تحل هذا الإشكال كله فيما يظهر . كلام الشيخ الإسلام فيها شامل .
٤٠٤	تفسير البينة بما قيدها (رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة) .
٤٠٥	بيان أنه صلى الله عليه وسلم فى شخصية بينة .
٤٠٧	فيها كتب بمعنى كتاب أو مكتوب . وبيان المراد بالمكتوب ماهو .
٤٠٨	بيان أن الظاهر فى كتب على نصها : جمع كتاب .
٤٠٩	قوله تعالى « وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة » لماذا خص أهل الكتاب هنا مع ذكر المشركين معهم أولا
٤١٠	تنبيه على ماتقدم
٤١١	قوله تعالى « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء » لم يبين أين هذا الأمر المذكور فى القرآن أم فى كتبهم . بيان أنه فى كل منهما .
٤١٢	معنى قيمة ، وأن القرآن أقومها .
٤١٤	تنبيه : الرد على من يدعو إلى وحدة الأديان ، وبيان أن ماجاء به القرآن هو الدين القيم والذى لايقبل الله غيره اليوم .
٤١٥	قوله تعالى : (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين — إلى — البرية) معنى البرية والقراءات فيها ، تضمنت الآية مسألتين وبيانهما ، بيان أن الدواب خير من أولئك لإثبات الإيمان عندها .
٤١٧	الحكمة فى تصيير البهائم يوم القيامة ترابا دون الكافر .
٤١٧	قوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) . وفيها مبحث العموم فى البرية والتفضيل بين الملائكة ومؤمنى الإنس والدليل .
٤٢١	بيان حقيقة التفضيل فى صدور العمل من كل منهما لا فى الذات والماهية .
٤٢١	قوله تعالى : (جزاؤهم عند ربهم جنات عدن) الآية . فيها أربع مسائل منها ثلاث مجملة .

الصفحة الموضوع

٤٢٢ قوله تعالى : (رضى الله عنهم ورضوا عنه) . وبيان هذا الرضوان وزمنه فى الدنيا أم الآخرة .

٤٢٤ تنبيه : بيان لازم رضوان العبد على ربه .

٤٢٥ قوله تعالى : (ذلك لمن خشى ربه) . بيان النتائج المترتبة على خشية الله .

٤٢٩ سورة : « إذا زلزلت » . بيان الزلزال لغة .

٤٣٠ إحالة على كلام الشيخ فى سورة الحج عند (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) .

٤٣٠ الإختلاف فى الأثقال هنا على ثلاثة أقوال : موتاها ـ كنوزها . ماعمل على ظهرها .

٤٣١ إحالة على كلام الشيخ رحمه الله فى إملائه أنها موتاها .

٤٣٢ قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) . وبيان عمومين فيها الأول « من » والثانى « يعمل » .

٤٣٥ فيها التنبيه بالأدنى على الأعلى .
تنبيه : يتعلق بتفتيت الذرة وأن القرآن سبق إلى الإشارة إلى التفجير النووى والرد على المنطقيين بأن الذرة هى الجوهر الفرد .

٤٣٩ سورة والعاديات : وإحالة على إملاء الشيخ رحمه الله تعالى ، وقد جمع أقوال المفسرين كلها . بيان نقطة الخلاف فى معنى الجمع والذى توسطن به أهو المزدلفة أو القتال .

٤٤٢ القرائن فى الآية الماثمة من كونه المزدلفة .

٤٤٣ مايفيده الربط بين السور من ترجيح المعنى المراد .

٤٤٤ جواب القسم ، وبيان الكنود عند القرطبى ، وفى لغة ربيعة ومضر .

٤٤٥ سبب تسمية كنده بكندة لأنها جحدت أباها .

٤٤٦ تفسير القرآن لمعنى الكنود .

الصفحة	الموضوع
٤٤٧	الإنسان هنا من العام المخصوص ـ وأن هذه من طبيعة الإنسان إلا ماهذبه الشرع .
	قوله تعالى : (وإنه على ذلك لشهيد) . والخلاف فى مرجع الضمير فى وإنه ، ورجح الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه رجوعه إلى الإنسان فى مبحثه فى دفع الإيهام بدليله .
٤٤٨	قوله تعالى (وإنه لحب الخير لشديد) . لفظ الخير عام ولكنه هنا خاص بالمال . الخلاف فى اللام هل هى سببيه أم بسبب حبه الخير شديد البخل أم مقدمة بمعنى لشديد حب الخير .
٤٥٠	قوله تعالى (أفلا يعلم إذا بعثر مافى القبور) . معنى البعثرة . أخذها من أصلين فى اللغة : البعث والنثر
٤٥١	قوله تعالى (وحصل مافى الصدور) ومعنى حصل . والمراد بما فى الصدور هى الأعمال أم القلوب ، وبيان الراجح
٤٥٣	قوله تعالى : (إن ربهم بهم يومئذ لخبير) ، ومفهوم الظرفية
٤٥٧	سورة القارعة : إحالة على كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى أول سورة الواقعة ، بيان أن أسماء يوم القيامة ليس من قسم المترادف ، وأن كل اسم يأتى معه ماينا سبه من أحو ل ذلك اليوم
٤٥٨	معنى القارعة فى القرآن ، وناسبها مع ما بعدها
٤٥٩	قوله تعالى : (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث) ، معنى الفراش ، وإحالة على كلام الشيخ رحمه الله فى إملائه
٤٦٠	الفرق والجمع بين وصفهم بالفراش وصفهم مرة أخرى بالجراد المنتشر . وإحالة على كلام الشيخ رحمه الله فى سورتى اقتربت و « ق » ويس .
	قوله تعالى : (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) . وإحالة على كلام الشيخ فى سورة الواقعة .
٤٦١	قوله تعالى (فأما من ثقلت موازينه) الآية . ودلالة ذلك على وجود الوزن

الصفحة الموضوع

فعلا . والموازين يراد بها الموزون ويرادبها الآية . وإحالة على كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند قوله (ونضع الموازين القسط) . إسناد الرضا للعيشة فى قوله (فى عيشة راضية) .

٤٦٣ كون الإسناد حقيقياً .

٤٦٣ قوله تعالى : (أما من خفت موازينه فأمه هاوية) . وبيان الخلاف فى المراد بأمه هل هى رأسه أم هى النار . إحالة على كلام الشيخ رحمه الله فى دفع إيهام الاضطراب .

٤٦٤ تفسير القرآن للهاوية . وبيان أن لا تعارض بين المعنيين .

٤٦٩ سورة التكاثر : معنى ألهاكم ، والتكاثر ، عام فى كل ما يتكاثر فيه .

٤٧٠ بيان مافيه التكاثر ، وبيان عموم وشمول اللفظ له .

٤٧٢ قوله تعالى (حتى زرتم المقابر) . والصحيح فيما يراد به .

٤٧٣ تنبيه : فى حكم زيارة النساء للقبور ، والراجح من الخلاف فيها .

٤٧٥ تنبيه آخر : من لطائف التفسير فى معنى (زرتم المقابر) .

٤٧٦ إنكار السلف على ما يصنع للقبور ، من المباهاة بها بالأندلس ومصر وغيرها إنكار السلف على المكثرين من زيارة القبور والمباهاة بها .

٤٧٧ بيان خطأ هؤلاء فى اشتغالهم دائما بذلك . وتنقلاتهم إليها .

٤٧٨ قوله تعالى : (كلا سوف تعلمون ، ثم كلاسوف تعلمون) الكلام على تكرر لفظ كلا هنا .

٤٧٩ الاستدلال من الآية على ثبوت عذاب القبر .

٤٧٩ إحالة على كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى هذه المسألة . أصرح دليل فى إثبات عذاب القبر على سبيل الإجمال .

قوله تعالى (كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين) . بيان لو الشرطية وجوابها .

الصفحة الموضوع

٤٨٠ لترون الجحيم : جواب لقسم محذوف . وبيان الخلاف فى زمن أول تلك الرؤية .

٤٨١ مراتب العلم الثلاثة : علم اليقين ، عين اليقين ، حق اليقين .

٤٨٢ قوله تعالى : (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) ، بيان أصل النعيم الذى يكون عند السؤال ، وبيان أن الآية عامة فى كل مايتنعم به .

٤٨٤ سبب نزولها .

٤٩١ سورة والعصر : بيان المراد بالعصر ، والخلاف فيه ، ودليل كل قول والراجح منها .

٤٩٤ قوله تعالى : (إن الإنسان لفى خسر) . أل فيه جعلته عاماً ، وإحالة ذلك على دفع الإيهام . بيان المراد بالخسر وأقسامه من نصوص القرآن الكريم .

٤٩٥ ربط السورة بالتى قبلها ، والتى بعدها يظهر المعنى أكثر .

٤٩٧ تحقيق المناط فى معنى خسران الإنسان .

٥٠٠ تنبيه : أقوال العلماء فى سبب التلهى المذكور فى هذه السورة .

٥٠١ تنبيه : فى دخول الجن مع الإنس فى ذلك العموم .

قوله تعالى : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) ، مناقشة دخول الأعمال فى مسمى الإيمان ، أوهى شرط فى صحته .

٥٠٢ معنى الصالحات ، وإحالة على كلام للشيخ رحمه الله ـ التواصى بالحق هنا من الخاص بعض العام .

الصفحة الموضوع

٥٠٣ معنى الحق الذى تواصوا به ، وعلاقة الآية بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

٥٠٤ عموم وجود ذلك فى جميع الأمم .

٥٠٥ الوصايا العشر

٥٠٦ الربط بين هذه الآية وسورة الفاتحة والهداية إلى الصراط المستقيم .

٥٠٧ إحالة على كلام الشيخ رحمه الله

٥٠٨ تنبيه : علاقتها بآية الاستقامة وتعدى النفع إلى الآخرين .

٥٠٩ تنبيه : كيف يتقى الإنسان عدويته من الجن والإنس

٥١٣ « سورة الهمزة » الخلاف فى كلمة : ويل ، وإحالة على بيان الشيخ لها

٥١٤ بيان الظاهر من كل ماتقدم

٥١٥ معانى الهمز واللمز ، وبيان القرآن أنهما متغايرتان لامترادفتان

٥١٦ قوله تعالى (الذى جمع مالا وعدده) . بيان أن هذا علة لما قبله ومعنى عدده

٥١٧ قوله تعالى (أيحسب أن ماله أخلده)

قوله تعالى (كلا لينبذن فى الحطمة) . فسرت الحطمة بما بعدها ، نار الله الموقدة .

قوله تعالى (إنها عليهم مؤصدة فى عمد ممددة) ومعنى الوصد وإحالة على كلام الشيخ رحمه الله

٥٢١ سورة الفيل : الخلاف فى معنى « سجيل » وبيان وإحالة على كلام الشيخ رحمه الله .

٥٢٢ مناقشة من نفى الحجارة من سجيل أوتأولها .

الصفحة الموضوع

٥٢٤ ماحكى عن الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا واعتذار السيد قطب عنهما

٥٢ بيان حقيقة ذلك من نصوص القرآن

٥٢٦ خطأ تحكيم الفصل فى خوارق العادات ، وعجز العقل عن قصور بعض المشاهد المحسوس

٥٢٨ تنبيه : كيف أهلك الله جيش أبرهة وهو كتابى ، ونصر العرب وهم وثنيون .

٥٢٩ أبيات أبى طالب فى القصة .

٥٣٣ سورة « لإيلاف قريش » الخلاف فى لإيلاف

٥٣٥ معنى الإيلاف ـ قريش علم على القبيلة وسبب تسميتها بذلك .

٥٣٦ قوله تعالى (فليعبدوا رب هذا البيت) . أى البيت الحرام بدليل عند (بيتك المحرم)

٥٣٧ قوله تعالى : (الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) . فيه تعليل لموجب الأمر بالعبادة . إحالة على كلام للشيخ رحمه الله تعالى

تنبيه : فى الآية بيان موجب العبادة لله وحده ونظائرها من القرآن .

٥٣٨ بيان كون الشكر يزيد النعم

٥٣٩ تنبيه : فى هذه السورة بيان أن كمال الإنعام فى الأمرين المذكورين الإطعام والأمان .

تنبيه آخر : فيها دليل على استجابة دعوة الأنبياء

٥٤٣ « سورة الماعون » اسم الموصول منهم بينه مابعده وبيان ضده فى المؤمن بيان اختصاص ذكر هذين الوصفين : دع اليتيم وعدم الحض على طعام المسكين .

الصفحة الموضوع

٥٤٤ مقابلة إطعام المسكين والخوف من يوم عبوس : شدة العناية باليتيم فى هذا المقام .

٥٥٥ معنى : دع اليتيم

قوله تعالى (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) الخلاف فى المراد بالمصلين هنا .

٥٤٦ حكم النسيان في الصلاة منه صلى الله عليه وسلم . حكم المرائى فى صلاته

٥٤٧ إحالة على كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فيمن سها عن الصلاة وأضاعها . وإحالة على كلامه عمن تركها جحداً أو كسلا .

٥٤٨ تنبيه : مقارنة بين المنافق والمؤمن فى شأن الصلاة .

٥٤٩ بيان أثر الصلاة فى الإسلام

٥٥٠ مبحثان فى الآية . الأول الرياء وماحده ـ الثانى : حكم العارية .

المبحث الأول فى الرياء . تعريفه وحكمه

٥٥٣ الرياء الطارىء العمل الذى بدأه صاحبه خالصاً لله

٥٥٤ الثانى : حكم العارية

٥٥٦ تضمين مانع الماعون إذا ترتب عليه إتلاف ـ وبيان أن الترك فعل

٥٥٧ تمدح العرب بعدم منع الماعون

٥٥٧ ضمان العارية

٥٥٩ حكم من جحد العارية

٥٦٠ فى السورة ، منهج علمى لجمع أطراف الموضوع .

٥٦١ ومنها مأخذ لمالك رحمه الله : أن من شرط الشهادة الاستشهاد وسماع كل الحديث .

الصفحة	الموضوع
٥٦٥	« سورة الكوثر » الخلاف فى المراد بالكوثر والأقوال المتعددة فيه .
٥٦٧	الذى تطمئن إليه النفس فى معناه ، أنه الخير الكثير والحوض أحد أفراده .
٥٦٨	عرض موجز لما ظهر لى من ربط قصار السور بعضها ببعض ، كربط الآيات فى السورة الواحدة .
٥٧١	قوله تعالى (فصل لربك وانحر) . بيان أنه سبب عما قبله . فيه تنبيه لطيف بعد بيان حال سهو المنافقين عن الصلاة ، جاز الحث عليها هنا ، ولما كان قبلها التحذير من الرياء ، جاء هنا الحث على الإخلاص لربك .
٥٧٢	والصلاة قبل صلاة العيد والنحر الضحية أو الهدى ، وفيها مأخذ تأخير النحر عن الصلاة ، وبيان ذلك من السنة .
	إحالة على كلام الشيخ فى مبحث الضحية ، بيان صفة النحر والذبح ، وما يختص به كل منهما .
٥٧٣	الحكمة فى أن النحر للابل .
	قوله تعالى (إن شانئك هو الأبتر) ، وبيان الشانىء والأبتر .
٥٧٩	« سورة الكافرون » مجىء لفظة « قل » .
٥٨٠	هل فى السورة تكرار أم لا . وما المراد منه مع أمثلة على التأكيد .
٥٨١	إحالة على كلام الشيخ فى معنى (لا أعبد ما تعبدون) .
٥٨٤	قوله تعالى : (لكم دينكم ولى دين) ونظائرها من القرآن .
٥٨٥	تنبيه : فى عدم صلاحية أنصاف الحلول ، تعتبر هذه السورة حداً فاصلا بين الفريقين .
٥٨٩	« سورة : إذا جاء نصر الله والفتح » . مايدل عليه اجتماع النصر والفتح هنا ، وأن النصر أعم .

الصفحة الموضوع

٥٩١ قوله تعالى : (ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً) . وبيان المراد بالفتح ما هو .

٥٩٢ نبذة عن بعض وقائع غزوة الأحزاب ، وما جاء فيها من بشائر الفتح مكة وغيرها .

٥٩٥ قوله تعالى : (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) . إحالة على ماتقدم من معنى التسبيح . إقتران التسبيح هنا بحمد الله ومناسبته مع أول السورة .

٥٩٦ بيان أن التوبة دعوة جميع الرسل لأممهم .

٥٩٧ تنبيه : بيان معنى الآية من فعله صلى الله عليه وسلم ولفت نظر لبعض أصحاب الأذكار .

٥٩٨ دلالة الإيماء فى الآية إلى قرب أجله صلى الله عليه وسلم ، ودقة الاستنباط .

٦٠٣ سورة : (تبت يدا أبى لهب) . تصريف مادة تب .

٦٠٤ تفصيل : ماوقع لأبى لهب من معانى التب . وإسناد التب لليدين . إحالة على كلام الشيخ رحمه الله فى إسناد الكذب إلى الناصية .

٦٠٥ قوله تعالى : (ما أغنى عنه ماله وما كسب) . بيان كون ما ، نافية أو استفهامية .

٦٠٦ قوله تعالى : (وما كسب) من مال أو عمل ، وفيه إحالة على كلام الشيخ رحمة الله تعالى عليه .

تنبيه : للمقارنة بين حاله صلى الله عليه وسلم عليهم ومجابهته عمه بذلك .

٦٠٧ مجيء قوله وتعالى « وتب » بعد « تبت » أولا .

الصفحة	الموضوع
٦١١	« سورة قل هو الله أحد » معنى الأحد وتصريف الكلمة .
٦١٤	السورة كلها تفسير لمعنى الأحد ، بل الرسالة كلها تدور حول هذا المعنى وهو وحدانية الله تعالى فى ذاته وصفاته وأفعاله واستحقاقه للعبادة وأن يصمد الخلق إليه .
	إحالة على كلام الشيخ عند قوله تعالى : (وإلهكم إله واحد) .
٦١٥	تقرير القرآن لمعنى الوحدانية لله سبحانه بطريقة الإلزام العقلى .
	قوله تعالى (الله الصمد) أقوال المفسرين ، وأنه يفسره ما بعده .
٦١٦	إحالة على كلام للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه .
	قوله تعالى : (لم يلد ولم يولد) إحالة فيها على كلام الشيخ رحمة الله علينا وعليه .
	تنبيه : نفى اتخاذ الولد لا يستلزم نفى الولادة ، أى أنه لم يولد .
٦١٨	جاء بيان المانع من اتخاذ الولد لله سبحانه . ولم يأت بيانه من أن يولد سبحانه ، وبيان ذلك .
٦١٩	بيان أنه سبحانه يستحيل عليه أن يولد ، بدليل التمانع العقلى .
٦٢٠	الدليل العقلى على عدم اتخاذ الولد لله تعالى . لماذا قدم نفى الولد على نفى الولادة مع أن الولادة أسبق .
٦٢١	لماذا نفى الولادة فى قوله تعالى : (ولم يولد) مع أنه لم يدع أحد ذلك على الله .
٦٢٢	قوله وتعالى : (ولم يكن له كفوا أحد) . بيان الكفو والند ، وإحالة على كلام الشيخ .
٦٢٣	أسباب نزولها وبيان فضلها .
٦٢٤	حول السؤال عن الماهية .

الصفحة	الموضوع
٦٢٧	المعوذتان : مقدمة بين السورتين
٦٢٨	ارتباط السورتين بسورة الإخلاص .
٦٢٩	إحالة الشيخ رحمه الله على سورة الناس .
٦٣٣	الربط بينها وما قبلها من إعلان التوحيد ومعركة الإيمان مع الشرك . قوله تعالى :(قل أعوذ برب الفلق) الفلق فعل بمعنى مفعول . واختلف فى المراد منه .
٦٣٤	مايشهد له القرآن من المعانى .
٦٣٥	قوله تعالى : (من شر ماخلق) . ماهنا على عمومها حتى شملت إبليس وجهنم، وأخذ المعتزلة منها موضوع خلق أفعال العباد والرد عليهم . إحالة على كلام الشيخ فى هذه المسألة .
٦٣٦	قوله تعالى : (ومن شر غاسق إذا وقب) ، الخلاف فى معنى الغاسق .
٦٣٧	الصحيح مماقيل فيه .
٦٣٨	قوله تعالى : (ومن شر النفاثات فى العقد) و وشموله للرجال أيضاً ، إحالة على كلام الشيخ رحمه الله فى مبحث السحر .
٦٣٩	مسألة حكم الساحر إذا قتل بسحره .
	تنبيه : يقع تأثير السحر على الحيوان كما يقع على الإنسان ، وكذلك الحسد.
٦٤٠	قوله تعالى : (ومن شر حاسد إذا حسد) . دلالة اقتران الحسد بالسحر هنا . عرض لبيان أمر الحسد مما اشترك فيه مع السحر .
٦٤١	تعذر تعريف الحسد منطقياً .
٦٤١	إنكار بعض الفلاسفة وقوع الحسد .
٦٤٢	تنبيه : بيان ماهو المحسود عليه، والنعمة التى تستحق الحسد حقاً .
٦٤٣	تنبيه : أثر العين والفرق بين العين والحسد .

الصفحة	الموضوع
٦٤٤	الفرق بين الحسد والغبطة .
٦٤٥	تحذير من الحسد ، وأنه أول معصية وقعت .
٦٤٦	أسباب الحسد .
	تنبيه : مما يؤخذ من وقوع هذه السورة آخر المصحف ، حكم من قتل أو كسر أو أتلف شيئاً بالعين عند الأئمة الأربعة .
٦٤٧	مانقل أنه ينبغى على الإمام منع العائن من مخالطة الناس .
٦٤٩	مسألة ماتعالج به العين .
٦٥٠	ماتتقى به قبل وقوعها .
٦٥١	كيفية العمل فى الغسل لمن به العين وتفضيل ذلك وماذا يفعل بالماء .
٦٥٣	علاج العائن لنفسه من داء الحسد .
٦٥٧	« سورة الناس » قوله تعالى : (قل أعوذ برب الناس) ، وبيان موجب إحالة الشيخ رحمه الله على هذه السورة من تحميل المسئولية .
٦٥٨	موجب الإحالة ، اشتمال هذه السورة على ثلاث صفات عظيمة لله تعالى . علاقة هذه السورة بسورة الإخلاص ، وبسورة الفاتحة ، وبسورة البقرة .
٦٦٠	صريح النصوص فى كون الربوبية تستوجب العبادة . إضافة الرب إلى الناس ، مع أنه رب كل شىء ، والسر فيه والنصوص العديدة .
٦٦٣	قوله تعالى : (ملك الناس) وبيان مافيها من التدرج فى درجات الكمال .
٦٦٤	ما تقر به الإضافة فى ملك الناس مع أنه سبحانه ملك كل شىء ، والنصوص فيها .
٦٦٧	قوله تعالى : (إله الناس) . هذه هى المرتبة الثالثة فى كمال العبودية . وهى الغاية المطلوبة من الخلق إفراد الله تعالى بالعبادة .
٦٦٨	ربط بين خاتمة المصحف ، وافتتاحيته ، من باب عوداً على بدء .

الصفحة الموضوع

٦٦٩ قوله تعالى (من شر الوسواس الخناس) إحالة على كلام الشيخ فى معنى الوسوسة .

٦٧٠ قوله تعالى (الذى يوسوس فى صدور الناس) والخلاف فى الظرف هنا لأى شىء . إحالة على كلام الشيخ رحمه الله .

٦٧٢ الظاهر من كل ما تقدم .

الخلاف فى المراد من لفظ الناس هنا .

٦٧٣ رأى الإمام ابن تيمية رحمه الله فى ذلك . الترجيح بكثرة الاستعمال فى القرآن. منافشة الإمام ابن تيمية للعباد على لفظى نفر رجال .

٦٧٤ رأى لأبى السعود فى معنى الناس بحذف باء من النسيان . ورد هذا القول . مناقشة الجمع إلى المثنى .

٦٧٦ الراجح من كل ذلك فى معنى (الناس) هنا تنبيه على مقارنة لطيفة بين المعذبين لأبى حيان . التطلع إلى ذلك من زمن ، وبيان وجهات نظر أخرى.

٦٧٨ رب الفلق تعادل رب العالمين فى أول المصحف لأن مامن موجود فى الكون إلا وهو مفلوق عن غيره ، وبيان ذلك تعدد المستعاذ منه فى الأولى وانفراده فى الثانية لشدة خطوه .

٦٧٩ الوسواس الخناس سبب كل فتنة ابتداء من آدم إلى اليوم .

٦٨٠ امتداد الوسيلة له وهو نزع اللباس عن المرأة .

٦٨١ بيان أن الشك أخطر سلاح .

كلمة مؤتمر المبشرين فى الشرق عن التشكيك .

٦٨٢ وجهة نظر أخرى بين سورة الناس ونسق المصحف .

٦٨٣ الموضوع الإجمالى لسورة البقرة لشمل الأصول والفروع

٦٨٤ ما يفيده نسق المصحف الشريف فى هذا الموضوع .

الصفحة الموضوع

٦٨٥ المعوذتان وقفة بنا عند آخر المصحف

أشد العداوة الحسد

٦٨٦ تنبيه : طريقة النجاة من الوسواس من الجنة والناس أمران :

الأول : من عمومات التكليف .

الثانى : كنت سمعته من الشيخ فى آية من كتاب الله .

٦٩٠ الآثار فى الاستعاذة بالسورتين

٦٩١ خاتمة نسأل الله حسن الختام

٦٩٢ اعتذار

٦٩٣ شكر وتقدير

٦٩٩ رسالة فى الناسخ والمنسوخ فى أبيات للسيوطى شرحها الشيخ .

جدول تصويب خطأ الجزء التاسع من الأضواء

الثانى من التتمة

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١	١٢	حقوق الطبع محفوظة	
٢٤	٦	بالسبحات	بالسابحات
٢٩	١٥	وتقدم سورة	وتقدم فى سورة
٣٠	١	والقمر فى فلك	والقمر كل فى فلك
٤١	٥	النصوص	لنصوص
٤٨	٩	عاقبة	عاتية
٥١	١٥	هذه	هذا
٥١	١٨	وأما أنا	وما أنا
٥٦	١٤	من شىء	من أى شىء
٥٨	٤	المجرمين	المجرمون
٦٨	٦	يجادل بغير	يجادل فى الله بغير
٧٦	١٧	وماضل	ما ضل
٨٤	١٩	خير	خيرا
٨٦	٧	حمى	حق
٩٦	١٠	ذر	ذرع
١١٢	١٥	اعرضنا	إنا عرضنا
١١٦	١٤	العلم	العالم
١٢٣	١٣	سلالا	هلالا
١٢٤	١	عنس	غبس
١٢٤	١٤	ممون	ممنون
١٣٥	١٤	بما عليها	بما عمل عليها
١٣٩	١٤	أما أشفى	أما أنا لا أشفى
١٤٠	١١	به صدغه	به فى صدغه
١٧٥	٩		وتحمدون
١٧٦	١٨	التقديم	التقدير
١٧٧	٧	إلى الله ماقدره	إلى ما قدره
١٨١	١٧	وماء آسن	وماء غير آسن
٢٠١	٧	الغيلة	الفيلة
٢٣١	٣	أنهما	أيهما
٢٥٤	٦	عمن	عن من
٢٨٥	١٥	مع يتأنى	مع ما يتأنى
٢٩٣	٣	منه	
٣٠٠	٨	قس	قسا
٣٠١	٢	مسيره	ميسرة
٣٣٢	١٤	النار إلى	إلى النار
٣٥٧	١٧	فيهم	فيها
٣٦٩	٩	القلنشدى	القلقشندى
٣٦٤	١٠	الشدباقى	الشدياقى
٤١٧	١٣	على صالح	على أن صالح
٤١٨	١٥	يعملون لايعصون	يعملون [وقوله لا يعصون
٤١٨	١٦	قل أقول	قل لا أقول
٤١٩	٣	لم يوضع القوى يكمل القوس على الآية	
٤٢٠	١٠	عنها	عنهم
٤٢٠	١١	فيه	فيهم
٤٢٠	١٤	نوازع ثم	نوازع الشر
٤٢٠	١٨	أن يأتى بعدهم فى حق من يأتى بعدهم	

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤٢٤	أول	الصفحة ٢٢٤	٤٢٤
٤٢٤	١٤	فعلا	قطعا
٤٢٥	١	تجاوزوا	تجاوز
٤٢٥	٣	حسبى حسبى أكافيى	حسبنا حسبنا أى كافينا
٤٢٥	٤	ذاك	ذلك
٤٢٦	أول	الصفحة ٣١٦	٤٢٦
٤٣٠	٨	موناها	موتاها
٤٣١	٨	المرسلين	المرسلون
٤٣٢	١٢	بحثان	مبحثان
٤٣٣	١١	لقو	لقوله
٤٣٥	٦	الذين	إن الذين
٤٣٥	١٥	وجل	وجعل
٤٣٩	١٧	الإبل	الخيل وقد
٤٤٠	١٥	فوسف	فوسطف
٤٤١	٦	وهذ	وهذا
٤٤١	١٢	وجد	وجدت
٤٤٢	أول	الصفحة ٢٤٢	٤٤٢
٤٤٢	١	جمعا	جمع
٤٤٣	٤	يقرف	يغرف
٤٤٣	٥	ويتوطف	ويتوسطن
٤٤٣	١١	ترشيحا	ترجيحا
٤٤٥	٥	الشا	الشاعر
٤٤٩	١٢	كلون	وتأ كلون
٤٥١	١	العديات	الماديات
٤٥١	٣	الشا	الشاعر
٤٥٣	٥	لا يخفى	لا تخفى
٤٥٨	١	القرمة	القارعة

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤٥٩	٦	زال	ولا يزال
٤٥٩	٨	ملائه	إملائه
٤٦٠	١	يزيده	يذبهن
٤٦٠	١	كالجرد	كالجراد
٤٧٢	٨	جاء	جاءت
٤٧٣	٣	فى الآخرة	الآخرة
٤٧٥	٣	إه	إنه
٤٧٦	١٢	إنى	إلى
٤٧٦	١٣	لا زيارة قبور	إلا زيارة القبور
٤٧٦	١٤	فلانا	فلان
٤٧٦	١٥	طفوها	طافوها
٤٧٦	١٧	أسفار	أسفاراً
٤٧٨	١	عليهم	عليه
٤٧٨	١٤	البعض	بعضهم
٤٨١	١١	عا	على
٤٨١	٣	تعبد	أن تعبد
٤٨١	١٠	يقين	اليقين
٤٨١	١٦	ووجهتها	وجهتها
٤٨٣	١	إخوانا	أعداء
٤٨٣	١٢	لا تزال	لا تزل
٤٨٤	١	روى	أورد
٤٨٧	٤	أنعمت	أنعمت به
٤٩١	٦	وقد ينفد	وقدر ينفذ
٤٩١	١٥	على التفسير	إن على التفسير إذ
٤٩٣	١٥	ويرشح لهذا	ويرجح هذا
٤٩٦	١-	كالآتى	فى الآتى
٤٩٩	٣-	ولم يتنافس	ولم ينافس
٥٠٠	٦	جمة برأس	بالجمة رأسا
٥٠٠	٦	البيض	الواضحات

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥٠١	٣	له	آية
٥٠٦	٥	باحق	بالحق
٥٠٧	١	لابنه	لقمان لابنه
٥٠٧	٤	علينا عليه	علينا وعليه
٥٢٤	١٤	موج	موجة
٥٢٦	١٥	عيسى	لعيسى
٥٢٨	٥	ممتلأة	ممتلئة
٥٢٨	١٣	إرهص	إرهاص
٥٢٩	٨	المنتصرة	المنتصر
٥٣٦	٥	قول	قول الشاعر
٥٣٩	١١	معامى بدنه	معافى فى بدنه
٥٥١	٢	دبيب ال	دبيب النمل
٥٥١	١٥	ل	بل
٥٥٢	١٢	لذى	الذى
٥٥٤	٧	عانها	ضمانها
٥٥٤	١٣	وفقرض	والقرض
٥٥٥	١٠	بوا	بواحدة
٥٥٦	٧	مض	بعض
٥٥٦	١٥	العر	العربى
٥٦٠	٨	فى قول	فى قوله
٥٧٣	٥	الفقهاء أن	الفقهاء على أن
٥٧٣	٦	على ذلك	على أن ذلك
٥٧٣	١٥	شانؤك	شانئك
٥٧٤	٤	سبحانه تعالى	سبحانه وتعالى
٥٨٠	٣	ولا تم	ولا أنتم
٥٨٢	١٠	لم يساو	لم تساو
٥٨٥	٨	وسط	وسطا
٥٨٩	٦-	المفتح	الفتح
٥٩٥	١٤	مفترا	مقترنا
٥٩٦	١-	بالأنعا	بالإنعام
٥٩٦	٢-	البعض	بعضهم
٥٩٨	١	وبأمر	ويأمره
٥٩٨	٦	الإيمان	الإيماء
٥٩٨	١٣	بافتح	بالفتح
٦٠٤	٨	التبات	التباب
٦٠٥	١	فما كان	فلما كان
٦٠٥	١٢	قراء	قراءة
٦٠٦	١٤	جاء به	جابه
٦٠٧	٥	لأوه	لأواه
٦١٢	٢	فرد به	فرد بل
٦٢٢	١٥	وحد	واحد
٦١٣	٢	ودلانها	ودلالتها
٦٢٣	١٠	أو إلى ابن	أو لابن
٦١٤	أول الصفحة ٦٠٤		٦١٤
٦٢٣	٣	إلى	إلى غيره
٦٢٣	٧	قل	قال
٦٢٥	٦	سبحان ما	سبحان من لا
٦٣٥	٣	باليله	ياليلة
٦٣٩	١١	أخبرنى أنه	أخبرنى من رأى
٦٣٩	٨	البعض	بعضهم
٦٤٨	٨	الحامن	الحامل
٦٤٧	٨	ولا كفار	ولا كفارة
٦٤٦	٧	كانت معصية	إذا كانت أول معصية
٦٤٦	٧	بأبينا	لأبينا

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٦٤٧	١٤	من	من أثر العين
٦٥٠	١	رحل	رحلا
٦٥١	٨	يكفؤ	يكفأ
٦٥٣	٥-	بداى	يداوى
٦٥٩	١٢	واستحققه	واستحقاقه
٦٦٢	١	متعالى الملك	فتعالى الله الملك
٦٦٣	٢	بدأ	بدء
٦٦٣	٧	تداد	تعداد
٦٦٤	٣	ضرورة له	ضرورة بالألوهية
٦٦٥	أول الصفحة ٥٦٥		٦٦٥
٦٦٥	٣	كمل	كمال
٦٦٦	٧	كاملتين	كاملين
٦٦٩	٣	مبلغة	مبالغة
٦٧٠	٧	على ما جار	على ماهو جار

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٦٧٢	٦	إطاق	إطلاق
٦٧٢	١٦	كن	كان
٦٧٤	٧	والفغة	والغفلة
٦٧٧	١٥	يثر	يثير
٦٨١	٤	والاستغلال	والاستقلال
٦٨٣	٧	من ربك	من ربهم
٠٠٠	١٦	روع	فروع
٦٨٧	٨	فيتخيل	فيخيل
٦٨٧	٨	صوتا يجد	صوتا أو يجد
٦٨٨	٩	الغريمة	العزيمة
٦٩٢	٧	سبة	نسبة
٦٩٦	١٥	أبناء	أبنائه
٦٩٧	٧	فى محالة	فى محاولة

الكلمة الأخيرة :

الحمد لله الذى بحمده تتم الصالحات
والصلاة والسلام على رسوله فخر الكائنات

وبعد :

فهذا هو الجزء التاسع - والأخير - من تفسير [أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن] لمؤلفه العالم الجليل الشيخ محمد الأمين الجكنى الشنقيطى (م ١٣٩٣ هـ) رحمه الله رحمة واسعة كفاء ماقدم للمكتبة الإسلامية من آثار علمية نفيسة .

هذا هو الكتاب بأجزائه التسع ؛ سواء منها ماأتمه الشيخ بنفسه ، وذلك حتى نهاية الجزء السابع ، أو أتمه تلميذه العالم المحقق الشيخ عطية محمد سالم على أسلوب شيخه ومنهجه وذلك فى الجزءين الأخيرين ، الثامن والتاسع.

هذا هو الكتاب الذى شرفت مطبعة المدنى (المؤسسة السعودية بمصر) أن تكون القائمة بإخراجه وتقديمه لقراء اللغة العربية حيث كانوا من أرض الله .

ولا شك أنه عمل نعتز به ، وليس هناك شىء أفضل من القرآن وعلومه نعتز به ونتنافس فيه .

حيا الله العالم الجليل الذى وقف عمره المبارك على خدمة القرآن ومعارفه ، ثم توج أعماله بهذا الأثر النفيس .

وحيا الله تلميذه الذى أتم ما بدأه شيخه وسار على نهجه فى غير ماقصور ولا تقصير .

وحيا الله الكرام الباذلين ، الذين أنفقوا أموالهم فى سخاء على هذا العمل المشكور ، ويسروه لطلاب العلم ، وجعلوه وقفا لله .

وتحية كبيرة عظيمة مخلصة إلى الإمام الجليل ، والعالم الحجة ، سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، الذى كان لجهوده الموفقة أكبر الأثر فى إشاعة هذا الخير ، وإذاعته بين الناس .

وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ؟

مدير المطبعة

محمود على صبح المدنى

الفهرس الفقهى لكامل أضواء البيان

قد جمع هذا الفهرس مباحث الفقه المنثورة فى أضواء البيان ، ورتبت فيه حسب الأبواب الفقهية ، ومبين فيه عنوان البحث ورقم الجزء والصحيفة والسورة .

وذلك تسهيلا للدارس وتوفيراً للوقت .

وبالله التوفيق ؟

الفهرس الفقهي لكامل أضواء البيان

المبحث	السورة	الجزء	الصفحة
الطهارة والنجاسة			
طهارة المنى	النحل	٣	٢٩٦
طهارة الثوب للصلاة	المدثر	٨	٦١٩
نجاسة الخمر والكولونيا	المائدة		١٠٧
مباحث الوضوء	»	٢	٣٥
غسل الرجلين	»	٢	٧
المسح على الخفين	»	٢	١٤
التيمم	»	٢	٣٦
كتاب الصلاة			
ستر العورة للصلاة	طه	٤	٥٧٩
أوقات الصلاة	بنى إسرائيل	٣	٦٢١
وقت الظهر ـ العصر ـ المغرب	النساء	١	٣٧٨
» العشاء ـ الصبح		١	٤٠٦
الشفق الأبيض	الانشقاق	٩	١١٩
طهر الحائض قبل الغروب			
بما يسع ركعة واحدة	النساء	١	٤٠٥
الإستعاذة عند القراءة	النحل	٣	٣٥٧
موقف الإمام أعلى من المأمومين	مريم	٤	٢٣٨
نظر المصلى وهو فى صلاته	المؤمنون	٥	٧٥٥
قصر الصلاة فى السفر	النساء	١	٢٣٧

المبحث	السورة	الجزء	الصفحة
مشروعية القصر وتحديد المسافة	النساء	١	٣٦٠
جمع التقديم والتأخير فى السفر	»	١	٣٩٤
الأماكن المنهى عن الصلاة فيها	الحجر	٣	١٦١
صلاة الخوف	النساء	١	٣٤٥
إضاعة الصلاة وحكم تاركها	مريم	٤	٣٣١
التداوى بالقرآن	بنى إسرائيل	٣	٦٢٤
موجز حكم تارك الصلاة عند الأئمة	المعارج	٨	٤٦١
مباحث صلاة الجمعة	سورة الجمعة	٨	
أول جمعة فى الإسلام وأول جمعة صلاها			
النبى صلى الله عليه وسلم	»	٨	٢٧١
الساعة التى فى يوم الجمعة	»	»	٢٧٣
القراءة فى فجر يوم الجمعة وحكمتها	»	»	٢٧٥
سجود التلاوة فى صبح الجمعة	»	»	٢٧٦
الخلاف فى المراد بالسعى إليها	»	»	٢٧٩
الخلاف فى القدر الذى به تدرك الجمعة			٢٨١
حكم صلاة الجمعة عند الأئمة :			
عند مالك			٢٨٨
« الشافعى			٢٨٩
« الأحناف			٢٩١
« الحنابلة			...
بيان من لاجمعة عليه			٢٩٤
سقوطها على أهل البوادى			٢٩٨
مكان الجمعة عند الأئمة	الجمعة	٨	٢٩٩
اشتراط الاستيطان	»	»	٣٠١

المبحث	السورة	الجزء	الصفحة
اشتراط الأمير والقاضى	الجمعة	٨	٣٠٢
العدد فى الجمعة	»	»	٣٠٦
وقت السعى إلى الجمعة	»	»	٣٠٨
الغسل إلى الجمعة	»	»	٣١٠
صلاة المرأة فى بيتها	النور	٦	٢٢٩
قيام الليل	المزمل	٨	٦١٤
حرمة البيت الحرام			
خروج النساء إلى المساجد		٨	٢٢٦

الجنـــائز

تلقين الميت	النحل	٦	٤١٦
زيارة النساء للمقابر	التكاثر	٩	٤٧٣

المساجد

المواطن المنهى عن الصلاة فيها			٥٤٦
اختصاص المساجد الثلاثة			٥٥٣
مضاعفة الصلاة للفرض والنفل			٥٥٩
الصلاة فى الصف الأول والروضة			٥٦٧
تقدم المأمومين على الإمام			٥٧٠
حكم المضاعفة لخارج للمسجد			٥٦٩
صلاة المرأة فى بيتها أفضل لها	النور	٦	٢٣٨
صلاة الأربعين صلاة فى المسجد النبوى	الجن	٨	٥٧٢
السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم	الجن	٨	٥٧٥
شد الرحل وبيان حكمه	»	٨	٥٧٦
الأذان ومشروعيته	الجمعة	٨	٣٠٣

المبحث	السورة	الجزء	الصفحة
فضل الأذان	الجمعة	٨	٢٠٩
آداب المؤذن	»	»	٢٠٩
كراهية التغنى فيه	»	»	٢١٠
ألفاظ الأذان	»	»	٢١١
» الإقامة	»	»	
الترجيع	»	»	٢١٦
التثويب	»	»	٢١٦
عدد التكبيرات	»	»	٢١٧
صفات الأذان الأربع	»	»	٢٢٠
كيفية أداء الأذان	»	»	٢٢٤
حكمه عند الأئمة	»	»	٢٢٤
هل هو حق للصلاة أم للوقت	»	»	٢٢٦
حكم من تركه من أهل المساجد	»	»	٢٢٩
لا أذان على النساء	»	»	٢٣٠
تعدد المؤذنين لصلاة الجمعة	»	»	٢٣١
مكان الأذان الأول (الزوراء)	»	»	٢٣٣
تعدد الأذان للصلوات الخمس	»	»	٢٣٨
خلاف الأحناف فى تعدد الأذان للصبح	»	»	٢٤٠
لزوم تعيين مؤذن للأول من الصبح	»	»	٢٤٠
تعدد المؤذنين فى وقت الفريضة	»	»	٢٤١
صفة أذانهم عند الاجتماع	»	»	٢٤٣
عند الشافعية	»	»	
» المالكية	»	»	٢٤٤
» الحنابلة	»	»	٢٤٥
» الأحناف	»	»	٢٤٥

المبحث	السورة	الجزء	الصفحة
عند ابن حزم	الجمعة	٨	٢٤٦
محاكاة المؤذن	»	»	٢٥١
بعض الزيادات على ألفاظ الأذان			
عند المحاكاة			٢٥٣
الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عقبها			...
إذا سمع النداء وهو فى نافلة			٢٥٤
إذا دخل المسجد أثناء الأذان			
هل يصلى التحية أو يجيب المؤذن ؟			
ومحاكاة أكثر من مؤذن فى وقت			
لا أصل لكل ما زيد فى ألفاظه			٢٥٨
الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عقب الأذان			٢٦٠
حى على خير العمل			٢٦٢
هل يتنفل لأذان عثمان			٢٦٤

كتاب الزكاة

تاريخ مشروعيتها	المعارج	٨	٤٦٣
أصول الأموال الزكوية			
الخلاف فى الخيل وبيان الراجح			٤٦٤
أنصباء الزكاة			٤٦٩
كلام مالك فى المعلوفة والعوامل			٤٦٩
زكاة البقر			٤٧٤
الكلام فى الخلطة			٤٧٧
المناسبة بين الأنصباء			٤٧٩
ما يجوز أخذه ومالا يجوز			٤٨١
من أسرار التشريع فى الزكاة			٤٨٣
زكاة الفطر	المعارج	٨	٤٨٤

المبحث	السورة	الجزء	الصفحة
مناقشة القول فى القيمة			٤٨٩
القدر الواجب فى الفطر			٤٩٤
الأقوال فى وزن الصاع			٤٩٥
عمل معياره بالماء والعدس			٤٩٩
زكاة الذهب والفضة	التوبة	٢	٤٣١
نصاب الذهب والفضة	»	٢	٤٣٤
زكاة الحلى	»	٢	٤٣٨
عروض التجارة	»	٢	٤٥٧
زكاة الدين	»	٢	٤٦٢
» الحرث والعسل	الأنعام	٢	٢١٢
» المعادن	التوبة	٢	٤٦٦
مصارف الزكاة	»	٢	٤٧٤

الصيـــام

الأيام المعدودات	البقرة	١	١٢٠
بيان الخيطين الأبيض والأسود			
تحديد ليلة القدر	القدر	٩	٣٨٧
قيام الليل فى رمضان	المزمل	٨	٦١٤

كتاب الحج

وجوب الحج وشروطه	الحج	٥	٧٠
كفر من لم يحج	البقرة	١	٢٨٢
سقوط وجوبه عند العبد والصغير	الحج	٥	٧٤
الاستطاعة فى الحج	»	٥	٧٥

المبحث	السورة	الجزء	الصفحة
الحج على الفور	الحج	٥	١٠٨
الحج عن الغير	»	»	١٠٤
حكم العمرة	»	»	٦٥١
مواقيت الحج والعمرة	»	»	٣١٨
إدخال الحج على العمرة	»	»	٥٧٠
التلبية	»	»	٣٤٣
أفضلية الحج ماشياً أو راكباً	»	»	٦٧
محظورات الإحرام	»	»	٣٥٦
غسل المحرم رأسه وحجامته	»	»	٤٦٢
قتل المحرم للصيد	المائدة	٢	١٣٠
المتمتع	الحج	٥	٥٧١
الأنساك الثلاثة	»	»	١٢٦
الطواف	»	»	١٩١
»	»	»	٦٨٦
السعى	»	»	٢٢٩
الوقوف بعرفة	»	»	٢٥٤
الإفاضة	البقرة	١	١٤١
النزول من المزدلفة	الحج	٥	٢٦٤
جمرة العقبة	»	٥	٢٧٥
التحلل من الإحرام	الحج	٥	٢٨٧
الحلق أو التقصير	»		٥٨٧
الرمى أيام التشريق	»	»	٢٩٣
التعجل من منى و والهدى	»	»	٤٨٩
هدى التطوع والواجب	»	»	٥٧٣

البحث	السورة	الجزء	الصفحة
ما استيسر من الهدى	البقرة	١	٣٢
الأكل من الهدى	الحج	٥	٦٠٢
ما يجوز قتله فى الإحرام من الحيوان	المائدة	٢	١٣٧
قتل المحرم الزنبور	الحشر	٨	٦٢
« « « والنمل ... إلخ	المائدة	٢	٤١
قتل الصيد خطأ أو نسياناً	«	٢	١٤٢
إذا تكرر قتل الصيد	«	٢	١٤٤
بيان المثلية فى الصيد	«	٢	١٤٨
التخيير بين الجزاء والإطعام والصيام	«	٢	١٤٩
حكم بياض الصيد	«	٢	١٤٤
شجر الحرم المكى	«	٢	١٥٥
حكم حرم المدينة صيده وشجره	«	٢	١٦٠
حكم صيد وادى وج	«	٢	١٦٧
مباحث أخرى فى الحرم والصيد	«	٢	١٦٨
الفوات والإحصار	الحج	٥	٥٦٥
الصوم عن الهدى	«	»	٥٥٤
تعدد الفدية	«	»	٤٧٨
الأضحية	«	»	٦٠٩
الفرع والعتيرة	«	»	٦٤٦
الإتجار فى الحج	البقرة	١	١٤٠
الإحصار	«	١	١٢٢
تحريم التصوير فى المسجد الحرام			
وشدة النكير عليه	الحج	٥	٦٤
حرمة المسجد الحرام	«	٥	٥٨
عموم جواز العمرة من التنعيم	التحريم	٨	٣٧٣

المبحث	السورة	الجزء	الصفحة
الزيارة والسلام على الرسول صلى الله عليه وسلم	الحجرات	٧	٦١٣
السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم الجن		٨	٥٧٥
البيوع والربا			
الإشهاد على البيع	البقرة	١	٢٦١
بيع الثمر بعد بدو صلاحه والنخل بعد تأبيره والحب بعد اشتداده	الحجر	٣	١٣٧
كتابة الدين	البقرة	١	٢٦٠
بيع الحيوان باللحم	النحل	٣	٢٣٢
جنس اللحوم	»	»	٢٣١
شراء الوصى من مال اليتيم	النساء	١	٣٠٥
تحريم البيع عند نداء الجمعة	الجمعة	٨	
تطفيف الكيل والربا	المطففين	»	٩١
البيع برخص ليضر الآخرين	المطففين	٩	١٠١
تعيين نوع الكيل والوزن للامام	»	٩	١٠٢
بيان بعض حيل التطفيف	»	٩	١٠٢
ربا الجاهلية	البقرة	١	٢٢٩
ربا النسا وربا الفضل ... إلخ	»	١	٢٣٠
الأوراق المتعامل بها	البقرة	١	٢٥٦
بيوع الآجال والعينة	»	١	٢٥٨
الإجارة			
الأجرة على التلاوة	هود	٣	١٠
الشركة	الكهف	٤	٥٥
أحكام العرية وتضمينها	الماعون	٩	٥٥٠
الوكالة	الكهف	٤	٥٠

المبحث	السورة	الجزء	الصفحة

كتاب النكاح

نكاح اليتيمة وعدم إجبارها	النساء	١	٣٠٥
نكاح الأربع	»	»	٣٠٥
العدل بين النساء	»	١	٤٢٥
العزل	الأنعام	٢	٢٧٨
العزل ومنع الحمل	التكوير	٩	٦٣
منع إتيان النساء فى غير محل الحرث	البقرة	١	١٤٣
الرد بعيب فى النكاح	»	»	١٤٦
ملك اليمين	النساء	١	٣١٨ ، ٣٢٥
منع نكاح المشركات	البقرة	١	١٤٢
نساء أهل الكتاب	»	١	١٤٢
نكاح الكفار	الممتحنة	٨	١٦٠
المحرمات فى النكاح	النساء	١	٣١٤
الرضاع	البقرة	١	٢١٧
لبن النحل	النحل	٣	٢٩٥
لبن المرأة الميتة والبهيمة الميتة	»	»	٣٠٤
تحريم نكاح المتعة	النساء	١	٣٢٣
تحريم نكاح المتعة	المؤمنون	»	٧٧٢
» » »	المعارج	٨	٥٠٣
التزوج بالجن	النحل	٣	٣١٨
نفقة الزوجة والأولاد	طه	٤	٥٧١
» » »	الأنفال	٢	٤٠٩
نكاح الأيامى	النور	٦	٢١٤
نكاح الزانية	»	٦	٧١
» البنت من الزنا	الفرقان	»	٣٤٠

المبحث	السورة	الجزء	الصفحة
فسخ نكاح المشرك إذا لم يهاجر	الممتحنة	٨	١٦٤
الطلاق : السنى والبدعى	الطلاق	٨	٣٥٨
حكمة كون الطلاق بيد الرجل	البقرة	١	١٥٩
عدد الطلقات	»	»	١٥٩
رد المطلقة	»	»	١٥٧
طلاق الثلاث بكلمة واحدة	»	»	١٦٠
عدة المطلقة الحرة	»	»	١٤٩
عدة الأمة ومناقشة هامة	الطلاق	٨	٣٥٦
متعة المطلقة	»	١	٢١٩
النشوز	النساء	١	٣٢٨

الخلع

عدة الحامل	الجمعة	٨	٣٦٤
مدة الحمل والحيض أقله وأكثره	الرعد	٣	٨٢
مدة الحمل والحيض أقله وأكثره	»	٣	٨٤
مدة الحمل والحيض أقله وأكثره	الأحقاف	٧	٣٨٥
عدة المتوفى عنها	البقرة	١	٢١٧
الظهار	الأحزاب	٦	٥١٣
كفارة الظهار	الأحزاب	٦	٥٤٥
مدة الرضاع	الطلاق	٨	٣٦٥
مباحث اليتيم	آل عمران	١	٣٠٢
رشد اليتيم			
علامة البلوغ	الأنعام	٢	٢٧٨
معرفة الرشد	»	»	٢٧٨
حفظ مال اليتيم	الماعون	٩	

المبحث	السورة	الجزء	الصفحة
اللباس والأوانى			
لبس الحرير والذهب للنساء	النحل	٣	٢٣٨
« ذلك للرجال	«	«	٢٣٩
منع تشبه الرجال بالنساء	«	«	٢٣٧
جواز لبس الثوب المكلل باللؤلؤ	«	«	٢٣٦
منع الشرب فى آنية الذهب والفضة	«	«	٢٣٨
الفضة للرجال	«	«	٢٤١
زينة المرأة وسترها	النور	٦	١٩٢
حجاب المرأة	الأحزاب	٦	٥٨٤
ضمان العارية	الماعون		٥٥٨
الأطعمة			
ما يحرم أكله وما اختلف فيه	الأنعام	٢	٢٤٦
ما يحل من الميتة وصيد البحر	البقرة	١	٩٠
ما يحل من الميتة وصيد البحر	«	«	١٠٥
الميتة ولحم الخنزير أيهما يقدمه المضطر	«	١	٣
« « الإنسان للمضطر	«	١	٣
الميتة والصيد للمحرم	«	١	٣
الميتة وطعام الغير	البقرة	١	٣
ذكاة الجنين بذكاة أمه	المائدة	٢	٣
منع الخمر والميسر	البقرة	١	١٤٢
النبيذ	النحل	٣	٣٠٩
الميراث			
ميراث الأولاد	النساء	١	٣٠٧
« الأختين والبنتين	«	«	٣٣٣
« ذوى الأرحام	الأنفال	٢	٤٣٨

المبحث	السورة	الجزء	الصفحة
ميراث الكلالة	النساء	١	٣٢٣
عدم ميراث الأنبياء	مريم	٤	٢٢٣
الوصية	الأنبياء	٤	٧٤٢
توارث أهل الكتاب	المائدة	٢	١١٠

الوقف

ألفاظ الوقف وما يشمل منها النبات			
وما لا يشملها	الزخرف	٧	٢٣٤

الأيمان والنذور

انعقاد اليمين	البقرة	١	١٤٧
الأيمان وكفاراتها	المائدة	٢	١١٩
الاستثناء فى اليمين	الكهف	٤	٨٥
تعدد الاستثناء	الحجر	٣	١٥٥
اليمين بالحرام			
مبحث عام فى القسم	التكوير	٩	٦٩
النذر	مريم	٤	٤٨٨
النذر	الحج	٥	٦٥٩
نذر الصلاة فى غير المساجد	الجن	٨	٥٩٣

الرق

سبب الرق وأحكامه	محمد	٧	٤١٧
القصاص والحدود	المائدة		
القصاص	المائدة	٢	٥٨
المماثلة فى القصاص	»	»	١٠٥
لا يقتل مسلم بكافر	النحل	٣	٣٨٦
لا يقتل مسلم بكافر	المائدة	٢	٧٩
القصاص والدية	بنى إسرائيل	٣	٤٩٩

البحث	السورة	الجزء	الصفحة
القسامة	بنى إسرائيل	٣	٥٥٥
قطاع الطريق	المائدة	٢	٨٦
قتل الجنين	الحج	٥	١٧
القتل بالسحر وكل أعماله	المائدة	٢	٣٣
السحر	الأنبياء	٤	٦٠٤
»	طه	٤	٤٧٢
القتل بالعين فى الحسد	الفلق	٩	
حكم استتابة الزنديق	الكهف	٤	١٧٦
العراف والكاهن	الأنعام	٢	١٩٨
فاحشة قوم لوط	الأعراف	٢	٣٢٥
» » »	هود		٤٠
» » »	»	٢	٣٨
السرقة من الغنيمة	الأنفال	٢	٤٠٧
حكم من جحد العارية	الماعون	٩	٥٥٩
تنصيف الحد على ملك اليمين	النساء	١	٣٢٦
الاستعناء باليد	المؤمنون	٥	٧٦٩
حد الزنا	النور	٦	٨٥
اللعان	»	٦	١٣١
السفر والشعراء ، وإذا قذف فى شعره	الشعراء	٦	٣٨٩
لجوء الجانى إلى الحرم	النور	٦	١٢٦

الجهاد

الأنفال والغنائم	الأنفال	٢	٣٤٣
التنفيل	»	»	٣٨٥
من أسر أسيراً فله سلبه	»	٢	٣٨٩
تخميس السلب	»	٢	٣٩٤
ما يقطاه الفارس وغيره	»	»	٣٩٩

المبحث	السورة	الجزء	الصفحة
تخصيص بنى هاشم بسهم الغنيمة	هود	٣	٤٨
الغنيمة والخمس ومصرفهما	»	٢	٣٥١
حكم النساء والصبيان فى الغنيمة	»	»	٤٠٨
التناول من الغنيمة			٤٠٤
أرض مكة بيعها وإيجارها			
وما فتح صلحاً أو عنوة	الأنفال	٢	٣٧٣
الحصاد وتقطيع الشجر	الحشر	٨	٤٨

القضاء

الحكم واجتهاد الحاكم والقياس	الأنبياء	٤	٦٥٠
قضية داود وسليمان فى الحكم	»	٤	٧٣١
التقليد والجهل	الحج	٥	٢٩
الجدل بحق	»	»	١٦
الشهادة	المائدة	٢	١٧٨
» وأقسامها	البروج	٩	١٣١
»	الحجرات	٧	٦٢٦
الحكم بالقرائن	محمد	٧	٥٢٩
مورد الشهادة فى القرآن	المعارج	٨	٥٠٦
الشهادة من حيث الجنس والعدد	»	٨	٥٠٨
شهادة جماعة الصبيان	»	٨	٥١٠
شروط العدالة والصدق	»	»	٥١١
تاريخ أو تزكية الشهود	»	»	٥١١
مراتب الشهود وإحدى عشرة مرتبة	»	»	٥١١
تفريق الشهود	»	»	٥١٤
علامة الشهادة باليمين فى الحكم	»	»	٥١٥
» » » »	البروج	٩	١٣٦
من شروط الشهادة عند مالك	»	٩	٥٦١

تتمة

أضواء البيان

في إيضاح القرآن بالقرآن

تأليف الفقير إلى رحمة ربه وعفوه

محمد الأمين بن محمد المختار

الجكني الشنقيطي

طبع على نفقة المحسن صاحب المعالي الشيخ

محمد بن عوض بن لادن

رحمه الله

وقفاً لله على طلبة العلم

الجزء الثامن

والأول من التتمة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الثانية
١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

مقدمة تتمة الأضواء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم .

نحمده تعالى ونحمده تتم الصالحات ، ونستعينه ونستهديه ونشكره على ما أولانا من الخيرات . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له إله الأولين والآخرين ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله بعثه رحمة للعالمين . صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد : فإن لكل كتاب مقدمة تنبئ عن موضوعه ، وتوجه القارئ إلى ما اشتملت عليه مباحثه ، وتبين منهج مؤلفه ليستهدى القارئ في دراسته ، ويتعرف منها على مقاصده ، فيسير معه ولا يخرج عنه .

وتتمة الأضواء هذه التى نقدم لها ليست بكتاب مستقل يتطلب مقدمة مستقلة ، ولا هى جزء مما تقدمها فيكتفى لها بمقدمة الكتاب المتقدم ، بل إنها بمنزلة البعض التابع للكل ، فلا هى بمستقلة عنه ولا هى جزء منه .

وقد عمل الشيخ ، رحمة الله تعالى علينا وعليه ، لكتاب الأضواء مقدمه واسعة شاملة ، ضافية وافية ، أودعها منهجه فى كتابه ، وبيّن فيها مقاصده

من تأليفه ، وقد ضمنها بيان منزلة القرآن وفضله ، وضرورة الاهتمام بدراسته للوقوف على نفائس علومه وذخائر كنوزه ، وحقائق الدين أحكامه وحكمه ، ودقائق أسراره ومحاسن تشريعه ، وبيان أنواع العبادات وإخلاصها لله تعالى وحده ، وحياة القلوب وهداية النفوس وطهارة الأرواح .

ثم بين نتائج العمل به وعقوبة الإعراض عنه ، وموجب التكليف به ، مما لامزيد عليه ولا جديد بعده .

ثم ذكر تألمه للإعراض عنه ، وقلة دراسته والاشتغال به مع مزيد فضل ما حواه . وتأسفه للاشتغال بسواه مع نقصه وقصوره .

ثم بين أن المسلك الذى سلكه واجب ومتحتم على كل من أعطاه الله علماً بكتابه ، ودعا لانصراف الهمة لخدمته فى بيان معانيه ، وإظهار محاسنه وإزالة كل إشكال عما يشكل منه ، وبيان أحكامه وطريقة استنباطها ، والدعوة القوية إلى تحكيمه والعمل به وترك كل مايخالفه ، لأنه الذى ضمن الله للمتمسكين به الهداية فى الدنيا والسعادة فى الآخرة ، كما قال تعالى : (فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولايشقى) . وبين علاقته بالسنة وعلاقة السنة به .

ثم بين أهم المقصود من تأليفه وأنه أمران :

الأول : بيان القرآن بالقرآن ، لإجماع العلماء على أنه أشرف أنواع التفسير وأجلها .

والثانى : بيان الأحكام الفقهية فى جميع الآيات التي يفسرها ، مع بيان

الراجح فى الخلافيات مما تدل عليه الآيات الأخرى ، أو قرائن فى نفس الآية أو أحاديث ثابتة ، وأقوال الأئمة بدون تعصب لمذهب .

وساق من أنواع البيان على سبيل المثال ما يزيد على الثلاثين ، وقال إنها كثيرة جداً من لغة وأصول ومنطق ، وأحكام وعقائد وأسباب نزول ، وعلل لأحكام أو حكمة فى تشريع ، وتخصيص عموم أو تقييد مطلق ، وبيان مجمل ، وترجيح مختلف فيه ، وأنواع أخرى عديدة . وعليه ينبغى أن يعلم أن أضواء البيان ليس تفسيراً شاملا لجميع القرآن كما يظنه البعض ، ويتطلب فيه تفسير كل ما أشكل عليه .

بل هو تفسير خاص على منهج مختص به ، وهو تفسير ما أجمل من الآيات أيا كان سبب إجماله من حيث اللفظ أو المعنى . وبيان هذا الإجمال من آيات أخر سواء كان بالمنطوق أو المفهوم أو الفحوى . أو بسنة ثابتة ثم استنباط ذلك ببيان الأحكام التى تؤخذ من هذه الآية . فهو تفسير خاص وبمنهج مختص به .

وإن هذا المنهج الخاص الجديد فى مسلكه لهو حق على كل من تحقق فيه قول الشيخ رحمه الله ، حق على من توفر حظه فى العلم بكتاب الله ممن كان مثله أو قريباً منه .

وقد كان رحمه الله حريصا كل الحرص على إتمامه ؛ ولكن وافته المنية قبل ذلك بعد أن أنجز مهامّه وأتم مقاصده ، وذلل صعابه ، وفتح أبوابه ، إلا اليسير اليسير منه ، وهو ما بعد سورة قد سمع .

وكان على أكابر العلماء الذين أعطاهم الله حظاً من علم الكتاب والسنة أن ينهجوا نهجه ويتموا عمله . وقد رجوت ورغبت الكثيرين فى ذلك ممن

هم أحق وأولى بهذا من غيرهم ، فاعتذروا بأعمالهم وكثرة تبعاتهم ، لا قصوراً فيهم ولا تقصيراً منهم .

وبمواجهة الأمر الواقع من شدة الحاجة لإتمام الكتاب ، ومن اعتذار أصحاب الفضيلة عن ذلك . وكان حقا للشيخ على طلابه ـ وخاصة منهم الذين لازموه وعملوا معه فيه وعلموا مسلكه ومنهجه ـ أن يتموه ، فاستخرنا الله تعالى فى القيام بما أمكن مستعينين الله تعالى معترفين بالقصور مؤملين العذر فى التقصير :

* * *

طريقة العمل فى هذا القسم :

لقد كان أول عمل فى هذا هو تصفح الأجزاء السبعة المتقدمة ، للوقوف على مافيها من بيان لمسائل عامة لها صلة بما بقى من الكتاب ، لإحالة ما يمكن الإحالة عليه ، والاستفادة بماله تعلق فيما لم يأت الشيخ عليه وهذا كثير جدا ، وما من سورة إلا وفيها ماله ارتباط بمسائل ماضية ، ومباحث متقدمة .

وكان هذا فى الحقيقة بمثابة الربط بين المتقدم السابق والمتأخر اللاحق ، وكذلك حصلنا على إملاءات دراسية للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، كان قد أملاها بالرياض على كثير من السور المتبقية . فهى وإن كانت موجزة وعلى منهج التفسير العام إلا أنها بمثابة تفتيح الأبواب .

وكذلك العناية بمناسبة السياق للآى ، حيث يوجد ربط كبير وتوجيه مفيد ، مع مانقف عليه فى كتب التفاسير المختلفة التى فى متناول اليد ، وكل ذلك قدر الطاقة مع الاعتراف بالعجز والتقصير كما أسلفنا .

* * *

اعتذار لابد منه :

إن مما هو معلوم عرفا وموجود فعلا فى فن التأليف ، أنه لا يتأتى من

أى شخص أن يكمل كتاباً لغيره — ويكون على المنهج الذى ابتدئ به — مهما كان ذلك الشخص ، من حيث القدرة العلمية ، ومهما كان بينهما من تقارب فى الفهم ، اللهم إلا النادر الفذ كتفسير الجلالين مثلا ، وقد ساعد على تناسقهما إيجازه الذى لا يظهر معه الفرق عادة ، لأنه من المعلوم أن لكل شخص منهجه الخاص ، ومشربه الذاتي ، ومسلكه العلمى ، وهذا واضح فى التفاسير المستقلة .

وقد سمعت من الشيخ — رحمة الله تعالى علينا وعليه — كلمة توضح هذا المعنى حينما كنت أصحح عليه مذكرة أصول الفقه ، التى كان أملاها أثناء الدراسة لتقدم للطبع ، فكان يتوقف عند بعض العبارات ويقول : لو أن الإنسان يكتب من تلقاء نفسه ، لكان أيسر من الترامه بكتاب لغيره له وجهة نظره ، ولا يتأتى الخروج عليه .

إذاً فمن العسير جداً ، أو المتعذر فعلا ، أن يأتى أحد بمنهج الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، ولا سيما مع ما أعطاه الله من سعة العلوم فى عدة فنون ، كالمتخصص فى كل فن .

وقد اشتغل بتفسير القرآن على أوسع مجال فى المملكة حوالى ثلاثين سنة تقريبا ، وفسر القرآن فى المسجد النبوى وحده ثلاث مرات تقريبا ، وقد سمعته يقول : ما من آية فى المصحف إلا وعندى عنها ماقيل فيها ، وقد ظهر ذلك جلياً فى أضواء البيان بحمد الله .

وقد صور هذا بعض تلامذته و بنى عمومته فى مرثية له فيه إذ يقول فيها :

بكت المثانى ترجمان بيانها حاميمها تبكى عليه وصاد
وكذا المعانى كالمثانى ثواكلا أماتها تبكى وتبكى الضاد

هـذا البيان وهذه أضواؤه عزت لغير الشيخ لاتنقاد
قـل للذى يرتاضها لا تحسبن أن البيان صحيفة ومـــداد
عجبوا ولا عجب فتلك حقيقة إن البيـــان بصيرة وفؤاد
يامبدعا معنى البيـــان ومبديا عجبا به ، ختمت به الأمجاد
إن المعـانى بعد ما ألفتهـا وتألفت ليصيدها المصطاد
تخشى بفقدك أن تعود شواردا بددا فما يدرون كيف تصاد

ولعل فى ذلك العذر الشافى ، والاعتذار الـكافى .

فإن وجد القارئ الـكريم فيه غناء ولو يسيرا ، فبفضل من الله وإمداده ، ثم بتوجيه من الشيخ رحمه الله ، وحسن إعداده ، واستفادة من منهجه وإرشاده ، فلله الحمد والشكر والثناء الجميل ، وللشيخ الرحمة والثواب الجزيل .

وإن كان صحيفة ومداداً فإلى الله المشتكى من جهد قليل ، وقلة التحصيل . وعلى أهل الفضل الإصلاح والتعديل .

ونرجو الله أن يجعل من أبناء الشيخ خير خلف لخير سلف ، إنه سميع مجيب ، وأن يرزقنا جميعاً إخلاص النية وحسن الطوية ، وأن يوفقنا للعمل بما يرضيه ، إنه ولى ذلك والقادر عليه ، وصلى الله وسلم وبارك على صفيه من خلقه وخاتم رسله وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه
تلميذ الشيخ محمد الأمين
رحمة الله تعالى علينا وعليه
عطية محمد سالم

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحشر

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمه الله كلام على معنى التسبيح عند قوله تعالى : (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين) .

وقال رحمه الله : التسبيح فى اللغة الإبعاد عن السوء ، وفى اصطلاح الشرع تنزيه الله جل وعلا عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله ، وساق رحمه الله النصوص فى تسبيح المخلوقات جميعها .

وقال فى آخر المبحث : والظاهر أن قوله تعالى : (وكنا فاعلين) مؤكد لقوله تعالى : (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير) والموجب لهذا التأكيد أن تسخير الجبال وتسبيحها أمر عجب خارق للعادة ، مظنة لأن يكذب به الكفرة الجهلة [من الجزء الرابع ٧٤٣ ، وذكر عند أول سورة الحديد زيادة لذلك] .

وفى مذكرة الدراسة مما أملاه رحمه الله فى فصل الدراسة على أول سورة الجمعة : (يسبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم) قال : التسبيح التنزيه ، وما التى لغير العقلاء ، لتغلب غير العقلاء لكثرتهم ، وكان يمكن الاكتفاء بالإحالة على ما ذكره رحمه الله تعالى ،

إلا أن الحاجة الآن تدعو إلى مزيد بيان بقدر المستطاع ، لتعلق المبحث بأمر بالغ الأهمية ، ونحن اليوم فى عصر تغلب عليه العلمانية والمادية ، فنورد ما أمكن أملا فى زيادة الإيضاح .

إن أصل التسبيح من مادة سبح ، والسباحة والتسبيح مشتركان فى أصل المادة ، فبينهما اشتراك فى أصل المعنى ، والسباحة فى الماء ينجو بها صاحبها من الغرق ، وكذلك المسبح لله والمنزه له ينجو من الشرك ويحيا بالذكر والتمجيد لله تعالى .

وقد جاء الفعل هنا بصيغة الماضى : سبح لله كما جاء فى أول سورة الحديد .

قال أبو حيان عندها : لما أمر الله تعالى الخلق بالتسبيح فى آخر سورة الواقعة ، يعنى فى قوله تعالى : (إن هذا لهو حق اليقين فسبح باسم ربك العظيم) جاء فى أول السورة التى تليها مباشرة بالفعل الماضى ، ليدل على أن التسبيح المأمور به قد فعله . والتزم به كل ما فى السماوات والأرض . اهـ .

ومعلوم أن الفعل قد جاء أيضاً بصيغة المضارع كما فى آخر هذه السورة : (يسبح له ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم) ، وفى أول سورة الجمعة : (يسبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم) ، وفى أول سورة التغابن : (يسبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير) ، وهذه الصيغة تدل على الدوام والاستمرار .

بل جاء الفعل بصيغة الأمر : (سبح اسم ربك الأعلى) ، (فسبح باسم ربك العظيم) .

وجاءت المادة بالمصدر : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) ، (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) ، ليدل ذلك كله بدوام واستمرار التسبيح لله تعالى من جميع خلقه ، كما سبح سبحانه نفسه ، وسبحته ملائكته ورسله ، على ما سيأتى إن شاء الله تعالى بيانه .

وما فى قوله تعالى : (ما فى السماوات وما فى الأرض) من صيغ العموم ، وأصل استعمالها لغير العقلاء ، وقد تستعمل للعاقل إذا نزل منزلة غير العاقل ، كما فى قوله تعالى : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) ، ومجيؤها هنا لغير العاقل تغليباً له لكثرته كما تقدم ، فتكون شاملة للعاقل من باب أولى .

ومما يلفت النظر أن التسبيح الذى فى معرض العموم كله فى القرآن مسند إلى « ما » دون « من » إلا فى موضع واحد ، هو قوله تعالى : (تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن) ، وهذا شاهد على شمول « ما » وعمومها المتقدم ذكرها ، لأنه سبحانه أسند التسبيح أولا إلى السماوات السبع والأرض صراحة بذواتهن ، وهن من غير العقلاء بما فى كل منهن من أفلاك وكواكب وبروج ، أو جبال ووهاد وفجاج ، ثم عطف على غير العقلاء بصيغة « من » الخاصة بالعقلاء فقال : (ومن فيهن) ، وإن كانت « من » ، قد تستعمل لغير العقلاء إذا نزلن منزلة العقلاء كما فى قول الشاعر :

أسرب القطا هل من يعير جناحه ؟ لعلى إلى من قد هويت أطير

وبهذا شمل إسناد التسبيح لكل شيء فى نطاق السماوات والأرض ، عاقل وغير عاقل . وقد أكد هذا الشمول بصريح قوله تعالى : (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) ، وكلمة « شيء » أعم العمومات ، كما فى قوله تعالى : (الله خالق كل شيء) ، فشملت السماوات والأرض والملائكة والإنس والجن والطير والحيوان والنبات والشجر والمدر ، وكل مخلوق لله تعالى .

وقد جاء فى القرآن الكريم ، والسنة المطهرة إثبات التسبيح من كل ذلك كل على حدة .

أولا : تسبيح الله تعالى نفسه : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) ، (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون) ، (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون) .

ثانياً : تسبيح الملائكة (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) وقوله : (وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم) . و (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) .

ثالثاً : تسبيح الرعد : (ويسبح الرعد بحمده) .

رابعاً : تسبيح السماوات السبع والأرض ، (تسبح له السماوات السبع والأرض) .

خامساً : تسبيح الجبال : (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق) .

سادساً : تسبيح الطير : (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير) .

سابعاً : تسبيح الإنسان : (فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين) ، (فسبح باسم ربك العظيم) ، (فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً) .

فهذا إسناد التسبيح صراحة لكل هذه العوالم مفصلة ومبينة واضحة .

وجاء مثل التسبيح ، ونظيره وهو السجود مسنداً لعوالم أخرى وهى بقية مافى هذا الكون من أجناس وأصناف فى قوله تعالى : (ألم تر أن الله يسجد له من فى السماوات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس) .

ويلاحظ هنا أنه تعالى أسند السجود أولا لمن فى السماوات ومن فى الأرض ، و« من » هى للعقلاء أى الملائكة والإنس والجن ، ثم عطف على العقلاء غير العقلاء بأسمائهن من الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، فهذا شمول لم يبق كائن من الكائنات ولا ذرة فى فلاة إلا شمله .

وبعد بيان هذا الشمول والعموم ، يأتى مبحث العام الباقى على عمومه ، والعام المخصوص ، وهل عموم «ما» هنا باق على عمومه أم دخله تخصيص؟

قال جماعة من العلماء منهم ابن عباس ، إن العموم باق على عمومه ، وإن لفظ التسبيح محمول على حقيقته فى التنزيه والتحميد .

وقال قوم : إن العموم باق على عمومه لم يدخله خصوص ، ولكن التسبيح يختلف ، ولكل تسبيح بحسبه ، فمن العقلاء بالذكر والتحميد والتمجيد كالإنسان والملائكة والجن ، ومن غير العاقل سواء الحيوان والطير والنبات والجماد ، فيكون بالدلالة بأن يشهد على نفسه ، ويدل على أن الله تعالى خالق قادر .

وقال قوم : قد دخله التخصيص .

ونقل القرطبي عن عكرمة ، قال: الشجرة تسبح والأسطوان لا يسبح . وقال يزيد الرقاشي للحسن وهما في طعام وقد قدم الخوان : أيسبح هذا الخوان يا أبا سعيد ؟ فقال : قد كان يسبح مرة . يريد أن التسبيح من الحي أو النامي سواء الحيوان أو النبات وماعداه فلا . وقال القرطبي : ويستدل لهذا القول من السنة بما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما من وضع الجريد الأخضر على القبر ، وقوله صلى الله عليه وسلم فيه : « لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا » . أي بسبب تسبيحهما ، فإذا يبسا انقطع تسبيحهما . اهـ .

والصحيح من هذا كله الأول الذي قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وهو الذي يشهد له القرآن الكريم لعدة أمور :

أولا : لصريح قوله تعالى : (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) .

ثانياً : أن الحامل لهم على القول بتسبيح الدلالة ، هو تحكيم الحس والعقل ، حينما لم يشاهدوا ذلك ولم تتصوره العقول ، ولكن الله تعالى نفى

تحكيم العقل الحسى هنا ، وخطر على العقل تصوره بقوله تعالى : (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) .

ثالثاً : قوله تعالى فى حق نبى الله داود عليه السلام : (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير) وقوله تعالى : (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق) ، فلو كان تسبيحها معه تسبيح دلالة كما يقولون ، لما كان لداود عليه السلام خصوصية على غيره .

رابعاً : أخبر الله تعالى أن لهذه العوالم كلها إدراكا تاماً كإدراك الإنسان أو أشد منه ، قال تعالى عن السماوات والأرض والجبال : (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) ، فأثبت تعالى لهذه العوالم إدراكا وإشفاقاً من تحمل الأمانة ، بينما سجل على الإنسان ظلما وجهالة فى تحمله إياها ، ولم يكن هذا العرض مجرد تسخير ، ولا هذا الإباء مجرد سلبية ، بل عن إدراك تام ، كما فى قوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) ، فهما طائعان لله ، وهما يأبين أن يحملن الأمانة إشفاقا منها .

وفى أواخر هذه السورة الكريمة سورة الحشر ، قوله تعالى : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله) ومثله قوله تعالى : (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن

منها لما يهبط من خشية الله) وهذا هو عين الإدراك أشد من إدراك الإنسان .

وفى الحديث : « لا يسمع صوت المؤذن من حجر ولا مدر ولا شجر إلا شهد له يوم القيامة » فهم سيشهد إن لم يك مدركا الأذان والمؤذن .

وعن إدراك الطير ، قال تعالى عن الهدهد يخاطب نبى الله سليمان :(أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين . إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون) .

فى هذا السياق عشر قضايا يدركها الهدهد ويفصح عنها لنبى الله سليمان.

الأولى : إدراكه أنه أحاط بما لم يكن فى علم سليمان .

الثانية : معرفته لسبإ بعينها دون غيرها ، ومجيؤه منها بنبأ يقين لا شك فيه .

الثالثة : معرفته لتولية المرأة عليهم مع إنكاره ذلك عليهم .

الرابعة : إدراكه ما أوتيته سبأ من متاع الدنيا من كل شىء .

الخامسة : أن لها عرشاً عظيما .

السادسة : إدراكه ماهم عليه من السجود للشمس من دون الله .

السابعة : إدراكه أن هذا شرك بالله تعالى .

الثامنة : أن هذا من تزيين الشيطان لهم أعمالهم .

التاسعة : أن هذا ضلال عن السبيل القويم .

العاشرة : أنهم لا يهتدون .

وقد اقتنع سليمان بإدراك الهدهد لهذا كله فقال له : (سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين) ، وسلمه رسالة ، وبعثه سفيراً إلى بلقيس وقومها : (اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ، ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون) وكانت سفارة موفقة جاءت بهم مسلمين فى قوله تعالى عنها : (وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) .

وكذلك ما جاء عن النملة فى قوله تعالى عنها : (حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) فقد أدركت مجىء الجيش ، وأنه لسليمان وجنوده وأدركت كثرتهم ، وأن عليها وعلى النمل أن يتجنبوا الطريق ، ويدخلوا مساكنهم ، وهذا الإدراك منها جعل سليمان عليه السلام يتبسم ضاحكا من قولها . وأن لها قولا علمه سليمان عليه السلام .

فقد جاء فى السنة إثبات إدراك الحيوانات للمغيبات فضلا عن المشاهدات ، كما فى حديث الموطأ فى فضل يوم الجمعة : « وإن فيه خلق آدم ، وفيه أسكن الجنة » إلى قوله صلى الله عليه وسلم « وفيه تقوم الساعة ، وما من دابة فى الأرض إلا وهى تصيخ بأذنها من فجر يوم الجمعة حتى طلوع الشمس إشفاقا من الساعة إلا الجن والإنس » ، فهذا إدراك وإشفاق من الحيوان ، وإيمان بالمغيب ، وهو قيام الساعة وإشفاق من الساعة أشد من الإنسان .

وقصة الجمل الذى ندّ على أهله وخضع له صلى الله عليه وسلم حتى قال الصديق : لكأنه يعلم إنك رسول الله . فقال صلى الله عليه وسلم : « نعم إنه ما بين لا بتيها إلا وهو يعلم أنى رسول الله » .

فهذا كله يثبت إدراكا للحيوان بالمحسوس وبالمغيب إدراكا لا يقل عن إدراك الإنسان ، فما المانع من إثبات تسبيحها حقيقة على ما يعلمه الله تعالى منها ؟ وقد جاء النص صريحا فى التسبيح المثبت لها فى أنه تسبيح تحميد لا مطلق دلالة كما فى قوله تعالى : (ويسبح الرعد بحمده) ، وقرنه مع تسبيح الملائكة ، (والملائكة من خيفته) ، وهذا نص فى محل النزاع ، وإثبات لنوع التسبيح المطلوب .

خامسا : لقد شهد المسلمون منطق الجماد بالتسبيح وسمعوه بالتحميد حساً كتسبيح الحصا فى كفه صلى الله عليه وسلم ، وكحنين الجذع للنبى صلى الله عليه وسلم حتى سمعه كل من فى المسجد ، وما أخبر به صلى الله عليه وسلم : « إنى لأعلم حجراً فى مكة ما مررت عليه إلا وسلم علىّ » ، وما ثبت بفرد يثبت لبقية أفراد جنسه ، كما هو معلوم فى قاعدة الواحد بالجنس والواحد بالنوع .

ومن هذا القبيل فى أعظم من ذلك ما رواه البخارى فى كتاب المناقب عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم صعد أحداً وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فقال : « أثبت أحد فإن عليك نبيا وصديقا وشهيدين ».

وفى موطأ مالك : لما رجع صلى الله عليه وسلم من سفر طلع عليهم أحد فقال « هذا جبل يحبنا ونحبه » .

فهذا جبل من كبار جبال المدينة يرتجف لصعود النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان ، فيخاطبه صلى الله عليه وسلم خطاب العاقل المدرك : « اثبت أحد فإن عليك نبيا وصديقا وشهيدين » ، فيعرف النبى ويعرف الصديق والشهيد فيثبت ، فبأى قانون كان ارتجافه ؟ وبأى معقول كان خطابه ؟ وبأى معنى كان ثبوته ؟ ثم ها هو يثبت له صلى الله عليه وسلم المحبة المتبادلة بقوله : يحبنا ونحبه .

وإذا ناقشنا أقوال القائلين بتخصيص هذا العموم من إثبات التسبيح للجمادات ونحوها ، لما وجدنا لهم وجهة نظر إلا أن الحس لم يشهد شيئاً من ذلك ، وقد أوردنا الأمثلة على إثبات ذلك لسائر الأجناس ، وتقدم تنبيه الشيخ على تأكيد ذلك بقوله تعالى : (وكنا فاعلين) رداً على استبعاده .

ومن الأدلة القرآنية فى هذا المقام ، ما جاء فى سياق قوله تعالى : (وإن من شىء إلا يسبح بحمده) ، جاء بعدها قوله تعالى : (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستوراً) وهذا نص يكذب المستدلين بالحس ؛ لأن الله تعالى أخبر بأنه جعل بين الرسول صلى الله عليه وسلم فى تلك الحالة ، وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا يحجبه عنهم ، وهذا الحجاب مستور عن أعينهم فلا يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه محجوب عنهم ، ولا يرون الحجاب لأنه مستور ، وهذا هو الصحيح فى هذه الآية .

وقد قال فيها بعض البلاغيين . إن مستوراً هنا بمعنى ساتراً ويقال لهم : إن جعل مستورا بمعنى ساتر تكرار لمعنى حجاب ، لأن قوله تعالى : (جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً) هو بمعنى ساتر ، أى يستره عن الذين لا يؤمنون بالآخرة وليس فى ذلك زيادة معنى ، ولا كبير معجزة ، ولكن الإعجاز فى كون الحجاب مستوراً عن أعينهم ، وفى هذا تحقيق وجود المعنيين ، وهما حجبه صلى الله عليه وسلم عنهم ، وستر الحجاب عن أعينهم ، وهـذا أبلغ فى حفظه صلى الله عليه وسلم منهم ، لأنه لو كان الحجاب مرئيا أى ساتراً فقط مع كونه مرئيا لربما اقتحموه عليه ، وأقوى فى الإعجاز ، لأنه لو كان الحجاب مرئيا لكان كاحتجاب غيره من سائر الناس. ولكن حقيقة الإعجاز فيه هو كونه مستوراً عن أعينهم ، وهذا مارجحه ابن جرير .

وقد جاءت قصة امرأة أبى لهب مفصلة هذا الذى ذكرناه كما ساقها ابن كثير قال : لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة تبت يدا أبى لهب وتب إلى قوله : (وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد) جاءت امرأة أبى لهب وفى يدها فهر ، ولها ولولة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس مع أبى بكر رضى الله عنه عند الكعبة فقال له : إنى أخاف عليك أن تؤذيك، فقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى عاصمنى منها » ،وتلا قرآناً ، فجاءت ووقفت على أبى بكر وقالت: إن صاحبك هجانى . قال : لا ورب هذه البنية إنه ليس بشاعر ولا هاج ، فقالت: إنك مصدق وانصرفت؛ أى ولم تره وهو جالس مع أبى بكر رضى الله عنه .

فهل يقال بعدم وجود الحجاب لأنه مستور لم يشاهد ، أم أننا نثبته كما أخبر تعالى وهو القادر على كل شيء ؟ وعليه وبعد إثباته نقول : ما الفرق بين إثبات حقيقة قوله تعالى هنا : (حجابا مستورا) ، وقوله تعالى : (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) ؟ ففى كلا المقامين إثبات أمر لا ندركه بالحس، فالتسبيح لا نفقهه ، والحجاب لا نبصره .

وقد أوردنا هذه النماذج ، ولو مع بعض التكرار ، لما يوجد من تأثر البعض بدعوى الماديين أو العلمانيين ، الذين لا يثبتون إلا المحسوس ، لتعطى القارىء زيادة إيضاح ، ويعلم أن المؤمن بإيمانه يقف على علم مالم يعلمه غيره ، ويتسع أفقه إلى ما وراء المحسوس ، ويعلم أن وراء حدود المادة عوالم يقصر العقل عن معالمها ، ولكن المؤمن يثبتها .

وقد رسم لنا النبي صلى الله عليه وسلم الطريق الصحيح فى مثل هذا المقام من إثبات وإيمان ، كما فى صحيح البخارى أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى صلاة الصبح ، ثم أقبل على الناس فقال : « بينما رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها فقالت : إنا لم نخلق لهذا ، وإنما خلقنا للحرث ، فقال الناس سبحان الله بقرة تتكلم فقال : إنى أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وماهما ثَمَّ ، وبينما رجل فى غنمه ، إذ عدا الذئب فذهب منها بشاة . فطلب حتى كأنه استنقذها منهم، فقال له الذئب : هذا : استنقذتها منى ، فمن لها يوم السبع يوم لا راعى لها غيرى فقال الناس : سبحان الله ذئب يتكلم ، قال فإنى أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر ، وماهما ثم » .

ففى هذا النص الصريح نطق البقرة ونطق الذئب بكلام معقول من خصائص العقلاء على غير العادة، مما استعجب له الناس وسبحوا الله إعظاما لما سمعوا ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم يدفع هذا الاستعجاب بإعلان إيمانه وتصديقه ، ويضم معه أبا بكر وعمر ، وإن كانا غائبين عن المجلس ، لعلمه منهما أنهما لا ينكران ما ثبت بالسند الصحيح لمجرد استبعاده عقلا .

وهنا يقال لمنكرى التسبيح حقيقة وما المانع من ذلك ؟ أهو متعلق القدرة أم استبعاد العقل لعدم الإدراك الحسى ؟

فأما الأول : فممنوع ، لأن الله تعالى على كل شىء قدير ، وقد أخرج لقوم صالح ناقة عشراء من جوف الصخرة الصماء ، وأنطق الحصا فى كفه صلى الله عليه وسلم .

وأما الثانى : فلا سبيل إليه حتى ينتظر إدراكه وتحكيم العقل فيه ، فإن الله تعالى قال : (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) .

فلم يبق إلا الإيمان أشبه ما يكون بالمغيبات . والإيمان تصديق وإثبات لا تكييف وإدراك وخالق الكائنات أعلم بحالها وبما خلقها عليه .

فيجب أن نؤمن بتسبيح كل ما فى السماوات والأرض ، وإن كان مستغربا عقلا ، ولكن أخبر به خالقه سبحانه ، وشاهدنا المثال مسموعا من بعض أفراده .

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ .

أجمع المفسرون أنها فى بنى النضير ، إلا قولا للحسن أنها فى بنى قريظة ، ورد هذا القول بأن بنى قريظة لم يخرجوا ولم يجلوا ولكن قتلوا .

وقد سميت هذه السورة بسورة بنى النضير ، حكاه القرطبى عن ابن عباس.

قال سعيد بن جبير : قلت لابن عباس سورة الحشر قال : قل سورة النضير ، وهم رهط من اليهود من ذرية هارون عليه السلام نزلوا المدينة فى فتن بنى إسرائيل ، انتظاراً لمحمد صلى الله عليه وسلم .

واتفق المفسرون على أن بنى النضير كانوا قد صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لايكونوا عليه ولا له ، فلما ظهر يوم بدر قالوا : هو النبى الذى نعته فى التوراة ، لا ترد له راية ، فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا ؛ فخرج كعب بن الأشرف فى أربعين راكباً إلى مكة ، فحالفوا عليه قريشاً عند الكعبة ، فأخبر جبريل الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك ، فأمر بقتل كعب ، فقتله محمد بن مسلمة غيلة ، وكان أخاه من الرضاعة. وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد اطلع منهم على خيانة ، حين أتاهم فى دية المسلمين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى منصرفه من بئر معونة ، فهموا بطرح الحجر عليه صلى الله عليه وسلم ، فعصمه الله تعالى .

ولما قتل كعب ، أمر صلى الله عليه وسلم بالمسيرة إليهم ، وطالبهم بالخروج من المدينة ، تاستمهلوه عشرة أيام ليتجهزوا للخروج ، ولكن أرسل إليهم

عبدالله بن أبى سراً : لا تخرجوا من الحصن ، ووعدهم بنصرهم بألفى مقاتل من قومه ، ومساعدة بنى قريظة وحلفائهم من غطفان ، أو الخروج معهم ، فدربوا أنفسهم ، وامتنعوا بالتحصينات الداخلية . فحاصرهم صلى الله عليه وسلم إحدى وعشرين ليلة .

وقيل : أجمعوا على الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له : اخرج فى ثلاثين من أصحابك ، ويخرج إليك ثلاثون منا ليسمعوا منك ، فإن صدقوا آمنا كلنا ، ففعل . فقالوا : كيف نفهم . ونحن ستون ؟ أخرج فى ثلاثة ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا ، ففعلوا فاشتملوا على الخناجر ، وأرادوا الفتك فأرسلت امرأة منهم ناصحة إلى أخيها ، وكان مسلماً فأخبرته بما أرادوا ، فأسرع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فساره بخبرهم قبل أن يصل صلى الله عليه وسلم إليهم ، فلما كان من الغد غدا عليهم بالكتائب فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة ، فقذف الله فى قلوبهم الرعب ، وأيسوا من نصر المنافقين الذى وعدهم به ابن أبى ، فطلبوا الصلح فأبى عليهم صلى الله عليه وسلم إلا الجلاء ، على أن يحمل كل أهل ثلاثة بيات على بعير ما شاءوا من المتاع إلا الحلقة ، فكانوا يحملون كل ما استطاعوا ولو أبواب المنازل ، يخربون بيوتهم ويحملون ما استطاعوا معهم .

وقد أوردنا بحمل هذه القصة فى سبب نزول هذه السورة لأن عليها تدور معانى هذه السورة كلها ، وكما قال الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله فى رسالة أصول التفسير : إن معرفة السبب تعين على معرفة التفسير (وليعلم المسلمون مدى ماجبل عليه اليهود من غدر وما سلكوا من أساليب المراوغة فما أشبه الليلة بالبارحة) .

والذى من منهج الشيخ رحمه الله فى الأضواء قوله تعالى : (هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم) حيث أسند إخراجهم إلى الله تعالى مع وجود حصار المسلمين إياهم .

وقد تقدم للشيخ رحمه الله نظيره عند قوله تعالى : (وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً) ، قال رحمه الله تعالى عندها : ذكر جل وعلا أنه (رد الذين كفروا بغيظهم) الآية . ولم يبين السبب الذى ردهم به . ولكنه جل وعلا بين ذلك بقوله : (فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها) اهـ

وهنا أيضاً فى هذه الآية أسند إخراجهم إليه تعالى مع حصار المسلمين إياهم ، وقد بين تعالى السبب الحقيقى لإخراجهم فى قوله تعالى : (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب) ، وهذا من أهم أسباب إخراجهم ، لأنهم فى موقف القوة وراء الحصون ، لم يتوقع المؤمنون خروجهم ، وظنوا هم أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقد كان هذا الإخراج من الله إياهم بوعد سابق من الله لرسوله فى قوله تعالى : (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) .

وبهذا الإخراج تحقق كفاية الله لرسوله صلى الله عليه وسلم منهم ، فقد كفاه إياهم بإخراجهم من ديارهم ، فكان إخراجهم حقاً من الله تعالى : وبوعد مسبق من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم .

وقد أكد هذا بقوله تعالى مخاطباً للمسلمين فى خصوصهم : (فما أوجفتم

عليه من خيل ولا ركاب ، ولـكن الله يسلط رسله على من يشاء ، والله على كل شيء قدير) وتسليط الرسول صلى الله عليه وسلم هو بما بيّن صلى الله عليه وسلم فى قوله : « نصرت بالرعب مسيرة شهر » وهو مايتمشى مع قوله تعالى . (وقذف فى قلوبهم الرعب) .

وجملة هذا السياق هنا يتفق مع السياق فى سورة الأحزاب عن بنى قريظة سواء بسواء ، وذلك فى قوله تعالى : (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الـكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقا تقتلون وتأسرون فريقا وأورثـكم أرضهم وديارهم وأموالهم) وعليه ظهرت حقيقة إسناد إخراجهم لله تعالى،فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب . كما أنه هو تعالى الذى رد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً . بما أرسل عليهم من الرياح والجنود ، وهو الذى كفى المؤمنين القتال . وهو تعالى الذى أنزل بنى قريظة من صياصيهم . وورث المؤمنين ديارهم وأموالهم ، وكان الله على كل شيء قديرا .

ورشح لهذا كله التذييل فى آخر الآية . يطلب الاعتبار والانعاظ بما فعل الله بهم : (فاعتبروا يا أولى الأبصار) أى بإخراج الذين كفروا من حصونهم وديارهم ومواطن قوتهم ، ماظننتم أن يخرجوا لضعف اقتداركم ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم لقوتها ومنعتها ، ولـكن أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب . فلم يستطيعوا البقاء . وكانت حقيقة إخراجهم من ديارهم هى من الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾ .

اختلف فى معنى الحشر فى هذه الآية ، وبناء عليه اختلف فى معنى الأول.

فقيل : المراد بالحشر أرض المحشر ، وهى الشام .

وقيل المراد بالحشر : الجمع .

واستدل القائلون بالأول بآثار منها : ماروواه ابن كثير عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : من شك فى أن أرض المحشر هاهنا الشام فليقرأ هذه الآية : (هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر) ، وما رواه أبوحيان فى البحر عن عكرمة أيضاً والزهرى ، وساق قوله صلى الله عليه وسلم أنه قال لبنى النضير : أخرجوا ، قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى أرض المحشر ، وعلى هذا تكون الأولية هنا مكانية ، أى لأول مكان من أرض المحشر . وهى أرض الشام ، وأوائله خيبر وأذرعات .

وقيل : إن الحشر على معناه اللغوى وهو الجمع . قال أبوحيان فى البحر المحيط . الحشر الجمع للتوجه إلى ناحية ما ، ومن هذا المعنى ؛ قيل : الحشر هو حشد الرسول صلى الله عليه وسلم الكتائب لقتالهم ؛ وهو أول حشر منه لهم وأول قتال قاتلهم . وعليه فتكون الأولية زمانية وتقتضى حشرا بعده ؛ فقيل: هو حشر عمر إياهم بخيبر . وقيل: نار تسوق الناس من المشرق إلى المغرب ، وهو حديث فى الصحيح . وقيل: البعث

إلا أن هذه المعانى أعم من محل الخلاف لأن النار المذكورة والبعث ليستا خاصتين باليهود ، ولا ببنى النضير خاصة . ومما أشار إليه الشيخ رحمه الله

أن من أنواع البيان الاستدلال على أحد المعانى بكونه هو الغالب فى القرآن، ومثل له فى المقدمة بقوله تعالى: (لأغلبن أنا ورسلى) ، فقد قال بعض العلماء: بأن المراد بهذه الغلبة . الغلبة بالحجة والبيان ، والغالب فى القرآن استعمال الغلبة بالسيف والسنان ، وذلك دليل واضح على دخول تلك الغلبة فى الآية ، لأن خير ما يبين به القرآن القرآن .

وهنا فى هذه الآية ، فإن غلبة استعمال القرآن بل عموم استعماله فى الحشر إنما هو للجمع ، ثم بين المراد بالحشر لأى شىء منها قوله تعالى : (وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير) ، وقوله : (وحشرنا عليهم كل شىء قبلا) ، وقوله عن نبى الله داود : (والطير محشورة كل له أواب) ، وقوله تعالى عن فرعون : (قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى) ، وقوله تعالى : (قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين) . وقوله : (فحشر فنادى) ، فكلها بمعنى الجمع .

وإذا استعمل بمعنى يوم القيامة فإنه يأتى مقروناً بما يدل عليه ، وهو جميع استعمالات القرآن لهذا، مثل قوله تعالى : (وترى الأرض بارزة وحشرناهم) وذلك فى يوم القيامة لبروز الأرض . وقوله تعالى : (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) ، وذلك فى يوم القيامة لتقييده باليوم . وقوله تعالى : (يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) . وقوله تعالى : (وإذا الوحوش حشرت) وقوله تعالى : (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون) . إلى غير ذلك مما هو مقيد بما يعيّن المراد بالحشر ، وهو يوم القيامة .

فإذا أطلق كان لمجرد الجمع كما فى الأمثلة المتقدمة ، وعليه فيكون المراد بقوله تعالى : (لأول الحشر) ، أن الراجح فيه لأول الجمع ، وتكون الأولية زمانية وفعلا ، فقد كان أول جمع لليهود ، وقد أعقبه جمع آخر لإخوانهم بنى قريظة بعد عام واحد ، وأعقبه جمع آخر فى خيبر ، وقد قدمنا ربط إخراج بنى النضير من ديارهم بإنزال بنى قريظة من صياصيهم ، وهكذا ربط جمع هؤلاء بأولئك إلا أن هؤلاء أجلوا وأخرجوا ، وأولئك قتلوا واسترقوا .

تنبيـــــه

وكون الحشر بمعنى الجمع لا يتنافى مع كون خروجهم كان إلى أوائل الشام ، لأن الغرض الأول هو جمعهم للخروج من المدينة ، ثم يتوجهون بعد ذلك إلى الشام أو إلى غيرها .

وقد استدل بعض العلماء على أن توجههم كان إلى الشام من قوله تعالى : (يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا) ، لأن السياق فى أهل الكتاب ، والتعريض بأصحاب السبت ألصق بهم .

فقال بعض المفسرين : الوجوه هنا هى سكناهم بالمدينة ، وطمسها تغير معالمها ، وردهم على أدبارهم ، أى إلى بلاد الشام التى جاءوا منها أولا حينما خرجوا من الشام إلى المدينة ، انتظاراً لمحمد صلى الله عليه وسلم . حكاه أبو حيان وحسنه الزمخشرى .

قوله تعالي : ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ﴾ .

أتى : تأتى لعدة معان ، منها بمعنى المجىء ، ومنها بمعنى الإنذار ، ومنها بمعنى المداهمة .

وقد توهم الرازى أنها من باب الصفات ، فقال : المسألة الثانية قوله : (فأتاهم الله) ، لايمكن إجراؤه على ظاهره باتفاق جمهور العقلاء ، فدل على أن باب التأويل مفتوح ، وان صرف الآيات عن ظواهرها بمقتضى الدلائل العقلية جائز . اه .

وهذا منه على مبدئه فى تأويل آيات الصفات ، ويكفى لرده أنه مبنى على مقتضى الدلائل العقلية ، ومعلوم أن العقل لامدخل له فى باب صفات الله تعالى ، لأنها فوق مستويات العقول (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) ، ولايحيطون به علما سبحانه وتعالى .

أما معنى الآية ، فإن سياق القران يدل على أن مثل هذا السياق ليس من باب الصفات كما فى قوله تعالى : (فأتى الله بنيانهم من القواعد) ، أى هدمه واقتلعه من قواعده ، ونظيره : (أتاها أمرنا ليلا أو نهارا) . وقوله : (أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها) ، وقوله (أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها) .

وفى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى العدوى : أنى قلت أتيت أى دهيت ، وتغير عليك حسك فتوهمت ما ليس بصحيح صحيحاً .

ويقال : أُتِيَ فلان بضم الهمزة وكسر التاء إذا أظل عليه العدو ، ومنه قولهم : « من مأمنه يؤتى الحذر » ، فيكون قوله تعالى : (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) أخذهم ودهاهم وباغتهم من حيث لم يحتسبوا من قتل كعب بن الأشرف وحصارهم ، وقذف الرعب فى قلوبهم .

وهناك موقف آخر فى سورة البقرة يؤيد ماذكرناه هنا ، وهو قوله تعالى : (ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير) . فقوله تعالى : (فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره) وهو فى سياق أهل الكتاب ، وهم بذاتهم الذين قال فيهم : (فأتاهم الله) فيكون ، فأتاهم الله هنا هو إتيان أمره تعالى الموعود فى بادئ الأمر عند الأمر بالعفو والصفح .

وقد أورد الشيخ رحمه الله عند قوله تعالى: (فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره) أن هذه الآية فى أهل الكتاب كما هو واضح من السياق ، وقال : والأمر فى قوله :(بأمره) ، قال بعض العلماء : هو واحد الأوامر ، وقال بعضهم : هو واحد الأمور .

فعلى القول الأول بأنه الأمر الذى هو ضد النهى ، فإن الأمر المذكور ، هو المصرح به فى قوله : (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولايحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون) .

وعلى القول بأنه واحد الأمور ، فهو ماصرح الله به فى الآيات الدالة على ما أوقع باليهود من القتل والتشريد كقوله : (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار ، ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم) الآية ، إلى غير ذلك من الآيات ، والآية غير منسوخة على التحقيق . اهـ [من الجزء الأول من الأضواء] .

فقد نص رحمه الله على أن آية : (فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره) مرتبطة بآية : (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) هذه كما قدمنا : أن هذا هو الأمر الموعود به ، وقد أتاهم به من حيث لم يحتسبوا ، ويشهد لهذا كله القراءة الثانية فآتاهم بالمد : بمعنى أعطاهم وأنزل بهم ، ويكون الفعل متعديا والمفعول محذوف دل عليه قوله : (من حيث لم يحتسبوا) أى أنزل بهم عقوبة وذلة ومهانة جاءتهم من حيث لم يحتسبوا والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ .

منطوقه أن الرعب سبب من أسباب هزيمة اليهود ، ومفهوم المخالفة يدل على أن العكس بالعكس ، أى أن الطمأنينة وهى ضد الرعب ، سبب من أسباب النصر ، وهو ضد الهزيمة .

وقد جاء ذلك المفهوم مصرحاً به فى آيات من كتاب الله تعالى ، منها قوله تعالى : (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة . فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريبا) ، ومنها قوله تعالى :

(لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً . وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين) ، فقد ولوا مدبرين بالهزيمة ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً من الملائكة فكان النصر لهم ، وهزيمة أعدائهم المشار إليها بقوله تعالى : (وعذب الذين كفروا) أى بالقتل والسبى فى ذلك اليوم .

ومنها قوله تعالى : (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم) .

وهذا للوقف آية من آيات الله ، اثنان أعزلان يتحديان قريشا بكاملها ، بعددها وعددها ، فيخرجان تحت ظلال السيوف ، ويدخلان الغار فى سدفة الليل ، ويأتى الطلب على فم الغار بثلوب حانقة ، وسيوف مصلتة ، وآذان مرهفة حتى يقول الصديق رضى الله عنه : والله يارسول الله لو نظر أحدهم تحت عليه لأبصرنا ، فيقول صلى الله عليه وسلم وهو فى غاية الطمأنينة ، ومنتهى السكينة « ما بالك باثنين الله ثالثهما » ؟

ومنها ، وفى أخطر المواقف فى الإسلام ، فى غزوة بدر ، حينما التقى الحق الباطل وجهاً لوجه ، جاءت قوى الشر فى خيلائها وبطرها وأشرها ، وأمامها

جند الله فى تواضعهم وإيمانهم وضراعتهم إلى الله (فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ، وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ، إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام) .

فما جعل الله الإمداد بالملائكة إلا لتطمئن به قلوبهم ، وماغشاهم النعاس إلا أَمَنَةً منه ، وتم كل ذلك بما ربط على قلوبهم ، فقاوموا بقلتهم قوى الشر على كثرتهم ، وتم النصر من عند الله بمدد من الله ، كما ربط على قلوب أهل الكهف : (وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا) .

هذه آثار الطمأنينة والسكينة والربط على القلوب المدلول عليه بمفهوم المخالفة من قوله تعالى . (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين) ، وقدجمع الله تعالى الأمرين المنطوق والمفهوم فى قوله تعالى : (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) فنص على الطمأنينة بالتثبيت فى قوله : (فثبتوا الذين آمنوا) ، ونص على الرعب فى قوله : (سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) فكانت الطمأنينة تثبيتاً للمؤمنين ، والرعب زلزلة للكافرين .

وقد جاء فى الحديث أن جبريل عليه السلام ؛ لما أمر النبى صلى الله عليه وسلم

بالتوجه إلى بنى قريظة ، قال : « إنى متقدمكم لأزلزل بهم الأقدام » ، ومما يدل على أسباب هذه الطمأنينة فى هذه المواقف قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين).

فذكر الله تعالى أربعة أسباب للطمأنينة .

الأولى : الثبات ، وقد دل عليها قوله تعالى : (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) .

والثانية : ذكر الله كثيرا ، وقد دل عليها قوله تعالى : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .

والثالثة : طاعة الله ورسوله ، ويدل لها قوله تعالى : (فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم ، طاعة وقول معروف) .

والرابعة : عدم التنازع والاعتصام والألفة ، ويدل عليها قوله تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) .

ومن ذكر أسباب الهزيمة من رعب القلوب ، وأسباب النصر من السكينة والطمأنينة ، تعلم مدى تأثير الدعايات فى الآونة الأخيرة . وما سمى بالحرب الباردة من كلام وإرجاف مما ينبغى الحذر منه أشد الحذر ، وقد حذر الله تعالى منه فى قوله تعالى : (قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا) : وقد حذر تعالى من السماع لهؤلاء فى قوله تعالى :

(لوخرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين) .

ولما اشتد الأمر على المسلمين فى غزوة الأحزاب ، وبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم أن اليهود نقضوا عهدهم ، أرسل إليهم صلى الله عليه وسلم من يستطلع خبرهم ، وأوصاهم إن هم رأوا غدرًا ألا يصرحوا بذلك ، وأن يلحنوا له لحنا حفاظاً على طمأنينة المسلمين ، وإبعاداً للإرجاف فى صفوفهم .

كما بين تعالى أثر الدعاية الحسنة فى قوله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم) وقد كان بالفعل لخروج جيش أسامة بعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وعند تربص الأعراب ـ كان له الأثر الكبير فى إحباط نوايا المتربصين بالمسلمين ، وقالوا : ما أنفذوا هذا البعث إلا وعندهم الجيوش الكافية والقوة اللازمة .

وما أجراه الله فى غزوة بدر من هذا القبيل أكبر دليل عملى ، إذ يقلل كل فريق فى أعين الآخرين . كما قال تعالى : (إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور . وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولا . وإلى الله ترجع الأمور) . وهذا كله مما ينبغى الاستفادة منه اليوم على العدو فى قضية الإسلام والمسلمين .

قوله تعالى : ﴿ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ .

المشاقة المعصيان ، ومنه شق العصا ، والمخالفة .

وهذا يدل على أن الله تعالى أوقع ما أوقعه ببنى النضير من إخراجهم من ديارهم وتخريب بيوتهم ، بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله ، وأن المشاقة المذكورة هى علة العقوبة الحاصلة بهم ، ولاشك أن مشاقة الله ورسوله من أعظم أسباب الهلاك .

وفى الآية مبحث أصولى مبنى على أن المشاقة قد وقعت من غير اليهود ، فلم تقع بهم تلك العقوبة كما وقع من المشركين المنصوص عليها فى قوله تعالى : (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) ، وهذا فى بدر قطعاً ، ثم قال : (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب) ، ولما قدر صلى الله عليه وسلم على أهل مكة لم يوقع بهم ما أوقع باليهود من قتل ، بل قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . فوجد الوصف الذى هو المشاقة الذى هو علة الحكم ، ولم يوجد الحكم الذى هو الإخراج من الديار وتخريب البيوت .

قال الفخر الرازى : فإن قيل : لو كانت المشاقة علة لهذا التخريب لوجب أن يقال : أينما حصلت هذه المشاقة حصل التخريب ، ومعلوم أنه ليس كذلك : قلنا : هذا أحد مايدل على أن تخصيص العلة المنصوصة لايقدح فى صحتها . اهـ .

وقد بحث الشيخ رحمه الله هذه المسألة فى آداب البحث والمناظرة ، وفى

مذكرة الأصول فى مبحث النقض ، وعنون له فى آداب البحث بقوله : تخلف الحكم ليس بنقض سواء لوجود مانع أو تخلف شرط .

ومثل لتخلف الحكم بوجود مانع بقتل الوالد ولده عمدا ، مع عدم قتله قصاصا به ، لأن علة القصاص موجودة ، وهى القتل العمد ، والحكم وهو القصاص متخلف .

ومثل لتخلف الشرط بسرقة أقل من نصاب أو من غير الحرز .

ثم قال : النوع الثالث : تخلف حكمها عنها لا لسبب من الأسباب التى ذكرنا ، ومثل له بعضهم بقوله تعالى : (ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار) قالوا : فهذه العلة ، التى هى مشاقة الله ورسوله ، قد توجد فى قوم يشاقون الله ورسوله مع تخلف حكمها عنها ، وهذه الآية الكريمة تؤيد قول من قال: إن النقض فى فن الأصول تخصيص للعلة مطلقاً ، لانقض لها ، وعزاه فى مراقى السعود للأكثرين فى قوله فى مبحث القوادح فى الدليل فى الأصول :

منها وجود الوصف دون الحكم سماه بالنقض وعاة العلم
والأكثرون عندهم لايقدح بل هو تخصيص وذا مصحح

إلى قوله :

ولست فيما استنبطت بضائر إن جا لفقد شرط أو لمانع

وقد أطلعنى بعض الإخوان على شرح لفضيلة الشيخ ، رحمه الله ، على مراقى السعود فى أوائله على قول المؤلف :

* ذو فترة بالفرع لايراع *

وتكلم على حكم أهل الفترة ، ثم على تخصيص بعض الآيات ، ومن ثم إلى تخصيص العلة .

وجاء فى هذا المخطوط ما نصه : ورجح الحافظ ابن كثير فى تفسير سورة الحشر أن تخصيص العلة كتخصيص النص مطلقا ، مستدلا بقوله تعالى : (ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء) الآية ، وقد فعل ذلك غير بنى النضير ، فلم يفعل لهم مثل مافعل لهم والله أعلم اه .

إلا أنى طلبت هذا الترجيح فى ابن كثير عند الآية ، فلم أقف عليه فليتأمل ، ولعله فى غير التفسير .

أما ما ذكره رحمه الله تعالى عن البعض فى آداب البحث والمناظرة ، وهو أنه : قد يتخلف الحكم عن العلة ، لا لشىء من الأسباب التى ذكرنا ، فالذى يظهر لى -- والله تعالى أعلم — أن تخلف الحكم عن العلة فى غير اليهود ، وإنما هو لتخلف جزء منها ، وأن العلة مركبة ، أى هى فى اليهود مشاقة وزيادة ، تلك الزيادة لم توجد فى غير اليهود ، فوقع الفرق ، وذلك أن مشاقة غير اليهود كانت لجهلهم وشكهم ، كما أشار تعالى لذلك عنهم بقوله تعالى : (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال : من يحيى العظام وهى رميم؟ قل: يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) إلى آخر السورة ، فهم فى حاجة إلى زيادة بيان ، وكذلك فى قوله فى أول سورة ص : (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشىء

عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هـذا لشيء يراد . ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق . أ أنزل عليه الذكر من بيننا بل هم فى شك من ذكرى) .

فهم فى عجب ودهشة واستبعاد أن ينزل عليه صلى الله عليه وسلم الذكر من بينهم ، وهم فى شك من أمرهم ، فهم فى حاجة إلى إزالة الشك والتثبت من الأمر ، ولذا لما زال عنهم شكهم وتبينوا من أمرهم ، وراحوا يدخلون فى دين الله أفواجا ، بينما كان كفر اليهود جحود بعد معرفة ، فكانوا يعرفونه صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم « وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » ، وقد سمى لهم فيما أنزل كما قال عيسى عليه السلام : (ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) فلم ينفعهم بيان ، ولكنه الحسد والجحود كما بين تعالى أمرهم بقوله عنهم : (ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق) وقوله: (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم) ، وقوله : (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون) ، وقوله : (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون).

فقد كانوا جبهة تضليل للناس، وتحريف للكتاب، وتلبيس للحق بالباطل. كل ذلك عن قصد وعلم، بدافع الحسد ومناصبة العداء ، وخصم هذا حاله فلا دواء له ، لأن المدلس لا يؤمن جانبه ، والمضلل لا يصدق ، والحاسد لا يشفيه إلا زوال النعمة عن المحسود ، ومن جانب آخر فقد قطع الله الطمع عن إيمانهم

(أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون) كما أيأس من إيمانهم بعد إقرارهم على أنفسهم بتغلف قلوبهم عن سماع الحق ورؤية النور : (وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا مايؤمنون) .

وكل هذه الصفات لم تكن موجودة فى كل من شاق الله ورسوله من غير اليهود ، وقد صرح تعالى بأنهم استحقوا هذا الحكم للأسباب التى اختصوا بها دون غيرهم فى قوله تعالى : (وإذ أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون . ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) .

فكل ذلك من نقض الميثاق ، والعدر فى الصلح ، وسفك الدماء ، والتظاهر بالإثم والعدوان ، والإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه ، كان خاصا باليهود ، فكانت العلة مركبة من المشاقة . ومن هذه الصفات التى اختصوا بها ، وكان الحكم صريحا هنا بقوله عنهم : (فماجزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب) . وكان خزيهم فى الدنيا : هو ما وقع بهم من إخراج وتخريب وتقتيل .

وإن من كانت هذه حاله كما تقدم ، لم يكن لهم إلا الاستئصال الكلى بإخراجهم أو تقتيلهم ، فلم يعد يصلح فيهم استصلاح ولا يتوقع منهم صلاح ،

ويكفى شاهداً على ذلك أن بنى قريظة لم يتعظوا ، ولم يستفيدوا ولم يعتبروا كما أمرهم الله : (فاعتبروا يا أولى الأبصار) .

ما اتعظ بنو قريظة بما وقع بإخوانهم بنى النضير ، فلجأوا بعد عام واحد إلى ماوقع فيه بنو النضير من غدر وخيانة ، فكان اختصاص اليهود بالحكم لتلك العلة المشتركة ، لأنهم — وإن شاركهم غيرهم فى المشاقة — فلم يشاركهم غيرهم فى الجانب الآخر مما قدمنا من دوافع المشاقه .

وللدوافع تأثير فى الحكم ، كما فى قصة آدم وإبليس . فقد اشترك آدم وإبليس فى عموم علة العصيان ، إذ نهى آدم عن قربان الشجرة ، وأمر إبليس بالسجود لآدم مع الملائكة ، فأكل آدم مما نهى عنه ، وامتنع إبليس عما أمر به فاشتركا فى العصيان كماقال تعالى عن آدم : (وعصى آدم ربه فغوى) ، وقال عن إبليس : (مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك) ، ولكن السبب كان مختلفا ، فآدم نسى ووقع تحت وسوسة الشيطان فخدع بقسم إبليس بالله تعالى (وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين) ، وكانت معصية عن إغواء ووسوسة (فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه) .

أما إبليس ، فكان عصيانه عن سبق إصرار ، وعن حسد واستكبار كما قال تعالى: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) ، ولما خاطبه الله تعالى بقوله : (قال يا إبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين) قال فى إصراره وحسده وتكبره : (قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) .

فاختلفت الدوافع ، وكان لدى إبليس ما ليس لدى آدم فى سبب العصيان وبالتالى اختلفت النتائج ، فكانت النتيجة مختلفة تماماً . أما آدم فحين عاتبه على أكله من الشجرة فى قوله تعالى : (وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين) رجعا حالا واعترفا بذنبهما قائلين: (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفرلنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وكانت العقوبه لهما قوله تعالى : (قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين) .

فكان هبوط آدم مؤقتا ولحقه قوله تعالى : (فقلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون) ، فأدركته هداية الله ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) .

أما نتيجة إبليس فلما عاتبه تعالى فى معصيته فى قوله تعالى: (قال يا إبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى استكبرت أم كنت من العالين) كان جوابه استعلاء ، وتعاظما ، على النقيض مما كان فى جواب آدم إذ قال: (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) ، فكان جوابه كذلك عكس ما كان جوابا على آدم (قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين)

ولقد قالوا : إن الذى جر على إبليس هذا كله هو الحسد ، حسد آدم على ما أكرمه الله به فاحتقره وتكبر عليه فوقع فى العصيان ، وكانت نتيجته الطرد .

وهكذا اليهود : إن داءهم الدفين هو الحسد والعجب بالنفس ، فجرهم إلى الكفر ، ووقعوا فى الخيانة ، وكانت النتيجة القتل والطرد .

وقد بين الشيخ — رحمه الله — أن مشاقة اليهود هذه هى من الإفساد فى الأرض الذى نهاهم الله عنه ، وعاقبهم عليه مرتين ، وتهددهم إنهم عادوا للثالثة عاد للانتقام منهم ، وهاهم قد عادوا ، وشاقوا الله ورسوله ، فسلط عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين .

قال رحمه الله فى سورة الإسراء عند قوله تعالى : (وإن عدتم عدنا) ، لما بين تعالى أن بنى إسرائيل قضى إليهم فى الكتاب أنهم يفسدون فى الأرض مرتين — وبين نتائج هاتين المرتين — بين تعالى أيضاً : أنهم إن عادوا للإفساد فى المرة الثالثة ، فإنه جل وعلا يعود للانتقام منهم بتسليط أعدائهم عليهم ، وذلك فى قوله : (وإن عدتم عدنا) ، ولم يبين هناهل عادوا للإفساد فى المرة الثالثة أم لا ؟ .

ولكنه أشار فى آيات أخر إلى أنهم عادوا للإفساد بتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكتم صفاته ، ونقض عهوده ، ومظاهرة عدوه عليه ، إلى غير ذلك من أفعالهم القبيحة ، فعاد الله جل وعلا للانتقام منهم تصديقاً لقوله : (وإن عدتم عدنا) فسلط عليهم نبيه صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، وجرى على بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع وخيبر ، ماجرى من القتل والسلب والإجلاء ، وضرب الجزية على من بقى منهم ، وضرب الذلة والمسكنة .

ومن الآيات الدالة على أنهم عادوا للإفساد قوله تعالى : (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين . بئس ما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين) . وقوله : (أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم) . وقوله : (ولا تزال تطلع على خائنة منهم) ونحو ذلك من الآيات .

ومن الآيات الدالة على أنه تعالى عاد إلى الانتقام منهم قوله تعالى : (هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب) وقوله : (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم) الآية اهـ منه .

فهذا منه رحمه الله بيان ودليل إلى مغايرة المشاقة الواقعة من اليهود للمشاقة الواقعة من غيرهم ، فكان تخلف الحكم عمن شاقوا الله ورسوله من غير اليهود لتخلف بعض العلة فى الحكم كما قدمنا . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَاسِقِينَ ﴾ .

اللينة هنا ، قيل اسم عام للنخل ، وهذا اختيار ابن جرير .

وقيل : نوع خاص منه ، وهو ماعدا البرنى والعجوة فقط :

ونقل ابن جرير عن بعض أهل البصرة يقول : اللينة من اللون ، وقال : وإنما سميت لينة ، لأنها فعلة من فعل وهو اللون ، وهو ضرب من النخل ، ولكن لما انكسر ماقبلها انقلبت إلى ياء إلخ وهذا الأخير قريب مما عليه أهل المدينة اليوم : حيث يطلقون كلمة « لونة » على مالا يعرفون له اسماً خاصاً ، ولعل كلمة — لونة — محرفة عن كلمة لينة ، ويوجد عند أهل المدينة من أنواع النخيل مايقرب من سبعين نوعا .

وقيل : إن اللينة كل شجرة لليونتها بالحياة .

وقد نزلت هذه الآية فى تقطيع وتحريق بعض النخيل لبنى النضير عند حصارهم وقطع من البستان المعروف بالبويرة ، كما روى ابن كثير عن صاحبى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرق نخل بنى النضير وقطع ، وهى البويرة ، فأنزل الله عز وجل : (ماقطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله) الآية .

وقال حسان رضى الله عنه :

وهان على سراة بنى لؤى حـــريق بالبويرة مستطير

والبويرة معروفة اليوم ، وهى بستان يقع فى الجنوب الغربى من مسجد قباء .

وقيل فى سبب نزولها : إن اليهود قالوا : يامحمد إنك تنهى عن الفساد ، فما بالك تأمر بقطع الأشجار ؟ فأنزل الله الآية .

وقيل : إن المسلمين نهى بعضهم بعضاً عن قطع النخيل ، وقالوا إنما هو مغانم المسلمين ، فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه ، وتحليل من قطع من الإثم ، وأن قطع ماقطع وترك ماترك (فبإذن الله وليجزى الفاسقين) .

وعلى هذه الأقوال ، قال ابن كثير وغيره : إن قوله تعالى : (فبإذن الله) أى الإذن القدرى والمشيئة الإلهية ، أى كما فى قوله تعالى : (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله) ، وقوله : (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه) .

والذى يظهر — والله تعالى أعلم أن الإذن المذكور فى الآية ، هو إذن شرعى ، وهو مايؤخذ من عموم الإذن فى قوله تعالى : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير) ، لأن الإذن بالقتال إذن بكل مايتطلبه بناء على قاعدة الأمر بالشىء أمر به وبما لايتم إلا به .

والحصار نوع من القتال ، ولعل من مصلحة الحصار قطع بعض النخيل لتمام الرؤية ، أو لإحكام الحصار ، أو لإذلال وإرهاب العدو فى حصاره وإشعاره بعجزه عن حماية أمواله وممتلكاته ، وقد يكون فيه إثارة له ليندفع فى حمية للدفاع عن ممتلكاته وأمواله ، فينكشف عن حصونه ويسهل القضاء

عليه ، إلى غير ذلك من الأغراض الحربية ، والتى أشار الله تعالى إليها فى قوله : (وليخزى الفاسقين) أى بعجزهم وإذلالهم وحسرتهم ، وهم يرون نخيلهم يقطع ويحرق فلا يملكون له دفعاً .

وعلى كل فالذى أذن بالقتال وهو سفك الدماء وإزهاق الأنفس وما يترتب عليه من سبى وغنائم لا يمنع فى مثل قطع النخيل إن لزم الأمر ، ويمكن أن يقال : إن ما أذن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبإذن الله أذن .

وبهذا يمكن أن يقال : إذا حاصر المسلمون عدواً ، ورأوا أن من مصلحتهم أو من مذلة العدو إتلاف منشآته وأمواله ، فلا مانع من ذلك . والله تعالى أعلم .

وغاية مافيه ، أنه إتلاف بعض المال للتغلب على العدو وأخذ جميع ماله ، وهذا له نظير فى الشرع ، كعمل الخضر فى سفينة المساكين لما خرقها ، أى أعابها بإتلاف بعضها ليستخلصها من اغتصاب الملك إياها ، وقال : (وما فعلته عن أمرى) .

وقد جاء اعتراض المشركين على المسلمين فى قتالهم فى الأشهر الحرم ، كما اعترض اليهود على المسلمين فى قطع النخيل ، وذلك فى قوله تعالى : (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل) .

فقد تعاظم المشركون قتل المسلمين لبعض المشركين فى وقعة نخلة ، ولم

يتحققوا دخول الشهر الحرام ، واتهموهم باعتداء على حرمة الأشهر الحرم ، فأجابهم الله تعالى بموجب ماقالوا بأن القتال فى الشهر الحرام كبير ، ولكن ما ارتكبه المشركون من صد عن سبيل الله وكفر بالله ، وصد عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه ـ وهم المسلمون ـ أكبر عند الله ، والفتنة عن الدين وأكبر من القتل ، أى الذى استنكروه من المسلمين .

وهكذا هنا ، لئن تعاظم اليهود على المسلمين قطع بعض النخيل ، وعابوا على المسلمين إيقاع الفساد بإتلاف بعض المال ، فكيف بهم بغدرهم وخيانتهم نقضهم العهود ، وتمالئهم على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وقد سجل هذا المعنى كعب بن مالك يذكر إجلاء بنى النضير وقتل ابن الأشرف :

لقد خزيت بغدرتها الحبور كذاك الدهر ذو صرف يدور
وذلك أنهم كفروا برب عظيم أمره أمر كبير
وقد أوتوا معا فهما وعلما وجاءهم من الله النذير

إلى أن قال :

فلما أشربوا غدرا وكفرا وجذبهم عن الحق الثغور
أرى الله النبى برأى صدق وكان الله يحكم لا يجور
فأيده وسلطه عليهم وكان نصيره نعم النصير

فقد أشار إلى أن خزى بنى النضير بسبب غدرهم وكفرهم بربهم ، فكان الإذن فى قطع النخيل هو إذن شرعى ، ويمكن أن يقال عنه ،

هو عمل تشريعى إذا مادعت الحاجة ، ليمثل مادعت الحاجة هنا إليه . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ .

الضمير فى منهم هنا عائد على بنى النضير .

والفىء : الغنيمة بدون قتال ، وقد جعله تعالى هنا على رسوله خاصة .

وقال : (فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء) أى لما كان إخراج اليهود مرده إلى الله تعالى بما قذف فى قلوبهم الرعب ، وبما سلط عليهم رسوله صلى الله عليه وسلم ، فكان هذا الفىء لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشاركه فيه غيره .

وقد جاء مصداق ذلك عن عمر رضى الله عنه الذى ساقه الشيخ تغمده الله برحمته عند آخر كلامه على مباحث الأنفال عند قوله : المسألة التاسعة : اعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان يأخذ نفقة سنته من فىء بنى النضير لامن المغانم ، وساق حديث أنس بن أوس المتفق عليه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى قصة مطالبة علىّ والعباس ميراثهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه قال لهما : إن الله كان خص رسوله صلى الله عليه وسلم فى هذا بشىء لم يعطه أحداً غيره ، فقال عز وجل : (ما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم : إلى قوله ـ قدير) ، فكانت خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله

ما احتازها دونكم ولا استأثر بها عليكم ، لقد أعطا كموه وبثها فيكم ، حتى بقى منها هذا المال ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم ينفق على أهله من هذا المال نفقة سنته ، ثم يأخذ ما بقى فيجعله مجعل ما لله الخ . اهـ .

وكانت هذه خاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن جاء بعدها ماهو أعم من ذلك فى قوله تعالى : (وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى — أى عموماً — فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) .

وهذه الآية لعمومها مصدراً ومصرفاً ، فقد اشتملت على أحكام ومباحث عديدة ، وقد تقدم لفضيلة الشيخ — تغمده الله برحمته — الكلام على كل مافيها عند أول سورة الأنفال على قوله تعالى : (يسألونك عن الأنفال) ، فاستوفى واستقصى وفصل وبين مصادر ومصارف الفىء والغنيمة والنفل . ومافتح من البلاد صلحا أو عنوة ، ومسائل عديدة مما لامزيد عليه ، ولاغنى عنه والحمد لله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ .

معنى الدولة والدولة — بضم الدال فى الأولى ، وفتحها فى الثانية : يدور عند المفسرين على معنيين :

الدولة بالفتح : الظفر فى الحرب وغيره ، وهى المصدر ، وبالضم اسم الشىء الذى يتداول من الأموال .

وقال الزمخشرى : معنى الآية . كيلا يكون الفىء الذى حقه أن يعطى

الفقراء ، ليكون لهم بلغة يعيشون بها جداً بين الأغنياء يتكاثرون به ، أو كيلا يكون دولة جاهلية بينهم .

ومعنى الدولة الجاهلية : أن الرؤساء منهم كانوا يستأثرون بالغنيمة ، لأنهم أهل الرئاسة والغلبة والدولة ، وكانوا يقولون : من عزّ بزّ ، والمعنى : كيلا يكون أخذه غلبة أثرة جاهلية ، ومنه قول الحسن : اتخذوا عباد الله خولا ومال الله دولا ، يريد من غلب منهم أخذه واستأثر به . الخ .

والجدير بالذكر هنا : أن دعاة بعض المذاهب الاقتصادية الفاسدة ، يحتجون بهذه الآية على مذهبهم الفاسد ويقولون : يجوز للدولة أن تستولى على مصادر الإنتاج ورءوس الأموال . لتعطيها أو تشرك فيها الفقراء ، وما يسمونهم طبقة العمال ، وهذا على مافيه من كساد اقتصادى ، وفساد اجتماعى ، قد ثبت خطؤه ، وظهر بطلانه مجانباً لحقيقة الاستدلال .

لأن هذا المال ترك لمرافق المسلمين العامة . من الإنفاق على المجاهدين ، وتأمين الغزاة فى الحدود والثغور ، وليس يعطى للأفراد كما يقولون ، ثم - هو أساسا — مال جاء غنيمة للمسلمين ، وليس نتيجة كدح الفرد وكسبه .

ولما كان مال الغنيمة ليس ملكا لشخص ، ولا هو أيضاً كسب لشخص معين . تحقق فيه العموم فى مصدره ، وهو الغنيمة ، والعموم فى مصرفه ، وهو عموم مصالح الأمة ، ولادخل ولا وجود للفرد فيه ، فشتان بين هذا الأصل فى التشريع وهذا الفرع فى التضليل .

ومن المؤسف أنهم يؤيدون دعواهم بإقحام الحديث فى ذلك ، وهو قوله

صلى الله عليه وسلم : « الناس شركاء فى ثلاثة : الماء والنار والكلأ » ، ومعلوم أن الشركة فى هذه الثلاثة — مادامت على عمومها — فالماء شركة بين الجميع مادام فى مورده من النهر أو البئر العام أو السيل أو الغدير . أما إذا انتقل من مورده العام وأصبح فى حيازة ما ، فلا شركة لأحد فيه مع من حازه ، كمن ملأ إناء من النهر أو السيل ونحوه ، فما كان فى إنائه فهو خاص به ، وهذا الكلأ مادام عشبا فى الأرض العامة — لا فى ملك إنسان معين — فهو عام لمن سبق إليه ، فإذا ما احتشه إنسان وحازه ، فلاشركة لأحد فيه ، وكذلك ما كان منه نابتا فى ملك إنسان بعينه فهو أحق به من غيره .

ويظهر ذلك بالحوت فى البحر والنهر فهو مشاع للجميع ، والطير فى الهواء يصاد . فإنه قدر مشترك بين جميع الصيادين ، فإذا ماصاده إنسان فقد حازه واختص به ، وهذا أمر تعترف به جميع النظم الاقتصادية وتعطى تراخيص رسمية لذلك .

وهناك العمل الجارى فى تلك الدول ، مما يجعلهم يتناقضون فى دعواهم الاشتراك فى الماء والنار والكلأ ، وذلك فى شركات المياه والنور فإنهم يجعلون فى كل بيت عداداً يعد جالونات الماء التى استهلكها المنزل ويحاسبونه عليه ، وإذا تأخر قطعوا عليه الماء وحرموه من شربه .

وكذلك التيار الكهربائى ، فإنه نار ، وهو الطاقة الفعالة فى المدن فإنهم يقيسونه بعداد يعد الكيلوات ، ويبيعونه على المستهلك ، فلماذا لايجعلون

الماء والكهرباء، شركة بين المواطنين ؟ أم الناس شركاء فيما لايعود على الدولة ، أما حق الدولة فخاص للحكام ؟ إنه عكس ما فى قضية الفيء تماما .

حيث إن الفيء والغنيمة الذى جعله الله حلالا من مال العدو، وهو كسب عام دخل على الأمة بمجهود الأمة كلها ، الماثل فى الجيش الذى يقاتل باسمها ، وجعله تعالى فى مصارف عامة فى مصالح الأمة ، لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

فلله : أى الجهاد فى سبيل الله .

وللرسول : لقيامه بأمر الأمة ، وكان صلى الله عليه وسلم يأخذ نفقة أهله عاما ، وما بقى يرده فى سبيل الله .

ولذى القربى ؛ من تلزمه نفقتهم .

واليتامى والمساكين : هذا هو التكافل الاجتماعى فى الأمة .

وابن السبيل : المنقطع فى سفره ، وهذا تأمين للمواصلات .

فكان مصرفه بهذا العموم دون اختصاص شخص به أوطائفة (كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم) .

وإنه لمن مواطن الإعجاز فى القرآن ؛ أن يأتى بعد هذا التشريع قوله تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله) الآية ، لأنه تشريع فى أمر يمس الوتر الحساس فى النفس ، وهو موطن الشح والحرص ، ألا وهو كسب المال الذى هو صنو النفس ، والذى تولى الله قسمته فى أهم من ذلك ، وهو فى الميراث .

قسمه تعالى مبينا فروضه ، وحصة كل وارث ، لأنه كسب بدون مقابل ، وكسب إجبارى . والنفوس متطلعة إليه فتولاه الله تعالى ، وكذلك الفيء والغنيمة ، وحرم الغلول فيه قبل القسمة .

ومثل هذا المال هو الذى ألفوا قسمته مغنما ، والذى بذلوا النفوس والمهج قبل الوصول إليه ، فإذا بهم يمنعون منه ، ويحال بينهم وبينه ، فيقسم المنقول فقط ، ولا يقسم العقار الثابت ، ويقال لهم : حدث هذا (كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم) ، سواء الأغنياء بأبدانهم وقدرتهم على العمل وعلى الجهاد أو الأغنياء بأموالهم بما حصلوه من مغانم قبل ذلك .

وكان لابد لنفوسهم من أن تتحرك نحو هذا المال ، وفعلا ناقشوا عمر رضى الله عنه فيه ، ولكن هنا يأتى سوط الطاعة المسلة ، وأمر التشريع المسكت إنه عن الله أتاكم به رسول الله : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله) فإن الآية وإن كانت عامة فى جميع التشريع إلا أنها هنا أخص ، وهى به أقرب ، والمقام إليها أحوج .

وهنا ينتقل بنا القول إلى ما آتانا به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى هذا المعنى بالذات أى : معنى المشاركة فى الأموال .

لقد جاء صلى الله عليه وسلم إلى المدينة والأنصار يؤثرون المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، وقد أعانهم الله على شح نفوسهم ، فجتمعهم مجتمع بذل وإعطاء وتضحية وإيثار ، ومع هذا فقد كان منه صلى الله عليه وسلم أن يأتيه الضيف فلا يجد له قرى فى بيته ، فيقول لأصحابه : « من يضيف هذا

الليلة وله الجنة ؟ » فيأخذه بعض أصحابه ، ويأتيه فقراء المهاجرين يطلبون منه مايحملهم عليه فى الجهاد ، فيعتذر إليهم أنه لايجد مايحملهم عليه ، فيقولون وأعينهم تفيض من الدمع حزناً : ألا يجدوا مايحملهم عليه ، ويأتيه القدح من اللبن ، فيدعو : يا أهل الصفة . ليشاركوه إياه لقلة ماعندهم ، وأبوهريرة يخرج من المسجد فيصرع على بابه من الجوع ، بينما العديد من أصحابه ذوو يسار ، منهم من يجهز الجيش من ماله ، ومنهم من يتصدق بالقافلة كاملة ومافيها ، ومنهم من يتصدق بخيار بساتين المدينة ومنهم ومنهم فلم يأخذ قط ولادرهما واحداً ممن تصدق بقافلة كاملة وماتحمل ، لم يأخذ منه درهما بدون رضاه ، ليشارك معه فيه واحداً من أهل الصفة ، ولا ممن تصدق ببستانه صاع تمر يعطيه لأبى هريرة ، يسد مسغبته ، ولا بعيراً واحداً ممن جهز جيشاً من ماله ليحمل عليه متطوعا فى سبيل الله .

إنها أموال محترمة ، وأملاك مستقرة خاصة بأصحابها ، فهناك غنيمة وفىء أخذ بقوة الأمة ومددها للجيش ، جعل فى مصارف عامة للأمة وللجيش ، وهنا أموال خاصة لم تمس ولم تلمس ، إلا برضى نفس وطيب خاطر ، ولذا كانوا يجودون ولا يبخلون ، ويعطون ولا يشحون ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، وكان مجتمعاً متكافلا مؤتلفا متعاطفا وسيأتى زيادة إيضاح لهذا المجتمع عند الكلام على مجتمع المدينة على قوله تعالى : (للفقراء المهاجرين) ، ومابعدها من الآيات إن شاء الله تعالى .

وللشيخ رحمه الله تعالى كلام مقنع على هذه المسألة فى سورة الزخرف على

قوله تعالى : (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا) الآية . نسوق نصه لأهميته :

قال رحمه الله : مسألة : دلت هذه الآية الكريمة المذكورة هنا كقوله تعالى: (نحن قسمنا بينهم معيشتهم) الآية . وقوله تعالى : (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق) ، الآية . ونحو ذلك من الآيات على أن تفاوت الناس فى الأرزاق والحظوظ سنة من سنن الله السماوية الكونية القدرية ، لا يستطيع أحد من أهل الأرض البتة تبديلها ولا تحويلها بوجه من الوجوه ، (فان تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) وبذلك تحقق أن مايتذرع به الآن الملاحدة المنكرون لوجود الله ولجميع النبوات والرسائل السماوية إلى ابتزاز ثروات الناس ونزع ملكهم الخاص عن أملاكهم ، بدعوى المساواة بين الناس فى معايشهم ، أمر باطل لا يمكن بحال من الأحوال ، مع أنهم لا يقصدون ذلك الذى يزعمون ؛ وإنما يقصدون استئثارهم بأملاك جميع الناس لينعموا بها ويتصرفوا فيها كيف شاءوا تحت ستار كثيف من أنواع الكذب والغرور والخداع ، كما يتحققه كل عاقل مطلع على سيرتهم وأحوالهم مع المجتمع فى بلادهم .

فالطغمة القليلة الحاكمة ومن ينضم إليها هم المتمتعون بجميع خيرات البلاد وغيرهم من عامة الشعب محرومون من كل خير ، مظلومون فى كل شىء ، حتى ما كسبوه بأيديهم ، يعلفون ببطاقة كما تعلف البغال والحمير .

وقد علم الله — جل وعلا فى سابق علمه — أنه يأتى ناس يغتصبون

أموال الناس بدعوى أن هذا فقير ، وهذا غنى ، وقد نهى جل وعلا عن اتباع الهوى بتلك الدعوى ، وأوعد من لم ينته عن ذلك بقوله تعالى : (إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا) وفى قوله : (فإن الله كان بما تعملون خبيرا) وعيد شديد لمن فعل ذلك . انتهى حرفيا .

والحق أن الأرزاق قسمة الخلاق ، فهو أرأف بالعباد من أنفسهم ، وليس فى خزائنه من نقص ولكنها الحكمة لمصلحة عباده ، وفى الحديث القدسى : « إن من عبادى لمن يصلح له الفقر ، ولو أغنيته لفسد حاله ، وإن من عبادى لمن يصلح له الغنى ولو أفقرته لفسد حاله » فهو سبحانه يعطى بقدر ، ولا يمسك عن قتر .

ويكفى فى هذا المقام سياق الآية الكريمة التى تكلم الشيخ رحمة الله تعالى عليه فى أسلوبها فى قوله تعالى : (نحن قسمنا) وهذا الضمير معلوم أنه للتعظيم والتفخيم ، ومثله الضمير فى قسمنا ، فلا مجال لتدخل المخلوق ، ولا مكان لغير الله تعالى فى ذلك . والقسمة إذا كانت من الله تعالى ، فلا تقوى قوة فى الأرض على إبطالها ، ثم إن واقع الحياة يؤيد ذلك بل ويتوقف عليه ، كما قال تعالى (ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا) .

وهؤلاء المعتدون على أموال الناس يعترفون بذلك ، ويقرون نظام الطبقات عمال وغير عمال . الخ ، فلا دليل فى آية سورة الحشر هنا (كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم) ولا حق لهم فيما فعلوا فى أموال الناس بهذا المبدأ الباطل . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ .

قال الشيخ رحمه الله تعالى فى المقدمة : إن السنة كلها مندرجة تحت هذه الآية الكريمة ، أى أنها ملزمة للمسلمين العمل بالسنة النبوية ، فيكون الأخذ بالسنة أخذاً بكتاب الله ، ومصداق ذلك قوله تعالى (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى) .

وقد قال السيوطى : الوحى وحيان :

وحى أمرنا بكتابته ، وتعبدنا بتلاوته ، وهو القرآن الكريم .

ووحى لم نؤمر بكتابته ، ولم نتعبد بتلاوته وهو السنة .

وقد عمل بذلك سلف الأمة وخلفها ، كما جاء عن سعيد بن المسيب أنه قال فى مجلسه بالمسجد النبوى : لعن الله فى كتابه الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة ، فقالت امرأة قائمة عنده ، وفى كتاب الله ؟ قال : نعم ، قالت : لقد قرأته من دفته إلى دفته ، فلم أجد هـذا الذى قلت ، فقال لها : لو كنت قرأتيه لوجدتيه ، أو لم تقرئى قوله تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا) ؟

وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الواصلة والمستوصلة ، ومن لعنها رسول الله فقد لعنها الله ، فقالت له : لعل بعض أهلك يفعله ؟ فقال لها : ادخلى وانظرى فدخلت بيته ثم خرجت ولم تقل شيئاً ، فقال لها : مارأيت ؟ قالت : خيراً ، وانصرفت .

وجاء الشافعي وقام في أهل مكة . فقال : سلوني يا أهل مكة عما شئتم أجبكم عنه من كتاب الله . فسأله رجل عن المحرم يقتل الزنبور ، ماذا عليه في كتاب الله . فقال: يقول الله تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا) وقال صلى الله عليه وسلم: « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين» الحديث ، وحدثني فلان عن فلان ، وساق بسنده إلى عمر بن الخطاب ، سئل: المحرم يقتل الزنبور ماذا عليه ، فقال : لاشيء عليه .

فقد اعتبر سعيد بن المسيب السنة من كتاب الله ، والشافعي اعتبر سنة الخلفاء الراشدين من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن، واعتبر كل منهما جوابه من كتاب الله بناء على هذه الآية الكريمة .

وهذا ماعليه الأصوليون يخصصون بها عموم الكتاب ، ويقيدون مطلقه .

فمن الأول : قوله صلى الله عليه وسلم : « أحلت لنا ميتتان ودمان . أما الميتتان فالجراد والحوت ، وأما الدمان : فالكبد والطحال » فخص بهذا الحديث عموم قوله تعالى : (حرمت عليكم الميتة والدم) ، وكذلك في النكاح : « لاتنكح المرأة على عمتها ولا المرأة على خالتها » ، خص بها عموم : « وأحل لكم ماوراء ذلكم » ، ونحوه كثير .

ومن الثاني : قطعه صلى الله عليه وسلم يد السارق من الكوع تقييداً لمطلق (فاقطعوا أيديهما) ، وكذلك مسح الكفين في التيمم تقييداً أو بياناً

لقوله تعالى : (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه) ، ونحو ذلك كثير ، وكذلك بيان المجمل كبيان مجمل قوله تعالى : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) فلم يبين عدد الركعات لكل وقت ، ولا كيفية الأداء ، فصلى صلى الله عليه وسلم على المنبر وهم ينظرون ، ثم قال لهم : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » وحج وقال لهم : « خذوا عنى مناسككم » .

وقد أجمعوا على أن السنة أقوال وأفعال وتقرير ، وقد ألزم العمل بالأفعال قوله تعالى : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) ، والتأسى يشمل القول والفعل ، ولكنه فى الفعل أقوى ، والتقرير مندرج فى الفعل ، لأنه ترك الإنكار على أمر ما ، والترك فعل عند الأصوليين ، كما قال صاحب مراقى السعود .

* والترك فعل فى صحيح المذهب *

تنبيه

تنقسم أفعاله صلى الله عليه وسلم إلى عدة أقسام :

أولا : ما كان يفعله بمقتضى الجبلة ، وهو متطلبات الحياة من أكل وشرب ولبس ونوم ، فهذا كله يفعله استجابة لمتطلبات الحياة ، وكان يفعله قبل البعثة ويفعله كل إنسان ، فهو على الإباحة الأصلية ، وليس فيه تشريع جديد ، ولكن صورة الفعل ، وكيفيته ككون الأكل والشراب باليمين الخ ، وكونه من أمام الآكل ، فهذا هو موضع التأسى به صلى الله عليه وسلم وكذلك

نوع المأكول أو تركه ما لم يكن تركه لمانع كعدم أكله صلى الله عليه وسلم للضب والبقول المطبوخة ، وقد بين السبب فى ذلك ، فالأول : لأنه ليس فى أرض قومه فكان يعافه ، والثانى لأنه يناجى من لا تناجى، وقد قال صاحب المراقى :

وفعله المركوز فى الجبله كالأكل والشرب فليس مله

* من غير لمح الوصف ... *

ثانياً : ما كان متردداً بين الجبلة والتشريع كوقوفه صلى الله عليه وسلم بعرفة راكباً على ناقته ، ونزوله بالمحصب منصرفه من منى . فالوقوف الذى هو ركن الحج يتم بالتواجد فى الموقف بعرفة على أية حالة ، فهل كان وقوفه صلى الله عليه وسلم راكبا من تمام نسكه . أم أنه صلى الله عليه وسلم فعله دون قصد إلى النسك ؟ خلاف بين الأصوليين . ولا يبعد من يقول : قد يكون فعله صلى الله عليه وسلم هذا ليكون أبرز لشخصه فى مثل هذا الجمع ، تسهيلا على من أراده لسؤال أو رؤية أو حاجة ؛ فيكون تشريعاً لمن يكون فى منزلته فى المسئولية .

ثالثاً : ما ثبتت خصوصيته به مثل جواز جمعه بين أكثر من أربع نسوة بالنكاح لقوله تعالى: (يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك) ، وكن أكثر من أربع ، ونكاح الواهبة نفسها لقوله تعالى : (خالصة لك من دون المؤمنين) ، فهذا لا شركة لأحد معه فيه .

رابعاً : ما كان بياناً لنص قرآنى ، كقطعه صلى الله عليه وسلم يد السارق من الكوع بياناً لقوله تعالى : والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) . وكأعمال الحج والصلاة ، فهما بيان لقوله تعالى (وأقيموا الصلاة) ، وقوله : (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » ، وقال : « خذوا عنى مناسككم » ، فهذا القسم حكمه للأمة ، حكم المبين بالفتح ، فنى الوجوب واجب ، وفى غيره بحسبه .

خامساً : مافعله صلى الله عليه وسلم لا لجبلة ولا لبيان ، ولم تثبت خصوصيته له ، فهذا على قسمين : أحدهما أن يعلم حكمه بالنسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من وجوب أو ندب أو إباحة ، فيكون حكمه للأمة كذلك ، كصلاته صلى الله عليه وسلم فى الكعبة ، وقد علمنا أنها فى حقه صلى الله عليه وسلم جائزة ؛ فهى للأمة على الجواز .

ثانيهما : ألا يعلم حكمه بالنسبة إليه صلى الله عليه وسلم ، وفى هذا القسم أربعة أقوال :

أولها : الوجوب . عملا بالأحوط ، وهو قول أبى حنيفة وبعض الشافعية ، ورواية عن أحمد .

ثانيها : الندب ، لرجحان الفعل على الترك ، وهو قول بعض الشافعية ، ورواية عن أحمد أيضاً .

ثالثها : الإباحة ، لأنها المتيقن ، ولـكن هذا فيما لا قربة فيه ، إذ القرب لا توصف بالإباحة .

رابعها : التوقف ، لعدم معرفة المراد ، وهو قول المعتزلة ، وهذا أضعف الأقوال ، لأن التوقف ليس فيه تأس .

فتحصل لنـا من هذه الأقوال الأربعة أن الصحيح الفعل تأسياً برسول الله صلى الله عليه وسلم وجوباً أو ندباً ، ومثلوا لهذا الفعل بخلعه صلى الله عليه وسلم نعله فى الصلاة ، فخلع الصحابة كلهم نعالهم ، فلما انتهى صلى الله عليه وسلم سألهم عن خلعهم نعالهم قالوا : رأيناك فعلت ففعلنـا ، فقـال لهم : أتانى جبريل وأخبرنى أن فى نعلى أذى فخلعتها ، فإنه أقرهم على خلعهم تأسياً به ، ولم يعب عليهم مع أنهم لم يعلموا الحـكم قبل إخباره إياهم . وقد جاء هنـا (ما آ تا كم) بصيغة العموم .

وقال الشيخ رحمه الله فى دفع الإيهام فى سورة الأنفال عند قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعا كم لما يحييكم) ، مانصـه : وهـذه الآية تدل بظاهرها على أن الاستجـابة للرسول التى هى طاعته لاتجب إلا إذا دعانا لما يحيينا ، ونظيرها قوله تعالى : (ولا يعصينك فى معروف) .

وقد جاء فى آيات أخر مايدل على وجوب اتباعه مطلقاً من غير قيد ، كقوله : (وما آتا كم الرسول فخذوه وما نها كم عنه فانتهوا)

وقوله . (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) الآية ، و (من يطع الرسول فقد أطاع الله) .

والظاهر : أن وجه الجمع والله تعالى أعلم : أن آيات الإطلاق مبينة أنه صلى الله عليه وسلم لايدعونا إلا لما يحيينا من خيرى الدنيا والآخرة ، فالشرط المذكور فى قوله : (إذا دعاكم) متوفر فى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم لمكان عصمته ، كما دل عليه قوله تعالى : (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى) .

والحاصل : أن آية (إذا دعاكم لما يحييكم) مبينة أنه لاطاعة إلا لمن يدعو إلى مايرضى الله ، وأن الآيات الأخر بينت أن النبى صل الله عليه وسلم لايدعو أبداً إلا إلى ذلك ، صلوات الله وسلامه عليه . انتهى .

وقد بينت السنة كذلك حقيقة ومنتهى ما جاء به صلى الله عليه وسلم فى قوله : « ماتركت خيراً يقربكم إلى الله إلا بينته لكم ، وحذرتكم منه ونهيتكم عنه » .

تنبيه

الواقع أن العمل بهذه الآية الكريمة هو من لوازم نطق المسلم بالشهادتين . لأن قوله : أشهد أن لا إله إلا الله ، اعتراف لله تعالى بالألوهية وبمستلزماتها ، ومنها إرسال الرسل إلى خلقه ، وإنزال كتبه

وقوله : أشهد أن محمداً رسول الله ، اعتراف برسالة محمد صلى الله عليه وسلم من الله لخلقه ، وهذا يستلزم الأخذ بكل ما جاء به هذا الرسول الكريم من الله سبحانه وتعالى ، ولا يجوز أن يعبد الله إلا بما جاءه به رسول الله ، ولا يحق له أن يعصى الله بما نهاه عنه رسول الله ، فهى بحق مستلزمة للنطق بالشهادتين .

ويؤيد هذا قوله تعالى : (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) فربط مرد الخلاف إلى الله والرسول بالإيمان بالله واليوم الإخر .

وقال الشيخ رحمه الله عند هذه الآية فى سورة النساء : أمر الله فى هذه الآية الكريمة بأن كل شىء تنازع فيه الناس من أصول الدين وفروعه ، أن يرد التنازع فى ذلك إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، لأنه تعالى قال : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) انتهى .

فاتضح بهذا كله أن ما أتانا به صلى الله عليه وسلم فهو من عند الله ، وأنه بمنزلة القرآن فى التشريع ، وأن السنة تستقل بالتشريع كما جاءت بتحريم لحوم الحمر الأهلية . وكل ذى مخلب من الطير وناب من السباع ، وبتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها ، أو هى مع ابنة أخيها أو ابنة أختها ونحو ذلك ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا ألفين أحدكم على أريكة أهله يقول : ما وجدنا فى كتاب الله أخذناه ، وما لم نجده فى كتاب الله تركناه ، ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه »

والنص هنا عام فى الأخذ بكل ما أتانا به ، وترك ما نهانا عنه ، وقد جاء تخصيص هذا العموم فى قوله تعالى : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) ، وقوله : (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) وقوله تعالى : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) .

وجاء الحديث ففرق بين عموم الأمر وعموم النهى فى قوله صلى الله عليه وسلم : « ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فانتهوا » وقد جاء هذا التذييل على هذه الآية بقوله تعالى : (واتقوا الله إن الله شديد العقاب) إيذاناً بأن هذا التكليف لاهوادة فيه ، وأنه ملزم للأمة سراً وعلناً ، وأن من خالف شيئاً منه يتوجه إليه هذا الإنذار الشديد ، لأن معصيته معصية لله ، وطاعته من طاعة الله (من يطع الرسول فقد أطاع الله) والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسولَه أُولَـئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾

فى هذه الآية الكريمة وصف شامل للمهاجرين فى دوافع الهجرة : أنهم « يبتغون فضلا من الله ورضواناً » ، وغايتها : وهى « وينصرون الله ورسوله » ، والحكم لهم بأنهم « أولئك هم الصادقون » .

ومنطوق هذه الأوصاف يدل بمفهومه أنه خاص بالمهاجرين ، مع

أنه جاءت نصوص أخرى تدل على مشاركة الأنصار لهم فيه : منها قوله تعالى : (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض) ، وقوله تعالى بعدها : (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً) .

فذكر المهاجرين بالجهاد بالمال والنفس ، وذكر معهم الأنصار بالإيواء والنصر ، ووصف الفريقين معاً بولاية بعضهم لبعض ، وأثبت لهم معاً حقيقة الإيمان « أولئك هم المؤمنون حقاً » ، أى الصادقون فى إيمانهم ، فاستوى الأنصار مع المهاجرين فى عامل النصرة وفى صدق الإيمان .

وفى قوله تعالى : (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) وصف شامل للأنصار ، تبوءوا الدار : أى المدينة ، والإيمان من قبلهم : أى ببيعة العقبة الأولى والثانية من قبل مجىء المهاجرين ، بل ومن قبل إيمان بعض المهاجرين يحبون من هاجر إليهم ويستقبلونه بصدور رحبة ، ويؤثرون غيرهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، لأنهم هاجروا إليهم .

وظاهر النصوص تدل بمفهومها أن غيرهم لم يشاركهم فى هذه الصفات ، ولكن فى الآية الأولى مايدل لمشاركة المهاجرين الأنصار فى

هذا الوصف الكريم ، وهو الإيثار على النفس ، لأن حقيقة الإيثار على النفس هو بذل المال للغير عند حاجته مقدما غيره على نفسه ، وهذا المعنى بالذات سبق أن كان من المهاجرين أنفسهم المنصوص عليه فى قوله تعالى : (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم) فكانت لهم ديار ، وكانت عندهم أموال وأخرجوا منها كلها ، فلئن كان الأنصار واسوا إخوانهم المهاجرين ببعض أموالهم ، وقاسموهم ممتلكاتهم ، فإن المهاجرين لم ينزلوا عن بعض أموالهم فحسب ، بل تركوها كلها . أموالهم وديارهم وأولادهم وأهلهم ، فصاروا فقراء بعد إخراجهم من ديارهم وأموالهم . ومن يخرج من كل ماله وديارة ويترك أهله وأولاده ، لا يكون أقل تضحية ممن آثر غيره ببعض ماله ، وهو مستقر فى أهله وديارة ، فكأن الله عوضهم بهذا الفيء عما فات عنهم .

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله : أنه صلى الله عليه وسلم قال للأنصار مايشعر بهذا المعنى ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم . فقالوا يارسول الله : أموالنا بيننا قطائع » الحديث .

أى أن الأنصار عرفوا ذلك للمهاجرين ، وعليه أيضا ، فقد استوى المهاجرون مع الأنصار فى هذا الوصف المثالى الكريم ، وكان خلقا لكثيرين منهم بعد الهجرة كما فعل الصديق رضى الله عنه حين

تصدق بكل ماله فقال له ، رسول الله صلى الله مايه وسلم : ما أبقيت لأهلك ؟ فقال رضى الله عنه : أبقيت لهم الله ورسوله ، وكذلك عائشة الصديقة رضى الله عنها ؛ حينما كانت صائمة وليس عندها سوى قرص من الشعير وجاء سائل فقالت لبريرة : ادفعى إليه ماعندك ، فقالت لها : ليس إلا ماستفطرين عليه ، فقالت لها : ادفعيه إليه ، ولعلها أحوج إليه الآن ، أو كما قالت .

ولما جاء المغرب أهدى إليهم رجل شاة بقرامها - وقرامها هو ما كانت العرب تفعله إذا أرادوا شواء شاة طلوها من الخارج بالعجين حفظاً لها من رماد الجمر - فقالت لبريرة : كلى ، هذا خير من قرصك .

وكما فعل عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه تصدق بالعير وما تحمله من تجارة حين قدمت ، والرسول صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة فخرج الناس إليها .

فعلى هذا ، كان مجتمع المدينة فى عهده صلى الله عليه وسلم مجتمعاً متكافلا بعضهم أولياء بعض ، وقد نوّه صلى الله عليه وسلم فى قصة غنائم حنين بفضل كلا الفريقين فى قوله صلى الله عليه وسلم : « لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار » .

. ومن بعده عمر رضى الله عنه قال : وأوصى الخليفة بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم كرامتهم . وأرصيه

بالأنصار خيراً الذين تبوأوا الدار والإيمان ، من قبل أن يقبل من محسنهم ، وأن يعفو عن مسيئهم .

ثم كان هذا خلق المهاجرين والأنصار جميعا ، كما وقع فى وقعة اليرموك ، قال حذيفة العدوى : انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ، ومعى شىء من الماء وأنا أقول : إن كان به رمق سقيته ، فإذا أنا به فقلت له : أسقيك ؟ فأشار برأسه أن نعم ؟ فإذا أنا برجل يقول : آه آه ، فأشار إلىّ ابن عمى أن أنطلق إليه ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت أسقيك ؟ فأشار أن نعم ، فسمع آخر يقول آه آه . فأشار هشام أن أنطلق إليه فجئته ، فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى هشام ، فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات .

وكان منهج الخواص من بعدهم ، كما نقل القرطبى عن أبى يزيد البسطامى أنه قال : ماغلبنى أحد ماغلبنى شاب من أهل بلخ ، قدم علينا حاجا فقال لى : ماحد الزهد عندكم ؟ فقلت : إن وجدنا أكلنا ، وإن فقدنا صبرنا ، فقال : هكذا كلاب بلخ عندنا ، فقلت : وما حد الزهد عندكم ؟ قال : إن فقدنا شكرنا وإن وجدنا آثرنا .

وفى قوله : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) . الإيثار على النفس : تقديم الغير عليها مع الحاجة ، والخصاصة : الحاجة التى تختل بها الحالى ، وأصلها من الاختصاص ، وهو الانفراد فى

الأمر . فالخصاصة الانفراد بالحاجة أى ولو كان بهم فقة وحاجة ومنه قول الشاعر :

أما الربيع إذا تكون خصاصة
عاش السقيم به وأثرى المقتر

وهل يصح الإيثار من كل إنسان ولو كان ذا عيال أو تلزمه نفقة غيره أم لا ؟ وما علاقته مع قوله : (يسألونك ماذا ينفقون قل العفو) ؟

والجواب على هذا كله فى كلام الشيخ رحمه الله على قوله تعالى : (ومما رزقناهم ينفقون) فى أول سورة البقرة .

قال رحمه الله : قوله تعالى : (ومما رزقناهم ينفقون) ، عبَّر فى هذه الآية الكريمة بمن التبعيضية الدالة على أنه ينفق لوجه الله بعض ماله لا كله ، ولم يبين هنا القدر الذى ينبغى إنفاقه ، والذى ينبغى إمساكه ، ولكنه بيَّن فى مواضع أخرى أن القدر الذى ينبغى إنفاقه هو الزائد على الحاجة ، وسد الخلَّة التى لابد منها ، وذلك كقوله : (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو) ، والمراد بالعفو الزائد على قدر الحاجة التى لابد منها على أصح التفسيرات ، وهو مذهب الجمهور ومنه قوله تعالى : (حتى عفوا) أى كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم .

وقال بعض العلماء : العفو نقيض الجهد ، وهو أن ينفق ما لا يبلغ إنفاقه منه الجهد واستفراغ الوسع .

ومنه قول الشاعر :

خذى العفو منى تستديمى مودتى
ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب

وهـذا القول راجع إلى ما ذكرنا ، وبقيـة الأقوال ضعيفة ، وقوله تعالى : (ولا تجعل يدك مغـلولة إلى عنقك ولا تبسطهـا كل البسط) ، فنهـاه عن البخل بقوله : (ولا تجعل يدك مغـلولة إلى عنقك) ، ونهاه عن الإسراف بقوله : (ولا تبسطها كل البسط) ، فيتعين الوسط بين الأمرين ، كما بينـه بقوله : (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) .

فيجب على المنفق أن يفرق بين الجود والتبـذير وبين البخـل والإقتار ، فالجود غير التبذير ، والاقتصاد غير البخل فالمنع فى محل الإعطاء مذموم ، وقد نهى الله عنه نبيـه صلى الله عليه وسلم بقوله : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) ، والإعطاء فى محل المنع مذموم أيضاً ، وقد نهى الله عنه نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : (ولا تبسطها كل البسط) .

وقد قال الشاعر :

لا تمدحن ابن عباد وإن هطلت
يداه كالمزن حتى تخجـل الديمـا
فإنها خطـــــرات من وساوسه
يعطى ويمنع لا بخـــلا ولا كرما

وقد بين تعالى فى مواضع أخرى ، أن الإنفاق المحمود لا يكون كذلك إلا إذا كان مصرفه الذى صرف فيه مما يرضى الله كقوله تعالى : (قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين) الآية ، وصرح فى أن الإنفاق فيما لا يرضى الله حسرة على صاحبه فى قوله : (فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة) الآية .

وقد قال الشاعر :

إن الصنيعة لا تعد صنيعة حتى يصاب بها طريق المصنع

فإن قيل : هذا الذى قررتم يقتضى أن الإنفاق المحمود هو إنفاق ما زاد عن الحاجة الضرورية ، مع أن الله تعالى أثنى على قوم بالإنفاق وهم فى حاجة إلى ما أنفقوا ، وذلك فى قوله : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يُوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون) .

فالظاهر فى الجواب والله تعالى أعلم : هو ما ذكره بعض العلماء من أن لكل مقام مقالا ، ففى بعض الأحوال يكون الإيثار ممنوعا ، وذلك كما إذا كانت على المنفق نفقات واجبة كنفقة الزوجات ونحوها ، فتبرع بالإنفاق فى غير واجب ، وترك الفرض لقوله صلى الله عليه وسلم « وابدأ بمن تعول » ، وكأن يكون لا صبر عنده عن سؤال الناس فينفق ماله ، ويرجع إلى الناس يسألهم مالهم ، فلا يجوز له ذلك ؟ والإيثار فيما إذا كان لم يضيع نفقة واجبة ، وكان واثقا من نفسه بالصبر والتعفف وعدم السؤال .

وأما على القول بأن قوله تعالى : (ومما رزقناهم ينفقون) يعنى به الزكاة ، فالأمر واضح ، والعلم عند الله تعالى . انتهى منه .

والواقع أن للإنفاق فى القرآن مراتب ثلاثة :

الأولى : الإنفاق من بعض المال بصفة عامة ، كما فى قوله تعالى : (ومما رزقناهم ينفقون) .

والثانية : الإنفاق مما يحبه الإنسان ويحرص عليه ، كما فى قوله تعالى (وآتى المال على حبـــــه ، وهذا أخص من الأول ، وقوله : (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا) الآية .

الثالثة : الإنفاق مع الإيثار على النفس كهذه الآية (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) فهى أخص من الخاص الأول

وتعتبر المرتبة الأولى هى الحد الأدنى فى الواجب ، حتى قيل : إن المراد بها الزكاة . وهى تشمل النافلة ، وتصدق على أدنى شىء ولو شق تمرة ، وتدخل فى قوله تعالى : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) ، وتعتبر المرتبة الثالثة هى الحد الأقصى ، لأنها إيثار للغير على خاصة النفس ، والمرتبة الثانية هى الوسطى بينهما ، وهى الحد الوسط بين الاكتفاء بأقل الواجب ، وبين الإيثار على النفس وهى ميزان التوسط لعامة الناس ، كما بينه تعالى بقوله : (ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط) . وكما امتدح الله تعالى قوماً بالاعتدال فى قوله : (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) .

وهذا هو عين تطبيق قاعدة الفلسفة الأخلاقية القائلة : « الفضيلة وسط بين طرفين » أى طرفى الإفراط والتفريط . فالشجاعة مثلا وسط بين التهور والجبن ، والكرم وسط بين التبذير والتقتير .

وللإنفاق جوانب متعددة ، وأحكام متفاوتة ، قد بيَّن الشيخ رحمه الله جانباً من الأحكام ، وقد بيَّن القرآن الجوانب الأخرى ، وتنحصر فى الآتى : نوع مايقع منه الإنفاق ، الجهة المنفق عليها ، موقف المنفق ، وصورة الإنفاق .

أما مايقع منه الإنفاق : فقد بينه تعالى أولا من كسب حلال لقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد) .

وقوله تعالى : (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) .

أما الجهة المنفق عليها : فكما فى قوله تعالى : (يسئلونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم) فبدأ بالوالدين براً لهما ، وثنَّى بالأقربين .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الصدقة على القريب صدقة وصلة ، وعلى البعيد صدقة » ثم اليتامى وهذا واجب إنسانى وتكافل اجتماعى ، لأن يتيم اليوم منفق الغد ، وولد الأبوين اليوم قد يكون يتيما غدا ،

أى أن من أحسن إلى اليتيم اليوم قد يترك أيتاما ، فيحسن عليهم ذلك اليتيم الذى أحسنت إليه بالأمس ، والمساكين وابن السبيل أمور عامة .

وجاء بالقاعدة العامة التى يحاسب الله تعالى عليها ويجازى صاحبها (وما تفعلوا من خير — أى مطلقا — فإن الله به عليم) ، وكفى فى ذلك علمه تعالى .

أما موقف المنفق وصورة الإنفاق : فإن هذا هو سر النفقة فى الإسلام ، وفلسفة الإنفاق كلها تظهر فى هذا الجانب ، مما تميز به الإسلام دون غيره من جميع الأديان أو النظم .

لأنه يركز على الحفاظ على شعور وإحساس المسكين ، بحيث لايشعره بجرح المسكنة ، ولا ذلة الفاقة كما فى قوله تعالى : (الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لايتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون) .

ثم فاضل بين الكلمة الطيبة والصدقة المؤذية فى قوله تعالى : (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم) يعطى ولا يمنّ بالعطاء .

وأفهم المنفقين أن المنّ والأذى يبطل الصدقة (يا أيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى) لما فيه من جرح شعور المسكين .

وقد حثّ على إخفائها إمعاناً فى الحفاظ على شعوره وإحساسه (إن تبدو الصدقات فنعمّا هى — أى مع الآداب السابقة — وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) أى لكم أنتم فى حفظ ثوابها .

وقد جعل صلى الله عليه وسلم من السبعة الذين يظلهم الله تحت ظله يوم لاظل « رجل تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لاتعلم شماله ما أنفقت يمينه » ، وكما قال تعالى : الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون) .

ومن خصائص الإسلام فى هذا الباب أنه كما أدب الأغنياء فى طريقة الإنفاق ، فقد أدب الفقراء فى طريقة الأخذ ؛ وذلك فى قوله تعالى : (للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لايستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لايسألون الناس إلحافا) .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

فى هذه الآية الكريمة حث على تقوى الله فى الجملة ، واقترنت بالحث على النظر والتأمل فيما قدمت كل نفس لغد ، وتكرر الأمر فيها بتقوى الله ، مما يدل على شدة الاهتمام والعناية بتقوى الله على

ما سيأتى تفصيله إن شاء الله ، سواء كان التكرار للتأكيد أم كان للتأسيس ، وسيأتى بيانه إن شاء الله .

أما الاهتمام بالحث على التقوى ، فقد دلت له عدة آيات من كتاب الله تعالى ، ولو قيل : إن الغاية من رسالة الإسلام كلها ، بل ومن جميع الأديان هو تحصيل التقوى لما كان بعيداً ، وذلك للآتى :

أولا : قوله تعالى : ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) ، ومعلوم أنه تعالى ما خلق الجن والإنس إلا لعبادته ، فتكون التقوى بمضمون هاتين الآيتين ؛ هى الغاية من خلق الثقلين الإنس والجن . وقد جاء النص مفصلا فى حق كل أمة على حدة ، منها فى قوم نوح عليه السلام قال تعالى : (كذبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون ، وفى قوم عاد قال تعالى : (كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون) ، وفى قوم لوط : (كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون) ، وفى قوم شعيب ، قوله تعالى : (كذب أصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لهم شعيب ألا تتقون إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون) .

فكل نبي يدعو قومه إلى التقوى كما قدمنا . ثم جاء القرآن كله دعوة إلى التقوى وهداية للمتقين ، كما في مطلع القرآن الكريم : (الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) ، وبيّن نوع هذه الهداية المتضمنة لمعنى التقوى بقوله تعالى : (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) .

وقد بين الشيخ — رحمة الله تعالى عليه — معنى التقوى عند قوله تعالى : (ولكن البر من اتقى) .

قال : لم يبين هنا من المتقى ، وقد بينه تعالى في قوله : (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) .

وقد بينت آيات عديدة آثار التقوى في العاجل والآجل .

منها في العاجل قوله تعالى : (ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً) ، وقوله : (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) ، وقوله : (واتقوا الله ويعلمكم الله) ،

وقوله : (إنّ الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) .

أما فى الآجل وفى الآخرة ، فإنها تصحب صاحبها ابتداء إلى أبواب الجنة كما فى قوله تعالى : (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) ، فإذا ما دخلوها آخت بينهم وجددت روابطهم فيما بينهم وآنستهم من كل خوف ، كما فى قوله تعالى : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ، ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون) إلى قوله : (لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون) إلى أن تنتهى بهم إلى أعلى عليين ، وتحلهم مقعد صدق ، كما فى قوله تعالى : (إن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) .

فتبين بهذا كله منزلة التقوى من التشريع الإسلامى وفى كل شريعة سماوية ، وأنها هنا فى معرض الحث عليها وتكرارها ، وقد جعلها الشاعر السعادة كل السعادة كما فى قوله ، وهو لجرير :

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
فتقوى الله خير الزاد ذخرا وعند الله للأتقى مزيد

والتقوى دائماً هى الدافع على كل خير ، الرادع عن كل شر ، روى ابن كثير فى تفسيره عن الإمام أحمد فى مجىء قوم من مضر ،

مجتابى النمار والعباءة ؛ حفاة عراة متقلدى السيوف . فيتمعّر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل ثم خرج ، فأمر بلالا ينادى للصلاة ، فصلّى ثم خطب الناس وقرأ قوله تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة) إلى آخر الآية ، وقرأ الآية التى فى سورة الحشر : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد) الآية ، تصدق رجل من دينارە من درهمه من ثوبه من صاع بره حتى قال : ولو بشق تمرة ، قال : فجاء رجل من الأنصار بصرّة كادت كفه تعجز عنها ، بل قد عجزت ثم تتابع الناس إلى قوله : حتى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل وجهه كأنه مذهبة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سنّ فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء » الحديث .

فكانت التقوى دافعاً على سنّ سنّة حسنة تهلل لها وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما أنها تحول دون الشر ، من ذلك قوله تعالى : (وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً) ، وقوله : (فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه) ، فإن التقوى مانعة من بخس الحق ومن ضياع الأمانة ، وكقوله عن مريم فى طهرها وعفتها لما أتاها جبريل وتمثل لها بشراً سويا : (قالت : إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً) .

وكما فى حديث النفر الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار ،

ومنهم الرجل مع ابنة عمه لما قالت له : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فقام عنها وترك لها المال .

وهكذا فى تصرفات العبد كما فى قوله تعالى : (ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) ،

والخطاب فى قوله تعالى : (ولتنظر نفس) ، لكل نفس كما فى قوله تعالى : (ثم توفى كل نفس ما كسبت) ، وقوله : (ووفيت كل نفس ما كسبت) .

فالنداء أولا بالتقوى لخصوص المؤمنين ، والأمر بالنظر لعموم كل نفس ، لأن المنتفع بالتقوى خصوص المؤمنين كما أوضحه الشيخ — رحمة الله عليه — فى أول سورة البقرة ، والنظر مطلوب من كل نفس فالخصوص للإشفاق ، والعموم للتحذير .

ويدل للأول قوله تعالى : (وكان بالمؤمنين رحيما) .

ويدل للثانى قوله : (يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد) . وما فى قوله تعالى : (ماقدمت) عامة فى الخير والشر ، وفى القليل والكثير .

ويدل للأول قوله تعالى : (يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً) .

ويدل للثانى قوله تعالى : (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن

يعمل مثقال ذرة شراً يره) ، والحديث « اتقوا النار ولو بشق تمرة » .

وغداً تطلق على المستقبل المقابل للماضى ، كما قال الشاعر :

واعلم علم اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عم

وعليه أكثر استعمالاتها فى القرآن ، كقوله تعالى عن إخوة يوسف : (أرسله معنا غدا يرتع ويلعب) ، وقوله : (ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله) .

وتطلق على يوم القيامة كما هنا فى هذه الآية لدلالة القرآن على ذلك ، من ذلك قوله تعالى فى نفس المعنى : (يوم ينظر المرء ماقدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا) .

والقرائن فى الآية منها : اكتنافها بالحث على تقوى الله قبله وبعده .

ومنها : التذييل بالتحذير فى قوله : (إنه خبير بما تعملون) أى بالمقاصد فى الأعمال وبالظواهر والبواطن ، ولأن يوم القيامة هو موضع النسيان ، فاحتاج التنبيه عليه .

ويكون التعبير عن يوم القيامة بغد لقرب مجيئه وتحقق وقوعه كقوله تعالى : (اقتربت الساعة وانشق القمر) ، وقوله : (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شىء قدير) .

ومن ناحية أخرى ، فإن الغد لكل إنسان بمعنى يوم القيامة يتحقق بيوم موته ، لأنه يعاين ماقد قدم يوم موته ، وقد نكر لفظ نفس وغد هنا ، فقيل فى الأول لقلة من الناظرين ، وفى الثانى لعظم أمره وشدة هوله .

وهنا قد تكرر الأمر بتقوى الله كما أسلفنا مرتين ، فقيل للتأكيد ، قاله ابن كثير ، وقيل للتأسيس ، قاله الزمخشرى وغيره .

فعلى أنه للتأكيد ظاهر وعلى التأسيس يكون الأول لفعل المأمور والثانى لترك المحظور ، مستدلين بمجىء موجب الفعل أولا (ولتنظر نفس ماقدمت) ، ومجىء موجب التحذير ثانيا (إن الله خبير بما تعملون) .

وهذا وإن كان له وجه ، ويشهد للتأكيد قوله تعالى : (فاتقوا الله حق تقاته) وإن كانت نسخت بقوله : (فاتقوا الله ما استطعتم) فيدل لمفهومه قوله : (وآخرين اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئاً) أى بترك بعض المأمور ، وفعل بعض المحظور .

وعليه فلا تتحقق التقوى إلا بمراعاة الجانبين ، ولكن مادة التقوى وهى اتخاذ الوقاية مما يوجب عذاب الله تشمل شرعا الأمرين معاً لقوله تعالى فى عموم اتخاذ الوقاية (قوا أنفسكم وأهليكم نارا) .

فكان أحد الأمرين بالتقوى يكفى لذلك ويشمله ، ويكون الأمر بالتقوى الثانى لمعنى جديد ، وفى الآية مايرشد إليه ، وهو قوله تعالى

(ماقدمت) ، لأن « ما » عامة كما قدمنا وصيغة قدمت على الماضى يكون الأمر بتقوى الله أولا بالنسبة لما مضى وسبق من عمل تقدم بالفعل ، ويكون النظر بمعنى المحاسبة والتأمل على معنى الحديث : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا » فقد ذكره ابن كثير .

فإذا مانظر فى الماضى وحاسب نفسه ، وعلم ما كان من تقصير أو وقوع فى محظور ، جاءه الأمر الثانى بتقوى الله لما يستقبل من عمل جديد ومراقبة الله تعالى عليه (والله بما تعملون خبير) ، فلايكون هناك تكرار ، ولا يكون توزيع ، بل بحسب مدلول عموم « ما » وصيغة الماضى « قدمت » والنظر للمحاسبة .

تنبيـــه

مجىء « قدمت » بصيغة الماضى حث على الإسراع فى العمل ، وعدم التأخير ، لأنه لم يملك إلا ماقدم فى الماضى ، والمستقبل ليس بيده ، ولايدرى مايكون فيه ، (وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا) وكما فى قوله صلى الله عليه وسلم : « حجوا قبل ألا تحجوا » ، وقوله تعالى : (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم) ، وقوله تعالى : (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون)

بعد البحث على تقوى الله وعلى الاجتهاد فى تقديم العمل الصالح ليوم غد جاء التحذير فى هذه الآية من النسيان والترك وألا يكون كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، ولم يبين هنا من هم الذين حذر

من أن يكونوا مثلهم فى هذا النسيان ، وما هو النسيان والإنساء المذكوران هنا .

وقد نص القرآن على أن الذين نسوا الله هم المنافقون فى قوله تعالى فى سورة التوبة: (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم ، إن المنافين هم الفاسقون) وهذا عين الوصف الذى وصفوا به فى سورة الحشر ؛ وقوله تعالى : (فنسيهم) أى أنساهم أنفسهم ، لأن الله تعالى لاينسى (لا يضل ربى ولاينسى) ، (وما كان ربك نسيا) .

وقد جاء أيضاً : وصف كل من اليهود والنصارى والمشركين بالنسيان فى الجملة ، ففى اليهود يقول تعالى :(فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به) .

وفى النصارى يقول تعالى :(ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به) .

وفى المشركين يقول تعالى : (الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعبا وغرّتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هـذا وما كانوا بآياتنا يجحدون) ، فيكون التحذير منصباً أصالة على المنافقين وشاملا معهم كل تلك الطوائف لاشتراكهم جميعاً فى أصل النسيان .

أما النسيان هنا ، فهو بمعنى الترك ، وقد نص عليه الشيخ — رحمة الله تعالى عليه — عند الكلام على قوله تعالى : (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى) .

فذكر وجهين ، وقال : العرب تطلق النسيان وتريد به الترك ولو عمداً ، ومنه قوله تعالى : (قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) .

فالمراد من هذه الآية الترك قصدا .

وكقوله : (فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون) .

وقوله : (فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم) .

وقوله : (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) الآية. انتهى .

أما النسيان الذى هو ضد الذكر ، وهو الترك عن غير قصد ، فليس داخلا هنا ، لأن هذه الأمة قد أعفيت من المؤاخذة عليه ، كما فى قوله تعالى : (ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) الآية .

وفى الحديث أن الله تعالى قال : « قد فعلت قد فعلت » أى عند ما تلاها صلى الله عليه وسلم .

وجاء فى السنة « إن الله قد تجاوز لى عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

وقد بين الشيخ — رحمة الله تعالى عليه — هذا النوع فى دفع إيهام الاضطراب على الجواب عن الإشكال الموجود فى نسيان آدم ، هل كان عن قصد أو عن غير قصد ، وإذا كان عن غير قصد ، فكيف يؤاخذ ؟ وبين خصائص هذه الأمة فى هذا الباب رحمة الله تعالى عليه ، فليرجع إليه .

وإذا تبين المراد بالتحذير من مشابهتهم فى النسيان ، وتبين معنى النسيان ، فكيف أنساهم الله أنفسهم ؟ وهـذه مقتطفات من أقوال المفسرين فى هذا المقام لزيادة البيان :

قال ابن كثير رحمه الله : لاتنسوا ذكر الله تعالى فينسيكم العمل الصالح ، فإن الجزاء من جنس العمل .

وقال القرطبى : نسوا الله أى تركوا أمره ، فأنساهم أنفسهم أن يعملوا لها خيرا .

وقال أبوحيان : الذين نسوا الله هم الكفار تركوا عبادة الله ، وامتثال ما أمر واجتناب ماتهى فأنساهم أنفسهم حيث لم يسعوا إليها فى الخلاص من العذاب ، وهـذا من المجـــازات على الذم بالذنب . إلخ.

وقال ابن جرير : تركوا أداء حق الله الذى أوجبه عليهم ، وهذا من باب الجزاء من جنس العمل .

أما الزمخشرى والفخر الرازى ، فقد أدخلا فى هذا المعنى مبحثاً

كلاميا حيث قالا فى معنى (نسوا الله) كما قال الجمهور ، أما فى معنى (فأنساهم أنفسهم) فذكرا وجهين . الأول : كالجمهور ، والثانى : بمعنى ، أراهم يوم القيامة من الأهوال مانسوا فيه أنفسهم كقوله تعالى : (لايرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء) ، وقوله : (وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) ا ه

وهذا الوجه الثانى لايسلم لهما ، لأن ماذهبا إليه عام فى جميع الخلائق يوم القيامة ، وليس خاصاً بمن نسى الله كما قال تعالى فى نفس الآية التى استدلا بها (وترى الناس سكارى) ، فهو عام فى جميع الناس .

وقوله : (يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت) . والذهول أخو النسيان ، وهو هنا عام فى كل مرضعة (وتضع كل ذات حمل حملها) وهو أيضاً عام ، وذلك من شدة الهول يوم القيامة ، ولعل الحامل لهما على إيراد هذا الوجه مع بيان ضعفه ، هو فرارهم من نسبة الإنساء إلى الله ، وفيه شبهة اعتزال كما لايخفى .

ولوجود إسناد الإنساء إلى الشيطان فى بعض المواضع كما فى قصة صاحب موسى : (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) ، وكما فى قوله تعالى : (وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) ، وقوله . عن صاحب يوسف : (فأنساه الشيطان ذكر ربه) .

ولكن الصحيح عند علماء السلف أن حقيقة النسيان والإنساء

والتذكير والتذكر كحقيقة أى معنى من المعانى ، وأنها كلها من الله (قل كل من عند الله) ، (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) فما نسب إلى الشيطان فهو بتسليط من الله كما فى قوله تعالى : (ويتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) ثم قال (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) فيكون إسناد الإنساء إلى الشيطان من باب قول الخليل عليه السلام (وإذا مرضت فهو يشفين) تأدباً فى الخطاب مع الله تعالى ، ولكن هذا المقام مقام إخبار من الله عما أوقعه بهؤلاء الذين نسوا ما أمرهم به فأنساهم ، فأوقع عليهم النسيان لأنفسهم مجازاة لهم على أعمالهم ، فكان نسبته إلى الله وبإخبار من الله عين الحق وهو أقوى من أسلوب المقابلة : نسوا الله فنسيهم .

تنبيهـــان

الأول : جاء فى مثل هذا السياق سواء بسواء قوله تعالى : (وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا) .

وقوله : (فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم) .

وقوله : (نسوا الله فنسيهم) ، وفى هـذا نسبة النسيان إلى الله تعالى فوقع الإشكال مع قوله تعالى : (وما كان ربك نسيا) وقوله : (لا يضل ربى ولا ينسى) .

وقد أجاب الشيخ – رحمة الله عليه — عن ذلك فى دفع إيهام الاضطراب،

بأن النسيان المثبت بمعنى الترك كما تقدم ، والمنفى عنه تعالى : هو الذى بمعنى السهو ، لأنه محال على الله تعالى .

التنبيه الثانى

مما نص عليه الشيخ — رحمة الله تعالى عليه — فى مقدمة الأضواء، أن من أنواع البيان أن يوجد فى الآية اختلاف للعلماء وتوجد فيها قرينة دالة على المعنى المراد ، وهو موجود هنا فى هذه المسألة وهو قوله تعالى : (فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا) وهذا القول يكون يوم القيامة ، وقد عبر عن النسيان بصيغة المضارع وهى للحال أو الاستقبال ، ولا يكون النسيان المخبر عنه فى الحال إلا عن قصد وإرادة ، وكذلك لا يخبر عن نسيان سيكون فى المستقبل إلا عن قصد وإرادة ، وهذا فى النسيان بمعنى الترك عن قصد ، أما الذى بمعنى السهو فيكون بدون قصد ولا إرادة ، فلا يصح التعبير عنه بصيغة المضارع ولا الإخبار بإيقاعه عليهم فى المستقبل ، فصح أن كل نسيان نسب إلى الله فهو بمعنى الترك ، وكان قوله تعالى : (فأنساهم أنفسهم) مفسراً ومبينا لمعنى (فاليوم ننساكم) ولقوله (إنا نسيناكم) والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ .

دلت هذه الآية الكريمة على عدم استواء الفريقين : أصحاب النار وأصحاب الجنة . وهذا أمر معلوم بداهة ، ولكن جاء التنبيه عليه لشدة غفلة الناس عنه ، ولظهور أعمال منهم تغاير هذه القضية البديهية ، كمن يسيء إلى أبيه فتقول له : إنه أبُوك ، قاله بعض المفسرين .

وهذا فى أسلوب البيان يراد به لازم الخبر ؛ أى يلزم من ذلك التنبيه أن يعملوا ما يبعدهم عن النار ويجعلهم من أصحاب الجنة ، لينالوا الفوز .

وهذا البيان قد جاءت نظائره عديدة فى القرآن كقوله تعالى : (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) وكقوله : (أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون) أى فى الحكم عند الله ، ولا فى الواقع فى الحياة أو فى الآخرة ، كما قال تعالى : (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) ، وهنا كذلك (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة) فى المرتبة والمنزلة والمصير .

قال أبو حيان : هذا بيان مقابلة الفريقين أصحاب النار فى الجحيم ،

وأصحاب الجنة فى النعيم ، والآية عند جمهور المفسرين فى بيان المقارنة بين الفريقين، وهو ظاهر السياق بدليل ما فيها من قوله : (أصحاب الجنة هم الفائزون) ، فهذا حكم على أحد الفريقين بالفوز ، ومفهومه الحكم على الفريق الثانى بالهلاك والخسران ، ويشهد له أيضاً ما قبلها (ولا تكونوا كالذين نسوا الله) أى من هذا الفريق فأنساهم أنفسهم ، فصاروا أصحاب النار على ما سيأتى بيانه إن شاء الله .

وهنا احتمال آخر ، وهو لايستوى أصحاب النار فى النار ولا أصحاب الجنة فى الجنة ، فيما هم فيه من منازل متفاوتة كما أشار إليه أبوحيان عند قوله تعالى : (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة) ، ولكن عدم وجود اللام هنا يجعله أضعف احتمالا ، وإلا لقال : لايستوى أصحاب النار ، ولا أصحاب الجنة ، وهذا المعنى ، وإن كان واقعا لتفاوت درجات أهل الجنة فى الجنة ، ومنازل أهل النار فى النار ، إلا أن احتماله هنا غير وارد ، لأن آخر الآية حكم على مجموع أحد الفريقين ، وهم أصحاب الجنة أى فى مجموعهم كأنه فى مثابة القول: النار والجنة لايستويان ، فأصحابهما كذلك .

وقد نبه أبوالسعود على تقديم أصحاب النار ، فى الذكر على أصحاب الجنة بأنه ليبين لأول وهلة أن النقص جاء من جهتهم كما فى قوله : (هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور) ا هـ

وبيان ذلك أن الفرق بين المتفاوتين فى الزيادة والنقص ، يمكن اعتبار التفاوت بالنسبة إلى النقص فى الناقص ، ويمكن اعتباره بالنسبة إلى الزيادة فى الزائد .

فقدم الجانب الناقص ليبين أن التفاوت الذى حصل بينهما ، إنما هو بسبب النقص الذى جاء منهما لا بسبب الزيادة فى الفريق الثانى ، والنتيجة فى ذلك عدم إمكان جانب النقص الاحتجاج على جانب الزيادة ، وفيه زيادة تأنيب لجانب النقص ، وفى الآية إجمال أصحاب النار وأصحاب الجنة .

ومعلوم أن كلمة أصحاب تدل على الاختصاص ، فكأنه قال : أهل النار وأهل الجنة المختصون بهما .

وقد دل القرآن أن أصحاب النار هم الكفار كما قال تعالى (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك هم أصحاب النار خالدين فيها) .

والخلود لا خروج معه كما فى قوله تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله — إلى قوله — وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرّة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار) وكقوله فى سورة الهمزة (يحسب أن ماله أخلده كلا لينبذن فى الحطمة وما أدراك ما الحطمة نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة إنها عليهم مؤصدة) أى : مغلقة عليهم .

أما أصحاب الجنة فهم المؤمنون كقوله تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) وقد جمع القسمين فى قوله تعالى (بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئة فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) .

كما جاء مثل هذا السياق كاملا متطابقاً فيفسر بعضه بعضاً كما قدمنا ، وذلك فى سورة التوبة قال تعالى (والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ، وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم) .

فهذه أقسام الكفر والنفاق ، وأخص أصحاب النار والاختصاص من الخلود فيها ولعنهم وهى حبسهم ، وهم الذين نسوا الله فنسيهم ، وهم عين من ذكر فى هذه السورة سورة الحشر ، ثم جاء مقابله تماماً فى نفس السياق فى قوله تعالى : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ، وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين

فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم) .

وهذه أيضاً أخص صفات أهل الجنة ، من الرحمة والرضوان ، والخلود ، والإقامة الدائمة فى جنات عدن ، إذ العدن الإقامة الدائمة ، ومنها المعدن لدوام إقامته فى مكانه ، ورضوان من الله أكبر .

ثم يأتى الختام فى المقامين متحداً ، وهو الحكم بالفوز لأصحاب الجنة ، ففى آية التوبة (ذلك هو الفوز العظيم) وفى آية الحشر (أصحاب الجنة هم الفائزون) ، وبهذا علم من هم أصحاب النار ، ومن هم أصحاب الجنة .

وتبين ارتباط هذه المقابلة بين هذين الفريقين ، وبين ما قبلهم ممن نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، ومن اتقوا الله وقدموا لغدهم ، وبهذا يعلم أن عصاة المسلمين غير داخلين هنا فى أصحاب النار ، لما قدمنا من أن أصحاب النار هم المختصون بها ممن كفروا بالله وكذبوا بآياته ، وكما يشهد لهذا قوله تعالى (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) ، والظالمون هنا هم المشركون فى ظلمهم أنفسهم .

وبهذا يرد على المعتزلة أخذهم من هذه الآية عدم دخول أصحاب الكبيرة الجنة على أنهم فى زعمهم لو دخلوها لاستووا مع أصحاب الجنة .

وهذا باطل كما قدمنا ، ومن ناحية أخرى يرد بها عليهم ، وهى أن يقال : إذا خلد العصاة فى النار على زعمكم مع ما كان منهم من إيمان بالله وعمل صالح فماذا يكون الفرق بينهم وبين الكفار والمشركين ، وتقدم قوله تعالى : (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض) .

وقد بحث الشيخ رحمة الله تعالى عليه ، مسألة بقاء العصاة وخروجهم من النار وخلود الكفار فيها بحثاً واسعاً فى دفع إيهام الاضطراب فى سورة الأنعام فليرجع إليه .

وقد استدل الشافعى رحمه الله ، بهذه الآية أن المسلم لا يقتل بالذمى ولا بكافر لأنهما لا يستويان ، وأن الكفار لا يملكون أموال المسلمين بالقهر . ذكره الزمخشرى .

وهذا وإن كان حقاً إلا أن أخذه من هذه الآية فيه نظر ، لأنها فى معرض المقارنة للنهاية يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : (لو أنزلنا) يدل على أنه لم ينزله ، وأنه ذكر على سبيل المثال ليتفكر الناس فى أمره كما قال تعالى : (ولو أن

قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى) الآية .

قال الشيخ رحمة الله تعالى عليه ، عندها : جواب لو محذوف .

قال بعض العلماء : تقديره لكان هذا القرآن إلخ . اهـ

وقال ابن كثير : يقول تعالى : معظماً لأمر القرآن ومبينا علو قدره ، وأنه ينبغى أن تخشع له القلوب وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد ، (لو أنزلنا هذا القرآن) الآية .

فإذا كان الجبل فى غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل .

فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله ، وقد فهمتم عن الله أمره وقد تدبرتم كتابه ، ولهذا قال تعالى : (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) .

وقد وجدت لبعض الناس شيئاً من ذلك عند سماع آيات من القرآن ، من ذلك ما رواه ابن كثير فى سورة الطور عن عمر رضى الله عنه قال : خرج عمر رضى الله يعس بالمدينة ذات ليلة فمر بدار رجل من المسلمين فوافقه قائماً يصلى فوقف يستمع قراءته فقرأ والطور حتى بلغ إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع . قال : قسم وربك الكعبة حق ، فنزل عن حماره واستند إلى حائط

فمكث مليا ثم رجع إلى منزله فمكث شهراً يعوده الناس لايدرون ما مرضه .

وذكر القرطبي : قال جبير بن مطعم قدمت المدينة لأسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أسارى بدر فوافيته يقرأ فى صلاة المغرب والطور إلى قوله تعالى : (إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع) ، فكأنما صدع قلبي فأسلمت خوفاً من نزول العذاب ، وما كنت أظن أن أقوم من مقامى حتى يقع بى العذاب .

وذكر فى خبر مالك بن دينار أنه سمعها فجعل يضطرب حتى غشى عليه :

وقد نقل السيوطى فى الإتقان خبر مالك بن دينار بتمامه فى فصل إعجاز القرآن .

وقال : قد مات جماعة عند سماع آيات منه أفردوا بالتصنيف ، وقد ينشأ هنا سؤال كيف يكون هذا تأثير القرآن لو أنزل على الجبال ولم تتأثر به القلوب ، وقد أجاب القرآن عن ذلك فى قوله تعالى : (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة) ، وكذلك أصموا آذانهم عن سماعه وغلوا قلوبهم بالكفر عن فهمه ، وأوصدوها بأقفالها فقالوا : قلوبنا غلف . وكذلك قوله تعالى : (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم

وقراً) أى : بسبب الإعراض وعدم التدبر والنسيان ، ولذا قال تعالى عنهم : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) فهذه أسباب عدم تأثر الكفار بالقرآن كما قال الشاعر :

إذا لم يكن للمرء عين صحيحة فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر

ويفهم منه بمفهوم المخالفة أن المؤمنين تخشع قلوبهم وتلين جلودهم ، كما نص تعالى عليه بقوله تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء) وقوله تعالى : لو (أنزلنا) يدل على أنه لم ينزله على جبل ولم يتصدع منه .

وقد جاء فى القرآن ما يدل عليه : لو أنزله ، من ذلك قوله تعالى : (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) .

وهذا نص صريح لأن الجبال أشفقت من حمل الأمانة وهى أمانة التكليف بمقتضى خطاب الله تعالى إياها .

فإذا كانت الجبال أشفقت لمجرد العرض عليها فكيف بها لو أنزل عليها وكلفت به .

ومنها : أن الله تعالى لما تجلى للجبل جعله دكا وخر موسى صعقاً .

والقرآن كلام الله وصفة من صفاته ، فهو شاهد وإن لم يكن نصا.

ومنها النص على أن بعض الجبال التى هى الحجارة ليهبط من خشية الله لقوله تعالى : (وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله) .

وقد جاء فى السنة إثبات مايشبه ذلك فى جبل أُحد ، حينما صعد عليه النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعمر ، رضى الله عنهما فارتجف بهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أثبت أحد فإن عليك نبى رصديق وشهيد » .

وسواء كان ارتجافه إشفاقا أو إجلالا فدل هذا كله على أنه تعالى : وإن لم ينزل القرآن على جبل أنه لو أنزله عليه لرأيته كما قال تعالى : (خاشعاً متصدعاً من خشية الله) .

وبهذا أيضا يتضح أن جواب لو فى قوله تعالى : (ولو أن قرآنا سيِّرت به الجبال) لكان هذا القرآن أرجح من تقديرهم لكفرتم بالرحمن ، لأن موضوع تسيير الجبال وخشوعها وتصديعها واحد ، وهو الذى قدمه الشيخ رحمة الله تعالى عليه هناك ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

الأمثال : جمع مثل ، وهو مأخوذ من المثل ، وأصل المثل الانتصاب ، والممثل بوزن اسم المفعول المصور على مثال غيره .

قال الراغب الأصفهانى ، يقال : مثل الشىء إذا انتصب وتصور ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « من أحب أن يمثل له الرجال فليتبوأ مقعده من النار » ، والتمثال : الشىء المصور ، وتمثل كذا تصور قال تعالى : (فتمثل لها بشراً سوياً) .

والمثل : عبارة عن قول فى شىء يشبه قولا فى شىء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره ، نحو قولهم : الصيف ضيعت اللبن ، فإن هـذا القول يشبه قولك : أهملت وقت الإمكان أمرك ، وعلى هذا الوجه ماضرب الله تعالى من الأمثال فقال : (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) .

وفى آية أخرى: (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) .

والمثال يقال على وجهين :

أحدهما : بمعنى المثل نحو مشبه وشبه ، قال بعضهم : وقد يعبر بهما عن وصف الشىء ، نحو قوله تعالى : (مثل الجنة التى وعد المتقون) .

والثانى : عبارة عن المشابهة لغيره فى معنى من المعانى أى معنى كان ، وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة .

وذلك أن الند يقال فيما يشارك فى الجوهر فقط .

والشبه يقال فيما يشارك فى الكيفية فقط .

والمساوى يقال فيما يشارك فى الكمية فقط .

والشكل يقال فيما يشارك فى القدر والمساحة فقط ، والمثل عام فى جميع ذلك .

ولهذا لما أراد الله تعالى نفي التشبيه من كل وجه خصه بالذكر فقال : (ليس كمثله شيء) إلخ . اهـ .

فقوله في تعريف المثل . إنه عبارة عن قول في شيء يشبه قولا في شيء آخر ، بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره .

فإنهم اتفقوا على أن القول لايتغير بل يحكى على ماقيل أولا كقولهم : الصيف ضيّعتِ اللبن بكسر التاء خطابا للمؤنثة .

فلو قيل لرجل أهمل وقت الإمكان ثم راح يطلبه بعد فواتة ، لقلت له : الصيف ضيعتِ اللبن بكسر التاء على الحكاية .

وهذا مما يسمى الاستعارة التمثيلية من أبلغ الأساليب ، وأكثر ما في القرآن من أمثلة إنما هو من قبيل التشبيه التمثيلي ، وهو تشبيه صورة بصورة ، وهو من أوضح أساليب البيان .

وقد ساق الشيخ رحمة الله تعالى عليه ، عدداً منها في الجزء الرابع عند قوله تعالى : (ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلا) ، ومن أهم أغراض هذا النوع من التشبيه هو بيان صورة بصورة وجعل الخفي جلياً ، والمعنوى محسوساً كقوله تعالى : (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وماهو ببالغه) .

فلو نظرت إلى مثل هذا الشخص على هذه الحالة ، وفي تلك الصورة بكل

أجزائها ، وهو باسط يده مفرجة الأصابع إلى ماء بعيد عنه ، وهو فاغر فاه ليشرب ، لقلت وأى جدوى تعود عليه ، ومتى يذوق الماء وهو على تلك الحالة ، إنه يموت عطشا ولا يذوق منه قطرة .

وكذلك حال من يدعو غير الله مع مايدعوهم من دونه لايحصل على طائل كقوله تعالى : (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) فأى غناء لإنسان فى بيت العنكبوت .

وكذلك أى غناء فى ولاية غير الله فكذلك الحال هنا ، أريد بالأمثال صور يصور لانتزاع الحكم من السامع بعد أن تصبح الصورة محسوسة ملموسة ، وانظر قوله تعالى: (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) وكيف غطى وأخفى فى هذا الأسلوب مايستحى منه وأبرزه بلباسه فى التشبيه بما يقتى به ، ومدى مطابقة معنى اللباس لحاجة كل من الزوجين للآخر ، وتلك فى قوله تعالى : (وتلك الأ ، عائدة إلى الأمثلة المتقدمة قريبا فى عمل المنافقين مع اليهود ونتائج أعمالهم ، وهكذا كل موالاة بين غير المسلمين وكل معاداة وانصراف عما جاء به سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم .

وكذلك فى بيان مدى فعالية القرآن وتأثيره ، لو أنزل على الجبال لخشعت وتصدعت ، مما يستوجب التفكير فيه والاتعاظ به ، ثم مثال الفريقين فى قوله تعالى : (ولاتكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) ، ونتيجة ذلك فى الآخرة من عدم استواء الفريقين ، فأصحاب نار وأصحاب جنة .

ولكأن الأمثال هنا والتنبيه عليها إشارة إلى أن أولئك بنسيانهم لله وإنسائه إياهم أنفسهم ، صاروا بهذا النسيان أشد قساوة من الجبال ، بل إن الجبال أسرع تأثراً بالقرآن منهم لو كانوا يتفكرون .

وقد قال أبو السعود : إنه أراد توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وعدم تخشعه عند تلاوته وقلة تدبره فيه ا . هـ.

وهكذا بهذه الأمثلة ينتزع الحكم من السامع على أولئك المعرضين الغافلين بأن قلوبهم قاسية كالجبال أو أشد قسوة كما قدمنا ، بخلاف المؤمنين تلين جلودهم وقلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق كما قال تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء) .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ، هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ، هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

جاءت فى هذه الآيات الثلاث : ذكر كلمة التوحيد مرتين ، كما ذكر فيها أيضا تسبيح الله مرتين ، وذكر معهما العديد من أسماء

الله الحسنى وصفاته العليا ، فكانت بذلك مشتملة على ثلاث قضايا أهم قضايا الأديان كلها مع جميع الأمم ورسلهم ، لأن دعوة الرسل كلها فى توحيد الله تعالى فى ذاته وأسمائه وصفاته وتنزيهه ، والرد على مفتريات الأمم على الله تعالى .

فاليهود قالوا : عزير ابن الله .

والنصارى قالوا المسيح ابن الله .

والمشركون قالوا : اتخذ الرحمن ولدا ، وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، وقالوا : أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب .

فكلهم ادعى الشريك مع الله ، وقالوا : ثالث ثلاثة وغير ذلك .

وكذلك فى قضية التنزيه ، فاليهود قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء ، وقالوا : يد الله مغلولة غلت أيديهم .

والمشركون قالوا : وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ، ونسبوا لله ما لايرضاه أحدهم لنفسه ، وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، فى الوقت الذى إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودًّا وهو كظيم .

وهذا كما تراه أعظم افتراء على الله تعالى ، وقد سجله عليهم القرآن فى قوله تعالى (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا)

وكما قال تعـــالى (ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون) ، وقال مبينا جرم مقالتهم ، (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدًّا تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولدا وماينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا) .

فكانت تلك الآيات الثلاث علاجا فى الجملة لتلك القضايا الثلاث ، توحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، وتنزيه الله سبحانه وتعالى مع إقامة الأدلة عليها .

وقد اجتمعت معاً لأنه لايتم أحدهما إلا بالآخرين ، ليتم الكمال لله تعالى .

قال أبو السعود : إن الكمالات كلها مع كثرتها وتشعبها راجعة إلى الكمال فى القدرة والعلم . ا هـ .

وهذا كله متوفر فى هذا السياق ، وقد بدأ بكلمة التوحيد ، لأنها الأصل ، لأن من آمن بالله وحده آمن بكل ماجاء عن الله ، وآمن بالله على ما هو له أهل ، ونزهه عما ليس له بأهل قال تعالى : (هو الله الذى لا إله إلّا هو) ثم أعقبه بالدليل على إفراده تعالى بالألوهية بما لا يشاركه غيره فيه بقوله تعالى (عالم الغيب والشهادة) .

وهـــذا الدليل نص عليه على أنه دليل لوحدانية الله تعالى فى مواضع أخرى منها قوله تعالى (إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما) ووسع كل شىء هنا تساوى عالم الغيب والشهادة ،

ومنها قوله تعالى (ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) . وقوله تعالى (الله لا إله إلا هو الحى القيوم - إلى قوله - يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء) .

وهذا قطعا لا يشاركه فيه غيره ، كما قال تعالى : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) فكان من حقه على خلقه أن يعبدوه وحده لا إله إلا هو ، وجاء بدليل ثان ، وهو قوله تعالى (هو الرحمن الرحيم) وقد نص عليه صراحة أيضا كدليل على الوحدانية فى قوله تعالى (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) فهو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة .

ومن رحمته التى اختص بها فى الدنيا قوله : (وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته) وقوله : (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها) أى : بإنزاله الغيث وإنبات النبات مما لا يقدر عليه إلا هو فكان حقه على خلقه أن يعبدوه وحده لا إله إلا هو .

وقد جمع الدليلين العلم والرحمة معا فى قوله تعالى (ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما) .

ثم جاءت كلمة التوحيد مرة أخرى ، (هو الله الذى لا إله هو) ، وجاء بعدها من الصفات الجامعة قوله : (الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر) ، وهذا الدليل على وحدانيته تعالى نص عليه فى موضع آخر صريحا فى قوله تعالى (قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السماوات والأرض لا إله

إلا هـــو يحيي ويميت) فالذى له ملك السماوات والأرض هو الملك الحق الكامل الملك ، وهو الذى يملك التصرف فى ملكه كما يشاء بالإحياء والإماتة وحده ، كما قال تعالى (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير الذى خلق الموت والحياة) وهو القدوس السلام المؤمن المهيمن على ملكه كما فى قوله أيضا (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) فالقيوم هو المهيمن والقائم بكل نفس ، العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، ثم جاء بالدليل الأعظم فى قوله تعالى (هو الله الخالق البارئ المصور) فهو وحده المتفرد بالخلق والإيجاد ، والإبداع والتصوير ، وقد نص على هـذا الدليل فى أكثر من موضع كما فى قوله تعالى (بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم) ثم قال (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل) .

وذكر أيضا الخلق مفصلا والملك مجملا فى قوله تعالى (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث) ثم قال (ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون) وقال (ذلكم الله ربكم خالق كل شىء) ثم قال (لا إله إلا هو فأنى تؤفكون) وجمع الملك والخلق معا فى قوله (الذى له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق

كل شيء فقدره تقديراً) إلى غير ذلك من الآيات فى هذا المعنى .

ومن تأمل براهين القرآن على وحدانية الله تعالى ، وعلى قدرته ، على البعث وهما أهم القضايا العقائدية يجد أهمها وأوضحها وأكثرها ، هو هذا الدليل ، أعنى دليل الخلق والتصوير .

وقد جاء هـذا الدليل فى القرآن جملة وتفصيلا ، فمن الإجمال ما جاء فى أصل المخلوقات جميعا (الله خالق كل شيء) وقوله تعالى : (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير) ، وقال : (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) ثم قال (فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء) وقال : (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذى خلق الموت والحياة) أى خالق الإيجاد والعدم ، وخلق العدم يساوى فى الدلالة على القدرة خلق الإيجاد ، لأنه إذا لم يقدر على إعدام ما أوجد يكون الموجود مستعصياً عليه ، فيكون عجزا فى الموجد له ، كمن يوجد اليوم سلاحا ولا يقدر على إعدامه ، وإبطال مفعوله ، فقد يكون سبباً فى إهلاكه ، ولا تكتمل القدرة حقـــاً إلا بالخلق والإعدام معاً ، وقال فى خلق السماوات والأرض : (الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور) .

وقال فى خلق الأفلاك وتنظيمها : (هو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر) .

ثم فى أصول الموجودات فى الأرض قوله : (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً) .

وفى أصول الأجناس : الماء والنار والنبات والإنسان ، قال : (أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) .

وذكر معه القدرة على الإعدام : (نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين) .

وفى أصول النبات : (أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) .

وفى أصول الماء : (أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون) .

وفى أصل تطوير الحياة : (أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) .

وفى جانب الحيوان (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) الآية .

ولهذا فقد تمدح تعالى بهذه الصفة ، صفة الخلق وسفه آلهة المشركين بالعجز ، كما قال تعالى : (خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم) ثم قال : (هذا خلق

الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين) .

ومعلوم أنها لم تخلق شيئاً كما قال تعالى موبخاً لهم : (أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون) وبين أنهما لا يستويان فى قوله : (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) ، ثم بين نهاية ضعفها وعجزها فى قوله تعالى (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا) وهذا غاية العجز . كما ضرب لذلك المثل بقوله : (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) فهم حقا لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً ولو بقدر الذبابة ؟ وهكذا ترى صفة الخلق المتصف بها سبحانه وتعالى أعظم دليل على وحدانية الله تعالى ، وهى متضمنة صفة التصوير والعلم لأن لكل مخلوق صورة تخصه ؟ ولا يكون ذلك إلا عن علم بالغيب والشهادة ، كما تقدم .

وهكذا أيضاً كان هذا الدليل أقوى الأدلة على البعث ، كما قال تعالى : (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) إلى آخر السورة .

وكذلك فى قوله تعالى صريحا فى ذلك ونصا عليه : (قل يا أيها

الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) ثم قال تعالى : (ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) .

ثم بين تعالى أن جاحد هذا الدليل إنما هو مكابر جاهل ، ضال مضل ، وذلك فى قوله بعده مباشرة : (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يدك وأن الله ليس بظلام للعبيد) .

ومن هنا كان أول نداء فى المصحف يوجه إلى الناس جميعاً بعبادة الله كان لاستحقاقه عبادته وحده ، لأنه متصف بصفة الخلق كما قال تعالى : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا

لله أنداداً وأنتم تعلمون) . أى لأنهم ليسوا له بأنداد فيما اتصف به سبحانه فلا تشركوهم مع الله فى عبادته .

فكانت هذه الصفات لله تعالى فى آخر هذه السورة حقاً أدلة على إثبات وحدانية الله تعالى فى ذاته وأسمائه وصفاته ، وأنه المستحق لأن يعبد وحده لا إله إلا هو .

والواجب على الخلق تنزيهه عما لا يليق بجلاله سبحانه وتعالى عما يشركون ، يسبح له ما فى السموات والأرض ، لأنها من مخلوقاته وهو العزيز الحكيم ، وقوله تعالى (له الأسماء الحسنى) لم يبين هنا المراد من أنه سبحانه له الأسماء الحسنى ، وقد بين فى سورة الأعراف المراد بذلك فى قوله تعالى : (ولله الأسمـــــاء الحسنى فادعوه بها) .

قال القرطبى : سمى الله سبحانه أسماءه بالحسنى ، لأنها حسنة فى الأسماع والقلوب ، فإنها تدل على توحيده وكرمه وجوده وإفضاله ، ومجىء قوله تعالى : (له الأسماء الحسنى) بعد تعداد أربعة عشر اسما من أسمائه سبحانه يدل على أن له أكثر من ذلك ، ولم يأت حصرها ولا عدها فى آية من كتاب الله .

وقد جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله

عليه وسلم قال : « إن لله تسعةوتسعين اسما مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر » .

وسرد ابن كثير عدد المائة مع اختلاف فى الروايات.

وذكر عند آية الأعراف أنها ليست محصورة فى هذا العدد لحديث ابن مسعود فى مسند أحمد أنه صلى الله عليه وسلم قال . « ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن الكريم ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همى ، إلا أذهب الله حزنه وهمه » الحديث . اه .

ومحل الشاهد منه ظاهر فى أن لله أسماء أنزلها فى كتبه وأسماء خص بها بعض خلقه كما خص الخضر بعلم من لدنه ، وأسماء استأثر بها فى علم الغيب عنده ، كما يدل حديث الشفاعة : « فيلهمنى ربى بمحامد لم أكن أعرفها من قبل » ، والواقع أنه لاتعارض بين الحديثين .

لأن الأول : يتعلق بعدد معين ، وبما يترتب عليها من الجزاء .

والحديث الثانى : يتعلق ببيان أقسام أسمائه تعالى ، من حيث العلم بها وتعليمها وما أنزل منها .

وقد ذكر هذا الجمع ابن حجر فى الفتح فى كتاب الدعوات عند باب : لله مائة اسم غير واحد .

وقد حاول بعض العلماء استخراج المائة اسم من القرآن فزادوا ونقصوا لاعتبارات مختلفة ، وقد أطال فى الفتح بحث هذا الموضوع فى أربع عشرة صحيفة مما لاغنى عنه ولا يمكن نقله ، ولا يصلح تلخيصه .

وقد ذكر من أفردها بالتأليف .

كما أن القرطبى ذكر أنه ألف فيها ، وأساس البحث يدور على نقطتين :

الأولى : تعيين المائة اسم المرادة .

والثانية : معنى أحصاها ، وفى رواية حفظها .

وقد حضرت مجلساً للشيخ رحمة الله تعالى عليه فى بيته مع الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز وسأله عن الصحيح فى ذلك ، فكان حاصل ما ذكر فى ذلك المجلس أن التعيين لم يأت فيه نص صحيح ، وأن الإحصاء أو الحفظ لاينبغى حمله على مجرد الحفظ للألفاظ غيبا ، ولكن يحمل على أحصى معانيها وحفظها من التحريف فيها والتبديل والتعطيل ، وحاول التخلق بحسن صفاتها كالحلم والعفو والرأفة والرحمة

والكرم ونحو ذلك ، والحذر من مثل الجبار والقهار ، ومراقبة مثل : الحسيب الرقيب ، وكذلك التعرض لمثل التواب والغفور بالتوبة وطلب المغفرة ، والهادى والرزاق بطلب الهداية والرزق ونحو ذلك .

ونقل القرطبى عن ابن العربى عند قوله تعالى : (فادعوه بها) أى اطلبوا منه بأسمائه ، فيطلب بكل اسم مايليق به تقول : يارحمن ارحمنى ، يا رزاق ارزقنى : ياهادى اهدنى ، ياتواب تب على ، وهكذا رتب دعاءك تكن من المخلصين اهـ .

مسألة

يؤخذ من كلام ابن العربى هذا مايقوله الفقهاء فى ذكر اسم الله عند الذبح أن يقتصر على قوله : بسم الله ، ولا يقول الرحمن الرحيم ، لأن اسم الرحمن الرحيم يقتضى الرحمة ، وهى لايتناسب معها الذبح وزهوق الروح .

ويؤيد هذا ما ذكره ابن قدامة أنه ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا ذبح قال : « بسم الله والله أكبر » أى أكبر وأقدرك عليها ، وهو أكبر منك عليك منها .

فإذا فقه الإنسان أسماء الله الحسنى على هذا النحو ، كان حقا قد أحصاها وحفظها فى استعمالها فى معانيها ، فكان حقاً من أهل الجنة ، والعلم عند الله تعالى .

ولقد استوقفنى طويلا مجىء هذه الآيات فى نهاية هـذه السورة تذييلا لها وختاما وبأسلوب الإجمال والتفصيل لقضايا التوحيد ، وإقامة الدليل ، وإلزام أهل الإلحاد والتعطيل ، فمكثت طويلا أتطلب ربطها بما قبلها ، فلم أجد فى كل ماعثرت عليه من التفسير أكثر من شرح المفردات ، وإيراد بعض التنبيهـات مما لاينفذ إلى أعماق الموضوع ، ولا يشفى عليلا فى مجتمعاتنا الحديثة ، أو يذهب شبه المدنية المـادية ، فرجعت إلى السورة بكاملها أتأمل موضوعها فإذا بها تبدأ أولا بتسبيح العوالم كلهـا لله العزيز الحكيم ، وهـذا أمر فوق مستوى الإدراك الإنسانى ، ثم تسوق أعظم حدث تشهده المدينة بعد الهجرة من إخراج اليهود ، ولم يكن مظنونا إخراجهم ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا فكانوا موضع العبرة والموعظة .

ثم تأتى لموقف فريقين متقابلين ، فريق المؤمنين والكافرين .

يتمثل الفريق الأول فى المهاجرين والأنصـار وما كانوا عليه من أخوة ومودة ورحمة وعطاء وإيثار على النفس .

ويتمثل الفريق الآخر فى المنـافقين واليهود ، وما كان بينهم من مواعدة وإغراء وتحريض ، ثم تخل عنهم وخذلان لهم .

فكان فى ذلك تصوير لحزبين متقـابلين متناقضين حزب الرحمن ، وحزب الشيطان ، وهى صورة المجتمع فى المدينة آنذاك .

ثم تأتى إلى مقارنة أخرى بين نتائج هذين الحزبين ومنتهاها وعدم استوائهما ، وفى ذلك تقرير المصير : (لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون) .

وهـذه أخطر قضية فى كل أمة أى تقرير مصيرها ، ثم بيان حقيقة تأثير القرآن وفعاليته فى المخلوقات ، ولو كانت جبـلا أشم أو حجراً أصم لو أنزل عليه لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ، فإذا بهـا قد اشتملت على موضوع الخلق والخالق والأمة والرسالة والبدء والنهاية وصراع الحق مع الباطل ، والكفر والإيمان والنفوس فى الشح والإحسان ، وكلها مواقف عملية ومناهج واقعية وأمثلة بيانية .

(وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) .

فإذا ماتوجه الفكر فى هذا العرض ، وتنقل من موقف إلى موقف ، وتأمل صنع الله وقدرته وآياته ، نطق بتسبيحه ، وعلم أنه سبحانه هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ، علم ماسيكون عليه العالم قبل وجوده ، فأوجده على مقتضى علمـه به ، وسـيره على النحو الذى أوجده عليه ، علم خذلان المنافقين لليهود قبل أن يحرضوهم ، فكان كما علم سبحانه وحذر من مشابهتهم ، وعلم أنه لو أنزل القرآن على جبل ماذا يكون حاله ، فحث العباد بالأخذ به ، ولعلمه هذا بالغيب والشهادة ، كان حقاً هو الله وحده .

ثم مرة أخرى : (هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر) ، برهان آخر فى صور متعددة ، وبراهين متنوعة على وحدانيته سبحانه الملك القدوس ، الملك المهيمن على ملكه القدوس المسلم من كل نقص ، المسيطر على ما فى ملكه كله لايعزب عنه مثقال ذرة . كما قال تعالى : (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير) .

وهنا وقفة لتأمل اجتماع تلك الصفات معاً عالم الغيب والشهادة ، والملك القدوس والسلام المهيمن ، فنجدها مترابطة متلازمة لأن العالم إذا لم يملك التصرف ولم يهيمن على شىء فلا فعالية لعلمه .

والملك الذى لايعلم ولم يتقدس عن النقص لاهيمنة له على ملكه .

فإذا اجتمع كل ذلك وتلك الصفات : العلم والملك والتقديس والهيمنة ، حصل الكمال والجلال ، ولا يكون ذلك إلا لله وحده العزيز الجبار المتكبر ، ولا يشركه أحد فى شىء من ذلك سبحانه وتعالى عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى .

وهنا ، فى نهاية هذا السياق يقف المؤمن وقفة إجلال وتعظيم لله .

فالخالق هو المقدر قبل الإيجاد .

والبارئ الموجد من العدم على مقتضى الخلق والتقدير ، وليس كل من قدر شيئاً أوجده إلا الله .

والمصور المشكل لكل موجود على الصورة التى أوجده عليها ،

ولم يفرد كل فرد من موجوداته على صورة تختص به إلا الله سبحانه وتعالى ، كما هو موجود فى خلق الله للإنسان والحيوان والنبات كل فى صورة تخصه .

وبالرجوع مرة أخرى إلى أول السياق ، فإن الخلق والتقدير لابد أن يكون بموجب العلم سواء كان فى الحاضر المشاهد أو للمستقبل الغائب، وهذا لايكون إلا لله وحده عالم الغيب والشهادة ، فكان تقديره بموجب علمه والملك القدوس القادر على التصرف فى ملكه يوجد مايقدره .

والمهيمن : يسير مايوجده على مقتضى مايقدره .

والذى قدر فهدى ، العزيز الذى لايقهر الجبار الذى يقهر كل شىء لإرادته وتقديره ، ويخضعه لهيمنته .

المتكبر الذى لايتطاول لكبريائه مخلوق ، وأكبر من أن يشاركه غيره فى صفاته ، تكبر عن أن يماثله غيره أو يشاركه أحد فيما اختص به سبحان الله عما يشركون .

وفى نهاية السياق إقامة البرهان الملزم وانتزاع الاعتراف والتسليم ، (هو الله الخالق البارىء المصور) وهو أعظم دليل كما تقدم، وهو كما يقال : دليل الإلزام ، لأن الخلق لابد لهم من خالق ، وهذه قضية منطقية مسلمة ، وهى أن كل موجود لابد له من موجد ، وقد ألزمهم فى قوله تعالى : (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون) ، وهذا

بالسير والتقسيم أن يقال : إما خلقوا من غير شيء خلقهم أى من العدم ، ومعلوم أن العدم لا يخلق شيئاً لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، والعدم ليس أمراً وجودياً حتى يمكن له أن يوجد موجوداً .

أم هم الخالقون ؟ .

وهم أيضاً يعلمون من أنفسهم أنهم لم يخلقوا أنفسهم ، فيبقى المخلوق لابد له من خالق ، وهو الله تعالى : الخالق البارئ .

ولو قيل من جانب المنكر : إن ما نشاهده من وجود الموجود كالإنسان والحيوان والنبات يتوقف وجوده على أسباب نشاهدها ، كالأبوين للحيوان وكالحرث والسقى للنبات إلخ ، فجاء قوله تعالى : (المصور) ، فهل الأبوان يملكان تصوير الجنين من جنس الذكورة أو الأنوثة أو من جنس اللون والطول والقصر والشبه ؟

الجواب : لا وكلا ، بل ذلك لله وحده ، هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، كما قال تعالى : (لله ملك السماوات والأرض يخلق مايشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير) .

وكذلك فى النبات ، توضع الحبة وتسقى بالماء ، فالتربة واحدة ، والماء واحد ، فمن الذى يصور شكل النبات هذا نجم على وجه الأرض ، وذاك نبت على ساق ، وهذا كرم على عرش ، وذاك نخل باسقات ،

فإذا طلعت الثمرة فى أول طورها فمن الذى يصورها فى شكلها ، من استدارتها أو استطالتها أو غير ذلك ، وإذا تطورت إلى النضج فمن الذى صورها فى لونها الأحمر أو الأصفر أو الأسود أو الأخضر أو الأبيض ؟ هل هى التربة أو الماء أو هما معا ، لا وكلا . إنه هو الله الخالق البارئ المصور ، سبحـــانه له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض طوعا وكرها .

وهنا عود على بدء يختم السورة بما بدأت به مع بيان موجباته واستحقاقه ، وآيات وحدانيته ، سبحانه لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الممتحنة

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ .

نهى تعالى المؤمنين عن اتخاذ العدو المشترك أولياء ، ولفظ العدو مفرد ، ويطلق على الفرد والجماعة .

ومن إطلاقه على المفرد قوله تعالى : (فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك) يعنى بالعدو إبليس .

ومن إطلاقه على الجمع قوله تعالى : (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو) ، والمراد به هنا الجمع لما فى السياق من القرائن منها قوله « أولياء » بالجمع ، ومنها (تلقون إليهم بالمودة) وهو ضمير جمع ، ومنها « وقد كفروا » بواو الجمع ، ومنها يخرجون أيضاً بالجمع ، وقوله بعدها « إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا » وكلها بضمائر الجمع .

أما العدو المراد هنا فقد عم وخص فى وصفه فوصفه أولا بقوله (وقد كفروا بما جاءكم من الحق) وخص بوصفه يخرجون الرسول ، والوصف بالكفر يشمل الجميع ، فيكون ذكرهما معاً للتأكيد

والاهتمام بالخاص ، كقوله تعالى : (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل) ففى ذكر الخاص هنا وهو وصف العدو بإخراج الرسول والمؤمنين للتهييج على من أخرجوهم من ديارهم كقوله :(وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) .

وقد بين تعالى المراد بالذين أخرجوا الرسول والمؤمنين فى عدة مواضع ، منها قوله تعالى :(وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك) أى مكة ، ومنها قوله :(إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار) الآية .

فعليه يكون المراد بعدوى وعدوكم هنا ، خصوص المشركين بمكة .

وقد أجمع المفسرون على أن هذه الآية نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة ، وقصة الرسالة مع الظعينة لأهل مكة قبل الفتح بإخبارهم بتجهز المسلمين إليهم مما يؤيد المراد بالعدو هنا ، ولكن ، وإن كانت بصورة السبب قطعية الدخول إلا أن عموم اللفظ لا يهمل ، فقوله : « عدوى وعدوكم » ، وقوله : « وقد كفروا بما جاءكم من الحق» يشمل كل من كفر بما جاءنا من الحق كاليهود والنصارى والمنافقين ومن تجدد من الطوائف الحديثة .

وقد جاء النص على كل طائفة مستقلة ، ففى سورة المجادلة عن

المنافقين قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم

وتكلم عليها الشيخ رحمة الله تعالى عليه .

وعن اليهود فى سورة الحشر كما تقدم ؛ وعن اليهود والنصارى معاً قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) .

ومن الطوائف المحدثة كل من كفر بما جاءنا من الحق من شيوعية وغيرهم ، وكالهندوكية ، والبوذية وغيرهم ، ومما يتبع هذا العموم ما جاء فى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) .

فكل من هزئ بشئ من الدين أو اتخذه لعباً ولهواً فإنه يخشى عليه من تناول هذه الآية إياه .

تنبيه

ذكر المقابلة هنا بين عدوى وعدوكم أولياء فيه إبراز صورة الحال وتقبيح الفعل ، لأن العداوة تتنافى مع الموالاة والمسارة للعدو بالمودة ، وقد ناقش بعض المفسرين قضية التقديم والتأخير فى تقديم عدوى أولا ، وعطف عدوكم عليه ، فقال الفخر الرازى : التقديم

لأن عداوة العبد لله بدون علة ، وعداوة العبد للعبد لعلة ، وما كان بدون علة فهو مقدم على ما كان بعلة . اهـ .

والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن التقديم لغرض شرعى وبلاغى ، وهو أن عداوة العبد لله هى الأصل ، وهى أشد قبحًا ، فلذا قدمت ، وقبحها فى أنهم عبدوا غير خالقهم ، وشكروا غير رازقهم ، وكذبوا رسل ربهم وآذوهم .

وقد جاء فى الأحاديث القدسية ما يستأنس به فى ذلك فيما رواه البيهقى والحاكم ، عن معاذ والديلمى وابن عساكر عن أبى الدرداء ما نصه : « إنى والجن والإنس فى نبإ عظيم أخلق ويعبد غيرى ، وأرزق ويشكر غيرى » وفيه « خيرى إلى العباد نازل وشرهم إلى صاعد ، أتحبب إليهم بالنعم ويتبغضون إلىّ بالمعاصى » كما أن تقديمه يؤكد بأنه هو السبب فى العداوه بين المؤمنين والكافرين ، وما كان سبباً فحقه التقديم .

ويدل على ما ذكرنا من أنه الأصل ، أن الكفار لو آمنوا بالله وانتفت عداوتهم لله لأصبحوا إخوانا للمؤمنين ، وانتفت العداوة بينهما ، وكذا كونه مغيًا بغاية فى قوله تعالى : (فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله) .

ومثله قوله تعالى فى قوم إبراهيم : (وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) فإذا هاجر المشركون وآمن الكافرون ، انتفت العداوة وجاءت الموالاة .

ومما قدمنا من أن سبب النهى عن موالاة الأعداء ، هو الكفر يعلم أنه إذا وجدت عداوة لا لسبب الكفر فلا ينهى عن تلك الموالاة لتخلف العلة الأساسية ، كما جاء فى قوله تعالى : (إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم) ، ثم قال تعالى : (وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم) .

فلما تخلف السبب الأساسى فى النهى عن موالاة العدو الذى هو الكفر ، جاء الحث على العفو والصفح والغفران ، لأن هذه العداوة لسبب آخر هو ما بينه قوله تعالى :(إنما أموالكم وأولادكم فتنة)، فكان مقتضاها فقط الحذر من أن يفتنوه ، وكان مقتضى الزوجية حسن العشرة ، كما هو معلوم . وسيأتى زيادة إيضاح لهذه المسألة عند هذه الآية ، إن شاء الله تعالى .

وقد نص صراحة على عدم النهى المذكور فى خصوص من لم يعادوهم فى الدين فى قوله تعالى : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم) الآية .

وللموالاة أحكام عامة وخاصة ، وقد بحثها الشيخ رحمة الله تعالى عليه فى عدة مواضع من الأضواء .

منها فى الجزء الثانى عند قوله تعالى : (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) وقد أطال البحث فيها .

ومنها فى الجزء الثالث عرضا ضمن قوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) وبين روابط العالم الإسلامى بتوسع .

ومنها فى الجزء الرابع عند قوله تعالى : (أفتتخذونه وذريته أولياء) الآية .

ومنها فى مخطوط السابع عند قوله تعالى : (وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم) وأحال فيها على آية الممتحنة هذه .

ومنها أيضاً عند قوله تعالى : (ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر) ، وأحال عندها على مواضع متقدمة من سورة شورى وبنى إسرائيل .

ومنها فى سورة المجادلة على قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم) .

وفيما كتبه رحمة الله تعالى عليه ، بيان لكل جوانب أحكام هذه الآية ، غير أنى لم أجده رحمة الله تعالى عليه تعرّض لما فى هذه السورة من خصوص التخصيص للآية بقوله تعالى : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم) الآية .

ولم أسمع منه رحمة الله تعالى عليه فيها شيئاً مع أنها نص

فى تخصيص العموم من هذه الآية ، وسيأتى لها بيان لذلك عندها إن شاء الله .

تنبـــيه

رد أهل السنة بهذه الآية وأمثالها على المعتزلة قولهم : إن المعصية تنافى الإيمان ، لأن الله ناداهم بوصف الإيمان مع قوله : (ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل) فلم يخرجهم بضلالهم عن عموم إيمانهم ، ويشهد لهذا أن الضلال هنا عن سواء السبيل لا مطلق السبيل .

قوله تعالى : ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

يثقفوكم : أى يدركوكم ، وأصل الثقف الحذق فى إدراك الشىء وفعله ، والرمح المثقف المقوم .

قال الراغب : ثم يتجوز به فيستعمل فى الإدراك وإن لم تكن معه ثقافة ، قال تعالى : (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) وقال (وإما تثقفنهم فى الحرب) اهـ .

فهذه نصوص القرآن فى أن الثقافة بمعنى الإدراك ، وقوله تعالى (إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء) الآية ، نص على أن العداوة

ويسط اليد واللسان بالسوء ، يكون بعد أن يثقفوهم مع أن العداء سابق بإخراجهم إياهم من ديارهم ، فيكون هذا من باب التهييج وشدة التحذير ، وأن الذى يكون بعد الشرط هو بسط الأيدى بالسوء لأنهم الآن لا يقدرون عليهم بسبب الهجرة ، ومن أدلة القرآن على وجود العداوة بالفعل لدى عموم من دون المؤمنين فى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر) فقوله : من دونكم يشمل المشركين والمنافقين وأهل الكتاب ، وقوله : (ودوا ما عنتم) أى فى الحاضر ، وقوله : (قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر) لم يتوقف على الشرط المذكور فى إن يثقفوكم ، فهم أعداء وقد بدت منهم البغضاء قولا وفعلا .

وعلى هذا تكون الآية إعلان المقاطعة بين المؤمنين ، ومن دونهم وقوله : وودوا لو تكفرون ، قد بين تعالى سبب ذلك بأنه الحسد ، كما فى قوله تعالى : (ود الذين كفروا من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق) .

وقال تعالى : (فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا ـ إلى قوله ـ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) .

قوله تعالى : ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ .

الأرحام تستعمل فى القرآن لعموم القرابة ، كقوله تعالى : (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) ، وقوله تعالى : (يفصل بينكم) أى بتقطع الأنساب بينهم ، كما بينه تعالى بقوله : (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) .

وقد بين تعالى نتيجة هذا الفصل بينهم يوم القيامة فى قوله تعالى (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) ، وقوله فى موضع آخر : (وصاحبته وأخيه وفصيلته التى تؤويه) ، فعمت جميع الأقارب وبينت سبب الفصل بينهم ، وما يترتب عليه .

وهذه الآية خطاب للمؤمنين فى ذوى أرحامهم من المشركين ، كما فى قصة سبب النزول فى أمر حاطب بن أبى بلتعة فى إرساله الخطاب لأهل مكة قبيل الفتح بأمر التجهز لهم .

ومفهوم الوصف فى أول السياق عدوى وعدوكم ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يدل بمفهوم المخالفة أن أولى الأرحام من المؤمنين قد لا يفصل بينهم يوم القيامة .

ويدل لهذا المفهوم قوله تعالى : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم

بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء) ، وقوله تعالى فى دعاء الملائكة من حملة العرش للمؤمنين : (ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) .

وهذه الآية بيان واضح فى أن روابط الدين أقوى وألزم من روابط النسب .

وهذا المعنى بالذات تقدم للشيخ رحمة الله تعالى عليه ، الكلام عليه عند قوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) والآية الآتية بيان واضح لحقيقة هذا المعنى وشموله فى جميع الأمم .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ الآية .

الأسوة كالقدوة ، وهى اتباع الغير على الحالة التى يكون عليها حسنة أو قبيحه ، ولذا قال تعالى : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) وهنا أيضاً : (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه) .

وقد بين تعالى هذا التأسى المطلوب ، وذلك بقوله : (إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله) الآية .

فالتأسى هنا فى ثلاثة أمور . أولا : التبرؤ منهم ومما يعبدون من دون الله

ثانيا : الكفر بهم .

ثالثاً : إبداء المداوة والبغضاء وإعلانها وإظهارها أبداً إلى الغاية المذكورة حتى يؤمنوا بالله وحده ، وهذا غاية فى القطيعة بينهم وبين قومهم ، وزيادة عليها إبداء المداوة والبغضاء أبداً ، والسبب فى ذلك هو الكفر ، فإذا آمنوا بالله وحده انتفى كل ذلك بينهم .

وهنا سؤال ، هو موضع الأسوة إبراهيم والذين معه بدليل العطف بينهما .

وقوله تعالى : (فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم) فقائل القول لقومهم إبراهيم والذين مع إبراهيم ، وهذا محل التأسى بهم فيما قالوه لقومهم .

وقوله تعالى : (إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك) فهذا القول من إبراهيم ليس موضع التأسى ، وموضع التأسى المطلوب فى إبراهيم عليه السلام هو ما قاله مع قومه المتقدم جملة ، ومافصله تعالى فى موضع آخر فى قوله تعالى : (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين) وهذا التبرؤ جعله باقياً فى عقبه ، كما قال تعالى : (وجعلها كلمة باقية فى عقبه) وقوله تعالى (إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك) الآية . لم يبين هنا سبب هذا الاستثناء وهل هو خاص بإبراهيم لأبيه أم لماذا ؟

وقد بينه تعالى فى موضع آخر فى قوله تعالى : (وما كان

استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم) تلك الموعدة التى كانت له عليه فى بادئ دعوته حينما قال له أبوه : (أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى ملياً ، قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفياً) فكان قد وعده ووفى بعهده ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، فكان محل التأسى فى إبراهيم فى هذا التبرؤ من أبيه ، لما تبين له أنه عدو لله .

وقد جاء ما يدل على أنها قضية عامة وليست خاصة فى إبراهيم عليه السلام كما فى قوله تعالى : (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) وفى هذه الآية وما قبلها أقوى دليل على أن دين الإسلام ليست فيه تبعية أحد لأحد ، بل كل نفس بما كسبت رهينة ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى .

ومن عجب أن يأتى نظير موقف إبراهيم من أبيه مواقف مماثلة فى أمم متعددة ، منها موقف نوح عليه السلام من ابنه لما قال (رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين) فلما تبين له أمره أيضاً من قوله تعالى : (يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) الآية (قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم) الآية . فكان موقف نوح من ولده كموقف إبراهيم من أبيه .

ومنها موقف نوح ولوط من أزواجهما فى قوله تعالى : (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً) الآية .

ومنهـا موقف زوجة فرعون من فرعون فى قوله تعالى : (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتـاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين) فتبرأت الزوجة من زوجها ، وهذا التأسى قد بين تمـام البيان معنى قوله تعالى : (لن تنفعكم أرحامـكم ولا أولادكم) أى ولا آباؤكم ولا أحد من أقربائـكم ، يوم القيامة يفصل بينكم ، وقول إبراهيم لأبيه : (وما أملك لك من الله من شىء) بينه ما قدمنا من أن الإسلام ليس فيه تبعية ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وكل نفس بما كسبت رهينة .

وقوله : (يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تـكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً) ، وقوله : (يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله) .

وقد سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى عليه محاضرة فى (كنو بنيجيريا) فى مجتمع فيه من يتعلق ببعض الأشخاص فى اعتقاداتهم ، فعرض هـذا الموضوع ، وبين عدم استطاعة أحد نفع أحد فـكان لها وقع عظيم الأثر فى النفوس ، ولعل الله ييسر طبعها مع طبع جميع محاضراته فى تلك الرحلة الميمونة .

مسألة

جعل بعض المفسرين هذه الآية دليلا على أن شرع من قبلنا شرع لنا بدليل التأسى بإبراهيم عليه السلام والذين معه ، وتحقيق هذه المسأله فى كتب الأصول ، وهذه الآية وإن كانت دالة فى الجملة على أن شرع من قبلنا شرع لنا ، إلا أنها ليست نصاً فى محل النزاع فى المسأ

وقد قسم الشيخ رحمة الله تعالى عليه ، حكم المسألة إلى ثلاثة أقسام :

قسم هو شرع لنا قطعاً ، وهو ما جاء فى شرعنا أنه شرع لنا كآية الرجم ، وكهذه الآية فى العداوة والموالاة ، وإما ليس بشرع لنا قطعاً كتحريم العمل يوم السبت ، وتحريم بعض الشحوم . إلخ .

وقسم ثالث : وهو محل النزاع ، وهو ما ذكر لنا فى القرآن ، ولم نؤمر به ولم ننه عنه .

فالجمهور على أنه شرع لنا لذكره لنا ، لأنه لو لم يكن شرعاً لنا لما كان لذكره لنا فائدة ، واستدلوا بقوله تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) وبهذه

الآية أيضاً ، والشافعى يعارض فى هذا القسم ويقول : الآية فى العقائد لا فى الفروع ، ويستدل بقوله تعالى : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) وعلى هذا التقسيم المذكور ، فالآية ليست نصاً فى محل النزاع ، لأننا أمرنا بالتأسى به فى معين جاء فى شرعنا الأمر به فى أول السورة .

تنبيه

يظهر لى فى هذه المسألة والله تعالى أعلم : أن الخلاف بين الشافعى والجمهور يكاد يكون شكلياً ، وكل محجوج بما حج به الآخر ، وذلك كالآتى :

أولا : قوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) يدل على وجود شرعة وعلى وجود منهاج ، فإذا جئنا لاستدلال الجمهور (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً) لم نجد فيه ذكر المنهاج ، ونجد واقع التشريع ، أن منهاج ماشرع لنا يغاير منهاج ما شرع لمن قبلنا كما فى مشروعية الصيام قال تعالى (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) وهذا يتفق فى أصل الشرعة ، ولكن جاء ما يبين الاختلاف فى المنهاج فى قوله تعالى : (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) ومعنى ذلك أنه كان محرماً ، وهو ضمن منهاج من قبلنا وشرعتهم فاتفقنا معهم فى الشرعة واختلف منهجنا عن منهجهم بإحلال ما كان منه حراماً ، وهذا ملزم للجمهور ، وهكذا بقية أركان الإسلام فى

الصلاة فهى مشروعة للجميع ، كما فى قوله تعالى :(أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود) ، وقوله : (ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى إليهم) وقوله عن عيسى (وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا) ، وغير ذلك .

وفى الحج (ولله على الناس حج البيت) ، وقوله (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا) الآية ، فجميع الأركان ، وهى فروع لاعقائد مشروعة فى جميع الأديان على جميع الأمم ، فاشتركنا معهم فى المشروعية ، ولكن هل كانت كلها كمنهجها عندنا فى أوقاتها وأعدادها وكيفياتها ، لقد وجدنا المغايرة فى الصوم واضحة ، وهكذا فى غيرها ، فالشرعة عامة للجميع والمنهاج خاص كما يقول الشافعى ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ .

إعادة هذه الآية تأكيد على معنى الآية الأولى .

وقوله : (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) يفسره ما تقدم من قوله :(إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى) ، لأنها تساويها فى المصدق ، وهنا جاء بهذا اللفظ ليدل على العموم ، وتكون قضية عامة فيما بعد لكل من يرجو الله واليوم الآخر ، أن يتأسى بإبراهيم عليه السلام والذين معه فى موقفهم المتقدم .

وقوله تعالى : (ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد) ، التولى هنا الإعراض عن أوامر الله عموما .

وهنا يحتمل تولى الكفار وموالاتهم ، فإن الله غنى عنه حميد .

قال ابن عباس : كمل فى غناه ، ومثله قوله تعالى : (فكفروا وتولوا واستغنى الله) .

وقد جاء بيان استغناء الله عن طاعة الطائعين عموماً وخصوصاً فجاء فى خصوص الحج (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا . ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) .

وجاء فى العموم قوله تعالى : (إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً فإن الله لغنى حميد) ، لأن أعمال العباد لأنفسهم ، كما قال تعالى : (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين) .

وكما فى الحديث القدسى : « لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا » .

وقد بين تعالى غناه المطلق بقوله : (لله مافى السماوات والأرض إن الله هو الغنى الحميد) .

قوله تعالى : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

لم يبين هنـــا هل جعل المودة بالفعل بينهم وبين من عادوهم وأمروا بمقاطعتهم وعدم موالاتهم من ذوى أرحامهم أم لا . ولكن عسى من الله للتأكيد ، والتذييل بقوله تعالى: (والله قدير) يشعر بأنه فاعل ذلك لهم ، وقد جاء مايدل على أنه فعله فعـلا فى سورة النصر حين دخل الناس فى دين الله أفواجا ، وقد فتح الله عليهم مكة وكانوا طلقـاء لرسول الله صلى الله عليه وسـلم ، وكذلك موقف أبى سفيان وغيره ، وعام الوفود إلى المدينة بعد الفتح ، وفى التذييل بأن الله قدير ، يشعر بأن تأليف القلوب ومودتها إنما هو من قدرة الله تعالى وحده ، كما بينـه قوله تعالى : (لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً) الآية .

ولأن المودة المتوقعة بسبب هداية الكفار ، والهداية منحة من الله : إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَـٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَـٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ .

اعتبر بعض المفسرين الآية الأولى رخصة من الآية فى أول السورة ، ولكن فى هاتين الآيتين صنفان من الأعداء وقسمان من المعاملة .

الصنف الأول : عدو لم يقاتلوا المسلمين فى دينهم ولم يخرجوهم من ديارهم . فهؤلاء يقول تعالى فى حقهم : (لاينهاكم الله أن تبروهم وتقسطوا إليهم) .

والصنف الثانى : قاتلوا المسلمين وأخرجوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم ، وهؤلاء يقول تعالى فيهم : إنما ينهاكم الله أن تولوهم إذاً فهما قسمان مختلفان وحكمان متغايران ، وإن كان القسمان لم يخرجا عن عموم عدوى وعدوكم المتقدم فى أول السورة ، وقد اعتبر بعض المفسرين الآية الأولى رخصة بعد النهى المتقدم ، ثم إنها نسخت بآية السيف أو غيرها على ماسيأتى .

واعتبر الآية الثانية تأكيداً للنهى الأول ، وناقش بعض المفسرين دعوى النسخ فى الأولى ، واختلفوا فيمن نزلت ومن المقصود منها ، والواقع أن الآيتين تقسيم لعموم العدو المتقدم فى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) ، مع بيان كل قسم وحكمه ، كما تدل له قرائن فى الآية الأولى ، وقرائن فى هاتين الآيتين على ماسيأتى إن شاء الله تعالى .

أما التقسيم فقسمان : قسم مسالم لم يقاتل المسلمين ولم يخرجهم من ديارهم ، فلم ينه الله المسلمين عن برهم والإقساط إليهم ، وقسم

غير مسالم يقاتل المسلمين ويخرجهم من ديارهم ويظاهر على إخراجهم ، فنهى الله المسلمين عن موالاتهم ، وفرق بين الإذن بالبر والقسط ، وبين النهى عن الموالاة والمودة ، ويشهد لهذا التقسيم ما فى الآية الأولى من قرائن ، وهى عموم الوصف بالكفر ، وخصوص الوصف بإخراج الرسول وإياكم .

ومعلوم أن إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين من ديارهم كان نتيجة لقتالهم وإيذائهم ، فهذا القسم هو المعنى بالنهى عن موالاته لموقفه المعادى لأن المعاداة تنافى الموالاة .

ولذا عقب عليه بقوله تعالى : (ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) فأى ظلم بعد موالاة الفرد لأعداء أمته وأعداء الله ورسوله .

أما القسم العام وهم الذين كفروا بما جاءهم من الحق لكنهم لم يعادوا المسلمين فى دينهم لا بقتال ولا بإخراج ولا بمعاونة غيرهم عليهم ولا ظاهروا على إخراجهم ، فهؤلاء من جانب ليسوا محلا للموالاة لكفرهم ، وليس منهم ما يمنع برهم والإقساط إليهم .

وعلى هذا فإن الآية الثانية ليس فيها جديد بحث بعد البحث المتقدم فى أول السورة ، وبقى البحث فى الآية الأولى ، ومن جانبين : الأول : بيان من المعنى بها ، والثانى: بيان حكمها ، وهل هى محكمة أم نسخت .

وقد اختلفت أقوال المفسرين فى الأمرين ، ولأهمية هذا المبحث وحاجة الأمة إليه فى كل وقت ، وأشد ما تكون فى هذا العصر لقوة تشابك مصالح العالم وعمق تداخلها ، وترابط بعضه ببعض فى جميع المجالات ، وعدم انفكاك دولة عن أخرى مما يزيد من وجوب الاهتمام بهذا الموضوع .

وإنى مستعين الله فى إيراد ماقيل فيها ، ثم مقدم ما يمكن أخذه من مجموع أقوال المفسرين ، وكلام الشيخ رحمة الله عليه .

القول الأول إنها منسوخة ، قال القرطبى عن أبى زيد أنها كانت فى أول الإسلام زمن الموادعة وترك الأمر بالقتال ثم نسخت قيل بآية : (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) ، قاله قتادة .

وقيل : كانت فى أهل الصلح فلما زال زال حكمها وانتهى العمل بها بعد فتح مكة .

وقيل : هى فى أصحاب العهد حتى ينتهى عهدهم أو ينبذ إليهم أى أنها كانت مؤقتة بوقت ومرتبطة بقوم .

وقيل : إنها كانت فى العاجزين عن القتال من النساء والصبيان من المشركين .

وقيل : إنها فى ضعفة المؤمنين عن الهجرة حينما كانت الهجرة واجبة ، فلم يستطيعوا ، وعلى كل هذه الأقوال تكون قد نسخت ، بفوات وقتها وذهاب من عنى بها .

والقول الثانى : إنها محكمة قاله أيضاً القرطبى ونقله عن أكثر أهل التأويل ، ونقل من أدلتهم أنها نزلت فى أم أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما ، جاءت إليها وهى لم تسلم بعد وكان بعد الهجرة ، وجاءت لابنتها بهدايا فأبت أن تقبلها منها وأن تستقبلها حتى تستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن لها وأمرها بصلتها وعزاه للبخارى ومسلم .

وقال غيره : ذكره البخارى فى تاريخه ، وذكر عن الماوردى أن قدومها كان فى وقت الهدنة ، ومعلوم أن وقت الهدنة من القسم الأول الذى قيل : إنه منسوخ أى بانتهائها ، وعليه فالآية دائرة عند المفسرين بين الإحكام والنسخ .

وإذا رجعنا إلى سبب نزول السورة وتقيدنا بصورة السبب ، نجد أولها نزل بعد انتهاء العهد بنقض المشركين إياه ، وعند تهيىء المسلمين لفتح مكة ، ومجىء أم أسماء وإن كان بعد الهدنة فهل كان النساء داخلات فى العهد أم لا ؟ لعدم التصريح بذكرهن .

وعليه فلا دلالة فى قصة أم أسماء على عدم النسخ ولا على إثباته .

وإذا رجعنا إلى عموم اللفظ نجد الآية صريحة شاملة لكل من لم يناصب المسلمين العداء ، ولم يظهر سوءاً إليهم ، وهى فى الكفار أقرب منها فى المسلمين ، لأن الإحسان إلى ضعفة المسلمين معلوم بالضرورة

الشرعية ، وعليه فإن دعوى النسخ تحتاج إلى دليل قوى يقـــاوم صراحة هذا النص الشامل ، وتوفر شروط النسخ المعلومة فى أصول التفسير .

ويؤيد عدم النسخ ما نقله القرطبى عن أكثر أهل التأويل أنها محكمة ، وكذلك كلام الشيخ رحمة الله تعالى عليه عند قوله تعالى : (إلا أن تتقوا منهم تقاة) بأن ذلك رخصة فى حالة الخوف والضعف مع اشتراط سلامة الداخل فى القلب ، فإن مفهومه أنها محكمة وباق العمل بها عند اللزوم ، ومفهومه أن المؤمنين إذا كانوا فى حالة قوة وعدم خوف وفى مأمنٍ منهم ، وليس منهم قتال ، وهم فى غاية من المسالمة فلا مانع من برهم بالعدل والإقساط معهم ، وهذا مما يرفع من شأن الإسلام والمسلمين ، بل وفيه دعوة إلى الإسلام بحسن المعاملة وتأليف القلوب بالإحسان إلى من أحسن إليهم ، وعدم معاداة من لم يعادهم ، ومما يدل لذلك من القرائن التى نوّهنا عنها سابقا ما جاء فى التذييل لهذه الآية بقوله تعالى : (والله يحب المقسطين) فهذا ترشيح لما قدمنا كما قابل هذا بالتذييل على الآية الأخرى : (ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون) ، ففيه مقابلة بين العدل والظلم فالعدل فى الإحسان ، والقسط لمن يسالمك ، والظلم ممن يوالى من بعادى قومه .

ومما ينفى النسخ عدم التعارض بين هذا المعنى ، وبين آية السيف ، لأن شرط النسخ التعارض ، وعدم إمكان الجمع ، ومعرفة التاريخ ،

والجمع هنا ممكن والتعارض منفى ، وذلك لأن الأمر بالقتال لايمنع الإحسان قبله ، كما أن المسلمين ما كانوا ليفاجئوا قوماً بقتال حتى يدعوهم إلى الإسلام ، وهذا من الإحسان قطعا ، ولأنهم قبلوا من أهل الكتاب الجزية ، وعاملوا أهل الذمة بكل إحسان وعدالة .

وقصة الظعينة فى صحيح البخارى صاحبة المزادتين لم يقاتلوها أو يأسروها أو يستبيحوا ماءها بل استاقوها بمائها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ من مزادتيها قليلا ، ودعا فيه ورده ، ثم استقوا وقال لها : اعلمى أن الله هو الذى سقانا ولم ننقض من مزادتيك شيئا ، وأكرموها وأحسنوا إليها وجمعوا لها طعاماً ، وأرسلوها فى سبيلها فكانت تذكر ذلك ، وتدعو قومها للإسلام .

وقصة ثمامة لما جيء به أسيرا وربط فى سارية المسجد ، وبعد أن أصبح عاجزاً عن القتال لم يمنعهم من الإحسان إليه ، فكان يراح عليه كل يوم بحليب سبع نياق حتى فك أسره فأسلم طواعية ، وهكذا نص قوله تعالى : (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا إنما نطعمكم لوجه الله) الآية .

ومعلوم أنه لم يكن ثم أسير بيد المسلمين إلا من الكفار .

وفى سنة تسع وهى سنة الوفود ، فكان يقدم إلى المدينة المسلمون وغير المسلمين ، فيتلقون الجميع بالبر والإحسان كوفد نجران وغيرهم وها هوذا وفد تميم جاء يفاخر ويفاوض فى أسارى له ، فيأذن لهم صلى الله

عليه وسلم ، ويستمع مفاخرتهم ويأمر من يرد عليهم من المسلمين ، وفى النهاية يسلمون ويجيزهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالجوائز ، وهذا أقوى دليل على عدم النسخ ، لأن وفداً يأتى متحديا مفاخراً لكنه لم يقاتل ولم يظاهر على إخراجهم من ديارهم ، وجاء فى أمر جار فى عرف العرب فجاراهم فيه صلى الله عليه وسلم بعد أن أعلن لهم أنه ما بالمفاخرة بُعث ، ولكن ترفقاً بهم ، وإحسانا إليهم ، وتأليفا لقلوبهم ، وقد كان فأسلموا ، وهـذا ماتعطيه جميع الأقوال التى قدمناها .

وقد بحث إمام المفسرين الطبرى هـذه المسألة من نواحى النقل وأخيرا ختم بحثه بقوله ما نصه : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب ، قول من قال عنى بذلك قوله تعالى : (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين) من جميع أصناف الملـل والأديان أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم إن الله عز وجل عم بقوله : (الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم) جميع من كان ذلك صفته فلم يخصص به بعضاً دون بعض ، ولا معنى لقول من قال : ذلك منسوخ ، لأن بر المؤمنين من أهـل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب أو ممن لاقرابة بينه ولانسب غير محرم ولامنهى عنه ، إذا لم يكن فى ذلك دلالة له أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام ، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح .

وقد بينا صحة ماقلنا فى ذلك الخبر الذى ذكرناه عن الزبير فى قصة أسماء وأمها .

وقوله : (إن الله يحب المقسطين) ، يقول إن الله يحب المنصفين الذين ينصفون الناس ويعطونهم الحق والعدل من أنفسهم ، فيبرون من برهم ، ويحسنون إلى من أحسن إليهم . انتهى منه

وفى تفسير آيات الأحكام للشافعى رحمه الله مبحث هام نسوقه أيضا بنصه لأهميته :

قال الله عز وجل : (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين) الآية . قال : يقال : والله أعلم إن بعض المسلمين تأثر من صلة المشركين أحسب ذلك لما نزل فرض جهادهم وقطع الولاية بينهم وبينهم ونزل (لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حاد الله ورسوله) الآية ، فلما خافوا أن تكون المودة الصلة بالمال أنزل (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) ، وقال الشافعى رحمه الله : وكانت الصلة بالمال والبر والإقساط ولين الكلام والمراسلة بحكم الله غير مانهوا عنه من الولاية لمن نهوا عن ولايته مع المظاهرة على المسلمين ، وذلك لأنه أباح بر من لم يظاهر عليهم

من المشركين والإقساط إليهم ولم يحرم ذلك إلى من لم يظاهر عليهم بل ذكر الذين ظاهروا عليهم فنهاهم عن ولايتهم إذ كان الولاية غير البر والإقساط ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم فادى بعض أسارى بدر ، وقد كان أبو عزة الجمحى ممن منّ عليه ، وقد كان معروفا بعداوته والتأليب عليه بنفسه ولسانه ، ومنّ بعد بدر على ثمامة بن أثال ، وكان معروفا بعداوته ، وأمر بقتله ثم منّ عليه بعد أسره وأسلم ثمامة وحبس الميرة عن أهل مكة فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأذن له أن يميرهم فأذن له فمارهم .

وقال الله عز وجل : (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا) والأسرى يكونون ممن حاد الله ورسوله ا هـ منه .

وهذا الذى صوّبه ابن جرير وصححه الشافعى رحمه الله الذى تقتضيه روح التشريع الإسلامى ، أما وجهة النظر التى وعدنا بتقديمها فهى أن المسلمين اليوم مشتركة مصالحهم بعضهم ببعض ومرتبطة بمجموع دول العالم من مشركين وأهل كتاب ، ولا يمكن لأمة اليوم أن تعيش منعزلة عن المجموعة الدولية لتداخل المصالح وتشابكها ، ولاسيما فى المجال الاقتصادى عصب الحياة اليوم من إنتاج أو تصنيع أو تسويق ، فعلى هذا تكون الآية مساعدة على جواز التعامل مع أولئك المسالمين ومبادلتهم مصلحة بمصلحة على أساس ماقاله ابن جرير وبينه الشافعى ، وذكره الشيخ رحمة الله تعالى عليه فى حقيقة موقف

المسلمين اليوم من الحضارة الغربية فى عدة مناسبات من محاضراته ومن الأضواء نفسه ، وبشرط ما قاله الشيخ رحمة الله تعالى عليه من سلامة الداخل أى عدم الميل بالقلب ، ولو قيل بشرط آخر وهو مع عدم وجود تلك المصلحة عند المسلمين أنفسهم ، أى أن العالم الإسلامى يتعاون أولا مع بعضه ، فإذا أعوزه أو بعض دوله حاجة عند غير المسلمين ممن لم يقاتلوهم ولم يظاهروا عدوا على قتالهم فلا مانع من التعاون مع تلك الدولة فى ذلك ، ومما يؤيد كل ماتقدم عمليا معاملة النبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده لليهود فى خيبر .

فما لاشك فيه أنهم داخلون أولا فى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخـذوا عدوى وعدوكم أوليـــاء) . ومنصوص على عدم موالاتهم فى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لاتتخـذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لايهدى القوم الظالمين) .

ومع ذلك لما أخرجهم صلى الله عليه وسلم من المدينة وحاصرهم بعدها فى خيبر وفتحها الله عليه وأصبحوا فى قبضة يده فلم يكونوا بعد ذلك فى موقف المقاتلين ، ولا مظاهرين على إخراج المسلمين من ديارهم ، عاملهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالقسط فعاملهم على أرض خيبر ونخيلها وأبقاهم فيها على جزء من الثمرة كأجراء يعملون لحسابه وحساب المسلمين ، فلم يتخذهم عبيداً يسخرهم فيها ، وبقيت

معاملتهم بالقسط كما جاء فى قصة ابن رواحة رضى الله عنه لما ذهب يخرص عليهم وعرضوا عليه ماعرضوا من الرشوة ليخفف عنهم ، فقال لهم كلمته المشهورة :

والله لأنتم أبغض الخلق إلىّ وجئتكم من عند أحب الخلق إلىّ ، ولن يحملنى بغضى لكم ، ولا حبى له أن أحيف عليكم ، فإما أن تأخذوا بنصف ماقدرت ، وإما أن تكفوا أيديكم ولكم نصف ماقدرت ، فقالوا له : بهذا قامت السماوات والأرض أى بالعدالة والقسط ، وقد بقوا على ذلك نهاية زمنه صلى الله عليه وسلم وخلافة الصديق وصدراً من خلافة عمر حتى أجلاهم عنها .

ومثل ذلك المؤلفة قلوبهم أعطاهم صلى الله عليه وسلم بعد الفتح وأعطاهم الصديق حتى منعهم عمر رضى الله عنه .

وقد أطلنا الكلام فى هذه المسألة لأهميتها ومسيس الحاجة إليها اليوم .

وفى الختام إن أشد مايظهر وضوحا فى هذا المقام ولم يدّع أحد فيه نسخا قوله تعالى : وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً) .

فهذه حسن معاملة وبر وإحسان لمن جاهد المسلم على أن يشرك بالله ولم يقاتل المسلمين ، فكان حق الأبوة مقدما ولو مع الكفر والمجاهدة على الشرك .

وكذلك أيضاً فى نهاية هذه السورة نفسها قوله تعالى : (فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لاهن حل لهم ولاهم يحلون لهن) .

ثم قال تعالى : (وآتوهم ما أنفقوا) أى آتوا المشركين أزواج المؤمنات المهاجرات ما أنفقوا على أزواجهم بعد هجرتهن . فبعد أن أسلمت الزوجة وهاجرت وانحلت العصمة بينها وبين زوجها الكافر ، وبعدت عنه بالهجرة وفاتت عليه ولم يقدر عليها ، يأمر الله المسلمين أن يؤتوا أزواجهن وهم مشركون ما أنفقوا من صداق عند الزواج ونحوه مع بقاء الأزواج على الكفر وعجزهم عن استرجاع الزوجات وعدم جواز موالاتهم قطعاً لكفرهم ، وهذا من المعاملة بالقسط والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

فى قوله تعالى : (إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن) نص على امتحان المؤمنات المهاجرات ، وكان صلى الله عليه وسلم يمتحنهن : ماخرجت كرهاً لزوج أو فرارا لسبب ونحو ذلك . ذكره ابن كثير وغيره .

وقيل : كان امتحانهن بالبيعة الآتية : ألا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن الآية ، ومفهومه أن الرجال المهاجرون لايمتحنون .

وفعلا لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يمتحن من هاجر إليه والسبب فى امتحانهن دون الرجال ، هو ما أشارت إليه هذه الآية فى قوله تعالى : (فإن علمتموهن مؤمنات) ، كأن الهجـــرة وحدها لاتكفى فى حقهن بخلاف الرجال ، فقد شهد الله لهم بصـدق إيمانهم بالهجرة فى قـــوله (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضـلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون) ، وذلك أن الرجل إذا خرج مهاجراً يعلم أن عليه تبعة الجهاد والنصرة فلا يهاجر إلا وهو صادق الإيمان فلايحتاج إلى امتحان ، ولايرد عليه مهاجر أم قيس لانه أمر جانبى ، ولايمنع من المهمة الأساسية للهجرة المنوه عنه فى أول هذه السورة (إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى) الآية ، بخلاف النساء فليس عليهن جهاد ولايلزمهن بالهجرة أية تبعية ، فأى سبب يواجههن فى حياتهن سواء كان بسبب الزوج أو غيره ، فإنهن يخرجن باسم الهجرة . فكان ذلك موجباً للتوثق من هجرتهن بامتحانهن ليعلم إيمانهن ، ويرشح لهـذا

المعنى قوله تعالى هنا : (الله أعلم بإيمانهن) ، وفى حق الرجال (أولئك هم الصادقون) ، وكذلك من جانب آخر ، وهو أن هجرة المؤمنات يتعلق عليها حق مع طرف آخر ، وهو الزوج فيفسخ نكاحها منه ، ويعوض هو عما أنفق عليها ، وإسقاط حقه فى النكاح وإيجاب حقه فى العوض قضايا حقوقية ، تتطلب إثباتا بخلاف هجرة الرجال . والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى (فإن علمتموهن مؤمنات فلاترجعوهن إلى الكفار) معلوم أن المؤمنات المهاجرات بعد الامتحان والعلم بأنهن مؤمنات لاينبغى إرجاعهن إلى الكفار ، لأنهم يؤذونهن إن رجعن إليهم ، فلأى شىء يأت النص عليه ؟ .

قال كثير من المفسرين : إن هذه الآية مخصصة لما جاء فى معاهدة صلح الحديبية ، والتى كان فيها من جاء من الكفار مسلما إلى المسلمين ردوه على المشركين ، ومن جاء من المسلمين كافرا للمشركين لايردونه على المسلمين فأخرجت النساء من المعاهدة وأبقت الرجال من باب تخصيص العموم وتخصيص السنة بالقرآن ، وتخصيص القرآن بالسنة معلوم ، وقد بينه الشيخ رحمة الله تعالى عليه فى مذكرة الأصول ، وذكر القاعدة من مراقى السعود بقوله :

وخصص الكتاب والحديث به أو بالحديث مطلقا فلتنتبه

ومما ذكره لأمثلة تخصيص السنة بالكتاب قوله صلى الله عليه

وسلم : « ما أبين من حيّ فهو ميت » ، أى محرم ، جاء تخصيص هذا العموم بقوله تعالى (ومن أصوافها وأوبارها) أى ليس محرما .

ومن أمثلة تخصيص الكتاب بالسنة قوله تعالى : (حرمت عليكم الميتة والدم) جاء تخصيص هذا العموم بقوله صلى الله عليه وسلم : « أحلت لنا ميتتان ودمان ، أما الميتتان : فالجراد والحوت » الحديث قال القرطبى : جاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب والنبى صلى الله عليه وسلم بالحديبية بعد ، فأقبل زوجها وكان كافراً ، فقال : يامحمد اردد على امرأتى فإنك شرطت ذلك ، وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد ، فأنزل الله هذه الآية ، وقال بعض المفسرين : إنها ليست مخصصة للمعاهدة ، لأن النساء لم يدخلن فيها ابتداء ، وإنما كانت فى حق الرجال فقط .

وذكر القرطبى وابن كثير أن أم كلثوم بنت عقبة ابن أبى معيط جاءت فارّة من زوجها عمرو بن العاص ومعها أخواها عمارة والوليد ، فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم أخويها وحبسها ، فقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : ردها علينا للشرط ، فقال صلى الله عليه وسلم « كان الشرط فى الرجال لا فى النساء » ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، والذى يظهر والله تعالى أعلم أنها مخصصة لمعاهدة الهدنة ، وهى من أحسن الأمثلة لتخصيص السنة بالقرآن ، كما قاله ابن كثير .

وقد روى أنها مخصصة عن عروة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد والزهرى ومقاتل بن حيان والسدى .

ويدل على أنها مخصصة أمران مذكوران فى الآية .

الأول منهما : أنها أحدثت حكما جديداً فى حقهن وهو عدم الحلية بينهن وبين أزواجهن ، فلا محل لإرجاعهن ، ولا يمكن تنفيذ معاهدة الهدنة مع هذا الحكم فخرجن منها وبقى الرجال .

والثانى منهما : أنها جعلت للأزواج حق المعاوضة على ما أنفقوا عليهن ، ولو لم يكن داخلات أولا لما كان طلب المعاوضة ملزما ، ولكنه صار ملزما ، وموجب إلزامه أنهم كانوا يملكون منعهن من الخروج بمقتضى المعاهدة المذكورة ، فإذا خرجن بغير إذن الأزواج كنّ كمن نقض العهد فلزمهن العوض المذكور . والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى : (فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن) ، فيها تحريم المؤمنات على الكافرين ، والظاهر أن التحريم بالهجرة لا بالإسلام قبلها ، واتفق الجمهور على أنه إذا أسلم وهاجر أحد الزوجين بقيت العصمة إلى نهاية العدة ، فإن هاجر الطرف الآخر فيها ، فهما على نكاحهما الأول .

وهنا مبحث زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زوجها أبى العاص بن الربيع .

وقد كثر الخلاف فى أمر ردها إليه هل كان بالعقد الأول ، أو جدّد لها صلى الله عليه وسلم عقداً جديداً ، ومن أسباب كثرة الخلاف الربط بين تاريخ إسلامها وتاريخ إسلامه ، وبينهما ست سنوات وهذا

خطأ ، لأن قبل نزول الآية لم يقع تحريم بين مسلمة وكافر ، ونزولها بعد الحديبية وإسلامها كان سنة ثمان ، فيحمل على عدم انقضاء عدتها ، وهذا يوافق ما عليه الجمهور ، ونقل ابن كثير قولا ، وهو أن المسلمة كانت بالخيار إن شاءت فسخت نكاحها وتزوجت بعد انقضاء عدتها ، وإن شاءت انتظرت اهـ .

وهذا القول له وجه ، لأنه بإسلامها لم يكن كفأً لها وإذا انتفت الكفاءة أعطيت الزوجة الخيار ، كقصة بريرة لما عتقت وكان زوجها مملوكا ، ولا يرده قوله تعالى : (لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن) لأن ذلك فى حالة كفر الزوج لقوله تعالى : (فلا ترجعوهن إلى الكفار) والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى : (وآتوهم ما أنفقوا) يدل على أن الفرقة إذا جاءت بسبب من جهة الزوجة أن عليها رد ما أنفق الزوج عليها ، وكونه الصداق أو أكثر قد بحثه الشيخ رحمة الله تعالى عليه فى مبحث الخلع فى سورة البقرة .

وقوله تعالى : (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) ، أمر المؤمنين بفك عصمة زوجاتهم الكوافر ، فطلق عمر بن الخطاب يومئذ زوجتين ، وطلق طلحة بن عبيد الله زوجته أروى بنت ربيعة ، وعصم الكوافر عام فى كل كافرة ، فيشمل الكتابيات لكفرهن باعتقاد الولد لله ، كما حققه الشيخ رحمة الله تعالى عليه ، ولكن هذا العموم قد خصص

بإباحة الكتابيات فى قوله تعالى : (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب) أى الحرائر ، وبقيت الحرمة بين المسلم والمشركة بالعقد على التأبيد .

ومفهوم العصمة لا يمنع الإمساك بملك اليمين ، فيحل للمسلم الاستمتاع بالمشركة بملك اليمين ، وعليه تكون حرمة المسلمة على الكافر مطلقا مشركا كان أو كتابيا على التأبيد لقوله تعالى : (لا هن حل لهم) أى فى الحاضر ، (ولا هم يحلون لهن) أى فى المستقبل ، وقد فصل الشيخ رحمة الله تعالى عليه مسألة المحرمات من النكاح فيما تقدم عند قوله تعالى : (فمن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات) الآية .

تنبيـــه

هنا سؤال ، وهو : إذا كان الكفر هو سبب فك عصمة الكافرة من المسلم ، وتحريم المسلمة على الكافر ، فلماذا حلت الكافرة من أهل الكتاب للمسلم ، ولم تحل المسلمة للكافر من أهل الكتاب ؟ والجواب من جانبين : الأول : أن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه والقوامة فى الزواج للزوج قطعا لجانب الرجولة ، وإن تعادلا فى الحلية بالعقد ، لأن التعادل لا يلغى الفوارق كما فى ملك اليمين ، فإذا امتلك رجل امرأة حلّ له أن يستمتع منها بملك اليمين ، والمرأة إذا امتلكت عبدا لا يحل لها أن تستمتع منه بملك اليمين، ولقوامة الرجل على المرأة وعلى أولادها وهو كافر لا يسلم لها دينها ، ولا لأولادها ، والجانب الثانى شمول الإسلام وقصور غيره ، وينبنى عليه أمر اجتماعى له مساس بكيان الأسرة

وحسن العشرة ، وذلك أن المسلم إذا تزوج كتابية ، فهو يؤمن بكتابها وبرسولها ، فسيكون معها على مبدأ من يحترم دينها لإيمانه به فى الجملة ، فسيكون هناك مجال للتفاهم ، وقد يحصل التوصل إلى إسلامها بموجب كتابها ، أما الكتابى إذا تزوج مسلمة ، فهو لا يؤمن بدينها ، فلا تجد منه احتراماً لمبدئها ودينها ، ولا مجال للمفاهمة معه فى أمر لا يؤمن به كلية ، وبالتالى فلا مجال للتفاهم ولا للوئام ، وإذا فلا جدوى من هذا الزواج بالكلية ، فمنع منه ابتداء .

وقوله تعالى : (ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن) يعنى صداقهن .

ويدل بمفهومه أن النكاح بدون الأجور فيه جناح ، وقد جاء النص بهذا المفهوم فى قوله تعالى (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين) ، فهبة المرأة نفسها بدون صداق خاص به صلى الله عليه وسلم ، فقوله تعالى (خالصة لك من دون المؤمنين) لا يحله لغيره صلى الله عليه وسلم ، وقوله (إذا آتيتموهن أجورهن) ظاهر فى أن النكاح لا يصح إلا بإتيان الأجور .

وقد جاء ما يدل على صحة العقد بدون إتيان الصداق كما فى قوله تعالى (لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن) الآية .

وقد ذكر الفقهاء حكم المفوّضة ، أنه إن دخل بها فلها صداق المثل ، ويدل لإطلاق الأجور على الصداق قوله تعالى فى نكاح الإماء لمن لم يستطع طولا للحرائر (فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) إلى قوله (فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن) وفى نكاح أهل الكتاب (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين) الآية ، وقوله تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم : (إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن) وبهذا كله يرد على من استدل بلفظ الأجور على نكاح المتعة فى قوله تعالى : (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن) وتقدم مبحث المتعة موجزاً للشيخ رحمة الله تعالى عليه ، عند قوله تعالى : (فما استمتعتم به منهن) .

قال تعالى ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ .

القيد بالمعروف هنا للبيان ولا مفهوم له ، لأن كل ما يأمر به صلى الله عليه وسلم معروف ، وفيه حياتهن ، وقد بينه الشيخ رحمة الله تعالى عليه ، عند قوله تعالى : (إذا دعاكم لما يحييكم) فى دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، وتقدم الكلام عليه عند قوله تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه) ولكن فيه تنبيه على أن من كان فى موضع الأمر من بعده لا طاعة له إلا فى المعروف والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾.

يرى المفسرون أن هذه الآية فى ختام هذه السورة كالآية الأولى فى أولها ، وهذا ما يسمى عوداً على بدء .

قال أبو حيان : لما افتتح هذه السورة بالنهى عن اتخاذ الكفار أولياء ختمها بمثل ذلك تأكيداً لترك موالاتهم وتنفيراً للمسلمين عن توليهم وإلقاء المودة إليهم .

وقال ابن كثير : ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين فى آخر هذه السورة ، كما نهى عنها فى أولها ، والذى يظهر لى والله تعالى أعلم : أنها لم تكن لمجرد التأكيد للنهى المتقدم ، ولكنها تتضمن معنى جديداً ، وذلك للآتى .

أولا : أنها نص فى قوم غضب الله عليهم ، وعلى أنها للتأكيد حملها البعض على العموم ، لأن كل كافر مغضوب عليه ، وحملها البعض على خصوص اليهود ، لأنه وصف صار عرفا لهم ، وهو قول الحسن وابن زيد . قاله أبو حيان ، ومما تقدم للشيخ رحمة الله تعالى عليه فى مقدمة الأضواء : أنه إذا اختلف فى تفسير آية ، وكان أكثر استعمال القرآن لأحد المعنيين كان مرجحاً له على الآخر ، وهو محقق هنا ، كما قال الحسن ، أصبح عرفا عليهم ، وقد خصهم تعالى فى

قوله : (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير) وقوله فيهم : (فباءوا بغضب على غضب) وقد فرق الله بينهم وبين النصارى فى قوله تعالى (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) ، ولو قيل : إنها فى اليهود وفى المنافقين ، لما كان بعيداً لأنه تعالى نص على غضبه على المنافقين فى هذا الخصوص فى سورة المجادلة فى قوله تعالى (ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ماهم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) وعلى هذا فتكون خاصة فى اليهود والمنافقين والغرض من تخصيصها بهما وعودة ذكرهما بعد العموم المتقدم فى عدوى وعدوكم ، كما أسلفنا هو والله تعالى أعلم : لما نهى أولا عن موالاة الأعداء وأمر بتقطيع الأواصر بين ذوى الأرحام ، جاء بعدها ما يشيع الأمل بقوله : (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة) وعاديتم عامة باقية على عمومها . ولكن اليهود والمنافقين لم يدخلوا فى مدلول عسى تلك ، فنبه تعالى عليهم بخصوصهم لئلا يطمع المؤمنون أو ينتظروا شيئاً من ذلك ، فأيأسهم من موالاتهم ومودتهم ، كيأس اليهود والمنافقين من الآخرة ، أى بعدم الإيمان الذى هو رابطة الرجاء المتقدم فى عسى ، وفعلا كان كما أخبر الله ، فقد جعل المودة من بعض المشركين ولم يجعلها من بعض المنافقين ولا اليهود ، فهى إذا مؤسسة لمعنى جديد ، وليست مؤكدة لما تقدم ، والعلم عند الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الصف

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَالَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَنَ تَقُولُوا مَالَا تَفْعَلُونَ . إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ .

فى الآية الأولى إنكار على الذين يقولون ما لا يفعلون ، وفى الآية الثانية بيان شدة غضب الله ومقته على من يكون كذلك ، ولكن لم يبين هنا القول المغاير للفعل المنهى عنه ، والمعاتبون عليه والمستوجب لشدة الغضب إلا أن مجىء الآية الثالثة بعدها يشعر بموضوع القول والفعل ، وهو الجهاد فى سبيل الله .

وقد اتفقت كلمة علماء التفسير على أن سبب النزول مع تعدده عندهم : أنه حول الجهاد فى سبيل الله من رغبة فى الإذن لهم فى الجهاد ومعرفة أحب الأعمال إلى الله ، ونحو ذلك .

وقد بيَّن القرآن فى عدة مواضع أن موضوع الآيتين الأولى والثانية فيما يتعلق بالجهاد وتمنيهم إياه .

من ذلك قوله تعالى عنهم : (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت

سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت) .

ومنها قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب) .

ومنها قوله تعالى : (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا) .

فى الآية الأولى تمنوا نزول سورة يؤذن فيها بالقتال ، فلما نزلت صار مرضى القلوب كالمغشى عليه من الموت .

وفى الثانية : قيل لهم كفوا أيديكم عن القتال ، فتمنوا الإذن لهم فيه ، فلما كتب عليهم رجعوا وتمنوا لو أخروا إلى أجل قريب .

وفى الثالثة : أعطوا العهود على الثبات وعدم التولى ، وكان عهد الله مسئولا ، فلما كان فى أحد وقع ماوقع وكذلك فى حنين ، ويشهد لهذا أيضا قوله تعالى : (وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لامقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فراراً ، ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا ، ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولون الأدبار) الآية .

فنى هذا السياق بيان لعقابهم على نقض العهد ، وهو معنى : لم تقولوا ما لاتفعلون سواء بسواء ، ويقابل هـذا أن الله تعالى امتدح طائفة أخرى منهم حين أوفوا بالعهد وصدقوا ما عاهدوا الله عليه فى قوله تعالى : (من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) .

ثم بيّن الفرق بين الفريقين بقوله بعدها (ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا) الآية ، وذلك فى غزوة الأحزاب .

فتبين بهذا أن الفعل المغاير للقول هنا هو عدم الوفاء بالعهـد الذى قطعوه على أنفسهم من قبل فاستوجبوا العتاب عليه ، كما تبين أن الذين وفوا بالعهد استوجبوا الثناء على الوفاء ، وقد استدل بالآية من عموم لفظها على الإنـكار على كل من خالف قوله فعله ، سواء فى عهد أو وعد أو أمر أو نهى .

فنى الأمر والنهى كقوله تعالى : (أتأمرون النـاس بالبر وتنسون أنفسكم) .

وكقوله عن نبى الله شعيب لقومه : (وما أريد أن أخالفـكم إلى ما أنهاكم عنه) .

وفى العهد قوله : (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا) .

ومن هذا الوجه ، فقد بحثها الشيخ رحمة الله تعالى عليه فى عدة مواضع ، منها فى سورة هود عند قول شعيب المذكور .

ومنها عند قوله تعالى : (واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد) فى سورة مريم .

وبحث فيها الوفاء بالوعد ، والفرق بين الوعد والوعيد ، والوفاء بالوعد والخلف فى الوعيد ، وعقد لها مسألة ، وساق آيتى الصف هناك.

قوله تعالى : (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) .

اختلف علماء التفسير فى المراد بالبنيان المرصوص ، فنقل بعضهم عن الفراء : أنه المتلاحم بالرصاص لشدة قوته ، والجمهور : أنه المتلاصق المتراص المتساوى .

والواقع أن المراد بالتشبيه هنا هو وجه الشبه ، ولا يصح أن يكون هنا هو شكل البناء لا فى تلاحمه بالرصاص ، وعدم انفكاكه ولا تساويه وتراصه ، لأن ذلك يتنافى وطبيعة الكر والفر فى أرض المعركة ، ولكل وقعة نظامها حسب موقعها .

والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن وجه الشبه المراد هنا هو عموم القوة والوحدة .

قال الزمخشرى : يجوز أن يريد استواء بنائهم فى الثبات

حتى يكونوا فى اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص . اهـ .

ويدل لهذا الآتى .

أولا قوله تعالى : (وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم) .

فالمقاعد هنا هى المواقع للجماعات من الجيش ، وهى التعبئة حسب ظروف الموقعة ، كما فعل صلى الله عليه وسلم فى وضع الرماة فى غزوة أحد حماية لظهورهم من التفاف العدو بهم لطبيعة المكان ، وكما فعل فى غزوة بدر ورصهم وسواهم بقضيب فى يده أيضاً لطبيعة المكان .

وهكذا ، فلابد فى كل وقعة من مراعاة موقعها ، بل وظروف السلاح والمقاتلة .

وقد ذكر صاحب الجمان فى تشبيهات القرآن أجزاء الجيش وتقسيماته بصفة عامة من قلب وميمنة وميسرة وأجنحة ، ونحو ذلك فيكون وجه الشبه هو الارتباط المعنوى والشعور بالمسئولية والإحساس بالواجب كما فعل الحباب بن المنذر فى غزوة بدر حين نظر إلى منزل المسلمين من الموقع فلم يرقه ، وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجابه فأبدى خطة جديدة فأخذ بها صلى الله عليه وسلم وغيّر الموقع من مكان المعركة .

وثانيا قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين) .

فذكر تعالى من عوامل النصر : الثبات عند اللقاء ، وذكر الله والطاعة ، والامتثال ، والحفاظ عليها بعدم التنازع والصبر عند الحملة والمجالدة ، فتكون حملة رجل واحد ، وكلها داخلة تحت معنى البنيان المرصوص فى قوته وحمايته وثباته ، وقد عاب تعالى على اليهود تشتت قلوبهم عند القتال فى قوله تعالى : (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى) ، وامتدح المؤمنين فى قتالهم بوحدتهم كأنهم بنيان مرصوص .

وقد جاءت السنة بهذا التشبيه للتعاون فى قوله صلى الله عليه وسلم : « المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

فهو يبين المراد من وجه الشبه فى البنيان المرصوص هنا ، وقد أثر عن أبى موسى رضى الله عنه قوله لأصحابه : الزموا الطاعة فإنها حصن المحارب .

وعن أكثم بن صيفى : أقلوا الخلاف على أمرائكم ، وإن المسلمين اليوم لأحوج ما يكونون إلى الالتزام بهذا التوجيه القرآنى الكريم ، إزاء قضيتهم العامة مع عدوهم المشترك ، ولاسيما ، وقد مرَّ العالم الإسلامى بعدة تجارب فى تاريخهم الطويل كان لهم منها أوضح العبر ، ولهم فى هذا المنهج القرآنى أكبر موجب لاسترجاع حقوقهم والحفاظ على كيانهم ، فضلا عن أنه العمل الذى يحبه الله من عباده ، وبالله تعالى التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

قول موسى عليه السلام : لم تؤذوننى ؟ لم يبين نوع هذا الإيذاء وقد جاء مثل هذا الإجمال فى قوله تعـــالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا) .

وأحال عليه ابن كثير فى تفسيره ، وساق حديث البخارى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إن موسى عليه السلام كان حييا ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل ، فقالوا : ما يتستر هذا التستر إلا من عيب فى جلده ، إما برص وإما أدرة وإما آفة ، وأن الله عز وجل أراد أن يبرئه مما قالوا فخلا يوماً وحده فخلع ثيابه على حجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وأن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبى حجر حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله عز وجل وبرأه مما يقولون إلى آخر القصة .

ونقله غيره من المفسرين عندها ، وعلى هذا يكون إيذاؤهم إياه إيذاء شخصياً بادعاء العيب فيـه خلقة ، وهذا وإن صـح فى آية الأحزاب لقوله تعالى : (فبرأه الله مما قالوا) ، فإنه لا يصح فى آية الصف هذه

لأن قول لهم : (وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم) مما يثير إلى أن الإيذاء فى جانب الرسالة لا فى جانبه الشخصى ، ويرشح له قوله تعالى بعده مباشرة : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) .

أى فلما زاغوا بما آذوا به موسى ، فيكون إيذاء قومه له هنا إيذاء زيغ وضلال ، وقد آذوه كثيراً فى ذلك كما بينه تعالى فى قوله عنهم : (وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) .

وكذلك قوله تعالى : (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم قل بئس ما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين) .

فهاهم يؤخذ الميثاق عليهم ويرفع فوقهم الطور ، ويقال لهم : (خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا) فنكله يساوى قوله : (وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم) ، لأن قد هنا للتحقيق ، ومع ذلك يؤذونه بقولهم : (سمعنا وعصينا) ويؤذونه بأن أشربوا فى قلوبهم حب العجل وعبادته بكفرهم ، ولذا قال لهم : (بئس ما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين) .

وقد جمع إيذاء الكفار لرسول الله مع إيذاء قوم موسى لموسى فى قوله تعالى : (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم) الآية .

ومن مجموع هذا يتبين أن الإيذاء المنصوص عليه هنا هو فى خصوص الرسالة ، ولا مانع من أنهم آذوه بأنواع من الإيذاء فى شخصه ، وفى ما جاء به فبرأه الله مما قالوا فى آية الأحزاب وعاقبهم على إيذائه فيما أرسل به إليهم بزيغ قلوبهم ، والعلم عند الله تعالى .

وقوله : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) ، تقدم كلام الشيخ رحمة الله تعالى عليه على هذا المعنى فى سورة الروم ، عند الكلام على قوله تعالى : (ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله) الآية .

وقال : إن الكفر والتكذيب قد يؤدى شؤمه إلى شقاء صاحبه ، وساق هذه الآية (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) .

وقوله : (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا) .

وأحال على سورة بنى إسرائيل على قوله : (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً) .

وعلى سورة الأعراف على قوله : (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين) .

ومما يشهد لهذا المعنى العام بقياس العكس قوله تعالى : (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) وأمثالها .

ومما يلفت النظر هنا إسناد الزيغ للقلوب فى قوله تعالى : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم)

وأن والهداية أيضاً للقلب كما فى قوله تعالى : (ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شىء عليم) .

ولذا حرص المؤمنين على هـذا الدعاء : (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا) فتضمن المعنيين ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ .

ذكر موسى ولم يذكر معه البشرى بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وذكر عيسى فذكرها معه ، مما يدل بمفهومه أنه لم يبشر به إلا عيسى عليه السلام ، ولكن لفظ عيسى مفهوم لقب ولا عمل عليه عند الأصوليين ، وقد بشرت به صلى الله عليه وسلم جميع الأنبياء ، ومنهم موسى عليه السلام ومما يشير إلى أن موسى مبشراً به قول عيسى عليه السلام فى هذه الآية : مصدقاً لما بين يدى ، والذى بين يديه هى التوراة أنزلت على موسى .

وقد جاء صريحاً التعريف به صلى الله عليه وسلم وبالذين معه فى التوراة فى قوله تعالى : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً) إلى قوله تعالى : (ذلك مثلهم فى التوراة) .

كما جاء وصفهم فى الإنجيل فى نفس السياق ، فى قوله تعالى :

(ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه) إلى آخر السورة .

وجاء النص فى حق جميع الأنبياء فى قوله تعالى : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) .

قال ابن كثير : قال ابن عباس ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد لئن بعث وهو حي ليتبعنه ، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه . ا هـ .

وجاء مصداق ذلك فى قصه النجاشى لما سمع من جعفر عنه صلى الله عليه وسلم ، فقال : أشهد أنه رسول الله وأنه الذى نجد فى الإنجيل ، وأنه الذى بشر به عيسى ابن مريم ، وما قاله أيضاً : والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه . فى حديث طويل ساقه ابن كثير ، وعزاه إلى أحمد رحمه الله .

وكذلك دعوة نبى الله إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) .

ولذا قال صلى الله عليه وسلم : « أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ورؤيا أمى التى رأت » .

وقد خص عيسى بالنص على البشرى به صلى الله عليه وسلم لأنه آخر أنبياء بنى إسرائيل ، فهو ناقل تلك البشرى لقومه عما قبله .

كما قال : (ومصدقاً لما بين يدى من التوراة) ومن قبله ناقل عمن قبله ، وهكذا حتى صرح بها عيسى عليه السلام ، وأداها إلى قومه .

وقوله تعالى : (اسمه أحمد) جاء النص أنه صلى الله عليه وسلم له عدة أسماء ، وفى الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم : « أنا لى أسماء أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وأنا العاقب » .

وبهذه المناسبة فقد ذكر صلى الله عليه وسلم باسمه أحمد هنا . وباسمه محمد فى سورة محمد صلى الله عليه وسلم .

كما ذكر صلى الله عليه وسلم بصفات عديدة أجمعها ما بعد ترجمة ذانية من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) .

وسيأتى المزيد من بيان ذلك عند قوله تعالى : (وإنك لعلى خلق عظيم) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ .

تقدم بيان ذلك للشيخ رحمة الله تعالى عليه عند قوله تعالى : (حجتهم داحضة عند ربهم) فى سورة الشورى ، وقوله : (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه) فى سورة الأنبياء .

قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

فسرت التجارة بقوله تعالى : (تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون).

التجارة : هى التصرف فى رأس المال طلباً للربح كما قال تعالى :
(إلا أن تكون تجارة تديرونها بينكم) .
وقال تعالى : (تجارة تخشون كسادها) .

والتجارة هنا فسرت بالإيمان بالله ورسوله ، وبذل المال والنفس فى سبيل الله ، فما هى المعارضه الموجودة فى تلك التجارة الهامة ، بينها تعالى فى قوله تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) ، فهنا مبايعة ، وهنا بشرى وهنا فوز عظيم .

كذلك فى هذه الآية : (يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب) .

وقد دل القرآن على أنه من فاتته هذه الصفقة الرابحة فهو لا محالة خاسر ، كما فى قوله تعالى : (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) .

حقيقة هذه التجارة أن رأس مال الإنسان حياته ومنتهاه مماته .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » والعرب تعرف هذا البيع فى المبادلة كما قول الشاعر :

فإن تزعمينى كنت أجهل فيكم فإن شربت الحلم بعدك بالجهل

وقول الآخر :

بدلت بالجمة رأساً أزعرا وبالثنايا الواضحات الدردرا

كما اشبرى المسلم إذ تنصرا

فأطلق الشراء على الاستبدال .

تنبيه

فى هذه الآية الكريمة تقديم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس فى قوله تعالى : (وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) .

وفى آية إن الله اشترى من المؤمنين ، قدم النفس عن المال فقال (اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم) ، وفى ذلك سر لطيف

أما فى آية الصف ، فإن المقام مقام تفسير وبيان لمعنى التجارة الرابحة بالجهاد فى سبيل الله .

وحقيقة الجهاد بذل الجهد والطاقة ، والمال هو عصب الحرب ، وهو مدد الجيش . وهو أهم من الجهاد بالسلاح ، فبالمال يشترى السلاح ، وقد تستأجر الرجال كما فى الجيوش الحديثة من الفرق الأجنبية ، وبالمال يجهز الجيش ، ولذا لما جاء الإذن بالجهاد أعذر الله المرضى والضعفاء ، وأعذر معهم الفقراء الذين لا يستطيعون تجهيز أنفسهم ، وأعذر معهم الرسول صلى الله عليه وسلم إذ لم يوجد عنده مايجهزهم به كما فى قوله تعالى : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى) إلى قوله : (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون

وكذلك من جانب آخر ، قد يجاهد بالمال من لا يستطيع بالسلاح كالنساء والضعفاء ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « من جهز غازياً فقد غزا » .

أما الآية الثانية ، فهى فى معرض الاستبدال والعرض والطلب أو ما يسمى بالمساومة ، فقدم النفس لأنها أعز ما يملك الحى ، وجعل فى مقابلها الجنة وهى أعز ما يوهب ، وأحسن ما قيل فى ذلك .

أثامن بالنفس النفيسة ربها وليس لها فى الخلق كلهم ثمن
بها تملك الأخرى فإن أنا بعتها بشىء من الدنيا فذاك هو الغبن
لئن ذهبت نفسى بدنيا أصيبها لقد ذهبت نفسى وقد ذهب الثمن

فالتجارة هنا معاملة مع الله إيماناً بالله وبرسوله وجهاد بالمال والنفس ، والعمل الصالح ، كما قيل أيضاً :

فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهداً فإنما الربح والخسران فى العمل

وفى آية (إن الله اشترى) تقديم بشرى خفية لطيفة بالنصر لمن جاهد فى سبيل الله وهى تقديم قوله : (فيقتلون) بالبناء للفاعل أى فيقتلون عدوهم (ويقتلون) بالبناء للمجهول ، لأن التقديم هنا يشعر بأنهم يقتلون العدو قبل أن يقتلهم ويصيبون منه قبل أن يصيب منهم ، ومثل هذا يكون فى موقف القوة والنصر ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ ﴾ الآية .

فى هذه الآية أيضاً إشعار المسلمين بالنصر فى قوله تعالى : (فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) ولكن لم يبين فيها هل كانوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار الله أم لا ؟

وقد جاء مايدل على أنهم بالفعل أنصار الله كما تقدم فى سورة الحشر فى قوله تعالى : (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله) .

وكذلك الأنصار فى قوله تعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار) وكقوله تعالى : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا) فأشداء على الكفار هو معنى ينصرون الله ورسوله ، ثم جاء المثل المضروب لهم بالتآزر والتعاون فى قوله تعالى : (ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار) فسماهم أنصارا ، وبين نصرتهم سواء من المهاجرين والأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . والعلم عند الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجمعة

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ .

بين الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه معنى الأميين فى مذكره الدراسة بقوله : الأميين أى العرب ، والأمى : هو الذى لا يقرأ ولا يكتب ، وكذلك كان كثير من العرب . اهـ .

وسمى أمياً نسبة إلى أمه يوم ولدته لم يعرف القراءة ولا الكتابة وبقى على ذلك .

ومما يدل على أن المراد بالأميين هم العرب بعثة النبى صلى الله عليه وسلم منهم لقوله تعالى (رسولا منهم) كما يدل عليه قوله تعالى عن نبى الله إبراهيم : (رب إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم) إلى قوله تعالى : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويزكيهم) .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه : وهذه الآية نص فى أن الله تعالى استجاب دعوة نبيه إبراهيم عليه السلام فيهم . اهـ .

وفى الحديث : « إنا أمة أمية لا نقرأ ولا نكتب ولا نحسب » ،

وهذا حكم على المجموع لا على الجميع ، لأن فى العرب من كان يكتب مثل كتبه الوحى ، عمر وعلى غيرهم .

وقوله تعالى : (رسولا منهم) هو النبى محمد صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى عن أهل الكتاب : (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل) .

وقد بين تعالى أن المكتوب عندهم هو ما بشر به عيسى عليه السلام فى قوله تعالى : (ومبشراً برسول يأتى من بعدى إسمه أحمد) .

وكونه صلى الله عليه وسلم أمياً بمعنى لا يكتب ، بينه قوله تعالى : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) .

وبين تعالى الحكمة فى كونه صلى الله عليه وسلم أمياً مع أنه يتلو عليهم آياته ويزكيهم بنفى الريب عنه كما كانوا يزعمون أن ما جاء به صلى الله عليه وسلم : (أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه) فقال : (إذاً لارتاب المبطلون) .

قوله تعالى : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا عليه ، فى المذكرة المشار إليها : هذا عطف على قوله : فى الأميين ، أى : بعث هذا النبى صلى الله عليه وسلم فى الأميين ، وفى آخرين منهم ، وقيل : عطف على الضمير فى قوله : يعلمهم ، أى يعلمهم ويعلم آخرين منهم ، والمراد بقوله :

وآخرين كل من يأتى بعد الصحابة من أهل الإسلام إلى يوم القيامة بدليل قوله : (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) .

وصح عن النبى صلى الله عليه وسلم ما يدل على أن قوله : وآخرين ، نزلت فى فارس قوم سلمان ، وعلى كل فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . اه .

وسبق أن قدمنا الكلام على هذا المعنى عند الكلام على قوله تعالى : (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) .

ولكن سقنا كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، حين عثرنا عليه لزيادة الفائدة والاستئناس .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

اختلف فى مرجع اسم الإشارة هنا وفى المراد بالمتفضل به عليهم ، أهم الأمة الأمّية تفضل الله عليها ببعثة نبى منهم فيهم ؟ أم هو النبى صلى الله عليه وسلم الأمّى تفضل الله تعالى عليه ببعثته معلماً هاديا ؟ أم هم الآخرون الذين لم يلحقوا زمن البعثة ووصلتهم دعوتها ، وأدركوا فضلها ؟

وقد اكتفى الشيخ رحمة الله تعالى عليه وعلينا ، فى مذكرة الدراسة بقوله ذلك أى المذكور من بعث هذا النبى الكريم فى الأميين ، فضل

الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، ومن عظم فضله تفضله على هذه الأمة بهذا النبي الكريم . اهـ .

وهذا القول منه رحمة الله تعالى علينا وعليه ، يتضمن القولين الأول والثاني من الأقوال الثلاثة ، تفضل الله على الأميين ببعثة هذا النبي الكريم فيهم ، وتفضل الله على النبي ببعثته فيهم مما يشعر بأنه لا خلاف بين هذه الأقوال الثلاثة ، وأنها من الاختلاف التنوعي أو هي من المتلازمات فلا مانع من إدارة الجميع ، لأن فضل الله تعالى قد شمل الجميع .

وقد نص الأول بقوله : (لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) وهذا عين ما في سورة الجمعة سواء ، لأن الامتنان هو التفضل .

ونص على الثاني بقوله تعالى : (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلّمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) .

ونص على الثالث بقوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) .

فقوله : فسوف يأتي ، يساوي (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) ، فهو خلاف تنوع ، وفضل الله شامل للجميع .

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾.

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى إملائه : هذا مثل ضربه الله لليهود ، وهو أنه شبههم بحمار ، وشبه التوراة التى كلفوا العمل بما فيها بأسفار أى كتب جامعة للعلوم النافعة ، وشبه تكليفهم بالتوراة : بحمل ذلك الحمار لتلك الأسفار ، فكما أن الحمار لا ينتفع بتلك العلوم النافعة التى فى تلك الكتب المحمولة على ظهره ، فكذلك اليهود لم ينتفعوا بما فى التوراة من العلوم النافعة لأنهم كلفوا باتباع محمد صلى الله عليه وسلم وإظهار صفاته للناس فخانوا وحرّفوا وبدلوا فلم ينفعهم ما فى كتابهم من العلوم . اهـ .

فأشار الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، إلى أن وجه الشبه عدم الانتفاع بما تحملوه من التوراة وهم يعلمون ما فيها من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد أوضح الله تعالى هذا فى موضع آخر فى قوله تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) فقد جحدوا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فلم ينفعهم علمهم به .

وهذه الآية أشد ما ينبغى الحذر منها ، وخاصة لطلاب العلم وحملته ، كما قال تعالى : (بئس مثل القوم) أى تشبيههم فى هذا المثل بهذا الحيوان المعروف .

وقد سبق للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام على هذا المثال في عدة مواضع من الأضواء ، منها في الجزء الثاني عند قوله تعالى : (فمثله كمثل الكلب) الآية .

ومنها في الجزء الثالث عند قوله تعالى : (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد) الآية .

ومنها في الجزء الرابع عند قوله تعالى : (ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس) في سورة الكهف بما فيه الكفاية .

والذي ينبغي التنبيه عليه هو أن أكثر المفسرين يجعله من قبيل تشبيه المفرد ، وأن وجه الشبه فيه مفرد وهو عدم الانتفاع بالمحمول ، كالبيت الذي فيه :

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

والذي يظهر والله تعالى أعلم ، أنه من قبيل التشبيه التمثيلي لأن وجه الشبه مركب من مجموع كون المحمول كتباً نافعة ، والحامل حمار لا علاقة له بها بخلاف ما في البيت ، لأن العيس يمكن أن تنتفع بالماء لو حصلت عليه ، والحمار لا ينتفع بالأسفار ولو نشرت بين عينيه ، وفيه إشارة إلى أن من موجبات نقل النبوة عن بني إسرائيل كلية أنهم وصلوا إلى حد الإياس من انتفاعهم بأمانة التبليغ والعمل ، فنقلها الله إلى قوم أحق بها وبالقيام بها .

قوله تعالى ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى ملائه : الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، والذين هادوا هم اليهود .

ومعنى هادوا : أى رجعوا بالتوبة إلى الله من عبادة العجل .

ومنه قوله تعالى : (إنا هدنا إليك) ، وكان رجوعهم عن عبادة العجل بالتوبة النصوح : حيث سلموا أنفسهم للقتل توبة وإنابة إلى الله كما بيّنه بقوله : (فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم) إلى قوله (فتاب عليكم) .

وقوله : (إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى : (إن زعمتم أنكم أولياء لله) أى إن كنتم صادقين فى زعمكم أنكم أولياء لله ، وأبناء الله وأحباؤه دون غيركم من الناس ، فتمنوا الموت لأن ولى الله حقا يتمنى لقاءه ، والإسراع إلى ما أعد له من النعيم المقيم . اهـ .

وفى قوله رحمة الله تعالى علينا وعليه . إشارة إلى بيان زعمهم المجمل فى الآية وهو ما بينه تعالى بقوله عنهم وعن النصارى معهم : (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه) .

وقد ردّ زعمهم عليهم بقوله تعالى : (قل فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق) .

ومثل هذه الآية إن زعمتم قوله تعالى : (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصـــة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) .

وقال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه : وقيل المراد بالتمنى المباهلة ، والمراد من الآية إظهار كذب اليهود فى دعواهم أنهم أولياء الله .

وقوله : (إن زعمتم) مع قوله : (إن كنتم) شرطان يترتب الأخذ منهما على الأول أى فتمنوا الموت ، إن زعمتم ، إن صدقتم فى زعمكم ، ونظيره من كلام العرب قول الشاعر :

إن تستغيثوا بنا إن تذعروا تجدوا منا معاقل عز زانها كرم

وقوله تعالى ﴿ وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ .

نص على أنهم لا يتمنون الموت أبداً ، وأن السبب هو ما قدمت أيديهم ، ولكن لم يبيّن ما هو ما قدمت أيديهم الذى منعهم من تمنى الموت .

وقال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى إملائه . لا يتمنونه لشدة حرصهم على الحياة كما بينه تعالى بقوله : (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة) فشدة حرصهم على الحياة لعلمهم أنهم إذا ماتوا دخلوا النار ، ولو تمنوا لماتوا من حينهم .

وقوله : (بما قدمت أيديهم) الباء سببية والمسبب انتفاء تمنيهم وما قدمت أيديهم من الكفر والمعاصى . اهـ .

والذى أشار إليه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، من الأسباب من كفرهم ومعاصيهم ، قد بينه تعالى فى موضع آخر صريحاً فى قوله تعالى : (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم) .

فالباء هنا سببية أيضاً أى ذوقوا عذاب الحريق بسبب ما قدمت أيديكم من هذه المذكورات ، ولهذا كله لن يتمنوا الموت وبود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ، فقد أيقنوا الهلاك ويئسوا من الآخرة .

كما قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور) ولهذا كله لم يتمنوا الموت ، كما أخبر الله تعالى عنهم . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ﴾

أى إن فررتم من الموت بعدم تمنيه فلن يجعلكم تنجون منه وهو ملاقيكم لا محالة ، وملاقيكم بمعنى مدركم ، كما فى قوله تعالى : (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة) .

وقوله تعالى : (كل نفس ذائقة الموت) .

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

هذه الآية الكريمة ، وهذا السياق يشبه فى مدلوله وصورته قوله تعالى : (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم) مع قوله : (فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام) الآية .

ففى كل منهما نداء ، وأذان الحج وصلاة وسعى وإتيان وذكر الله ، ثم انتشار وإفاضة مما يربط الجمعة بالحج فى الشكل وإن اختلف الحجم ، وفى الكيف وإن تفاوتت التفاصيل ، وفى المباحث والأحكام كثرة وتنويعاً من متفق عليه ومختلف فيه ، مما يجعل مباحث الجمعة لا تقل أهمية عن مباحث الحج ، وتتطلب عناية بها كالعناية به .

وقد نقل عن الشيخ رحمة الله تعالى عليه أنه كان عازماً على بسط الكلام فيها كعادته رحمة الله تعالى عليه ، ولكن إرادة الله نافذة ، وقدرته غالبة . وأن كل إنسان يستشعر مدى مباحث الشيخ وبسطه

وتحقيقه المسائل ليحجم ويترك الدخول فيها تقاصراً دونها ولاسيما وأن ربط هذه المباحث بنصوص القرآن ليس بالأمر المبين ، كما أشار إليه أبوحيان فى مضمون قوله فى نهاية تفسيره لهذه السورة بعد إيجاز الكلام عن أحكامها ، قال مانصه : وقد ملأ المفسرون كثيراً من أوراقهم بأحكام وخلاف فى مسائل الجمعة مما لانعلق لها بلفظ القرآن . اهـ .

فهو يشير بأن لفظ القرآن لانعلق له بتلك الأحكام التى ناقشها المفسرون فى مباحث الجمعة ، ولكن الدارس لمنهج الشيخ رحمة الله تعالى عليه فى الأضواء ، والمتذوق لأسلوبه لم يقتصر على اللفظ فقط ، أى دلالة النص التطابقى وتأمل أنواع الدلالات من تضمن والتزام وإيماء وتنبيه ، فإنه يجد لأكثر أو كل ماقاله المفسرون والمحدثون والفقهاء من المباحث أصولا من أصول تلك الدلالات .

وإنى أستلهم الله تعالى الرشد وأستمده العون والتوفيق لبيان كل مايظهر من ذلك إن شاء الله ، فإن وفقت فبفضل من الله وخدمة لكتابه ، وإلا فإنها محاولة تغتفر بجانب القصور العلمى وتحسين القصد ، والله الهادى إلى سواء السبيل .

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى مذكرة الدراسة مانصه : إذا نودى للصلاة أى قام المنادى بها ، وهو المؤذن يقول : حى على الصلاة .

وقوله : (من يوم الجمعة) أى من صلاة يوم الجمعة . أى صلاة الجمعة . اهـ .

ومما يدل على أن المراد بها صلاة الجمعة نفسها دون بقية صلوات ذلك اليوم مجىء من التى للتبعيض ثم تبين هذا البعض بالأمر ، بترك البيع فى قوله : (فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) ، لأن هذا خاص بالجمعة دون غيرها لوجود الخطبة ، وقد كانت معينة لهم قبل نزول هذه الآية ، وصلوها قبل مجىء النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، كما سيأتى إن شاء الله .

والمراد بالنداء هو الأذان ، كما أشار إليه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، وكما فى قوله تعالى : (وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً) .

ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم ».

وقيل : النداء لغة هو النداء بصوت مرتفع لحديث : « فإنه أندى منك صوتا » .

وقد عرف الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الأذان لغة عند قوله تعالى : (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا) فقال : الأذان لغة الإعلام .

ومنه قوله تعالى : (وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر) وقول الحارث بن حلزة :

آذنتنا ببينها أسماء رب ثاو يمل منه الثواء

والأذان من خصائص هذه الأمة ، شعاراً للمسلمين ونداء للصلاة .

بدء مشروعيته :

اختلف فى بدء المشروعية ، والصحيح أنه بدىء به بعد الهجرة ، وجاءت نصوص لكنها ضعيفة : أنه شرع ليلة الإسراء أو بمكة .

منها : عن على رضى الله عنه عند البزار : أنه شرع مع الصلاة .

ومنها عن ابن عباس عند ابن حبان أنه شرع بمكة عند أول الصلاة .

وقال ابن حجر : لايصح شىء من ذلك .

أما مشروعيته بعد الهجرة ، وفى المدينة ففيها نصوص عديدة صحيحة تبين بدأه وكيفيته .

منها : حديث ابن عمر رضى الله عنهما فى الصحيحين وغيرهما قال: « كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة وليس ينادى بها أحد ، فتكلموا يوماً فى ذلك ، فقال بعضهم : اتخذوا ناقوسا مثل ناقوس النصارى ، وقال بعضهم قرنا مثل قرن اليهود ، فقال عمر : أولا تبعثون رجلا ينادى بالصلاة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يا بلال قم فناد بالصلاة » ، وفى الموطأ لمالك رحمه الله « أنه صلى الله عليه وسلم كان قد أراد أن يتخذ خشبتين يضرب بهما ليجتمع الناس للصلاة ، فأرى عبد الله بن زيد الأنصارى خشبتين فى النوم فقال : إن هاتين لنحو مما يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ألا تؤذنون للصلاة ؟ فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استيقظ فذكر له ذلك فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأذان » .

وبعض الروايات الأخرى عن غير ابن عمر وعند غير الشيخين بألفاظ أخرى ، وصور مختلفة منها قالوا : « انصب راية فإذا رآها الناس أذن بعضهم بعضاً أى أعلمه عند حضور الصلاة ، فلم يعجبه ذلك فذكر له القنع ، وهو الشبور لليهود فلم يعجبه ، فقال هذا من أمر اليهود » .

وفى رواية أنس « أن ينوروا نارا فلم يعجبه شىء من ذلك كله » .

وفى حديث عبد الله بن زيد « لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناقوس يعمل ليضرب به للناس لجمع الصلوات طاف بى وأنا نائم رجل يحمل ناقوسا فى يده . فقلت ياعبد الله أتبيع الناقوس قال : وما تصنع به ؟ قلت : ندعو به إلى الصلاة . قال أفلا أدلك على ماهو خير من ذلك . فقلت : بلى ، فقال : تقول : الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ! أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حى

على الصلاة ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، حى على الفلاح ، والله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله » .

ثم استأخر عنى غير بعيد ثم قال « تقول : إذا أقمت للصلاة : الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حى الصلاة ، حى على الفلاح ، قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة . الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله » .

فلما أصبحت أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما رأيت فقال « إنها لرؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن به ، فإنه أندى صوتاً منك ، فقمت مع بلال فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به فسمع عمر وهو فى بيته فخرج يجر رداءه ويقول :

« يارسول الله والذى بعثك بالحق لقد رأيت ما أرى ، فقال صلى الله عليه وسلم فلله الحمد » رواه أبو داود .

وفى رواية له ، فقال : « إنى لبين نائم ويقظان إذ أتانى آت فأرانى الأذان » .

فتبين من هذا كله أن الصحيح فى مشروعية الأذان أنه كان بعد الهجرة ، وفى المدينة المنورة .

وهنا سؤال حول مشروعية الأذان . قال بعض الناس : كيف يترك أمر الأذان وهو بهذه الأهمية من الصلاة فيكون أمر مشروعيته رؤيا

يراها بعض الأصحاب ، وطعن فى سند الحديث واستدل بحديث ابن عمر فى الصحيحين وغيرهما من قوله صلى الله عليه وسلم : « قم يا بلال فناد بالصلاة » والجواب عن هذا من عدة وجوه :

منها : سند حديث عبد الله صحيح ، وقد ناقشه الشوكانى رحمه الله ، وذكر تصحيحه ومن صححه ويشهد لصحته ما قدمناه من رواية الموطإ بإرادة اتخاذ خشبتين ، فأرى عبد الله بن زيد خشبتين الحديث ، وكذلك فى الصحيحين إثبات التشاور فيما يعلم به حين الصلاة .

ومنها : أنه لا يتعارض مع حديث ابن عمر لأن حديث ابن عمر لم يذكر ألفاظ النداء فيكون الجمع بينهما ؛ إما أن بلالا كان ينادى بغير هذه الصيغة ، ثم رأى عبد الله الأذان فعلمه بلالا .

وقد يشهد لهـــذا الوجه ما جاء عن ابن أبى ليلى قال : « أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال ، وحدثنا أصحابنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لقد أعجبنى أن تكون صلاة المسلمين واحدة ، حتى لقد هممت أن أبث رجالا فى الدور ينادون الناس بحين الصلاة ، وحتى هممت أن آمر رجالا يقومون على الآطام ينادون المسلمين حتى نقسوا أكادوا أن ينقسوا ، فجاء رجل من الأنصار فقال : يارسول الله إنى لما رجعت لما رأيت من اهتمامك رأيت رجلا كأن عليه ثوبين أخضرين فقام على المسجد فأذن ثم قعد قعدة ثم قام فقال مثلها إلا أنه يقول قد قامت الصلاة ، ولولا أن

يقول الناس لقلت إنى كنت يقظان غير نائم . فقال صلى الله عليه وسلم « لقد أراك الله خيراً فمر بلالا فليؤذن ، فقال عمر : أما إنى قد رأيت مثل الذى رأى ولكنى لما سبقت استحييت » لأبى داود أيضاً .

ففيه أنه صلى الله عليه وسلم كان قد همَّ أن يبث رجالا فى الدور ، وعلى الأطم ينادون للصلاة ، فيكون نداء بلال أولا من هذا القبيل دون تعيين ألفاظ ، وإما أن يكون نداء بلال الوارد فى الصحيح بألفاظ الأذان ، الواردة فى حديث عبد الله بعد أن رأى ما رآه وأمره صلى الله عليه وسلم أن يعلمه بلالا فنادى به ، ولا تعارض فى ذلك كما ترى .

ومنها أيضاً : أن رؤيا عبد الله للأذان لا تجعله مشروعاً له من عنده ولا متوقفا عليه ، لأنه جاء فى الرؤيا الصالحة أنها جزء من ست وأربعين جزءاً من النبوة .

وهذا النظم لألفاظ الأذان لا يكون إلا من القسم فهى بعيدة عن الوساوس والهواجس لما فيها من إعلان العقيدة وإرغام الشيطان كما فى الحديث : « إن الشيطان إذا سمع النداء أدبر » الخ .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم لما سمعها أقرها وقال : إنها لرؤيا حق ، أو لقد أراك الله حقاً ، فكانت سنة تقرير كما يقرر بعض الناس على بعض الأفعال .

ثم جاء بعد ذلك تعليمه صلى الله عليه وسلم لأبى محذورة فصار

سنة ثابتة ، وكان يتوجه السؤال لو أنه لم يبلغه صلى الله عليه وسلم وعملوا به بمجرد الرؤيا ، ولكن وقد بلغه وأقره فلا سؤال إذاً .

ومنها : أن فى بعض الروايات أن الوحى قد جاءه به ، ولما أخبره عمر قال له : سبقك بذلك الوحى . ذكر فى مراسيل أبى داود .

وذكر عن ابن العربى بسط الكلام إثبات الحكم بالرؤيا ذكرها المعلق على بذل المجهود .

ومنها ما قيل : ترك مجىء بيان وتعليم الأذان إلى أن رآه عبدالله ورواه عمر رضى الله عنهما لأمرين ، ذكرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم معللاً مع ذكر الله فيكون مجيئه عن طريقهما أولى وأكرم لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يأتيهم عن طريقه هو حتى لا يكون عناية من يدعوهم لإطرائه . وهذا وإن كان متوجهاً إلا أن فيه نظراً لأنه صلى الله عليه وسلم لو جاءهم بأعظم من ذلك لما كان موضع تساؤل .

من مجموع ما تقدم يكون أصل مشروعية الأذان سنة ثابتة ، إما أنه كان قد همّ أن يبعث رجالا فى البيوت ينادوه ، وإما لأنه أقر ما رأى عبد الله فيكون أصل المشروعية منه صلى الله عليه وسلم ، والتقرير منه على الألفاظ التى رآها عبد الله .

فضل الأذان وآداب المؤذن

لاشك أن الأذان من أفضل الأعمال ، وأن المؤذن يشهد له ماسمع صوته من حجر ومدر . الخ .

وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم : « أن المؤذنين أطول الناس أعناقاً يوم القيامة » .

وقال عمر رضى الله عنه : لولا الخلافة لأذنت .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الإمام ضامن ، والمؤذن مؤتمن ، اللهم أرشد الأئمة ، واغفر للمؤذنين » رواه أبو داود والترمذى ، إلى غير ذلك من فضائل الأذان ، فقيل : مؤتمن على الوقت ، وقيل : مؤتمن على عورات البيوت عند الأذان ، فقد حث صلى الله عليه وسلم المؤذنين على الوضوء له كما فى حديث : « لا ينادى للصلاة إلا متوضئ » وإن كان الحدث لا يبطله اتفاقا .

ولما كان بهذه المثابة كانت له آداب فى حق المؤذنين .

منها : أن يكونوا من خيار الناس ، كما عند أبى داود : ليؤذن لكم خياركم وليؤمكم أقرؤكم ، وعليه حذر صلى الله عليه وسلم من تولى الفسقة الأذان كما فى حديث : « الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن » المتقدم . فإن فيه زيادة عند البزار قالوا يارسول الله : لقد تركتنا

تتنافس فى الأذان بعدك فقال : « إنه يكون بعدى أو بعدكم قوم سفلتهم مؤذنوهم » .

ومنها : أنه يكره التغنى فيه ، لأنه ذكر ودعاء إلى أفضل العبادات ، وقد جاء عن ابن عمر رضى الله عنه أن رجلا قال له : إنى أحبك فى الله ، قال ابن عمر : لـكنى أبغضك فى الله ، فقال : ولم ؟ قال لأنك تتغنى فى أذانك .

وفى المغنى لابن قدامة : ولا يعتد بأذان صبى ولا فاسق ، أى ظاهر الفسق ، وعند المالـكية : لا يحاكى فى أذانه الفسقة .

ومنها : ألا يلحن فيه لحناً بيناً ، قال فى المغنى : ويكره اللحن فى الأذان ، فإنه ربما غيّر المعنى ، فإن من قال : أشهد أن محمداً رسول الله ونصب لام رسول . أخرجه عن كونه خبراً .

ولا يمد لفظه أكبر لأنه يجعل فيها ألفا فيصير جمع كبر ، وهو الطبل ، ولا يسقط الهاء من اسم الله والصلاة ولا الحاء من الفلاح ، لما روى أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يؤذن لـكم من يدغم الهاء » الحديث أخرجه الدارقطنى .

فأما إن كان ألثغ لا تتفاحش جاز أذانه ، فقد روى أن بلالا كان يقول : أسهد بجعل الشين سينا ، نقله ابن قدامة ، ولـكن لا أصل لهذا الأثر مع شهرته على ألسنة الناس ، كما فى كشف الخفاء ومزيل الإلباس .

ومن هذا ينبغى تعهد المؤذنين فى هذين الأمرين اللحن والتلحين وكذلك الفسق ، وصفة المؤذنين ولا سيما فى بلاد الحرمين الشريفين مهبط الوحى ومصدر التأسى ، وموفد القادمين من كل مكان ليأخذوا آداب الأذان والمؤذنين ، عن أهل هذه البلاد المقدسة .

* * *

ألفاظ الأذان والإقامة والراجح منها

مع بيان التثويب والترجيع

مدار ألفاظ الأذان والإقامة فى الأصل على حديثى عبد الله بن زيد بالمدينة ، وحديث أبى محذورة فى مكة بعد الفتح . وما عداهما تبع لهما كحديث بلال وغيره ، رضى الله تعالى عنهم .

وحديث عبد الله موجود فى السنن أى فيما عدا البخارى ومسلم . وهو متقدم من حيث الزمن كما تقدم ذلك فى مبحث مشروعية الأذان وأنه كان ابتداء فى المدينة أول مقدمه صلى الله عليه وسلم إليها .

وحديث أبى محذورة موجود فى السنن وفى صحيح مسلم . ولم يذكر البخارى واحداً منهما ، وإنما ذكر قصة سبب المشروعية ، وحديث « أمر بلال أن يشفع الأذان ويوتر الإقامة » على ما سيأتى إن شاء الله .

وعليه سنقدم حديث عبد الله لتقدمه فى الزمن : وألفاظه كما تقدم فى بدء المشروعية هى : الله أكبر الله أكبر . الله أكبر الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حى على الصلاة ، حى على

الصلاة ، حى على الفلاح حى على الفلاح . الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله .

ومجموعه خمسة عشر كلمة أى جملة . ففيه تربيع التكبير فى أوله وتثنية باقيه ، وإفراد آخره . وفيه الإقامة بتثنية التكبير فى أوله فى كلمة وإفراد باقيها إلا لفظ الإقامة ، ولفظها : الله أكبر الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله . حى على الصلاة ، حى على الفلاح . قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة . الله أكبر الله أكبر . لا إله إلا الله .

قال الشوكانى : رواه أحمد وأبو داود ، وقال عنه الترمذى : حسن صحيح . وذكر له عدة طرق . ومنها عند الحاكم وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما والبيهقى وابن ماجه .

حديث أبى محذورة : وحديث أبى محذورة كان بعد الفتح كما فى السنن أنه خرج فى نفر فلقى النبى صلى الله عليه وسلم مقدمه من حنين ، وأذن مؤذنه صلى الله عليه وسلم ، فظل أبو محذورة فى نفره يحكونه استهزاء به ، فسمعهم صلى الله عليه وسلم فأحضرهم فقال : « أيكم الذى سمعت صوته قد ارتفع ؟ فأشاروا إلى أبى محذورة ، فحبسه وأرسلهم ، ثم قال له قم فأذن بالصلاة فعلمه » .

أما ألفاظه : فعند مسلم بتثنية التكبير فى أوله : والباقى كحديث

عبد الله بن زيد مع زيادة ذكر الترجيع . وقد ساقه مسلم فى ثلاثة مواضع وبلفظ التكبير مرتين فقط .

الموضع الأول : عن أبى محذورة نفسه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم علمه الأذان : الله أكبر الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله . حى على الصلاة ، حى على الصلاة . حى على الفلاح ، حى على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .

والموضع الثانى : فى قصة الإغارة أنه كان صلى الله عليه وسلم يغير إذا طلع الفجر ، وكان يستمع الأذان فإذا سمع أذاناً أمسك وإلا أغار . فسمع رجلا يقول : الله أكبر الله أكبر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : على الفطرة . ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خرجت من النار .. الحديث .

والموضع الثالث : عن عمر رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قال المؤذن : الله أكبر الله أكبر فقال أحدكم : الله أكبر الله أكبر ، ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، قال : أشهد أن لا إله إلا الله » الحديث ، فهذه كلها ألفاظ مسلم لأذان أبى محذورة ، ولم يذكر مسلم عن الإقامة إلا حديث أنس ، أمر بلال أن يشفع الأذان ويوتر الإقامة ، وعند غير مسلم جاء حديث أبى محذورة بتربيع التكبير فى أوله ، كحديث عبد الله

ابن زيد ، وبالترجيع والتثويب فى الفجر ، وفيها أن الترجيع يكون أولا بصوت منخفض .

ثم يرجع ويمد بهما أى بالشهادتين صوته ، وذلك عند أحمد وأبى داود والترمذى والنسائى ، أما الإقامة فجاءت عن أبى محذورة راويتان : الأولى قال : وعلمنى أى النبى صلى الله عليه وسلم الإقامة مرتين مرتين : الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله ، حى على الصلاة حى على الصلاة ، حى على الفلاح حى على الفلاح ، قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .

الثانية : مثل الأذان تماما بتربيع التكبير ، وبدون ترجيع ، وتثنية الإقامة أى : الله أكبر الله أكبر . الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله ، حى على الصلاة حى على الصلاة ، حى على الفلاح حى على الفلاح ، قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .

فالأولى كالأذان فى رواية مسلم ، والثانية كرواية الأذان عند غيره بدون ترجيع ولا تثويب ، وإضافة لفظ الإقامة مرتين .

هذا مجموع ما جاء فى أصول ألفاظ الأذان من حديثى عبد الله بن زيد وأبى محذورة .

وبالنظر فى حديث عبد الله بن زيد نجده لم تختلف ألفاظه لا فى الأذان ولا فى الإقامة . وهو بتربيع التكبير فى الأذان وبدون تثويب ولا ترجيع ، وبإفراد الإقامة إلا لفظ الإقامة ، أما حديث أبى محذورة فجاء بعدة صور فى الأذان وفى الإقامة .

أما الأذان فعند مسلم بتثنية التكبير فى أوله وعند غيره بتربيعه ، وعند الجميع إثبات الترجيع فى الشهادتين ، وأن الأولى منخفضة . والثانية مرتفعة ، كبقية ألفاظ الأذان ، وأما الإقامة فجاءت مرتين مرتين ، وجاءت مثل الأذان تماما عند غير مسلم سوى الترجيع والتثويب مع تثنية الإقامة ، فكان الفرق بين الحديثين كالآتى :

فى ألفاظ الأذان ثلاث نقاط :

أولا : ذكر الترجيع .

ثانيا : التثويب .

ثالثاً : عدد التكبير فى أوله .

أما الترجيع فيجب أن يؤخذ به ، لأنه متأخر بعد الفتح ، ولا معارضة فيه ، لأنه زيادة بيان وبسند صحيح .

وأما التثويب ، فقد ثبت من حديث بلال ، وكان أيضا متأخراً عن

حديث عبد الله قطعا ، وقد ثبت أن بلالا أذن للصبح فقيل له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نائم فصرخ بلال بأعلى صوته : « الصلاة خير من النوم » .

قال سعيد بن المسيب : فأدخلت هذه الكلمة فى التأذين لصلاة الفجر ؛ أي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « اجعل ذلك فى أذانك » فاختصت بالفجر .

وذكر ابن قدامة رحمه الله فى المغنى عن بلال : « أن النبى صلى الله عليه وسلم نهاه أن يثوب فى العشاء » رواه ابن ماجه ، وقال : دخل ابن عمر رضى الله عنهما مسجداً يصلى فيه ، فسمع رجلا يثوب فى أذان الظهر فخرج فقيل له : أين ؟ فقال : أخرجتنى البدعة ، فلزم بهذا كله الأخذ بها فى صلاة الفجر خاصة .

أما التكبير فى أول الأذان ، ففى رواية مسلم لأبى محذورة مرتين فى كلمة فاختلف مع حديث عبد الله بن زيد ، وعند غير مسلم بتربيع التكبير . وبالنظر إلى سند مسلم فهو أصح سنداً ، وبالنظر إلى ما عند غيره ، تجد فيه زيادة صحيحة ، وهى تربيع التكبير ، فوجب العمل بها كما وجب العمل بالتثويب والترجيع ، لأن الرواية المتفقة مع الحديث الآخر أولى من المختلفة معها .

أما الإقامة : ففى حديث عبد الله لم تختلف كما تقدم ، ولكنها فى

حديث أبى محذورة قد جاءت متعددة ولم تتفق صورة من صورها مع حديث عبد الله ، حيث إن فيها مرتين مرتين فى جميع الكلمات ، ومنها كالأذان مع لفظ الإقامة مرتين ، وسند الجميع سواء .

فهل نأخذ فى الإقامة بحديث عبد الله أم بحديث أبى محذورة ؟ من حيث الصناعة كل منهما فى السند سواء

وفى حديث أبى محذورة زيادة وهى تشبيهها بالأذان ، فلو كان الأمر قاصراً على ذلك لكان العمل بحديث أبى محذورة فى الإقامة أولى ، لأنه متأخر وفيه زيادة صحيحة ، ولكن وجدنا حديث بلال فى الصحيح ، وعند مسلم أيضاً وهو أمر بلال أن يشفع الأذان وأن يوتر بالإقامة . وحديث عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال : « كان الأذان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين ، والإقامة مرة ، مرة غير أنه كان يقول : قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة » رواه أبو داود والنسائى .

وبهذين الحديثين يمكن الترجيح بين حديثى عبد الله وأبى محذورة فى كل من الأذان والإقامة .

فمن حديث بلال : نشفع الأذان ، ولكنهم يختلفون فى تحقيق المناط فى المراد بالشفع من حيث التكبير لأن الشفع يصدق على اثنين

وأربع ، وعند فى الأذان إما مرتان وإما أربع ، وكلاهما يصدق عليه معنى الشفع . ولكن إذا اعتبرنا أن كل تكبيرتين جملة واحدة ، كان تحقق الشفع بجملتين ، فيأتى أربع تكبيرات . وإذا اعتبرنا كل تكبيرة كلمة وجد الشفع فى جملة واحدة لاشتمالها على كلمتين ، ولهذا وقع الخلاف .

ولكن الأذان لم تعد عباراته بالكلمات المفردة بل بالجمل ، لأننا نعد قولنا : حى على الصلاة ، وهى فى الواقع جملة تشتمل على عدة كلمات مفردة ، وعليه فقولنا : الله أكبر الله أكبر كلمة ، وعلى هذا يكون الشفع بتكرارها ، فيأتى أربع تكبيرات : وهذا يتفق مع رواية الحديثين ، وحديث عبد الله تماما .

وقال النووى فى شرح مسلم : قال القاضى عياض : إن حديث أبى محذورة جاء فى نسخة الفاسى لمسلم بأربع تكبيرات . ا هـ .

وبهذا تتفق الروايات كلها فى تربيع التكبير فى الأذان .

أما الإقامة فحديث بلال نص فى إيثار الإقامة إلا لفظ الإقامة وهو عين نص الإقامة فى حديث عبد الله ، وعين النص فى حديث عبد الله بن عمر ، والإقامة مرة مرة إلا الإقامة ، أى فهى مرتين ، وعلى هذا العرض وبهذه المناقشة يكون الراجح هو العمل بحديث

عبدالله بن زيد فى الأذان والإقامة ، مع أخذ الترجيع والتثويب من حديث أبى محذورة للأذان .

ثم نسوق ما أخذ به فقهاء الأمصار من هذا كله مع بيان النتيجة من جواز العمل بالجميع إن شاء الله .

قال ابن رشد فى البداية ما نصه : اختلف العلماء فى الأذان على أربع صفات مشهورة . إحداها : تثنية التكبير وتربيع الشهادتين وباقيه مثنى ، وهو مذهب أهل المدينة مالك وغيره ، واختار المتأخرون من أصحاب مالك الترجيع فى الشهادتين بصوت أخفض من الأذان .

والصفة الثانية : أذان المكيين ، وبه قال الشافعى ، وهو تربيع التكبير الأول والشهادتين ، وتثنية باقى الأذان .

والصفة الثالثة : أذان الكوفيين ، وهو تربيع التكبير الأول وتثنية باقى الأذان ، وبه قال أبو حنيفة .

والصفة الرابعة : أذان البصريين ، وهو تربيع التكبير الأول وتثليث الشهادتين ، وحى على الصلاة وحى على الفلاح ، يبدأ بأشهد أن لا إله إلا الله حتى يصل إلى حى على الفلاح ، ثم يعيد كذلك مرة ثانية أعنى الأربع كلمات تبعاً ثم يعيدهن ثالثة . وبه قال الحسن البصرى وابن سيرين .

والسبب فى اختلاف كل واحد من هؤلاء الفرق الأربع اختلاف

الآثار فى ذلك ، واختلاف اتصال العمل عند كل واحد منهم ، وذلك أن المدنيين يحتجون لمذهبهم بالعمل المتصل بذلك فى المدينة ، والمكيون كذلك أيضاً يحتجون بالعمل المتصل عندهم بذلك ، وكذلك الكوفيون والبصريون ، ولكل واحد منهم آثار تشهد لقوله . اهـ .

ثم ساق نصوص كل فريق من النصوص التى أوردناها سابقا ، ولم يورد نصاً لمذهب البصريين الذى فيه التثليث المذكور ، وقد وجد فى مصنف عبد الرزاق بسند جيد جلد (١) ص ٤٦٥ وجاء مرويا عن بعض الصحابة فى المصنف المذكور .

وقال فى الإقامة : أما صفتها فإنها عند مالك والشافعى بتثنية التكبير فى أولها ، وبإفراد باقيها إلا لفظ الإقامة ، فعند الشافعى مرتين وعند أبى حنيفة ، فهى مثنى مثنى ، وأما أحمد فقد خير بين الأفراد والتثنية فيها . اهـ .

تلك هى خلاصة أقوال أئمة الأمصار فى ألفاظ الأذان والإقامة ، وقد أجملها العلامة ابن القيم رحمه الله فى زاد المعاد تحت عنوان : فصل مؤذنيه صلى الله عليه وسلم قال ما نصه :

وكان أبو محذورة يرجع الأذان ويثنى الإقامة وبلال لا يرجع ويفرد الإقامة ، فأخذ الشافعى وأهل مكة بأذان أبى محذورة ، وإقامة بلال ، ويعنى بأذان أبى محذورة على رواية تربيع التكبير ، وأخذ أبو حنيفة

وأهل العراق بأذان بلال وإقامة أبي محذورة ، وأخذ أحمد وأهل الحديث وأهل المدينة بأذان بلال وإقامته ، أي بترجيع التكبير وبدون ترجيع ، وبإفراد الإقامة إلى لفظ الإقامة ، قال : وخالف مالك في الموضعين إعادة التكبير وتثنية لفظ الإقامة ، فإنه لا يكررها . اهـ .

ومراده بمخالفة مالك هنا لأهل الأمصار ، وإلا فهو متفق مع بعض الصور المتقدمة . أما في عدم إعادة التكبير ، فعلى حديث أبي محذورة عند مسلم ، وعدم تكريره للفظ الإقامة ، فعلى بعض روايات حديث بلال أن يوتر الإقامة أي على هذا الإطلاق ، وبهذا مرة أخرى يظهر لك أن تلك الصفات كلها صحيحة ، وأنها من باب اختلاف التنوع وكل ذهب إلى ماهو صحيح وراجح عنده ، ولا تعارض مطلقا إلا قول الحسن البصري وابن سيرين بالتثليث ولم يقل به أحد من الأئمة الأربعة .

وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى كلمة فصل في ذلك : في المجموع حـ٢٢ ص ٦٦ بعد ذكر هذه المسألة ما نصه : فإذا كان كذلك فالصواب مذهب أهل الحديث ومن وافقهم تسويغ كل ما ثبت في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم لا يكرهون شيئاً من ذلك ، إذ تنوع صفة الأذان الإقامة كتنوع صفة القراءات والتشهدات ونحو ذلك ، وليس لأحد أن يكره ما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته . اهـ .

وقال ابن القيم رحمه الله فى زاد المعاد فى موضع آخر : مما لا ينبغى الخلاف فيه ما نصه : وهذا من الاختلاف المباح الذى لا يعنف فيه من فعله ولا من تركه .

وهذا كرفع اليدين فى الصلاة وتركه ، وكالخلاف فى أنواع التشهدات وأنواع الأذان والإقامة ، وأنواع النسك من الإفراد والتمتع والقران .

تنبيـــه

قد جاء فى التثويب بعض الآثار عن عمر وبعض الأمراء ، والصحيح أنه مرفوع ، كما فى قصة بلال المتقدمة ، ولا يبعد أن ما جاء عن عمر أو غيره يكون تـكراراً لما سبق أن جاء عن بلال مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وقيل فيها هل هو خاص بالفجر أو عام فى كل صلاة يكون الإمام نائماً فيها ؟ والصحيح أنه خاص بالفجر وفى الأذان لا عند باب الأمير أو الإمام . وتقدم أثر عبد الله بن عمر فيمن ثوّب فى أذان الظهر أنه اعتبره بدعة وخرج من المسجد .

كيفية أداء الأذان

يؤدى الأذان بترسل وتمهل ، لأنه إعلان للبعيد ، والإقامة حدرا لأنها للحاضر القريب ، أما النطق بالأذان فيكون جزماً غير معرب .

قال فى المغنى : ذكر أبو عبد الله بن بطة ، أنه حال ترسله ودرجه أى فى الأذان والإقامة . لا يصل الكلام بعضه ببعض ، بل جزما . وحكاه عن ابن الأنبارى عن أهل اللغة ، وقال : وروى عن إبراهيم النخعى قال : شيئان مجزومان كانوا لا يعربونهما الأذان والإقامة ، قال : وهذا إشارة إلى إجماعهم .

حكم الأذان والإقامة

قال ابن رشد : واختلف العلماء فى حكم الأذان هل هو واجب أو سنة مؤكدة ؟ وإن كان واجباً فهل هو من فروض الأعيان أو من فروض الكفاية ؟ . اهـ .

فتراه يدور حكمه بين فرض العين والسنة المؤكدة ، والسبب فى هذا الاختلاف ، اختلافهم فى وجهة النظر فى الغرض من الأذان هل هو من حق الوقت للاعلام بدخوله أو من حق الصلاة ، كذكر من أذكارها أو هو شعار للمسلمين يميزهم عن غيرهم ؟

وسنجمل أقوال الأئمة رحمهم الله مع الإشارة إلى مأخذ كل منهم ثم بيان الراجح إن شاء الله .

أولا : اتفق الشافعى وأبوحنيفة على أنه سنة على مارجحه النووى عن الشافعى فى المجموع أنه سنة فى حق الجميع المنفرد والجماعة فى الحضر وفى السفر ، أى أنه لاتتعلق به صحة الصلاة .

وحكى عنه أنه فرض كفاية أى للجماعة أو للجمعة خاصة ، والدليل لهم فى ذلك حديث المسىء صلاته ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم علمه معهما الوضوء واستقبال القبلة ، ولم يعلمه أمر الأذان ولا الإقامة .

ثانياً : مالك جاء عنه أنه فرض على المساجد التى للجماعة وليس على المنفرد فرضاً وَلا سنة .

وعنه : أنه سنة مؤكدة على مساجد الجماعة ، ففرق مالك بين المنفرد ومساجد الجماعة . وفى متن خليل عندهم أنه سنة لجماعة تطلب غيرها فى فرض وقتى ، ولو جمعة أى وما عدا ذلك فليس بسنة . فلم يجعله على المنفرد أصلا . واختلف القول عنه فى مساجد الجماعة مابين الفرض والسنة المؤكدة ، واستدل بحديث ابن عمر رضى الله عنه : كان لايزيد على الإقامة فى السفر إلا فى الصبح ، وكان يقول إنما الأذان للإمام الذى يجتمع له الناس . رواه مالك .

وكذلك أثر ابن مسعود وعلقمة : صلوا بغير أذان ولا إقامة

قال سفيان ، كفتهم إقامة المصر ، وقال ابن مسعود : إقامة المصر تكفى ، رواهما الطبرانى فى الكبير بلين .

ثالثا : وعند الحنابلة : قال الخرقى : هو سنة أى كالشافعى وأبى حنيفة، وغير الخرقى قال كقول مالك .

رابعاً : عند الظاهرية فرض على الأعيان ، ويستدلون بحديث مالك ابن الحويرث وصاحبه ، قال لهما صلى الله عليه وسلم : « إذا كنتما فى سفر فأذنا وأقيما وليؤمكما أكبركما » . متفق عليه .

فحملوا الأمر على الوجوب .

هذا موجز أقوال الأئمة رحمهم الله مع الإشارة إلى أدلتهم فى الجملة ، وحكمه كما رأيت دائر بين السنة عموماً عند الشافعى وأبى حنيفة ، والوجوب عند الظاهرية .

والسنة المؤكدة أو فرض الكفاية عند مالك وغيره على تفصيل فى ذلك .

وقد رأيت النصوص عند الجميع ، ولكن من أسباب الخلاف فى حكم الأذان هو تردد النظر فيه هل هو من حق الوقت للإعلام بدخول الوقت ، أو هو حق الصلاة نفسها ، أو هو شعار المسلمين ؟

فعلى أنه من حق الوقت ، فأذان واحد ، فإنه يحصل به الإعلام ويكفى عن غيره ، ولا يؤذن من فاته أول الوقت ، ولا من يصلى فى مسجد قد صليت فيه الفريضة أولا ولا للفوائت .

وإن كان من حق الصلاة فهل هو شرط فى صحتها أو سنة مستقلة .

وعلى أنه للوقت للإعلام به ، فإنه يعارضه حديث قصة تعريسهم آخر الليل ، ولم يوقظهم إلا حر الشمس ، وأمره صلى الله عليه وسلم بالانتقال عن ذلك الوادى ثم نزولهم والأمر بالأذان والإقامة ، فلا معنى لكونه للوقت فى هذا الحديث ، وهو من رواية مالك فى الموطأ .

وعلى أنه للصلاة فله جهتان :

الأولى : إذا كان المصلى منفرداً ولا يطلب من يصلى معه .

والثانية : أنه إذا كانوا جماعة .

فإذا كان منفرداً لايطلب من يصلى معه ، فلا ينبغى أن يختلف فى كونه ليس شرطاً فى صحة الصلاة ، وليس واجباً عليه لأن الأذان للإعلام ، وليس هناك من يقصد إعلامه .

ولحديث المسىء صلاته المتقدم ذكره ، وقد يدل لذلك ظاهر نصوص القرآن فى بيان شروط الصلاة التى هى : الطهارة ، والوقت ، وستر العورة ، واستقبال القبلة .

فى الطهارة قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذ قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم) الآية .

وفى الوقت قال تعالى : (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل) الآية ونحوها .

وفى العورة قال تعالى : (يابنى آدم خـــذوا زينتكم عند كل مسجد) الآية .

وفى القبلة قال تعالى : (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام).

وأما فى الأذان : فقال تعالى : (وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً)

وقال فى سورة الجمعة فى هذه الآية (يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة) وكلاهما حكاية واقع ، وليس فيهما صيغة أمر كغير الأذان مما تقدم ذكره .

أما حديث ابن الحويرث فهو فى خصوص جماعة ، وليس فى شخص واحد كما هو نص الحديث .

وبقى النظر فيه فى حق الجماعة ، هل هو على الوجوب فى حقهم أم على الندب ؟ وإذا كان بالنصوص القرآنية المتقـدمة أنه ليس شرطاً لصحة صلاة الفرد ، فليس هو إذاً بشرط فى صحة صلاة الجماعة فيجعل الأمر فيه على الندب .

وعليـه حديث ابن أبى صعصعة أن أبا سعيـد قال له : « أراك

تحب الغنم والبادية ، فإذا كنت فى غنمك أو باديتك فأذنت للصلاة فارفع صوتك بالنداء ، فإنه لايسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة ، سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم » . رواه البخارى ومالك فى الموطإ والنسائى .

ومحل الشاهد فيه قوله رضى الله عنه : فأذنت للصلاة فارفع صوتك . فيفهم منه أنه إن لم يؤذن فلا شيء عليه ، وأنه يراد به الحث على رفع الصوت لمن يؤذن ولو كان فى البادية ، لما يترتب عليه من هذا الزجر .

أما كونه شعاراً للمسلمين فينبغى أن يكون وجوبه متعلقاً بالمساجد فى الحضر ، فيلزم أهلها ، كما قال مالك والشافعى فى حق المساجد .

قال الشافعى : يقاتلون عليه إن تركوه ، ذكره النووى فى المجموع لدليل الإغارة فى الصبح أو الترك بسبب سماعه ، وكذلك يتعلق فى السفر بالإمام ، وينبغى أن يحرص عليه لفعله صلى الله عليه وسلم فى كل أسفاره فى غزواته وفى حجه كما هو معلوم ، وما عدا ذلك فهو لاشك سنة لاينبغى تركها .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تقسيم نحو هذا فى المجموع فى الجزء الثانى والعشرين : وللأذان عدة جوانب تبع لذلك منها فى حالة الجمع بين الصلاتين ، فقد جاءت السنة بالأذان والإقامة للأولى .

منهما ، والاكتفاء بالإقامه للثانية ، كما فى الجمع بين الظهر والعصر بعرفة ، والمغرب والعشاء فى المزدلفة على الصحيح ، وهو من أدلة عدم الوجوب لكل صلاة .

ومنها أن الأذان على النساء أى لا وجوب . وإن أردن الفضيلة أتين به سراً ، وقد عقد له البيهقى بابا قال فيه : ليس على النساء أذان ولا إقامة ، وساق فيه عن عبد الله بن عمر موقوفا ، قال : ليس على النساء أذان ولا إقامة ، ثم ساق عن أسماء رضى الله عنها مرفوعا : « ليس على النساء أذان ولا إقامة ولا جمعة ولا اغتسال جمعة ، ولا تقدمهن امرأة ، ولكن تقوم فى وسطهن هكذا » . رواه الحكم ابن عبد الله الأيلى وهو ضعيف ، وقال: ورويناه فى الأذان والإقامة عن أنس بن مالك موقوفا ومرفوعا ، ورفعه ضعيف . وهو قول الحسن وابن المسيب وابن سيرين والنخعى .

تعدد المؤذنين لصلاة الجمعة

ولبقية الصلوات الخمس فى المسجد الواحد

أولا : ما يتعلق بالجمعة ، صور التعدد لها فيه صورتان ، صورة تعدد الأذان أى قبل الوقت وبعد الوقت ، وصورة تعدد المؤذنين بعد الوقت على ما سيأتى فى ذلك إن شاء الله ، أما تعدد الأذان فقد بوّب له البخارى رحمه الله فى صحيحه فى باب الجمعة قال : باب الأذان يوم الجمعة ، وساق حديث السائب بن يزيد ، قال: كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

فلما كان عثمان رضى الله عنه وكثر الناس زاد النداء الثالث على الزوراء ، ففيه الأذان أولا للوقت كبقية الصلوات ، وفيه أذان قبل الوقت زاده عثمان لما كثر الناس ، وهو المعنى بالثالث ، والاثنان الآخران هما الأذان الوقت ، والإقامة الموجودان من قبل .

وذكر ابن حجر رحمه الله فى الشرح ، تنبيهاً قال فيه : ورد ما يخالف ذلك الخبر بأن عمر رضى الله عنه هو الذى زاد الأذان .

ففى تفسير جويبر عن الضحاك عن زيادة الراوى عن برد بن سنان عن مكحول عن معاذ أن عمر أمر مؤذنيه أن يؤذنا للناس

الجمعة خارجا من المسجد حتى يسمع الناس ، وأمر أن يؤذن بين يديه ، كما كان فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأبى بكر . ثم قال عمر نحن ابتدعناه لكثرة المسلمين ا هـ

ثم ناقش ابن حجر هذا الأثر وقال : إنه منقطع ثم ذكر أنه وجد له مايقويه إلى آخر كلامه .

فهذا دليل على تعدد الأذان للجمعة قبل الوقت وعند دخوله ، سواء من عمر أو من عثمان أو منهما معاً ، رضوان الله عليهما .

أما مكان هذا الأذان وزمانه ، فإن المكان قد جاء النص أنه كان على الزوراء .

وقد كثر الكلام فى تحديد الزوراء مع اتفاقهم أنها مكان بالسوق ، وهذا يتفق مع الغرض من مشروعيته لتنبيه أهل السوق بوقت الجمعة للسعى إليها .

أما الزوراء بعينها فقال علماء تاريخ المدينة إنه اسم للسوق نفسها ، وقيل : مكان منها مرتفع كان عند أحجار الزيت ، وعند قبر مالك ابن سنان ، وعند سوق العباءة .

والشىء الثابت الذى لم يقبل التغير ، هو قبر مالك بن سنان ، لكن يقولون عنده ، وليس فى مكانه ، وقد بدا لى أن الزوراء هو مكان المسجد الذى يوجد الآن بالسوق فى مقابلة الباب المصرى

المعروف بمسجد فاطمة ، ويبدو لى أن الزوراء حرفت إلى الزهراء ، والزهراء عند الناس يساوى فاطمة لكثرة قولهم : فاطمة الزهراء ، ومعلوم قطعاً أن فاطمة الزهراء رضى الله عنها بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن لها مسجد فى هذا المكان ، فلا صحة لنسبة هـــذا المسجد إليها ، بل ولا مانسب لأبى بكر وعمر وعلى رضى الله عنهم من مساجد فى جوانب مسجد المصلى المعروف الآن بمسجد الغمامة ، وإنما صحة مانسب إليهم رضوان الله تعالى عليهم هو أن تلك الأماكن كانت مواقفهم فى مصلى العيد ، ولهذا تراها كلها فى هذا المكان المتواجدة فيه .

فأولهم أبوبكر رضى الله عنه ، وقد أخر موقفه عن موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى العيد تأدباً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء من بعده ، واختلفت أماكن مصلاهم فأقيمت تلك المساجد فى أماكن قيامهم .

أما ماينسب إلى فاطمة الزهراء فلا مناسبة له ولا صحة له ، وقد قال بعض المتأخرين : إنه منسوب إلى إحدى الفضليات من نساء العصور المتأخرة ، واسمها فاطمة ، وعليه فلعلها قد جددته ولم تؤسسه لأنه لاموجب أيضاً لتبرعها بإنشاء مسجد بهذا القرب من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبمناسبة العمل بالقضاء فقد عرض على صك شرط وقف للأشراف

الشراقة بالمدينة المنورة ، وفى بعض تحديد أعيانه يقول : الواقع فى طريق الزوراء ، ويحده جنوباً وقف الحلبى ، ووقف الحلبى موجود حتى الآن معروف يقع عن المسجد الموجود بالفعل فى الجنوب الشرق وليس بينه وبين المسجد المذكور إلا السور والشارع فقط ، وتاريخ هذا الصك قبل مائة سنة من تاريخ كتابة هذه الأحرف أى قبل عام ألف ومائتين من الهجرة .

وبهذا ترجح عندى أن موضع أذان عثمان رضى الله عنه كان بذلك المكان ، وأنه المتوسط بسوق المدينة ، وتقدر مسافته عن المسجد النبوى بحوالى مائتين وخمسين متراً تقريباً .

وقد كان الأذان الأول زمن النبى صلى الله عليه وسلم على المنارة ، وهكذا الأذان الوقت زمن الخلفاء الراشدين ، ثم من بعدهم . أما هذا الأذان فكان ابتداؤه من الزوراء ، ثم نقل إلى باب المسجد ، ثم نقل إلى ما بين يدى الإمام ، وذلك زمن هشام بن عبد الملك ، ثم نقل إلى المنارة .

أما زمانه فلم أقف على تحديد صحيح صريح ، كم كان بينه وبين الثانى ؟ وهل كان بعد دخول الوقت أو قبله .

وقد ذكر ابن حجر فى الفتح رواية عن الطبرانى مانصه : فأمر بالنداء الأول على دار له يقال لها الزوراء ، فكان يؤذن عليها ، فإذا

جلس على المنبر أذن مؤذنه الأول ، فإذا نزل أقام الصلاة ، وفى رواية له من هذا الوجه : فأذن بالزوراء قبل خروجه ليعلم الناس أن الجمعة قد حضرت ، إلى أن قال : وتبين بما مضى أن عثمان أحدثه لإعلام الناس بدخول وقت الصلاة قياساً على بقية الصلوات ، فألحق الجمعة بها ، وأبقى خصوصيتها بالأذان بين يدى الخطيب ، فتراه يرجح كونه بعد دخول الوقت وعند خروج عثمان أى من بيته وكان يسكن إلى تلك الجهة ، ولكن هذا لايتمشى مع الغرض من إيجاد هذا الأذان ، لأنه لما كثر الناس جعله فى السوق لإعلامهم ، فإذا كان بعد الوقت ، فأى فائدة منه ، وكيف يعد ثالثاً إنه يكون من تعدد المؤذنين لامن تعدد الأذان .

ثم إن مسكن عثمان رضى الله عنه كان بجوار مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحله معروف حتى الآن ، وكان يعرف برباط عثمان. فكيف يجعل هذا الأذان عند خروجه مع بعد مابين الزوراء ومكان سكناه .

ثم إن من المتفق عليه أن الأذان بين يدى الإمام هو الأذان الذى بعد دخول الوقت ، وتصح الصلاة بعده ، فالأذان الثالث كالأول بالنسبة للصبح ، وبهذا يترجح أنه كان قبل الوقت لابعده ، كالأول للصبح ليتحقق الغرض منه ، وعليه ينبغى أن يراعى فى زمنه مابينه وبين الثانى ومايتحقق به الغرض من رجوع أهل السوق وتهيئهم للجمعة

وهذا يختلف باختلاف الأماكن والبلاد، وسواء كان قبل الوقت أو بعده ، فلا بد من زمن بينهما يتمكن فيه أهل السوق من الحضور إلى المسجد وإدراك الخطبة .

ولو أخذنا بعين الاعتبار ما وقع لعثمان نفسه زمن عمر رضى الله عنه لما دخل المسجد وعمر يخطب فعاتبه عمر على التأخير ، ثم أحدث عثمان هذا الأذان فى عهده لوجدنا قرينة تقديمه عن الوقت لئلا يقع غيره فيما وقع هو فيه ، والله تعالى أعلم .

وسيأتى نص ابن الحاج على أنه قبل الوقت .

وهذا آخر مايتعلق بتعدد الأذان يوم الجمعة ، وسيأتى التنبيه على مايوجد من نداءات أخرى يوم الجمعة فى بعض الأمصار عند الكلام على ما استحدث فى الأذان وابتدع فيه ، مما ليس منه إن شاء الله .

أما تعدد المؤذنين يوم الجمعة

فقد جاء صريحاً فى صحيح البخارى فى باب رجم الحبلى من الزنا فى حديث طويل عن ابن عباس زمن عمر رضى الله عنه ، وفيه : مانصه : « فجلس عمر على المنبر ولما سكت المؤذنون قام فأثنى على الله بما هو أهله إلى آخر » الحديث .

فهذا نص صريح من البخارى أنه كان لعمر مؤذنون ، وكانوا يؤذنون حين يجلس على المنبر ، وكان يجلس إلى أن يفرغوا من الأذان ، ثم يقوم فيخطب أى كان أذانهم كلهم بعد دخول الوقت

قال ابن الحاج فى المدخل ، وكانوا ثلاثة يؤذنون واحداً بعد واحد ، ثم زاد عثمان أذاناً آخر بالزوراء قبل الوقت ، فتحصل من هذا وجود تعدد المؤذنين لصلاة الجمعة ، وكانوا زمن عمر ثلاثة وكانوا يؤذنون متفرقين واحداً بعد واحد .

وقد ذكر ابن حجر فى الفتح أيضاً ضمن كلامه على الحديث المتقدم تحت عنوان « المؤذن الواحد يوم الجمعة » رواية عن ابن حبيب أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا رقى المنبر وجلس أذن المؤذنون وكانوا ثلاثة واحداً بعد واحد ، فإذا فرغ الثالث قام فخطب .

ثم قال : فإنه دعوى تحتاج إلى دليل ، ولم يرد ذلك صريحاً من طريق متصلة يثبت مثلها .

ثم قال : ثم وجدته فى مختصر البويطى عن الشافعى ، وفى تعليق لسماحة رئيس الجامعة فى الحاشية على ذلك قال فى مخطوطة الرياض فى مختصر المزنى : وسواء كان فى مختصر البويطى أو المزنى فإن عزوه إلى الشافعى صحيح وابن حجر لم يعلق على وجود هذا الأثر بشىء .

وقال النووى فى المجموع : قال الشافعى رحمه الله فى البويطى :

والنداء يوم الجمعـــة هو الذى يكون والإمام على المنبر ، يكون المؤذنون يستفتحون الأذان فوق المنارة جملة حين يجلس الإمام على المنبر ليسمع الناس ، فيأتون إلى المسجد ، فإذا فرغوا خطب الإمام بهم . فهذا أيضاً نص الشافعى ينقله النووى على تعدد المؤذنين يوم الجمعة فوق المنارة جملة . والإمام على المنبر ، وبهذا تظهر مشروعية تعدد الأذان للجمعة ، قبل وبعد الوقت من عمل الخلفاء الراشدين ، وفى توفر الصحابة المرضيين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين مما يصلح أن يقال فيه إجماع سكوتى فى وفرة من الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، كما ثبتت مشروعية تعدد الأذان بعد الوقت من فعل الخلفاء أيضاً وإجماع الصحابة عليه مع أثر فيه نقاش مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم

أما مايتعلق بالأذان لبقية الصلوات الخمس فكالآتى :

أولا : تعدد الأذان ، فقد ثبت فى حديث بلال وابن أم مكتوم فى قوله صلى الله عليه وسلم : « إن بلالا ينادى بليل ، فكلوا واشربوا حتى ينادى ابن أم مكتوم » متفق عليه ، وهذا فى صلاة الفجر فقط لما فى الحديث من القرائن المتعددة التى منها : ينادى بليل فكلوا واشربوا حتى ينادى ابن أم مكتوم ، أى إن أذان بلال قبل الفجر يحل الطعام وأذان ابن أم مكتوم بعد دخول الوقت حين يحرم الطعام على الصائم

وفى رواية : لم يكن ابن أم مكتوم يؤذن حتى يقال له أصبحت أصبحت . وكان بينهما من الزمن ، ففى بعض الروايات أنه لم يكن بينهما إلا أن ينزل هذا ويرقى هذا . رواه مسلم .

وفى رواية للجماعة عن ابن مسعود قال صلى الله عليه وسلم : « لا يمنعن أحدكم أذان بلال من سحوره ، فإنه يؤذن ـ أو قال : ينادى بليل ليرجع قائمكم ويوقظ نائمكم » .

قال الشوكانى : يريد القائم المتهجد إلى راحته ليقوم إلى صلاة الصبح نشيطا أو يتسحر ، إن كان له حاجة إلى الصيام ، ويوقظ النائم ليتأهب للصلاة بالغسل والوضوء ، فالأول يشعر بتواليهما مع فرق يسير ، والآخر يدل بالفرق بينهما ، وكلاهما صحيح السند .

وقد فسر هذا النووى فى شرح مسلم ونقله عنه الشوكانى فى نيل الأوطار بقوله : قال العلماء معناه : إن بلالا كان يؤذن قبل الفجر ، ويتربص بعد أذانه للدعاء ونحوه ، ثم يرقب الفجر ، فإذا قارب طلوعه نزل فأخبر ابن أم مكتوم فيتأهب ابن أم مكتوم بالطهارة وغيرها ، ثم يرقى ويشرع فى الأذان مع أول طلوع الفجر ، وهذا يتفق مع قوله صلى الله عليه وسلم : « ليرجع قائمكم ويوقظ نائمكم » إلى آخره ، ويصدقه ما جاء فى الأثر أيضاً عن ابن أم مكتوم وكان رجلا أعمى فلا يؤذن حتى يقال له : أصبحت أصبحت ، وهذا الأذان الأول للفجر هو مذهب الجمهور ما عدا الإمام أبا حنيفة رحمه الله من الأئمة الأربعة ، وحمل أذان بلال على النداء بغير ألفاظ الأذان .

قال الشوكانى : وعند الأحناف أن أبا حنيفة رحمه الله لما أذن بلال قبل الوقت أمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يرجع فيقول :

إلا أن العبد قد نام ، وهـذا الأثر رواه الترمذى وقال حديث غير محفوظ .

وفى فتح القدير للأحناف ، مانصه : ولا يؤذن لصلاة قبل دخول وقتها ، ويعاد فى الوقت .

وقال أبو يوسف : يجوز للفجر فى النصف الأخير من الليل ، قال فى الشرح : وهو قول الشـافعى ، وقال : لتوارث أهل الحرمين ، فيكون أبو يوسف صاحب أبى حنيفة رحمهما الله قد وافق الجمهور فى مشروعية الأذان قبل الفجر قبل الوقت ، وإن ما استدل به أن أبو حنيفة ليس بمحفوظ ، وقد جوزه أبو يوسف فى النصف الأخير من الليل .

وجاء نص المالـكية أنه فى السدس الأخير ، قال فى مختصر خليل : غير مقدم على الوقت إلا الصبح فبسدس الليل الأخير .

وعند الحنابلة فى المغنى مانصـه : قال أصحـابنا : ويجوز الأذان للفجر بعد نصف الليل ، وهذا مذهب الشافعى إلى قوله :

وقد روى الأثرم عن جابر قال : كان مؤذن مسجـــد دمشق يؤذن لصلاة الصبح فى السحر بقدر مايسير الراكب ستة أميال فلاينكر ذلك مكحول ولايقول فيه شيئاً . اهـ .

تنبيـــه

قال فى المغنى : وقال طائفـة من أهل الحديث إذا كان مؤذنان

يؤذن أحدهما قبل طلوع الفجر والآخر بعده ، فلا بأس أى ليعرف الأول منهما من الثانى ويلتزما بذلك ليعلم الناس الفرق بين الأذانين كما كان زمن النبى صلى الله عليه وسلم . انتهى ملخصاً .

أما تعدد المؤذنين لبقية الأوقات الخمسة فكالآتى :

أولا : فإن الأصل فى ذلك عند العلماء هو حديث بلال وابن أم مكتوم المتقدم ذكره فى صلاة الفجر ، ثم قاسوا عليه للحاجة بقية الصلوات ، كما استأنسوا الزيادة عمر وعثمان فى الجمعة للجماعة لزيادة الإعلام كما تقدم .

ثانياً : نسوق موجز الأقوال فى ذلك عند الشافعية :

قال النووى فى شرح مسلم : باب استحباب اتخاذ موذنين للمسجد الواحد ، وساق كلامه على حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذنان : بلال وابن أم مكتوم .

ثم قال ما نصه : وفى الحديث استحباب مؤذنين للمسجد الواحد ، يؤذن أحدهما قبل الفجر والآخر عند طلوعه .

قال أصحابنا : فإذا احتاج إلى أكثر من مؤذنين اتخذ ثلاثة ، وأربعة فأكثر بحسب الحاجة .

وقد اتخذ عثمان رضى الله عنه أربعة للحاجة عند كثرة الناس .

قال أصحابنا : وإذا ترتب للأذان اثنان فصاعداً ، فالمستحب ألا يؤذنوا دفعة واحدة ، بل إن إتسع الوقت ترتبوا فيه ، فإن تنازعوا فى الابتداء أقرع بينهم ، وإن ضاق الوقت ، فإن كان المسجد كبيراً أذنوا متفرقين فى أقطاره ، وإن كان ضيقاً وقفوا معاً وأذنوا ، وهذا إذا لم يؤد اختلاف الأصوات إلى تشويش ، فإن أدى إلى ذلك لم يؤذن إلا واحد . اهـ .

فهذا نص النووى على قول أصحابه أى الشافعية فى المسألة ساقه فى شرح مسلم ، وقال فى المجموع شرح المهذب على نص المتن إذ قال : المتن : والمستحب أن يكون المؤذن للجماعة اثنين . وذكر حديث بلال وابن أم مكتوم ، فإن احتاج إلى الزيادة جعلهم أربعة ، لأنه كان لعثمان أربعة ، والمستحب أن يؤذن واحد بعد واحد ، لأن ذلك أبلغ فى الإعلام .

قال النووى فى الشرح : قال أبو على الطبرى : تجوز الزيادة إلى أربعة ، ثم ناقش المسألة مع من خالفه فى العدد : ثم قال : العبرة بالمصلحة ، فكما زاد عثمان إلى أربعه للمصلحة جاز لغيره الزيادة .

وذكر عن صاحب الحاوى إلى ثمانية ، ثم قال : فرع . وساق فيه ما نصه :

فإن كان للمسجد مؤذنان أذن واحد بعد واحد ، كما كان بلال

وابن أم مكتوم ، فإن تنازعوا فى الابتداء أقرع بينهم ، فإن ضاق الوقت والمسجد كبير أذنوا فى أقطاره كل واحد فى قطر ليسمع أهل تلك الناحية ، وإن كان صغيرا أذنوا معا وإذا لم يؤد إلى تهويش .

قال صاحب الحاوى وغيره : ويقفون جميعا عليه كلمة كلمة فإن أدى إلى تهويش أذن واحد . إلخ .

وفى صحيح البخارى ، باب من قال : ليؤذن فى السفر مؤذن واحد ، وساق بسنده عن مالك بن الحويرث « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فى نفر من قومى ، فأقمنا عنده عشرين ليلة وكان رحيما ورفيقا ، فلما رأى شوقنا إلى أهالينا . قال : ارجعوا فكونوا فيهم وعلموهم وصلوا إذا حضرت الصلاة ، فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم » .

قال فى الفتح أثناء الشرح : وعلى هذا فلا مفهوم لقوله : مؤذن واحد فى السفر : لأن الحضر أيضا لا يؤذن فيه إلا واحد ، ولو احتيج إلى تعددهم لتباعد أقطار البلد أذن كل واحد فى جهة ولا يؤذنون جميعا .

وقد قيل : إن أول من أحدث التأذين جميعا بنو أمية .

وقال الشافعى فى الأم : وأحب أن يؤذن مؤذن بعد مؤذن ، ولا يؤذنون جميعا ، وإن كان مسجد كبير فلا بأس أن يؤذن فى كل جهة منه ، مؤذن ، يسمع من يليه فى وقت واحد . اهـ .

وهذا الذى حكاه الشارح عن الشافعى موجود فى الأم ، ولكن بلفظ فلا بأس أن يؤذن فى كل منارة له مؤذن فيسمع من يليه فى وقت واحد . اهـ .

وهذا القدر كاف لبيان قول الشافعى وأصحابه ، من أن التعدد جائز بحسب المصلحة .

وعند مالك جاء فى الموطأ حديث بلال وابن أم مكتوم أيضاً .

وقال الباجى فى شرحه : ويدل هـذا الحديث على جواز اتخاذ مؤذنين فى مسجد يؤذنان ، لصلاة واحدة .

وروى على بن زياد عن مالك : لا بأس أن يؤذن للقوم فى السفر والحرس والمركب ثلاثة مؤذنين وأربعة ، ولا بأس أن يتخذ فى المسجد أربعة مؤذنين وخمسة .

قال ابن حبيب : ولا بأس فيما اتسع وقته من الصلوات ، كالصبح والظهر والعشاء ، أن يؤذن خمسة إلى عشرة واحد بعد واحد ، وفى العصر من ثلاثة إلى خمسة ، ولا يؤذن فى المغرب إلا واحد .

فهذا نص مالك والمالكية فى جواز تعدد الأذان فى المسجد الواحد ، يؤذنون واحدا بعد واحد .

وفى متن خليل مانصه : وتعدده وترتيبهم إلا المغرب ، وجمعهم كل على أذان .

وذكر الشارح الخرشى من خمسة إلى عشرة فى الصبح والظهر والعشاء، وفى العصر من ثلاثة إلى خمسة ، وفى المغرب واحد أو جماعة . إلخ .

وعند الحنابلة قال فى المغنى : « فصل » ولا يستحب الزيادة على مؤذنين لحديث بلال وابن أم مكتوم أيضاً ، ثم قال : إلا أن تدعو الحاجة إلى الزيادة عليهما فيجوز .

فقد روى عن عثمان رضى الله عنه ، أنه كان له أربعة مؤذنين . وإن دعت الحاجة إلى أكثر منهم كان مشروعاً ، وإذا كان أكثر من واحد وكان الواحد يسمع الناس ، فالمستحب أن يؤذن واحد بعد واحد ، لأن مؤذنى النبى صلى الله عليه وسلم كان أحدهما يؤذن بعد الآخر ، وإن كان الإعلام لا يحصل بواحد أذنوا على حسب ما يحتاج إليه ، إما أن يؤذن كل واحد فى منارة أو ناحية أو دفعة واحدة فى موضع واحد .

قال أحمد : إن أذن عدة فى منارة فلا بأس ، وإن خافوا من تأذين واحد بعد واحد فوات أول الوقت ، أذنوا جميعاً دفعة واحدة .

وعند الأحناف : جاء فى فتح القدير شرح الهداية فى سياق إجابة المؤذن وحكاية الأذان ما نصه :

إذا كان فى المسجد أكثر من مؤذن أذنوا واحداً بعد واحد ،

فالحرمة للأول إلى أن قال : فإذا فرض أن سمعوه من غير مسجده تحقق فى حقه السبب ، فيصير كتعددهم فى المسجد الواحد ، فإن سمعهم معاً أجاب معتبراً كون جوابه لمؤذن مسجده ، هـذه نصوص الأئمة رحمهم الله فى جواز تعدد المؤذنين والأذان فى المسجد الواحد للصلاة الواحدة متفرقين أو مجتمعين .

وقال ابن حزم : ولا يجوز أن يؤذن إثنان فصاعداً معاً ، فإن كان ذلك فالمؤذن هو المبتدىء إلى أن قال :

وجائز أن يؤذن جماعة واحداً بعد واحد للمغرب وغيرها سواء فى كل ذلك ، فلم يمنع تعدد الأذان من عدة مؤذنين فى المسجد الواحد أحد من سلف الأمة .

الحكمة فى الأذان

أما الحكمة فى الأذان فإن أعظمها أن من خصائص هذه الأمة كما تقدم فى أصل مشروعيته ، وقد اشتمل على أصول عقائد التوحيد تعلن على الملأ ، تملأ الأسماع حتى صار شعار المسلمين .

ونقل عن القاضى عياض رحمه الله قوله :

إعلم أن الأذان كلام جامع لعقيدة الإيمان مشتمل على نوعه من العقليات والسمعيات ، فأوله : إثبات الذات وما تستحقه من الكمالات

والتنزيه عن أضدادها وذلك بقول « الله أكبر » وهذه اللفظة مع اختصار لفظها دالة على ما ذكرناه .

ثم يصرح بإثبات الوحدانيـة ونفى ضدها من الشركة المستحيلة فى حقه سبحانه وتعالى ، وهذه عمدة الإيمان والتوحيد المقدمة على كل وظائف الدين ، ثم يصرح بإثبات النبوة والشهادة بالرساله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهى قاعدة عظيمة بعد الشهادة بالوحدانية . وموضعهـا بعد التوحيد لأنها من باب الأفعال الجـائزة الوقوع ، وتلك المقـدمات من باب الواجبات وبعد هذه القواعد كلمات العقائد العقليات ، فدعا إلى الصلاة وجعلها عقب إثبات النبوة ، لأن معرفة وجوبها من جهة النبى صلى الله عليه وسلم ، لا من جهة العقل .

ثم دعا إلى الفلاح وهو الفوز والبقاء فى النعيم المقيم ، وفيه إشعار بأمور الآخرة من البعث والجزاء وهى آخر تراجم عقائد الإسلام . إلخ .

ومراده بالعقليات فى العقائد أى إثبات وجود الله وأنه واحد لا شريك له ، وهو المعروف عندهم بقانون الإلزام ، الذى يقال فيـه إن الموجود إما جائز الوجود أو واجبه ، فجائز الوجود جائز العدم قبل وجودة واستوى الوجود والبقاء فى العـدم قبل أن يوجد ، فترجح وجوده على بقائه فى العدم . وهذا الترجيح لابد له من مرجح وهو الله تعالى . وواجب الوجود لم يحتج إلى موجد . ولم يجز فى صفة عـدم

وإلا لاحتاج موجده إلى موجد ، ومرجح وجوده على موجود .

وهكذا فاقتضى الإلزام العقلى وجوب وجود موجد واجب الوجود ، وهذا من حيث الوجود فقط ، وقد أدخل العقل فى بعض الصفات التى يستلزمها الوجود ، والحق أن العقل لا دخل له فى العقائد من حيث الإثبات أو النفى ، لأنها سمعية ولا تؤخذ إلا عن الشارع الحكيم ، لأن العقل يقصر عن ذلك ، ومرادنا التنبيه على إدخال العقليات هنا فقط .

وقد سقنا كلام القاضى عياض هذا فى حكمة الأذان لوجاهته ، ولتعلم من خصوصية الأذان فى هذه الأمة وغيرها به أنه ليس بصلصلة ناقوس أجوف ، ولا أصوات بوق أهوج ، ولا دقات طبل أرعن ، كما هو الحال عند الآخرين ، بل هو كلمات ونداء يوقظ القلوب من سباتها ، وتفيق النفوس من غفلتها ، وتكف الأذهان عن تشاغلها ، وتهيىء المسلم إلى هذه الفريضة العظمى ، ثانية أركان الإسلام وعموده .

فإذا ما سمع الله أكبر الله أكبر مرتين ، عظم الله فى نفسه ، واستحضر جلاله وقدسه واستصغر كل شىء بعد الله ، فلا يشغله شىء عن ذكر الله ، لأن الله أكبر من كل شىء ، فلا يشغل نفسه عنه أى شىء .

فإذا سمع أشهد أن لا إله إلا الله ، علم أن من حقه عليه طاعة الله وعبادته .

وإذا سمع : أشهد أن محمداً رسول الله ، علم أنه يلزمه استجابة داعى الله .

وإذا سمع حى على الصلاة حى على الفلاح ، علم أن فلاحه فى صلاته فى وقتها لا فيما يشغله عنها .

وهكذا فكان ممشاه إليها تخشعاً ، وخطاه إلى المسجد تطوعاً مع حضور القلب واستجماع الشعور .

ومن هنا أيضاً ندرك السر فى طلب السامع محاكاة الأذان تبعاً للمؤذن ليرتبط معه فى إعلانه وعقيدته وشعوره ، كما جاء فى أثر عمرو ابن العاص رضى الله عنه أن رجلا قال : يا رسول الله إن المؤذنين يفضلوننا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل مثل ما يقولون ، فإذا انتهيت فاسأل تعطه » . رواه أبو داود .

وقد قدمنا هذا الموضوع هنا ، وإن كان ليس من منهج الكتاب ، ولكن لموجب اقتضاه ، ولمناسبة مبحث الأذان .

أما الموجب فهو أنى سمعت منذ أيام أثناء الكتابة فى مباحث الأذان ، وسمعت من إذاعة لبلد عربى مسلم أن كاتباً استنكر الأذان فى الصبح خاصة ، وفى بقية الأوقات بواسطة المكبر للصوت ، وقال إنه يرهق الأعصاب وخاصة عند أداء الناس لأعمالهم أو عند الفراغ منها والعودة لراحتهم ، ولا سيما فى الفجر عند نومهم ، فكان وقعه أليماً أن يصدر

ذلك وينشر ، ولكن أجاب عليه أحد خطباء الجمع فى خطبة وافية ، وأفهمه أن الإرهاق والاضطراب إنما هو من عدم الاستجابة لهذا النداء ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر أن الشيطان يبول فى أذن النائم ، وأنه يعقد عليه ثلاث عقد ؛ فإذا ما استيقظ وذكر الله انحلت عقدة ، وإذا توضأ انحلت عقدة أخرى ، فإذا صلى انحلت العقدة الثالثة ، وأصبح نشيطاً إلى غير ذلك من الرد الكافى .

ولا شك أن مثل تلك الكتابة لا تصدر إلا ممّن لا يعى معنى الأذان .

هذا ما استوجب عرض الحكمة من الأذان ، وإن كانت مجانبة لمنهج الكتاب ، ولكن بمناسبة مباحث الأذان يغتفر ذلك ، وبالله التوفيق .

محاكاة المؤذن

تعتبر محاكاة المؤذن ربطاً للسامع الأذان ، وتنبيهاً له لموضوعه ، جاء الحديث : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول » رواه البخارى .

وفى رواية عنده عن معاوية رضى الله عنه أنه قال ـ أى معاوية ـ : وهو على المنبر مثل قول المؤذن إلى قوله : أشهد أن محمداً رسول الله ، ولما قال المؤذن « حى على الصلاة » قال معاوية : « لا حول ولا قوة إلا بالله » ، وكذلك « حى على الفلاح » ، ثم قال : « هكذا سمعنا نبيكم صلى الله عليه وسلم » .

وعند النسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه : « كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فقام بلال ينادى ، فلما سكت قال صلى الله عليه وسلم : من قال مثل هذا يقيناً دخل الجنة » .

كيفية المحاكاة ، فى الحديث الأول فقولوا مثلما يقول ، وهكذا يشعر بتتبعه جملة جملة ، وفى الحديث الثانى : فلما سكت قال صلى الله عليه وسلم : « من قال مثل هذا وبعد السكوت تنطبق المثلية بمجىء الأذان بعد فراغ المؤذن ، فوقع الاحتمال » .

وقد جاء عند مسلم وأبى داود ما يؤيد الأول ، فعن عمر رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قال المؤذن : الله أكبر

الله أكبر ، فقال أحدكم : الله أكبر الله أكبر ، ثم قال : أشهد ألا إله إلا الله ، قال : أشهد ألا إله إلا الله ، ثم قال : أشهد أن محمداً رسول الله ، قال أشهد أن محمداً رسول الله ، ثم قال : حى على الصلاة قال : لا حول ولاقوة إلا بالله ، ثم قال : حى على الفلاح ، قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال : الله أكبر الله أكبر . قال : الله أكبر الله أكبر ، ثم قال : لا إله إلا الله من قلبه دخل الجنة » .

فهذا نص صريح فى أن محاكى المؤذن يتابعه جملة جملة إلى آخره ما عدا الحيعلتين . فإنه يأتى بدلا منهما بالحوقلة . وقالوا : إن الحيعلتين نداء للاقبال على المنادى . وهذا يصدق فى حق المؤذن . أما الذى يحكى الأذان فلم يرفع صوته ولا يصدق عليه أنه ينادى غيره فلا أجر له فى نطقه بهما . فيأتى بلا حول ولا قوة إلا بالله لأمرين : الأول أنه ذكر يثاب عليه سراً وعلانية . والثانى : استشعار بأنه لا حول له عن معصية . ولا قوة له على طاعة إلا بالله العلى العظيم . وفيه استعانة بالله وحوله وقوته على إجابة هذا النداء . وأداء الصلاة مع الجماعة .

وقد أخذ الجمهور بحديث عمر عند مسلم بمحاكاة المؤذن فى جميع الأذان على النحو المقدم . وعند مالك يكتفى إلى الحوقلة لحديث معاوية . ونص كتب المالكية أنه هو المشهور فى المذهب . وغير المشهور أى مقابل المشهور طلب حكاية الأذان جميعه ،ذكره الزمخشرى على خليل .

بعض الزيادات على ألفاظ الأذان

تقدم ذكر الحوقلة عند الحيعلة فى بعض روايات مسلم وغيره ، عند الشهادتين يقول زيادة : وأنا أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله رضيت بالله ربا ، وبمحمد رسولا . وبالإسلام دينا ، غفرت له ذنوبه .

الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وسؤال الله له الوسيلة

وفى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه : أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول ، ثم صلوا علىَّ فإنه من صلّى علىَّ صلاةً صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون هو ، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت له الشفاعة » وهذا عام للأذان فى الصلوات الخمس إلا أنه جاء فى المغرب والفجر بعض الزيادات ، ففى المغرب حكى النووى : أنه له أن يقول بعد النداء : اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعاتك اغفر لى ، ويدعو بين الأذان والإقامة . ذكره صاحب المهذب وعزاه لحديث أم سلمة ، وأقره النووى فى المجموع .

أما فى سماع أذان الفجر فيقول عند الصلاة خير من النوم : صدقت وبررت . حكاه النووى فى المجموع .

وعن الرافعى يقول : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الصلاة خير من النوم .

وإذا سمع المؤذن وهو فى الصلاة ، نص العلماء على أنه لا يحكيه ، لأنه فى الصلاة لشغلا ، وإذا سمعه وهو فى المسجد جالس نص أحمد أنه لا يقوم حالا للصلاة حتى يفرغ المؤذن أو يقرب .

وإذا دخل المسجد وهو يؤذن استحب له انتظاره ليفرغ ويقول مثل ما يقول جمعا بين الفضيلتين ، وإن لم يقل كقوله وافتتح الصلاة ، فلا بأس ذكره صاحب المغنى عن أحمد رحمه الله .

إجابة أكثر من مؤذن

وللعلماء مبحث فيما لو سمع أكثر من مؤذن ، قال النووى : لم أر فيه شيئاً لأصحابنا ، وفيه خلاف للسلف ، وقال حكاه القاضى عياض فى شرح مسلم ، والمسألة محتملة ، ثم قال : والمختار أن يقال : المتابعة سنة متأكدة يكره تركها لتصريح الأحاديث الصحيحة بالأمر ، وهذا يختص بالأول لأن الأمر لا يقتضى التكرار .

وذكره صاحب الفتح وقال : وقال ابن عبد السلام : يجيب كل واحد بإجابة لتعدد السبب . اهـ .

وعند الأحناف الحق للأول .

وأصل هذه المسألة فى مبحث الأصول ، هل الأمر المطلق يقتضى تكرار المأمور به أم لا ؟

وقد بحث هذا الموضوع فضيلة شيخنا رحمة الله تعالى عليه فى مذكرة الأصول وحاصله : إن الأمر إما مقيد بما يقتضى التكرار أو مطلق عنه : ثم قال : والحق أن الأمر المطلق لا يقتضى التكرار بل يخرج من عهدته بمرة ، ثم فصل رحمة الله تعالى عليه القول فيما اتفق عليه وما اختلف فيه ، ومنه تعدد حكاية المؤذن وبحثها بأوسع فى الأضواء عن تعدد الفدية فى الحج ، والواقع أن سبب الخلاف فيما اختلف فيه إنما هو من باب تحقيق المناط هل السبب المذكور مما يقتضى التعدد أم لا ؟

والأسباب فى هذا الباب ثلاثة أقسام ، قسم يقتضى التكرار قطعا ، وقسم لا يقتضيه قطعا ، وقسم هو محل الخلاف .

فمن الأسباب المقتضية التكرار قطعا : مالو ولد له توأمان فإن عليه عقيقتين ، ومنها : لو ضرب حاملا فأجهضت جنينين لوجبت عليه غرتان .

ومن الأسباب التى لا تقتضى التكرار مالو أحدث عدة أحداث من نواقض الوضوء فأراد أن يتوضأ فإنه لا يكرر الوضوء بعدد الأحداث ،

ويكفى وضوء واحد ، وكذلك موجبات الغسيل لو تعددت قبل أن يغتسل فإنه يكفيه غسل واحد عن الجميع .

ومما اختلف فيه ما كان دائراً بين هذا وذاك ، كما لو ظاهر من عدة زوجات هل عليه كفارة واحدة نظراً لما أوقع من ظهار أم عليه عدة كفارات نظراً لعدد ظاهر منهن ؟ وكذلك إذا ولغ عدة كلاب فى إناء هل يعفر الإناء مرة واحدة ، أم يتعدد التعفير لتعدد الولوغ من عدة كلاب ؟

ومن ذلك ما قالوه فى إجابة المؤذن إذا تعدد المؤذنون تعددت الأسباب ، فهل تتعدد الإجابة أم يكتفى بإجابة واحدة . تقدم قول النووى أنه لم يجد شيئاً لأصحابه ، وكلام العز بن عبد السلام بتعدد الإجابة وبالنظر الأصولى ، نجد تعدد المؤذنين ليس كتعدد نواقض الوضوء لأن المتوضىء إذا أحدث ارتفع وضوءه وليس عليه أن يتوضأ لهذا الحدث ، فإذا أحدث مرة أخرى لم يقع هذا الحدث الثانى على طهر ولم يجد حدثاً آخر .

وهكذا مهما تعددت الأحداث ، فإذا أراد الصلاة كان عليه أن يرفع حدثه فيكفى فيه وضوء واحد ، ولكن مستمع المؤذن حينما سمع المؤذن الأول فهو مطالب بمحاكاته ، فإن فرغ منه وسمع مؤذناً آخر ، فإن من حق هذا المؤذن الآخر أن يحاكيه ، ولا علاقة لأذان هذا بذاك ، فهو من باب تجدد السبب وتعدده أو هو إليه أقرب ،

كما لو سمع أذان الظهر فأجابه ثم سمع أذان العصر فلا يكفى عنه إجابة أذان الظهر ، فإن قيل : قد اختلف الوقت وجاء أذان جديد ، فيقال قد اختلف المؤذن فجاء أذان جديد .

وأقرب ما يكون لهذه المسألة مسألة الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم عند ذكره فى حديث قوله صلى الله عليه وسلم « آمين آمين » ثلاث مرات وهو يصعد المنبر ، ولما سئل عن ذلك قال : « أتانى جبريل فقال يا محمد من ذكرت عنده ولم يصل عليك باعده الله فى النار فقل: آمين فقلت آمين» ، وذكر بقية المسائل فإن بهذا يتعين تكرار الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم عند كل مايسمع ذكره صلوات الله وسلامه عليه ، وهنا عليه تكرار محاكاة المؤذن، كما رجحه ابن عبد السلام والله تعالى أعلم .

تنبيه

وإذا سمع المؤذن وهو فى صلاة فلا يقول مثل مايقول المؤذن ، وإذا كان فى قراءة أو دعاء أو ذكر خارج الصلاة ، فإنه يقطعه ويقول مثل قول المؤذن .

قال ابن تيمية فى الفتاوى وابن قدامة فى المغنى ، والنووى فى المجموع .

تنبيـــه

ولا يجوز النـداء للصلاة جمعة أو غيرها من الصـلوات الخمس إلا بهذه الألفاظ المتقدم ذكرها ، وما عداها مما أدخله الناس لا أصل له ، كالتسبيح قبل الفجر ، والتسبيح والتحميد والتكبير يوم الجمعة بما يسمى [بالتطليع] ونحوه فكل هذا لانص عليه ولا أصل له .

وقد نص فى فتح البـارى رداً على ابن المنير ، حيث جعل بعض الهيئات أو الأقوال من مكملات الإعلام ، فقال ابن حجر : وأعزب ابن المنـير ولو كان ماقاله على إطلاقه لـكان ما أحدث من التسبيح قبل الصبح وقبل الجمعة ، ومن الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم من جملة الأذان ، وليس كذلك لا لغة ولا شرعا .

وفى الحاشية للشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز تعليق على كلام ابن المنير بقوله هـذا فيه نظر . والصواب أن ما أحدثه الناس من رفع الصوت بالتسبيح قبل الأذان والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم بعده ، كما أشار إليه الشارع بدعة يجب على ولاة الأمر إنكارها حتى لايدخل فى الأذان ما ليس منه ، وفيما شرعه الله غنيـة وكفاية عن المحدثات ، فتنبـــه .

وقال فى الفتح أيضاً مانصه : وما أحدث الناس قبل وقت الجمعـة من الدعاء إليها بالذكر والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فهو فى

بعض البلاد دون بعض ، واتباع السلف الصالح أولى ، وقال ابن الحاج فى المدخل جلد ٢ ص ٢٥٤ ، وينهى المؤذنين عما أحدثوه من التسبيح بالليل ، وإن كان ذكر الله تعالى حسناً وعلناً لكن فى المواضع التى تركها الشارع صلوات الله وسلامه عليه ، ولم يعين فيها شيئاً معلوما .

وقال بعده بقليل : وكذلك ينبغى أن ينهاهم عما أحدثوه من صفة الصلاة والتسليم على النبى صلى الله عليه وسلم عند طلوع الفجر ، وإن كانت الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم من أكبر العبادات وأجلها ، فينبغى أن يسلك بها مسلكها ، فلا توضع إلا فى مواضعها التى جعلت لها .

وقال صاحب الإبداع فى مضار الابتداع مانصه :

ومن البدع مايسمى بالأولى والثانية ، أعنى مايقع قبل الزوال يوم الجمعة من الدعاء إليها بالذكر والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك ، ولا خلاف فى أن ذلك لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عهد السلف الصالح ، وإنما النظر فى ذمه واستحسانه . اهـ

وهذا النظر مفروغ منه فى التنبيهات المتقدمة لابن حجر وابن الحاج وابن باز .

والقاعدة الأصولية الفقهية : أن العبادات مبناها على التوقيف ،

وما لم يكن ديناً ولا عبادة عند السلف الصالح فلا حاجة إليه اليوم، كما قال مالك رحمه الله : لن يصلح آخر هـذه الأمة إلا ما أصلح أولها .

وقد ذكر صاحب الإبداع أيضاً تاريخ إحداث رفع الصوت بالصلاة والتسليم على النبي الكريم عقب الأذان، فقال : كان ابتداء ذلك فى أيام السلطان الناصر صلاح الدين بن أيوب وبأمره فى مصر وأعمالها ، لسبب مذكور فى كتب التاريخ . اهـ

والسبب يتعلق ببدعة الفاطميين بسب بعض الأشخاص على المنابر والمنائر ، فغيَّر عمر بن عبد العزيز رحمه الله ما كان على المنابر بقوله : إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر .

وكذلك غير صلاح الدين ما كان بعد الأذان بالصلاة والتسليم على النبي صلى الله عليه وسلم .

تنبيـــه

من أسباب تمسك بعض البلاد بهذين العملين هو ألا يؤذن قبل الجمعة ، فاعتاضوا عن الأذان بما يسمى التطليع أو بالأولى والثانية أى التطليعة الأولى والتطليعة الثانية ، وكذلك لا يؤذنون للفجر قبل الوقت فاستعاضوا عنه بالتسبيح والتكبير وغيره .

أما الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم عقب كل أذان ، فقد قاسوا المؤذن على السامع فى حديث : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول ، ثم صلوا علىّ ، فإن من صلى علىّ مرة صلى الله عليه بها عشراً » .

فقالوا : والمؤذن أيضاً يصلى ويسلم ، ثم زادوا فى القياس خطة وجعلوا صلاة المؤذن وتسليمه على النبي صلى الله عليه وسلم بصوت مرتفع كالأذان ، وبهذا تعلم أنه ما أميتت سنة إلا ونشأت بدعة ، وأن قياس المؤذن على السامع ليس سليما .

وتقدم لك أن محاكاة المؤذن لربط السامع بالأذان ليتجاوب معه فى معانيه ، ولو قيل : إن المؤذن أن يصلى ويسلم على النبي صلى الله عليه وسلم سراً بعد الفراغ من الأذان ، وأن يسأل الله الوسيلة للرسول صلى الله عليه وسلم ليشارك فى الأجرين : أجر الأذان وأجر سؤال الوسيلة . لكان له أجر . والعلم عند الله تعالى .

حى على خير العمل فى الأذان

اتفق الأئمة رحمهم الله على أنها ليست من ألفاظ الأذان ، وحكاها الشوكانى عن العترة ، وناقش مقالتهم وآثارها بأسانيدها .

ومما جاء فيها عندهم أثر عن ابن عمر ، أنه كان يؤذن بها أحياناً .

ومنها عن على ابن الحسين أنه قال : هو الأذان الأول .

ثم قال : وأجاب الجمهور عن كل ذلك بأن أحاديث ألفاظ الأذان فى الصحيحين وغيرهما لم يثبت فيهما شىء من ذلك .

قالوا : وإذا صح ما روى أنه الأذان الأول فهو منسوخ بأحاديث الأذان لعدم ذكره فيها .

وقد أورد البيهقى حديثاً فى نسخ ذلك ، ولكن من طريق لا يثبت النسخ بمثلها . اهـ . ملخصاً .

وقد ذكر صاحب جمع الفوائد حديثاً عن بلال رضى الله عنه أنه كان يؤذن للصبح فيقول : حى على خير العمل ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يجعل مكانها الصلاة خير من النوم ، وترك حى على خير العمل ، وقال : رواه الطبرانى فى الكبير بضعف . اهـ

ولا يبعد أن يكون أثر بلال هذا هو الذى يعناه على بن الحسين ، وعلى كل فهذا الأثر وإن كان ضعيفاً فإنه مرفوع ، وفيه التصريح بالمنع منها ، وعليه الأئمة الأربعة وغيرهم إلا ما عليه الشيعة فقط .

ومن جهة المعنى ، فإن معناها لا يستقيم مع بقية النصوص الصحيحة الصريحة ، وذلك أنه ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أن خير العمل أمر نسبى ، وأن خير جميع الأعمال كلها هو أولا وقبل كل شىء الإيمان بالله ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم سئل « أى الأعمال أفضل يارسول الله ، قال : إيمان بالله ، قيل : ثم ماذا ؟ فقال: مرة الجهاد فى سبيل الله ، وقال مرة : الصلاة على أول وقتها، وقال مرة: بر الوالدين » وفى كل مرة يقدم إيماناً بالله .

فعليه ، الإيمان بالله هو خير العمل ، وليست الصلاة ، ثم بعد الإيمان بالله فهو بحسب حال السائل وحالة كل شخص ، فمن كان قوياً وليس عليه حق لوالديه ، فالجهاد أفضل الأعمال فى حقه مع من الحفاظ على الصلاة ، فإن كان ذا والدين ، فبرّهما متقدم على كل عمل . ولم لا ، فإن الصلاة على أول وقتها لغير هؤلاء ، فإطلاق القول بالصلاة خير العمل فى حق جميع الناس لا يصح مع هذه الأحاديث . ولهذا منع رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا أن يقولها، وجعلها : خيرا من النوم . وهذا لا نزاع فيه ولا بالنسبة لأى أحد من الناس . والله تعالى أعلم .

الصلاة بين أذان عثمان رضى الله عنه

والأذان الذى بين يدى الإمام

تعوّد الناس فى جميع الأمصار صلاة ركعتين عند الأذان الأول ، والذى يقع الآن قبل الوقت وقبل جلوس الإمام على المنبر ، وهو المسمى عند الفقهاء بأذان عثمان ، وقد تساءل الناس عن هذه الصلاة ، أهى سنة أم لا؟ ويتجدد هذا السؤال من حين إلى آخر ، وأجمع ما رأيت فيه هو كلام شيخ الإسلام ابن تيمية فى رسالة خاصة ، جوابا على سؤال وجه إليه هذا نصه :

هل الصلاة بعد الأذان الأول يوم الجمعة فعلها النبى صلى الله عليه وسلم أو أحد من أصحابه أو التابعين أو الأئمة أم لا؟ وهل هو منصوص فى مذهب من مذاهب الأئمة المتفق عليهم ، وقوله صلى الله عليه وسلم بين كل أذانين صلاة ، هل هو مخصوص بيوم الجمعة ، أم هو عام فى جميع الأوقات ؟ فأجاب رحمه الله بقوله :

أما النبى صلى الله عليه وسلم فإنه لم يكن يصلى قبل الجمعة بعد الأذان شيئاً ، ولا نقل هـذا عن أحد ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم لايؤذن على عهده إلا إذا قعد على المنبر ، ويؤذن بلال ثم يخطب

النبي صلى الله عليه وسلم الخطبتين ، ثم يقيم بلال فيصلى بالناس ، فما كان يمكن أن يصلى بعد الأذان لا هو ولا أحد من المسلمين الذين يصلون معه صلى الله عليه وسلم ، ولا نقل عن أحد أنه صلى فى بيته قبل الخروج يوم الجمعة ، ولا وقت بقوله صلاة مقدرة قبل الجمعة ، بل ألفاظه فيها الترغيب فى الصلاة إذا قدم الرجل المسجد يوم الجمعة من غير توقيت كقوله : « من بكر وابتكر ومشى ولم يركب وصلى ما كتب له » . . الحديث .

وهذا المأثور عن الصحابة رضى الله عنهم كانوا إذا أتوا للسجد يوم الجمعة يصلون من حين يدخلون ما تيسر ؛ منهم من يصلى ثمانى ركعات ، ومنهم من يصلى عشر ركعات ، ومنهم من يصلى ثنتى عشرة ركعة ، ومنهم من يصلى أقل من ذلك . ولهذا كان جمهور الأئمة متفقين على أنه ليس قبل الجمعة سنة مؤقتة بوقت مقدرة بعدد .

ثم قال : وهذا مذهب مالك ومذهب الشافعى وأكثر أصحابه ، وهو المشهور من مذهب أحمد .

وذهب طائفة من العلماء إلى أن قبلها سنة ، فمنهم من جعلها ركعتين ، ومنهم من جعلها أربعاً تشبيها لها بسنة الظهر ، وقالوا : إن الجمعة ظهر مقصورة ،وهذا خطأ من وجهين وساقهما . وخلاصة ماساقه

فيهما أن الجمعة لها خصائص لاتوجد فى الظهر فليست ظهراً مقصورة .

وكذلك أنه لم يكن صلى الله عليه وسلم يصلى فى سفره سنة للظهر، أى وهى مقصورة فى السفر فلا تمسك فى ذلك .

أما عن حديث « بين كل أذانين صلاة » فالصواب أنه لايقال إن قبل الجمعة سنة راتبة مقدرة ، وأنه صلى الله عليه وسلم قال : « بين كل أذانين صلاة » مرتين . وقال فى الثالثة : « لمن شاء » .

وهذا يدل على أن الصلاة مشروعة قبل الأوقات الخمسة ، وأن ذلك ليس بسنة راتبة . وقد احتج بعض الناس بهذا على الصلاة يوم الجمعة .

وعارض غيره قائلا : الأذان الذى على المنارة لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : ويتوجه عليه أن يقال : هذا الأذان الثالث لما سنه عثمان رضى الله عنه واتفق عليه المسلمون صار أذاناً شرعياً ، وحينئذ فتكون الصلاة بينه وبين الأذان الثانى جائزة حسنة ، وليست سنة راتبة كالصلاة قبل المغرب ، وحينئذ فمن فعل ذلك لم ينكر عليه ، ومن ترك ذلك لم ينكر عليه .

وهذا أعدل الأقوال .

وكلام أحمد يدل عليه ، وحينئذ فقد يكون تركها أفضل إذا كان الجهال يعتقدون أن هذه سنة راتبة أو واجبة ، لاسيما إذا داوم

الناس عليها ، فينبغى تركها أحياناً ، كما ينبغى ترك قراءة السجدة يوم الجمعة أحياناً .

ثم قال : وإذا كان رجل مع قوم يصلونها ، فإن كان مطاعاً إذا تركها وبين لهم السنة لم ينكروا عليه ، بل عرفوا السنة فتركها حسن، وإن لم يكن مطاعاً ورأى فى صلاتها تأليفاً لقلوبهم إلى ماهو أنفع ، أو دفعاً للخصام والشر لعدم التمكن من بيان الحق لهم ، وقولهم له ونحو ذلك . فهذا أيضاً حسن .

فالعمل الواحد يكون مستحباً فعله تارة ، وتركه تارة ، باعتبار مايترجح من مصلحة فعله وتركه بحسب الأدلة الشرعية .

كما ترك النبى صلى الله عليه وسلم بناء البيت على قواعد إبراهيم إلى آخره . اهـ ملخصاً .

فأنت تراه رحمه الله قد بيّن أولا أنها ليست من فعله صلى الله عليه وسلم ، لعدم وجود مكان لها فى عهده ، ولا فى عهد صاحبيه من بعده ، وأن فعلها بعد حديث عثمان رضى الله عنه يرجع إلى حال الشخص ، فإن كان عامياً التمس له مخرج من حديث : « بين كل أذانين صلاة » لاعلى أنها سنة راتبة .

أما العالم الذى يقتدى به فإن كان مطاعاً فتركها أحسن .

وتعليم الناس متعين ، وإن كان غير مطاع ويرجو نفعهم أو يخشى خصومة منهم تضيع عليهم منفعتهم منه ، ففعلها تأليفاً لقلوبهم ، فهـــذا حسن . اهـ ملخصاً .

وهذا منه رحمه الله من أدق مسالك سياسة الدعوة إلى الله ، حيث ينبغي للداعي أن يراعي حالة العامة ، وأن يكون بفعله مؤثراً كتأثيره بقوله مع مراعاة الأحوال ماهو أصلح لهم فيما فيه سعة من الأمر ، كما بين أنها ليست بسنة راتبة .

وقد ساق ضمناً كلام العلماء في حكم الصلاة قبل الجمعة مطلقاً ، أي عند المجيء وقبل الأذان ، وهذا كله ما عدا الداخل للمسجد وقت الخطبة فيما يتعلق بتحية المسجد .

وقال النووي في المجموع بعد مناقشة كلام المذهب . قال :

وأما السنة قبلها فالعمدة فيها حديث عبد الله بن معقل المذكور . « بين كل أذانين صلاة » ، والقياس على الظهر قال : وذكر أبوعيسى الترمذي أن عبد الله بن مسعود كان يصلي قبل الجمعة أربعاً ، وإليه ذهب سفيان الثوري وابن المبارك ، وهذا منهم على أنها راتبة الظهر انتقلت إلى الجمعة ، ولا علاقة لها بالأذان ، بل من حين مجيئه إلى المسجد .

قوله تعالى : ﴿مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ .

قال الزمخشرى ونقله عنه أبوحيان من فى قوله (من يوم الجمعة) بيان لإذا وتفسير له . اهـ

يعنى : إذا نودى فهى بيان لإذا الظرفية وتفسير لها .

والجمعة : بضم الجيم والميم قراءة الجمهور . وبضم الجيم وتسكين الميم قراءة عبد الله بن الزبير والأعمش وغيرهما ، وهما لغتان وجمعهما جمع وجمعات .

قال الفراء : يقال الجمعة بإسكان الميم ، والجمعة بضمها والجمعة بفتح الميم ، فيكون صفة لليوم أى يجمع الناس .

وقال ابن عباس : نزل القرآن بالتثقيل والتفخيم فاقرؤها جمعة ، يعنى بضم الميم .

وقال الفراء وأبو عبيد : والتخفيف أقيس وأحسن ، مثل غرفة وغرف وطرفة وطرف وحجرة وحجر ، وفتح الميم لغة بنى عقيل . وقيل : إنها لغة النبى صلى الله عليه وسلم . حكاه القرطبى وغيره .

وقال الزمخشرى : قرىء بهن جميعاً . وقال غيره : والأول أصح لقول ابن عباس رضى الله عنهما .

وذكر فى سبب تسمية هذا اليوم عدة أسباب لاتناقض بين شىء منها .

من ذلك ما قاله ابن كثير رحمه الله : إنها مشتقة من الجمع ، وأهل الإسلام يجتمعون فيه فى كل أسبوع .

ومنها : أنه تم فيه خلق جميع الخلائق ، فإنه اليوم السادس من الستة التى خلق الله فيها السماوات والأرض ، وفيه خلق آدم يعنى جمع خلقه ، وفيه الحديث عن سلمان أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : « ياسلمان ، مايوم الجمعة ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوم الجمعة يوم جمع الله فيه أبواكم أو أبوكم » ، قال ابن كثير : وقد روى عن أبى هريرة من كلامه نحو هذا ، فالله أعلم .

والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن ما حكاه عن أبى هريرة له حكم الرفع ، كما جاء فى الموطإ فى فضل يوم الجمعة « أنه خير يوم تطلع فيه الشمس ، فيه خلق آدم » إلى آخر الحديث ، وسيأتى إن شاء الله عند بيان فضلها .

وقد كان يقال له فى الجاهلية . يوم العروبة .

ونقل عن الزجاج والفراء وأبى عبيدة : أن العرب العاربة كانت تسمى الأيام هكذا : السبت شبار ، الأحد أول ، الاثنين أهون ، الثلاثاء جبار ، الأربعاء دبار ، الخميس مؤنس ، الجمعة العروبة . وأول من نقل العروبة إلى الجمعة كعب بن لؤى ، نقل من بذل المجهود شرح أبى داود .

وقيل : أولى من سماه بالجمعة كعب بن لؤى ، وقد كان معروفا بهذا الاسم فى أول البعثة ، كما جاء فى سبب أول جمعة صليت بالمدينة .

قال القرطبى : وأول من سماها جمعة : الأنصار ، ونقل عن ابن سيرين قوله : جمع أهل المدينة من قبل أن يقدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة ، وقبل أن تنزل الجمعة وهم الذين سموها الجمعة ، وذلك أنهم قالوا : إن لليهود يوما يجتمعون فيه فى كل سبعة أيام يوم ، وهو السبت ، وللنصارى يوم مثل ذلك وهو الأحد ، فتعالوا فلنجتمع حتى نجعل يوماً لنتذاكر الله ونصلى فيه ونستذكر أو كما قالوا ، فقالوا : يوم السبت لليهود ، ويوم الأحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة . فاجتمعوا إلى سعد بن زرارة وهو أبو أمامة رضى الله عنه ، فصلى بهم يومئذ ركعتين . وذكرهم فسموه يوم الجمعة حين اجتمعوا فذبح لهم أسعد شاة فتعشوا وتغدوا منها لقلتهم .

فهذه أول جمعة فى الإسلام .

أما أول جمعة أقامها النبى صلى الله عليه وسلم ، فهى التى أقامها مقدمه إلى المدينة حين نزل قباء يوم الإثنين ومكث الثلاثاء والأربعاء والخميس ، وفى صبيحة الجمعة نزل إلى المدينة فأدركته الصلاة فى بنى سالم ابن عوف فى بطن واد لهم ، قد اتخذ القوم فى ذلك الموضع مسجداً فجمع

بهم صلى الله عليه وسلم وخطب ، وهو موضع معروف إلى اليوم فى بنى النجار ، وقد ساق القرطبى خطبته صلى الله عليه وسلم فى ذلك اليوم ، ثم كانت الجمعة التى تلتها فى الإسلام فى قرية جوانا بالأحساء اليوم .

وقد خص الله المسلمين بهذا اليوم وفضّله ، كما قال ابن كثير وغيره لحديث أبى هريرة رضى الله عنه عند البخارى ومسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم إن هذا يومهم الذى فرض الله عليهم فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غدا والنصارى بعد غد » ، لفظ البخارى . وفى لفظ لمسلم « أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا ، فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد ، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة ، فجعل الجمعة والسبت والأحد ، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة ، نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة ، المقضى بينهم قبل الخلائق » ذكره ابن كثير ، من خصائص يوم الجمعة .

كما اختصت هذه الأمة بيوم الجمعة عن سائر الأيام ، فقد اختص يوم الجمعة نفسه بخصائص عن سائر الأيام ، أجمعها ما جاء فى موطإ مالك عن أبى هريرة « أنه قال : خرجت إلى الطور فلقيت كعب

الأحبار فجلست معه ، فحدثنى عن التوراة ، وحدثته عن رسول الله صلى عليه وسلم فكان فيما حدثته أن قلت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم ، وفيه أهبط من الجنة ، وفيه تيب عليه وفيه مات ، وفيه تقوم الساعة وما من دابة إلا وهى مصيخة يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقا من الساعة إلا الجن والإنس ، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلى يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه » .

قال كعب : ذلك فى كل سنة يوم . قلت : بل فى كل جمعة فقرأ كعب التوراة ، فقال : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال أبو هريرة : فلقيت بصرة بن أبى بصرة الغفارى فقال من أين أقبلت ؟ فقلت : من الطور فقال : لو أدركتك قبل أن تخرج إليه ما خرجت ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تعمل المطى إلا إلى ثلاثة مساجد ، إلى المسجد الحرام ، وإلى مسجدى هذا ، وإلى مسجد إيلياء أو بيت المقدس » يشك .

قال أبو هريرة ، ثم لقيت عبد الله بن سلام فحدثته بمجلسى مع كعب الأحبار ، وما حدثته به فى يوم الجمعة فقلت : قال كعب : ذلك فى كل سنة يوم ، قال : قال عبد الله بن سلام : كذب كعب . فقلت : ثم قرأ التوراة ، فقال : بل هى فى كل جمعة . فقال عبد الله

ابن سلام صدق : كعب . ثم قال عبد الله بن سلام : قد علمت أية ساعة هى ؟ قال أبو هريرة فقلت له: أخبرنى بها ولا تضن علىّ ، فقال عبد الله بن سلام : هى آخر ساعة فى يوم الجمعة . قال أبو هريرة : فقلت وكيف تكون آخر ساعة فى يوم الجمعة . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلى » وتلك الساعة ساعة لا يصلى فيها ؟ فقال عبد الله بن سلام : ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من جلس مجلساً ينتظر الصلاة فهو فى صلاة حتى يصلى » قال أبو هريرة : فقلت : بلى ، قال فهو كذلك » .

فهذا نص صريح فى أنه خير يوم طلعت عليه الشمس ، ثم بيان أن الخيرية فيه لما وقع به من أحداث ، وإلا فجميع الأيام حركة فلكية لا مزية فيها إلا ما خصها الله دون غيرها من الوقائع .

وقد تعددت هنا فى حق أبينا آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، ولذا قيل : يوم الجمعة يوم آدم ، ويوم الإثنين يوم محمد صلى الله عليه وسلم ، أى لقوله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن كثرة صيامه يوم الإثنين قال « ذلك يوم ولدت فيه ، وعلى فيه أنزل » الحديث .

ولما كان يوم الجمعة هو يوم آدم فيه خلق ، وفيه أسكن الجنة ، وفيه أنزل إلى الأرض ، وفيه تاب الله عليه ، وفيه قيام الساعة . فكان يوم العالم من بدء أبيهم إلى منتهى حياتهم ، فكأنه فى الإسلام يوم تزودهم إلى ذلك المصير .

وروى البخارى ومسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ (آلم السجدة) ، (وهل أتى على الإنسان) فى فجر يوم الجمعة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : وذلك لما فيهما من ذكر خلق الله آدم وحياة الإنسان ومنتهاه ، كما فى سورة السجدة فى قوله تعالى : (الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ، ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون) :

وفى سورة (هل أتى على الإنسان) قوله تعالى : (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ، إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ، إنا هديناه السبيل إما

شاكراً وإما كفورا ، إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا ، إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا) .

ففى هذا بيان لخلق العالم كله جملة ثم خلق آدم ، ثم تناسل نسله ثم منتهاهم ومصيرهم ليتذكر بخلق أبيه آدم ، وما كان من أمره كيلا ينسى ولا يسهو عن نفسه .

وهكذا ذكر مثل هذا التوجيه فى الجملة ابن حجر فى الفتح ، وناقش حكم قراءتهما والمداومة عليهما أو تركهما ، وذلك فى باب مايقرأ فى صلاة الجمعة .

وفى المنتقى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ يوم الجمعة فى صلاة الصبح : آلم تنزيل ، وهل أتى على الإنسان ، وفى صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقون . رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى .

وناقش للشوكانى السجود فيها أى فى فجر الجمعة أو فى غيرها من الفريضة ، إذا قرأ مافيه سجدة تلاوة .

وحكى السجود فى فجر الجمعة عن عمر وعثمان وابن مسعود وابن عمر وابن الزبير وقال : هو مذهب الشافعى ، وقال : كرهه مالك وأبو حنيفة وبعض الحنابلة ، فراجعه .

الساعة التى فى يوم الجمعة

فقد تقدم كلام أبى هريرة رضى الله عنه مع عبد الله بن سلام وهو قول الأكثر ، ويوجد عند مسلم : أنها ما بين أن يجلس الإمام إلى أن يفرغ من الصلاة ، وقد ناقش هذه المسألة جميع العلماء ، وحكى أقوالهم الزرقانى فى شرح الموطأ ، وكلاها بسند صحيح : إلا أن سند مالك لم يطعن فيه أحمد وسند مسلم قد نقل الزرقانى الكلام فيه ، ومن تكلم عليه ، والذى يلفت النظر ما يتعلق بقيام الساعة فى يوم الجمعة من قوله صلى الله عليه وسلم : « وما من دابة إلا وهى مصيخة يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة إلا الجن والإنس » ففيه التصريح بأن الدواب عندها هذا الإدراك الذى تفرق به بين أيام الأسبوع ، وعندها هذا الإيمان بيوم القيامة والإشفاق منه ، وأخذ منه العلماء أن الساعة تكون فى يوم الجمعة وفى أوله ، فإذا كان هذا أمر غيب عنا ، فقد أخبرنا به صلى الله عليه وسلم فعلينا أن نعطى هذا اليوم حقه من الذكر والدعاء ، مما يليق من العبادات أشفقاً أو تزوداً لهذا اليوم ، لا أن نجعله موضع النزهة واللعب والتفريط ، وقد يكون إخفاؤها مدعاة للاجتهاد كل اليوم كليلة القدر ، وقد نفهم من هذا كله المعنى الصحيح لحديث : « من راح فى الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة » إلى آخره ، وأن الحق فيه ماذهب إليه

الجمهور على ما سيأتى إن شاء الله عند مناقشة وقت السعى إلى الجمعة.
قال النيسابورى فى تفسيره : وكانت الطرقات فى أيام السلف وقت السحر وبعد الفجر غاصة بالمبكرين إلى الجمعة يمشون بالسرج . وقيل : أول بدعة أحدثت فى الإسلام ترك البكور إلى الجمعة ، إذ البكور إليها من شدة العناية بها .

قوله تعالى ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ .

قرأ الجمهور فاسعوا وقرأها عمر فامضوا . روى ابن جرير رحمه الله أنه قيل لعمر رضى الله عنه : إن أبياً يقرؤها فاسعوا ، قال أما إنه أقرؤنا وأعلمنا بالمنسوخ . وإنما هى فامضوا .

وروى أيضاً عن سالم أنه قال : ماسمعت عمر قط يقرؤها إلا فامضوا .

وبوّب له البخارى قال باب قوله : (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) وقرأ عمر (فامضوا) ، وذكر القرطبى عن عبد الله بن مسعود أنه قرأها (فامضوا إلى ذكر الله) ، وقال لو كانت فاسعوا لسعيت حتى يسقط ردائى . اهـ .

وبالنظر فيما ذكره القرطبى نجد الصحيح قراءة الجمهور لأمرين . الأول : لشهادة عمر نفسه رضى الله عنه أن أبياً أقرؤهم وأعلمهم بالمنسوخ ،

وإذا كان كذلك فالقول قوله ، لأنه أعلمهم وأقرؤهم . أما قراءة ابن مسعود فقال القرطبي : إن سنده غير متصل ، لأنه عن إبراهيم النخعى عن ابن مسعود ، وإبراهيم لم يسمع من ابن مسعود شيئاً . اهـ .

وقد اختلف فى معنى السعى هنا ، وحاصل أقوال المفسرين فيه على ثلاثة أقوال لايعارض بعضها بعضاً .

الأول : العمل لها ، والتهيؤ من أجلها .

الثانى : القصد والنية على إتيانها .

الثالث : السعى على الأقدام دون الركوب .

واستدلوا لذلك بأن السعى يطلق فى القرآن على العمل ، قاله الفخر الرازى . وقال : هو مذهب مالك والشافعى ، قال تعالى (وإذا تولى سعى فى الأرض) ، وقال : (وإن سعيكم لشتى) أى العمل .

واستدلوا للثانى بقول الحسن : والله ما هو بسعى على الأقدام ، ولكن سعى القلوب والنية .

واستدلوا للثالث بما فى البخارى عن أبى عبس بن جبر واسمه عبد الرحمن ، وكان من كبار الصحابة مشى إلى الجمعة راجلا ، وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمه الله على النار » ذكره القرطبى ، ولم يذكره البخارى فى التفسير .

وبالتأمل فى هذه الأقوال الثلاثة نجدها متلازمة لأن العمل أعم من السعى ، والسعى أخص ، فلا تعارض بين أعم وأخص ، والنية شرط فى العمل ، وأولى هذه الأقوال كلها ما جاء فى قراءة عمر رضى الله عنه الصحيحة : فامضوا . فهى بمنزلة التفسير للسعى .

وروى عن الفراء : أن المضى والسعى والذهاب فى معنى واحد ، والصحيح أن السعى يتضمن معنى زائداً وهو الجد والحرص على التحصيل ، كما فى قوله تعالى : (والذين سعوا فى آياتنا معاجزين) بأنهم حريصون على ذلك : وهو أكثر استعمالات القرآن .

قال الراغب الأصفهانى : السعى المشى السريع ، وهو دون العدو ، ويستعمل للجد فى الأمر خيراً كان أو شراً ، قال تعالى : (وسعى فى خرابها) . (وإذا تولى سعى فى الأرض) . (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها) . وجمع الأمرين الخير والشر (وأن ليس للانسان إلا ماسعى وأن سعيه سوف يرى) وهو ماتشهد له اللغة ، كما فى قول زهير بن أبى سلمى :

سعى ساعياً غيظ ابن مرة بعدما تبزل مابين العشيرة بالدم

وكقول الآخر :

إن أجز علقمة بن سعد سعيه لا أجزه ببلاء يوم واحد

تنبيـــه

من هذا كله يظهر أن السعى هو المضى مع مراعاة ماجاء فى السنة من الحث على السكينة والوقار. لحديث أبى هريرة رضى الله عنه فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار، ولا تسرعوا، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا ».

وهذا أمر عام لكل آت إلى كل صلاة ولو كان الإمام فى الصلاة لحديث أبى قتادة عند البخارى قال: « بينما نحن نصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم إذ سمع جلبة رجال فلما صلى قال: ماشأنكم؟ قالوا: استعجلنا إلى الصلاة، قال: فلا تفعلوا إذا أتيتم الصلاة فامشوا وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا ». اهـ

وكذلك حديث أبى بكرة رضى الله عنه لما ركع خلف الصف ودب حتى دخل فى الصف وهو راكع، فقال له صلى الله عليه وسلم: « زادك الله حرصاً، ولا تعد على رواية تعد من العود ».

وهنا يأتى مبحث بم تدرك الجمعة؟

الأقوال فى القدر الذى به تدرك الجمعة ثلاثة، وتعتبر طرفين وواسطة.

الطرف الأول: القول بأنها لاتدرك إلا بإدراك شىء من الخطبة،

وهذا حكاه ابن حزم عن مجاهد وعطاء وطاوس وعمر ، ولم يذكر له دليـلا .

والقول الآخر : تدرك ولو بالجلوس مع الإمام قبل أن يسلم ، وهو مذهب أبى حنيفة رحمه الله : ومذهب ابن حزم ، بل عند أبى حنيفة رحمه الله : أنه لو أن الإمام سها وسجد ، وفى سجود السهو أدركه المأموم لأدرك الجمعة بإدراكه سجود السهو مع الإمام ، لأنه منها ، ولكن خالف الإمام أبا حنيفة صاحبه محمد على ماسيأتى .

والقول الوسط هو قول الجمهور : أنها تدرك بإدراك ركعـة كاملة مع الإمام ، وذلك بإدراكه قبل أن يرفع رأسه من الركوع فى الركعة الثانية ، فحينئذ يصلى مع الإمام ركعة ثم يضيف إليها أخرى وتتم جمعته بركعتين ، وإلا صلى ظهرا .

أما الراجح من ذلك فهو قول الجمهور للأدلة الآتية :

أولا : أن القول الأول لا دليل عليه أصلا ، ويمكن أن يلتمس لقائله شبهة من قوله تعالى : (إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) لحمل ذكر الله على خصوص الخطبـة لقوله تعالى بعدها (فإذا قضيت الصلاة) .

فسمى الصلاة فى الأول بالنداء إليها ، وسمى الصلاة أخيراً بانقضائها ، وذكر الله جاء بينهما ولكن يرده استدلال الجمهور الآتى .

والقول الثانى : وهو قول أبى حنيفـة رحمه الله وابن حزم استدل له

بحديث « فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا » .

والجمعة ركعتان فقط ، فإتمامها بتمام ركعتين ، واعتبروا إدراك أى جزء منها إدراكا لها ، وقد خالف أبا حنيفة فى ذلك صاحبه محمد لأدلة الجمهور الآتية :

وأدلة الجمهور من جانبين :

الأول : خاص بالجمعة ، وهو حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أدرك من صلاة الجمعة ركعة فليضف إليها أخرى » أى فتتم له جمعة بركعتين ، وأخذوا من مفهوم إدراك ركعة ، أن من لم يدرك ركعة كاملة فلا يصح له أن يضيف لها أخرى ، وعليه أن يصلى ظهراً .

والجانب الثانى عام فى كل الصلوات ، وهو حديث الصحيحين ، «من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة » .

وقد رد الأحناف على الحديث الأول بأنه ضعيف ، واعتبروا الإدراك فى الحديث الثانى ، يحصل بأى جزء .

ورد عليهم الجمهور بالآتى :

أولا : الحديث الخاص بمن أدرك ركعة من الجمعة فليضف إليها أخرى . ذكره ابن حجر فى بلوغ المرام .

وقال : رواه النسائى وابن ماجه والدارقطنى واللفظ له ، وإسناده

صحيح ، لكن قوى أبو حاتم إرساله ، وقال الصنعانى فى الشرح : وقد أخرج الحديث من ثلاث عشرة طريقا عن أبى هريرة ، ومن ثلاثة طرق عن ابن عمر ، وفى جميعها مقال إلى أن قال : ولكن كثرة طرقه يقوى بعضها بعضا ، مع أنه خرجه الحاكم من ثلاث طرق :

إحداها : من حديث أبى هريرة ، وقال فيها على شرط الشيخين إلى آخره . اهـ.

وقال النووى فى المجموع : ويغنى عنه ما فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة » فهذا نص صحيح ، وهو صريح فى أن إدراك الصلاة إنما هو بإدراك ركعة ، وبالاجماع لايكون إدراك الركعة بإدراك الجلوس قبل السلام ، لأن مادخل مع الإمام فى إحدى الصلوات وهو جالس فى التشهد لايعتد بهذه الركعة إجماعاً ، وعليه الصلاة كاملة .

والنص الخاص أن من أدرك ركعة من صلاة الجمعة فليضف إليها أخرى يجعل معنى الادراك لركعة كاملة يعتد بها ، ومن لم يدرك ركعة كاملة لم يكن مدركاً للجمعة .

وقد حكى النووى فى المجموع أن الجمعة تدرك بركعة تامة لحديث الصحيحين المذكور ، وقال : احتج به مالك فى الموطأ ، والشافعى فى الأم وغيرهما .

وقل الشافعى معناه : لم تفته تلك الصلاة ، ومن لم تفته الجمعة صلاها ركعتين ، وقال : وهو قول أكثر العلماء . حكاه ابن المنذر عن ابن مسعود وابن عمر وأنس بن مالك وسعيد بن المسيب ، والأسود ، وعلقمة والحسن البصرى وعروة بن الزبير ، والنخعى والزهرى ، ومالك والأوزاعى والثورى ، وأحمد وإسحاق وأبى ثور وأبى يوسف .

وتقدم أن الذى وافق الجمهور من أصحاب أبى حنيفة ، إنما هو محمد لما فى كتاب الهداية مانصه :

وقال محمد رحمه الله : إن من أدرك أكثر الركعة بنى عليها الجمعة ، وإن إدرك أقلها بنى عليها الظهر .

وفى الشرح : أن أكثر الركعة هو بإدراك الركوع مع الإمام .

وبالنظر فى الأدلة نجد رجحان أدلة الجمهور للآتى :

أولا : قوة استدلالهم بعموم « من أدرك من الصلاة ركعة ، فقد أدرك الصلاة » ، وهذا عام فى الجمعة وفى غيرها ، وهو من أحاديث الصحيحين .

ثم بخصوص « من أدرك من الجمعة ركعة مع الإمام فليضف إليها أخرى » ، وتقدم الكلام على سنده وتقوية طرقه بعضها ببعض .

وقد أشرنا إلى معنى الإدراك وهو ما يمكن الاعتداد به فى عدد الركعات ، وهى نقطة هامة لاينبغى إغفالها ، وأن مفهوم من أدرك ركعة

مع الإمام فليضف إليها أخرى ، أن من لم يدرك ركعة كاملة لايتأتى له أن يضيف إليها أخرى ، بل عليه كما قال الجمهور أن يصلى أربعا .

ثانياً . ضعف استدلال المعارض لأن : ما أدركتم فصلوا . على من أدرك من الجمعة ركعة خاص بها .

ثم إن معنى الإدراك ليس كما ذهب المستدل إليه ، بل لابد أن يكون إدراكا لما يعتد به .

وأشرنا إلى أن الإجماع على أن من لم يدرك ركعة كاملة لايعتد بها فى عدد الركعات ، ويشير إلى هذا المعنى حديث أبى بكرة حيث ركع قبل أن يصل إلى الصف ليدرك الركعة قبل أن يرفع النبى صلى الله عليه وسلم رأسه ، ولو كان إدراك الركعة يتم بأى جزء منها لما فعل أبوبكرة هذه الصورة ، وقد قال له صلى الله عليه وسلم : « زادك الله حرصا ولاتعد » .

ومعلوم أنه اعتد بتلك الركعة لإدراكه الركوع منها ، وبهذا تعلم أنه لادليل لمن اشترط إدراك شىء من الخطبة ، لأن من أدرك ركعة فقد فاتته الخطبة كلها ، وفاتته الأولى من الركعتين ، وأدرك الجمعة بإدراك الثانية . والعلم عند الله تعالى .

حكم صلاة الجمعة عنقها الفداء

قوله تعالى ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ ﴾ .

فيه الأمر بالسعى إذا نودى إليها ، والأمر يقتضى الوجوب مالم يوجد له صارف ، ولا صارف له هنا ، فكان يكفى حكاية الإجماع على وجوبها ، كما حكاه ابن المنذر وابن قدامة وغيرهما ، ونقله الشوكانى ، وهو قول الأئمة الأربعة رحمهم الله ، ولكن وجد من يقول : إن الجمعة ليست واجبة . ولعله ظن أن فى الآية صارف الأمر عن الوجوب ، وهو ما جاء فى آخر السياق فى قوله تعالى : (وذروا البيع ذلكم خير لكم) فقالوا : إن الأمر لتحصيل الخير المذكور ، وقد نقل عن بعض أتباع بعض الأئمة رحمهم الله ما يوهم أنها ليست بفرض ، وهو مسطر فى كتبهم ، مما قد يغتر به بعض البسطاء ولا سيما مع ضعف الوازع وكثرة الشاغل فى هذه الآونة ، مما يستوجب إيراده وبيان رده من أقوال أصحابهم وأئمتهم رحمهم الله جميعاً .

فعند المالكية حكاية ابن وهب عن مالك أن شهودها سنة .

وعند الشافعية قال الخطابى : فيها الخلاف هل هى من فروض الأعيان أو من فروض الكفاية .

وعند الأحناف ، قال فى شرح الهداية : وقد نسب إلى مذهب أبى حنيفة أنها ليست بفرض .

وكلها أقوال مردودة فى المذهب من أصحابهم وأئمة مذاهبهم ، فلزم التنبيه عليها ، وبيان الحق فيها من كتبهم ، ومن كلام أصحابهم ، وإليك بيان ذلك :

أما ما نسب لمالك رحمه الله فقد حكاه ابن العربى عن ابن وهب ورده بقوله : وحكى ابن وهب عن مالك أن شهودها سنة ، ورد عليه قوله بتأويلين : أحدهما : أن مالكا يطلق السنة على الفرض ، والثانى : أنه أراد سنة على صفتها لا يشاركها فيها سائر الصلوات ، حسب ما شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعله المسلمون ، وقد روى ابن وهب عن مالك : عزيمة الجمعة على كل من سمع النداء . اهـ . نقلا من نيل الأوطار .

ومما يؤيد قول ابن العربى فى الوجه الأول ما ذكره الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، عن مالك وغيره فى تحرزهم فى الفتيا من قول حلال وحرام وواجب إلخ . فى سياق ما وقع من خلاف والنهى عن التعصب ، وأن مالكا أشد تحفظا فى ذلك ، ومما يؤيد الوجه الثانى أيضاً رواية المدونة بما نصه ما قول مالك : إذا اجتمع الأضحى والجمعة أو الفطر فصلى رجل من أهل الحضر العيد مع الإمام ثم أراد ألا يهشد الجمعة هل يضع ذلك عنه شهود صلاة العيد ما وجب عليه من

إتيان الجمعة ؟ قال لا ، كان مالك يقول : لا يضع ذلك عنه ما وجب عليه من إتيان الجمعة ، وقال مالك : ولم يبلغنى أن احداً أذن لأهل العوالى إلا عثمان ، ولم يكن مالك يرى الذى فعل عثمان ، وكان يرى أن من وجبت عليه الجمعة لا يضعها عنه إذن الإمام ، وإن شهد مع الإمام قبل ذلك من يومه ذلك عيدا . اهـ من المدونة ، فهذه نصوص صريحة عن مالك أن الجمعة والجماعة لا يضعها عمن وجبت عليه إذن الإمام بصرف النظر عن فقه مسألة العيد والجمعة ، فإن فيها خلافا مشهوراً ، ولكن يهمنا تنصيص مالك على خصوص الجمعة ، وفى مختصر خليل عند المالكية ، ما نصه : ولزمت المكلف الحر الذكر بلا عذر ، قال شارحه الخشرى : لزمت ووجب إثم تاركها وعقوبته ، فهذه أقوال المالكية وحقيقة مذهب مالك رحمه الله .

أما الشافعية فقال صاحب المهذب ، مانصه : صلاة الجمعة واجبة لما روى جابر وساق حديثه . وقال النووى فى المجموع شرح المهذب : إنما تتعين على كل مكلف حر ذكر مقيم بلا مرض ونحوه . إلى أن قال : أما حكم المسألة فالجمعة فرض عين على كل مكلف غير أصحاب الأعذار ، والنقص المذكور بين هذا هو المذهب ، وهو المنصوص للشافعى فى كتبه ، وقطع به الأصحاب فى جميع الطرق إلا ما حكاه القاضى أبو الطيب فى تعليقه وصاحب الشامل وغيرهما عن بعض الأصحاب أنه غلط ، فقال : هى فرض كفاية ، قالوا : وسبب غلطه

أن الشافعى قال : من وجبت عليه الجمعة وجبت عليه صلاة العيدين، وغلط من فهمه . لأن مراد الشافعى من خوطب بالجمعة وجوبا خوطب بالعيدين متأكداً ، واتفق القاضى أبو الطيب وسائر من حكى هذا الوجه على غلط قائله ، قال القاضى أبو إسحاق المروزى : لا يحل أن يحكى هذا عن الشافعى ولا يختلف أن مذهب الشافعى : أن الجمعة فرض عين ، ونقل ابن المنذر فى كتابيه كتاب الإجماع والإشراق: إجماع المسلمين على وجوب الجمعة . اهـ من المجموع للنووى ، وهذا الذى حكاه النووى وابن المنذر والمروزى عن الشافعى هو المنصوص عنه فى كتاب الأم للشافعى نفسه ، قال جلد (١) ص ١٨٨ تحت عنوان : إيجاب الجمعة بعد ما ذكر الآية(إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة) قال : ودلت السنة من فرض الجمعة على ما دل عليه كتاب الله تبارك وتعالى وساق حديث :« نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، وأوتيناه من بعدهم ثم هذا يومهم الذى فرض عليهم ـ يعنى الجمعة ـ فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع » إلى أن قال: والتنزيل ثم السنة يدلان على إيجاب الجمعة ، وقال : ومن كان مقيما ببلد تجب فيه الجمعة من بالغ حر لا عذر له وجبت عليه الجمعة . فهذه نصوص الشافعى عامة فى الوجوب وخاصة فى الأعيان ، وهذا بيان كاف لمذهب الشافعى رحمه الله من نص كتابه الأم . اهـ .

الحديث الذى استدل به الشافعى رحمه الله « نحن الآخرون السابقون » هو عين الحديث الذى بوب عليه البخارى وجوب الجمعة ، ووجه الاستدلال منه قوله صلى الله عليه وسلم : « ثم هذا يومهم الذى فرض عليهم » ففيه التنصيص على الفرضية .

أما الأحناف ، فقال فى شرح الهداية مانصه : وقد نسب إلى مذهب أبى حنيفة أنها ليست بفرض . ثم قال : وهذا من جهلهم ، وسبب غلطهم قول القدورى : ومن صلى الظهر يوم الجمعة فى منزله ولا عذر له كره له ذلك وجازت صلاته ، وإنما أراد حرم عليه وصحت الظهر بترك الفرض . إلى آخره .

ثم قال : وقد صرح أصحابنا بأنها فرض آكد من الظهر ، وذكر أول الباب ، اعلم أن الجمعة فريضة محكمة بالكتاب والسنة والإجماع ، فحكى الإجماع على وجوبها وجهل من نسب إلى مذهبهم القول بعدم فرضيتها ، وهذه أيضاً حقيقة مذهب أبى حنيفة رحمه الله ، وأنها عند أصحابه آكد من الظهر .

أما الحنابلة . فقال فى المغنى مانصه : الأصل فى فرض الجمعة الكتاب والسنة والإجماع ، وساق الآية (إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة) الآية ، وقال بعدها : فصل : وتجب الجمعة والسعى إليها سواء كان من يقيمها سنياً أو مبتدعاً أو عدلا أو فاسقا ، نص عليه

أحمد ، وهذا أعم وأشمل . حتى مع الإمام غير العادل وغير السنى .

فهذه نصوص المذاهب الأربعة فى وجوب الجمعة وفرضها على الأعيان . فلم يبق لأحد بعد ذلك أدنى شبهة يلتمسها من أى مذهب ، ولا تتبع شواذه للتهاون بفرض الجمعة لنيابة الظهر عنها .

ثم اعلم أن فى الآية قرينة على هذا الوجوب وأنه لا صارف للأمر عن وجوب السعى إليها ، وذلك أن مع الأمر بالسعى إليها الأمر بترك البيع والنهى عنه ، وإذا كان ترك البيع واجباً من أجلها فما وجب هو من أجله كان وجوبه هو أولى ، قال فى المغنى : فأمر بالسعى ، ويقتضى الأمر الوجوب ولا يجب السعى إلا إلى الواجب ، ونهى عن البيع لئلا يشغل به عنها ، فلو لم تكن واجبة لما نهى عن البيع من أجلها ، وهو واضح كما ترى والأحاديث فى الوعيد لتاركها بدون عذر مشهورة تؤكد هذا الوجوب .

من ذلك حديث أبى الجعد ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ترك ثلاث جمع تهاونا بها طبع الله عليه قلبه » رواه أبو داود ، وسكت عنه .

وفى المنتقى ، قال : رواه الخمسة أى ماعدا البخارى ومسلماً ، وفى المنتقى عن أبى هريرة وابن عمر رضى الله عنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على أعواد منبره : « لينتهين أقوام

عن ودعهم الجمعات ، أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين » رواه مسلم .

وعن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال لقوم يتخلفون عن الجمعة : « لقد هممت أن آمر رجلا يصلى بالناس ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم » رواه أحمد ومسلم .

وقد فسر الطبع فى حديث أبى الجعد بأنه طبع النفاق ، كما فى قوله تعالى فى سورة المنافقون (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) ، وقيل : طبع ضلال ، كما فى الحديث. ثم يكون أى القلب كالكوز مجخيا لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً . نسأل الله العافية والسلامة لنا ولجميع المسلمين والتوفيق لفضل هذا اليوم الذى خص الله به هذه الأمة .

مسألة

من المخاطب بالسعى هنا ، أى من الذى تجب عليه الجمعة تستهل الآية الكريمة بقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا) ، وهو نداء عام لكل مؤمن ذكر ، وأنثى ، وحر ، وعبد صحيح ومريض ، فشمل كل مكلف على الإطلاق كقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام) .

وقوله تعالى : (فاسعوا) الواو فيه للجمع ، وإن كانت للمذكر إلا أنها عائدة إلى الموصول السابق وهو عام كما تقدم ، فيكون طلب السعى متوجها إلى كل مكلف إلا ما أخرجه الدليل .

وقد أخرج الدليل من هذا العموم أصنافا ، منها : المتفق عليه ، ومنها المختلف فيه .

فمن المتفق عليه : ما أخرج من عموم خطاب التكليف كالصغير والنائم والمجنون لحديث « رفع القلم عن ثلاثة »

وما خرج من خصوص الجمعة ، كالمرأة إجماعا فلا حجة على النساء .

وكالمريض فلا حجة عليه اتفاقا كذلك .

وهو من يشق عليه أو يزيد مرضه ، ومن يمرض تابع له . وقد اختلف فى المسافر والمملوك . ومن فى حكم المسافر وهم أهل البوادى

قال القرطبي : قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا) خطاب للمكلفين بإجماع ويخرج منه المرضى ، والزمنى ، والعبيد ، والنساء ، بالدليل والعميان ، والشيخ الذى لايمشى إلا بقائد عند أبى حنيفة .

روى أبو الزبير عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة إلا مريضا ، أو مسافراً ، أو امرأة ، أو صبيا ، أو مملوكا ، فمن استغنى بلهو ، أو تجارة ، استغنى الله عنه ، والله غنى حميد» خرجه الدارقطنى . اهـ

ويشهد لما رواه القرطبي ما رواه ابن حجر فى بلوغ المرام عن طارق بن شهاب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الجمعة حق واجب على كل مسلم فى جماعة إلا أربعة : مملوكا ، وامرأة، وصبيا ، ومريضاً » . رواه أبو داود .

وقال طارق : لم يسمع من النبي صلى الله عليه وسلم : وذكر أبوداود أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه ، وأخرجه الحاكم من رواية طارق المذكور عن أبى موسى . اهـ

قال الصنعانى : يريد المؤلف بهذا ، أى برواية عن أبى موسى أنه أصبح متصلا .

قال : وفى الباب عن تميم الدارى وابن عمر ومولى لابن الزبير رواه البيهقى . وناقش سنده .

وقال : وفيه أيضاً من حديث أبى هريرة مرفوعاً «خمسة لاجمعة عليهم : المرأة والمسافر والعبد والصبى وأهل البادية » . اهـ

وقد ذكر صاحب المنتقى حديث طارق كما ساقه صاحب البلوغ ، وقال الشوكانى فيه : قال الحافظ وصححه غير واحد .

وقال الخطابى : ليس إسناد هذا الحديث بذاك ، وذكر صحبة طارق ، ونقل قول العراقى ، فإذا ثبتت صحبته فالحديث صحيح ، وغايته أن يكون مرسل صحابى وهو حجة عند الجمهور . إنما خالف فيه أبو إسحاق الاسفرائينى ، بل ادعى بعض الأحناف الإجماع على أن مرسل الصحابى حجة . اهـ .

وقال الشوكانى : على أنه قد اندفع الإعلال بالإرسال بما فى رواية الحاكم من ذكر أبى موسى إلى آخره ، أى صار موصولا ، كما قال ابن حجر سابقا .

ووجه حجية مرسل الصحابى عندهم . هو أن الصحابى إذا أرسل الحديث ولم يرفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فيكون بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم واسطة وتلك الواسطة هى صحابى آخر والصحابى ثقة ، فتكون الواسطة الساقطة ثقة ، فيصح الحديث ، ولذا دعى بعض الأحناف أن مرسل الصحابى حجة لهذا السبب ، وعلى هذا مناقشة أهل الحديث والتفسير لهذه المسألة ، وبالتأمل فى الآية الكريمة

وعموم السياق يظهر من مجموعه شهادة القرآن ، إلى صحة ذلك لدلالة الايماء .

أما عن النساء ففيه الإجماع كما تقدم ، ويشهد له أن الدعوة إلى السعى إلى الجمعة ، وترك البيع من أجلها ، ثم الانتشار بعدها فى الأرض والابتغاء من فضل الله بالعمل والكسب يشعر بأن هذا كله للرجال ، لأن المرأة محلها فى بيتها ، كما فى قوله تعالى : (وقرن فى بيوتكن) .

وتقدم لفضيلة والدنا الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، مبحث مفصل استدل بدليل قرآنى على سقوط الجمعة عن النساء ، وذلك عند قوله تعالى : (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال) .

وبين رحمة الله تعالى علينا وعليه ، مفهوم رجال ، هل هو مفهوم صفة أو مفهوم لقب ، وساق علاقة النساء بالمساجد فى الجمعة وغيرها ، أما المملوك فما يستأنس له أيضاً من السياق فى قوله تعالى : (وذروا البيع) إذ البيع والشراء ابتداء ليس من حق العبيد إلا بإذن السيد .

وقوله : (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) ، فإن المملوك لاينتشر فى الأرض إلا بإذن السيد أيضاً ، وكذلك المسافر فليس مشتغلا ببيع ولا محل اشتغال به ، وهو منتشر فى الأرض بسفره وسفره شاغل له ، وبسفره يقصر الصلاة ويجمعها .

وقد حكى الشوكانى الاتفاق بين الفقهاء على سقوط الجمعة عن المملوك إلا داود ، وكذلك المسافر إذا كان سائراً ، أما إذا كان نازلا، فخالف فيه داود أيضا .

ومما استدل به الجمهور على سقوط الجمعة عن المسافر وقت نزوله ما وقع من فعله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ، إذ كانت الوقفة يوم الجمعة ، وكان صلى الله عليه وسلم نازلا ولم يصل الجمعة ، بدليل أنه لم يجهر بالقراءة ، ونازع فى ذلك ابن حزم وقال : غاية مافيه ترك الجهر فى الجهرية ، وهذا لايبطلها . ولكن يمكن أن يقال له : لقد قال صلى الله عليه وسلم . « خذوا عنى مناسككم » .

والصلاة أثناء الحج مما يؤخذ عنه صلى الله عليه وسلم كالجمع تقديما فى عرفة وتأخيراً فى مزدلفة ، ولا يتأتى أن يترك الجهر فى الجهرية وهو أقل مافيه أنه خلاف الاولى ويأمرهم أن يأخذوه عنه .

ومن هذا كله صح ما ذهب إليه الجمهور من أنه لاجمعة على مملوك ولا مسافر . كما لاجمعة على المرأة والمريض ، وبالله تعالى التوفيق .

قال ابن كثير : وإنما يؤمر بحضور الجمعة الرجال الأحرار دون العبيد والنساء والصبيان ، ويعذر المسافر والمريض ويتم المريض وما أشبه ذلك من الأعذار .

أما سقوطها عن أهل البوادى ومن فى حكمهم ، فهو قول لجمهور

مع اختلافهم فى تحقيق المناط فى ذلك بين المصر والقرية ، والبادية ، وبالرجوع إلى أقوال الأئمة نجد الخلاف الآتى أقوال الأئمة فى مكان الجمعـــة .

أولا : عند أبى حنيفة رحمه الله قال فى الهداية مانصه : لاتصح الجمعة إلا فى مصر جامع أو فى مصلى المصر ، ولا تجوز فى القرية لقوله صلى الله عليه وسلم : « لاجمعة ولا تشريق ولا فطر ولا أضحى إلا فى مصر جامع » .

وفسر الشارح ابن الهمام المصر بقوله : والمصر الجامع كل موضع له أمير وقاضى ينفذ الأحكام ويقيم الحدود ، وناقش الأثر الذى أورده المصنف قائلا : رواه ابن أبى شيبه موقوفا على علىّ رضى الله عنه « لاجمعة ولا تشريق ولا صلاة فطر ولا أضحى إلا فى مصر جامع أو مدينة عظيمة» صححه ابن حزم .

ورواه عبد الرزاق من حديث عبد الرحمن السلمى عن علىّ رضى الله عنه ، قال : لا تشريق ولا جمعة إلا فى مصر جامع . اهـ

وذكر هذا الأثر القرطبى موقوفا على علىّ رضى الله عنه .

وعند المالكية قال فى متن خليل فى فصل شروط الجمعة مانصه : باستيطان بلد أو أخصاص لاخيم .

وفسر الشارح : الاستيطان بالعزم على الإقامة على نية التأبيد ،

ولا تكفى نيـة الإقامة ولو طالت ، وجاء فى المتن بعدها قوله : ولزمت المكلف الحر الذكر بلا عذر المتوطن .

وقال الشارح على كلمة متوطنا : هو أيضاً من شروط الوجوب . يعنى أنه يشترط فى وجوبها الاستيطان ببلد يتوطن فيه ويكون محلا للإقامة يمكن الشراء فيه ، وإن بعدت داره من المنارة سمع النداء أو لم يسمع ، ولو على خمسة أميال أو ستة إجماعا . فلا تجب على مسافر ولا مقيم ولو نوى إقامة زمناً طويلا إلا تبعا . اهـ . أى تبعاً لغيره .

وعند الشافعى قال فى المهذب مانصه : ولا تصح الجمعة إلا فى أبنية يستوطنها من تنعقد بهم الجمعة من بلد أو قرية لأنه لم تقم جمعة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا فى أيام الخلفاء إلا فى بلد أو قرية ، ولم ينقل أنها أقيمت فى بدو ، فإن خرج أهل البلد إلى خارج البلد فصلوا الجمعة لم يجز ، لأنه ليس بوطن فلم تصح فيه الجمعة كالبدو ، وإن انهدم البلد فأقام أهله على عمارته ، فحضرت الجمعة لزمهم إقامتها لأنهم فى موضع الاستيطان .

قال النووى فى الشرح مانصه : قال أصحابنا يشترط لصحة الجمعة أن تقام فى أبنية مجتمعة يستوطنها شتاء وصيفا من تنعقد بهم الجمعة .

قال الشافعى والأصحاب : سواء كان البناء من أحجار أو أخشاب أو طين أو قصب أو سعف أو غيرها ، وسواء فيه البلاد الكبار ذوات

الأسواق والقرى الصغار ، والأسراب المتخذة وطنا ، فإن كانت الأبنية متفرقة لم تصح الجمعة بلا خلاف ، لأنها لا تعد قرية ويرجع فى الاجتماع والتفرق إلى العرف .

وأما أهل الخيام فإن كانوا ينتقلون من موضعهم شتاء وصيفا وهى مجتمعة بعضها إلى بعض فقولان . ثم قال: أصحهما باتفاق الأصحاب لاتجب عليهم الجمعة ولا تصح منهم ، وبه قطع الأكثرون ، وبه قال مالك وأبوحنيفة ، ثم ذكر الدليل بقوله لحديث : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » . ولم يصل هكذا .

وعند الحنابلة قال فى المغنى مانصه :

فصل

فأما الاستيطان فهو شرط فى قول أكثر أهل العلم ، وهو الاستيطان فى قرية على الأوصاف المذكورة لا يظعنون عنها صيفا ولا شتاء ، ولاتجب على مسافر ولا على مقيم فى قرية يظعن أهلها عنها فى الشتاء دون الصيف ، أو فى بعض السنة .

فإن خربت القرية أو بعضها وأهلها مقيمون فيها عازمون على إصلاحها فحكمها باق فى إقامة الجمعة بها وإن عزموا على النقلة عنها لم تجب عليهم لعدم الاستيطان .

هذه خلاصة أقوال أهل المذاهب الأربعة متفقة على اشتراط الوطن والاستيطان . وإن اختلفت فى صفة الوطن من مصر أو قرية أو نحوها مبنية بحجر أو طين أو أخشاب أو خيام ثابتة صيفاً وشتاء على ماتقدم .

وقد انفرد أبوحنيفة ومعه صاحبه أبو يوسف باشتراط وجود الأمير والقاضى الذى يقيم الحدود احترازاً من القاضى الذى لايقيم الحدود ، كقاضى السوق ، أو إذا كان من يلى القضاء امرأة على مذهبه فى ذلك وهى لاتقضى فى الحدود لعدم جواز شهادتها فيها ، واكتفى الأئمة الثلاثة بمطلق الاستيطان ، ومعلوم أن الاستيطان يستلزم الإمارة شرعا وعقلا .

أما شرعا فلقوله صلى الله عليه وسلم : «مامن ثلاثة لايؤمرون عليهم أميراً إلا استحوذ عليهم الشيطان » .

وعقلا ، فإن مستوطنين لا تسلم أحوالهم من خلافات ومشاحة فيما بينهم فلابد من شخص يرجعون إليه ، وهو فى معنى الأمير المطلوب ، كما أن الاستيطان يستلزم السوق لحوائجهم كما هو معلوم عرفا .

وقد استدل الجمهور بحديث ابن عباس رضى الله عنه « أن أول جمعة جمعت بعد جمعة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بقرية من قرى البحرين يقال لها جوانى ، وبحديث أبى أمامة أنه جمع بهم بالمدينة قبل مجىء النبى صلى الله عليه وسلم فى هزم من حرة بنى بياضة يقال له : نقيع الخضمات . مما لايستلزم المصر الذى اشترطه أبو حنيفة رحمه الله ،

وأجاب الأحناف عن ذلك بعدم المعارضة بين حديث علىّ وحديث ابن عباس ، وفعل أبى أمامة ، وقالوا : إن قول على لا يكون إلا عن سماع ، ولأن قوله تعالى : (فاسعوا إلى ذكر الله) ليس على إطلاقه باتفاق الأمة ، إذ لا يجوز إقامتها فى البرارى إجماعاً ، ولا فى كل قرية عند ابن عباس ، بل بشترط ألا يظعن أهلها عنها صيفاً ولا شتاء ، فكان خصوص المكان مرادا فيها إجماعاً ، فقدر القرية من أخذ بحديث ابن عباس بأنها القرية الخاصة . وقدر الأحناف المصر وقالوا : هو أولى لنص حديث علىّ «إلا فى مصر جامع» ، وقالوا إن إقامتها فى قرية جوانى غاية ما فيه تسمية جوانا قرية ، وهذه التسمية هى عرف الصدر الأول ، وهو لغة القرآن فى قوله تعالى : (وقالوا لولا نزل هـذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) أى مكة والطائف ، ومكة بلا شك مصر ، وفى الصحاح أن جوانا حصن بالبحرين ، فهى مصر إذ الحصن لا يخلو عن حاكم عليهم وعالم ، أما صلاة أبى أمامة فلم تكن عن علم ولا تقرير من النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا كانت شرعت الجمعة آنذاك ، فلا حجة فيه . والذى يقتضيه النظر بين هذه الأقوال والله تعالى أعلم : أن رأى الجمهور أرجح. ويتمشى مع قواعد مذهب أبى حنيفة فى الجملة ، لأن الأحناف يتفقون مع الجمهور على تسمية المصر قرية كتسمية الطائف ومكة قرى .

وجاء فى القرآن : مكة أم القرى ، فالقرية أعم من المصر ،

ومذهب أبى حنيفة تقديم العام على الخاص فى كثير من الأمور ، كما فى حديث «فيما سقت السماء العشر » ، فقدمه على حديث «ليس فيما دون خمسة أوسق صدقه » ، ومن هذا كله يتضح أن الاستيطان مجمع عليه ، فلا تصح فى غير وطن ، ولا تلزم غير مستوطن . ومن قال بغير ذلك فقد خالف الأئمة ، وشذ عن الأمة ، وليس له سلف فيما ذهب إليه ، والذى قاله الجمهور يشهد له سياق القرآن الكريم بالإيماء والإشارة ، لأننا لو أخذنا بعين الاعتبار الأمر بالسعى إلى ذكر الله وترك البيع حتى لا يشغل عنها ، ثم الانتشار فى الأرض بعد قضائها ، لتحصل عندنا من مجموع ذلك كله أن هناك جماعة نوديت وكلفت باستجابة النداء والسعى ، ثم الكف عن البيع الذى يشغل عن السعى ، ومثل هذا البيع الذى يكلفون بالكف عنه والذى يخشى منه شغل الناس عن السعى إلى الجمعة لا يكون عقداً بين اثنين فقط ، ولا يكون عملا فردياً بل يشعر بأنه عمل بين أفراد عديدين ومبايعات متعددة مما يشكل حالة السوق ، والسوق لا يكون فى البوادى بل فى القرى وللمستوطنين .

والعادة أن أهل البوادى ينزلون إلى القرى والأمصار للتزود من أسواقها ، وإذا وجد السوق ووجدت الجماعة ، اقتضى ذلك وجود الحاكم لاحتمال المشاحة والمنازعات . كما تقدم استلزام ذلك شرعاً وعقلا ، كما أن قوله تعالى : (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا

من فضل الله) يدل على الكثرة ، لأن مادة الانتشار لاتطلق على الواحد ولا الاثنين ، كما فى حديث « البيعان بالخيار مالم يتفرقا » ، ومنه انتشار الخبر لا يصدق على ما يكون بين اثنين ، أو أكثر ، إذا كانوا يتكتمون . فإذا استفاض وكثر من يعرفه ، قيل له : انتشر الخبر .

قال صاحب معجم مقاييس اللغة فى مادة نشر : النون والشين والراء أصل صحيح يدل على فتح شىء وتشعبه ، فقوله : وتشعبه يدل على الكثرة .

وقال يقال : اكتسى البازى ريشا نشرا ، أى منتشرا واسعاً طويلا ، ومعلوم أن ريش البازى كثير ، وهذا الوصف لا يتأتى من نفر قلائل فى بادية ، بل لا يتأتى تحققه إلا من أهل القرى المستوطنين . ولعلنا فى هذا قد أوضحنا هذه المسألة خاصة لهؤلاء الذين يقولون : إن الجمعة كالجماعة تصح من أى عدد فى أى مكان على أية حالة كانوا ، وهو قول فى الواقع لم يكن لهم فيه سلف ، وخالفوا به السلف والخلف ، مع ما فى قولهم من هدم حكمة التشريع فى إقامة الجمعة ، حيث إننا وجدنا حكمة الجماعة فى العدد القليل ، ولأهل كل مسجد فى كل ضاحية .

ثم نأت الجمعة لأهل القرية والمصر ومن فى ضواحيها على بعد خمسة

أو ستة أميال ، كما قال المالكية ، وكما كان السلف يأتون إلى المدينة زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، لما فيه من تجمع المسلمين على نطاق أوسع من نطاق الجماعة .

ثم يأتي العيد وهو على نطاق أوسع فيشمل حق النساء يحضرن ذلك اليوم ، ثم يأتي الحج يأتون إليه من كل فج عميق ، ولعل مما يشهد لهذا ويرد على من خالفه ، ما جاء في اجتماع العيد والجمعة . إذ خيرهم النبي صلى الله عليه وسلم بين النزول إلى الجمعة وبين الاكتفاء بالعيد أي أهل الضواحي .

ثم أخبرهم بأنه سيصلي الجمعة ، فلو أن الجمعة تصح منهم في منازلهم وضواحيهم لأرشدهم إلى ذلك وأعفاهم من النزول سواء في يوم العيد الذي يكون في يوم الجمعة أو في الجمعة من غير يوم العيد ، بل كانوا ينزلون من أطراف المدينة كما هو معلوم ، والعلم عند الله تعالى .

العدد في الجمعة

والواقع أن مسألة العدد في الجمعة قد كثر الخلاف فيها . فمن قائل : تصح بواحد مع الإمام . وعزاه ابن رشد للطبري ، ومن قائل باثنين مع الإمام وعزاه القرطبي للحسن ، ومن قائل بثلاثة مع الإمام وعزى لأبي حنيفة ، ومن قائل باثني عشر وجلا ، وعزاه القرطبي لربيعة ،

ومن قائل بثلاثين ، ومن قائل بأربعين ، وهو قول الشافعى وأحمد . ومن قائل بكل عدد يتأتى فى قرية مستوطنة ، وألا يكونوا ثلاثة ونحوها ، وهو قول مالك . قال فى متن خليل : وبجماعة تتقرى بهم قرية بلا حد .

وقال فى الشرح : أى جماعة يمكنهم الدفع عن أنفسهم فى الأمور الكثيرة لا النادرة ، وذلك يختلف بحسب الجهات إلى أن قال : وأفهم كلام المؤلف أن الاثنى عشر لا تتقرى بهم قرية . فقوله : بلا حد أى بعد الاثنى عشر . اهـ .

والواقع أن كل هذه الأقوال ليس عليها مستند يعول عليه فى العدد . بحيث لو نقص واحد بطلت ، ولكن الذى يشهد له الشرع من السماحة واليسر ، هو ما قاله مالك رحمه الله ، وما قدمنا من أن السياق يدل على وجود جماعة لها سوق ، ويتأتى منها الانتشار فى الأرض بعد انقضاء الصلاة . ولم نطل الكلام فى هذه المسألة لعدم وجود نص صريح فيها ، وكل ما يستدل به فهو حكاية حال تحتمل الزيادة والنقص ولا يعمل بمفاهيمها . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض) الآية . تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه التنبيه على ما فيها من مبحث أصولى ، وهو الأمر بعد الحظر وأصح ما فيه أنه يرد الأمر المحظور

إلى ما كان عليه قبل ورود الحظر عليه .

مسألة

وقت السعى إلى الجمعة ظاهر قوله تعالى : (إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) أن السعى يكون بعد النداء ، وعند ترك البيع ، ومفهومه أن قبل النداء لايلزم السعى ولا ترك البيع ، وهذا ظاهر من النص ، ولكن جاءت نصوص للحث على البكور إلى الجمعة ، منها قوله صلى الله عليه وسلم : « من بكر وابتكر ومشى ولم يركب وصلى ما تيسر له » . الحديث.

وحديث « من راح فى الساعة الأولى » إلى آخر الحديث ، فكان البكور مندوبا إليه ، وهذا أمر مسلم به ، ولكن وقع الخلاف بين مالك والجمهور فى مبدأ البكور ، ومعنى الساعة الأولى أى ساعة لغوية أو زمنية . وهل هى الأولى من النهار أو الأولى بعد الأذان ، فقال مالك : إن الساعة لغوية ، وهى الأولى بعد الأذان ، إذ لا يجب السعى إلا بعده وقبله لا تكليف به .

وحمل الجمهور الساعة على الساعة الزمنية ، وأن الأولى هى الأولى من النهار ، والراجح ما ذهب إليه الجمهور لعدة أمور :

أولا : فى لفظ حديث البكور ، لأن لفظ البكور لا يكون إلا

لأول النهار ، ولا يقال لما بعد الزوال بكور ، بل يسمى عشياً ، كما فى قوله تعالى : (بكرة وعشياً) وتكرار بكر ، وابتكر ، يدل على أنه فى بكرة النهار وأوائله ، وكذلك لفظة من راح ، لأن الرواح لأول النهار .

ثانيا فى الحديث : وصلى ما تيسر . له دليل قاطع على أن هناك زمنا يتسع للصلاة بقدر ما تيسر له . أما على مذهب مالك فلا متسع لصلاة بعد النداء ، ولا سيما فى زمنه صلى الله عليه وسلم لم يكن إلا أذان واحد ، وبعد النداء فلا متسع للصلاة .

ثالثاً : ما جاء عن بعض السلف ، كما تقدم أنه كان يصلى أربعا وثمانى واثنتى عشرة ركعة ، وهذا كله لا يكون مع الساعات اللغوية ، وما جاء عند النيسابورى من قوله فى تفسيره : وكانت الطرقات فى أيام السلف وقت السحر وبعد انفجر غاصة بالمبكرين إلى الجمعة يمشون بالسرج .

وقيل : أول بدعة أحدثت فى الإسلام ترك البكور إلى الجمعة ، والذى يقتضيه النظر فى هذه المسألة : هو أن زمن السعى له جهتان . جهة وجوب وإلزام ، وهذا لا شك أنه بعد النداء إلا من كان محله بعيداً . بحيث لو انتظر حتى ينادى لها لايدركها فيتعين عليه السعى إليها قبل النداء اتفاقاً ، لأنه لا يتمكن من أداء ما وجب عليه من صلاة الجمعة إلا بذلك .

وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وهذا مخصوص من ظاهر النص المتقدم .

الجهة الثانية : جهة ندب واستحباب ، وهذا لا يتقيد بزمن وإنما هو بحسب ظروف الشخص . فمن تمكن من البكور ولم يتعطل ببكوره ما هو ألزم منه ، فيندب له البكور ، وبحسب ما يكون بكوره فى الساعات الخمس المذكورة فى الحديث يكون ماله من الأجر ، ويشهد لهذا المعنى أمران :

الأول : حديث الملائكة على أبواب المساجد يكتبون الأول فالأول . فإذا حضر الإمام طوت الصحف وجلسوا يستمعون الذكر ، فكتابة الأول فالأول قبل خروج الإمام ، تدل على فضل الأولية قبل النداء كما تقدم .

الأمر الثانى : أننا وجدنا لكل واجب مندوباً والسعى إلى الجمعة عند النداء واجب ، فيكون له مندوب وهو السعى قبل النداء ، فكما للصلاة والصيام والزكاة واجب ومندوب . فكذلك للسعى واجب ومندوب ، فواجبه بعد النداء ، ومندوبه قبله ، والله تعالى أعلم .

الغسل للجمعة

فى قوله تعالى : (إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله) ترتيب السعى إلى ذكر الله على النداء ، ومعلوم أن هذا

مقيد بسبق الطهر إجماعا . وقد جاء فى قوله تعالى : (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم) فكانت الطهارة بالوضوء شرطا فى صحة الصلاة .

وهنا فى خصوص الجمعة لم يذكر شىء فى خصوص الطهر لها بوضوء أو غسل .

وقد جاءت أحاديث فى غسل الجمعة منها حديث أبى سعيد من قوله صلى الله عليه وسلم : « غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم » ، وفى لفظ « طهر يوم الجمعة واجب على كل محتلم كطهر الجنابة » وهذا نص صريح فى وجوب الغسل على كل من بلغ سن الحلم .

وجاء حديث آخر : « من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت ، ومن اغتسل فالغسل أفضل ». وهذا نص صريح فى أفضلية الغسل على الوضوء ، وبالتالى صحة الجمعة بالوضوء وهذا مذهب الجمهور .

وقد جاء عند مالك فى الموطإ : أن عثمان دخل يوم الجمعة وعمر يخطب فعاتبه على تأخره ، فأخبره أنه ما إن سمع النداء حتى توضأ ، وأتى إلى المسجد ، فقال له : والوضوء أيضا ، وذلك بمحضر من الصحابة ، فلم يأمره بالعودة إلى الغسل ، ولو كان واجباً لما تركه عثمان من نفسه ، ولا أقره عمر وتركه على وضوئه .

فقال الجمهور : إن الحديث الأول قد نسخ الوجوب فيه بحديث

المفاضلة المذكور ، واستدلوا على ذلك بأمرين : الأول قصة عمر مع عثمان هذه .

والثانى : قول عائشة رضى الله عنها كانوا فى أول الأمر هم فعلة أنفسهم فكانوا يأتون إلى المسجد ويشتد عرقهم فتظهر لهم روائح فعزم عليهم صلى الله عليه وسلم بالغسل ، ولما فتح الله عليهم وجاءتهم العلوج وكفوا مؤنة العمل ، رخص لهم فى ذلك ، وهذا هو مذهب الجمهور ، كما قدمنا .

وعند الظاهرية وجوب الغسل ، ولكن لليوم لا للجمعة ، النص الحديث : غسل يوم الجمعة ولم يقل الغسل لصلاة الجمعة ، واستدلوا لما ذهبوا إليه من النصوص فى تعهد الشعور والأظافر والغسل بصيغة عامة كل يوما على الإطلاق ، وقيدوه فى الغسل بخصوص الجمعة . وعليه فإن من لم يغتسل عندهم قبل الصلاة فعليه أن يغتسل بعدها ، وأنه ليس شرطا عندهم لصحتها ، والذى يظهر هو صحة مذهب الجمهور لأمرين :

الأول : أن مناسبة الغسل فى هذا اليوم أنسب ما تكون لهذا التجمع ، كما أشارت عائشة رضى الله عنها ، فإذا أهدرنا هذه المناسبة كان يوم الجمعة وغيره سواء .

الثانى : أن سياق الآية يشير إشارة خفية إلى عدم وجوب الغسل ، لأنه لم يذكر نوع طهارة عند السعى بعد الأذان ، ومعلوم أنه لابد من طهر لها ، فيكون إحالة على الآية الثانية العامة فى كل الصلوات ، (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم) الآية . فيكتفى بالوضوء وتحصل الفضلية بالغسل . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ﴾ .

فى عود الضمير على التجارة وحدها مغايرة لذكر اللهو معها .

وقال الزمخشرى : حذف أحدهما لدلالة المذكور عليه ، وذكر قراءة أخرى، انفضوا إليه يعود الضمير إلى اللهو ، وهذا توجيه قد يسوق لغة كما فى قول نابغة ذبيان :

وقد أرانى ونعما لاهيين بها والدهر والعيش لم يهمم بإمرار

فذكر الدهر والعيش ، وأعاد عليهما ضميراً منفرداً اكتفاء بأحدهما عن الآخر للعلم به ، وهو كما قال ابن مالك : وحذف ما يعلم جائز .

وقد ذكر الشيخ رحمه الله لهذا نظائر فى غير عود الضمير ، كقوله تعالى : (وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم) ، فالتى تقى الحر ، تقى البرد ، فاكتفى بذكر أحدهما لدلالته على الآخر ، ولكن المقام هنا خلاف ذلك .

وقد قال الشيخ عن هذه الآية فى دفع إيهام الاضطراب : لا يخفى أن أصل مرجع الضمير هو الأحد الدائر بين التجارة واللهو ، بدلالة لفظة أو على ذلك ، ولكن الضمير رجع إلى التجارة وحدها دون اللهو ، فبينه وبين مفسره بعض منافاة فى الجملة ، والجواب : أن التجارة أهم من اللهو وأقوى سبباً فى الانفضاض عن النبى صلى الله عليه

وسلم لأنهم انفضوا من أجل العير واللهو كان من أجل قدومها ، مع أن اللغة يجوز فيها رجوع الضمير لأحد المذكورين قبله . أما فى العطف بأو فواضح ، كقوله تعالى : (ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئاً) .

وأما الواو فهو فيها كثير كقوله (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة) وقوله (والله ورسوله أحق أن يرضوه) ، وقوله : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله) . اهـ .

أى أن هذه الأمثلة كلها يذكر فيها أمران ، ويعود الضمير على واحد منهما .

وبناء على جواب الشيخ رحمة الله تعالى عليه ، يمكن القول بأن عود الضمير على أحد المذكورين ، إما لتساويهما فى المصدق ، وإما لمعنى زائد فيما عاد عليه الضمير .

فمن المتساويين قوله تعالى : (ومن يكسب خطيئة أو إثمـا) لتساويهما فى النهى والعصيان ، ومماله معنى زائد قوله تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة) وإنها أى الصلاة ، لأنها أخص من عموم الصبر ، ووجود الأخص يقتضى وجود الأعم دون العكس ، ولأن الصلاة وسيلة للصبر ، كما فى الحديث . « كان صلى الله عليه وسلم إذا حز به أمرهم فزع إلى الصلاة » .

وكذلك قوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها)

أى الفضة ، لأن كنز الفضة أوفر ، وكانزوها أكثر فصورة الكنز حاصلة فيها بصفة أوسع ، ولدى كثير من الناس ، فكان توجيه الخطاب إليهم أولى ، ومن ناحية أخرى لما كانت الفضة من الناحية النقدية أقل قيمة ، والذهب أعظم ، كان فى عود الضمير عليها تنبيه بالأدنى على الأعلى ، فكأنه أشمل وأعم ، وأشد تخويفا لمن يكنزون الذهب .

أما الآية هنا ، فإن التوجيه الذى وجهه الشيخ رحمة الله تعالى عليه ، لعود الضمير على التجارة ، فإنه فى السياق ما يدل عليه ، وذلك فى قوله تعالى بعدها : (قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة) ، فذكر السببين المتقدمين لانفضاضهم عنه صلى الله عليه وسلم ، ثم عقبه بقوله تعالى ، بالتذييل المشعر بأن التجارة هى الأصل بقوله : (والله خير الرازقين) ، والرزق ثمرة التجارة . فكان هذا بياناً قرآنياً لعود الضمير هنا على التجارة دون اللهو . والعلم عند الله تعالى .

تنبيه

قال أبو حيان عن ابن عطية : تأمل إن قدمت التجارة على اللهو فى الرؤية ، لأنها أهم وأخرت مع التفضيل لتقع النفس أولا على الأبين . اهـ

يريد بقوله : فى الرؤية ، وإذا رأوا . وبقوله : مع التفضيل (قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة) أى لأن اللهو أبين فى الظهور ، والذى يظهر والعلم عند الله تعالى : أنه عند التفضيل ذكر اللهو للواقع فقط ، لأن اللهو لاخير فيه مطلقاً فليس محلا للمفاضلة ، وأخر ذكر التجارة لتكون أقرب لذكر الرزق لارتباطهما معا ، فلو قدمت التجارة هنا أيضاً لكان ذكر اللهو فاصلا بينها وبين قوله تعالى : (والله خير الرازقين) ، وهو لايتناسق مع حقيقة المفاضلة .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المنافقون

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى مذكرة الدراسة : الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، والمنافقون جمع منافق وهو من يظهر الإيمان ويسر الكفر .

قالوا : نشهد إنك لرسول الله ، أى قالوا ذلك نفاقاً وخوفاً ، ولم يقولوه خالصاً من قلوبهم . ولذا قال الله : (والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) ، وإنما شهد عليهم بالكذب مع أن ظاهر قولهم حق لان بواطنهم تكذب ظواهرهم لأن الأعمال بالنيات ، وإنما كسر همزة إن فى المواضع الثلاثة ، لأنها بعد فعل معلق باللام ، ولولا ذلك لفتحت ، لأنها فى محل المصدر .

ولأبى حيان قول حسن فى ذلك إذ قال : إن قولهم : نشهد يجرى مجرى اليمين . ولذلك تلقى بما يتلقى به القسم ، وكذا فعل اليقين . والعلم يجرى مجرى القسم بقوله : (إنك لرسول الله) أعنى يقصد التوكيد

بإن واللام ، ثم قال : وأصل الشهادة أن يواطئ اللسان القلب ، هذا بالنطق وذلك بالاعتقاد فأكذبهم الله : وفضحهم بقوله : (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) .

أى لم تواطئ قلوبهم ألسنتهم على تصديقك ، واعتقادهم أنك غير رسول ، فهم كاذبون عند الله وعند من عرف حالهم ، أو كاذبون عند أنفسهم ، إذ أنهم يعتقدون أن قولهم : (إنك لرسول الله) كذب .

وجاء قوله تعالى : (والله يعلم إنك لرسوله) بين شهادتهم وتكذيبهم إيذاناً بأن الأمر كما قالوا على حد قوله تعالى : (وكفى بالله شهيداً محمد رسول الله) .

تنبيه

فى هذه الآية مبحث بلاغى فى تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء فقالوا: الخبر ما احتمل الصدق والكذب لذاته ، فذهب الجمهور إلى أنه ينحصر فيهما بلا واسطة ، والمخبر إما صادق وإما كاذب . وهذا بناء على مطابقة الخبر للواقع أو عدم مطابقته ولا علاقة له بالاعتقاد .

قال السعد فى التلخيص ، وقال بعض الناس : صدق الخبر وكذبه مطابقته لاعتقاد المخبر لا للواقع . واستدلوا لذلك بأن عدم مطابقته للواقع يكون من قبيل الخطأ لا من قبيل الكذب .

ولحديث عائشة رضى الله عنها عن ابن عمر : ما كذب ولكنه وهم ،

وهذا مذهب الجاحظ وهو صدق الخبر مطابقته للواقع مع اعتقاد المخبر مستدلا بالآية (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) مع قولهم : (إنك لرسول الله) . فكذبهم الله مع أن خبرهم مطابق للواقع ، لكنهم لم يعتقدوا ما قالوا فكذبهم الله لذلك .

ومقتضى مذهب الجاحظ القول بوجود واسطة بين الصدق والكذب ، وهى عدم اعتقاد المخبر لما أخبر به ، ولو طابق الواقع ، ولكن ماقدمناه من كلام أبى حيان يرد هذا المذهب ويبطل استدلال الجاحظ ومن وافقه بالآية ، لأن تكذيب الله إياهم منصب على قولهم : (نشهد) ، والشهادة أخص من الخبر ، ولأنهم ضمنوا شهادتهم التأكيد المشعر بالقسم والموحى بمطابقة القول لما فى القلب ولاسيما فى هذا المقام ، وهو مقام الإيمان والتصديق ، فأكذبهم الله فى كون إخبارهم بصورة الشهادة والحال أنهم لم يأتوا بالشهادة على وجهها وهو عدم مطابقتها لاعتقادهم .

والقرآن ينفى وجود واسطة بين الصدق والكذب كما فى قوله تعالى : (فماذا بعد الحق إلا الضلال) .

أما فقه اليمين وما تنعقد به وأحكامها ، فقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هذا المبحث مستوفًى فى سورة المائدة عند قوله تعالى : (لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) الآية .

وذكر فى معنى لغو اليمين عند العلماء قولين :

الثانى منهما : هو أن يحلف على ما يعتقده فيظهر خلافه وعزاه لمالك ، وأنه مروى عن عائشة وأبى هريرة وابن عباس فى أحد قوليه ، وساق أسماء كثيرين ، ولايبعد أن يقال : ينبغى أن نفرق بين الحد اللغوى عند البلاغيين ، والحد الشرعى حيث يقبل شرعا ما كان مبناه على غلبة الظن عند المتكلم ، لأنه حد علمه ولعدم المؤاخذة فى الشرع فى مثل ذلك والله أعلم .

قوله تعالى:﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَـٰنَهُمۡ جُنَّةٗ ﴾ .

قرئ أيمانهم بفتح الهمزة جمع يمين ، وقرئ بكسرها من الإيمان ضد الكفر ، أى ما أظهروه من أمور الإسلام .

ومما تقدم أن من أنواع البيان إذا كان فى الآية قراءتان ، وفيها مايرجح إحداهما ، وتقدم كلام أبى حيان تخريجه على اليمين .

وللشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى مذكرة التدريس قوله : الإيمان جمع يمين وهى الحلف والجنة الترس ، وهو المجن الذى تتقى به السيوف والنبال والسهام فى الحرب ، والمعنى أن المنافقين إذا ظهر شىء من نفاقهم أو سمعت عنهم كلمة كفر ، حلفوا بالله أنهم ماقالوا ذلك ومافعلوه ، فيجعلون حلفهم ترساً يقيهم من مؤاخذة النبى صلى الله عليه وسلم لهم بذنبهم .

كما قال تعالى : (يحلفون بالله ماقالوا ولقد قالوا كلمة الكفر) الآية .

وقال : (يحلفون بالله إنهم لمنكم وماهم منكم) الآية .

وقال : (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) الآية . ونحو ذلك ، فهذه نصوص تدل على أنهم يحلفون أيماناً على إيمانهم .

ومن جهة المعنى : أن أيمانهم وحلفهم منصب على دعوى إيمانهم ، فلا انفكاك بين اليمين والإيمان ، لأنهم يحلفون أنهم مؤمنون . واليمين أخص من الإيمان ، وحمله على الأخص يقتضى وجود الأعم ، فالحلف على الأيمان يستلزم دعوى الإيمان وزيادة ، ومجرد دعوى الإيمان لايستلزم التأكيد بالإقسام والحلف .

قوله تعالى : ﴿ فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه : أى بسبب اتخاذهم أيمانهم جنة وخفاء كفرهم الباطن ، تمكنوا من صد بعض الناس عن سبيل الله ، لأن المسلمين يظنونهم إخواناً وهم أعداء . وشر الأعداء من تظن أنه صديق . ولذا حذر الله نبيه منهم بقوله : (هم العدو فاحذرهم) وصدهم الناس عن سبيل الله كتعويقهم عن الجهاد . كما بينه بقوله : (قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا) الآية .

وبقوله : (وقالوا لاتنفروا فى الحر) الآية .

وقوله : (الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ماقتلوا) الآية .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه : ساء فعل جامد لإنشاء الذم بمعنى بئس . اهـ.

وقد بين تعالى تلك الإساءة من المنافقين فى عدة جهات منها قوله تعالى : (يخادعون الله والذين آمنوا) .

وقوله : (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) .

وكان خداعهم بالقول وبالفعل ، وخداعهم بالقول فى قوله عنهم: (يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم) .

وخداعهم فى الفعل فى قوله عنهم : (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس) .

وفى الجهاد قولهم : (إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فراراً) .

قوله تعالي : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾.

فى هذه الآية نص على أن الطبع على قلوبهم نتيجة لكفرهم بعد إيمانهم ، ومثله قوله تعالى : (بل طبع الله عليها بكفرهم) .

وكقوله : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) .

وقال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، عن بعض العلماء : ذلك

بأنهم آمنوا ، أى بألسنتهم نفاقاً ثم كفروا بقلوبهم فى الحقيقة . اهـ .

وتقدم فى أول سورة البقرة ختم الله على قلوبهم فهم لايعقلون بعد هذا الطبع ، ومع هذا الختم كقوله تعالى : (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه) .

قوله تعالى : ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾ .

فيه مايشعر بحصر العداوة فى المنافقين مع وجودها فى المشركين واليهود ، ولكن إظهار المشركين شركهم ، وإعلان اليهود كفرهم مدعاة للحذر طبعاً .

أما هؤلاء فادعاؤهم الإيمان وحلفهم عليه ، قد يوحى بالركون إليهم ولو رغبة فى تأليفهم . فكانوا أولى بالتحذير منهم لشدة عداوتهم ولقوة مداخلتهم مع المسلمين ، مما يمكنهم من الاطلاع على جميع شئونهم .

وقد جاء فى آخر السورة كله كاشفاً لحقيقتهم ومبيناً شدة عداوتهم سواء فى قولهم (لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) ، أو فى تآمرهم على المسلمين فى قولهم : (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) .

وقوله : (إن الله لايهدى القوم الفاسقين)

هم هنا المنافقون ، كقوله تعالى : (إن المنافقين هم الفاسقون) .

قوله تعالي : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ .

تقدم بيانه للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند قوله تعالى : (له مقاليد السماوات والأرض) .

قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ ﴾ الآية.

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه، بيان مافيها من القول بالموجب ؟

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، الكلام عليه عند قوله تعالى : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) ، وقد بيّن سبب لهو المال والولد عن ذكر الله ، بأن العبد يفتن فى ذلك فى قوله تعالى الآتى فى سورة التغابن (إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم) .

أى لمن سخر المال فى طاعة الله ، وبالتأمل فى آخر هذه السورة ، وآخر التى قبلها نجد اتحاداً فى الموضوع والتوجيه .

فهناك قوله تعالى : (وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ماعند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين) .

وجاء عقبه مباشرة سورة : إذا جاءك المنافقون ، ولعله مما يشعر أن الذين بادروا بالخروج للعير هم المنافقون ، وتبعهم الآخرون لحاجتهم لما حمل العير ، وهنا بعد ماركن المنافقون للمال جاء (لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) فكانت أموالهم فتنة لهم فى مقالتهم تلك ، فحذر الله المؤمنين بقوله : (لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) سواء كان المراد بالأموال خصوص ذكر الخطبة والعير المتقدم ذكرهما ، أو عموم العبادات والمكتسبات) .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُمْ ﴾ .

فيه الإنفاق من بعض مارزقهم ، وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، مبحث الاقتصاد فى الإنفاق عند قوله فى أول سورة البقرة (ومما رزقناهم ينفقون) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾ .

وكذلك لايقدمها عليه ، كما فى قوله تعالى : (لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون) .

وبين تعالى عدم تأخرهم مع أنهم وعدوا بأنهم يصدقون ويكونون من الصالحين ، مشيراً للسبب فى قوله تعالى : (والله خبير بما تعملون) أى لوأخركم ، لأن شيمتكم الكذب وخلف الوعد ، وأن هذا دأب أمثالهم كما بينه تعالى فى قوله : (وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول

الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل. أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال) .

وقوله تعالى : (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون . لعلى أعمل صالحا فيما تركت . كلا إنها كلمة هو قائلها) .

فقوله تعالى عنهم : كلا إنها كلمة هو قائلها . تعادل فى ماصدقها .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

أى لو أخرهم لن يصدقوا ولن يكونوا من الصالحين ، والله تعالى محيط علمه بما سيكون ، كإحاطته بما قد كان . والله تعالى أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التغابن

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

تقدم معنى التسبيح ومدلول ما فى السماوات وما فى الأرض فى أول سورة الحشر والحديد ، وهذه السورة آخر السور المفتتحة بالتسبيح . والفعل هنا بصيغة المضارع الدال على التجدد والحدوث . والتذييل هنا بصفات الكمال لله تعالى بقوله : (له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير) للاشعار بأن الملك لله وحده لاشريك : نافذ فيه أمره ماض فيه حكمه بيده أزمة أمره ، كما فى قوله تعالى : (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير) .

وكقوله فى سورة يس: (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون) .

ومن قدرته على كل شىء وتصريفه لأمور ملكه كيف يشاء ، أن جعل العالم كله يسبح له بحمده تنفيذاً لحكمة فيه ، كما فى قوله : (له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون) ، فجمع الحمد والحكم معاً لجلالة قدرته وكمال صفاته

قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه، في مذكرة الدراسة: المعنى أن الله هو الذي خلقكم وقدَّر على قوم منكم الكفر، وعلى قوم منكم الإيمان، ثم بعد ذلك يهدي كلا لما قدره عليه كما قال: (والذي قدَّر فهدى) فيسر الكافر إلى العمل بالكفر، ويسر المؤمن للعمل بالإيمان، كما قال صلى الله عليه وسلم: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له». اهـ.

ومن المعلوم أن هذا النص من مأزق القدرية والجبرية، وأن أهل السنة يؤمنون أن كلا بقدر الله ومشيئته. كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية: وهم أهل السنة وسط بين قول: إن العبد مجبور على عمله لا اختيار له كالورقة في مهب الريح.

وبين قول: إن العبد يخلق فعله بنفسه ويفعل مايريد بمشيئته.

وأهل السنة يقولون بقوله تعالى: (لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين).

وقد ذكر القرطبي أقوال الطائفتين من أهل العلم، ولكل طائفة ما استدلت به، الأولى عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خلق الله فرعون في بطن أمه كافرا، وخلق يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمنا».

وبما فى الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم : « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع أو باع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى لم يبق بينه وبينها إلا ذراع أو باع ، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » .

وقال : قال علماؤنا : تعلق العلم الأزلى بكل معلوم . فيجرى ما علم وأراد وحكم .

الثانية ماجاء فى قوله : وقال جماعة من أهل العلم : إن الله خلق الخلق ثم كفروا وآمنوا . قالوا : وتمام الكلام : وهو الذى خلقكم ، ثم وصفهم فقال : (فمنكم كافر ومنكم مؤمن) .

كقوله تعالى : (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه) ، قالوا فالله خلقهم والمشى فعلهم .

واختاره الحسين بن الفضل ، قال : لأنه لو خلقهم كافرين ومؤمنين لما وصفهم بفعلهم ، واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة » الحديث . اهـ.

وبالنظر فى هاتين المقالتين نجد الآتى :

أولا : التشبيه فى المقالة الثانية لايسلم ، لأن وصف الدواب فى حالة المشى ليس وصفاً فعلياً ، وإنما هو من ضمن خلقه تعالى لها ولم يكن منها فعل فى ذلك .

ثانياً : ما استدلت به كل طائفة من الحديثين لاتعارض بينهما ، لأن الحديث الأول « إن أحدكم ليعمل » لبيان المصير والمنتهى . وفق العلم الأزلى والإرادة القدرية .

والحديث الثانى لبيان مبدأ وجود الإنسان فى الدنيا وأنه يولد على الفطرة حينما يولد . أما مصيره فبحسب ماقدر الله عليه .

وقد نقل القرطبى كلاماً للزجاج وقال عنه : هو أحسن الأقوال ونصه : إن الله خلق الكافر وكفره فعل له وكسب ، مع أن الله خالق الكفر وخلق المؤمن وإيمانه فعل له وكسب ، مع أن خالق الإيمان. والكافر يكفر ويختار الكفر بعد أن خلق الله إياه ، لأن الله تعالى قدر ذلك عليه وعلمه منه ، لأن وجود خلاف المقدر عجز ، ووجود خلاف المعلوم جهل .

قال القرطبى : وهذا أحسن الأقوال ، وهو الذى عليه جمهور الأمة .اهـ .

ولعل مما يشهد لقول الزجاج قوله تعالى : (والله خلقكم وما تعملون)

هذا حاصل ماقاله علماء التفسير ، وهذا الموقف كما قدمنا من مأزق القدر والجبر ، وقد زلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام ، وبتأمل النص وما يكتنفه من نصوص فى السياق مما قبله وبعده . نجد الجواب الصحيح والتوجيه السليم ، وذلك ابتداء من قوله تعالى : (له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير)

فكون الملك له لايقع فى ملكه إلا مايشاء ، وكونه على كل شىء قدير يفعل فى ملكه مايريد .

ثم قال : (هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير) .

ثم جاء بعدها قوله تعالى :

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ * يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ .

فخلق السماوات والأرض وخلق الإنسان فى أحسن صورة آيتان من آيات الدلالة على البعث ، كما قال تعالى فى الأولى : (لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس) .

وقال فى الثانية : (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم) .

ولذا جاء عقبها قوله : (وإليه المصير) .

أى بعد الموت والبعث . فكأنه يقول لهم : هو الذى خلقكم وخلق لكم آيات قدرته على بعثكم ، من ذلك خلق السماوات والأرض ، ومن ذلك خلقكم وتصويركم فى أحسن تقويم ، فكأن موجب ذلك الإيمان

بقدرته تعالى على بعثكم بعد الموت ، وبالتالى إيمانكم بما بعد البعث ، من حساب وجزاء وجنة ونار ، ولكن فمنكم كافر ومنكم مؤمن .

وقد جاء بعد ذكر الأمم قبلهم : وبيان أحوالهم جاء تفنيد زعم الكفار بالبعث والإقسام على وقوعه فى قوله تعالى (زعم الذين كفروا ألن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير) . لأن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ويشهد لهذا التوجيه فى قوله تعالى فى سورة الإنسان (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ، إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا) .

فقوله تعالى : (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) كقوله تعالى : (هو الذى خلقكم) .

ثم قال : (فجعلناه سميعاً بصيراً) وهما حاستا الإدراك والتأمل ، فقال : (إنا هديناه السبيل) مع استعداده للقبول والرفض .

وقوله : (إما شاكراً وإما كفورا) مثل قوله هنا : (فمنكم كافر ومنكم مؤمن) أى بعد التأمل والنظر وهداية السبيل بالوحى ، ولذا جاء فى هذا السياق من هذه السورة : (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا) .

وبكل ماتقدم فى الجملة يظهر لنا أن الله خلق الإنسان من نطفة

ثم جعل له سمعاً وبصراً ونصب الأدلة على وجوده وقدرته على بعث الموتى ، ومن ثم مجازاتهم على أعمالهم وأرسل إليه رسله وهداه النجدين ، ثم هو بعد ذلك إما شاكراً وإما كفورا ولو احتج إنسان فى الدنيا بالقدر لقيل له : هل عندك علم بما سبق فى علم الله عليك ، أم أن الله أمرك ونهاك وبين لك الطريق .

وعلى كل ، فإن قضية القدر من أخطر القضايا وأغمضها ، كما قال على رضى الله عنه : القدر سر الله فى خلقه .

وقال صلى الله عليه وسلم « إذا ذكر القضاء فأمسكوا » ، ولكن على المسلم النظر فيما أنزل الله من وحى وبعث من رسل .

وأهم ما فى الأمر هو جرى الأمور على مشيئة الله وقد جاء موقف عملى فى قصة بدر ، يوضح حقيقة القدر ويظهر غاية العبر فى قوله تعالى : (إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور) .

فهو تعالى الذى سلم من موجبات التنازع والفشل بمقتضى علمه بذات الصدور .

ثم قال : (وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور) ، فقد أجرى الأسباب على مقتضى إرادته فقلل كلا من الفريقين فى أعين الآخر ليقضى الله أمراً كان فى سابق علمه مفعولا ، ثم بين المنتهى ، (وإلى الله ترجع الأمور) ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

فيه استنكار الكفار أن يكون من يهديهم بشراً لا ملكا ، كما قال تعالى : (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا) ، وقوله تعالى : (أبشراً منا واحداً نتبعه) .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، فى مذكرة الدراسة : فشبهتهم هذه الباطلة ردها الله فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) ، وقوله : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا) أى لاملائكة وقوله (وما أرسلنا قبلك من المرسلين . إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) الآية .

قوله تعالى : (فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد) تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام عليه عند قوله تعالى : (ولله على الناس حج البيت) إلى قوله : (ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) .

قوله تعالى : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، أى أن الكفار ادعوا أنهم لايبعثون قائلين :

إن العظام الرميم لا تحيى قل لهم ، يا نبى الله : بلى وربى لتبعثن ، وبلى حرف يأتى لأحد معنيين الأول رد نفى ، كما هنا .

الثانى : جواب استفهام مقترن بنفى نحو قوله : (ألست بربكم قالوا بلى) ، وقوله : (وربى) قسم بالرب على البعث الذى هو الإحياء بعد الموت ، وقد أقسم به عليه فى القرآن ثلاث مرات . الأول هذا .

والثانى قوله : (ويستنبؤنك أحق هو قل إى وربى إنه لحق) .

الثالث قوله : (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم) اه .

وقوله : (ثم لتنبؤن بما عملتم) بينه تعالى بقوله : (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) ، وقوله : (وذلك على الله يسير) ، اسم الإشارة راجع إلى البعث ويسره أمر مسلم ، لأن الإعادة أهون من البدء . كما قال تعالى عن الكفار : (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) ، وقوله : (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) ، وقال (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) .

قوله تعالى : ﴿ فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ .

النور هنا هو القرآن كما قال تعالى : (ما كنت تدرى ما الكتاب

ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) وهو القرآن ، وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى عليه الكلام عليه عند قوله تعالى : (هو الذى ينزل على عبده آيات بينات) من سورة الحديد ، وفى المذكرة سماه نوراً لأنه كاشف ظلمات الجهل والشك والشرك والنفاق .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ .

يوم الجمع هو يوم القيامة ، وقال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه : ظرف منصوب باذكر مقدرة أو بقوله (خبير) .

فيكون المعنى : أنه يوم القيامة خبير بأعمالكم فى الدنيا لم يخف عليه منها شىء فيجازيكم عليها ، سمى يوم الجمع لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون فى صعيد واحد ، يسمعهم الداعى وينفذهم البصر ، كما قال تعالى : (قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام عليه فى عدة مواضع منها فى الجزء الثالث عند قوله تعالى : (ذلك يوم مجموع له الناس) .

ومنها فى الجزء السابع عند الآية المتقدمة ، (قل إن الأولين والآخرين لمجموعون) .

ومن أصرح الأدلة فيه : آية الشورى (وتنذر يوم الجمع

لاريب فيه) ، ثم قال : (فريق فى الجنة وفريق فى السعير) .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾ .

الغبن : الشعور بالنقص ومثله الخبن لاشتراكهما فى حرفين من ثلاثة، كما فى فقه اللغة : فبينهما تقارب فى المعنى كتقاربهم فى الحرف المختلف ، وهو الغين والخاء وخفاء الغين فى الحلق وظهور الخاء عنها كان الغبن لما خفى ، والخبن لما ظهر .

وقد بين تعالى موجب الغبن للغابن والمغبون فقال : (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيآته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم) ، وبين حال المغبون بقوله : (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير) .

وقد بين العلماء حقيقة الغبن فى هذا المقام بأن كل إنسان له مكان فى الجنة ومكان فى النار . فإذا دخل أهل النار النار بقيت أماكنهم فى الجنة ، وإذا دخل أهل الجنة الجنة بقيت أماكنهم فى النار .

وهناك تكون منازل أهل الجنة فى النار لأهل النار ، ومنازل أهل النار فى الجنة لأهل الجنة يتوارثونها عنهم ، فيكون الغبن الأليم ، وهو استبدال مكان فى النار بمكان فى الجنة ورثوا أماكن الآخرين الذين ذهبوا إلى النار .

قوله تعالى ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

فى هذه الآية الكريمة نص صريح بأن مايصيب أحدا مصيبة إلا بإذن الله .

ومعلوم أنه كذلك ما يصيب أحداً خير إلا باذن الله على حد قوله : (وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر) أى والبرد .

ولكن التنصيص على المصيبة هنا ليدل أن كل شيء ينال العبد إنما هو بإذن الله ،لأن الحيلة تأبى المصائب وتتوقاها ، ومع ذلك تصيبه ، وليس فى مقدوره دفعها بخلاف الخير ، قد يدعى أنه حصله باجتهاد منه كما قال قارون : (إنما أوتيته على علم عندى) .

وقوله : (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) قرئ يهدأ بالهمز من الهدوء ، وقلبه بالرفع ، وهى بمعنى يهدى قلبه ، لأنه يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، فيسترجع فيطمئن قلبه بهذا ولايجزع ، وهذا من خصائص المؤمن .

كما قال صلى الله عليه وسلم « عجباً لأمر المؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له حتى الشوكة يشاكها فى قدمه» .

ومثل هذا قوله تعالى : (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع

ونقص من الأموال والأنفس والثمرات . وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) .

أى إلى مايلزمهم من امتثال وصبر ولذا جاء بعدها (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) .

ومن ناحية أخرى يقال : إن قوله تعالى : (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله) ، والكفر أعظم المصائب ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه .

والإيمان بالله أعظم النعم ، فيقول قائل : إذا كان كل ذلك بإذن الله ، فما ذنب الكافر وما فضل المؤمن ، فجاء قوله تعالى : (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) بياناً لما يلزم العبد ، وهو طاعة الرسل فيما جاءوا به ، ولايملك سوى ذلك .

وفى قوله تعالى : (يهد قلبه) من شبه الهداية إلى القلب بيان لقضية الهداية العامة والخاصة ، كما قالوا فى قوله تعالى عنه صلى الله عليه وسلم : (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) مع قوله تعالى : (إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) .

فقالوا : الهداية الأولى دلالة إرشاد كقوله تعالى : (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) .

والثانية : هداية توفيق وإرشاد ويشهد لذلك شبه الهداية من الله

لقلب من يؤمن بالله ، وقوله تعالى : (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) بتكرار فعل الطاعة يدل على طاعة الرسول تلزم مستقلة .

وقد جاءت السنة بتشريعات مستقلة وبتخصيص القرآن ونحو ذلك ، كما تقدم عند قوله تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه) .

ومما يشهد لهذا قوله تعالى : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) ، فكرر الفعل بالنسبة لله وللرسول ولم يكره بالنسبة لأولى الأمر ، لأن طاعتهم لا تكون استقلالا بل تبعاً لطاعة الله وطاعة رسوله ، كما فى الحديث :« لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

قوله تعالى ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام على ذلك عند قوله تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) .

ومما يعتبر توجيهاً قرآنياً لعلاج مشاكل الحياة الزوجية وقضية الأولاد التعقيب على ذلك بقوله تعالى : (وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم) أى إن عداوة الزوجة والأولاد لاينبغى أن تقابل إلا بالعفو والصفح والغفران ، وأن ذلك يخفف أو يذهب أو يجنب الزوج والولد نتائج هذا العداء ، وأنه خير من المشاحة والخصام

وفى موضع آخر قال : (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) أى قد تفتن

عن ذكر الله ، (لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) .

وتقدم للشيخ هذا المبحث فى سورة الكهف كما أشرنا .

قوله تعالى ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ .

يفهم منه أن التكليف فى حدود الاستطاعة ، ويبينه قوله تعالى : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) .

وقوله تعالى : (ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به) .

وفى الحديث : قال الله قد فعلت . وهذا فى الأوامر دون النواهى ، لأن النواهى تروك .

كما جاء فى السنة « ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم ، ومانهيتكم عنه فاجتنبوه » ، وهذا من خصائص هذه الأمة .

كما تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، عند أواخر سورة البقرة ، وتحقيق ذلك فى رخص الصلاة والصيام ونحوهما .

قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

قالوا : الشح ، أخص من البخل ، وقيل البخل : أن تضن بمالك ، والشح أن تضن بمال غيرك ، والواقع أن الشح منتهى البخل . وإن ذكره هنا بعد قضايا الأزواج والأولاد وفتنتهم وعداوتهم ، ثم الأمر بالسمع والطاعة والإنفاق فى قوله : (واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم)

يشعر بأن أكثر قضايا الزوجية منشؤها من جانب المال حرصاً عليه أو بخلا به ، حرصا عليه بالسعى إليه بسببهم ، فقد يفتن فى ذلك ، وشحاً به بعد تحصيله فقد يعادونه فيه .

والعلاج الناجع فى ذلك كله الإنفاق وتوقى الشح ،والشح من جبلة النفس ، وأحضرت الأنفس الشح ، وفى إضافة الشح إلى النفس مع إضافة الهداية فيما تقدم إلى القلب سر لطيف ، وهو أن الشح جبلة البشرية . والهداية منحة إلهية ، والأولى قوة حيوانية ، والثانية قوة روحية .

فعلى المسلم أن يطالب بالقوة الروحية ماجبل عليه من قوة بشرية لينال الفلاح والفوز ، كما أشار تعالى بقوله : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) .

ثم قال : (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخيراً أملا) .

قوله تعالى ﴿وَٱسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾

أى لا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وعصينا ، ولا كقوم نوح الذين قال عنهم : (وإنى كل مادعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا) .

وقد ندد بقول الكفار : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه : اسمعوا ما يقال لكم وأطيعوا فيما سمعتم ، لا كمن قبلكم المشار إليهم بالآيات المتقدمة .

قوله تعالى ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، قد بين تعالى أنه يضاعف الإنفاق سبعمائة إلى أكثر بقوله : (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل) إلى قوله : (والله يضاعف لمن يشاء) .

وأصل القرض فى اللغة : القطع وفى الشرع قطع جزء من المال يعطيه لمن ينتفع به ثم يرده ، أى أن الله تعالى يرد أضعافا ، وقد سمى معاملته مع عبيده قرضاً وبيعاً وشراء وتجارة .

ومعنى ذلك كله أن العبد يعمل لوجه الله والله جل وعلا يعطيه ثواب ذلك العمل ، كما فى قوله تعالى : (إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم) الآية .

وقوله : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) .

وقوله : (فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به)

وقوله : (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم) الآية ، مع قوله تعالى : (تجارة لن تبور) .

والقرض الحسن هو مايكون من الكسب الطيب خالصاً لوجه الله . اهـ :

ومما يشهد لقوله رحمه الله فى معنى القرض الحسن قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس) لأن ذلك لم ينفق بإخلاص لوجه الله ، ومجىء الحث على القرض الحسن هنا بعد قضية الزوجية والأولاد وتوقى الشح يشعر بأن الإنفاق على الأولاد والزوجة إنما هو من باب القرض الحسن مع الله ، كما فى قوله تعالى: (يسألونك ماذا ينفقون . قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين) الآية .

وأقرب الأقربين بعد الوالدين هم الأولاد والزوجة .

وفى الحديث فى الحث على الإنفاق « حتى اللقمة يضعها الرجل فى فىّ امرأته » .

وقوله : (والله شكور حليم) .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه شكر الله لعبده هو مجازاته له بالأجر الجزيل على العمل القليل .

وقوله : (حليم) أى لايعجل بالعقوبة بل يستر ويتجاوز عن ذنوب . ومجىء هذا التذييل هنا يشعر بالتوجيه فى بعض نواحى إصلاح الأسرة ، وهو أن يقبل كل من الزوجين عمل الآخر بشكر ، ويقابل كل إساءة بحلم ليتم معنى حسن العشرة ، ولأن الإنفاق يستحق المقابلة بالشكر والعداوة تقابل بالحلم .

وقوله تعالى : (عالم الغيب والشهادة) مجىء الآية بالجملة الإسمية يشعر

بالحصر ، وقد صرح به فى قوله تعالى : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) ، ومجيؤه هنا أيضاً يشعر بأن الرقابة على الأسرة بين الطرفين إنما هى لله تعالى ، لأنهما يكونان فى عزلة عن الناس ولا يطلع على ما بينهما إلا الله ، عالم الغيب والشهادة ، أى فليراقب كل منهما ربه عالم الغيب والشهادة ، ومجازيا كلا منهما على فعله .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الطلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ الآية.

قيل فى سبب نزولها أن النبى صلى الله عليه وسلم طلق حفصة رضى الله عنها فنزلت، وقيل غير ذلك، وعلى كل، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو معلوم.

ومما يشهد لهذه القاعدة ما لو أخذنا بعين الاعتبار النسق الكريم بين السورتين، حيث كان آخر ماقبلها موضوع الأولاد والزوجات من فتنة وعداء.

والإشارة إلى علاج مابين الزوجين من إنفاق وتسامح على ما أشرنا إليه سابقاً هناك، فإن صلح مابينهم بذاك فبها ونعمت، وإن تعذر مابينهما وكانت الفرقة متحتمة فجاءت هذه السورة على إثرها تبين طريقة الفرقة السليمة فى الطلاق وتشريعه وما يتبعه من عدد وإنفاق ونحو ذلك.

وقوله تعالى: (يا أيها النبى) بالنداء للنبى صلى الله عليه وسلم.

وقوله، (إذا طلقتم) بخطاب لعموم الأمة. قالوا: كان النداء للنبى

صلى الله عليه وسلم ، والخطاب للأمة تكريماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتكليفاً للأمة . وقيل : خوطبت الأمة فى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم كخطاب الجماعة فى شخصية رئيسها .

وقال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه : ولهذه الآية استدل من يقول : إن الرسول صلى الله عليه وسلم يكون داخلا فى عموم خطاب الأمة . اهـ .

والواقع أن الخطاب الموجه للنبى صلى الله عليه وسلم على ثلاثة أقسام :

الأول : قد يتوجه الخطاب إليه صلى الله عليه وسلم ولا يكون داخلا فيه قطعاً ، وإنما يراد به الأمة بلا خلاف من ذلك قوله تعالى فى بر الوالدين : (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا) .

فكل صيغ الخطاب هنا موجهة للنبى صلى الله عليه وسلم ، وهو قطعاً ليس مراد بذلك لعدم وجود والدين ، ولا أحدهما عند نزولها كما هو معلوم .

الثانى : أن يكون خاصاً به لايدخل معه غيره قطعاً ، نحو قوله تعالى : (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين) .

والثالث : هو الشامل له صلى الله عليه وسلم ولغيره بدليل هذه الآية ، وأول السورة التى بعدها فى قوله تعالى : (يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك) ، فهذا كله خطاب موجه له صلى الله عليه وسلم .

وجاء بعدها مباشرة (قد فرض الله لكم - بخطاب الجميع - تحلة ايمانكم) فدل أن الآية داخلة فى قوله تعالى : (يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك) ، وهذا باتفاق

وقد بين الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، هذه المسألة بأقوى دليل فيها عقد قوله تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفا) إلى قوله : (منيبين إليه) .

وقوله تعالى : (إذا طلقتم النساء) الآية . يشعر بأن كل المطلقات من النساء يطلقن لعدتهن وتحصى عدتهن .

والإحصاء العدد مأخوذ من الحصا ، وهو الحصا الصغير كانت العرب تستعمله فى العدد لأميتهم ، ثم ذكر بعض عدد لبعض المطلقات ولم يذكر جميعهن مع أنه من المطلقات من لاعدة لهن وهن غير المدخول بهن . ومن المطلقات من لم يذكر عدتهن هنا .

قال الزمخشرى : إنه لاعموم ولا تخصيص ، لأن لفظ النساء اسم جنس يطلق على الكل وعلى البعض ، وقد أطلق هنا على البعض وهو المبين

حكمهن بذكر عدتهن ، وهن اللاتى يئسن والصغيرات وذوات الحمل ، وحاصل عدد النساء تتلخص فى الآتى ، وهى أن الفرقة إما بحياة أو بموت ، والمفارقة إما حامل أو غير حامل ، فالحامل عدتها بوضع حملها اتفاقا ، ولا عبرة بالخلاف فى ذلك لصحة النصوص ، وغير الحامل بأربعة أشهر وعشر مدخول بها وغير مدخول . والمفارقة بالحياة إما مدخول بها أو غير مدخول بها ، فغير المدخول بها لاعدة عليها إجماعا . والمدخول بها إما من ذوات الإقراء فعدتها ثلاثة قروء على خلاف فى المراد بالقرء .

وأما من ليست من ذوات الإقراء كاليائسة والصغيرة ، فعدتها بالأشهر ثلاثة أشهر .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، فى الجزء الأول عند قوله تعالى : (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) ، وفصل أنواع المطلقات المدخول بهن وغير المدخول بهن وأنواع العدد بالإقراء أو الأشهر أو الحمل وبين الجمع بين العمومات الواردة فى ذلك كله مما يغنى عن الإعادة هنا .

تنبيه

كل ماتقدم فى شأن العدة ، إنما هو فى خصوص الحرائر ، وبقى مبحث الإماء .

أما الإماء : فالحوامل منهن كالحرائر سواء بسواء ، وغير الحوامل

فالجمهور على أنها على النصف من الحرة إلا أن الحيضة لما لم تكن تتجزأ فجعلت عدتها فيها حيضتين . وهذا باتفاق الأئمة الأربعة .

أما ذات الأشهر ، فالجمهور على أنها تعتد شهراً ونصفاً ، وخالف مالك فجعل لها ثلاثة أشهر ، فيكون مالك رحمه الله وافق الجمهور فى ذوات الحيض ، وخالف الجمهور فى ذوات الأشهر ، وقد أخطأ ابن رشد مع مالك فى نقاشه معه هذه المسألة ، فقال فى بداية المجتهد :

وقد اضطرب قول مالك فى هذه المسألة ، فلا بالنص أخذ ولا بالقياس عمل ، يعنى أنه لم يأخذ بالنص فى ذوات الحيض فيجعل لهن ثلاثة قروء ، كما أخذ به فى ذوات الأشهر ، حيث جعل لهن ثلاثة أشهر بالنص ولا بالقياس عمل ، أى فلم ينصف الأشهر قياسا على الحيض ، فكان مذهبه ملفقا بين القياس فى ذوات الحيض ، والنص فى ذوات الأشهر ، فخالف فى ذلك الأئمة الثلاثة .

واضطرب قوله فى نظر ابن رشد ، لأنه لم يطرد القياس فيهما ، ولا أعمل النص فيهما ، ولكن الحق فى المسائل الخلافية لا يمكن أن يعرف إلا بعد معرفة وجهة النظر عن المخالف ، فقد يكون محقاً ، وقد يكون فعلا الحق مع غيره .

وفى هذه المسألة بالذات أشار العدوى فى حاشيته : بأن وجهة نظر مالك هى الرجوع إلى أصل الغرض من العدة وهو براءة الرحم . والشهر والنصف لا يكفى للمرأه نفسها أن تخبر عن نفسها عما إذا كانت حاملا أم لا ، فأكمل لها المدة المنصوص عليها .

أما الحيضتان : ففيهما بيان لبراءة الرحم . اهـ . ملخصا .

وهذا الذى قاله العدوى له أصل من الشرع ، لأن ذات الإقراء وجدناها فى بعض الصور تعتد بحيضة ، كما جاء النص فى عدة المختلعة ، وإن كان فيها خلاف . ووجدنا الأمة تثبت براءة رحمها فى غير هذا بحيضتين قطعاً ، وهى فيما إذا كانت سرية لمالكها فأراد بيعها فإنه يستبرئها بحيضة ، والذى يشتريها يستبرئها بحيضة قبل أن يمسها . ثم هو يفترشها ويأمن من أن يسقى ماءه زرع غيره ، فعلمنا أن فى الحيضتين براءة للرحم . فاكتفى بهما مالك ووافق الجمهور .

وأما الشهر والنصف فإنهما لا يمكن أن تتبين المرأة فيهما حملا ، لأنها مدة الأربعين الأولى وهى مرحلة النطفة . فظهر بهذا أن الحق مع مالك ، وأن ابن رشد هو الذى اضطربت مقالته على مالك ، وقد سقنا هذا التنبيه لبيان واجب طالب العلم أمام المسائل الخلافية من ضرورة البحث عن السبب ووجهة نظر المخالف وعدم المبادرة للانكار ، لأن يكون هو أحق بأن ينكر عليه ولا يسارع لرد قول قد يكون قوله هو أولى بأن يرد عليه . وبالله التوفيق .

وقوله تعالى : (فطلقوهن لعدتهن) ، اتفق المفسرون أن المراد لاستقبال عدتهن وفيه مبحث الطلاق السنى والبدعى . واعلم أن الحامل وغير المدخول بها لا بدعة فى طلاقهما عند الجمهور ، وألحقت بهما الصغيرة والطلاق البدعى هو جمع الثلاث فى مرة أو الطلاق فى الحيضة أو فى

طهر مسها فيه . وعند الإمام أبى حنيفة رحمه الله : يفرق الطلقات على الصغيرة كل طلقة فى شهر ولا يجمعها ، وقد طال البحث فى حكم الطلاق البدعى ، هل يقع ويحتسب على المطلق أم لا .

والأصل فيه حديث عبد الله بن عمر أنه طلق امرأته وهى حائض ، فبلغ ذلك عمر فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال له صلى الله عليه وسلم « مره فليراجعها » .

والذى عليه الجمهور أنه يعتد بتلك الطلقة ، وإن خالف فيها السنة ؛ وعليه أن يراجعها وليعمل كما أمر به النبى صلى الله عليه وسلم فليمسكها حتى تطهر ، ثم إن شاء أمسكها وإن شاء طلقها فى طهر لم يمسها فيه . أى لتستقبل عدتها ما لم تكن الطلقة الثالثة أو بالثلاث على ماعليه الجمهور .

وقد سئل أحمد رحمه الله عن الاعتداد بهذه الطلقة فى الحيضة فقال : إن قوله صلى الله عليه وسلم : فليراجعها . يدل على الاعتداد بها لأنه لارجعة إلا من طلاق .

وقد أطال ابن دقيق العيد الكلام عليها فى أحكام الإحكام وغيره مما لا داعى إلى سرده ، وحاصله ماقدمنا ، ولم يقل بعدم الاعتداد بها إلا سعيد بن المسيب وجماعة من التابعين .

وقال أبوحيان إن قوله تعالى : (فطلقوهن لعدتهن) على إطلاقه يشعر بالاعتداد بالطلاق سنياً كان أو بدعياً .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾

ظاهره أن الإمساك بمعروف إذا بلغن أجلهن ، مع أنهن إذا بلغن إلى ذلك الحد خرجن من العدة وانتهى وجه المراجعة . ولكن المراد هنا إذا قاربن أجلهن ولم يتجاوزنه أو يصلن إليه بالفعل ، والقاعدة أن ماقارب الشيء يعطى حكمه كما فى قوله تعالى : (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) .

ومثل الآية الحديث فى قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا أتى أحدكم الخلاء فليقل : اللهم إنى أعوذ بك من الخبث والخبائث » مع أنه عند الإتيان أو أثناءه لايحق له أن يقول ذلك ، وإنما يقوله إذا قارب دخوله ، فكذلك هنا .

أما المطلقة ثلاثا فقد بحثها الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بحثاً وافياً عند قوله تعالى : (الطلاق مرتان) مما لامزيد عليه .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ .

بعد الأمر بإحصاء العدة ، وكون العدد مختلفة الأنواع من إقراء إلى أشهر إلى وضع الحمل ، والمعتدات متفاوتات الإقراء وأمد الحمل ، فقد تكون فى أوله أو وسطه أو آخره ، وكل ذلك لابد من إحصائه لما يترتب عليه من حرمة وحلية ، فتخرج من عدة هذا وتحل لذاك .

كما قال تعالى (ولاتعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله) وهذا كله لايتأتى إلا بالإحصاء .

والإحصاء لا يكون إلا لمقدر معلوم ، وعليه فقوله تعالى : (قد جعل لكل شيء قدراً) مؤكد لهذا كله ، وكذلك فيه نص صريح أنه تعالى قد جعل لكل شيء من الأشياء أياً كان هو قدراً لايتعداه لابزيادة ولا بنقص ، ولفظ شيء أعم العمومات .

وقد جاءت آيات كثيرة دالة على هذا العموم عامة وخاصة ، فمن الآيات العامة قوله تعالى : (إنا كل شيء خلقناه بقدر) .

وقوله : (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) .

وقوله : (وكل شيء عنده بمقدار) .

وقد جمع العام والخاص قوله : (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وماننزله إلا بقدر معلوم)

ومن التقدير الخاص فى مخصوص قوله : (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) .

إنها قدرة باهرة وحكمة بالغة ، وإرادة قاهرة ، وسلطة غالبة ، قدرة من أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

وقد قال علماء الهيئة : أن حساب مسير هذه الأفلاك فى منازلها أدق ما يكون من مآت أجزاء الثانية ، ولو اختلف جزء من الثانية لاختل نظام العالم ولما صلحت على وجه الأرض حياة ، ونحن نشاهد حركة الليل والنهار ونقصانهما وزيادتهما وفصول السنة كما قال تعالى : (والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه) .

وهو سبحانه وتعالى يحصيه ، وكذلك التقدير لوجود الإنسان قبل وبعد وجوده ، قال تعالى : (من أى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدره) أى قدر خلقه وصورته ونوعه كما بين ذلك بقوله : (يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا) الآية . إلى قوله : (إنه عليم قدير) .

وهذا أيضاً من آيات قدرته يرد بها سبحانه على من جحد وجود الله وكفر بالبعث كما فى مستهلها قوله تعالى : (قتل الإنسان ما أكفره، من أى شىء خلقه) .

ثم بين تعالى أنه خلقه من نطفة ماء مهين ، ولكن قدر الله تعالى قدرتها وصورتها حتى صارت خلقاً سوياً ، وجعل له وهو فى بطن أمه عينين ولساناً وشفتين أى وأنفا وأذنين ويدين ورجلين وكل جهاز فيه حيَّر الحكماء فى صنعه ونظامه .

ثم قدر تعالى أرزاقه على الأرض قبل وجوده يوم خلق الأرض

وجعله آية على قدرته وعاتب الإنسان على كفره (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين) .

وبعد وجود الكون وخلق الإنسان قدر فى الإيجاد بإنزال المطر ، (فلينظر الإنسان إلى طعامه إنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حباً وعنباً) .

ثم إن صب هذا الماء كان بقدر ، كما فى قوله تعالى : (وأنزلنا من السماء ماء بقدر) .

وقوله : (ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير) أى بقدر ما يصلحهم ولو زاده لفسد حالهم ، كما فى قوله قبلها (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء) ، وبقدر مصلحتهم ينزل لهم أرزاقهم .

كما نبه على ذلك بقوله : (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) .

هذه لمحة عن حكمة تقدير العزيز الحكيم الذى أحسن كل شىء خلقه ، والذى قدر الأشياء قبل وجودها كما فى قوله : (والذى قدَّر فهدى) .

وكما فى حديث القلم وكتابة كل شىء قبل وجوده بزمانه ومكانه ومقداره ، إن آية القدرة وبيان العجز قدرة الخالق وعجز المخلوق

كما فى قوله تعالى : (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) .

وكقوله : (مايعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب) أى لايتعداه ولايتخطاه ، وقد تحداهم الله فى ذلك بقوله : (فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين كلا إنهم مدينون) ولن يستطيعوا إرجاعها .

وهنا يقال للدهريين والشيوعيين الذين لا يعترفون بوجود فاعل مختار وعزيز قهار ، إن هذا الكون بتقديراته ونظمه لآية شاهدة وبينة عادلة على وجود الله سبحانه وتعالى (فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون) .

كما يقال للمؤمنين أيضاً إن ماقدره الله نافذ ، وما قدر للعبد آتيه ، وما لم يقدر له لن يصل إليه ، طويت الصحف وجفت الأقلام (لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) .

ويقال مرة أخرى : اعملوا كل ميسر لما خلق له ، وبالله تعالى التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ وَأُولَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ .

فيه إطلاق لوضع الحمل على أى صفة كان هو ، وأجمع العلماء على أن يصدق بوضعه حياً أو ميتاً ، ولكن اشترط فيه أن يكون قد

ظهرت فيه خلقة الإنسان لامضغة ولا علقة ، كما أن فيه إطلاق الأجل سواء للمطلقة أو المتوفى عنها من أنه ينقضى أجل الحوامل بوضع الحمل. وتقدم بيان ذلك مفصلا للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، وهنا مبحث أقل الحمل وأكثره ، وتقدم تفصيله للشيخ أيضاً عند قوله تعالى : (الله يعلم ماتحمل كل أنثى) الآية .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾

بين تعالى مدة الرضاع فى قوله تعالى : (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) .

وجعل أبوحنيفة رحمه الله ثلاثة أشهر زيادة على الحولين لتمرين الطفل على الفطام ، وذلك كما قال تعالى : (لمن أراد أن يتم الرضاعة) .

فإذا أمكن فطام الطفل قبلها بدون مضرة عليه فلامانع ، وعلى الوالد إيتاء الأجرة على مدة الرضاع إلى الفطام سواء كانت المدة الشرعية كما هنا أو الفعلية قبلها . وليس ملزماً بما زاد على الحولين فى نص الآية .

والائتمار بمعروف يشعر بأن للعرف دخلا فى ذلك كما هو تنبيه صريح بأن لايضار أحد الوالدين بولده وأن تكون المفاهمة بين الزوجين بعد الفرقة فى جميع الأمور سواء فى خصوص الرضاع أو غيره مبناها على

المعروف والتسامح والإحسان وفاء لحق العشرة السابقة ، ولا تنسوا الفضل بينكم .

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ﴾ الآية .

ذكر الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى مذكرة الإملاء أن كأين بمعنى كم فهى إخبار بعدد كثير ، وذكر إعرابها ، والمعنى كثير من قرية عتت عن أمر ربها أى تكبرت وطغت وتقدم تفصيله للمعنى بالأمثلة والشواهد عند قوله تعالى : (فكأين من قرية أهلكناها) فى سورة الحج .

ومما قدمه رحمة الله تعالى علينا وعليه ، ومن قوله تعالى : (وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا) بيان لأصحاب الرئاسة ورجال السياسة أن هلاك الدنيا بفساد الدين ، وأن أمن القرى وطمأنينة العالم بالحفاظ على الدين .

ومن هنا كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى عامة الناس للحفاظ على دينهم وسلامة دنياهم ، فحمل الشارع مهمته للأمة كلها كل بحسبه باليد أو باللسان أو القلب ، وهذا الأخير أضعف الإيمان ، ومع ضعفه ففيه الإبقاء على دوام الإحساس بوجود المنكر إلى أن يقدر هو أو غيره على تغييره .

قد بين الله تعالى هذا المفهوم ببيان حال الذين مكنهم فى الأرض

بنصره فى قوله تعالى (الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) .

ثم ذكر تعالى الأمم التى كذبت وعتت من قوم نوح وعاد وثمود ولوط وأصحاب مدين .

ثم قال : (فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد).

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ .

جاء فى بيان السماوات أنها سبع طباق ، كما فى قوله تعالى : (الذى خلق سبع سماوات طباقا) .

وبين الحديث فى الإسراء أن ما بين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام ، وجاء لفظ السماء مفرداً وجمعاً ، فالمفرد كما فى قوله (والسماء وما بناها).

وقوله : (الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء) .

أما الأرض فلم يأت لفظها إلا مفردا ، ولم يأت تفصيلها كتفصيل السماء سبعاً طباقا ، فاختلف فى المثلية فجاء عن ابن عباس أنها مثلية تامة عدداً وطباقا وخلقا . وقيل : عدداً وأقاليم يفصلها البحار ، وقيل

عددا طباقا مترا كمة كطبقات البصلة مثلا ، وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى المقدمة أن من أوجه البيان إذا لم يوجد فى الكتاب ووجد فى السنة فإنه يبين بها لأنها وحى ، وقد جاء فى السنة أن الأرض سبع أرضين كما فى حديث : « من اغتصب أرض أو من أخذ شبراً من الأرض طوقه من سبع أرضين » متفق عليه .

وفى حديث موسى لما قال « يارب علمنى شيئاً أدعوك به فقال : قل لا إله إلا الله . فقال : يارب كل الناس يقولون ذلك . قال : ياموسى ، لو أن السماوات السبع وعامرهن غيرى والأرضين السبع فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة لمالت بهن لا إله إلا الله » . رواه النسائى .

فهذه أحاديث صحيحة أثبتت أن الأرضين سبع ، ولم يأت تفصيل للكيفية ولا للهيئة فثبت عندنا العدد ولم يثبت غيره ، فنثبته ونكل غيره لعلم الله تعالى .

ومما يؤيد ثبوت العدد على سبيل الإجمال أن مثلية الأرض للسماء لم تذكر إلا عند ذكر السماء مجملة مع ذكر العدد ولم يذكر عند تفصيلها بطباق مما يشعر أن المراد من المثلية العدد ، وقيل إن هذا لا يتنافى مع أفراد اللفظ لأن جمعه شاذ .

كما قال ابن مالك :

* وأرضون شذو السنون *

وقد أشار تعالى إلى أن هناك من حالات الأرض والسماء ما لم يعلمه الخلق فى قوله تعالى : (ما أشهدتم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم) ، وهم لا يزالون عاجزين عن كيفية خلق أنفسهم إلا تفصيلات جزئية ، والمهم من السياق والغرض الأساسى ، تنبيه الخلق على عظم قدرة الله تعالى فى قوله تعالى : (لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً) .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التحريم

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ الآية .

تقدم فى أول السورة قبلها بيان علاقة الأمة بالخطاب الخاص به صلى الله عليه وسلم ، وقد اختلف فى تحريم ما أحل الله له بين كونه العسل أو هو مارية جاريته صلى الله عليه وسلم ، وسيأتى زيادة إيضاحه عند الكلام على حكمه .

وقوله تعالى : (لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك) ظاهر فيه معنى العتاب ، كما فى قوله تعالى : (عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى) .

وكلاهما له علاقة بالجانب الشخصى سواء ابتغاء مرضاة الأزواج ، أو استرضاء صناديد قريش ، وهذا مما يدل على أن التشريع الإسلامى لا مدخل للأغراض الشخصية فيه .

وبهذا نأخذ بقياس العكس دليلا واضحاً على بطلان قول القائلين : إن إعماره صلى الله عليه وسلم لعائشة من التنعيم كان تطييبا لخاطرها ، ولا يصح لأحد غيرها .

ومحل الاستدلال هو أن من ليس له حق فى تحريم ما أحل الله له

ابتغاء مرضاة أزواجه لا يحل له إحلال ، وتجويز ما لا يجوز ابتغاء مرضاتهن ، وهذا ظاهر بين ولله الحمد .

أما تحلة اليمين وكفارة الحنث وغير ذلك ، فقد تقدم بيانه للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، عند قوله تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) .

أما حقيقة التحريم هنا ، ونوع الكفارة ، وهل كفر صلى الله عليه وسلم عن ذلك أم أن الله غفر له فلم يحتج لتكفير ، فقد أوضحه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى مذكرة الإملاء عند هذه الآية .

وفى الأضواء عند قوله تعالى فى أول سورة الأحزاب (وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم) ، وذلك أن للعلماء نحو عشرين قولا ، ورجح القول بأن التحريم ظهار لما يدل عليه ظاهر القرآن ، وأن القول الذى يليه أنه يمين ، وناقش المسألة بأدلتها هناك .

قوله تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ .

أطلقت التوبة هنا وقيدت فى الآية بعدها بأنها توبة نصوح ، فى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا) .

وحقيقة التوبة النصوح وشروطها وآثارها تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، عند قوله تعالى (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون)

وقوله تعالى : (فقد صغت قلوبكما) .

قال الشيخ فى إملائه : صغت : بمعنى مالت ورضيت وأحبت ما كره رسول الله صلى الله عليه وسلم . اه .

وقال : وقلوبكما جمع مع أنه لاثنتين هما حفصة وعائشة ، فقيل لأن المثنى معلوم والجمع أخف من المثنى إذا أضيف ، وقيل هو مما استدل به على أن أقل الجمع اثنين كما فى الميراث فى قوله (فإن كان له إخوة) .

وجواب الشرط فى قوله تعالى : (إن تتوبا) محذوف تقديره ، فذلك واجب عليكما ، لأن قلوبكما مالت إلى مالا يحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم . اه .

وقدره القرطبى بذلك خير لكم ومعناهما متقارب .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ .

قال أبو حيان : الوقف على مولاه ، وتكون الولاية خاصة بالله ، ويكون جبريل مبتدأ وما بعده عطف عليه ، وظهير خبر ، وعليه يكون جبريل ذكر مرتين بالخصوص أولا وبالعموم ثانيا .

وقيل : الوقف على وجبريل معطوفاً على لفظ الجلالة فى الولاية ، ثم ابتدىء بصالح المؤمنين وعطف عليهم الملائكة ، ويدخل فيهم جبريل ضمنا . اه .

فعلى الوقف الأول يكون درج صالح المؤمنين بين جبريل وبين الملائكة تنبيهاً على علو منزلة صالح المؤمنين ، وبيان منزلتهم من عموم الملائكة بعد جبريل ، وعلى الوقف الثانى فيه عطف جبريل على لفظ الجلالة فى الولاية بالواو ، وليس فيه ما يوهم التعارض مع الحديث فى بثم إذ محل العطف هو الولاية ، وهى قدر ممكن من الخلق ومن الله تعالى كما فى قوله تعالى : (هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين) لأن النصر يكون من الله ويكون من العباد ، من باب الأخذ بالأسباب (إلا تنصروه فقد نصره الله) .

وكما فى قوله تعالى : (وينصرون الله ورسوله) .

وقوله : (من أنصارى إلى الله) بخلاف سياق الحديث ، فقد كان فى موضوع المشيئة حينما قال الأعرابى : ما شاء الله وشئت . فقال له صلى الله عليه وسلم : « أجعلتنى لله ندا ؟ قل ما شاء الله وحده » لأن حقيقة المشيئة لله تعالى وحده كما فى قوله : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) وكقوله : (قل لله الأمر جميعا) .

وكقوله . (لله الأمر من قبل ومن بعد) .

ومن اللطائف فى قوله تعالى : (وإن تظاهرا عليه) إلى آخر ما سمعته من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، أنه قال : إن المتظاهرتين على رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأتان فقط تآمرتا عليه فيما بينهما ،

فجاء بيان الموالين له ضدها كل من ذكر فى الآية . فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة ، ما يدل على عظم كيدهن وضعف الرجال أمامهن ، وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى : (إن كيدكن عظيم) ، بينما قال فى كيد الشيطان : (إن كيد الشيطان كان ضعيفاً) .

وقد عبر الشاعر عن ذلك بقوله :

ما استعظم الإله كيدهنه إلا لأنهن هن هنه

قوله تعالى : ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ .

فيه بيان أن الخيرية التى يختارها الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فى النساء هى تلك الصفات من الإيمان والصلاح .

وجاء الحديث « فعليك بذات الدين تربت يمينك » .

وقوله تعالى : (ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم) .

وفى تقديم الثيبات على الأبكار هنا فى معرض التخيير ما يشعر بأولويتهن . مع أن الحديث « هلا بكراً تداعبك وتداعبها » ، ونساء الجنة لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، ففيه أولوية الأبكار . وقد أجاب المفسرون بأن هذا للتنويع فقط ، وأن الثيبات فى الدنيا والأبكار فى

الجنه كريم ابنة عمران ، والذى يظهر والله تعالى أعلم : أنه لما كان فى مقام الانتصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتنبيههن لما يليق بمقامه عندهن ذكر من الصفات العالية ديناً وخلقاً ، وقدم الثيبات ليبين أن الخيرية فيهن بحسب العشرة ومحاسن الأخلاق .

وقوله تعالى : (عسى ربه إن طلقكن) لم يبين هل طلقهن أم لا ؟ مع أن عسى من الله للتحقيق ، ولكنه لم يقع طلاقهن كما بينه تعالى فى سورة الأحزاب ، بأنه تعالى خيرهن بين الله ورسوله ، وبين الحياة الدنيا وزينتها ، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة فلم يطلقهن ، ولم يبدله أزواجا خيراً منهن .

وقد بين الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هذه المسألة وإخلال الزواج إليه وتحريم النساء بعدهن عليه عند قوله تعالى : (يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك) الآية .

وقوله : (ترجى من نشاء منهن) .

وقوله : (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن) الآية .

وبين الناسخ من المنسوخ فى ذلك فى دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ﴾ .

لم يبين هنا نوع الاعتذار الذى نهوا عنه ولاسبب النهى عنه لماذا ؟ ولا زمنه ، وقد بين تعالى نوع اعتذارهم فى مثل قوله تعالى : (حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار) .

وكقوله تعالى : (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) انظر كيف كذبوا على أنفسهم .

وكقوله بعدها : (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) فهذا غاية فى الاعتذار ، ولكنهم نهوا عنه وذلك يوم القيامة ، كما فى قوله : (إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد) أى إلى الدنيا .

وقد نهوا عن هذا الاعتذار لأنه لاينفعهم كما فى قوله تعالى : (فيومئذ لاينفع الظالمين معذرتهم ولاهم يستعتبون) .

وقوله : (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾.

تقدمت الإحالة على كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى

بيان أنواع التوبة وشروط كونها نصوحا على قوله تعالى : (وتوبوا إلى الله جميعا) .

قوله تعالى : ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ .

إلى آخر الآية ، تقدم بيان هذا النور وحالتهم تلك للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة الحديد عند قوله تعالى : (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) .

قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

فيه الأمر بقتال الكفار ، والمنافقين والغلظة عليهم ، ومعلوم أن النبى صلى الله عليه وسلم قاتل الكفار ، ولم يعلم أنه قاتل المنافقين قتاله للكفار ، فما نوع قتاله صلى الله عليه وسلم للمنافقين وبينه ؟ والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : (وجاهدهم به جهاداً كبيراً) أى بالقرآن لقوله قبله (ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً . ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا . فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً) .

ومعلوم أن المنافقين كافرون ، فكان جهاده صلى الله عليه وسلم للكفار بالسيف ومع المنافقين بالقرآن .

كما جاء عنه صلى الله عليه وسلم فى عدم قتلهم ، لئلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، ولكن كان جهادهم بالقرآن لايقل شدة عليهم من السيف ، لأنهم أصبحوا فى خوف وذعر يحسبون كل صيحة عليهم ، وأصبحت قلوبهم خاوية كأنهم خشب مسندة ، وهذا أشد عليهم من الملاقاة بالسيف . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ الآية .

أجمع المفسرون هنا على أن الخيانة ليست زوجية .

وقال ابن عباس : نساء الأنبياء معصومات ، ولكنها خيانة دينية بعدم إسلامهن وإخبار أقوامهن بمن يؤمن مع أزواجهن . اهـ .

وقد يستأنس لقول ابن عباس هذا بتحريم التزوج من نساء النبى صلى الله عليه وسلم بعده ، والتعليل له بأن ذلك يؤذيه ، كما فى قوله تعالى : (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيما) .

فإذا كان تساؤلهن بدون حجاب يؤذيه ، والزواج بهن من بعده عند الله عظيم ، فكيف إذا كان غير التساؤل وبغير الزواج ؟ إن مكانة الأنبياء عند الله أعظم من ذلك .

وقوله تعالى : (فلم يغنيا عنهما من الله شيئا) فيه بيان أن العلاقة الزوجية لاتنفع شيئا مع الكفر ، وقد بين تعالى ماهو أهم من ذلك فى عموم القرابات كقوله تعالى : (يوم لاينفع مال ولا بنون) .

وقوله : (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه) الآية .

وجعل الله هاتين المرأتين مثلا للذين كفروا ، وهو شامل لجميع الأقارب كما قدمنا .

وقد سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى معرض محاضرة له الاستطراد فى ذلك ، وذكر قصة هاتين المرأتين ، وقصة إبراهيم مع أبيه ونوح مع ولده ، فاستكمل جهات القرابات زوجة مع زوجها ، وولد مع والده ، ووالد مع ولده . وذكر حديث « يافاطمة اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا » .

ثم قال : ليعلم المسلم أن أحداً لاينفك نفع أحد يوم القيامة ، ولو كان أقرب قريب إلا بواسطة الإيمان بالله وبما يكرم الله به من شاء بالشفاعة ، كما فى قوله تعالى : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) الآية .

قوله تعالى ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِنْدَكَ بَيْتاً فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ .

جاء فى هذا المثل بيان مقابل للبيان المتقدم والمفهوم المخالف له ، وهو أن المؤمن لاتضره معاشرة الكافر ، كما أن الكافر لاتنفعه معاشرة المؤمن ، وفى هـذا المثل قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليـه فى مذكرة الإملاء :

لقد اختارت امرأة فرعون فى طلبها حسن الجوار قبل الدار . اهـ .

أى فى قولها : (ابن لى عندك بيتاً فى الجنة) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ .

بين تعالى المراد بالروح بأنه جبريل عليه السلام فى قوله : (فأرسلنا إليه روحنا فتمثل لها بشراً سوياً) ، وهو جبريل .

كما فى قوله : (نزل به الروح الأمين) أى نزل جبريل بالقرآن ، وفى هذه الآية رد على النصارى استدلالهم بها على أن عيسى عليه السلام ابن الله ومن روحه تعالى ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ، وبيان هذا الرد أن قوله تعالى : (فأرسلنا إليها روحنا) تعدية أرسل بنفسه ، يدل على أن الذى أرسل يمكن إرساله بنفسه ، وهو فرق عند أهل اللغة ، بينما يرسل نفسه ومايرسل مع غيره كالرسالة ، والهدية ، فيقال فيه : أرسلت إليه بكذا ، كما فى قوله : (وإنى مرسلة إليهم بهدية) الآية .

فالهدية لاترسل بنفسها ، ومثله بعثت ، تقول : بعثت البعير من

مكانه ، وبعثت مبعوثا ، وبعثت برسالة ، ثانيا قوله : (فتمثل لها) لفظ الروح مؤنث ، كما فى قوله تعالى : (فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون) أنت الفعل فى بلغت ، وهنا الضمير مذكر عائد لجبريل .

وقوله : (فتمثل لها بشراً سوياً) ، ولو أنه من روح الله على ما ذهب إليه النصارى ، لما كان فى حاجة إلى هذا التمثيل .

ثالثاً قوله لها : (إنما أنا رسول ربك) ورسول ربها هو جبريل عليه السلام ، وليس روحه تعالى .

رابعاً : قوله : (لأهب لك غلاماً زكياً) ، ولم يقل لأهب لك روحاً من الله .

ومن هذا أيضاً قوله تعالى للملائكة (إنى خالق بشراً من طين) يعنى آدم عليه السلام (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى) أى نفخت فيه الروح التى بها الحياة ، (فقعوا له ساجدين) . فلو أن الروح من الله لكان آدم أولى من عيسى ، لأنه لم يذكر إرسال رسول له ، وقد قال تعالى : (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) ، فكذلك عيسى عليه السلام لما بشرتها به الملائكة ، (قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق مايشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) ، فكل من آدم وعيسى ، قال له تعالى (كن فكان) والله تعالى أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الملك

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه معنى تبارك، وذكر أقوال المفسرين واختلافهم فى معناها . ورجح أنه بحسب اللغة والاشتقاق أنه تفاعل من البركة ، والمعنى : تكاثرت البركات والخيرات من قبله ، وهذا يستلزم عظمته وتقديسه ... إلخ .

ثم ذكر تنبيهاً فى عدم تصريفها واختصاصها بالله تعالى . وإطلاق العرب إياها على الله تعالى .

وقال فى إملائه : الذى بيده الملك . أى نفوذ المقدور فى كل شىء يتصرف فى كل شىء بما يشاء لامعقب لحكمه . اهـ .

والتقديم للموصول وصلته هنا بالصفة الخاصة به تعالى ، وهى قوله تعالى : (تبارك) يدل على عظمة الموصول .

ويدل له قوله تعالى : (فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون) ، لأن التقديم بالتسبيح وهو التنزيه يساوى التقديم بقوله تعالى : (تبارك) ، والموصول بعد التسبيح بصلته كالموصول بعد تبارك

وصلته سواء بسواء، وهذا يؤيد ما ذكره الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى إملائه . والله أعلم .

وقد تقدمت الإشارة إلى الفر بين الملك والمالك عند قوله تعالى: (الملك القدوس السلام المؤمن) ، وهنا تجتمع الصفتان ، فالذى بيده الملك وملكوت كل شيء هو المالك له الملك عليه ، وهو رب العالمين سبحانه .

قوله تعالى : ﴿الَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه معنى هذه الآية الكريمة بما يوضحها من الآيات عند الكلام على قوله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ، وقبلها فى سورة هود على قوله تعالى : (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) .

وقال رحمه الله فى إملائه : جعل للعالم موتتين وإحياءتين ، وبينه بقوله تعالى : (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) الآية .

والآية تدل عن أن الموت أمر وجودى لاعدمى كما زعم الفلاسفة، لأنه لو كان عدمياً ، لما تعلق به الخلق .

قوله تعالى ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ﴾ الآية .

ذكر خلق السماوات السبع الطباق على هـذا النحو دون تفاوت أو فطور بعد ذكر أول السورة ، يدل على أن خلق هـذه السبع من كمال قدرته .

وقد بين الشيخ رحمة الله تعالى علينـا وعليه ، الحـكمة فى خلق السماوات والأرض ضمن تنبيه عقده فى أواخر سورة الذاريات .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه معنى الآية الـكريمة ، والآيات الموضحة لها عند الـكلام على أول سورة قٓ عند قوله تعالى (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج) وقال فى إملائه : إن قوله تعالى فى خلق الرحمن عام فى جميع مخلوقاته ، من معنى الاستواء والحكمة والدقة فى الصنع ، وتدخل السماوات فى ذلك بدليل قوله تعالى (صنع الله الذى أتقن كل شىء) ، وإتقان كل شىء بحسبه ، كما فى قوله (قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) .

وقوله (الذى أحسن كل شىء خلقه) .

وبدأ خلق الإنسان من طين ، وهذا الحال للسماء فى الدنيا فقط ، وستنفطر يوم القيامة ، كما فى قوله تعالى (إذا السماء انفطرت) ، (إذا السماء انشقت) ، (ويوم تشقق السماء بالغمام) ونحو ذلك من الآيات .

قوله تعالى ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك عند قوله تعالى (وجعلنا السماء سقفاً محفوظا) فى سورة الأنبياء .

وعند قوله : (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم) فى سورة ق.

ولعل مجيء هـذه الآية بعد (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) توجيه لى حسن صنع الله وإبداعه فى خلقـه (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت .

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان زينة السماء بالمصابيح ، وجعلها رجوماً للشياطين بياناً كاملا عند قوله تعالى : (ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم ، إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) .

وقد ذكر طرفا من هذا البحث فى سورة الفرقان لابد من ضمـه لى هذا المبحث هناك لارتباط بعضها ببعض.

تنبيـــــه

فقد ظهرت تلك المخترعات الحديثة ونادى أصحاب النظريات الجديدة والناس ينقسمون إلى قسمين : قسم يبـادر بالإنـكار وآخر يسـارع بالتصديق ، وقد يستدل كل من الفريقين بنصوص من القرآن أو السنة . ولعل من الأولى أن يقال : إن النظريات الحديثة قسمان : نظرية تتعارض

مع صريح القرآن ، فهذه مردودة بلا نزاع كنظرية ثبوت الشمس مع قوله تعالى : (والشمس تجرى لمستقر لها) .

ونظرية لانتعارض مع نص القرآن ولم ينص عليها ، وليس عندنا من وسائل العلم مايؤيدها ولا يرفضها . فالأولى أن يكون موقفنا موقف التثبت ولا نبادر بحكم قاطع إيجابا أو نفيا ، وذلك أخذاً من قضية الهدهد وسبأ مع نبى الله سليمان لما جاء يخبرهم ؛ وكان عليه السلام لم يعلم عنهم شيئا فلم يكذب الخبر بكونه من الهدهد ولم يصدقه لأنه لم يعلم عنهم سابقا ، مع أنه وصف حالهم وصفا دقيقا .

وكان موقفه عليه السلام موقف التثبت مع ما لديه من إمكانيات الكشف والتحقيق من الريح والطير والجن ؛ فقال المخبر وهو الهدهد: سننظر ، أصدقت أم كنت من الكاذبين .

ونحن فى هذه الآونة لسنا أشد إمكانيات من نبى الله سليمان آنذاك ، وليس المخبرون عن مثل هذه النظريات أقل من الهدهد ؛ فليكن موقفنا على الأقل موقف من سينظر أيصدق الخبر أم يظهر كذبه ؟

والغرض من هذا التنبيه هو ألا نحمل لفظ القرآن فيما هو ليس صريحا فيه ما لا يحتملة ، ثم يظهر كذب النظرية أو صدقها ، فنحمل القرآن فى معرض المقارنة مع النظريات الحديثة ، والقرآن فوق ذلك كله (لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ .

المنصوص هنا إرجاع البصر كرتين . ولكن حقيقة النظر أربع مرات .

الأولى فى قوله : (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) .

والثانية فى قوله : (فارجع البصر هل ترى من فطور) .

والثالثة والرابعة فى قوله : (ثم ارجع البصر كرتين) .

وليس بعد معاودة النظر أربع مرات من تأكيد ، والحسير : العى الكليل العاجز المنقطع دون غاية ، كما فى قول الشاعر :

من مد طرفاً إلى مافوق غايته
ارتد خسآن من الطرف قد حسرا

قال القرطبى : يقال قد حسر بصره يحسر حسورا ، أى كل وانقطع نظره من طول مدى ، وما أشبه ذلك فهو حسير ومحسور أيضا .

قال :

نظرت إليها بالمحصب من منى فعاد إلىّ الطرف وهو حسير

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا ﴾ .

فالدنيا تأنيث الأدنى أى السماء الموالية للأرض ، ومفهومه أن

بقية السماوات ليست فيها مصابيح التى هى النجوم والكواكب كما قال : بزينة الكواكب . ويدل لهذا المفهوم ما جاء به عن قتادة : أن الله جعل النجوم لثلاثة أمور . أمران هنا ، وهما زينة السماء الدنيا ورجوما للشياطين . والثالثة علامات واهتداء فى البر والبحر ، وهذه الأمور الثلاثة تتعلق بالسماء الدنيا . لأن الشياطين لاتنفذ إلى السماوات الأخرى لأنها أجرام محفوظة ، كما فى حديث الإسراء « لها أبواب وتطرق ولايدخل منها إلا بإذن »

وكقوله : (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء) .

وكذلك ليس هناك من يحتاج إلى اهتداء بها فى سيره لأن الملائكة كل فى وضعه الذى أوجده الله عليه ، ولأن الزينة لن ترى لوجود جرم السماء الدنيا ، فثبت أن النجوم خاصة بالسماء الدنيا .

وقد أشار تعالى إلى ذلك فى قوله تعالى : (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد) .

ومفهوم الدنيا عدم وجودها فيما بعدها ، ولا وجود للشيطان فى غير السماء الدنيا .

وقوله تعالى : (وجعلناها رجوما للشياطين) ، وهى الشهب من النار ، والشهب النار ، كما فى قوله : (أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم

تصطلون) ، والرجوم والشهب هى التى ترمى بها الشياطين عند استراق السمع ، كما فى قوله تعالى : (فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصداً) .

وقوله : (إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) .

وهنا سؤال ، وهو إذا كان الجن من نار ، كما فى قوله : (وخلق الجان من مارج من نار) ، فكيف تحرقه النار ؟

فأجاب عنه الفخر الرازى بقوله : إن النار يكون بعضها أقوى من بعض ، فالأقوى يؤثر على الأضعف ، ومما يشهد لما ذهب إليه قوله تعالى بعده (وأعتدنا لهم عذاب السعير) والسعير : أشد النار .

ومعلوم أن النار طبقات بعضها أشد من بعض ، وهذا أمر ملموس ، فقد تكون الآلة مصنوعة من حديد وتسلط عليها آلة من حديد أيضا ، أقوى منها فتكسرها .

كما قيل : لا يفل الحديد إلا الحديد ، فلا يمنع كون أصله من نار ألا يتعذب بالنار ، كما أن أصل الإنسان من طين من حمإ مسنون ، ومن صلصال كالفخار ، وبعد خلقه فإنه لا يحتمل التعذيب بالصلصال ولا بالفخار ، فقد يقضى عليه بضربة من قطعة من فخار . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى: ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ . تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى إملائه فى هذه الآية : إثبات أن للنار حساً وإدراكا وإرادة ، والقرآن أثبت للنار أنها تغتاظ وتبصر وتتكلم وتطلب المزيد ، كما قال هنا : (تكاد تميز من الغيظ) .

وقال : (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيراً) .

وقال : (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) .

قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ ﴾ .

بين تعالى أن النار خزنة ، وقد بين تعالى أن هؤلاء الخزنة هم الملائكة الموكلون بالنار ، كما فى قوله تعالى : (عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) .

كما بين عدتهم فى قوله تعالى : (عليها تسعة عشر) .

وقال : (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) .

وقال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى إملائه : دلت هذه الآية على أن أهل النار يدخلونها جماعة بعد جماعة ، كما فى قوله تعالى (كلما دخلت أمة لعنت أختها) .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ .

قال رحمة الله تعالى علينا وعليه فى إملائه : هذا سؤال الملائكة لأهل النار ، والنذير بمعنى المنذر ، فهو فعيل بمعنى مفعل ، وإن ذكر عن الأصمعى إنكاره ونظيره من القرآن : بديع السماوات : بمعنى مبدع ، وأليم : بمعنى مؤلم .

ومن كلام العرب قول عمرو بن معد يكرب :

أمن ريحانة الداعى السميع يؤرقنى وأصحابى هجوع

فالسميع بمعنى المسمع .

وقول غيلان :

ويرفع من صدور شمردلات يصد وجوهها وهج أليم

أى مؤلم ، والإنذار إعلام مقترن بتخويف .

وقال : وهذه الآية تدل على أن الله تعالى لا يعذب بالنار أحداً إلا بعد أن ينذره فى الدنيا ، وقد بين هذا المعنى بأدلته بتوسع عند قوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ، وساق هذه الآية هناك .

قوله تعالى : ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ .

قد اعترفوا بمجىء النذير إليهم .

وقد بين تعالى ذلك فى قوله (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) .

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى إملائه: أى قال أهل النار: لو كنا نسمع من يعقل عن الله حججه أو نعقل حجج الله ما كنا فى أصحاب السعير، أى النار، فهم يسمعون، ولكن لا يسمعون ما ينفعهم فى الآخرة، ويعقلون ولكن لا يعقلون ما ينفعهم فى الآخرة، لأن الله قال: (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم).

وقال: (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً).

وقد بين هذا الذى ذكره رحمة الله تعالى علينا وعليه عدة نصوص صريحة فى ذلك، منها أصل خلقتهم الكاملة فى قوله تعالى (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيراً).

وفى آخر سورة الملك هذه قوله (قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون).

ولكنهم سمعوا وعصوا، كما فى قوله: (سمعنا وعصينا وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم).

وهذا، وإن كان فى بنى إسرائيل، إلا أنه قال لهذه الأمة: (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون).

وقال تعالى عنهم : (قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا) .

وقوله عنهم : (وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) .

وقد بين تعالى سبب عدم استفادتهم بما يسمعون فى قوله تعالى : (ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم ، وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا) .

وقوله : (وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها) .

فقولهم هنا : (لو كنا نسمع أو نعقل) أى سماع تعقل وتفهم .

قوله تعالى : ﴿فَٱعْتَرَفُوا بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ .

قال رحمة الله تعالى علينا وعليه فى إملائه : الاعتراف الإقرار ، أى أقروا بذنبهم يوم القيامة حيث لا ينفع الإقرار ولا الندم ، وتقدم له رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان انتفاع الكفار بإقرارهم هذا بتوسع عند قوله تعالى : (يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعون لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل) .

واستدل بهذه الآية ، آية الملك هناك .

والظاهر أن الأصل فى ذلك كله أن اعترافهم وإيمانهم بعد فوات الأوان بالمعاينة ، كما جاء فى حق فرعون فى قوله تعالى : (حتى

إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) ، فقيل له : (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) .

وجاء أصرح ما يكون فى قوله : (يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا) .

فلما جاء بعض آيات الله وظهر الحق ، لم يكن للإيمان محل بعد المعاينة (فلا ينفع نفسا إيمانها) أى من قبل المعاينة كحالة فرعون المذكورة ، لأن حقيقة الإيمان التصديق بالمغيبات ، فإذا عاينها لم تكن حينذاك غيبا ، فيفوت وقت الإيمان والعلم عند الله ، وعليه حديث التوبة : مالم يغرغر .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ .

الخشية : شدة الخوف ، كما قال تعالى : (الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون) .

وبين تعالى محل تلك الخشية فى قوله : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ، لأنهم يعرفون حق الله تعالى ويراقبونه .

وقد بين تعالى حقيقة خشية الله : وإن من الحجارة لما يتفجر منه

الماء . وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله .

وقوله : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعا من خشية الله) .

فالذين يخشون ربهم بالغيب هم الذين يعرفون حق الله عليهم ومراقبته إياهم فى السر والعلن ، ويعلمون أنه مطلع عليهم مهما تخسفوا وتستروا وهم دائما منيبون إلى الله ، كما فى قوله : (هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) ، وهذه أعلى درجات السلوك مع الله تعالى ، كما بين أنها منزلة العلماء .

وقد عاب تعالى أولئك الذين يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ، ويخشون الناس ولا يخشون الله ، فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين .

وإفراد الله بالخشية منزلة الأنبياء ، كما فى قوله : (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيبا) .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه : والعرب تمدح من يكون فى خلوته كمشهده مع الناس .

ومنه قول مسلم بن الوليد :

يتجنب الهفوات فى خلواته عف السريرة غيبه كالمشهد

والواقع أن هذه الصفة ، وهى خشية الله بالغيب والإيمان بالغيب أساس عمل المسلم كله ، ومعاملاته ، لأنه بإيمانه بالغيب سيعمل كل خير طمعاً فى ثواب الله ، كما فى مستهل المصحف (ألم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب) الآية .

وبخافة الله بالغيب سيتجنب كل سوء ، فيسلم ويتحصل له ماقال الله تعالى عنهم : (مغفرة وأجر عظيم) ، مغفرة من ذنوبه (وأجر عظيم) على أعماله . رزقنا الله خشيته فى السر والعلن .

وليعلم أن المراد بالغيب إنما هو من جانب العبد لاسيده ، كما فى الحديث فى الإحسان « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وهذا الإحساس هو أقوى عامل على اكتساب خشية الله سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

فيه دلالة على أن السر والجهر عند الله وفى علم الله على حد سواء ، لأنه عليم بذات الصدور يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

وقوله تعالى : (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به) .

وقوله : (وإن تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى) .

وتقدم للشيخ عند كل من الآيتين بيان هذه الآية .

وقد تقدم قوله تعالى : (قد سمع قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله) الآية .

وقوله تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه) .

وتقدم فى سورة التحريم قبل هذه السورة مباشرة قوله تعالى : (وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه) الآية ، ففيه بيان عملى مشاهد بأنه تعالى يعلم السر وأخفى ، ولذا قال تعالى هنا (ألايعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) .

كما قال فى سورة التحريم : (قالت من أنبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير) .

وقال القرطبى نقلا عن أبى إسحاق الاسفرائينى : من أسماء صفات الذات ماهو للعلم منها العليم ، ومعناه تفهيم جميع المعلومات ، ومنها الخبير ، ويختص بأن يعلم ما يكون قبل أن يكون ، ومنها الحكيم ويختص بأنه يعلم دقائق الأوصاف ، ومنها الشهيد ويختص بأن يعلم الغائب والحاضر ، ومعناه ألا يغيب عنه شىء . ومنها الحافظ ويختص بأنه لاينسى ، ومنها المحصى ويختص بأنه لاتشغله الكثرة عن العلم مثل ضوء النهار واشتداد الريح وتساقط الأوراق ، فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات فى كل ورقة ، وكيف لايعلم وهو الذى يخلق وقد قال : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) ، ومن فى قوله تعالى :

(ألا يعلم من خلق) أجازوا فيها أن تكون فاعل يعلم ، وهو الله تعالى ، أى إن الذى خلق يعلم ماخلق ومنه ما فى الصدور .

وأجازوا أن تكون مفعولا والفاعل ضمير مستتر فى الفعل يعلم ، ذكرهما القرطبى وأبوحيان ، وهو واضح ومحتمل .

ولكن الذى تشهد له النصوص أنها مفعول كما فى قوله : (إنه بكل شىء عليم ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) .

وقوله : (والله خلقكم وما تعملون) ، ومن أعمالهم مايسرون ، ومايجهرون . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ .

الذلول فعول بمعنى مفعول ، وهو مبالغة فى الذل .

تقول : دابة ذلول بينة الذل ، وقيل فى معنى تذليل الأرض عدة أقوال لاتنافى بينها ، ومجموعها دائر على تمكين الانتفاع منها عن تسهيل الاستقرار عليها وتثبيتها بالجبال ، كقوله تعالى : (والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم) .

ومن إمكان الزرع فيها كقوله : (فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً) إلى قوله أيضا (متاعا لكم ولأنعامكم) ، وقد جمع أكثرها فى قوله :

تعالى : (ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياء وأمواتاً وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا) .

وكنت أسمع الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه يقول فى هـــذه الآية : إنها من تسخير الله تعالى للأرض أن جعلها كفاتاً للانسان فى حياته بتسهيل معيشته منهـا وحياته على ظهرها ، فإذا مات كانت له أيضا كفاتا بدفنه فيها .

ويقول : لو شاء الله لجعلها حديداً ونحاسا فلا يستطيع الإنسان أن يحرث فيها ولايحفر ولا يبنى ، وإذا مات لايجد مدفناً فيها .

ومما يشير إلى هذه المعانى كلها قوله تعالى : (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) لترتبه على ماقبله بالفاء ، أى بسبب تذليلها بتيسير المشى فى أرجائها ، وطلب الرزق فى أنحائها بالتسبب فيها من زراعة وصناعة وتجارة إلخ .

والأمر فى قوله تعالى : (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) للاباحة . ولـكن التقديم لهذا الأمر بقوله تعالى : (هو الذى جعل لـكم الأرض ذلولا) فيه امتنان من الله تعالى على خلقه مما يشعر أن فى هذا الأمر مع الإباحة توجيهاً وحثاً للأمة على السعى والعمل والجد، والمشى فى مناكب الأرض من كل جانب لتسخيرها وتذليلها ، مما يجعل الأمة أحق بها من غيرها .

كما قال تعالى : (ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره) .

وفى قوله : (وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه) ، وغير ذلك من الآيات .

ومن رأى هذا التسخير اعترف لله بالفضل والقيام لله بالحمد ، وتقديم الشكر كما قال تعالى : (والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون) .

وقوله : (والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون) .

أى مع شكر النعمة الاتعاظ والعبرة والاستدلال على كمال القدرة .

ومنها المعاد والمنقلب إلى الله تعالى ، فقوله : (وإليه النشور) بعد المشى فى مناكب الأرض وتطلب الرزق وما يتضمن من النظر والتأمل فى مسببات الأسباب وتسخير الله لها ، كقوله تعالى :(وإنا

إلى ربنا لمنقلبون) بعد ذكر (خلق الأزواج كلها) أى الأصناف وتسخير الفلك والأنعام والبحر والبر فيه ضمناً إثبات القدرة على البعث ، فيكون المشى فى مناكب الأرض واستخدام مناكبها واستغلال ثرواتها والانتفاع من خيراتها لا لطلب الرزق وحده ، وإلا لكان يمكن سوقه إليهم ، ولكن للأخذ بالأسباب أولا ، وللنظر فى المسببات والعبرة بالمخلوقات والتزود لما بعد الممات ، كما فى آية الجمعة : (فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون).

أى عند مشاهدة آيات قدرته وعظيم امتنانه .

وعليه ، فقد وضع القرآن الأمة الإسلامية فى أعز مواضع الغنى ، والاستغناء والاستثمار والانتاج ، فما نقص عليها من أمور دنياها إلا بقدر ما قصرت هى فى القيام بهذا العمل وأضاعت من حقها فى هذا الوجود .

وقد قال النووى فى مقدمة المجموع : إن على الأمة الإسلامية أن تعمل على استثمار وإنتاج كل حاجياتها حتى الإبرة لتستغنى عن غيرها ، وإلا احتاجت إلى الغير بقدر ما قصرت فى الانتاج ، وهذا هو واقع العالم اليوم ، إذ القدرة الإنتاجية هى المتحكمة وذات السيادة الدولية .

وقد أعطى الله العالم الإسلامى الأولوية فى هذا كله ، فعليهم أن يحتلوا مكانهم ويحافظوا على مكانتهم ويشيدوا كيانهم بالدين والدنيا معاً . وبالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ .

ذكر أبوحيان فى قراءة (أأمنتم) عدة قراءات من تحقيق الهمزتين ، ومن تسهيل الثانية ومن إدخال ألف بينهما وغير ذلك ، والخسف ذهابها سفلا ، كما خسف بقارون ، والمور الحركة المضطربة أو الحركة بسرعة ، وقد ثبتها تعالى بالجبال أوتاداً كما قال : (والجبال أرساها متاعاً لكم) ، ومن السماء . قال ابن جرير : هو الله تعالى . اهـ .

وعزاه القرطبي لابن عباس ، ويشهد لما قاله : ماجاء بعده من خسف الأرض وإرسال الحاصب ، فإنه لايقدر عليه إلا الله ، كما أنه ظاهر النص ، وبهذا يرد على الكسائى فيما ذهب إليه ومن تبعه عليه كأبى حيان ، إذا قالوا : إنه على تقدير محذوف من قبيل المجاز ، ومجازه عندهم أن ملكوته فى السماء أى على حذف مضاف وملكوته فى كل شىء ، ولكن خص السماء بالذكر ، لأنها مسكن ملائكته ، وثم عزته وكرسيه واللوح المحفوظ . ومنها تتنزل قضاياه وكتبه وأوامره ونهيه . الخ.

وقيل : هو جبريل لأنه الموكل بالخسف ، وقيلى : إنه مجاراة لهم فى معتقدهم بأن الله فى السماء ، وهذه الأقوال مبناها على نفى صفة العلو لله تعالى ، وفراراً من التشبيه فى نظرهم ، ولكن ماعليه السلف

خلاف ماذهبوا إليه ، ومعتقد السلف هو طبق ماقاله ابن جرير لحديث الجارية : « أين الله ؟ قالت فى السماء ، قال : اعتقها فإنها مؤمنة » ولعدة آيات فى هذا المعنى .

وقد بحث الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هذا المبحث بأوسع وأوضح مايمكن مما لم يدع لبساً ولايترك شبهة ، ولا يستغنى عنه مسلم عالما كان أو متعلماً ، فالعالم يأخذ منه منهج التعليم السليم وأسلوب البيان الحكيم ، والمتعلم يأخذ منه ما يجب عليه من معتقد قويم واضح جلى سليم .

وقد يقال : إن معنى فى هو الظرفية ، فنجعل السماء ظرفاً لله تعالى ، وهذا يقتضى التشبيه بالمتحيز .

فيقال : إنه سبحانه منزه عن الظرفية بالمعنى المعروف والمنصوص فى حق المخلوق .

وقد دلت النصوص من السنة على نفى ذلك عنه تعالى واستحالته عقلا عليه سبحانه فى حديث : « ما السماوات السبع فى الكرسى إلا كحلقة أو دراهم فى ترس ، وما الكرسى فى العرش إلا كحلقة فى فلاة ، وما العرش فى كف الرحمن إلا كحبة خردل فى كف

أحدكم » فانتفت ظرفية السماء له سبحانه على المعروف لنا ، ولأنه سبحانه مستو على عرشه .

وفيما قدمه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى هذا المبحث شفاء وغناء ، ولله الحمد والمنة . قال القرطبي : إن فى السماء بمعنى فوق السماء كقوله : (فسيحوا فى الأرض) أى فوقها لا بالمماسة والتحيز .

وقيل : فى بمعنى على كقوله : (ولأصلبنكم فى جذوع النخل) أى عليها إلى أن قال : والأخبار فى هذا الباب كثيرة صحيحة منتشرة مشيرة إلى العلو لا يدفعها إلا ملحد أو جاهل أو معاند ، والمراد بها توقيره وتنزيهه عن السفل والتحت ووصفه بالعلو . اه .

وهذا الذى ذكره هو عين مذهب السلف ، وقد ذكر كلاماً آخره فيه التأويل وفيه التنزيه .

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ .

الطير صافات ، أى مادات أجنحتها . ويقبضن : أى يضمنها إلى أجسامها .

قال أبوحيان : عطف بالفعل ويقبضن على الاسم ، صافات ، ولم يعطف باسم قابضات ، لأن الأصل فى الطيران هو بسط الجناح ،

والقبض طارىء ، وهذا الذى قاله أبوحيان : جار على القاعدة عندهم من أن الاسم للدوام والثبوت ، والفعل للتجـدد والحدوث ، فالحركة الدائمة فى الطيران هى صف الجناح ، والجديد عليه هو القبض .

وقوله تعالى : (ما يمسكهن إلا الرحمن) دليل على قدرته تعالى وآية لخلقه ، كما فى قوله تعالى : (ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) .

فهى آية على القـدرة ، وقد جاء فى آيات أخرى أنه تعالى هو الذى يمسك السماوات والأرض بقدرته جل وعلا ، كما فى قوله تعالى: (إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتـا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا) .

فهو سبحانه ممسكهما بقدرته تعالى عن أن تزولا ، ولو قدر فرضا زوالهما لايقدر على إمساكهما إلا هو ، وكما فى قوله : (ألم تر أن الله سخر لـكم مافى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) .

تنبيـــــه

ولعل مما يستدعى الانتباه توجيه النظر إلى الطير فى الهواء صافات. ويقبضن : مايمسكهن إلا الرحمن ، بعد التخويف بخسف الأرض بأن

الأرض معلقة فى الهواء كتعلق الطير المشاهد إليكم مايمسكها إلا الله ، وإيقاع الخسف بها ، كإسقاط الطير من الهواء ، لأن الجميع مايمسكه إلا الله تعالى ، وهو القادر على الخسف بها ، وعلى إسقاط الطير .

قوله تعالي : ﴿ أَمَّنْ هٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ﴾ .

يقول تعالى للمشركين : من هذا الذى غيره سبحانه يرزقكم ، إن أمسك الله عنكم رزقه .

والجواب . لا أحد يقدر على ذلك ولايملكه إلا الله .

وقد صرح تعالى بهذا السؤال وجوابه فى قوله تعالى : (قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله) .

أى لا أحد سواه سبحانه لا إله إلا هو ، قال تعالى : (هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون) .

وذلك لأن الذى يقدر على الخلق هو الذى يملك القدرة على الرزق ، كما قال تعالى : (قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون) .

وكقوله : (الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم

وهذا من كمال القدرة على الإحياء والإماتة والرزق ، وقد بين تعالى أن ذلك لمن بيده مقاليد الأمور سبحانه ، وتدبير شئون الخلق كما فى قوله تعالى : (له مقاليد السماوات والأرض) ؛ ثم قال : (يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شىء عليم) ، أى يبسط ويقدر ، يعلم لا عن نقص ولا حاجة ، ولكن يعلم بمصالح عباده ، (الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز) أى يعاملهم بلطفه وهو قوى على أن يرزق الجميع رزقاً واسعاً ، وهو العزيز فى ملكه ؛ فهو يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، كما قال تعالى : (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى بمقتضى اللطف والعلم (وما من دابة فى الأرض إلا وعلى الله رزقها) .

ومن هذا كله يرد على أولئك الذين يطلبون عند غيره الرزق ، كما فى قوله : (ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئاً ، ولا يستطيعون) .

وقد جمع الأمرين توبيخهم وتوجيههم فى قوله تعالى : (إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا) . (إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق ، واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون) .

وقد بين تعالى قضية الخلق والرزق والعبادة كلها فى قوله تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من

رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) .

وقد بين تعالى فى الآيات المتقدمة أنه يرزق العباد من السماوات والأرض جملة .

وبين فى آيات أخرى كيفية هـذا الرزق تفصيلا مما يعجز الخلق عن فعله ، وذلك فى قوله تعالى : (فلينظر الإنسان إلى طعـامه أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضبا وزيتوناً ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأباً متاعاً لكم ولأنعامكم) .

فجميع أنواع الرزق فى ذلك ابتداء من إنزال الماء من السماء ، ثم ينشأ عنه إشقاق الأرض عن النبات بأنواعه حباً وعنباً وزيتوناً ونخلا وحدائق وفاكهة ، وكلها الانسان ، وقضبا وأبا للأنعام ؛ والأنعام أرزاق أيضاً لحماً ولبناً ، وجميع ذلك قوامه إنزال المـاء من السماء ، ولايقدر على شىء من ذلك كله إلا الله .

فإذا أمسكه الله عن الخلق لايقوى مخـلوق على إنزاله ، فإذا علم المسلم أن الأرزاق بيد الخلاق ، ومن بيده مقاليد السماوات والأرض لن يتجه برغبة ولا يتوجه بسؤال إلا إلى الله تعالى ، موقنا حق اليقين أنه هو سبحانه هو الرزاق ذو القوة المتين .

وكما قال تعالى : (وفى السماء رزقـكم وماتوعدون . فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنـكم تنطقون) .

وقد جاء عن عائشة رضى الله عنها قولها : « والله لا يكمل إيمان العبد حتى يكون يقينه بما عند الله أعظم مما بيده » .

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه عند قوله تعالى : (أنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض ، وإنا على ذهاب به لقادرون) فى سورة المؤمنون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ القَلَمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : (نٓ)

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور عند الكلام على أول سورة هود : وذكر الأقوال كلها ، وهى خمسة أقوال .

فقيل : إنها مما استأثر الله بعلمه أو أنها من أسماء الله ، أو مركبة من عدة حروف كل حرف من اسم ، أو أسماء للسور ، أو أنها للاعجاز ، وبيَّن رحمه الله وجه كل قول منها ، ورجح الأخير ، وأنها للاعجاز بدليل أنه يأتى بعدها دائماً الانتصار للقرآن ، وقد بسط البحث بما يكفى ويشفى .

وقال ابن كثير بأقوال أخرى ، منها أن (نٓ) بمعنى الدواة أى بمناسبة ذكر القلم ، وعزاه إلى الحسن وقتادة ، وقال إن فيه حديثاً مرفوعا ، ولكن غريب جداً ، وهو من ابن عباس : إن الله خلق النون وهى الدواة ، وخلق القلم ، فقال : اكتب الحديث .

وعن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خلق الله النون وهى الدواة » .

وذكر ابن جرير كل هذه الأوجه وزاد أوجهاً أخرى : منها أنها افتتاحيات لأوائل السور تسترعى انتباه المستمعين ، ثم يتلى عليهم مابعدها . وقيل : هى من حساب الجمل وغير ذلك .

وقد ذكر ابن جرير عند أول سورة الشورى (حٰمٓ عٓسٓقٓ) أثراً نقله عنه ابن كثير واستغربه واستنكره ، ولكن وقع مايقرب من مصداقه ومطابقته مطابقة تامة .

ونصه من ابن جرير قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال له وعنده حذيفة بن اليمان : أخبرنى عن تفسير قول الله : (حٰمٓ عٓسٓقٓ) ، قال: فأطرق ثم أعرض عنه ، ثم كرر مقالته فأعرض فلم يجبه بشىء ، وكره مقالته ، ثم كررها الثالثة فلم يجبه شيئاً .

فقال له حذيفة : أنا أنبئك بها ، وقد عرفت بم كرهها ، نزلت فى رجل من أهل بيته يقال له : عبد الإله أو عبد الله ينزل على نهر من أنهار المشرق تبنى عليه مدينتان فشق النهر بينهما شقاً ، فإذا أذن الله فى زوال ملكهم وانقطاع دولتهم ومدنهم ، بعث الله على إحداهما ناراً ليلا فتصبح سوداء مظلمة قد احترقت كأنها لم تكن مكانها ، وتصبح صاحبتها متعجبة كيف أفلتت ، فما هو إلا بياض يومها ذلك حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد منهم ، ثم يخسف الله بها وبهم جميعا ، فذلك قوله : (حٰمٓ عٓسٓقٓ) يعنى عزيمة من الله وفتنة وقضاء .

(حم عسق) يعنى عدلا منه (سين) يعنى سيكون (و ق) يعنى واقع بهاتين المدينتين . اهـ .

ومع استغراب ابن كثير إياه واستنكاره له ، فقد وقع مثل مايشير إليه الحديث على ثورة العراق على عبد الإله فى بغداد ، حيث يشقها النهر شقين ، وأنه من آل البيت ، وقد وقع بهـا ماجاء وصفه فى الأثر المذكور .

قوله تعالى : ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان الرد على مقالتهم تلك عنـد قوله تعالى : (أم يقولون به جنـة بل جاءهم بالحق) الآية من سورة المؤمنون .

وساق النصوص ، وقال : إن فى الآية مايرد عليهم ، وهو قوله تعالى : (بل جاءهم بالحق) . اهـ .

وهـكذا هنا فى الآية مايدل على بطلان دعواهم ، ويرد عليهم ، وهو قوله تعالى : (وإن لك لأجراً غير ممنون) أى على ماجئت به من الحق وقمت به من البلاغ عن الله والصبر عليه ، كما رد عليهم بقوله : (وما صاحبكم بمجنون) .

وكذلك قوله تعالى فى حق رسوله الكريم الأعظم (وإنك لعلى خلق عظيم) لأن المجنون سفيه لا يعنى مايقول ولا يحسن أى تصرف. والخلق العظيم أرقى منازل الكمال فى عظماء الرجال .

وقوله تعالى : (وإن لك لأجراً غير ممنون) ، المن : القطع . أى إن أجره صلى الله عليه وسلم عند الله غير منقطع .

قال الشاعر :

لمقفر قهر تنازع شلوه عبس كواسب لا يمن طعامها

وقد بين تعالى دوام أجره دون انقطاع فى قوله تعالى : (إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) .

وصلوات الله تعالى عليه وصلوات الملائكة والمؤمنين لا تنقطع ليلا ولا نهاراً وهى من الله تعالى رحمة ، ومن الملائكة والمؤمنين دعاء .

وفى سورتى : الضحى وألم نشرح ، بكاملها (ماودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى)

وقوله : (ورفعنا لك ذكرك) .

ومعلوم من السنة أن من دل على خير فله مثل من عمل به ، فما من مسلم تكتب له حسنة فى صحيفته إلا وللرسول صلى الله عليه وسلم مثلها .

وقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث » .

ومنها : « أو علم ينتفع به » . وأى علم أعم نفعاً مما جاء به صلى الله عليه وسلم وتركه فى الأمة حتى قال : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً كتاب الله وسنتى » إلى غير ذلك من النصوص الدالة على دوام أجره .

أما جزاؤه عند الله فلا يقدر قدره إلا الله تعالى .

وقوله تعالى : (وإنك لعلى خلق عظيم) تقدم أن هذه بمثابة آلرد على ادعاء المشركين أولا عليه صلى الله عليه وسلم ورميه بالجنون. لأن أخلاق المجانين مذمومة بل لا أخلاق لهم ، وهنا أقصى مراتب العلو فى الخلق .

وقد أكد هـذا السياق بعوامل المؤكدات باندراجه فى جواب القسم الأول فى أول السورة ، وبإن اللام فى لعلى ، وجاء بعلى الدالة على الاستعلاء والتمكن بدل من ذو مثلا (ذو خلق عظيم) لبيان قوة التمكن والاستعلاء ، وأنه صلى الله عليه وسلم فوق كل خلق عظيم متمكن منه مستعل عليه .

وقد أجمل الخلق العظيم هنا وهو من أعم ما امتدح الله به رسوله صلى الله عليه وسلم فى كتابه ، وقد أرشدت عائشة رضى الله عنها إلى

مايبين هـذا الإجمال حينما سئلت عن خلقه صلى الله عليه وسلم الذى امتدح به فقالت « كان خُلقه القرآن » ، تعنى والله تعالى أعلم : أنه صلى الله عليه وسلم يأتمر بأمره وينتهى بنواهيه ، كما فى قوله تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) .

وكما فى قوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) .

وكما قال صلى الله عليه وسلم « لن يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » ، فكان هو صلى الله عليه وسلم ممتثلا لتعاليم القرآن فى سيرته كلها ، وقد أمرنا بالتأسى به صلوات الله وسلامه عليه ، فكان من أهم مايجب على الأمة معرفة تفصيل هـذا الإجمال ليتم التأسى المطلوب.

وقد أخذت قضية الأخلاق عامة ، وأخلاقه صلى الله عليه وسلم خاصة . محل الصدارة من مباحث الباحثين وتقرير المرشدين ، فهى بالنسبة للعموم أساس قوام الأمم ، وعامل الحفاظ على بقائها ، كما قيل :

إنما الأمم الأخلاق مابقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقد أجمل صلى الله عليه وسلم البعثة كلها فى مكارم الأخلاق فى قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

وقد عنى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رضوان الله تعالى

عليهم بقضية أخلاقه بعد نزول هذه الآية ، فسألوا عائشة رضى الله عنها عن ذلك فقالت : « كان خُلقه القرآن » وعنى بها العلماء بالتأليف ، كالشمائل للترمذى .

أما أقوال المفسرين فى الخلق العظيم المعنى هنا فهى على قولين لاتعارض بينهما .

منها : أنه الدين ، قاله ابن عباس ومجاهد والسدى وغيرهم .

والآخر قول عائشة : « كان خلقه القرآن » والقرآن والدين مرتبطان . ولكن لم يزل الإجمال موجوداً . وإذا رجعنا إلى بعض الآيات فى القرآن نجد بعض البيان لما كان عليه صلى الله عليه وسلم من عظيم الخلق مثل قوله تعالى : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) .

وقوله : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) .

وقوله : (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم) .

وقوله : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) .

ومثل ذلك من الآيات التى فيها التوجيه أو الوصف بما هو أعظم

الأخلاق ، وإذا كان خلقه صلى الله عليه وسلم هو القرآن ، فالقرآن يهدى للتى هى أقوم .

والمتأمل للقرآن فى هديه يجد مبدأ الأخلاق فى كل تشريع فيه حتى العبادات . ففى الصلاة خشوع وخضوع وسكينة ووقار ، فأتوها وعليكم السكينة والوقار .

وفى الزكاة مروءة وكرم (يا أيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى) .

وقوله : (إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا) .

وفى الصيام « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « الصيام جُنَّة » .

وفى الحج : « فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج » .

وفى الاجتماعيات : خوطب صلى الله عليه وسلم بأعلى درجات الأخلاق ، حتى ولو لم يكن داخلا تحت الخطاب لأنه ليس خارجاً عن نطاق الطلب (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) ، ثم يأتى بعدها (وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلاتقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا) ، مع أن والديه لم يكن

أحدها موجودا عند نزولها ، إلى غير ذلك من التعاليم العامة والخاصة التى اشتمل عليها القرآن .

وقد عنى صلى الله عليه وسلم بالأخلاق حتى كان يوصى بها المبعوثين فى كل مكان ، كما أوصى معاذ بن جبل رضى الله عنه بقوله : « اتق الله حيث ما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة : إذا لم تستح فاصنع ماتشاء » أى إن الحياء وهو من أخص الأخلاق سياج من الرذائل ، وهذا مما يؤكد أن الخلق الحسن يحمل على الفضائل ، ويمنع من الرذائل ، كما قيل فى ذلك :

إن الكريم إذا تمكن من أذى جاءته أخلاق الكرام فأقلعا
وترى اللئيم إذا تمكن من أذى يطغى فلايبقى لصلح موضعا

وقد أشار القرآن إلى هذا الجانب فى قوله تعالى : (الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) .

تنبيه

إن من أهم قضايا الأخلاق بيانه صلى الله عليه وسلم لها بقوله : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

مع أن بعثته بالتوحيد والعبادات والمعاملات وغير ذلك مما يجعل الأخلاق هى البعثة .

وبيان ذلك فى قضية منطقية قطعية حملية ، مقدمتها حديث صحيح ، وهو « الدين حسن الخلق » ، والكبرى آية كريمة . قوله تعالى : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب . لكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين ، وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) .

ولمساواة طرفى الصغرى فى الماصدق ، وهو الدين حسن الخلق ، يكون التركيب المنطقى بالقياس الاقترانى حسن الخلق هو البر ، والبر هو الإيمان بالله واليوم الآخر ، إلى آخر ماجاء فى الآية الكريمة ، ينتج حسن الخلق هو الإيمان بالله واليوم الآخر وما عطف عليه .

وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الدين كله بأقسامه الثلاثة :

الإسلام من صلاة وزكاة . الخ .

والإيمان بالله وملائكته . الخ .

ومن إحسان فى وفاء وصدق وصبر وتقوى الله تعالى ، إذ هى مراقبة الله سراً وعلناً ، وقد ظهرت نتيجة عظم هذه الأخلاق فى الرحمه العامة الشاملة فى قوله تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

وكذلك الأمة يوم القيامة ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « أقربكم منى منزلة يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا » .

وهى قضية منطقية أخرى « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

فمكارم الأخلاق رحمة للعالمين فى الدنيا ، ومنزلة عليا للمؤمنين فى الآخرة .

تنبيه آخر

اتفق علماء الاجتماع أن أسس الأخلاق أربعة :

هى : الحكمة ، والعفة ، والشجاعة ، والعدالة ، ويقابلها رذائل ربعة :

هى : الجهل ، والشره ، والجبن ، والجور ، ويتفرع عن كل فضيلة فروعها :

الحكمة : الذكاء وسهولة الفهم ، وسعة العلم ، وعن العفة ، القناعة

والورع والحياء والسخاء والدعة والصبر والحرية ، وعن الشجاعة النجدة وعظم الهمة ، وعن السماحة الكرم والإيثار والمواساة والمسامحة .

أما العدالة وهى أم الفضائل الأخلاقية ، فيتفرع عنها الصداقة والألفة وصلة الرحم وترك الحقد ومكافأة الشر بالخير واستعمال اللطف . فهذه أصول الأخلاق وفروعها فلم تبق خصلة منها إلا وهى مكتملة فيه صلى الله عليه وسلم .

وقد برأه الله من كل رذيلة ، فتحقق أنه صلى الله عليه وسلم على خلق عظيم فعلا وعقلا .

وقال الفخر الرازى : لقد كان صلى الله عليه وسلم على خلق عظيم . والخلق ماتخلق به الإنسان ، لأن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) ، ولابد لكل نبى من خصلة فاضلة . فاجتمع له صلى الله عليه وسلم جميع خصال الفضل عند جميع الأنبياء . وهذا وإن كان له وجه إلا أن واقع سيرته صلى الله عليه وسلم أعم من ذلك .

فقد كان قبل البعثة والوحى ملقباً عند القرشيين بالأمين ، كما فى قصة وضع الحجر فى الكعبة إذ قالوا عنه الأمين ارتضيناه .

وجاء عن زيد بن حارثة لما أخذ أسيراً وأهدته خديجة رضى الله عنها لخدمته صلى الله عليه وسلم .

وجاء أهله بالفداء يفادونه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم : « ادعوه وأخبروه فإن اختاركم فهو لكم بدون فداء ، فقال زيد : والله لا أختار على صحبتك أحداً أبداً ، فقال له أهله : ويحك أتختار الرق على الحرية ؟ فقال : نعم ، والله لقد صحبته فلم يقل لى لشيء فعلته لِمَ فعلته قط . ولا لشيء لم أفعله لِمَ لَمْ تفعله قط » ورجع قومه وبقى هو عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيده وأعلن تبنيه على ما كان معهوداً قبل البعثة .

إننا لو قلنا : إن اختيار الله إياه قبل وجوده وتعهد الله إياه بعد وجوده من شق الصدر فى طفولته ومن موت أبويه ورعاية الله له .

كما فى قوله تعالى : (ما ودعك ربك وما قلى) إلى قوله : (ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث) .

إنها نعمة الله تعالى عليه وعلى أمته معه صلوات الله وسلامه عليه ، ورزقنا التأسى به .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ . وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ . وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ . هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ . مَّنَّاعٍ

لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ . عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ . أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ . سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾

إذا كان فى مجىء الآية قبل هذه (وإنك لعلى خلق عظيم) رد على دعواهم الكاذبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنون .

فى هذه الآية تنزيهه صلى الله عليه وسلم مما اشتملت عليه من رذائل ونقائص وافتضاح لهم . وبيان الفرق والبون الشاسع بينه وبينهم . ففى الوقت الذى وصفه بأنه على خلق عظيم وصفهم بعكس ذلك من كذب ومداهنة وكثرة حلف ومهانة وهمز ومشى بنميمة ومنع للخير وعتل وتجبر واعتداء ، وظلم ، وانقطاع زنيم ، عشر خصال ذميمة . ونتيجتها الوسم بالخزى على الأنوف صغاراً لهم .

وقد جاءت آيات القرآن تبين مساوى تلك الصفات وتحذر منها ، ولا يسعنا إيرادها كلها وتكفى الإشارة إلى بعضها تنبيهاً على جميعها فى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ، يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً . أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه . واتقوا الله إن الله تواب رحيم) .

وقوله تعالى : (ودوا لو تدهن فيدهنون) .

ذكر القرطبي لمعانى المداهنة فوق عشرة أقوال أرجحها الملاينة ، وقد ذكر هنا ودادتهم وتمنيهم المداهنة ، ولم يذكر لنا هل داهنهم صلى الله عليه وسلم أم لا ؟ وهل يريدون بذلك مصلحة أم لا ؟

وقد جاء بيان ذلك مفصلا بأنهم أرادوا التدرج من المداهنة وملاينته صلى الله عليه وسلم معهم إلى ما بعدها من تعطيل الدعوة .

وقد رجح ابن جرير ذلك بقوله : ود هؤلاء المشركون يامحمد لو تلين لهم فى دينك بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آلهتهم فيلينون لك فى عبادتك إلهك ، كما قال جل ثناؤه : (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا) . اهـ .

ويشهد لما قاله ابن جرير هذا ما جاء فى سبب نزول سورة الكافرون .

فأنزل الله تعالى (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد) السورة .

ومما هو صريح فى قصدهم بالمداهنة والدافع عليها والجواب عليهم قد جاء موضحاً فى قوله تعالى : (ود الذين كفروا من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم

الحق) ، ثم قال تعالى مبيناً موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من هذه المحاولة بقوله : (فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره) .

وقد جاء الله بأمره حكماً بينه وبينهم ، وهنا يمكن أن يقال : إن كل مداهنة فى الدين مع المشركين تدخل فى هذا الموضوع .

وقد جاء بعد قوله تعالى : (ولا تطع كل حلاف مهين) إشارة إلى أنهم لايطاعون فى مداهنتهم ، وأنهم سيبذلون كل مافى وسعهم لترويج مداهنتهم ولو بكثرة الحلف ، وفرق بين المداهنة فى الدين ، والملاطفة فى الدنيا أو التعاون وتبادل المنافع الدنيوية ، كما قدمنا عند قوله تعالى : (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم) الآية ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ .

هذا استفهام إنكارى يدل على أنه لم يسألهم أجراً على دعوته إياهم

وقال تعالى : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) فالأجر المسئول المستفهم عنه هو الأجر المادى بالمال ونحوه .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مبحث الأجر على الدعوة من جميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . ومبحث أخذ الأجرة على الأعمال التى أصلها مزية لله بحثاً وافياً عند قوله تعالى

(ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله) من سورة هود .

قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ .

لم يبين هنا من هو صاحب الحوت ، ولا نداءه وهو مكظوم ، ولا الوجه المنهى عنه أن يكون مثله ، وقد بين تعالى صاحب الحوت فى الصافات فى قوله تعالى : (وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون) إلى قوله : (فالتقمه الحوت وهو مليم) .

وأما النداء فقال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه : قد بينه تعالى فى سورة الأنبياء عند قوله تعالى : (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) .

فصاحب الحوت هو يونس ، ونداؤه هو المذكور فى الآية ، وحالة ندائه وهو مكظوم .

أما الوجه المنهى عن أن يكون مثله فهو الحال الذى كان عليه عند النداء ، وهو فى حالة غضبه ، وهو مكظوم ، وهذا بيان لجانب من خلقه صلى الله عليه وسلم وتخلقه فى قوله تعالى : (فاصبر) أى على إيذاء قومك ، ولعل هذا من خصائص وخواص توجيهات الله إليه ، كما

فى قوله تعالى : (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله) إلى آخر الآية ، فقد بين تعالى خلقاً فاضلا عاماً للأمة فى حسن المعاملة والصفح .

ثم خص النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : واصبر) أى لا تعاقب انتقاماً ولو بالمثلية ولكن اصبر ، وقد كان منه صلى الله عليه وسلم مصداق ذلك فى رجوعه من ثقيف حينما آذوه وجاءه جبريل عليه السلام ، ومعه ملك الجبال يأتمر بأمره إلى أن قال :

لا ، اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون . . إنى لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يؤمن بالله . فقد صفح وصبر ورجى من الله إيمان من يخرج من أصلابهم .

وهذا أقصى درجات الصبر والصفح وأعظم درجات الخلق الكريم .

قوله تعالى: ﴿ لَنُبْذَ بِالْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ .

بين تعالى أنه لم ينبذ بالعراء على صفة مذمومة ، بل إنه تعالى أنبت عليه شجرة تظله وتستره ، كما فى قوله تعالى : (وأنبتنا عليه شجرة من يقطين) .

قوله تعالى: ﴿ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

بينه تعالى بقوله : (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين) .

قوله تعالى ﴿ وَإِنْ يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ. وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾

فيه عود آخر السورة على أولها . وأن الكفار إذا سمعوا الذكر شخصت أبصارهم نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويرمونه بالجنون . والرد عليهم بأن هذا الذى سمعوه ليس بهذيان المجنون ، وما هو إلا ذكر للعالمين ، وفيه ترجيح القول بأن المراد بنعمة ربك فى أول السورة ، إنما هى ما أوحاه إليه من الذكر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الحَاقَّةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ الْحَآقَّةُ مَا الْحَآقَّةُ ﴾ .

الحاقة من أسماء القيامة وجاء بعدها (كذبت ثمود وعاد بالقارعة) وهى من أسماء القيامة أيضاً ، كما قال تعالى : (وما أدراك ما القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث) الآية .

سميت بالحاقة لأنه يحق فيها وعد الله بالبعث والجزاء ، وسميت بالقارعة ، لأنها تقرع القلوب بهولها (وترى الناس سكارى وماهم بسكارى) .

كما سميت الواقعة (ليس لوقعتها كاذبة) .

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ . فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ .

والطاغية فاعلة من الطغيان ، وهو مجاوزة الحد مطلقاً ، كقوله : (إنا لما طغا الماء) .

وقوله : (إن الإنسان ليطغى) .

وقد اختلف فى معنى الطغيان هنا ، فقال قوم : طاغية عاقر الناقة ، كما فى قوله تعالى : (كذبت ثمود بطغواها إذ انبعث أشقاها)

فتكون البـاء سببية أى بسبب طاغيتها ، وقيل : الطاغية الصيحة الشديدة التى أهلكتهم ، بدليل قوله تعالى : (إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر) فتكون الباء آلية ، كقولك : كتبت بالقلم وقطعت بالسكين .

والذى يشهد له القرآن هو المعنى الثانى لقوله تعالى : (وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون) ، ولو قيل : لا مانع من إرادة المعنيين لأنهما متلازمان تلازم المسبب للسبب ، لأن الأول سبب الثانى لما كانوا بعيداً ، ويشير إليه قوله تعالى : (فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة) .

فالعتو هو الطغيان فى الفعل ، والصاعقة هى الصيحة الشديدة ، وقد ربط بينهما بالفاء .

قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك عند قوله تعالى (فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيام نحسات) المتقدم فى فصلت ، وفى هذا التفصيل لكيفية إهلاك عاد وثمود بيان لما أجمل فى سورة الفجر ، فى قوله تعالى : (فصب عليهم ربك سوط عذاب) .

قوله تعالى ﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴾

المؤتفكات : المنقلبات ، وهى قرى قوم لوط .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه تفصيل ذلك عند قوله تعالى فى هود (ولما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها) الآية .

وفى النجم عند قوله تعالى : (والمؤتفكة أهوى) .

تنبيـــه

نص تعالى هنا أن فرعون ومن قبله ، والمؤتفكات جاءوا بالخاطئة وهى : (فعصوا رسول ربهم) ، وكذلك عاد وثمود كذبوا بالقارعة . فالجميع اشترك فى الخاطئة ، وهى عصيان الرسول (فعصى فرعون الرسول) ، ولكنه قد أخذهم أخذة رابية .

ونوع فى أخذهم ذلك : فأغرق فرعون وقوم نوح ، وأخذ ثمود بالصيحة ، وعاداً بريح ، وقوم لوط بقلب قراهم ، كما أخذ جيش أبرهة بطير أبابيل ، فهل فى ذلك مناسبة بين كل أمة وعقوبتها ، أم أنه للتنويع فى العقوبة لبيان قدرته تعالى وتنكيله بالعصاة لرسل الله .

الواقع أن أى نوع من العقوبة فيه آية على القدرة ، وفيه تنكيل بمن وقع بهم ، ولكن تخصيص كل أمة بما وقع عليها يثير تساؤلا ،

ولعل مما يشير إليه القرآن ولو إشارة خفيفة هو الآتى :

أما فرعون فقد كان يقول : (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى) ، فلما كان يتطاول بها جعل الله هلاكه فيها أى فى جنسها .

وأما قوم نوح فلما يئس منهم بعد ألف سنة إلا خمسين عاما ، وأصبحوا لايلدوا إلا فاجرا كفارا ، فلزم تطهير الأرض منهم ، ولا يصلح لذلك إلا الطوفان .

وأما ثمود فأخذوا بالصيحة الطاغية ، لأنهم نادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ، فلما كان نداؤهم صاحبهم سببا فى عقر الناقة كان هلاكهم بالصيحة الطاغية .

وأما عاد فلطغيانهم بقوتهم ، كما قال تعالى فيهم : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد) ، وسواء عماد بيوتهم وقصورهم ، فهو كناية عن طول أجسامهم ووفرة أموالهم وتوافر القوة عندهم ، فأخذوا بالريح وهو أرق وألطف ما يكون ، مما لم يكونوا يتوقعون منه أية مضرة ولا شدة .

وكذلك جيش أبرهة لما جاء مدل بعدده وعدته ، وجاء معه بالفيل أقوى الحيوانات ، سلط الله عليه أضعف المخلوقات والطيور (فأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل) .

وأما قوم لوط فلكونهم قلبوا الأوضاع بإتيان الذكور دون الإناث ، فكان الجزاء من جنس العمل ، قلب الله عليهم قراهم . والعلم عند الله تعالى .

ولا شك أن فى ذلك كله تخويف لقريش .

قوله تعالى ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾

تقدم بيانه للشيخ رحمه الله فى سورة الكهف عند قوله تعالى : (ويوم نسير الجبال) .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ .

تقدم بيانه للشيخ رحمه الله عند قوله تعالى : (فوجدوا ماعملوا حاضراً) .

قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمه الله بيان قضية أخذ الكتب وحقيقتها ، عند قوله تعالى : (ووضع الكتاب) فى سورة الكهف .

وكذلك بحثها فى كتابه دفع إيهام الاضطراب ، وبيان القسم الثالث من وراء ظهره ، وفى هذا التفصيل فى حق الكتاب والكتابة وتسجيل الأعمال وإبقائها بنصوص صريحة واضحة ، كقوله تعالى : (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه) .

وقولهم صراحة : (يا ويلتنا مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) .

وقوله : (مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .

وقوله : (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) ، فهو كتاب مكتوب ينشر يوم القيامة يقرؤه كل إنسان بنفسه مما يرد قول من يجعل أخذ الكتاب باليمين أو الشمال كناية عن اليمن والشؤم . وهذا فى الواقع إنما هو من شؤم التأويل الفاسد وبدون دليل عليه ، والمسمى عند الأصوليين باللعب . نسأل الله السلامة والعافية .

قوله تعالى : ﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ .

والظن واسطة بين الشك والعلم ، وقد يكون بمعنى العلم إذا وجدت القرائن ، وتقدم للشيخ بيانه عند قوله تعالى : (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) أى علموا بقرنية .

قوله : (ولم يجدوا عنها مصرفا) ، وهو هنا بمعنى العلم ، لأن العقائد لا يصلح فيها الظن ، ولا بد فيها من العلم والجزم .

وقد دل القرآن على أن الظن قد يكون بمعنى العلم ، بمفهوم قوله تعالى : (إن بعض الظن إثم) ، فمفهومه أن بعضه ليس إثما ، فيكون حقا ، وكذلك قوله تعالى : (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم) .

قوله تعالى : ﴿ مَا أَغْنَى عَنِّى مَالِيَه ﴾ .

قيل : فيما إنها استفهامية بمعنى أى شىء أغنى عنى ماليه ، والجواب لاشىء ، وقيل . نافية ، أى لم يغن عنى ماليه شيئاً فى هذا اليوم ، ويشهد لهذا المعنى الثانى قوله تعالى (يوم لاينفع مال ولا بنون) .

وقوله : (ما أغنى عنه ماله وما كسب) .

وتقدم للشيخ رحمة الله علينا وعليه فى سورة الكهف على قوله تعالى : (ولئن رددت إلى ربى) .

وفى سورة الزخرف عند قوله تعالى : (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا) الآية .

قوله تعالى ﴿ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ ﴾ .

أى لاسلطان ولا جاه ولا سلطة لأحد فى ذلك اليوم ، كما فى قوله تعالى : (وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) حفاة عراة .

وقوله : (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم) .

قوله تعالى ﴿ إِنَّه كَانَ لَايُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ . وَلَايَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ . الآية

فيه عطف عدم الحض على طعام المسكين ، على عدم الإيمان

بالله العظيم ، مما يشير إلى أن الكافر يعذب على الفروع .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مبحث هذه المسألة في أول سورة فصلت عند قوله تعالى : (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة) ، وكنت سمعت منه رحمة الله تعالى علينا وعليه قوله : كما أن الإيمان يزيد بالطاعة ، والمؤمن يثاب على إيمانه وعلى طاعته ، فكذلك الكفر يزداد بالمعاصي ، ويجازى الكافر على كفره وعلى عصيانه ، كما في قوله تعالى : (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون) .

فعذاب على الكفر وعذاب على الإفساد ، ومما يدل لزيادة الكفر ، قوله تعالى : (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم) ، وتقدم للشيخ رحمه الله مبحث زيادة العذاب عند آية النحل .

قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.

إضافة القول إلى الرسول الكريم على سبيل التبليغ ، كما جاء بعدها ، قوله (تنزيل من رب العالمين) والرسول يحتمل النبي صلى الله عليه وسلم ويحتمل جبريل ، وقد جاء في حق جبريل . قوله تعالى :

(إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين) .

وهنا المراد به الرسول صلى الله عليه وسلم بقرنية . قوله تعالى : (وما هو بقول شاعر) وما عطف عليه لأن من انتهم بذلك هو الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فنفاه ذلك عنه ، فيكون فى ذلك كله إثبات الصفة الكريمة لسند القرآن من محمد عن جبريل عن الله ، وقد أشار لذلك فى الآية الأولى فى قوله (مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون) .

فأثبت السلامة والعدالة لرسل الله فى تبليغ كلام الله ، وفى هذا رد على قريش ما اتهمت به الرسول صلى الله عليه وسلم .

وفيه أيضاً الرد على الرافضة دعواهم التغيير أو النقص فى القرآن .

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه وبيان هذا المعنى وهو على ظاهره عند الكلام على قوله تعالى (أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا) الآية ، وهو على سبيل الافتراض بالنسبة للنبى صلى الله عليه وسلم .

وقد استبعد أبو حيان أن يكون الضمير فى تقول راجع إلى النبى

صلى الله عليه وسلم لاستحالة وقوع ذلك منه صلى الله عليه وسلم .

وقال : إنها قرئت بالمبنى للمجهول ورفع بعض ، وقال : وعلى قراءة الجمهور يكون فاعل تقول مقدر تقديره : ولو تقول علينا مقتول ، وقد ذكر تلك القراءة كل من القرطبي والكشاف ، ولكن لم يذكرها ابن كثير ولا الطبرى ولا النيسابورى ممن يعنون بالقراءات ، مما يجعل فى صحتها نظراً ، فلو صحت لكانت موجهة ولكن ما استبعده أبو حيان ومنعه بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم هو فى الواقع صحيح ، ولكن على سبيل الافتراض فليس ممنوعا ، وقد جاء الافتراض فى القرآن فيما هو أعظم من ذلك .

كما فى قوله تعالى (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) وقوله (ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) والنص الصريح فى الموضوع ما قاله الشيخ : فى قوله تعالى (قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئاً) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ . فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

فى هذا نفى كل باطل من شعر أو كهانة أو غيرها ، ولكل نقص أو زيادة .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان إضافة الحق لليقين ،

ومعنى التسبيح باسم ربك عند آخر سورة الواقعة ، وحق اليقين هو منتهى العلم ، إذ اليقين ثلاث درجات :

الأولى : علم اليقين .

والثانية : عين اليقين .

والثالثة : حق اليقين كما فى التكاثر (كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين) فهاتان درجتان ، والثالثة إذا دخلوها كان حق اليقين ، ومثله فى الدنيا العلم بوجود الكعبة والتوجه إليها فى الصلاة ، ثم رؤيتها عين اليقين ثم بالدخول فيها يكون حق اليقين ، وكما نسبح الله وهو تنزيهه ، فكذلك ننزه كلامه ، لأنه صفة من صفاته .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المعارج

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ .

المعلوم أن مادة سأل لا تتعدى بالباء ، كتعديها هنا . ولذا قال ابن كثير : إن الفعل ضمن معنى فعل آخر يتعدى بالباء وهو مقدر ماستعجل ، واستدل لذلك بقوله تعالى (ويستعجونك بالعذاب) ، وذكر عن مجاهد أن سأل بمعنى دعا .

واستدل له بقوله تعالى عنهم : (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) ، وذكر هذا القول ابن جرير أيضاً عن مجاهد .

وقرئ سال بدون همزة من السيل ، ذكرها ابن كثير وابن جرير ، وقالوا : هو واد فى جهنم ، وقيل : مخفف سأل . اهـ .

ولعل مما يرجح قول ابن جرير إن الفعل ضمن معنى مثل آخر قوله تعالى : (يستعجل بها الذين لايؤمنون بها) الآية .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان هذا المعنى عند الكلام على قوله تعالى (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من

عندك فأمطر علينا حجارة من السماء) وأحال على سورة سأل وقال وسيأتى زيادة إيضاح إن شاء الله

وقد بين هناك أن قولهم يدل على جهالتهم حيث لم يطلبوا الهداية إليه إن كان هو الحق .

وحيث إنه رحمه الله أحال على هذه السورة لزيادة الإيضاح فإن المناسب إنما هو هذه الآية سأل سائل بمعنى استعجل أو دعا لوجود الارتباط بين آية سأل ، وآية اللهم إن كان هذا هو الحق المذكورة . فإنهما مرتبطان بسبب النزول .

كما قال ابن جرير وغيره عن مجاهد فى قوله تعالى : (سأل سائل) قال : دعا داع بعذاب واقع . قال : هو قولهم (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا) . الآية . والقائل هو النضر بن الحارث ابن كلدة .

والإيضاح المنوه عنه يمكن استنتاجه من هذا الربط ومن قوله رحمه الله : إنه يدل على جهالتهم وبيان ما إذا كان هذا العذاب الواقع هل وقوعه فى الدنيا أم يوم القيامة .

والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن جهالة قريش دل عليها العقل والنقل ، لأن العقل يقضى بطلب النفع ودفع الضر كما قيل :

لما نافع يسعى اللبيب فلا تكن ساعياً .

وأما النقل فلأن مما قضى الله علينا أن سحرة فرعون وقد جاءوا متحدين غاية التحدى لموسى عليه السلام ولكنهم لما عاينوا الحق قالوا آمنا وخروا سجداً ولم يكابروا كما قضى الله علينا من نبأ فى كتابه قال تعالى : (فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى) ولما اعترض عليهم فرعون وقال : (آمنتم له قبل أن آذن لكم) إلى آخر كلامه ، قالوا وهو محل الشاهد هنا ، لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا ولم يبالوا بوعيده ولا بتهديده .

وقالوا فى استخفاف : فاقض ما أنت قاض ، فهم لما عاينوا البينات خروا سجداً وأعلنوا إيمانهم وهؤلاء كفار قريش يقولون مقالتهم تلك .

ما وقوع العذاب المسئول عنه فإنه واقع بهم يوم القيامة ، وإنما عبر بالمضارع الدال على الحال للتأكيد على وقوعه ، وكأنه مشاهد وقاله الفخر الرازى وقال هو نظير قوله تعالى (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) .

وفى قوله تعالى (للكافرين ليس له دافع من الله ذى المعارج) دليل على تأكيد وقوعه لأن ماليس له دافع لابد من وقوعه . أما متى يكون فقد دلت آية الطور نظيره هذه أن ذلك سيكون يوم القيامة فى قوله تعالى : (إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع) ثم بين ظرف وقوعه (يوم تمور السماء موراً وتسير الجبال سيراً) وفى سياق هذه السورة فى قوله تعالى : (يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال

كالعهن ولا يسأل حميم حميما يبصرونهم) إلى قوله تعالى (تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى) فإنها كلها من أحوال يوم القيامة ، فدل بذلك على زمن وقوعه . ولعل فى قوله تعالى (تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى) رد على أولئك المستخفين بالعذاب المستعجلين به مجازاة لهم بالمثل ، كما دعوا وطلبوا لأنفسهم العذاب استخفافاً فهى تدعوهم إليها زجراً وتخويفاً مقابلة دعاء بدعاء ، أى إن كنتم فى الدنيا دعوتم بالعذاب فهذا هو العذاب يدعوكم إليه (تدعو من أدبر) عن سماع الدعوة وأعرض عنها وتولى وهذا الرد بهذه الصفات التى قبله من تغيير السماء كالمهل وتسيير الجبال كالعهن ، وتقطع أواصر القرابة من الفزع والهول مما يخلع القلوب كما وقع بالفعل فى الدنيا ، كما ذكر القرطبى قصة جبير بن مطعم .

قال: قدمت المدينة لأسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أسارى بدر فسمعته يقرأ (والطور وكتاب مسطور) إلى قوله تعالى : (إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع) فكأنما صدع قلبى فأسلمت خوفاً من نزول العذاب وما كنت أظن أن أقوم من مقامى حتى يقع العذاب

وذكر القرطبى أيضاً عن هشام بن حسان قال : انطلقت أنا ومالك ابن دينار إلى الحسن وعنده رجل يقرأ والطور حتى بلغ (إن عذاب ربك لواقع) فبكى الحسن وبكى أصحابه فجعل مالك يضطرب حتى غشى عليه .

وذكر ابن كثير عن عمر رضى الله عنه أنه كان يمس بالمدينة ذات ليلة إذ سمع رجل يقرأ بالطور قربا لها أعيد منها عشرين ليلة ، فكان هـذا الوصف المفزع رداً على ذاك الطلب المستخف والله تعالى أعلم . ونأمل أن نكون قد وفينا الإيضاح الذى أراده رحمه الله تعالى .

قوله تعالى : (يوم تعرج الملائكة والروح إليـه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) .

فى هذه الآية الكريمة مقدار هذا اليوم خمسون ألف سنة ، وجاءت آيات أخر بأنه ألف سنة فى قوله تعالى : (وإن يوماً عنـد ربك كألف سنة مما تعدون)

وقوله :(يدبر الأمر من السماء ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة) .

فكان بينهما مغايرة فى المقدار بخمسين مرة .

وقد بحث الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هذه المسألة فى كتاب وقع إيهام الاضطراب ، وفى الأضواء فى سورة الحج عند الكلام على قوله تعالى : (وإن يوماً عند ربك) الآية .

ومما ينبغى أن يلاحظ أن الأيام مختلفة . ففى سأل هو يوم عروج الروح والملائكة .

وفى سورة السجدة هو يوم عروج الأمر فلا منافاة .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴾

المهل دردى الزيت ، وقيل غير ذلك .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة الرحمن عند الكلام على قوله تعالى : (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان)

قوله تعالى: ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾ .

العهن : الصوف ، وجاء فى آية أخرى وصف العهن بالمنفوش فى قوله تعالى : (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش) ، وجاءت لها عدة حالات أخرى كالكثيب المهيل وكالسحاب .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان كل ذلك عند قوله تعالى : (ويوم نسير الجبال) فى سورة الكهف .

قوله تعالى ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ﴾

الحميم : القريب والصديق والولى الموالى كما فى قوله تعالى : (ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) .

وفى هذه الآية الكريمة أنه فى يوم القيامة لايسأل حميم حميما مع أنهم يبصرونهم بأبصارهم .

وقد بين تعالى موجب ذلك وهو اشتغال كل إنسان بنفسه ، كما

فى قوله تعالى، (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه)، وكل يفر من الآخر يقول نفسى نفسى ، كما فى قوله تعالى : (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) .

وقد جاء ما هو أعظم من ذلك فى حديث الشفاعة كل نبى يقول: نفسى نفسى ، وجاء قوله تعالى : (يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت) ، وليس بعد ذلك من فزع إلا المؤمنون (فهم من فزع يومئذ آمنون) جعلنا الله تعالى منهم . آمين .

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ .

الهلوع : فعول من الهلع صيغة مبالغة ، والهلع ، قال فى الكشاف : شدة سرعة الجزع عند مس المكروه ، وسرعة المنع عند مس الخير ، وقد فسره الله فى الآية إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا) .

ولفظ الإنسان هنا مفرد ، ولكن أريد به الجنس أى جنس الإنسان فى الجملة بدليل استثناء المصلين بعده فى قوله تعالى : (إلا المصلين) ، ومثله قوله تعالى (والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ونظيره كثير .

وقد: قال ابن جرير إن هذا الوصف بالهلع فى الكفار ويدل لما قاله أمران :

الأول تفسيره فى الآية واستثناء المصلين ومابعده منه، لأن تلك الصفات كلها من خصائص المؤمنين ، ولذا عقّب عليهم بقوله :

(أولئك فى جنات مكرمون) ، ومفهومه أن المستثنى منه على خلاف ذلك .

والثانى الحديث الصحيح عجباً لأمر المؤمن شأنه كله خير إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له .

ولا يكون ذلك إلا للمؤمن ، فمفهومه أن غير المؤمنين بخلاف ذلك ، وهو الذى ينطبق عليه الوصف المذكور فى الآية أنه هلوع .

قوله تعالى ﴿ إِلاَّ ٱلْمُصَلِّينَ . ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾.

وصف الله تعالى من استثناهم من الإنسان الهلوع بتسع صفات .

اثنتان منها تختص بالصلاة ، وهما الأولى والأخيرة مما يدل على أهمية الصلاة ، ووجوب شدة الاهتمام بها . وهذا من المسلمات فى الدين لمكانتها من الإسلام ، وفى وصفهم هنا بأنهم على صلاتهم دائمون ، وفى الأخير ، على صلاتهم يحافظون .

قال فى الكشاف : الدوام عليها المواظبة على أدائها لايخلون بها ، ولا يشتغلون عنها بشىء من الشواغل .

وذكر حديث عائشة مرفوعا « أحب الأعمال إلى الله أدومها ولو قل »

ويشهد لهذا الذى قاله قوله تعالى : (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح فيها بالغدو والآصال رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما) .

وقوله : (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) .

قال : والمحافظة عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها ، ويقيموا أركانها ويكملوها بسننها وآدابها ، وهذا يشهد له قوله تعالى : (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون) .

وحديث المسىء صلاته ، حيث قال له صلى الله عليه وسلم : « ارجع فصل فإنك لم تصل » ، فنفى عنه أنه صلى مع إيقاعه الصلاة أمامه ، وذلك لعدم الحفاظ عليها بتوفيتها حقها .

وقد بدأ الله أولئك المستثنين وختمهم بالصلاة مما يفيد أن الصلاة أصل لكل خير ، ومبدأ لهذا المذكور كله لقوله تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) ، فهى عون على كل خير .

ولقوله تعالى : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) ، فهى سياج من كل منكر ، فجمعت طرفى المقصد شرعا ، وهما العون على الخير

والحفاظ من الشر أى جلب المصالح ودرء المفاسد ، ولذا فقد عنى بها النبى صلى الله عليه وسلم كل عنايتها ، كما هو معلوم ، إلى الحد الذى جعلها الفارق والفيصل بين الإسلام والكفر فى قوله صلى الله عليه وسلم « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، من ترك الصلاة فقد كفر » .

واتفق الأئمة رحمهم الله على قتل تاركها . وكلام العلماء على أثر الصلاة على قلب المؤمن وروحه وشعوره وما تكسبه من طمأنينة وارتياح كلام كثير جداً توحى به كله معانى سورة الفاتحة .

قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ . لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾

هذا هو الوصف الثانى ، ويساوى إيتاء الزكاة لأن الحق المعلوم لا يكون إلا فى المفروض ، وهو قول أكثر المفسرين ولا يمنع أن السورة مكية ، فقد يكون أصل المشروعية بمكة ، ويأتى التفصيل بالمدينة ، وهو فى السنة الثانية من الهجرة ، وهنا إجمالا فى هذه الآية .

الأول : فى الأموال .

والثانى : فى الحق المعلوم . أى القدر المخرج ، ولم تأت آية تفصل هذا الإجمال إلا آية : (وما آتاكم الرسول فخذوه) ، وقد بينت السنة هذا الإجمالى .

أما الأموال ، فهى لإضافتها تعم كل أموالهم ، وليس الأمر

كذلك ، فالأموال الزكوية بعض من الجميع وأصولها عند جميع المسلمين هى :

أولا : النقدان : الذهب والفضة .

ثانياً : مايخرج من الأرض من حبوب وثمار .

ثالثاً : عروض التجارة .

رابعاً : الحيوان ، ولها شروط وأنصباء . وفى كل من هذه الأربعة تفصيل ، وفى الثلاثة الأولى بعض الخلاف .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان كل مايتعلق بأحكامها جملة وتفصيلا عند آيتى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله) .

وقوله تعالى : (وآتوا حقه يوم حصاده) ، ولم يتقدم ذكر لزكاة الحيوان ولا زكاة الفطر ، وعليه نسوق طرفاً من ذلك لتفصيل النصاب فى كل منها ، وما يجب فى النصاب ، وماتدعو الحاجة لذكره من مباحث فى ذلك كالخلطة مثلا ، والصفات فى المزكى ، والراجح فيما اختلف فيه ، ثم نتبع ذلك بمقارنة بين هذه الأنصباء فى بهيمة الأنعام وأنصباء الذهب والفضة لبيان قوة الترابط بين الجميع ودقة الشارع فى التقدير .

أولا : بيان النوع الزكوى من الحيوان .

اعلم رحمنا الله وإياك : أن مذهب الجمهور أنه لازكاة فى الحيوان إلا فى بهيمة الأنعام الثلاثة : الإبل ، والبقر ، والغنم الضأن والمعز سواء . وألحق بالبقر الجواميس ، والإبل تشمل العراب والبخاتى ، والخلاف فى الخيل .

ولأبى حنيفة رحمه الله تعالى دليل أبى حنيفة رحمه الله استدل لوجوب الزكاة فى الخيل بالقياس فى حملها على الأصناف الثلاثة الأخرى ، إذا كانت للنسل أى كانت ذكوراً وإناثا ، بخلاف ما إذا كانت كلها ذكورا يجامع التناسل فى كل واشترط لها السوم أيضاً .

وبحديث : « مامن صاحب ذهب لايؤدى زكاته إلا إذا كان يوم القيامة صفح له صفائح من نار فتكوى بها جبينه وجنبه وظهره » الحديث ؛ وفيه ذكر الأموال الزكوية كلها والإبل والبقر والغنم .

فقالوا : والخيل يارسول الله .

فقال : الخيل ثلاثة هى لرجل أجر ولرجل ستر ، ولرجل وزر .

أما التى لرجل أجر ، فرجل ربطها فى سبيل الله ، فأطال لها فى مرج أو روضة إلى آخر ماجاء فى هذا القسم .

ورجل ربطها تغنياً وتعففا ، ثم لم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها فهى لذلك ستر .

ورجل ربطها رياء وفواء لأهل الإسلام ، فهى على ذلك وزر .

ورجل ربطها رياء وفواء لأهل الإسلام ، فهى على ذلك وزر .

فقال رحمه الله : إن حق الله فى رقابها وظهورها هو الزكاة . وقد خالفه فى ذلك صاحباه أبو يوسف ومحمد ووافقه زفر ، وبما رواه الدارقطنى والبيهقى والخطيب من حديث جابر مرفوعا فى كل فرس سائمة دينار أو عشرة دراهم ، أدلة الجمهور على عدم وجوب الزكاة فيها والرد على أدلة أبى حنيفة رحمه الله

واستدل الجمهور بقوله صلى الله عليه وسلم : « ليس على المسلم فى عبده ولا فرسه صدقة » .

والفرس اسم جنس يعم ويعدم ذكرها مع بقية الأجناس الأخرى حتى سئل عنها صلى الله عليه وسلم ، فلو كانت مثلها فى الحكم لما تركها فى الذكر .

وحديث : « قد عفوت عن الخيل فهاتوا زكاة الرقة » . رواه أبوداود .

وأجابوا على استدلال أبى حنيفة ، بأن حق الله فى رقابها ، وظهورها إعارتها وطرقها إذا طلب ذلك منه .

كما أجابوا على حديث جابر بما نقله الشوكانى والدارقطنى من أنه لاتقوم به حجة .

ورد أبوحنيفة على دليل الجمهور بأن فرسه مجمل وهو يقول بالحديث إذا كان الفرس للخدمة .

أما إذا كانت الخيل للتناسل ، فقد خصها القياس ، وعلى حديث عفوت عن الخيل بأنه لم يثبت ، وهـذه دعوى تحتاج إلى إثبات ، فقد ذكر الشوكانى أنه حسن .

ولعل مما يرد استدلال أبى حنيفة نفس الحديث الذى استدل به من قرينة التقسيم ، إذا أناط الأجر فيها بالجهاد عليها ، ولم يذكر الزكاة مع أن الزكاة قد تكون ألزم من الأجر أو أعم من الجهاد لأنها تكون لمن لا يستطيع الجهاد كالمرأة مثلا فتزكى فلو كانت فيها الزكاة لما خرجت عن قسم الأجر .

ثانياً : لو كان حق الله فى المذكور هو الزكاة لما ترك لمجرد تذكرها وخيف تعرض للنسيان ، لأن زكاة الأصناف الثلاثة الأخرى لم تترك لذلك بل يطالب بها صاحبها ، ويأتى العـامل فيأخذها ، وإن امتنع صاحبها أخذت جبراً عليه ، وبهذا يظهر رجحـان مذهب الجمهور فى عدم الوجوب .

ومن ناحية أخرى ، فقد اختلف القول عن أبى حنيفة رحمه الله فيما تعامل به ، وفيما يخرج فى زكاتها ، فقيل : إنه مخير بين أن يخرج عن كل فرس ديناراً أو عشرة دراهم ، وبين أن يقومها ويدفع عن كل مائتى درهم خمسة دراهم .

وقد جعل الأصناف زكاتها لصاحبها ولا دخل للعامل فيها ولا يجبر

الإمام عليها ، وقد أطال فى الهداية الكلام عليها ، ولعل أحسن مايقال فى ذلك ماجاء عن عمر رضى الله عنه فى سنن الدارقطنى ، قال : جاء ناس من أهل الشام إلى عمر رضى الله عنه ، فقالوا : إنا قد أصبنا أموالا وخيلا ورقيقا ، وإنا نحب أن نزكيه .

فقال : مافعله صاحباى قبلى فأفعله أنا ، ثم استشار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : حسن ، وسكت على فسأله فقال: هو حسن لو لم تكن جزية راتبة يؤخذون بها بعدك فأخذ من الفرس عشرة دراهم ، وفيه فوضع على الفرس دينارا .

وفى المنتقى عن أحمد رحمه الله أنهم قالوا : نحب أن يكون لنا فيها زكاة وطهور ، فهى إذا دائرة بين الاستحباب والترك .

وقد جاء فى نفس الحديث الطويل المتقدم أنهم قالوا : والحمر يارسول الله فقال : ما أنزل على فيها شىء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) رواه الستة إلا الترمذى .

وعليه فإن الأحاديث التى هى نص فى الوجوب أو الترك لم تصلح للاحتجاج ، والحديث الذى فيه الاحتمال فى معنى حق الله فى ظهورها ورقابها ، قال ابن عبد البر : إنه مجمل ، فلم يكن فى النصوص المرفوعة متمسك الأصناف فى قولهم بوجوب زكاة الخيل ، وبقى مفهوم الحديث .

وقول عمر رضى الله عنه . أما مفهوم الحديث فقد أشرنا إلى القرائن التى فيه على عدم الوجوب .

وأما فعل عمر رضى الله عنه ففيه قرائن أيضاً ، بل أدلة على عدم الوجوب وهى أولا لأنهم هم الذين طلبوا منه أن يزكيها ويطهرها بالزكاة وإيجاب الزكاة لايتوقف على رغبة المالك .

ثانياً : توقف عمر وعدم أخذها منهم لأول مرة ، ولو كانت معلومة له مزكاة لما خفيت عليه ولما توقف .

ثالثاً : تصريحه بأنه لم يفعله صاحباه من قبله ، فكيف يفعله هو؟

رابعاً : قول على ما لم تكن جزية من بعدك أى إن أخذها عمر استجابة لرغبة أولئك فلا بأس لتبرعهم بها ، ما لم يكن ذلك سبباً لجعلها لازمة على غيرهم فتكون كالجزية على المسلمين .

ومما يستدل به للجمهور حديث « قد عفوت عن الخيل والرقيق فأدوا زكاة أموالكم » . رواه أبوداود .

قال الشوكانى بإسناد حسن : وهذا مايتفق مع حديث « ليس على المسلم فى فرسه ولا فى عبده » رواه الجماعة .

وقد أجاب الأحناف على تردد عمر بأن الخيل لم تكن تعرف سائمة للنسل عند العرب ، ولكنها ظهرت بعد الفتوحات فى عهد عمر

وفى هذا القول نظر . وعليه فلا دليل على وجوب الزكاة فى الخيل فتبقى على البراءة الأصلية ، ولهذا لم يأت للخيل ذكر فى كتاب أنصباء بهيمة الأنعام ، ولا يرد عليه أن البقر لم يأت ذكرها أيضاً فيه ، لأن زكاة البقر جاءت فيها نصوص متعددة لأصحاب السنن .

والبخارى وغيره بيان أنصباء الزكاة وما يؤخذ فيها : معلوم أنه لم يأت نص من كتاب الله يفصل ذلك ، ولكن تقدم فى مقدمة الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه أن من أنواع البيان بيان القرآن بالسنة ، وهو نوع من بيان القرآن لقوله تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه) .

وقد بينت السنة أركان الإسلام كعدد الركعات وأوقات الصلوات مفصلة ومناسك الحج .

فكذلك بينت السنة مجمل هذا الحق ، وفى أى أنواع الأموال ، وإن أجمع نص فى ذلك هو كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كتبه وقرنه بسيفه ، وقد عمل به أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ومضى عليه العمل فيما بعد .

وقد رواه الجماعة عن أنس رضى الله عنه ، قال أرسل إلى أبو بكر كتاباً وكان نقش الخاتم عليه محمد ، سطر ورسول سطر ، والله سطر:

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه فريضة الصدقة التى فرضها رسول الله

صلى الله عليه وسلم على المسلمين ، والتى أمر بها رسوله ، فمن سألها من المسلمين على وجهها فليعطها ، ومن سأل فوقها فلايعط فى أربع وعشرين من الإبل فما دونها من الغنم فى كل خمس شاة ، فإذا بلغت خمساً وعشرين إلى خمس وثلاثين ففيها بنت مخاض ، فإن لم تكن بنت مخاض فابن لبون ، فإذا بلغت ستاً وثلاثين إلى خمس وأربعين ففيها بنت لبون ، فإذا بلغت ستا وأربعين إلى ستين ففيها حقة طروقة الجمل ، فإذا بلغت واحدة وستين إلى خمس وسبعين ففيها جذعة ، فإذا بلغت ستا وسبعين إلى تسعين ففيها بنتا لبون ، فإذا بلغت إحدى وتسعين إلى عشرين ومائة ففيها حقتان طروقتا الجمل ، فإذا زادت على عشرين ومائة ففى كل أربعين ابنة لبون ، وفى كل خمسين حقة ، ومن لم يكن معه إلا أربع من الإبل فليست فيها صدقة إلا أن يشاء ربها ، فإذا بلغت خمساً ففيها شاة .

وصدقة الغنم فى سائمتها إذا كانت أربعين إلى عشرين ومائة شاة ، فإذا زادت على عشرين ومائة إلى مائتين ففيها شاتان ، فإذا زادت على مائتين إلى ثلاث مائة ففيها ثلاث شياه ، فإذا زادت على ثلاثمائة ففى كل مائة شاة .

فإذا كانت سائمة الرجل ناقصة عن أربعين شاة واحدة فليس فيها صدقة إلا أن يشاء ربها ، فلايجتمع بين مفترق ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة ، وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية. الحديث .

فقد بين صلى الله عليه وسلم فى هذا الكتاب أنصباء الإبل والغنم وما يجب فى كل منهما ، ولم يتعرض لأنصباء البقر ، ولكن بين أنصباء البقر حديث معاذ عند أصحاب السنن .

قال : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثنى إلى اليمن ألا آخذ من البقر شيئا حتى تبلغ ثلاثين : فإذا بلغت ففيها عجل تبيع جذع أو جذعة حتى تبلغ أربعين ، فإذا بلغت أربعين ففيها مسنة .

ولهذين النصين الصحيحين يكتمل بيان أنصباء بهيمة الأنعام : الإبل والبقر والغنم ، وهو الذى عليه الجمهور وعليه العمل .

وما روى عن سعيد بن المسيب : فى كل عشر من البقر شاة إلى ثلاثين ، ففيها تبيع فلم يعمل به أحد .

تنبيه

وليس فى الوقص فى بهيمة الأنعام زكاة ، والوقص هو ما بين كل نصاب والذى يليه ، كما بين الخمسة والتسعة من الإبل ، وما بين الأربعين والعشرين ومائة من الغنم ، وما بين الثلاثين والأربعين من البقر ، وهذا باتفاق إلا خلاف للأحناف فى وقص البقر فقط ، والصحيح هو مذهب الجمهور فى الجميع . لحديث معاذ لقوله صلى الله عليه وسلم « حتى تبلغ أربعين فإذا بلغت أربعين ففيها مسنة » ، ففهومه

أنه لا زكاة بعد الثلاثين حتى تبلغ أربعين ، فما بين الثلاثين والأربعين لا زكاة فيه .

وأبو حنيفة يقول فيه بنسبة من التبيع ، وقد اشترط لزكاة بهيمة الأنعام النسل والسوم ، وأنه لا زكاة فى المعلوفة ، ولا التى للعمل كالإبل للحمل عليها ، والبقر للحرث ونحو ذلك .

وقال مالك فى المعلوفة ، وفى العوامل الزكاة قال فى الموطإ ما نصه : فى الإبل النواضح والبقر السواقى وبقر الحرث إنى أرى أن يؤخذ من ذلك كله إذا وجبت فيه الصدقة . واستدلوا لمالك فى ذلك بأمرين :

الأول : من جهة النصوص .

والثانى : من جهة المعنى .

أما النصوص ، فما جاء عاماً فى حديث أبى بكر رضى الله عنه فى أنصباء الزكاة فى أربع وعشرين من الإبل فما دونه الغنم فى كل خمس شاة لعمومه فى السائمة والمعلوفة ، هذا فى الإبل وكذلك فى الغنم فى كل أربعين شاة شاة أى بدون قيد السوم

وأما من جهة المعنى : فقال الباجى : إن كثرة النفقات وقلتها إذا أثرت فى الزكاة فإنها تؤثر فى تخفيفها وتثقيلها ولا تؤثر فى إسقاطها ولا إثباتها ، كالخلطة والتفرقة والسقى بالنضح والسيح ، ولا فرق بين السائمة والمعلوفة إلا تخفيف النفقة وتثقيلها .

وأما التمكن من الانتفاع بها فعلى حد واحد لا يمنع علفها من الدر والنسل ، ورد الجمهور على أدلة مالك أيضاً بأمرين :

الأول : من جهة النصوص .

والثانى : من جهة المعنى .

أما النصوص : فما جاء فى الإبل فى حديث بهز بن حكيم ، وفيه : « فى كل أربعين من الإبل سائمة ابنة لبون » رواه أبو داود والنسائى وغيرهما .

وفى الغنم حديث « فى سائمة الغنم الزكاة » وهو حديث صحيح .

وفى كتاب أبى بكر وعمر فقالوا : جاء قيد السوم فى الحديثين ، وأدلة مالك مطلقة ويحمل المطلق على المقيد كما هو معلوم .

ومما يدل على رجحان أدلة الجمهور أن فى حديث الغنم جاء المطلق فى بيان العدد فى كل أربعين شاة شاة ، فهو لبيان النصاب أكثر منه لبيان الوصف .

وحديث : فى سائمة الغنم الزكاة : لبيان محل الوجوب أكثر منه لبيان العدد ، ومن جهة أخرى يعتبر الحديثان مترابطان ، وأن كلا منهما عام من وجه خاص من وجه آخر ، فحديث فى سائمة الغنم الزكاة ، عام فى الغنم بدون عدد خاص فى السائمة .

وحديث : فى كل أربعين شاة . شاة عام فى الشياه خاص بالأربعين. فيخصص عموم كل منهما بخصوص الآخر ، فيقال : فى سائمة الغنم الزكاة إذا بلغت أربعين ، ويقال : فى كل أربعين شاة شاة إذا كانت سائمة ، وبهذا تلتئم الأدلة فى الإبل والغنم لاشتراط السوم وتحديد العدد .

أما البقر فقد حكى الإجماع على اعتبار السوم ، ومن أدلة الجمهور من جهة المعنى أن السوم والنسل للنماء ، فيحتمل المواساة ، أما المعلوفة والعوامل فليست تحتمل المواساة . ومما تقدم يترجح قول الجمهور فى اشتراط السوم والنسل . والله تعالى أعلم .

ما جاء فى الخلطة ، وهى اختلاط المالين معا لرجلين أو أكثر ، وهى على قسمين :

أولا : خلطة أعيان .

ثانيا : خلطة أوصاف .

فخلطة الأعيان : أن يكون المال مشتركا بين الخلطاء على سبيل المشاع ، كمن ورثوا غنما أو بقرا مثلا ولم يقتسموه أو أهدى إليهم ولم يقتسموه . وهذه الخلطة يكون حكم المال فيها ، كحكمه لو كان لشخص واحد ، أو خلطة الأوصاف ، فهى أن يكون المال متميزا ، وكل منهم يعرف حصته وماله معرفة بعدد وأوصاف سواء بألوانها أو

بوسمها أو نحو ذلك . ولكنهم خلطوا المال ليسهل القيام عليه كاختلاطهم فى الراعى والمرعى والمسرح والمراح والفحل والدلو والمحلب .

ونحو ذلك مما هو منصوص عليه لما فيه من الرفق والاكتفاء بواحد من كل ذلك ، لجميع المال ولو فرق لاحتاج كل مال منه إلى واحد من ذلك كله ، فهذه الخلطة لها تأثير فى الزكاة عند الأئمة الثلاثة مالك والشافعى وأحمد رحمهم الله ، ولا تأثير لها عند أبى حنيفة رحمه الله ، وإنما التأثير عنده فى خلطة المشاع .

واختلف القائلون بتأثيرها فى الزكاة على من تؤثر :

فقال أحمد والشافعى : تؤثر على جميع الخلطاء ، من يملكون نصابا ، ومن لا يملك .

وقال مالك : لا تؤثر إلا على من ملك نصابا فأكثر ، ومن لا يملك نصابا فلا تأثير لها عليه . ودليل الجمهور على أبى حنيفة فى تأثيرها هو قوله صلى الله عليه وسلم فى كتاب بيان أنصباء الصدقة . ولا يفرق بين مجتمع ولا يجمع بين مفترق خشية الصدقة ، وما كان من خليطين فإنهم يتراجعان بالسوية .

فقال الجمهور : النهى عن تفريق المجتمع لا يتأتى إلا فى اجتماع الأوصاف لأن اجتماع المشاع لا يتأتى تفريقه خشية الصدقة ، وكذلك

التراجع بالسوية لا يقال إلا فى خلطة الأوصاف ، لأن خلطة المشاع ما يؤخذ منها مأخوذ من المجموع وعلى المشاع أيضا ، لأن كل شريك على المشاع له حصته من كل شاة على المشاع .

مثال ذلك عند الجميع ، وإليك المثال للجميع ، لو أن ثلاثة أشخاص يملك كل واحد منهم أربعين شاة ، فإن كان كل منهم على حدة ، فعلى كل واحد منهم شاة فإن اختلطوا كانت عليهم جميعا شاة واحدة بالسوية ، بينهم لأن مجموعهم مائة وعشرون ، وهو حد الشاة .

وهذا عند الأئمة الثلاثة القائلين بتأثير الخلطة : مالك والشافعى وأحمد ، ولو أن للأول عشرين شـاة وللثانى أربعين وللثالث ستين ففيها أيضاً شاة .

ولـكن عند أحمد والشافعى كل بحصته فلو كانت الشاة بستين درهما ، لـكان على الأول عشرة دراهم بنسبة غنمه من المجموع ، وعلى الثانى عشرون وعلى الثالث ثلاثون كل بنسبة غنمه من المجموع •

وعند مالك : لا شىء على الأول لأنه لم يملك نصابا ، والشاة على الثانى والثالث فقط ، وبنسبة غنمهما من المجموع ، فعلى الثانى خمسا القيمة أربعة وعشرون . وعلى الثالث ثلاثة أخماسها ستة وثلاثون درهما وهـكذا .

والدليل قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يفرق بين مجتمع ولا يجمع

بين مفترق خشية الصدقة ، وما كان من خليطين فإنما يتراجعان بالسوية » .

فقال الجمهور : النهى عن تفريق المجتمع وتقاسمهما بالسوية دليل على تأثير الخلطة فى الزكاة لما فيه من إرفاق .

قال الباجى : كما فى الإرفاق فى سقى الحرث ما سقى بالنضح وما سقى بغير النضح .

وقال أبو حنيفة : ما كان من خليطين يعنى الشريكين ولكن يرده قوله صلى الله عليه وسلم : يتراجعان بالسوية لأن التراجع لا يتحقق إلا فى خلطة الجوار والأوصاف .

وقال مالك : لا تأثير للخلطة على من لم يملك النصاب لقوله صلى الله عليه وسلم : « فى كل أربعين شاة شاة » ، فمن لم يملك أربعين شاة فلا زكاة عليه ولا تأثير للخلطة عليه . ولعل من النصوص المقدمة يكون الراجح مذهب أحمد والشافعى فى قضية الخلطة . والله تعالى أعلم .

الشروط المؤثرة فى الخلطة عند القائلين بها كالآتى : عند أحمد رحمه الله تعالى خمسة أوصاف ، وهى اتحاد المالين فى الأنثى المرعى . المسرح . المبيت . المحلب . الفحل .

وعند الشافعى رحمه الله ذكر النووى عشرة أوصاف الخمسة الأولى . وزاد أن يكون الشريكان من أهل الزكاة : أن يكون المال المختلط نصابا ، أن يمضى عليهم حول كامل ، اتحاد المشرب : اتحاد الراعى .

. وعند مالك : الراعى ، والفحل ، والمراح ، والدلو ، والمراد بالدلو المشرب ، عند الشافعى وعليه : يكون الجميع متفقين تقريبا فى الأوصاف ، وما زاده الشافعى معلوم شرعا ، لأنها شروط فى أصل وجوب الزكاة . ولكن اختلفوا فى المراد من هذه الأوصاف هل تشترط جميعها أو يكفى وجود بعضها .

الواقع أنه لا نص فى ذلك ولكن يرجع إلى تحقيق المناط فيما يكون به الإرفاق ، فمالك اكتفى ببعضها كالفحل والمرعى ، والراعى . والشافعى . اشترط توفر جميع تلك الأوصاف ، وإلا فلا تكون الخلطة مؤثرة ، ولكل فى مذهبه خلاف فى تلك الأوصاف لا نطيل الكلام بتتبعه ، وإنما يهمنا بيان الراجح فيما فيه الخلاف فى أصل المسألة ، وقد ظهر أن الراجح هو الآتى :

أولا : صحة تأثير الخلطة .

ثانيا : اشتراط الأوصاف التى تتحقق بها الخلطة عرفا .

ملحوظة

لقد عرفنا أنصباء بهيمة الأنعام جملة وتفصيلا ، وبقى علينا الإجابة عن سؤال طال ما جال تفكر كل دارس فيه ، وهو ما يقوله جميع الفقهاء : إن المقادير توقيفية ، ومنها أنصباء الزكاة . ومعنى توقيفية : أنه لا اجتهاد فيها ، ولكن هل هى جاءت لغوية ، أو أن بين هذه الأنصباء ارتباط ونسبة مطردة .

الواقع : أنه ، وإن كان الواجب على كل مسلم والذى عليه المسلمون قديما وحديثا هو الامتثال والطاعة ، إلا أننا لما كنا فى عصر مادى والنظام الاقتصادى هو الأصل فى سياسة العالم اليوم ، فإن البعض قد يتطلع إلى الإجابة عن هذا السؤال .

وقد حاولت الإجابة عليه بعمل مقارنة عامة توجد بها نسبة مطردة كالآتى :

أولا : فى النقدين معلوم أن نصاب الذهب عشرون مثقالا ، والفضة مائتا درهم وفى كل منهما ربع العشر ، وكان صرف الدينار عشرة دراهم ، فيكون نصاب الذهب من ضرب عشرين فى عشرة فيساوى مائتين ، فهى نسبة مطردة كما ترى .

وإذا جئنا للنسبة بين الذهب والفضة وهى أصل الأثمان ، وبين الغنم نجد الآتى :

أولا : فى حديث عروة البارقى أن النبى صلى الله عليه وسلم أعطاه دينار ليشترى لهم شاة فذهب وأتاهم بشاة ودينار ، فقال له صلى الله عليه وسلم « ماذا فعلت ؟ فقال اشتريت شاتين بالدينار ، ثم لقينى رجل فقال : أتبيعنى شاة فبعته شاة بدينار ، فقال له صلى الله عليه وسلم : بارك الله لك فى صفقة يمينك » .

معنى هذا أن الدينار قيمته الشرائية تعادل شاتين ، من ضرب عشرين ديناراً فى اثنتين فيساوى أربعين شاة ، وهـذا هو نصاب الغنم ، وفى الأربعين شاة شاة ، وقيمتها الشرائية نصف الدينار ، وهى خمسة دراهم وهى مايؤخذ فى العشرين مثقـالا فاطردت النسبة أيضاً بين الذهب والفضة وبين

أما بين الغنم والإبل فقد وجدنا أن البدنة عن سبع شياه فى الهدى ، ونصاب الإبل خمسة وتضربها فى سبع فيسـاوى خمسه وثلاثين ، ولو جعلت ستاً لكانت تعادل اثنين وأربعين فأخذنا بالأقل احتياطا لحق المسكين ، فكان بيده نصاب الإبل ونصاب الغنم نسبة مطردة .

وكذلك نصاب الغنم ، ونصاب النقدين نسبة مطردة . فظهرت الدقة واطراد النسبة فى الأنصباء .

مايجوز أخذه وما لايجوز أخذه فى الزكاة

اتفقوا على أنه لاتؤخذ الذكور فى الزكاة اللهم إلا ابن لبون لمن لم تكن عنده بنت مخاض .

واختلف فيما لو كان النصاب كله ذكورا ، والواقع أن هذا نادر ، ولكن اتفقوا على أنه لاتؤخذ السخال مع وجوب الاعتداد بها على صاحبها .

كما جاء عن عمر رضى الله عنه : اعتد عليهم بالسخلة يأتى بها الراعى . ولا تأخذها منهم ، ولايجوز أخذ فحل الإبل ولا تيس الغنم ولا الربى ، ولا الحلوبة . لما فى ذلك من المضرة على صاحب المال .

كما لاتؤخذ السخلة ولا العجفاء لما فيه من مضرة المسكين ، والأصل فى ذلك ما رواه مالك رحمه الله فى الموطأ ، قال : اعتد عليهم بالسخلة يحملها الراعى ، ولا تأخذها ولا تأخذ الأكولة ولا الربى ، ولا الماخض ، ولا فحل الغنم ، وتأخذ الجذعة والثنية ، وذلك عدل بين غذاء الغنم وخيارها ، وغذاء الغنم صغارها وخيارها كبارها وأسمنها فهى عدل أى وسط .

وهنا تتحتم كلمة ، يعتبر كل نظام مالى فى العالم نظاماً مادياً بحتاً يقوم على مبانى الأرقام والإحصاء ، فهو جاف فى شكله ، كالجسم بدون

روح إلا نظام الزكاة ، فهو نظام حى له روحه وعاطفته .

فى الوقت الذى يلزم الغنى بدفع قسط للفقير ، يحظر على العامل أن يأخذ فوق ما وجب ، أو أحسن ماوجد .

كما قال صلى الله عليه وسلم : « وإياك وكرائم أموالهم » .

وفى الوقت الذى يدفع الغنى فيه جزءاً من ماله يستشعر أنه يدفعه لوجه الله وينتظر أجره جل وعلا ، فأصبحت الزكاة بين عامل متحفظ ، وبين مالك متطوع عامل يخشى قوله صلى الله عليه وسلم : « واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » ، ومالك يرجو فى الحسنة عشر أمثالها وسبعمائة ، وزيادة مضاعفة .

وقد وقعت قضية مذهلة لم يشهد نظام مالى فى العالم مثلها ، وهى أنه ذهب عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم للصدقة فمر برجل فى قرية قريبة من المدينة بصاحب إبل فحسبها ، فقال لصاحبها : أخرج بنت لبون .

فقال صاحب الإبل : كيف أخرج بنت لبون فى الزكاة ، وهى لاظهر يركب ولا ضرع يحلب ، ولكن هذه ناقة كوماء ، فخذها فى سبيل الله .

فقال العامل : وكيف آخذ شيئاً لم يجب عليك فتلاحيا معاً ، العامل وصاحب المال وأخذا .

قال له العامل : إن كنت ولابد مصراً فهاهو رسول الله صلى الله

عليه وسلم منك قريب بالمدينة . اذهب بها إليه فإن قبلها منك أخذتها ، فذهب بها ، فقال له صلى الله عليه وسلم : أعن طيب نفس ؟ قال نعم يارسول الله . فأمر العامل بأخذها ، فدعا له صلى الله عليه وسلم بالبركة فعاش حتى عهد معاوية فكانت زكاة إبله هذه هى روح الزكاة فى الإسلام لا مايفعله أصحاب الأموال فى النظم الأخرى .

أما نظام الضرائب حيث يتهربون ، ويقللون ويتخذون دفاتر متعددة بعضها لمصلحة الضرائب يقلل فيها دخله وكسبه لتخف الضريبة عليه ، لأنه يراها مغرماً كالجزية ، وبعضها لنفسه ليعرف حقيقة ماله .

أما الزكاة فإن مالكها يقدم زكاتها لوجه الله ليطهر ماله لقوله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) .

وكما قال صلى الله عليه وسلم : « إن أحدكم ليتصدق بالصدقة وإنها لتقع أول ماتقع فى كف الرحمن فينميها له كما ينمى أحدكم فلوه » أى ولد فرسه حتى تكون مثل جبل أحد .

وكما قال صلى الله عليه وسلم : « مانقصت صدقة من مال » .

زكاة الفطر

إن أهم مباحث زكاة الفطر هو الآتى :

أولا : حكمها صدر تشريعها .

ثانياً . على من تكون .

ثالثاً : مِمَّ تكون .

رابعاً : كم تكون .

خامساً : متى تكون .

سادساً : هل تجزىء فيها القيمة أم لا ؟

وكذلك القيمة فى غيرها من الزكوات .

أما حكمها فهى فرض عين عند أحمد والشافعى ، وعند أبى حنيفة هى واجب على اصطلاحه ، أى ماوجب بالسنة .

وعند المالكية واجبة ، وقيل : سنة .

قال فى مختصر خليل بن إسحاق : يجب بالسنة صاع . إلخ .

والسبب فى اختلافهم هذا هل هى داخلة فى عموم (وآتوا الزكاة) أى شرعت بأصل مشروعية الزكاة فى الكتاب والسنة أم أنها شرعت بنص مستقل عنها .

فمن قال بفرضيتها قال : إنها داخلة فى عموم إيجاب الزكاة ، ومن قال بوجوبها ، فهذا اصطلاح للأحناف . ولا يختلف الأمر فى نتيجة التكليف إلا أن عندهم لا يكفر بجحودها .

وقال المالكية : يجب بالسنة صاع من بر إلخ . أى أن وجوبها بالسنة لا بالكتاب .

وعندهم : لا يقاتل أهل بلد على منعها ، ويقتل من جحد مشروعيتها ، وهذا هو الفرق بينهم وبين الأحناف .

ولكن فى عبـــارة مالك فى الموطأ إطلاق الوجوب أنه قال : أحسن ماسمعت فيما يجب على الرجل من زكاة الفطر أن الرجل يؤدى ذلك عن كل من يضمن نفقته . إلخ .

ومن أسباب الخلاف بين الأئمة رحمهم الله نصوص السنة منها قولهم : فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير . الحديث .

فلفظه فرض : أخذ منها من قال بالبرضية ، وأخذ منها الآخرون، بمعنى قدر ، لأن الفرض القدر والقطع .

وحديث قيس بن سعد بن عبادة عند النسائى قال :

« أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة الفطر قبل أن تنزل

الزكاة ، فلما نزلت الزكاة لم يأمرنا ولم ينهنا ونحن نفعله » .

فمن قال بالوجوب والفرض . قال : الأمر للأول للوجوب ، وفرضية زكاة المال شملتها بعمومها . فلم يحتج معها لتجديد أمر ولم تنسخ فنهى عنها ، وبقيت على الوجوب .

الأول وحديث : « فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين من أداها قبل الصلاة فهى زكاة مقبولة ، ومن أداها بعد الصلاة فهى صدقة من الصدقات» فمن لم يقل بفرضيتها قال : إنها طهرة للصائم وطعمة للمساكين ، فهى لعلة مربوطة بها وتفوت بفوات وقتها ، ولو كانت فرضاً لما فاتت بفوات الوقت . وأجاب الآخرون بأن ذلك على سبيل الحث على المبادرة لأدائها ، ولا مانع من أن تكون فرضاً وأن تكون طهرة .

ويشهد لهذا قوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) ، فهى فريضة وهى طهرة . والراجح من ذلك كله أنها فرض للفظ الحديث .

« فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر صاعا من بر » لأن لفظ فرض إن كان ابتداء فهو للوجوب وإن كان بمعنى قدر ، فيكون الوجوب بعموم آيات الزكاة ، وهو أقوى .

وحديث « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بصدقة الفطر

صاعا من تمر » الحديث رواه أبو داود . والأمر للوجوب ولا صارف له هنا .

وقد قال النووى : إن القول بالوجوب هو قول جمهور العلماء ، وهذا هو القول الذى تبرأ به الذمة ويخرج به العبد من العهدة ، والله تعالى أعلم .

أما مِمَّ تكون : فالأصل فى ذلك أثر أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ورواه مالك فى الموطأ عنه .

قال : كنا نخرج صاعا من طعام أو صاعا من أقط أو صاعا من شعير أو صاعا من تمر أو صاعا من زبيب .

وجاء لفظ السلت ، وجاء لفظ الدقيق وجاء لفظ السويق . فوقف قوم عند المنصوص عليه فقط وهم الظاهرية . ونظر الجمهور إلى عموم الطعام والغرض من مشروعيتها على خلاف فى التفصيل عند الأئمة رحمهم الله كالآتى :

أولا : عند الشافعية يجوز إخراجها من كل قوت لأثر أبى سعيد ، وفيه لفظ الطعام .

ثانياً : من غالب قوت المكلف بها ، لأنها الفاضل عن قوته .

ثالثاً : من غالب قوت البلد ، لأنها حق يجب فى الذمة تعلق بالطعام كالكفارة .

وقال النووى : تجوز من كل حب معشر ، وفى الأقط خلاف عن الشافعى المالكية .

روى مالك فى الموطأ حديث أبى سعيد المتقدم . وقال الباجى فى شرحه : تخرج من القوت ، ونقل عن مالك فى المختصر : يؤديها من كل ماتجب فيه الزكاة إذا كان ذلك من قوته . وهو مثل قول النووى من كل حب معشر . وناقش الباجى مسألة إجزائها من الأرز والذرة والدخن . فقال : لا تجوز منها عند أشهب ويجوز عند مالك . وناقش القطانى ، الحمص ، والترمس ، والجلبان ، فقال : مالك : يجوزها إذا كانت قوته ، وابن حبيب : لا يجوزها لأنها ليست من المنصوص .

واتفق مذهب المالكية أن المطعوم الذى يضاف إلى غيره كالأبازير : كزبرة وكمون ونحوه أنها لا تجزىء .

الحنابلة قال فى المغنى : من كل حبة وتمرة تقتات .

وقال فى الشرح : أى عند عدم الأجناس المنصوص عليها ، فيجزىء كل مقتات من الحبوب والثمار .

قال : وظاهر هذا أنه لايجزئه المقتات من غيرها كاللحم واللبن ، وعند انعدام هذه أيضاً يعطى ما قام مقام الأجناس المنصوص عليها .

وعن ابن حامد عندهم : حتى لحم الحيتان والأنعام ، ولايردون إلى

أقرب قوت الأمصار ، ويجزىء الأقط لأهل البادية إن كان قوتهم. وعندهم من قدر على المنصوص عليه فأخرج غيره لم يجزه .

الأحناف : تجوز من البر والتمر والشعير والزبيب والسويق والدقيق. ومن الخبز مع مراعاة القيمة ، وتجوز القيمة عندهم عوضاً عن الجميع مع الاختلاف عندهم فى مقدار الواجب من هذه الأصناف بين الصاع أو نصف الصاع على ما يأتى إن شاء الله .

وقد ناقشهم ابن قدامة فى المغنى عند قوله :

ومن أعطى القيمة لم تجزئه ، ونقل عن أحمد أخاف ألا تجزئه خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبهذا العرض نجد الأئمة رحمهم الله اتفقوا على المنصوص عليه فى أثر أبى سعيد ، وزاد بعضهم من غير المنصوص عليه غير المنصوص .

إما بعموم لفظ الطعام ، وإن كان يراد به عرفا القمح ، إلا أن العبرة بعموم اللفظ وهو العرف اللغوى .

وإما بعموم مدلول المعنى العـــام ، والخلاف فى الأقط . والنص يقضى به .

وانفرد الأحناف بالقول بالقيمة وبالنظر إلى المعنى العام لمعنى الزكاة ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « طعمة للمسكين وطهرة للصائم » .

وقوله : اغنوهم بها عن السؤال . لوجدنا إشارة إلى جواز إخراجها من كل ماهو طعمة للمساكين ولا نحده بحد أو نقيده بصنف ، فإلحاق غير المنصوص بالمنصوص بجامع العلة متجه ، أما القيمة ، فقد ناقش مسألتها صاحب فتح القدير شرح الهداية فى باب زكاة الأموال ، وعمدة أدلتهم الآتى .

أولا : بين الجذعة والمسنة فى الإبل بشاتين .

ثانياً : قول معاذ لأهل اليمن : « ائتونى بخميس أو لبيس مكان الذرة والشعير ؟ أهون عليكم ، وخير لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم » رواه البخارى ؟

ثالثاً : رأى النبى صلى الله عليه وسلم ناقة حسنة فى إبل الصدقة ، فقال « ماهذه ؟ قال صاحب الصدقة : إنى ارتجعتها ببعيرين من حواشى الإبل ؟ . قال : نعم »

رابعاً : مثلها مثل الجزية يؤخذ فيها قدر الواجب كما تؤخذ عينه .

والجواب عن هذا كله كالآتى :

أما التعويض بين الجذعة والمسنة أو الحقة إلى آخره فى الإبل بشاتين أو عشرين درهما ، وهو المنصوص فى حديث أنس فى كتاب الأنصباء المتقدم ، ونصه : ومن بلغت عنده من الإبل صدقة الجذعة وليست عنده ، وعنده حقة ، فإنه تقبل منه الحقة ، ويجعل معها شاتين

أو عشرين درهما ، ومن بلغت عنده صدقة الحقة وليست عنده ، وعنده الجذعة ، فإنها تقبل منه ويعطيه المصدق عشرين درهما أو شاتين ، ومن بلغت عنده صدقة الحقة وليست عنده إلا ابنة لبون فإنها تقبل منه ابنة لبون ويعطى شاتين أو عشرين درهما . إلى آخر الحديث .

فليس فى هذا دليل على قبول القيمة فى زكاة الفطر . لأن نص الحديث فمن وجبت عليه سن معينة وليست عنده ، وعنده أعلى أو أنزل منها فللعدالة بين المالك والمسكين جعل الفرق لعدم الحيف ، ولم يخرج عن الأصل وليس فيه أخذ القيمة مستقلة . بل فيه أخذ الموجود ثم جبر الناقص .

فلو كانت القيمة بذاتها وحدها تجزىء لصرح بها صلى الله عليه وسلم .

ولا يجوز هذا العمل إلا عند افتقاد المطلوب ، والأصناف المطلوبة فى زكاة الفطر إذا عدمت أمكن الانتقال إلى الموجود مما هو من جنسه لا إلى القيمة ، وهذا واضح .

وقال ابن حجر رحمه الله فى الفتح : لو كانت القيمة مقصودة لاختلفت حسب الزمان والمكان ، ولكنه تقدير شرعى .

أما قول معاذ لأهل اليمن : ائتونى بخميس أو لبيس مكان الذرة والشعير . فقد ناقشه ابن حجر فى الفتح من حيث السند والمعنى . ولكن السند ثابت ، أما المعنى ، فقيل : إنه فى الجزية .

ورد هذا بأن فيه مكان الذرة والشعير ، والجزية ليست منها .

وقيل : إنه بعد أن يستلم الزكاة الواجبة من أجناسها يستبدلها من باب البيع والمعاوضة عملا بما فيه المصلحة للطرفين .

وقيل : إنه اجتهاد منه رضى الله عنه ، ولكنه اجتهاد أعرفهم بالحلال والحرام إلى غير ذلك .

والصحيح الثانى : أنه تصرف بعد الاستلام وبلوغها محلها ولا سيما مع نقلها إلى المدينة بخلاف زكاة الفطر فليست تنقل ابتداء ، ولأن مهمة زكاة المال أهم من مهمة زكاة الفطر ، ففيها النقدان والحيوان .

أما زكاة الفطر فطعمة للمسكين فى يوم الفطر فلا تقاس عليها .

أما الناقة الحسنة التى رآها صلى الله عليه وسلم ، وأنها بدل من بعيرين ، فهو من جنس الاستبدال بالجنس وعملا للمصلحة لم تخرج عن جنس الواجب .

وأما الجزية يؤخذ منها قدر الواجب فلا دليل فيه ، إذ زكاة الفطر فيها جانب تعبد وارتباط بركن فى الإسلام .

وأما الجزية فهى عقوبة على أهل الذمة عن يد وهم صاغرون ، فأيما أخذ منهم فهو وافٍ بالغرض ، فلم يبق للقائلين بالقيمة فى زكاة الفطر مستند صالح فضلا عن عدم النص عليها .

وختاماً : إن القول بالقيمة فيه مخالفة للأصول من جهتين :

الجهة الأولى : أن النبى صلى الله عليه وسلم لما ذكر تلك الأصناف لم يذكر معها القيمة ولو كانت جائزة لذكرها مع ماذكر ، كما ذكر العوض فى زكاة الإبل ، وهو صلى الله عليه وسلم أشفق وأرحم بالمسكين من كل إنسان .

الجهة الثانية : وهى القاعدة العامة ، أنه لاينتقل إلى البدل إلا عند فقد المبدل عنه ، وأن الفرع إذا كان يعود على الأصل بالبطلان فهو باطل .

كما رد ابن دقيق العيد على الحنابلة قولهم : إن الاشنان يجزىء عن التراب فى الولوغ . أى لأنه ليس من جنسه ويسقط العمل به .

وكذلك لو أن كل الناس أخذوا بإخراج القيمة لتعطل العمل بالأجناس المنصوصة ، فكأن الفرع الذى هو القيمة سيعود على الأصل الذى هو الطعام بالإبطال ، فيبطل .

ومثل مايقوله بعض الناس اليوم فى الهدى بمنى مثلا بمثل ، علماً بأن الأحناف لايجيزون القيمة فى الهدى ، لأن الهدى فيه جانب تعبد ، وهو النسك .

ويمكن أن يقال لهم أيضاً : إن زكاة الفطر فيها جانب تعبد طهرة للصائم وطعمة للمساكين ، كما أن عملية شرائها ومكيلتها وتقديمها

فيه إشعار بهذه العبادة . أما تقديمها نقداً فلا يكون فيها فرق عن أى صدقة من الصدقات ، من حيث الإحساس بالواجب والشعور بالإطعام .

وقد أطلنا الكلام فى هذه المسألة ، لأن القول بالقيمة فيها جرء الناس على ماهو أعظم ، وهو القول بالقيمة فى الهدى وهو مالم يقله أحد على الإطلاق حتى ولا الأحناف .

بيان القدر الواجب فى زكاة الفطر

اتفق الجميع على أن الواجب فى زكاة الفطر على كل شخص عن نفسه ، إنما هو صاع بصاع النبى صلى الله عليه وسلم من جميع الأصناف المتقدم ذكرها .

وخالف أبوحنيفة فى القمح ، فقال : نصف الصاع فقط منها يكفى . وسيأتى بيان الراجح فى ذلك إن شاء الله .

ثم اختلفوا بعد ذلك فى مقدار الصاع الواجب من حيث الوزن . فقال الجمهور : هو خمسة أرطال وثلث .

وقال أبو حنيفة : هو ثمانية أرطال ، وخالفه أبو يوسف ، ووافق الجمهور .

أما مقدار الصاع ، فهو فى العرف الكيل ، وهو أربع حفنات

بكفى رجل معتدل الكفين ، ولتفاوت الناس فى ذلك عمد العلماء إلى بيان مقداره بالوزن .

وقد نبه النووى أن المقدار بالوزن تقريبى ، لأن المكيلات تختلف فى الوزن ثقلا وخفة ، باختلاف أجناسها كالعدس والشعير مثلا ، وما كان عرفه الكيل لايمكن ضبطه بالوزن ، ولكنه على سبيل التقريب .

ولهذا المعنى قال صاحب المغنى : إن من أخرج الزكاة بالوزن عليه أن يزيد بالقدر الذى يعلم أنه يساوى الكيل ولا سيما إذا كان الموزون ثقيلا .

ونقل عن أحمد أن من أخرج وزن الثقيل من الخفيف يكون قد أخرج الواجب بالتأكيد .

أقوال العلماء فى وزن الصاع

قال الجمهور : هو خمسة أرطال وثلث الرطل بالعراق .

وقال أبوحنيفة رحمه الله : هو ثمانية أرطال ، وخالفه أبويوسف كما تقدم ، وسبب الخلاف هو أن أبا حنيفة أخذ بقول أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ بمد ، وهو رطلان ، ومعلوم أن الصاع أربعة أمداد ، فعليه يكون ثمانية أرطال .

ودليل الجمهور : هو أن الأصل فى الكيل هو عرف المدينة ،

كما أن الأصل فى الوزن هو عرف مكة ، وعرف المدينة فى صاع النبى صلى الله عليه وسلم أنه خمسة أرطال وثلث .

كما جاء عن أحمد رحمه الله قال : أخذت الصاع من أبى النضر.

وقال أبو النضر : أخذته عن أبى ذؤيب .

وقال : هذا صاع النبى صلى الله عليه وسلم الذى يعرف بالمدينة .

قال أبو عبد الله : فأخذنا العدس فعبرنا به ، وهو أصلح ما وقفنا عليه يكال به ، لأنه لايتجافى عن موضعه ، فكلنا به ، ثم وزناه ، فإذا هو خمسة أرطال وثلث ، وقال : هذا أصلح ماوقفنـــا عليه ، وما تبين لنا من صاع النبى صلى الله عليه وسلم .

وإذا كان الصاع خمسة أرطال وثلثا من البر والعدس وهما أثقل الحبوب ، فما عداهما من أجناس الفطرة أخف منهما فإذا أخرج منهما خمسة أرطال وثلث فهى أكثر من صاع .

وقال النووى : نقل الحافظ عبد الحق فى كتاب الأحكام عن أبى محمد بن على ابن حزم أنه قال : وجدنا أهل المدينة لايختلف منهم اثنان فى أن مد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يؤدى به الصدقات ليس بأكثر من رطل ونصف ولا دون رطل وربع .

وقال بعضهم : هو رطل وثلث ، وقال : ليس هـذا اختلافا ، ولكنه على حسب رزنه بالراء أى رزانته وثقله من البر والتمر والشعير

قال: وصاع ابن أبى ذؤيب خمسة أرطال وثلث وهو صاع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن أدلة الجمهور وسبب رجوع أبى يوسف عن قول أبى حنيفة ماجاء فى المغنى وغيره أن أبا يوسف لما قدم المدينة وسألهم عن الصاع فقالوا : خمسة أرطال وثلث ، فطالبهم بالحجة فقالوا : غداً ، فجاء من الغد سبعون شيخاً كل واحد منهم أخذ صاعا تحت ردائه ، فقال : صاعى ورثته عن أبى وورثه أبى عن جدى ، حتى انتهوا به إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخذ أبو يوسف يقارنها فوجدها كلها سواء ، فأخذوا واحداً منها وعايره بالماش وهو العدس غير المدشوش ، فكان خمسة أرطال وثلثا ، فرجع إلى قول أهل المدينة .

وفى تلك القصة أنه رجع إلى العراق فقال لهم : أتيتكم بعلم جديد الصاع خمسة أرطال وثلث فقالوا له : خالفت شيخ القوم فقال : وجدت أمراً لم أجد له مدفعا .

أما وزن الرطل العراقى فأساس الوحدة فيه هى الدرهم ، وقد ذكر النووى عنه ثلاثة أقوال :

الأول : أنه مائة وثلاثون درهما بدراهم الإسلام .

والثانى : أنه مائة وثمانية وعشرون .

والثالث : أنه مائة وثمانية وعشرون درهما وأربعة أسباع درهم وهى تسعون مثقالا .

وقال فى المغنى : وقد زادوه مثقالا فصار واحداً وتسعين مثقالا ، وكمل به مائة وثلاثون درهما ، وقصدوا بهذه الزيادة إزالة كسر الدرهم .

ثم قال : والعمل الأول .

أما بالنسبة لبقية الأرطال فى الأمصار الأخرى ، فكالآتى نقلا من كشاف القناع :

الرطل البغلى تسعمائة درهم .

والقدسى ثمانمائة .

والحلبى سبعمائة وعشرون .

والدمشقى ستمائة .

والمصرى مائة وأربعة وأربعون . وكل رطل اثنا عشر أوقية فى سائر البلاد ، مقسوم عليها الدراهم .

وعليه فالصاع يساوى ستمائة وخمسة وثمانين وخمسة أسباع الدرهم ، وأربعمائة وثمانين مثقالا .

وعليه أيضاً يكون الصاع بالأرطال الأخرى . هو المصرى أربعة أرطال وتسع أواق وسبع أوقية ، وبالدمشقى رطل وخمسة أسباع أوقية. وبالحلبى أحد عشر رطلا وثلاثة أسباع أوقية ، وبالقدسى عشر أواق وسبعا أوقية .

وإذا كانت موازين العالم اليوم قد تحولت إلى موازين فرنسية ،

وهى بالكيلوجرام ، والكيلو ألف جرام ، فلزم بيان النسبة بالجرام ، وهى أن :

المكيلات تتفاوت ثقلا وكثافة ، فأخذت الصاع الذى عندى وعايرته أولا على صاع آخر قديماً فوجدت أمراً ملفتاً للنظر عند المقارنة ، وهو أن الصاع الذى عندى يزيد عن الصاع الآخر قدر ملء الكف ، فنظرت فإذا القدر الذى فوق فتحة الصاعين مختلفة ، لأن أحد الصاعين فتحته أوسع . فكان الجزء المعلى فوق فتحته يشكل مثلثاً قاعدته أطول من قاعدة المثلث فوق الصاع الآخر فعايرتهما مرة أخرى على حد الفتحة فقط بدون زيادة فكانا سواء . فعايرتهما بالماء حيث أن الماء لايختلف وزنه غالباً مادام صالحاً للشرب وليس مالحاً ، وأنه لايسمح بوجود قدر زائد فوق الحافة ، فكان وزن الصاع بعد هـذا التأكد هو بالعـدس المجروش ٢ر٦٠٠ كيلوين وستمائة جرام .

وبالماء ٣ر١٠٠ ثلاثة كيلوات ومائة جرام .

وأرجو أن يكون هذا العمل كافياً لبيان الوزن التقريبى للصاع النبوى فى الزكاة .

زكاة الورق المتداول

من المعلوم أن التعامل بالورق بدلا عن الذهب والفضة أمر قد حدث بعد عصور الأئمة الأربعة وعصور تدوين الفقـــه الإسلامى ،

وما انتشرت إلا فى القرن الثامن عشر ميلادياً فقط ، ولهذا لم يكن لأحد الأئمة رحمهم الله رأى فيها ، ومنذ أن وجدت وعلماء المسلمين مختلفون فى تقييمها وفى تحقيق ماهيتها مابين كونها سندات عن ذهب أو فضة أو عروض تجارة أو نقد بذاتها .

والخلاف فى ذلك مشهور ، وإن كان الذى يظهر والله تعالى أعلم : أنها وثائق ضمان من السلطان .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه إبداء وجهة نظره فيها فى الربا ، وهل يباع بها الذهب والفضة نسيئة أم لا ؟

ومهما يكن من نظريات فى ماهيتها ، فإنها بانفاق الجميع تعتبر مالا ، وهى داخلة فى عموم قوله تعالى : (وفى أموالهم) لأنها أصبحت ثمن المبيعات وعوض السلع .

فعليه تكون الزكاة فيها واجبة ، والنصاب بالنسبة إليها يعتبر بما يشترى بها من ذهب وفضة فى أى عملة كانت هى .

ففى السعودية مثلا ينظر كم يشترى بها عشرون مثقالا ذهباً أو مائتا درهم فضة ، فيعتبر هذا القدر هو النصاب ، وفيه الزكاة وهو ربع العشر سواء بسواء .

وهكذا مثل الاسترلينى ، والروبية والدولار ، لأن كل عملة من

ذلك وثيقة ضمان من السلطان الذى أصدرها أى الدولة التى أصدرتها . سواء قيل إن الزكاة فيما ضمنته تلك الوثيقة ، أو فيها بعينها ، أو فى قيمتها كعرض ، فهى لن تخرج بحال من الأحوال عن دائرة التمول والاستبدال ، وإن تحصيل الفقير لشىء منها أيا كانت فإنه بها سيحصل على مطلوبه من مأكل وملبس وما يشاء من مصالح وفق ما يحصل عليه بعين الذهب والفضة .

وفى هذا رد على من يقول . لازكاة فيها ، لأنها ليست بنقد ذهب ولا فضة ، ولايخفى أن إسقاط الزكاة عنها إسقاط للزكاة من أغلبية العالم ، إن لم يكن من جميعه .

تنبيه

سبق أن سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى موضوع زكاة العروض فى قول المالكية :

يشترط أن ينض فى يد التاجر المدير ولو درهما أثناء الحول وإلا لما وجبت عليه زكاة فى عروض تجارته .

فقال رحمة الله تعالى علينا وعليه : لو كان مالك رحمه الله موجوداً اليوم لم يقل ذلك ، لأن العالم اليوم كله لايكاد يعرف إلا هذه الأوراق ، وقد لاينض فى يده درهم واحد فضة . ويترتب على ذلك إسقاط الزكاة عن عروض التجارة وهى غالب أموال الناس اليوم .

فكذلك يقال لمن لايرى الزكاة فى الأوراق النقدية أنه يترتب عليه باطل خطير ، وهو تعطيل ركن الزكاة وحرمان المسكين من حقه المعلوم فى أموال الأغنياء ، وما ترتب عليه باطل . فهو باطل .

ولعلنا بهذا العرض الموجز ، نكون قد أوردنا عجالة مابقى من مبحث الزكاة ، وإن لم يكن على سبيل التفصيل المعهود من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، فقد قدمنا أنه لن يجارى فى تفصيله ، وأن تتبع الجزئيات فى هذا المبحث سيطيل الكتابة ، وهو بحمد الله مبسوط فى كتب الفقه ، وإنما قصدنا بيان أهم المسائل ، وبيان ماهو الراجح فيما اختلف فيه ، وبالله تعالى التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ .

يوم الدين هو يوم الحساب ، كما تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة الفاتحة .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ .

أى خائفون ، كما بينه تعالى بقوله : (ولمن خاف مقـــام ربه جنتان) .

وقوله : (قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم) .

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند (قد أفلح المؤمنون)، وما بعدها، وفى سورة النساء، وبين أن كل مبتغ وراء الزوجة وملك اليمين فهو داخل تحت قوله: (فأولئك هم العادون)، وخاصة من قال: بنكاح المتعة. لأن المستمتع بها ليست زوجة وليست أمة مملوكة.

تنبيـــــه

والجدير بالذكر أنه لم يبق من يقول بنكاح المتعة كمذهب لطائفة ما، إلا الشيعة بصرف النظر عمن خالف الإجماع من غيرهم، ولكن الشيعة أنفسهم شبه متناقضين فى كتبهم، إذ ينص الحللى وهو من أئمتهم، فى باب النكاح: أن للحر وللعبد على السواء أن ينكح نكاحاً مؤقتاً، وهو نكاح المتعة بأى عدد شاء من النساء وبدون حد، فجعل هذا العقد كملك اليمين، والحال أن المعقود عليها حرة، وهذا متناقض.

وفى كتاب الطلاق، قال: إن المطلقة ثلاثا لا يحلها لزوجها الأول إلا أن تنكح زوجاً غيره فى نكاح دائم وليس مؤقتا.

وهنا يقال لهم: إما أن تعتدوا بنكاحها الثانى المؤقت فيلزم أن

يحلها للأول لأنه تعالى قال: (حتى تنكح زوجاً غيره) فإن اعتبرتموه نكاحاً لزم إحلالها به للزوج الأول. وإن لم تعتبروه نكاحاً لزمكم القول ببطلانه وهو المطلوب.

وبهذا يظهر أن مبتغى وراء ذلك، أى أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم هم العادون.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾.

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه فى أول سورة (قد أفلح المؤمنون).

وفى المسألة السادسة من مسائل مبحث: (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾.

قرىء بشهاداتهم بالجمع وقرىء بشهادتهم بالإفراد، فقيل: إن الإفراد يؤدى معنى الجمع للمصدر كما فى قوله: (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير)، فأفرد فى الصوت مراداً به الأصوات.

وقيل: الإفراد لشهادة التوحيد مقيمون عليها. والجمع لتنوع الشهادات بحسب متعلقها، ولا تعارض بين الأمرين فما يشهد لذلك قوله تعالى: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا).

قال أبوبكر رضى الله عنه : أى داموا على ذلك حتى ماتوا عليه .

ويدل للثانى عمومات آية الشهادة المتنوعة فى البيع والطلاق والكتابة فى الدين وغير ذلك ، والله تعالى أعلم .

وفى هذه الآية عدة مسائل :

المسألة الأولى : أطلق القيام بالشهادة هنا وبين أن قيامهم بها إنما هو لله فى قوله تعالى : (وأقيموا الشهادة لله) .

وقوله : (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم) .

المسألة الثانية قوله : (بشهاداتهم قائمون) فى معرض المدح ، وإخراجهم من وصف (إن الإنسان خلق هلوعا) يدل بمفهومه أن غير القائمين بشهاداتهم غير خارجين من ذلك الوصف الذميم .

وقد دلت آيات صريحة على هذا المفهوم ، منها قوله تعالى : (ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه) .

وقوله : (، لا نكتم شهادة الله إنا إذاً لمن الآثمين) .

وكذلك فى معرض المدح فى وصف عباد الرحمن فى قوله : (والذين لايشهدون الزور) .

وفى الحديث « من عظم جرم شهادة الزور ، وكان صلى الله عليه وسلم

متكئا فجلس ، فقال : ألا وشهادة الزور ، ألا وشهـادة الزور ، فمـا زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » .

تنبيـــــــه

قوله : (والذين هم بشهاداتهم قائمون) يفيد القيـام بالشهـادة مطلقاً ، وجاء قوله : (ولا يأبى الشهـداء إذاما دعوا) فقيد القيـام بالشهادة بالدعوة إليها .

وفى الحديث « : خير الشهود من يأتى بالشهادة قبل أن يسألها » .

وفى حديث آخر فى ذم المبادرة بها ، ويشهدون قبل أن يستشهدوا . وقد جمع العلماء بين الحديثين بأن الأول فى حالة عدم معرفة المشهود له بما عنده له من شهادة ، أو يتوقف على شهادته حق شرعى كرضاع وطلاق ونحوه ، والثانى بعكس ذلك .

وقد نص ابن فرحون أن الشهادة فى حق الله على قسمين ، قسم تستديم فيه الحرمة كالنكاح والطلاق ، فلا يتركها ، وتركها جرحة فى عدالته ، وقسم لا تستديم فيـه الحرمة كالزنى والشرب ، فإن تركهـا أفضل مالم يدع لأدائهـا . لحديث هزال فى قصة ماعز حيث قال له صلى الله عليه وسـلم : « هلا سترته بردائك » .

المسألة الثالثة : مواطن الشهادة الواردة فى القرآن ، والتى يجب القيام فيها ، نسوقها على سبيل الإجمال .

الأول : الإشهاد فى البيع فى قوله تعالى : (وأشهدوا إذا تبايعتم) .

الثانى : الطلاق ، والرجعة لقوله تعالى : (فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم)

الثالث : كتابة الدين لقوله تعالى : (فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم) الآية .

الرابع : الوصية عند الموت لقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم) الآية .

الخامس : دفع مال اليتيم إليه إذا رشد ، لقوله تعالى : (فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم) .

السادس : إقامة الحدود لقوله تعالى وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) .

السابع : فى السنة عقد النكاح لقوله صلى الله عليه وسلم : « لانكاح إلا بولى وشاهدى عدل » ، وهذه كلها مواطن هامة تتعلق بحق الله وحق العباد من حفظ للمال والعرض والنسب ، وفى حق الحى والميت واليتيم والكبير ، فهى فى شتى مصالح الأمة استوجبت الحث على القيام بها (والذين هم بشهاداتهم قائمون والتحذير من كتمانها (ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه) .

وقوله : (ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله) .

وقوله : (ولا يأبى الشهداء إذا ما دعوا) .

المسألة الرابعة : قوله تعالى : (والذين هم بشهاداتهم قائمون) كلها صيغ الجمع ، والشهادة قد تكون من فرد ، وقد تكون من اثنين ، وقد تكون من ثلاثة ، وقد تكون من أربعة ، وقد تكون من جماعة .

وجملة ذلك أن الشهادة فى الجملة من حث الشاهد تكون على النحو الآتى : إجمالا رجل واحد ، ورجل ويمين ، ورجل وامرأتان ، ورجلان ، وثلاثة رجال ، وأربعة ، وطائفة من المؤمنين ، وامرأة ، وامرأتان ، وجماعة الصبيان .

وقد جاءت النصوص بذلك صريحة . أما الواحد ، فقال تعالى : (وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قُدَّ من قُبل) .

فهو ، وإن كان ملفت النظر إلى القرنية فى شق القميص ، إلا أنه شاهد واحد .

وجاء فى السنة : شهادة خزيمة رضى الله عنه ، لما شهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بشراء الفرس من الأعرابى ، وجعلها صلى الله عليه وسلم بشهادة رجلين .

وجاءت السنة بثبوت شهادة الطبيب والقائف والخارص ونحوهم .

وجاء فى ثبوت رمضان ، فقد قبل صلى الله عليه وسلم شهادة أعرابى ، وقبل شهادة عبد الله بن عمر سواء كان قبولها اكتفاء بها أو احتياطا لرمضان .

وأما شهادة الرجل الواحد ويمين المدعى ، فلحديث ابن عباس « قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاهد واليمين » وتكلم عليه ابن عبد البر ، وأطال فى تصحيحه وتوجيهه .

وعند مالك ومذهب لأحمد شهادة امرأتين ، ويمين المدعى ، وخالفهما الجمهور .

وأما شهادة رجل وامرأتين ، فلقوله تعالى : (فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء) .

وبين تعالى توجيه ذلك بقوله : (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) .

وبهذا النص رد الجمهور مذهب مالك ، والمذهب المحكى عن أحمد لأنه لم ينقل إلا أربع نسوة ولم تستقل النسوية بالشهادة .

وأما شهادة الرجلين فلقوله تعالى : (واستشهدوا شهيدين من رجالكم) .

وأما ثلاثة رجال ، فلقوله صلى الله عليه وسلم فى إثبات القافة والإعسار . حتى يقوم ثلاثة من ذوى الحجا من قومه ، فيقولون لقد

أصابت فلانا فاقة . الحديث ، وهو حديث قبيصة عند مسلم وأحمد .

وأما الأربعة ففى إثبات الزنا خاصة ، وقد بين الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ذلك فى أول سورة النور .

وأما الطائفة ففى إقامة الحدود لقوله تعالى : (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) .

وأما شهادة المرأة ففى أحوال النساء خاصة ، كما فى حديث عقبة ابن الحارث : « جاءت امرأة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : إنى أرضعتهما ، فقال له صلى الله عليه وسلم فارقها ، فقال : كيف أفارقها لقول امرأة ؟ فقال له : كيف وقد قيل ؟ » وقد وقع الخلاف فى قبول شهادتها وحدها ولكن الصحيح ماقدمنا .

وأما المرأتان فعند من لم يقبل شهادة المرأة ، وقيل عند استهلال الصبى ، لأن الغالب حضور أكثر من واحدة .

وأما جماعة الصبيان ففى جناياتهم على بعضهم ، وقبل أن يتفرقوا ولم يدخل فيهم كبير . وفيه خلاف .

ورجح الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه العمل بها فى مذكرة أصول الفقه ، فى مبحث رواية الصغار .

المسألة الخامسة : اتفقوا أنه لادخل للنساء فى الشهادة فى الحدود ،

وإنما تكون فى المال أو مايؤول إلى المال ، وفيما يتعلق بما تحت الثياب من النساء .

وفى الشهادة مباحث عديدة مبسوطة فى كتب الفقه وكتب القضاء ، كتبصرة الحكام لابن فرحون وغيره .

وقد بسط ابن القيم الكلام عليها فى الطرق الحكمية وابن فرحون فى تبصرة الحكام لمن أحب الرجوع إليه ، ولكن مما لابد منه هو شروط الشاهد المعتبرة ، وكلها تدور على ماتحصل به الطمأنينة إلى الحق المشهود به لأمرين أساسيين هما الضبط ، كما فى قوله تعالى فى حق النسوة (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) .

والثانى العدالة والصدق ، كما فى قوله تعالى : (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) .

وهنا مبحث مشهور ، وهو : هل الأصل فى المسلمين العدالة حتى تظهر جرحه أم العكس ؟

والصحيح الأول .

وقد كان العمل على ذلك إلى أن جاء رجل من العراق لعمر رضى الله عنه فقال له : أدرك الناس لقد تفشت شهادة الزور . فقال عمر : بتزكية الشهود وإثبات عدالتهم .

وقد أورد ابن فرحون فى مراتب الشهود إحدى عشرة مرتبة وهى :

الأولى : الشاهد المبرز فى العدالة العالم بما تصح به الشهادة ، فتجوز شهادته فى كل شىء ، وتجريحه ولايسأل عن كيفية علمه بما شهد به من ذلك كله إذا أبهمه ، ولا يقبل فيه التجريح إلا بالعداوة .

الثانية : المبرز فى العدالة غير العالم بما تصح به الشهادة ، فحكمه كالأول ، إلا أنه يسأل عن كيفية علمه بما شهد به إذا أبهم ذلك .

الثالثة : الشاهد المعروف بالعدالة العالم بما تصح به الشهادة ، فتجوز شهادته إلا فى ستة مواضع على اختلاف فى بعضها ، وهى التزكية ، شهادته لأخيه ولمولاه ولصديقه الملاطف ولشريكه فى غير التجارة ، وإذا زاد فى شهادته أو نقص فيها ، ويقبل فيه التجريح بالعداوة وغيرها ، ولايسأل عن كيفية علمه بما شهد به إذا أبهم ذلك .

الرابعة : المعروف بالعدالة غير العالم بما تصح به الشهادة ، حكمه كذلك إلا أنه يسأل عن كيفية علمه بما شهد به إذا أبهم ذلك .

الخامسة : الشاهد المعروف بالعدالة إذا قذف قبل أن يحد فاختلف فى قبول شهادته ، وأجازها ابن القاسم ، وهو مذهب مالك .

السادسة : الذى يقوسم فيه العدالة تجوز دون تزكية فيما يقع بين المسافرين فى السفر من المعاملات ، وفيما عدا ذلك لابد من تزكيته ، لأنه هو المعروف بمجهول الحال .

والصحيح أن مثله لابد من التحرى عنه حتى ينكشف أمره .

السابعة : الذى لا يتوسم فيه العدالة ولا الجرحة فلا تجوز شهادته فى موضع من المواضع دون تزكية ، إلا أن شهادته تكون شبيهة فى بعض المواضع عند بعض العلماء ، فتوجب اليمين وتوجب الحميل وتوقيف الشىء على المدعى عليه .

الثامنة : الذى يتوسم فيه الجرحة فلا تجوز شهادته دون تزكية ، ولا تكون شهادته شبهة توجب حكما .

التاسعة : الشاهد الذى ثبت عليه جرحة قديمة أو يعلمها الحاكم فيه ، فلا تجوز شهادته دون تزكية ولا تقبل فيه التزكية على الإطلاق ، وإنما تقبل ممن علم بجرحته إذا شهد على توبته منها ، ونزوعه منها ، والمحدود فى القذف بمنزلته على مذهب مالك ، لأن تزكيته لا تجوز على الإطلاق وإنما تجوز بمعرفة تزيده فى الخير .

العاشرة : المقيم على الجرحة المشهود بها ، فلا تجوز شهادته ولا تقبل التزكية فيه ، وإن زكى ، وإنما تقبل تزكيته فيما يستقبل إذا تاب .

الحادية عشرة : شاهد الزور ، فلا تصح شهادته وإن تاب وحسنت حاله ، وروى أبو زيد عن ابن القاسم : أن شهادته تجوز إذا تاب وعرفت توبته بتزيد حاله فى الصلاح .

قال : ولا أعلمه إلا فى قول مالك ، فقيل : إن ذلك اختلاف من القول .

وقيل : معنى رواية أبى زيد إذا جاء تائباً مقراً على نفسه بشهادة الزور قبل أن تظهر عليه ، وهو الأظهر والله سبحانه وتعالى أعلم . اهـ

وقد أوردنا هذه المراتب لأنها شملت أنواع الشهود قوة وضعفاً ، وفيما تقبل شهاداتهم .

تنبيـــه

وقد قيل فى تفريق الشهود : إن هذا فى الزنا خاصة ، وقيل : للقاضى أن يفرقهم متى مارأى ذلك ، وأن أول من فرقهم على رضى الله عنه ، وذكر الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه تفريق الشهود فى قصة سليمان ، وهو كلام فى قضية المرأة التى رميت بالزنا ، واختلف فى تحليف الشاهد .

فالجمهور : لا يحلف ، ورجح ابن القيم جوازه فيما تقبل شهادته للضرورة كالمرأة الواحدة ، والكافر فى السفر ، ومدار قبول الشهادة على الطمأنينة لصدق الشاهد ، وذلك يدور على أصلين :

الأول : هو الضابط كما فى قوله تعالى : (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) .

والثانى : العدالة كما فى قوله تعالى (إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا) والعلم عند الله تعالى .

وللشهادة مباحث عديدة اكتفينا بما أوردنا .

وقد بحث ابن القيم رحمه الله مباحث الشهادة من حيث العدد والموضوع فى كتاب الطرق الحكمية .

تنبيه

للشهادة علاقة باليمين فى الحكم ، وذلك فى قوله صلى الله عليه وسلم « شاهدان أو يمينه »

فما هى تلك العلاقة ، وبين هذه العلاقة قوله تعالى : (قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم) .

وقوله (أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد) .

وقوله : (وكنا لحكمهم شاهدين) .

وقوله : (هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بينى وبينكم) ونحو ذلك من الآيات ، لأنه تعالى : شاهد ومطلع على أحوال العباد لا تخفى عليه خافية ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فإذا أعوز المدعى شاهداً حلف مع الشاهد كأنه قال : أستشهد بالله الذى يعلم منى صدق دعواى .

وكذلك المدعى عليه إذا عجز المدعى عن البينة وكانت الدعوى متوجهة ، ومما يشبه ، كما يقول المالكية : فإن المدعى عليه يقول لدى البينة والشهادة على عدم ثبوت ما ادعى به على ألا ، وهو خير الشاهدين .

من هو أكبر شهادة مما عجز عنها المدعى ألا وهو الاستشهاد بالله تعالى ، فيحلف على براءة ذمته مما ادعى به عليه .

تنبيه

ومن هنا يعلم حقيقة قوله صلى الله عليه وسلم : « من حلف بغير الله فقد أشرك » أى لأن الحالف يقيم المحلوف به مقام الشهود الذين رأوا أو سمعوا ، والمخلوق إذا كان غائباً لايرى ولا يسمع ، فإذا حلف به كان قد أعطاه صفات من يرى ويسمع ، والحال أنه بخلاف ذلك ، ومن ناحية أخرى الحالف والمستحلف بالله يعلمان أن الله تعالى قادر على أن ينتقم من صاحب اليمين الغموس ، وغير الله إذا ماحلف به لايقوى ولا يقدر على شيء من ذلك . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى ﴿ فَمَالِ الذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ . عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ .

مهطعين : أى مسرعين نافرين ، وعزين جمع عزة ، وهم الجماعة ،

أى مابال أولئك الكفار المنصرفين عنك متفرقين ، وعليه قول الكميت :

ونحن وجندل باغ تركنا كتائب جندل شتى عزين

وكذلك هنا فهم متفرقون عنه صلى الله عليه وسلم جماعات من كل جهة عن اليمين وعن الشمال . تفرقت بهم الأهواء وأخذتهم الحيرة كقوله تعالى : (فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة) .

ونقل ابن كثير عن أحمد رحمه الله فى أهل الأهواء ، فهم مخالفون للكتاب ، مختلفون فى الكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب.

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ .

أجمل مايعلمون فى ما الموصولة مما ، وقد بينه تعالى فى عدة مراحل من تراب أولا ثم من نطفة . وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك فى أكثر من موضع ، وأصرح نص فى ذلك قوله تعالى (ألم نخلقكم من ماء مهين) وقوله : (فلينظر الإنسان مِمَّ خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب) أى ماء الرجل وماء المرأة يختلطان معاً ، كما فى قوله تعالى : (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) .

وقوله تعالى : (كلا إنا خلقناهم مما يعلمون) ليس لمجرد الإخبار ،

لأنهم يعلمون ، والعالم ليس فى حاجة إلى إخبار ، ولكن يراد بذلك لازم الخبر ، وهو إفهامهم بأن من خلقهم من هذا الذى يعلمون قادر على إعادتهم وبعثهم ومجازاتهم ، كما فى سورة الدهر (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً) .

ثم قال : (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا) .

ثم بين المصير (إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيراً إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا) .

قوله تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾ .

قوله تعالى (فلا أقسم) ظاهره النفى ، والحال أنه أقسم بدليل جواب القسم بعده (إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم) ، وللعلماء فى مجىء لا هذه ، كلام كثير ، وقد فصله الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى دفع إيهام الاضطراب فى سورة البلد ، وسيطبع إن شاء الله فى نهاية هذه التتمة .

وقوله : (رب المشارق والمغارب) فهو الله تعالى رب كل شىء ومليكه ، وقد نص على نظيره فى سورة الرحمن (رب المشرقين ورب المغربين . فبأى آلاء ربكما تكذبان) .

وقد جمعت المشارق هنا ، وثنيت فى الرحمن وأفردت فى قوله

تعالى : (ولله المشرق والمغرب) ، فالجمع على مشارق الشمس فى السنة لكل يوم مشرق ، كما قال ابن عباس والتثنية لمشرق الشمس والقمر والإفراد على الجهة ، وسيأتى فى دفع إيهام الاضطراب أيضاً .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا ﴾ .

بين هنا حالة الخروج من الأجداث وهى القبور ، وهى أنهم يخرجون سراعاً ، وبين فى موضع آخر أنهم يخرجون مبعثرين هنا وهناك . فى قوله تعالى : (وبعثر ما فى القبور) .

وفى قوله تعالى : (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم) .

قوله تعالى : ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ .

حالة ثانية ، وقد جمع الحالات فى سورة اقتربت الساعة فى قوله تعالى (يوم يدع الداع إلى شىء نكر . خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر) نسأل الله تعالى السلامة والعافية .

وفى ختام السورة الكريمة لهذا الوصف والوعيد الشديد تأييد للقول بأن سؤالهم فى أولها بعذاب واقع ، إنما هو استخفاف واستبعاد . فبين لهم تعالى بعد عرض السورة نهاية مايستقبلون به ليأخذوا حذرهم ويرجعوا إلى ربهم . فارتبط آخر السورة بأولها .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

فيه بيان أن الله تعالى أرسل رسوله نوحاً لينذر قومه قبل أن يأتيهم العذاب فالنذارة أولا وهى عامة فى جميع الأمم والرسل .

كقوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وذلك لإقامة الحجة أولا ، كما فى قوله تعالى : (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) ، وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان هذه المسألة فى سورة بنى إسرائيل على قوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا)

قوله تعالى : ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ . يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ الآية .

جعل الطاعة هنا لنبى الله نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وعلق عليها مغفرة الله لذنوبهم .

وقد بين تعالى أن طاعة النبى هى طاعة الله ، فهى فى الأصل طاعة

لله لأنه مبلغ عن الله كما فى قوله تعالى فى سورة النساء (وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً من يطع الرسول فقد أطاع الله) .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَارًا ﴾ .

أى على الدوام كما قال : (ثم إنى دعوتهم جهاراً ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً) .

أى أن نبى الله نوحاً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، بذل كل ما يمكنه فى سبيل الدعوة إلى الله ، وقد بين تعالى مدة مكثه فيهم على تلك الحالة فى قوله تعالى : (فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما) .

قوله تعالى : ﴿ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ .

بين تعالى الغرض من جعل الأصابع فى الآذان لعدم السماع ، كما فى قوله تعالى : (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن) وإصرارهم واستكبارهم إنما هو عن اتباع ما دعاهم إليه نوح عليه السلام .

كما قالوا : (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل) ، وقريب منه قوله تعالى : (كبر على المشركين ماتدعوهم إليه) .

قوله تعالى : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ .

رتب إرسال السماء عليهم مدراراً على استغفارهم ، وهذا يدل على أن الاستغفار والتوبة والعمل الصالح قد يكون سبباً فى تيسير الرزق .

وقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم إلى ذلك فى الحديث : «من أراد أن ينسأ له فى عمره ويوسع له فى رزقه فليصل رحمه» .

وقد تكلم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه على هذه المسألة فى سورة هود عند قوله تعالى : (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً) الآية .

كما دلت الآية الأخرى فى هذه السورة على أن المعصية سبب لاك فى قوله : (مما خطيآتهم أغرقوا فأدخلوا نارا) .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ .

هى المبينة فى قوله تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) .

وهذا مروى معناه عن ابن عباس . قاله ابن كثير والقرطبي .

وقيل أطواراً : شباباً وشيوخاً وضعفاء .

وقيل أطواراً : أى أنواعاً صحيحاً وسقيماً وبصيراً وضريراً وغنياً وفقيراً .

وقيل أطواراً : اختلافهم فى الأخلاق والأفعال . قاله القرطبي .

ولكن كما قدم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه . أنه إذا تعددت الأقوال فى الآية وكان فيها قرينة دالة على أحد الأقوال فإنه يبينه ، وهنا قرينة فى الآية على أن المراد هو الأول وإن كان الجميع صحيحاً ، والقرينة هى أن الآية فى قضية الخلق وهو الإيجاد الأول ، لأن مابعد الإيجاد صفات عارضة .

وقد جاء نظير الآية فى سورة المؤمنون كما قدمنا ، وقد ذيلت بقوله تعالى : (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

ومنها أن الآية سيقت فى الدلالة على قدرة الله على بعثهم بعد موتهم لمجازاتهم ، فكان الأنسب بها أن يكون متعلقها كمال الخلقة والقدرة على الإيجاد .

والأنسب لهذا المعنى هو خلقهم من نطفة أمشاج وماء مهين ، ثم تطويرها إلى علقة ، ثم تطوير العلقة مضغة ، ثم خلق المضغة عظاما ، ثم كسو العظام لحماً . ثم نشأته نشأة أخرى .

إنها قدرة باهرة وسلطة قاهرة .

ومثله فى الواقعـــة : (أفرأيتم ماتمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) .

وفى الطور فى أصل الخلقـة : (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون) .

إن أصل الخلقة والإيجاد وهو أقوى دليل على القدرة ، وهوالذى يجاب به على الـكفرة ، كما فى قوله تعالى : (قتل الإنسان ما أكفره) ثم قال : (من أى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدره) ذلك كله دليل على أن المراد بالأطوار فى الآية ، هو ماجاء عن ابن عباس المشتملة عليه سورة المؤمنون .

تنبيـــه

إن بيان أطوار خلقة الإنسان على النحو المتقدم أقوى فى انتزاع الاعتراف بقدرة الله من العبـد من يحيى المخلوق جملة ، لأنه يوقفه على عدة مراحل من حياته وإيجاده ، وكل طور منها آية مستقلة ، وهذا التوجيه موجود فى الظواهر الكونية أيضاً من سماء وأرض ، فالسماء كانت دخانا وكانت رتقا ففتقهما والأرض كانت على غير ماهى عليه الآن ، وبين الجميع فى قوله : (أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلهـا وأخرج ضحاها . والأرض بعـد ذلك

دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها) وأجمع من ذلك كله فى قوله تعالى فى فصلت (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سماوات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا) .

ثم ختم تعالى هذا التفصيل الكامل بقوله : (ذلك تقدير العزيز العليم) ، ففيه بيان أن تلك الأطوار فى المخلوقات بتقدير معين ، وأنه بعلم ، ومن العزيز سبحانه ، فكان من الممكن خلقها دفعة واحدة ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

ولكن العرض على هذا التفصيل أبعد أثراً فى نفس السامع وأشد تأثيراً عليه . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا . وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا . ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾

فى هذه الآية مع ماقبلها ثلاثة براهين من براهين البعث الأربعة التى كثر مجيئها فى القرآن

الأولى : خلق الإنسان (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة)

والثانية : خلق السماوات والأرض : (لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس) .

والثالثة : إحياء الأرض بعد موتها (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) (إن الذى أحياها لمحيي الموتى) .

والرابع : الذى لم تذكر هنا هو إحياء الموتى بالفعل ، كقتيل بنى إسرائيل ، (فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى) .

وقد تقدم تفصيل ذلك فى أكثر من موضع للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، وهنا سياق هذه البراهين للرد على المكذبين بالبعث ، ولكن فى هذا السياق إشكال فيما يبدو كبير وهو قوله تعالى : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا)

وإذا كان السياق للاستدلال بالمعلوم المشاهد على المجهول الغيبي ، فإن خلق الإنسان أطواراً محسوس مشاهد ومسلم به ، وإنبات الإنسان من الأرض بإطعامه من نباتها وإحيائها بعد موتها واهتزازها وإنباتها النبات أمر محسوس .

ويمكن أن يقال للمخاطب : كما شاهدت خلق الإنسان من عدم وتطوره أطواراً ، وشاهدت إحياء الأرض الميتة ، فإن الله الذى خلقك وأحيا لك الأرض الميتة قادر على أن يعيدك ويخرجك منها إخراجا .

ولـكن كيف تقول : وكما شاهدت خلق السماوات سبعاً طباقاً فإن القادر على ذلك قادر على بعثك . والحال أن الإنسـان لم يشاهد خلق السماوات سبعاً طباقاً ، ولا رأى كيف خلقهـا الله سبعاً طباقاً ، والإشكال هنا هو كيف قيل لهم : (ألم تروا كيف) .

والكيف للحـالة والهيئـة ، وهم لم يشـاهدوها كما قال تعالى : (ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم) .

وكيف يستدلون بالمجهول عندهم على المغيب عنهم ؟

وهنا تساءل ابن كثير تساؤلا وارداً ، وهو قوله : (طبـاقا) أى واحدة فوق واحدة ، وهل هذا يتلقى من جهـة السمع فقط ؟ أو هو من الأمور المدركة بالحس ، مما علم من التسيير والكسوفات . وأظنه يعنى التسيير من السير ، فإن الكواكب السبعة السيارة يكسف بعضهـا بعضاً ، فأدناها القمر فى السماء الدنيا وذكر الكواكب السبعة فى السماوات السبع ، وكلام أهل الهيئة ولم يتعرض للاشكال بحل يركن إليه .

وقال القرطبى : قوله تعالى : (ألم تروا) كيف على جهة الاخبار لا المعاينة .

كما تقول : ألم تر كيف فعلت بفلان كذا ؟ .

وعلى كلام القرطبى يرد السؤال الأول ، إذا كان ذلك على جهة الإخبار ، فكيف يجعل الخبر دليلا على خبر آخر لايدرك إلا بالسمع ؟

والجواب عن ذلك مجملا مما تشير إليه آيات القرآن الكريم كالآتى :

أولا : أن تساؤل ابن كثير هل يتلقى ذلك من جهة السمع فقط ؟ أو هو من الأمور المدركة بالحس ، لا محل له لأنه لا طريق إلا النقل فقط ، كما قال تعالى : (ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم) أى آدم . فلم نعلم كيف خلق ولا كيف سارت الروح فى جسم جماد صلصال ، فتحول إلى جسم حساس نام ناطق .

وأما قول القرطبى : إنه على جهة الإخبار لا المعاينة ، فهو الذى الذى يشهد له القرآن .

ويجيب القرآن على السؤال الوارد عليه ، وذلك فى قوله تعالى : (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان . فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ، فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) .

لأن الله تعالى خاطب هنا الكفار قطعاً لقوله : (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين) .

وخاطبهم بأمور مفصلة لم يشهدوها قطعاً من خلق الأرض فى يومين ، ومن تقدير أقواتها فى أربعة أيام ومن استوائه إلى السماء وهى دخان .

ومن قوله : لها وللأرض (إئتيا طوعاً أو كرهاً) .

ومن قولهما : (أتينا طائعين) .

ومن قضائهن سبع سماوات فى يومين .

ومن وحيه فى كل سماء أمرها .

كل ذلك تفصيل لأمور لم يشهدوها ولم يعلموا عنها بشىء ، ومن ضمنها قضاؤه سبع سماوات ، فكان كله على سبيل الإخبار لجماعة الكفار .

وعقبه بقوله : (ذلك تقدير العزيز العليم) فكان مقتضى هذا الإخبار وموجب هذا التقدير من العزيز العليم ، أن يصدقوا أو أن يؤمنوا . وهذا من خصائص كل إخبار يكون مقطوعاً بصدقه من كل من هو واثق بقوله : يقول الخبر ، وكان لقوة صدقه ملزم لسامعه ، ولا يبالى قائله بقبول السامع له أو إعراضه عنه .

ولذا قال تعالى بعد ذلك مباشرة (فإن أعرضوا) أى بعد إعلامهم بذلك كله ، فلا عليك منهم (فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) .

وحيث إن الله خاطبهم هنا ألم تروا كيف ؟ فكان هذا أمر لفرط صدق الإخبار به ، كالمشاهد المحسوس الملزم لهم ؟

وقد جاءت السنة وبينت تلك الكيفية أنها سبع طباق بين كل سماء ، والتى تليها مسيرة خمسمائة عام ، وشمل كل سماء وسمك كل سماء مسيرة خمسمائة عام .

وقد يقال : إن الرؤية هنا فى الكيفية حاصلة بالعين محسوسة ، ولكن فى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج حيث عرج به ورأى السبع الطباق ، وكان يستأذن لكل سماء . ومشاهدة الواحد من الجنس كمشاهدة الجميع ، فكأننا شاهدناها كلنا لإيماننا بصدقه صلى الله عليه وسلم ، ولحقيقة معرفتهم إياه صلى الله عليه وسلم فى الصدق من قبل . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴾ .

ينص تعالى هنا أن قوم نوح اتبعوا من هذا وصفه مع أن المال يزيد الإنسان نفعاً . وقد بين تعالى أن المال فعلا قد يورث خسارة ، وهلاكا كما فى قوله تعالى : (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) أى بالطغيان يكون إهلاكا .

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ .

فى هذه نص على أن نبى الله نوحاً طلب من الله إهلاك من على الأرض جميعاً ، مع أن عادة الرسل الصبر على أممهم ، وفيه إخبار نبى الله نوح عمن سيولد من بعد ، وأنهم لم يلدوا إلا فاجراً كفاراً ، فكيف دعا على قومه هذا الدعاء وكيف حكم على المواليد فيما بعد ؟

والقرآن الكريم بين هذين الأمرين :

أما الأول : فإنه لم يدع عليهم هذا الدعاء إلا بعد أن تحداه ويئس منهم ، أما تحديهم ففى قولهم : (يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا) .

وقوله : (كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ، فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر) .

وأما يأسه منهم فلقوله تعالى : (وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) .

وأما إخباره عمن سيولد بأنه لن يولد لهم إلا فاجر كفار ، فهو من مفهوم الآية المذكورة آنفاً ، لأنه إذا لم يؤمن من قومه إلا من قد آمن ، فسواء فى الحاضر أو المستقبل .

وكذلك بدليل الاستقراء ، وهو دليل معتبر شرعاً وعقلا ، وهو أنه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً وما آمن معه إلا قليل كانوا هم ومن معهم غيرهم حمل سفينة فقط ، فكان دليلا على قومه أنهم فتنوا بالمال ولم يؤمنوا له ، وهو دليل نبي الله موسى عليه السلام أيضاً على قومه .

كما قال تعالى : (ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) .

فأخبر نبي الله موسى عن قومه أنهم لن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، وذلك من استقراء حالهم فى مصر لما أراهم الآية الكبرى (فكذب وعصى ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى)

وبعد أن ابتلاهم الله بما قص علينا فى قوله : (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين) .

وقوله تعالى بعدها : (ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون) .

فمن كانت هذه حالته وموسى يعاين ذلك منهم ، لاشك أنه يحكم عليهم أنهم لن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم .

وكذلك كان دليل الاستقراء لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى قومه استدل به على عكس الأقوام الآخرين ، حينما رجع من الطائف وفعلت معه ثقيف مافعلت فأدموا قدميه ، وجاءه جبريل ومعه ملك الجبال واستأذنه فى أن يطبق عليهم الأخشبين ، فقال : « لا ، اللهم اهد قومى فإنهم لايعلمون . إنى لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله » وذلك أنه صلى الله عليه وسلم علم باستقراء حالهم أنهم لايعلمون فهم يمتنعون عن الإيمان لقلة تعلمهم وأنهم فى حاجة إلى التعليم .

فإذا علموا تعلموا ، وأن طبيعتهم قابلة للتعليم لا أنهم كغيرهم فى إصرارهم ، لأنه شاهد من كبارهم إذا عرض عليهم القرآن وخوطبوا بخطاب العقل ووعوا مايخاطبون به وسلموا من العصبية والنوازع الأخرى فإنهم يستجيبون حالا كما حدث لعمر وغيره رضى الله عنهم إلا من أعلمه الله بحاله مثل الوليد بن المغيرة (ذرنى ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيداً - إلى قوله - إنه كان لآياتنا عنيداً سأرهقه صعوداً - إلى قوله - سأصليه سقر) ، فعلم صلى الله عليه وسلم حاله ومآله ، ولذا فقد دعا عليه يوم بدر .

ومثله أبو لهب لما تبين حاله بقوله تعالى : (سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب) ، فلكون العرب أهل فطرة ، ولكون الإسلام دين الفطرة أيضاً كانت الاستجابة إليه أقرب .

انظر مدة مكثه صلى الله عليه وسلم من البعثة إلى انتقاله إلى الرفيق الأعلى ثلاثاً وعشرين سنة ، كم عدد من أسلم فيها بينما نوح عليه السلام يمكث ألف سنة إلا خمسين عاماً فلم يؤمن معه إلا القليل .

ولذا كان قول نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام (ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا) ، كان بدليل الاستقراء من قومه ، والعلم عند الله تعالى .

وقوله تعالى : (وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا) ، لم يبين هنا هل استجيب له أم لا ؟ وبينه فى مواضع أخر منها قوله : (ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له) .

وفى هذه السورة نفسها وقبل هذه الآية مباشرة قوله تعالى : (مما خطيآتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا) فجمع الله لهم أقصى العقوبتين الإغراق والإحراق ، مقابل أعظم الذنبين الضلال والإضلال .

وكذلك بين تعالى كيفية إهلاك قومه ونجاته هو وأهله ومن معه فى قوله : (فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر ، وحملناه على

ذات ألواح ودسر تجرى بأعيننا) الآية .

قال ابن كثير : لقد أغرق الله كل من على وجه الأرض من الكفار ، حتى ولد نوح من صلبه . وهنا تنبيه على قضية ولد نوح فى قوله (يابنى اركب معنا) إلى قوله (فكان من المغرقين) لما أخذت نوحا العاطفة على ولده (قال رب إن ابنى من أهلى) إلى قوله : (إنه ليس من أهلك) أثار بعض الناس تساؤلا حول ذلك فى قراءة (إنه عمل غير صالح) ، نه عمل ماضى يعمل أى بكفره .

وتساءلوا حول صحة نسبه ، والحق أن الله تعالى قد عصم نساء الأنبياء إكراماً لهم ، وأنه ابنه حقاً ، لأنه لما قال (إن ابنى من أهلى) تضمن هذا القول أمرين نسبته إليه فى بنوته .

ثانياً : نسبته إليه فى أهله ، فكان الجواب عليه من الله بنفى النسبة الثانية لا الأولى ، إنه ليس من أهلك . ولم يقل : إنه ليس ابنك ، والأهل أعم من الابن ، ومعلوم أن نفى الأخص لا يستلزم نفى الأعم ، والعكس بالعكس ، فلما نفى نسبته إلى أهله علمنا أن نسبته إليه بالبنوة باقية ، ولو لم يكن ابنه لصلبه لكان النفى ينصب عليها .

ويقال : إنه ليس ابنك ، وإذا نفى عنه البنوة انتفت عنه نسبته إلى أهله ، وكذلك قوله تعالى بعدها : (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا أى لأن الظالمين ليسوا من الأهل بالنسبة للدين ، لأن الدين يربط البعيدين ، والظلم الذى هو بمعنى الكفر يفرق القريبين . والعلم عند الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجن

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ .

فيه إثبات سماع الجن للقرآن وإعجابهم به ، وهدايتهم بهديه وإيمانهم بالله ، وتقدمت الإشارة بذلك من كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة الأحقاف عند قوله تعالى : (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن) ، وفى آية الأحقاف بيان لما قام به النفر من الجن بعد سماعهم القرآن بأنهم لما قضى سماعهم ولوا إلى قومهم منذرين .

وفيها : بيان أنهم عالمون بكتاب موسى وهو التوراة ، وقد شهدوا بأن القرآن مصدق لما بين يديه وأنه يهدى إلى صراط مستقيم ، كما جاء هنا قوله : (يهدى إلى الرشد) .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطًا ﴾ .

والشطط : البعيد المفرط فى البعد ، قال عنترة فى معلقته :

شطت مزار العاشقين فأصبحت عسراً على طلابها ابنة مخرم

وروى :

* حلت بأرض الزائرين فأصبحت *

وأنشد أيضاً لغيره :

* شط المزار بجذوى وانتهى الأمل *

ففى كلا البيتين الشطط الإفراط فى البعد ، إذ فى الأول قال : فأصبحت عسراً علىّ طلابها ، وفى الثانى قال : وانتهى الأمل ، وقد بيّن القرآن أن المراد بالشطط البعد الخاص ، وهو البعد عن الحق ، كما فى قوله تعالى : (فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط .

ومنه البعد عن حقيقة التوحيد إلى الشرك ، وهو المراد هنا كما فى سورة الكهف فى قوله (لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططا) لأن دعاءهم غير الله أبعد ما يكون عن الحق .

ويدل على أنه المراد هنا ما جاء فى هذه السورة (فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً) .

قوله تعالى ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَآءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ .

بيّن تعالى المراد بتلك الحراسة بأنه لحفظها عن استراق السمع ،

كما فى قوله : (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا) ، وبين تعالى حالهم قبل ذلك بأنهم كانوا يقعدون منها مقاعد للسمع فيسترقون الكلمة وينزلون بها إلى الكاهن فيكذب معها مائة كذبة ، كما بين تعالى أن الشهب تأتيهم من النجوم .

كما فى قوله تعالى : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) .

قوله تعالى ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾

فيه نص على أن الجن لاتعلم الغيب ، وقد صرح تعالى فى قوله : (فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين) .

وقد يبدو من هذه الآية إشكال ، حيث قالوا أولا : (إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به) ، ثم يقولون وأنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) ، والواقع أنهم تساءلوا لما لمسوا السماء فمنعوا منها لشدة حراستها ، وأقروا أخيراً لما سمعوا القرآن وعلموا السبب فى تشديد حراسة السماء ، لأنهم لما منعوا ما كان يخطر ببالهم أنه من أجل الوحى لقوله (وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا) .

وقوله تعالى : (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً) يدل بفحواه أنهم منعوا من السمع ، كما قالوا فمن يستمع الآية يجد له شهاباً رصداً ، ولكن قد يظن ظان أنهم يحاولون السماع ولو مع الحراسة الشديدة ، ولكن الله تعالى صرح بأنهم لم ولن يستمعوا بعد ذلك .

كما قال تعالى : (إنهم عن السمع لمعزولون) .

قوله تعالى ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾

وهذا كما قال تعالى : (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) وقوله . (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) فكلها نصوص على أن الأمة إذا استقامت على الطريقة القويمة شرعة الله لفتح عليهم بركات من السماء والأرض .

ومثل ذلك قوله تعالى : (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا) .

ومفهوم ذلك أن من لم يستقم على الطريقة فقد يكون انحرافه أو شركه موجباً لحرمانه من نعمة الله تعالى عليه ، كما جاء صريحاً فى قوله : (واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب

وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نهراً وكان له ثمر) .

فهذه نعمة كاملة ، كما وصف الله تعالى ، (فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً . وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلبا ، قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا) إلى قوله : (وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا) .

وما أشبه الليلة بالبارحة فيما يعيشه العالم الإسلامى اليوم بين الاتجاهين المتناقضين الشيوعى والرأسمالى . وما أثبته الواقع من أن المعسكر الشيوعى الذى أنكر وجود الله وكفر بالذى خلقه من تراب ثم من نطفة ثم سواه رجلا ، فإنه وكل من يسير فى فلكه مع مدى تقدمه الصناعى ، فإنه مفتقر لكافة الأمم الأخرى فى استيراد القمح ، وإن روسيا بنفسها لتفرج عن بعض احتياطها من الذهب لتشترى قمحاً . ولا زالت تشتريه من المعسكر الرأسمالى .

وهكذا الدول الإسلامية التى تأخذ فى اقتصادياتها بالمذهب الاشتراكى المتفرع من المذهب الشيوعى . فإنها بعد أن كانت تفيض

بإنتاجها الزراعى على غيرها ، أصبحت تستورد لوازمها الغذائية من خارجها ، وتلك سنة الله فى خلقه ، ولو كانوا مسلمين كما قص الله تعالى علينا قصة أصحاب الجنة (إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون) إلى قوله (فأصبحت كالصريم) إلى قوله (قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين) .

ولذا كانت الزكاة طهرة للمال ونماء له .

وقوله (لنفتنهم فيه) أى نختبرهم فيما هم فاعلون من شكر النعمة وصرفها فيما يرضى الله ، أم الطغيان بها ومنع حقها ؟ (إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى) (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) ؟ (إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم فاتقوا الله ما استطعتم) .

قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ .

المساجد جمع مسجد . والمسجد لغة اسم مكان من سجد يسجد على وزن مفعل ، كمجلس على غير القياس مكان الجلوس ، وهو لغة يصدق على كل مكان صالح للسجود .

وقد ثبت من السنة أن الأرض كلها صالحة لذلك ، كما فى قوله صلى الله عليه وسلم ، «وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » ، واستثنى منها أماكن خاصة نهى عن الصلاة فيها لأوصاف طارئة عليها وهى

المزبلة والمجزرة والمقبرة وقارعة الطريق وفوق الحمام . ومواضع الخسف ومعاطن الإبل ، والمكان المغصوب على خلاف فيه من حيث الصحة وعدمها والبِيَع .

وقد عد الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه تسعة عشر موضعا عند قوله تعالى : (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين) فى الكلام على حكم أرض الحجر ومواطن الخسف ، وساق كل موضع بدليله ، وهو بحث مطول مستوفى والمسجد عرفاً كل ما خصص للصلاة وهو المراد بالإضافة هنا لله تعالى ، وهى إضافة تشريف وتكريم مع الإشعار باختصاصها بالله أى بعبادته وذكره .

كما قال تعالى : (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة) الآية .

ولهذا منعت من اتخاذها لأمور الدنيا من بيع وتجارة ، كما فى الحديث : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا له : لا أربح الله تجارتك » رواه النسائى والترمذى وحسنه .

وكذلك إنشاد الضالة لقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا سمعتم من ينشد ضالة بالمسجد . فقولوا له : لا ردّها الله عليك ، فإن المساجد لم تبن لذلك » . رواه مسلم .

وفى حديث الأعرابى الذى بال فى المسجد ، قال له صلى الله عليه وسلم : « إن هذه المساجد لم تبن لذلك ، إنما هى لذكر الله وما والاه » ، وفى موطأ مالك : أن عمر رضى الله عنه بنى رحبة فى ناحية المسجد تسمى البطحاء . وقال : من كان يريد أن يلغط أو ينشد شعرا ، أو يرفع صوته فليخرج إلى هذه الرحبة .

واللغط هو الكلام الذى فيه جلبة واختلاط . وأل فى المساجد للاستغراق فتفيد شمول جميع المساجد ، كما تدل فى عمومها على المساواة ، ولكن جاءت آيات تخصص بعض المساجد بمزيد فضل واختصاص ، وهى المسجد الحرام خصَّه الله تعالى بما جاء فى قوله : (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت) .

فذكر هنا سبع خصال ليست لغيره من المساجد من أنه أول بيت وضع للناس ومبارك وهدى للعالمين ، وفيه آيات بينات ومقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ، والحج والعمرة إليه ، وآيات أخر ، والمسجد الأقصى .

قال تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع

البصير) فَخُص بكونه مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه وبالبركة حوله وأرى صلى الله عليه وسلم فيه من آيات ربه .

وقد كان من الممكن أن يعرج به إلى السماء من جوف مكة ، ومن المسجد الحرام ، ولكن ليريه من آيات الله كعلامات الطريق لتكون دليلا له على قريش فى إخباره بالإسراء والمعراج ، وتقديم جبريل له الأقداح الثلاثة بالماء واللبن والخمر ، واختياره اللبن رمزاً للفطرة . واجتماع الأنبياء له والصلاة بهم فى المسجد الأقصى ، بينما رآهم فى السماوات السبع ، وكل ذلك من آيات الله أُريها صلى الله عليه وسلم فى المسجد الأقصى ، والمسجد النبوي ، ومسجد قباء ، فمسجد قباء نزل فيه قوله تعالى : (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) .

فجاء فى صحيح مسلم « أن أبا سعيد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أى مسجد أسس على التقوى من أول يوم ؟ فأخذ صلى الله عليه وسلم حفنة من الحصباء وضرب بها أرض مسجده ، وقال مسجدكم هذا » .

وجاء فى بلوغ المرام وغيره : حديث ابن عباس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل أهل قباء فقال « : إن الله يثنى عليكم فقالوا إنا نتبع الحجارة الماء » رواه البزار بسند ضعيف .

قال فى سبل السلام : وأصله فى أبى داود والترمذى فى

السنن عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « نزلت هذه الآية فى أهل قباء : (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) » .

قال ابن حجر : وصححه ابن خزيمة من حديث أبى هريرة رضى الله عنه بدون ذكر الحجارة .

وقال صاحب وفاء الوفاء : وروى ابن شيبة من طرق : ما حاصله أن الآية لما نزلت أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل قباء .

وفى رواية : أهل ذلك المسجد .

وفى رواية : بنى عمرو بن عوف . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله قد أحسن عليكم الثناء فى الطهور ، فما بلغ من طهوركم ؟ قالوا : نستنجى بالماء » .

قال : وروى أحمد وابن شيبة واللفظ لأحمد عن أبى هريرة قال : انطلقت إلى مسجد التقوى أنا وعبد الله بن عمر وسمرة بن جندب ، فأتينا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا لنا : انطلق إلى مسجد التقوى ، فانطلقنا نحوه . فاستقبلنا يداه على كاهلى أبى بكر وعمر فنثرنا فى وجهه فقال : من هؤلاء يا أبا بكر ؟ فقال : عبد الله بن عمر ، وأبو هريرة وجندب .

فحديث مسلم فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتلك النصوص فى مسجد قباء .

وقد قال ابن حجر رحمه الله : والحق أن كلا منهما أسس على التقوى ، وقوله تعالى : (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) ظاهر فى أهل قباء .

وقيل : إن حديث مسلم فى خصوص مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، جاء رداً على اختلاف رجلين فى المسجد المعنى بها ، فأراد صلى الله عليه وسلم أن يبين لهم أن الآية ليست خاصة بمسجد قباء ، وإنما هى عامة فى كل مسجد أسس على التقوى ، وأن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب ، كما هو معلوم فى الأصول .

وعليه ، فالآية إذاً اشتملت وتشتمل على كل مسجد أينما كان ، إذا كان أساسه من أول يوم بنائه على التقوى ، ويشهد لذلك سياق الآية بالنسبة إلى ماقبلها وما بعدها ، فقد جاءت قبلها قصة مسجد الضرار بقوله : (والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون . لاتقم فى أبداً لمسجد أسس على تقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه) .

ومعلوم أن مسجد الضرار كان بمنطقة قباء ، وطلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يصلى لهم فيه تبركا فى ظاهر الأمر ، وتقريراً لوجوده يتذرعون بذلك ، ولكن الله كشف عن حقيقتهم .

وجاءت الآية بمقارنة بين المسجدين فقال تعالى له : (لاتقم فيه أبداً ، لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا) الآية .

وجاء بعد ذلك مباشرة للمقارنة مرة أخرى أعم من الأولى فى قوله تعالى : (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لايهدى القوم الظالمين لايزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم) .

وبهذا يكون السبب فى نزول الآية هو المقارنة بين مبدأين متغايرين، وأن الأولية فى الآية فى قوله : (من أول يوم) أولية نسبية أى بالنسبة لكل مسجد فى أول يوم بنائه ، وإن كان الظاهر فيها أولية زمانية خاصة ، وهو أول يوم وصل صلى الله عليه وسلم المدينة ونزل بقباء ، وتظل هذه المقارنة فى الآية موجودة إلى ماشاء الله فى كل زمان ومكان كما قدمنا .

وقد اختصت تلك المساجد الأربعة بأمور تربط بينها بروابط عديدة ، أهمها تحديد مكانها حيث كان بوحى أو شبه الوحى .

فى البيت الحرام قوله تعالى : (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت)

وفى المسجد الأقصى : ماجاء فى الأثر عنه : أن الله أوحى إلى نبيه داود . أن ابن لى بيتاً ، قال : وأين تريدنى أبنيه لك يارب ؟ قال :

حيث ترى الفارس المعلم شاهراً سيفه . فرآه فى مكانه الآن ، وكان حوشا لرجل من بنى إسرائيل . إلى آخر القصة فى البيهقى .

وفى مسجد قباء بسند فيه ضعف . لما نزل صلى الله عليه وسلم قباء قال : من يركب الناقة إلى أن ركبها علىّ ، فقال له : أرخ زمامها فاستنت ، فقال : خطو المسجد حيث استنت .

وفى المسجد النبوى : جاء فى السير كلها أنه صلى الله عليه وسلم كان كلما مر بحى من أحياء المدينة ، وقالوا له : هلم إلى العدد والعدة ، فيقول : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، حتى وصلت إلى أمام بيت أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه ، وكان أمامه مربد لأيتام ومقبرة ليهود ، فاشترى المكان ونبش القبور وبنى المسجد .

وكذلك فى البناء فكلها بناء رسل الله ، فالمسجد الحرام بناه إبراهيم عليه السلام ، أى البناء الذى ذكره القرآن وما قبله فيه روايات عديدة ، ولكن الثابت فى القرآن قوله تعالى : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) .

وكذلك بيت المقدس ، وبينه وبين البيت أربعون سنة ، كما فى حديث عائشة فى البخارى أى تجديد بنائه .

وكذلك مسجد قباء ، فقد شارك صلى الله عليه وسلم فى بنائه ، وجاء فى قصة بنائه أن رجلا لقى النبى صلى الله عليه وسلم حاملا حجراً

فقال : دعنى أحمله عنك يارسول الله ، فقال له : « انطلق وخذ غيرها ، فلست بأحوج من الثواب منى » .

وكذلك مسجده الشريف بالمدينة المنورة ، حين بناه أولا من جذوع النخل وجريده ، ثم بناه مرة أخرى بالبناء بعد عودته من تبوك .

ولهذه الخصوصيات لهذه المساجد الأربعة ، تميزت عن عموم المساجد كما قدمنا .

ومن أهم ذلك مضاعفة الأعمال فيها ، أصلها الصلاة ، كما بوب لهذا البخارى بقوله : [باب فضل الصلاة فى مسجد مكة والمدينة] ، وساق الحديثين .

الأول حديث : « لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجد النبى صلى الله عليه وسلم » .

والحديث الثانى : قوله صلى الله عليه وسلم : «صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » .

كما اختص المسجد النبوى بروضته ، التى هى روضة من رياض الجنة .

وبقوله صلى الله عليه وسلم « ومنبرى على ترعة من ترع الجنة » ، وهو حديث مشهور « مابين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » ، « ومنبرى على ترعة من ترع الجنة » .

واختص مسجد قباء بقوله صلى الله عليه وسلم : « من تطهر فى بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه ركعتين كان له كأجر عمرة » أخرجه ابن ماجه وعمر ابن شيبة بسند جيد ، ورواه أحمد والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

قال فى وفاء الوفاء : وقال عمر بن شبة : حدثنا سويد بن سعيد قال حدثنا أيوب بن حيام عن سعيد بن الرقيش الأسدى قال : جاءنا أنس بن مالك إلى مسجد قباء ، فصلى ركعتين إلى بعض هذه السوارى ، ثم سلم وجلس وجلسنا حوله فقال :

سبحان الله : ما أعظم حق هذا المسجد ، لو كان على مسيرة شهر كان أهلا أن يؤتى ، من خرج من بيته يريده معتمداً إليه ليصلى فيه أربع ركعات أقلبه الله بأجر عمرة .

وقد اشتهر هذا المعنى عند العامة والخاصة ، حتى قال عبد الرحمن ابن الحكم فى شعر له :

فإن أهلك فقد أقررت عينا ... من المعتمرات إلى قبـــاء
من اللائى سوالفهن غيد ... عليهن الملاحة بالبهـــاء

وروى ابن شيبة بسند صحيح من طريق عائشة بنت سعد بن أبى وقاص قالت : سمعت أبى يقول : لأن أصلى فى مسجد قباء ركعتين أحب إلىّ من أن آتى بيت المقدس مرتين . لو يعلمون ما فى قباء لضربوا إليه أكباد الإبل ، وغير ذلك من الآثار مرفوعة وموقوفة ، مما يؤكد هذا

للمعنى من أن قباء اختص بأن : من تطهر فى بيته وأتى إليه عامداً وصلى فيه ركعتين كان له كأجر عمرة .

تنبيـــه

وهنا سؤال يفرض نفسه : لماذا كان مسجد قباء دون غيره ، ولماذا اشترط التطهر فى بيته لامن عند المسجد ؟ ولقد تطلبت ذلك طويلا فلم أقف على قول فيه ، ثم بدا لى من واقع تاريخه وارتباطه بواقع المسلمين والمسجد الحرام أن مسجد قباء له ارتباطات عديدة بالمسجد الحرام .

أولا : من حيث الزمن ، فهو أسبق من مسجد للدينة .

ومن حيث الأولية النسبية ، فالمسجد الحرام أول بيت وضع للناس .

ومسجد قباء أول مسجد بناه المسلمون .

والمسجد الحرام بناه الخليل .

ومسجد قباء بناه خاتم المرسلين .

والمسجد الحرام كان مكانه باختيار من الله ، وشبيه به مكان مسجد قبـاء .

ومن حيث الموضوعية فالمسجد الحرام مأمناً وموئلا للعاكف والباد .

ومسجد قباء مأمناً ومسكناً وموئلا للمهـاجرين الأولين ، ولأهل قباء ، فكان للصلاة فيه شدة ارتباط بالمسجد الحرام تجعل المتطهر فى بيته

والقاصد إليه للصلاة فيه كأجر عمرة . ولو قيل : إن اشتراط التطهير فى بيته لاعند المسجد شدة عناية به أولا ، وتمحيص القصد إليه ثانياً ، وتشبيهاً أو قريباً بالفعل من اشتراط الإحرام للعمرة من الحل ، لا من عند البيت فى العمرة الحقيقية ، لما كان بعيداً . فالتطهر من بيته والذهاب إلى قباء للصلاة فيه كالإحرام من الحل والدخول فى الحرم للطواف والسعى ، كما فيه تعويض المهاجرين عما فاتهم من جوار البيت الحرام قبل الفتح . والله تعالى أعلم .

تنبيه آخر

إن مما ينبغى أن يعلم أن للمسجد فى المجتمع الإسلامى رسالة عظمى أزلم ما يكون على المسلمين إحياؤها : وهى أن المسجد لهم هو بيت الأمة فيهم لجميع مصالحهم العامة والخاصة تقريباً مما يصلح له ، فكأن المسجد النبوى فى أول أمر المسلمين المثال لذلك .

إذ كان المصلى الذى تتضاعف فيه الصلاة ، وكان المعهد لتلقى العلم منه صلى الله عليه وسلم ، ومن جبريل عليه السلام ومن الأئمة ورثة الأنبياء ، ولا يزال بحمد الله كما قال صلى الله عليه وسلم « يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل فلا يجدون عالماً كعالم المدينة » .

وكما قال : « من راح إلى مسجدى لعلم يتعلمه أو يعلمه كان كمن غزا فى سبيل الله » ، وكان فيه تعليم الصبيان للقراءة والكتابة ، وكان

ولا يزال كذلك إلى اليوم بحمد الله ، وكان مقراً للافتاء ومجلساً للقضاء ومقراً للضيافة ، ومنزلا للأسارى ، ومصحاً للجرحى .

وقد ضربت لسعد فيه قبة لما أصابه سهم ليعوده صلى الله عليه وسلم من قريب ومقراً للقيادة ، فتعقد فيه ألوية الجهاد ، وتبرم فيه معاهدات الصلح ، ومنزلا للوفود كوفد تميم وعبد القيس ، وبيتاً المال كمجيء مال البحرين وحراسة أبى هريرة له .

ولما نقب بيت مال المسلمين ، قال عمر رضى الله عنه لعامله هناك : انقله إلى المسجد فلا يزال المسجد فيه مصل أى ليتولى حراسته ومقيلا للعزاب ومبيتا للغرباء . إلى غير ذلك مما لا يوجد فى أى مؤسسة أخرى. ولا تتأتى إلا فى المسجد ، مما يؤكد رسالة المسجد ، ويستدعى الانتباه إليه وحسن الاستفادة منه .

وبمناسبة اختصاص هذه المساجد الأربعة بمزيد الفضل وزيادة مضاعفة الصلاة ، فإن فى المسجد النبوى خاصة عدة مباحث طالما أشير إليها فى عدة مواضع وهى من الأهمية بمكان ، وأهمها أربعة مباحث نوردها بإيجاز ، وهى :

الأول : مضاعفة الصلاة بألف . وهل هى خاصة بمسجده صلى الله عليه وسلم الذى كان من بنائه صلى الله عليه وسلم ، أم يشمل ذلك مادخله من زيادات ،

وكذلك امتداد الصفوف خارجه عن الزحمة وهل هى فى الفرض فقط أم فيه وفى النفل ، وهل هى للرجال والنساء أم للرجال فقط .

وقضية الأربعين صلاة الثانية بعد التوسعة الأولى لعمر وعثمان ، ونقل المحراب إلى القبلة عن الروضة ، فأى الصفين أفضل . الصف الأول أم صفوف الروضة .

الثالثة : صلاة المأمومين عند الزحام أمام الإمام .

الرابعة : حديث شد الرحال والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يأتى مبحث موجب الربط بين أول الآية وآخرها ، وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً . لما فيه من التنويه والإيماء إلى بناء المساجد على القبور مع تمحيص العبادة لله وحده .

وتلك المباحث كنت قد فصلتها فى رسالة المسجد النبوى التى كتبتها من قبل ، ونجمل ذلك هنا .

المبحث الأول

هل الفضلية خاصة بالفرض ، أم بالنفل ؟ اتفق الجمهور على الفرض ، ووقع الخلاف فى النفل ، ماعدا تحية المسجد ركعتين بعد الجمعة وركعتين قبل المغرب .

وأما الخلاف فى النوافل الراتبة فى الصلوات الخمس وفى قيام الليل ، وسبب الخلاف هو عموم « صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة

فيما سواه » فمن حمله على العموم شمله بالنافلة ، ومن حمل العموم على الأصل فيه قصره على الفريضة ، إذ العام على الإطلاق يحمل على الأخص منه وهى الفريضة .

وقد جاء حديث زيد بن ثابت عند أبى داود وغيره « أفضل صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة » .

وجاء التصريح بمسجده بقوله : « صلاة المرء فى بيته أفضل من صلاته فى مسجدى هذا إلا المكتوبة » .

وما جاء عن الترمذى فى الشمائل ومجمع الزوائد : أن عبد الله بن سعد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فى بيته والصلاة فى المسجد . فقال صلى الله عليه وسلم :« قد ترى ما أقرب بيتى من المسجد فلأن أصلى فى بيتى أحب إلى من أن أصلى فى المسجد ، إلا أن تكون المكتوبة » .

وفى رواية « أرأيت قرب بيتى من المسجد ؟ قال : بلى . قال فإنى أصلى النافلة فى بيتى » .

أقوال الأئمة رحمهم الله ، وعلى هذا التفصيل كانت أقوال الأئمة رحمهم الله كالتالى :

قول الإمام أبى حنيفة : إن النافلة فى البيت أفضل ، وإذا وقعت فى المسجد النبوى كان لها نفس الأجر ، أى أنها عامة فى كل الصلوات .

ولكنها فى البيت أفضل هى منها فى المسجد .

وعند الشافعى : اختلفت الرواية عنه ، فذكر النووى فى شرح مسلم العموم . وجاء عنه فى المجموع مايفيد الخصوص وإن لم يصرح به .

والنصوص فى صلاة النافلة فى البيت عديدة :

منها : « اجعلوا صلاتكم فى بيوتكم » .

ومنها : « أكرموا بيوتكم ببعض صلاتكم » .

وذكر القرطبى عن مسلم : « إذا قضى أحدكم الصلاة فى مسجده فليجعل لبيته نصيباً من صلاته » .

وعند المالكية يعم الفرض والنفل ، واستدل لذلك بأن الحديث فى معرض الامتنان والنكرة إذا كانت فى سياق الامتنان تعم ، أى قوله صلى الله عليه وسلم : « صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه » ، فصلاة لفظ نكرة .

وفى معرض الامتنان والتفضل بهذا الأجر العظيم ، فكان عاماً فى الفرض والنفل ، والذى يظهر والله تعالى أعلم لاخلاف بين الفريقين . إذ فضيلة الألف حاصلة لكل صلاة صلاها الإنسان فيه فرضاً كانت أو نفلا .

وصلاة النافلة فى البيت تكون أفضل منها فى المسجد بدوام صلاته

صلى الله عليه وسلم النوافل فى البيت مع قرب بيته من المسجد ، كما أن هذه الفضيلة تشمل صلاة الرجل والمرأة .

ولكن صلاة المرأة مع ذلك أفضل فى بيتها منها فى المسجد ، وهذا هو المبحث الثانى ، أى أيهما أفضل للمرأة صلاتها فى بيتها أم فى المسجد النبوى ؟

وهذه المسألة قد بحثها فضيلة الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند قوله تعالى : (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال) .

وأن مفهوم (رجال) مفهوم صفة فى هذه المسألة ، لا مفهوم لقب وعليه فالنساء يسبحن فى بيوتهن ، وقد ساق البحث وافياً فى عموم المساجد وخصوص المسجد النبوى ، مما يكفى توسع .

أما المبحث الثالث : وهو هل المضاعفة خاصة بمسجده صلى الله عليه وسلم الذى بناه ، والذى كان موجودا أثناء حياته صلى الله عليه وسلم أو أنها توجد فيه وفيما دخله من الزيادة من بعده .

أما مثار البحث هو ما جاء فى نص الحديث اسم الإشارة فى مسجدى هذا ، فقال بعض العلماء : اسم الإشارة موضوع للتعيين ، وقال علماء الوضع : إنه موضوع بوضع عام لموضوع له خاص ،

فيختص عند الاستعمال بمفرد معين ، وهو ما كان صالحا للاشارة الحسية ، وهو عين ما كان موجوداً زمن النبى صلى الله عليه وسلم .

ومعلوم أن الإشارة لم تتناول الزيادة التى وجدت بعد تلك الإشارة ، فمن هنا جاء الخلاف والتساؤل .

وقد نشأ هذا التساؤل فى زمن عمر رضى الله عنه عند أول زيادة زادها فى المسجد النبوى ، فرأى بعض الصحابة يتجنبون الصلاة فى تلك الزيادة ويرغبون فى القديم منها ، فقال لهم : لولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم : يريد توسعة المسجد لما وسعته ، ووالله إنه لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولو امتد إلى ذى الحليفة ، أو ولو امتد إلى صنعاء ، فهذا مثار البحث وسببه .

ولكن لو قيل : إنه فى نفس الحديث مبحث لغوى آخر وهو أن قوله صلى الله عليه وسلم « فى مسجدى » بالإضافة إليه صلى الله عليه وسلم ، والإضافة تفيد التخصيص أو التعريف .

وفيه معنى العموم والشمول ، والآن مع الزيادة فى كل زمان وعلى مر الأيام ، فإنه لم يزل هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعليه كان تصريح عمر إنه لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم

أقوال العلماء : الجمهور على أن المضاعفة فى جميع أجزائه بما فيها الزيادة ، ونقل عن النووى فى شرح مسلم : أنها خاصة بالمسجد .

الأول : قبل الزيادة ، وقيل : إنه رجع عنه . وهذا الرجوع موجود فى المجموع شرح المهذب ، وعليه فلم يبق خلاف فى المسألة .

وقال ابن فرحون : وقفت على كلام لمالك سئل عن ذلك فقال : ما أراه عليه السلام أشار بقوله : « فى مسجدى هذا » إلا لما سيكون من مسجد بعده ، وأن الله أطلعه على ذلك .

وقد قدمت الإشارة إلى أن عمر رضى الله عنه ما زاد فى المسجد إلا بعد أن سمع من الرسول صلى الله عليه وسلم رغبته فى الزيادة ، فيكون تأييداً لقول مالك رحمه الله .

وروى أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم قال يوما وهو فى مصلاه فى المسجد « لو زدنا فى مسجدنا » وأشار بيده نحو القبلة .

وفى رواية : « إنى أريد أن أزيد فى قبلة مسجدنا »، مما يدل على أن الزيادة كانت فى حسبان رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومع الرغبة فى الزيادة لم تأت إشارة إلى ما يغير حكم الصلاة فى

تلك الزيادة المنتظرة ، ولا يقال إنها قبل وجودها لا يتعلق بها حكم ، لأننا رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رتب أحكاما على أمور لم توجد بعد كمواقيت الإحرام المصرى والشامى والعراقى ، وكقوله صلى الله عليه وسلم ستفتح اليمن ، وستفتح الشام ، وستفتح العراق ، ومع كل منها يقول : « سيؤتى بأقوام يبسون هلم إلى الرخاء والسعة فيحملون بأهليهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » .

وقال البعض : إن قوله صلى الله عليه وسلم « فى مسجدى هذا » لدفع توهم دخول سائر المساجد المنسوبة إليه بالمدينة غير هذا المسجد ، لا لإخراج ما سيزاد فى المسجد النبوى . قاله السمهودى . اهـ .

ولكن لم يعلم أنه كانت هناك عدة مساجد له صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن إلا المسجد والمصلى ، وبقية المساجد أطلقت عليها اصطلاحا .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام موجز فى ذلك ، وهو أن الزيادة كانت فى عهدى عمر وعثمان رضى الله عنهما .

وقعت زيادة كل منهما من جهة القبلة ومع هذا ، فإن كلا منهما كان إذا صلى بالناس قام فى القبلة الواقعة فى تلك الزيادة فيمتنع أن تكون الصلاة فى تلك الزيادة ليست لها فضيلة المسجد ، إذ يلزم عليه صلاة عمر وعثمان بالناس .

وصلاة الناس معهم فى الصفوف الأولى فى المكان المفضول مع ترك الأفضل . اهـ .

ومن كل ما قدمنا يتضح أن حكم الزيادة فى المسجد النبوى كحكم الأصل فى مضاعفة الأجر إلى ألف .

وقد كنت سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ما يفيد ذلك ، وسيأتى ذلك إن شاء الله فى مبحث الأربعين صلاة ، وصلاة الناس فى الصف خارج المسجد .

تنبيـــه

هذه المضاعفة أجمعوا على أنها فى الكيف لا فى الكم ، فلو أن على إنسان فوائت يوم خمس صلوات ، وصلى صلاة هى خير من ألف صلاة ، لن تسقط عنه شيئا من تلك الفوائت ، فهى فى نظرى بمثابة ثوب وثوب آخر أحدهما قيمته ألف درهم ، والآخر بدرهم واحد ، فكل منهما ثوب فى مهمته ولن يلبسه أكثر من شخص فى وقت مهما كان ثمنه .

وكذلك كالقلم ، والقلم فمهما غلا ثمن القلم ، فلن يكتب به شخصان فى وقت واحد .

تنبيـــه آخر

مما لا شك فيه أن للمسجد الأساسى خصائص لم توجد فى بقية المسجد كالروضة من الجنة ، والمنبر على ترعة من ترع الجنة ، وبعض السوارى ذات التاريخ .

وقد قال النووى : إذا كان الشخص سيصلى منفرداً أو نفلا ، فإن الأفضل أن يكون فى الروضة وإلا ففى المسجد الأول ، وإذا كان فى الجماعة ، فعليه أن يتحرى الصف الأول ، وإلا ففى أى مكان من المسجد ، وهذا معقول المعنى . والحمد لله .

المبحث الرابع

وهو بعد هذه التوسعة وانتقال الصف الأول عن الروضة ، فهل الأفضل الصلاة فى الجماعة فى الصف الأول ، أم فى الروضة مع تخلفه عن الأول ؟ ولتصوير هذه المسألة نقدم الآتى :

أمام المصلى موضعان أحدهما الروضة ، بفضلها روضة من رياض الجنـة .

والصف الأول ، وفيه : لو يعلمون ما الصف الأول لاستهموا عليه ، فأى الموضعين يقدم على الآخر ؟

ومعلوم أنهم كانوا قبل التوسعة يمكنهم الجمع بين الفضيلتين ، إذ الصف الأول كان فى الروضة .

أما الآن وبعد التوسعة فقد انفصل الصف الأول عن الروضة ، ما دام الامام يصلى فى مقدمة المسجد ، ولم أقف على تفصيل فى المسألة .

ولكن عمومات للنووى ، وللشيخ ابن تيمية رحمهما الله على ما قدمنا فى مبحث شمول المضاعفة للزيادة ، ولكن توجد قضية يمكن استنتاج الجواب منها ، وهى قبل التوسعة كان للصف الأول ميمنة وميسرة ، وكان للميمنة فضيلة على الميسرة . ومعلوم أن ميمنة الصف قبل التوسعة كانت تقع غربى المنبر أى خارجة عن الروضة ، والميسرة كلها كانت فى الروضة ، ومع ذلك فقد كانوا يفضلون الميمنة على الميسرة لذاتها عن الروضة لذاتها أيضاً ، فإذا كانت الميمنة وهى خارج الروضة مقدمة عندهم عن الروضة ، فلأن يقدم الصف الأول من باب أولى .

وهناك حقيقة فقهية ذكرها النووى ، وهى تقديم الوصف الذاتى على الوصف العرضى ، وهو هنا الصف الأول وصف ذاتى للجماعة . وفضل الروضة وصف عرضى للمكان . أى لكل حال من ذكر أو صلاة فريضة أو نافلة ، فتقديم الصف الأول لكونه ذاتيا بالنسبة للجماعة أولى من تقديم الروضة لكونه وصفاً عرضياً .

وقد مثل لهذه القاعدة النووى بقوله : فلو أن إنسانا فى طريقه إلى الصلاة بالمسجد النبوى فوجد مسجدا آخر يصلى جماعة فكان بين

أن يدرك الجماعة مع هؤلاء أو يتركها، ويمضى إلى المسجد النبوى، وتفوته الصلاة فيصلى منفرداً بألف صلاة، فقال: يصلى فى هذا المسجد جماعة أولى له، لأنه تحصيل الجماعة وصف ذاتى للصلاة، وتحصيل خير من ألف صلاة وصف عرضى بسبب فضل المسجد النبوى اهـ. ملخصاً.

وقد يقال أيضاً: إن العبد مكلف بإيقاع الصلاة فى جماعة أكثر منه تكليفاً بإيقاعها فى المسجد النبوى، وهكذا الحال فإنا مطالبون بالصف الأول على الإطلاق حيث ما كان أكثر منا مطالبة بالصلاة فى الروضة. والعلم عند الله تعالى.

المبحث الخامس

وهو فى حالة ازدحام المسجد وامتداد الصفوف إلى الخارج فى الشارع أو البرحة، فهل لامتداد الصفوف تلك المضاعفة أم لا؟

لنعلم أن فضيلة الجماعة حاصلة بلا خلاف. أما المضاعفة إلى ألف، فلم أقف على نص فيها، وقد سألت الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عن ذلك مرتين. فى الأولى مال إلى اختصاص المسجد بذلك، وفى المرة الثانية وبينهما نحو من عشر سنوات مال إلى عموم الأجر، وقال مامعناه: إن الزيادة تفضُّل من الله، وهذا امتنان على عباده، فالمؤمل فى سعة فضل الله أنه لا يكون رجلان فى الصف متجاورين أحدهما على عتبة المسجد إلى الخارج، والآخر عليها إلى الداخل، ويعطى هذا ألفا ويعطى هذا واحدة. وكتفاهما متلاصقتان، وهذا واضح والحمد لله.

وقد رأيت فى مسألة الجمعة عند المالكية نصاً ، وكذلك عند غيرهم ممن يشترطون المسجد للجمعة ، فإنهم متفقون أن الصفوف إذا امتدت إلى الشوارع والرحبات خارج المسجد أن الجمعة صحيحة ، مع أنهم أوقعوها فى غير المسجد ، لكن لما كانت الصفوف ممتدة من المسجد إلى خارجه انجر عليها حكم المسجد وصحت الجمعة .

فنقول هنا : كذلك لما كانت الصفوف خارجة عن المسجد النبوى : ينجر عليها حكم المسجد إن شاء الله . والله تعالى أعلم .

وقد يستدل لذلك بالعرف وهو : لو سألت من صلى فى مثل ذلك أين صليت ؟ أفى قباء ؟ أم فى المسجد النبوى ؟ لقال : بل فى المسجد النبوى . فلم يخرج بذلك عن مسمى المسجد عرفاً .

المبحث السادس

وهو عند الزحام فى المسجد النبوى خاصة ، وفى بقية المساجد عامة. حينما يضيق المكان ويضطر المصلون للصلاة فى صفوف عديدة خارج المسجد وأمام الإمام متقدمين عليه بعدة صفوف فما حكم صلاة هؤلاء ؟

قد ذكر النووى فى المجموع الخلاف عن الشافعى . وأن الصحيح من المذهب هو الصحة مع الكراهة .

وذكر المالكية الصحة كذلك ، وقد استدلوا لها بصلاة ابن عباس

رضى الله عنه ذات ليلة عند ميمونة رضى الله عنها بصلاة النبى صلى الله عليه وسلم .

وابن عباس آنذاك غلام ، فقام على يساره صلى الله عليه وسلم ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يمينه تكريماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما شعر به صلى الله عليه وسلم وبعد أن كبر ودخل فى الصلاة ، فأخذه صلى الله عليه وسلم بيده ونقله من ورائه وجعله صلى الله عليه وسلم عن يمينه بحذائه فى موقف الواحد، كما هو معلوم من حكم المنفرد مع الإمام .

ومحل الاستدلال فى ذلك هو أن الجهات بالنسبة للامام أربع : خلفه وهى للكثيرين من اثنين فصاعداً . وعن يمينه وهو موقف الفرد ، ويساره وأمامه ، أما اليسار : فقد وقف فيه ابن عباس وليس بموقف ، فأخذه صلى الله عليه وسلم وجعله عن يمينه .

ولكن بعد أن دخل فى الصلاة وأوقع بعض صلاته فى ذلك المقام ، وقد صحت صلاته حيث بنى على الجزء الذى سبق أن أوقمه عن اليسار لضرورة الجهل بالموقف .

وبقيت جهة الإمام فليست بجهة موقف ، ولكن عند الضرورة والزحمة لم يكن من التقدم على الإمام بد ، فجازت أو فصحت للضرورة ، كما صحت عن يساره صلى الله عليه وسلم . والله تعالى أعلم .

ويقوى هذا الاستدلال أنه لو جاء شخص إلى الجماعة ولم يجد له مكاناً إلا بجوار الإمام ، فإنه يقف عن يمينه بجواره ، كما لو كان منفرداً مع وجود الصفوف العديدة . ولكن صح وقوفه للضرورة .

المبحث السابع

موضوع : الأربعين صلاة ، وهو من جهة خاص بالمسجد النبوى ، ومن جهة عام فى كل مسجد ، ولكن لا بأربعين صلاة بل بأربعين يوما . أما مايخص المسجد النبوى ، فقد جاء فى حديث أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من صلى فى مسجدى أربعين صلاة لاتفوته صلاة كتبت له براءة ونجاة من العذاب ، وبرىء من النفاق » .

قال المنذرى فى الترغيب والترهيب : رواته رواة الصحيح . أخرجه أحمد فى مسنده والطبرانى فى الأوسط .

وفى مجمع الزوائد : رجاله ثقات . وهو عند الترمذى بلفظ : « من صلى أربعين يوماً فى جماعة يدرك التكبيرة الأولى كتب له براءتان : براءة من النار ، وبراءة من النفاق .

قال الترمذى : هو موقوف على أنس ، ولا أعلم أحداً رفعه .

وقال ملا على القارى : مثل هذا لايقال بالرأى ، وقد تكلم بعض الناس فى هذا الحديث بروايتين .

أما الأولى : فبسبب نبيط ابن عمر .

وأما الثانية : فمن جهة الرفع والوقف . وقد تتبع هـذين الحديثين بعض أهل العلم بالتدقيق فى السند ، وأثبت صحة الأول وحكم الرفع للثانى . وقد أفردها الشيخ حماد الأنصارى برسالة رد فيها على بعض من تكلم فيهما من المتأخرين . نوجز كلامه فى الآتى :

قال الحافظ ابن حجر فى تعجيل المنفعة فى زوائد الأربعة : نبيط ابن عمر ، ذكره ابن حبان فى الثقات ، فاجتمع على توثيق نبيط كل من ابن حبان والمنذرى والبيهقى وابن حجر ، ولم يجرحه أحد من أئمة هذا الشأن . فمن ثم لايجوز لأحد أن يطعن ولا أن يضعف من وثقه أئمة معتبرون ، ولم يخالفهم إمام من أئمة الجرح والتعديل . وكفى من ذكروا من أئمة هذا الشأن قدوة .

ذلك ولو فرض وقدر جدلا أنه فى السند مقالا ، فإن أئمة الحديث لايمنعون إذا لم يكن فى الحديث حلال أو حرام أو عقيدة ، بل كان باب فضائل الأعمال لايمنعون العمل به ، لأن باب الفضائل لايشدد فيه هذا التشديد .

ونقل السيوطى مثل ذلك عن أحمد وابن والمبارك .

أما حديث إدراك تكبيرة الإحرام فى أى مسجد ، فهذا أعم من موضوع المسجد النبوى الذى نتحدث عنه ، وكل أسانيده ضعيفة ولكن

قال الحافظ ابن حجر : يندرج ضمن مايعمل به فى فضائل الأعمال . انتهى ملخصاً .

وهذا الحث على أربعين صلاة فى المسجد النبوى لعله والله تعالى أعلم من باب التعود والتزود، لما يكسبه ذلك العمل من مداومة وحرص على أداء الصلوات الخمس ثمانية أيام فى الجماعة ، واشتغاله الدائم بشأن الصلاة وحرصه عليها ، حتى لاتفوته صلاة مما يعلق قلبه بالمسجد ، فتصبح الجماعة له ملكة ويصبح مرتاحاً لارتياد المسجد وحريصاً على بقية الصلوات فى بقية أيامه لاتفوته الجماعة إلا من عذر .

فلو كان زائراً ورجع إلى بلاده رجع بهذه الخصلة الحميدة ، ولعل فى مضاعفة الصلاة بألف تكون بمثابة الدواء المكثف الشديد الفعالية ، السريع الفائدة ، أكثر مما جاء فى عامة المساجد بأربعين يوماً لا تفوته تكبيرة الإحرام ، إذ الأربعون صلاة فى المسجد النبوى تعادل أربعين ألف صلاة فيما سواه ، وهى تعادل حوالى صلوات اثنين وعشرين سنة .

ولو راعينا أجر الجماعة خمساً وعشرين درجة ، لكانت تعادل صلاة المنفرد خمسمائة وخمسين سنة ، أى فى الأجر والثواب لا فى العدد ، أى كيفاً لا كماً ، كما قدمنا . وفضل الله عظيم .

وليعلم أن الغرض من هذه الأربعين هو كما أسلفنا التعود والحرص على الجماعة .

أما لو رجع فترك الجماعة و تهاون فى شأن الصلاة عياذاً بالله، فإنها تكون غاية النكسة . نسأل الله العافية ، كما يعلم أن هذه الأربعين صلاة لاعلاقة لها لا بالحج ولا بالزيارة ، على ماتقدم للشيخ رحمه الله فى آداب الزيارة فى سورة الحجرات .

وأن الزيارة تتم بصلاة ركعتى تحية المسجد والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى صاحبيه رضوان الله تعالى علينا وعليهم ، ثم الدعاء لنفسه والمسلمين بالخير ، ثم إن شاء انصرف إلى أهله ، وإن شاء جلس ماتيسر له . وبالله تعالى التوفيق .

مبحث السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان جانب من جوانب السلام على رسول صلى الله عليه وسلم عند الكلام على قوله تعالى : (أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون) فى التحذير من مبطلات الأعمال وبيان ماهو حق لله فلا يصرف لغيره ، وما هو حق لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يتجاوز به .

وقد يجر الحديث عن السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفضله وفضيلته إلى موضوع شد الرحال إلى المسجد ، وإلى السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

شد الرحال إلى المسجد النبوى
للسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم

ومما اختص به المسجد النبوى ، بل ومن أهم خصائصه بعد الصلاة، السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم من داخل هذا المسجد قديماً وحديثاً .

كما جاء فى الصحيح « مامن أحد يسلم علىّ إلا رد الله علىّ روحى فأرد عليه السلام » ويجمعون أن ذلك يحصل لمن سلم عليه صلى الله عليه وسلم من قريب ، وما كان هذا السلام يوماً من الأيام إلا من المسجد النبوى سواء قبل أو بعد إدخال الحجرة فى المسجد .

ومعلوم أن أول آداب الزيارة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم ، البدء بصلاة ركعتين تحية المسجد وبعد السلام ينصرف عن المواجهة ويدعو ماشاء وهو فى أى مكان من المسجد .

وهنا مسألة طالما أثير النزاع فيها : وهى شد الرحال للسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهى إن كان محلها مبحث الزيارة وأحكامها وآدابها ، إلا أننا نسوق موجزاً عنها بمناسبة حديث شد الرحال ، ونسأل الله تعالى الهداية والتوفيق .

من المعلوم أن أصل هذه المسألة هو حديث : لاتشد الرحال إلا

إلى ثلاثة مساجد » المتقدم ذكره لاختلافهم فى تقدير المستثنى منه . والمراد بشد الرحال إليه فى تلك المساجد ، أهو خصوص الصلاة أم للصلاة وغيرها .

ولنتصور حقيقة هذه المسألة ينبغى أن نعلم أولا أن البحث فى هذه المسألة له ثلاث حالات :

الأولى شد الرحال إلى المسجد النبوى للزيارة . وهذا مجمع عليه .

الثانية : زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم والسلام عليه من قريب بدون شد الرحال ، وهذا أيضاً مجمع عليه .

الثالثة : شد الرحال للزيارة فقط .

وهذه الحالة الثالثة هى محل البحث عندهم ومثار النقاش السابق .

قال ابن حجر فى فتح البارى على حديث شد الرحال : قال الكرمانى : وقد وقع فى هذه المسألة فى عصرنا فى البلاد الشامية مناظرات كثيرة ، وصنفت فيها مسائل من الطرفين .

قلت : أى ابن حجر ، يشير إلى مارد به الشيخ تقى الدين السبكى وغيره على الشيخ تقى الدين ابن تيمية ، وما انتصر به الحافظ شمس الدين ابن عبد الهادى وغيره لابن تيمية وهى مشهورة فى بلادنا. اهـ ، وهذا يعطينا مدى الخلاف فيها وتاريخه .

وقد أشار ابن حجر إلى مجمل القول فيها بقوله : إن الجمهور

أجازوا بالإجماع شد الرحال لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن حديث « لا تشد الرحال » إنما يقصد به خصوص الصلاة ، وليس مكان أولى من مكان بالصلاة تشد له الرحال إلا المساجد الثلاثة لما خصت من فضيلة مضاعفة الصلاة فيها .

والشيخ تقي الدين جعل موضوع النهى عن شد الرحال عاماً للصلاة وغيرها . واعترض عليه باتفاق الأمة على جواز شد الرحال لأى مكان لعدة أمور كما هو معلوم .

ومما استدل به على عدم شد الرحال لمجرد الزيارة ، ماروى عن مالك كراهية أن يقال زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم .

وأجيب عن ذلك : بأن كراهية مالك للفظ فقط تأدباً لا أنه كره أصل الزيارة ، فإنها من أفضل الأعمال وأجل القربات الموصلة إلى ذى الجلال ، وأن مشروعيتها محل إجماع بلا نزاع . والله الهادى إلى الصواب . اهـ .

ولعل مذهب البخارى حسب صنيعه هو مذهب الجمهور ، لأنه أتى فى نفس الباب بعد حديث شد الرحال مباشرة بحديث « صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه » مما يشعر بأنه قصد بيان موجب شد الرحال هو فضيلة الصلاة فيكون النهى عن شد الرحال مختصاً بالمساجد ولأجل الصلاة إلا فى تلك المساجد الثلاثة لاختصاصها

بمضاعفة الصلاة فيها دون غيرها من بقية المساجد والأماكن الأخرى .

وقد ناقش ابن حجر لفظ الحديث ورجح هذا المذهب حيث قال:

قال بعض المحققين قوله « إلا إلى ثلاثة مساجد » المستثنى منه محذوف . فإما أن يقدر عاما فيصير لاتشد الرحال إلى مكان فى أى أمر كان إلا إلى الثلاثة . أو أخص من ذلك . لاسبيل إلى الأول لافضائه إلى سد باب السفر للتجارة وصلة الرحم وطلب العلم وغيرها ، فتعين الثانى .

والأولى أن يقدر ماهو أكثر مناسبة وهو لاتشد الرحال إلى مسجد للصلاة فيه إلا إلى الثلاثة . فيبطل بذلك قول : من منع شد الرحل إلى زيارة قبره الشريف صلى الله عليه وسلم . وغيره من قبور الصالحين . والله أعلم .

وقال السبكى الكبير : ليس فى الأرض بقعة تفضل لذاتها حتى تشد إليها الرحال غير البلاد الثلاثة .

ومرادى بالفضل : ماشهد الشرع باعتباره ورتب عليه حكما شرعيا . أما غيرها من البلاد فلا تشد إليها لذاتها ، بل لزيارة أو جهاد أو علم أو نحو ذلك من المندوبات أو المباحات .

قال : وقد التبس ذلك على بعضهم ، فزعم أن شد الرحال إلى الزيارة

لمن فى غير الثلاثة داخل فى المنع وهو خطأ، لأن الاستثناء إنما يكون من جنس المستثنى منه .

فمعنى الحديث : لاتشد الرحال إلى مسجد من المساجد أو إلى مكان من الأمكنة لأجل ذلك المكان إلا إلى الثلاثة المذكورة .

وشد الرحال إلى زيارة أو طلب ليس إلى المكان بل إلى من فى ذلك المكان . والله أعلم . اهـ .

وبتأمل كلام ابن حجر، نجده يتضمن إجراء معادلة على نص الحديث بأن له حالتين فقط .

الأولى : أن يقال لاتشد الرحال إلا إلى المساجد الثلاثة لخصوص الصلاة ولا تشد لغيرها من الأماكن لأجل الصلاة ، فيكون النهى منصباً على شد الرحال لأى مكان سوى المساجد الثلاثة من أجل أن يصلى فيما عداها . فيبقى غير الصلاة خارجاً عن النهى فتشد له الرحال لأى مكان كان .

وغير الصلاة يشمل طلب العلم والتجارة والنزهة والاعتبار والجهاد ونحو ذلك ، والنصوص فى ذلك كله متضافرة .

ففى طلب العلم ماقدمنا من نصوص ، وقد رحل نبى الله موسى إلى الخضر، كما قال تعالى : (وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقباً) إلى قوله : (لقد لقينا من سفرنا هذا

نصبا) إلى قوله : (قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا) .

وفى السفر للتجارة قوله تعالى : (وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله) .

وقوله : (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) وغيرها كثيرة .

والسفر للعبرة قوله تعالى : (قل سيروا فى الأرض فانظروا)

وقوله (ثم دمرنا الآخرين وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون)

وقوله : (فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور)

فقد أمر الله العباد بالسير ليعقلوا بقلوبهم حالة تلك القرى الخاوية ليتعظوا بأحوال أهلها .

فهذه نصوص جواز السفر لعدة أمور ، فيكون من ضمنها السفر لزيارة النبى صلى الله عليه وسلم والسلام عليه . حيث إن السلام عليه صلى الله عليه وسلم من الأمور المشروعة بلا نزاع ، والحالة الثانية : أن يكون النهى عاماً لجميع الأماكن فى جميع الأمور فلا تشد الرحال قط إلا إلى الثلاثة المساجد وبلدانها الثلاثة .

ولكن لا لخصوص الصلاة فقط ، بل لكل شيء مشروع بأصله مما قدمنا أنواعه من طلب العلم والتجارة والعظة والنزهة وغير ذلك ، كصوم واعتكاف ومجاورة وحج وعمرة وصلة رحم ، ومشاهدة معالم تاريخية ونحو ذلك .

ومن هذا كله السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا شد الرحال إلى المدينة لكل شيء كان منها الزيارة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا معارضة على حالة من الحالتين ، ولا يتعارض معهما الحديث المذكور ، على أى تقدير المستثنى منه فى هذا الحديث .

وجهة نظر

وبالتحقيق فى هذه المسألة وإثارة النزاع فيها يظهر أن النزاع والجدال فيها أكثر مما كانت تحتمل ، وهو إلى الشكلى أقرب منه إلى الحقيقى . ولا وجود له عمليا .

وتحقيق ذلك كالآتى : وهو ما داموا متفقين على شد الرحال للمسجد النبوى للسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومتفقون على السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم بدون شد الرحال .

فلن يتأتى لإنسان أن يشد الرحال للسلام دون المسجد ، ولا يخطر

ذلك على بال إنسان ، وكذلك شد الرحل للصلاة فى المسجد النبوى دون أن يسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يخطر على بال إنسان . وعليه فلا انفكاك لأحدهما عن الآخر .

لأن المسجد النبوى ما هو إلا بيته صلى الله عليه وسلم ، وهل بيته إلا جزء من المسجد كما فى حديث الروضة « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » .

فهذا قوة ربط بين بيته ومنبره فى مسجده .

ومن ناحية أخرى هل يسلم أحد عليه صلى الله عليه وسلم من قريب ، ليقال فضل رد السلام عليه منه صلى الله عليه وسلم ، إلا إذا كان سلامه عن قرب ومن المسجد نفسه ؟

وهل تكون الزيارة سنية إلا إذا دخل المسجد وصلى أولا تحية المسجد ؟

وبهذا فلا انفكاك لشد الرحل إلى المسجد عن زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا لزيارته صلى الله عليه وسلم عن المسجد ، فلا موجب لهذا النزاع .

وهنا وجهة نظر أخرى وهى ، أن قوله صلى الله عليه وسلم « ما من

أحد يسلم عليّ إلا رد الله عليّ روحي فأرد عليه السلام » . فإن إطلاقه عن كل قيد من قرب أو بعد مما يدل على العموم من حيث المجيء للسلام عليه .

فيقال : إن هذه فضيلة عظيمة ولا يتأتى للبعيد تحصيلها إلا بشد الرحال إليها كوسيلة لتحصيلها والوسيلة تأخذ حكم الغاية من وجوب أو ندب أو إباحة ، كالسعي إلى الجمعة واجب ، لأن أداء الجمعة واجب ، وإعداد الثياب الجميلة إليها مثلا مندوب ، لأن التجمل إليها مندوب ومثله إعداد الطيب بالنسبة لحضورها .

وقد رأيت لشيخ الإسلام ابن تيمية مناقشة هذه المسألة ، ولكنه جاء بأمثلة قابلة هي للنقاش فقال : ليس كل غاية مشروعة تكون وسيلتها مشروعة ، كحج المرأة وخروجها إلى المسجد ، فإن الأول مشروط فيه وجود المحرم . والثاني : مشروط فيه إذن الزوج .

والنقاش لها أن سفر المرأة مطلقا ممنوع إلا مع المحرم ، سواء كان لهذا المسجد وللحج أو لغيره .

وخروجها إلى المسجد ليس بمطلوب منها في الأصل ، ولكن إذا طلبت الإذن يؤذن لها . فالأصل فيه المنع حتى تحصل على الإذن .

وعلى هذا يقال : لو كان شد الرحل إليها غير مشروع لما كان

لفاعله نصيب فى فضلها ، ولا يحصل على رد السلام منه صلى الله عليه وسلم .

ولو كان كذلك للزم التنبيه عليه عند بيان فضيلته لعدم تأخير البيان ، فكان يقال مثلا : فأرد عليه السلام ، إلا من شد الرحل لذلك . أو يقال من أتانى من قريب فسلم علىّ . . . الخ . ولكن لم يأت شىء من هذا التنبيه وبقى الحديث على عمومه .

وليعلم أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يفرق بين السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين عامة المسلمين ، لما لرسول الله صلى الله عليه وسلم من حقوق وخصائص ليست لغيره من وجوب محبة وتعظيم وفرضية صلاة وتسليم فى صلواتنا وعند دخول المساجد والخروج منها ، بل وعند سماع ذكره مما ليس لغيره قط .

كما أن زيارة غيره صلى الله عليه وسلم للدعاء له والترحم عليه ، بينما زيارته صلى الله عليه وسلم والسلام عليه ليرد الله تعالى عليه روحه فيرد علينا السلام .

وزيارة غيره فى أى مكان من العالم لا مزية له ، بينما زيارته صلى الله عليه وسلم من مسجده وقد خص بما لم يختص به غيره .

وأعتقد أن هذه المسألة لولا نزاع معاصرى شيخ الإسلام معه فى غيرها لما كان لها محل ولا مجال .

ولكنهم وجدوها حساسة ولها مساس بالعاطفة ومحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأثاروها وحكموا عليه بالالتزام . أى يلازم كلامه حينما قال :

لا يكون شد الرحال لمجرد الزيارة ، بل تكون للمسجد من أجل الزيارة ، عملا بنص الحديث فتقولوا عليه مالم يقله صراحة . ولو حمل كلامه على النفى بدل من النهى لكان موافقاً ، أى لايتأتى ذلك لأنه رحمه الله لم يمنع زيارته صلى الله عليه وسلم ولا السلام عليه ، بل يجعلها من الفضائل والقربات ، وإنما يلتزم بنص الحديث فى جعل شد الرحال إلى المسجد ، ولكل شىء ومنه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صرح بذلك فى كتبه .

قال فى بعض رسائله وردوده مانصه :

فصل

قد ذكرت فيما كتبته من المناسك أن السفر إلى مسجده وزيارة قبره ، كما يذكر أئمة المسلمين فى مناسك الحج عمل صالح مستحب .

وقد ذكرت فى عدة مناسك الحج السنة فى ذلك وكيف يسلم عليه ، وهل يستقبل الحجرة أم القبلة على قولين . فالأكثرون يقولون يستقبل الحجرة ، كمالك والشافعى وأحمد إلى أن قال :

والصلاة تقصر فى هذا السفر المستحب باتفاق أئمة المسلمين ، لم يقل

أحد من أئمة المسلمين إن هذا السفر لاتقصر فيه الصلاة ولا نهى أحد عن السفر إلى مسجده ، وإن كان المسافر إلى مسجده يزور قبره صلى الله عليه وسلم ، بل هذا من أفضل الأعمال الصالحة ولا فى شىء من كلامى وكلام غيرى نهى عن ذلك ولا نهى عن المشروع فى زيارة قبور الأنبياء والصالحين ، ولا عن المشروع فى زيارة سائر القبور .

إلى أن قال :

وإذا كانت زيارة قبور عموم المؤمنين مشروعة فزيارة قبور الأنبياء والصالحين أولى .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم له خاصية ليست لغيره من الأنبياء والصالحين ، وهو أن أمرنا أن نصلى عليه ونسلم عليه فى كل صلاة ، ويتأكد ذلك فى الصلاة وعند الأذان وسائر الأدعية ، وأن نصلى ونسلم عليه عند دخول المسجد ، مسجده وغير مسجده ، وعند الخروج منه. فكل من دخل مسجده فلابد أن يصلى فيه ويسلم عليه فى الصلاة .

والسفر إلى مسجده مشروع ، لكن العلماء فرقوا بينه وبين غيره ، حين كره مالك رحمه الله أن يقال : زرت قبر النبى صلى الله عليه وسلم . لأن المقصود الشرعى بزيارة القبور السلام عليها والدعاء لهم ، وذلك السلام والدعاء قد حصل على أكمل الوجوه فى الصلاة فى مسجده وغير مسجده ، وعند سماع الأذان وعند كل دعاء . فتشرع الصلاة عليه عند كل دعاء ، فإنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم . اهـ .

وإذا كان هـذا كلامه رحمه الله ، فإن المسألة شكلية وليست حقيقية . إذ أنه يقرر بأن السفر إلى مسجده صلى الله عليه وسـلم مشروع وإن كان يزور قبره صلى الله عليـه وسلم ويسلم عليه ، وأن ذلك من أفضل القربات ومن صالح الأعمال .

أى وإن كانت الزيارة مقصودة عند السفر .

وإذا كان السفر إلى المسجد لاينفك عن السـلام عليه صلى الله عليه وسلم ، والسلام عليه لاينفك عن الصلاة فى المسجد . فلا موجب لهذا النقاش ، وجعل هذه المسأله مثار نزاع أو جدال .

وقد صرح رحمه الله بما يقرب من هذا المعنى فى موضع آخر من كلامه ، إذ يقول فى ج ٢٧ ص ٣٤٢ من المجموع مانصه :

فمن سافر إلى المسجد الحرام أو المسجد الأقصى أو مسجد الرسول صلى الله عليه وسـلم فصلى فى مسجده وصلى فى مسجد قباء ، وزار القبور كما قضت به سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهذا هو الذى عمل العمل الصالح .

ومن أنكر هذا السفر ، فهو كافر يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل .

وأما من قصد السفر لمجرد زيارة القبر ولم يقصد الصلاة فى المسجد ، وسافر إلى مدينته فلم يصل فى مسجده صلى الله عليه وسلم ولا يسلم عليـه فى الصلاة ، بل أتى القبر ثم رجع فهـذا مبتـدع ضال ، مخالف لسنة

رسول الله صلى الله عليه وسلم ولإجماع أصحابه ولعلماء الأمة .

وهو الذى ذكر فيه القولان : أحدهما أنه محرم. والثانى أنه لاشىء عليه ولا أجر له .

والذى يفعله علماء المسلمين هو الزيارة الشرعية يصلون فى مسجده صلى الله عليه وسلم ويسلمون عليه فى الدخول للمسجد وفى الصلاة ، وهذا مشروع باتفاق المسلمين . إلى أن قال : وذكرت أنه يسلم على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى صاحبيه . ا هـ .

فأى موجب لنزاع أو خلاف فى هذا القول ، فإن كان فى قوله رحمه الله فيمن قصد السفر لمجرد زيارة القبر ولم يقصد الصلاة فى المسجد ، وسافر إلى مدينته فلم يصل فى مسجده صلى الله عليه وسلم ولا سلم عليه فى الصلاة بل أتى القبر ثم رجع فهذا مبتدع .. الخ .

فمن من المسلمين يجيز لمسلم أن يشد رحله إلى المدينة لمجرد زيارة القبر دون قصد الصلاة فى مسجده صلى الله عليه وسلم ، ودون أن يصلى عليه صلى الله عليه وسلم فى الصلاة ، وهو يعلم أن الصلاة فى مسجده صلى الله عليه وسلم بألف صلاة .

فدل كلامه رحمه الله أن زيارة القبر والصلاة فى المسجد مرتبطتان ومن ادعى انفكاكهما عملياً فقد خالف الواقع ، وإذا ثبتت الرابطة بينهما انتفى الخلاف وزال موجب النزاع . والحمد لله رب العالمين .

وصرح فى موضع آخر ص ٣٤٦ فى قصر الصلاة فى السفر لزيارة قبور الصالحين عن أصحاب أحمد أربعة أقوال . الثالث منها تقصر إلى قبر نبينا عليه الصلاة والسلام .

وقال فى التعليل لهذا القول : إذا كان عامة المسلمين لابد أن يصوا فى مسجده فكل من سافر إلى قبره المكرم فقد سافر إلى مسجده المفصل

وكذلك قال بعض أصحاب الشافعى ، إلى أن قال : وكذلك كثير من العلماء يطلق السفر إلى قبره المكرم ، وعندهم أن هذا يتضمن السفر إلى مسجده ، إذ كان كل مسلم لابد إذا أتى الحجرة المكرمة أن يصلى فى مسجده فهما عندهم متلازمان .

وبعد نقله لأقوال العلماء قال مانصه :

وحقيقة الأمر أن فعل الصلاة فى مسجده من لوازم هذا السفر ، فكل من سافر إلى قبره المكرم لابد أن تحصل له طاعة وقربة يثاب عليها بالصلاة فى مسجده .

وأما نفس القصد فأهل العلم بالحديث يقصدون السفر إلى مسجده ، وإن قصد منهم من قصد السفر إلى القبر أيضاً إذا لم يعلم النهى .

وهذا غاية فى التصريح منه رحمه الله أنه لا انفكاك من حيث الواقع بين الزيارة والصلاة فى المسجد عند عامة العلماء .

ثم قال فى حق الجاهل : وأما من لم يعرف هذا فقد لايقصد إلا السفر إلى القبر ، ثم إنه لابد أن يصلى فى مسجده فيثاب على ذلك . وما فعله وهو منهى عنه ولم يعلم أنه منهى عنه لايعاقب عليه فيحصل له أجر ولا يكون عليه وزر . اهـ .

وقد أكثرنا النقول عنه رحمه الله لما وجدنا من لبس فى هذا الموضوع على كثير من الناس ، حتى قال ابن حجر فى فتح البارى فيها : وهذا أعظم ما أخذ على شيخ الإسلام ابن تيمية ، فهى وإن كانت شهادة من ابن حجر أنها أشد ما أخذ عليه مع مارمى به من خصومه فى العقائد ومحاربة البدع ، إلا أنها بحمد الله بعد هذه النقول عنه من صريح كلامه لم يعد فيها ما يتعاظم منه ، فعلى كل متكلم فى هذه المسألة أن يرجع إلى أقواله رحمه الله فلم يترك جانبا إلا وبينه سواء ، فى حق العالم أو الجاهل . وبالله تعالى التوفيق .

هذا مايتعلق بخصوص السفر إلى المدينة المنورة للمسجد وللزيارة معاً ، على التفصيل المتقدم .

أما بقية الأماكن ماعدا المساجد الثلاثة فلا تشد الرحال إليها للصلاة أو الدعاء أو الاعتكاف ونحو ذلك ، مما لامزية لها فى مكان دون آخر قط ، أياً كانت تلك البقعة أو كانت تلك العبادة وذلك لحديث أبى هريرة فى الموطأ فى الساعة التى فى يوم الجمعة قال : « خرجت

إلى الطور فلقيت كعب الأحبار فجلست معه فحدثنى عن التوراة ، وحدثته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان فيما حدثته أن قلت له : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه أهبط ، وفيه تيب عليه ، وفيه مات ، وفيه تقوم الساعة ، وما من دابة إلا وهى مصيخة يوم الجمعة من حين تطلع الشمس شفقا من الساعة إلا الجن والإنس ، وفيه ساعة لايصادفها عبد مسلم وهو يصلى يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه » .

قال كعب : ذلك فى كل سنة يوم . فقلت : بل فى كل جمعة ، فقرأ كعب التوراة فقال صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال أبوهريرة : فلقيت بصرة بن أبى بصرة الغفارى فقال : من أين أقبلت ؟ فقلت من الطور فقال : لو أدركتك قبل أن تخرج إليه ماخرجت ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لاتعمل المطى إلا إلى ثلاثة مساجد : إلى المسجد الحرام وإلى مسجدى هذا وإلى مسجد إيلياء أو بيت المقدس » يشك أبوهريرة .

ثم لقيت عبد الله بن سلام فحدثته بمجلسى مع كعب الأحبار وماحدثته به فى يوم الجمعة إلى آخر الحديث هذا العظيم .

قال الباجى : على هذا الحديث خروج أبوهريرة إلى الطور يحتمل أن يكون لحاجة عنت له فيه ، ويحتمل أن يكون قصده على معنى التعبد

والتقرب بإتيانه ، إلا أن قول بصرة : لو أدركتك قبل أن تخرج إليه ماخرجت . دليل على أن فهم منه التقرب بقصده . وسكوت أبى هريرة حين أنكر عليه دليل على أن الذى فهم منه كان قصده أقول لقد صرح أبو هريرة أنه كان للصلاة كما فى مجمع الزوائد لأحمد عن شهر ، وقال : حسن .

والحديث يدل على أن من نذر صلاة بمسجد البصرة أو الكوفة أنه يصلى بموضعه ولا يأتيه لحديث بصرة المنصوص فى ذلك ، وذلك أن النذر يكون فيما فيه القربة . ولا فضيلة لمساجد البلاد على بعضها البعض ، تقتضى قصده بإعمال المطى إليه إلا المساجد الثلاثة فإنها تختص بالفضيلة .

وأما من نذر الصلاة والصيام فى شىء من مساجد الثغور ، فإنه يلزمه إتيانها والوفاء بنذره لأن نذره قصدها لم يكن لمعنى الصلاة فيها ، بل قد اقترن بذلك الرباط فوجب الوفاء به .

ولا خلاف فى المنع من ذلك من غير المساجد الثلاثة ، إلا ماقاله محمد بن مسلمة فى المبسوط . فإنه أضاف إلى ذلك مسجداً رابعاً وهو مسجد قباء ، فقال : من نذر أن يأتيه فيصلى فيه كان عليه ذلك . اهـ.

ولعل مقصد محمد بن مسلمة فى إضافته مسجد قباء العمل بما جاء فى مسجد قباء من أثر اختص به عن أنس بن مالك فيما رواه عمر

ابن شيبة قال حدثنا سويد بن سعيد قال حدثنا أيوب بن صيام عن سعيد بن الرقيش الأسدى قال : جاءنا أنس بن مالك إلى مسجد قباء ، فصلى ركعتين إلى بعض هذه السوارى ، ثم سلم وجلسنا حوله فقال :

سبحان الله ما أعظم حق هذا المسجد ولو كان على مسيرة شهر ، كان أهلا أن يؤتى من خرج من بيته يريده معتمداً إليه ليصلى فيه أربع ركعات أقلبه الله بأجر عمرة .

وتقدم عن وفاء الوفاء نقله بقوله :

وكان هذا الحكم معلوماً عند العامة ، حتى قال ابن شيبة : قال أبو غسان : ومما يقوى هذه الأخبار ويدل على تظاهرها فى العامة والخاصة ، قول عبد الرحمن بن الحكم فى شعر له :

فإن أهلك فقد أقررت عينا من المعتمرات إلى قباء
من اللاتى سوالفهن غيد عليهن الملاحة بالبهاء

تنبيه

إن قول أنس ليشعر بجواز شد الرحل إلى قباء لو كان بعيداً ، ولكنه للمعانى فى المساجد الثلاثة الأخرى ، فلا يتعارض مع الحديث الأول .

تنبيـــه آخر

أبيات الشاعر تشعر بخطأ التجمع فى يوم معين لقباء ، واجتماع الرجال والنساء .

تنبيه ثالث

يوجد فرق بصفة إجمالية عامة بين زيادة عموم المقابر لعامة الناس ، وخصوص زيارة القبور الثلاثة . إذ الغرض من زيارة عامة المقابر هو الدعاء لها وتذكر الآخرة كما قال صلى الله عليه وسلم : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكر الآخرة » .

أما هذه الثلاثة المشرفة فلها خصائص لم يشاركها فيها غيرها :

أولا : ومن حيث الموضوع ارتباطها بالمسجد النبوى أحد المساجد التى من حقها شد الرحال إليها .

ثانيا : عظيم حق من فيها على المسلمين ، إذ بزيارتهم لا بتذكر الآخرة فحسب ، بل ويستفيد ذكريات الدنيا وعظيم جهادهم فى سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه وهداية الأمة والقيام بأمر الله ، حتى عبد الله وحده وعمل بشرعه ، فيما يثير إحساس المسلم وجوب تجديد العهد مع الله تعالى وحده على العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهدى خلفائه الراشدين رضوان الله عليهم .

وهذا ما يجعل الإنسان يتوجه إلى الله عقب السلام عليهم بخالص الدعاء ، أن يجزيهم على ذلك ما يعلم سبحانه أنهم أهل له .

ثالثا : عظيم الفضل من الله على من سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يرد الله تعالى عليه صلى الله عليه وسلم روحه فيرد عليه السلام ، وكل ذلك أو بعضه لا يوجد عند عامة المقابر . وهذا مع مراعاة الآداب الشرعية فى الزيارة لما تقدم .

مسألة

فى هذه الآية الكريمة : (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا) جمع بين مسألتين ، فكأن الأولى تدل على الثانية بمفهومها ، وكأن الثانية تكون منطوق الأولى ، لأن كون المساجد لله يقتضى إفراده تعالى بالعبادة وألا يدعى معه أحد .

أما إفراده بالعبادة ، فقد كتب الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، على ذلك مبحثاً كاملا فى سورة الحجرات فى مسألة من المسائل على قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) .

وبين فى هذه المسألة ما هو حق لله وما هو حق لرسول الله ، ووجوب إفراد الله تعالى بما هو حقه تعالى ، وبين فيها آداب السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن وضع اليد على اليد كهيأة الصلاة نوع من أنواع العبادة التى لا تنبغى إلا لله تعالى . ا هـ .

وأن الجمع هنا بين المفهوم والمنطوق بنفس المفهوم، لما يدل على شدة الاهتمام به والعناية بأمره، وإنه ليلفت النظر إلى ما جاء فى الأحاديث الصحيحة من النهى الأكيد والوعيد الشديد بالنسبة لقضية المساجد ودعوة التوحيد، وما كان يفعله الأولون من بناء المساجد على القبور، ويفتحون بذلك باباً مطلا على الشرك. كحديث أم سلمة وأم حبيبة رضى الله عنهما عند البخارى ومسلم فى قصتيهما على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما شاهدتاه بالحبشة من هذا القبيل، فقال صلى الله عليه وسلم: «أولئك كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة».

وكحديث الصحيحين: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، قالت عائشة: ولولا ذلك لأبرز قبره أبى خشية اتخاذه مسجدا».

وحديث الموطأ قوله صلى الله عليه وسلم: «اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» فكل ذلك مما يشدد الحذر من الجمع بين القبور والمساجد خشية الفتنة وسداً للذريعة، ويشهد لهذا ما ذكره علماء التفسير رحمهم الله من سبب النزول، أن اليهود والنصارى كانوا إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم، أشركوا مع الله غيره، فحذر الله المسلمين أن يفعلوا ذلك.

وهذه المسألة مما تفشت فى كثير من البلدان الإسلامية مما يستوجب

التنبه لها ، وربط هذه الآية بها مع تلك النصوص النبوية الصريحة فى شأنها مهما كان المسجد .

وذكر ابن كثير عن ابن عباس أنه قال : لما نزلت هذه الآية لم يكن فى الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ، ومسجد إيليا ، بيت المقدس .

تنبيـــه

قد أثير فى هذه المسألة تساؤلات من بعض الناس بالنسبة للمسجد النبوى وموضع الحجرة منه بعد إدخالها فيه .

وقد أجاب عن ذلك ابن حجر فى فتح البارى بقوله على حديث عائشة رضى الله عنها ، أنه صلى الله عليه وسلم ، قال فى مرضه الذى مات فيه : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . قالت : ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنى أخشى أن يتخذ مسجدا » رواه البخارى فى كتاب الجنائز .

وفى بعض رواياته غير أنه خشى فقال ابن حجر : وهذا قالته عائشة قبل أن يوسع المسجد النبوى ، ولهذا لما وسع المسجد جعلت حجرتها مثلثة الشكل محددة ، حتى لا يتأتى لأحد أن يصلى إلى جهة القبر مع استقبال القبلة . ا هـ .

وذكرت كتب السيرة وتاريخ المسجد النبوى بعض الأخبار فى ذلك ، من ذلك ما رواه السمهودى فى وفاء الوفاء قال : وعن المطلب قال : كانوا يأخذون من تراب القبر فأمرت عائشة بجدار فضرب عليهم ، وكان فى الجدار كوّة فأمرت بالكوّة فسدّت هى أيضاً .

ونقل عن ابن شيبة قال أبو غسان بن يحيى بن على بن عبد الحميد ، وكان عالما بأخبار المدينة ومن بيت كتابة وعلم : لم يزل بيت النبى صلى الله عليه وسلم الذى دفن فيه هو وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما ظاهرا حتى بنى عمر بن عبد العزيز عليه الخطار المزور الذى هو عليه اليوم ، حين بنى المسجد فى خلافة الوليد بن عبد الملك ، وإنما جعله مزورا كراهة أن يشبه تربيع الكعبة ، وأن يتخذ قبلة يصلى إليه .

قال أبو زيد بن شيبة قال أبو غسان :

وقد سمعت غير واحد من أهل العلم يزعم أن عمر بن عبد العزيز بنى البيت غير بنائه الذى كان عليه وسمعت من يقول : بنى على بيت النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة أجدر فدون القبر ثلاثة أجدر ، جدار بناء بيت النبى صلى الله عليه وسلم ؟ وجدار البيت الذى يزعم أنه بنى عليه ـ يعنى عمر بن عبد العزيز ـ ، وجدار الخطار الظاهر ، وقال : قال أبو غسان فيما حكاه الأقشهدى : أخبرنى الثقة عن عبد الرحمن بن مهدى عن منصور بن ربيعة عن عثمان بن عروة ، قال : قال عروة :

نازلت عمر بن عبد العزيز فى قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، ألا يجعل فى المسجد أشد المنازلة فأبى وقال : كتاب أمير المؤمنين لا بد من إنفاذه .

قال قلت : فإن كان لا بد فاجعل له جؤجؤا ، أي وهو الموضع المزور خلف الحجرة . اهـ .

فهذه منازلة فى موضوع الحجرة والمسجد وهذا جواب عمر بن عبد العزيز .

وقد آلت إليه الخلافة وهو الخليفة الراشد الخامس ، وقد أقر هذا الوضع لما اتخذت تلك الاحتياطات من أن يكون القبر قبلة للمصلين ، وهذا مما لا شك فيه فى خير القرون الأولى ، ومشهد من أكابر المسلمين ، مما لا يدع لأحد مجالا لاعتراض أو احتجاج أو استدلال ، وقد بحثت هذه المسألة من علماء المسلمين ، فى كل عصر .

وقال القرطبى : بالغ المسلمون فى سد الذريعة فى قبر النبى صلى الله عليه وسلم فأعلوا حيطان ترتبه ، وسدوا المدخل إليها ، وجعلوها محدقة بقبره صلى الله عليه وسلم ، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذا كان مستقبل المصلين ، فتصور الصلاة إليه بصورة العبادة ، فبنوا جدارين من ركنى القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال ، حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره . اهـ من فتح المجيد .

وقد قال بعض العلماء : إن هذا العمل الذى اتخذ حيال القبر الشريف وقبرى صاحبيه إنما هو استجابة دعائه صلى الله عليه وسلم « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد » كما قال ابن القيم فى نونيته ، وهو من أشد الناس إنكاراً على شبهات الشرك كشيخه ابن تيمية رحمهما الله تعالى : قال :

فأجاب رب العالمين دعاءه وأحاطه بثلاثة الجدران
حتى غدت أرجاؤه بدعائه فى عزة وحماية وصيان

وقال صاحب فتح المجيد : ودل الحديث أن قبر النبى صلى الله عليه وسلم لو عبد لكان وثناً . ولكن حماه الله تعالى بما حال بينه وبين الناس فلا يوصل إليه .

ودل الحديث على أن الوثن هو ما يباشره العابد من القبور والتوابيت التى عليها . اه .

وهذا الذى قاله حقيقة دقيق مأخذها ، لأنه لو لم يكن بعد إدخال الحجرة فى مأمن من الصلاة إليه لكان وثناً وحاشاه صلى الله عليه وسلم يكون فى حياته داعيا إلى الله وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى يكون قبره وثناً ينافى التوحيد ، ويهدم ما بناه فى حياته .

وكيف يرضى الله لرسوله ذلك حاشا وكلا . هذا مجمل ما قيل فى هذه المسألة .

وجهة نظر

وهنا وجهة نظر ، وإن كنت لم أقف على قول فيها ، وهى أن كل نص متقدم صريح فى النهى عن اتخاذ المساجد على القبور ، بأن يكون القبر أولا ثم يتخذ عليه المسجد . كما جاء فى قصة أصحاب الكهف : (قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا) أى أن القبر أولا والمسجد ثانيا .

أما قضية الحجرة والمسجد النبوى فهى عكس ذلك ، إذ المسجد هو الأول وإدخال الحجرة ثانيا ، فلا تنطبق عليه تلك النصوص فى نظرى . والله تعالى أعلم .

ومن ناحية أخرى لم يكن الذى أدخل فى المسجد هو القبر أو القبور ، بل الذى أدخل فى المسجد هو الحجرة أى بما فيها ، وقد تقدم كلام صاحب فتح المجيد فى تعريف الوثن : أنه ما سجد إليه من قريب .

وعليه فما من مصلّ يبعد عن مكة إلا ويقع بينه وبين الكعبة قبور ومقابر . ولا يعتبر مصليا إلى القبور لبعدها ووجود الحواجز دونه ، وإن كان البعد نسبيا . فكذلك فى موضوع القبور الثلاثة فى الحجرة ، فإنها بعيدة عن مباشرة الصلاة إليها ، والحمد لله رب العالمين .

وأيضاً لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كلاما فى ذلك ملخصه من المجموع جلد ٢٧ ص ٣٢٣ وكأن النبى صلى الله عليه وسلم لما

مات ودفن فى حجرة عائشة رضى الله عنها . وكانت هى وحجر نسائه فى شرقى المسجد وقبليه ، لم يكن شىء من ذلك داخلا المسجد . واستمر الأمر على ذلك إلى أن انقرض عصر الصحابة بالمدينة .

ثم بعد ذلك فى خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان بنحو من سنة من بيعته وُسِّع المسجد وأدخلت فيه الحجرة للضرورة . فإن الوليد كتب إلى نائبه عمر بن عبد العزيز ، أن يشترى الحجر من ملاكها ورثة أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، فإنهن كن توفين كلهن رضى الله عنهن ، فأمره أن يشترى الحجر ويزيدها فى المسجد فهدمها وأدخلها فى المسجد ، وبقيت حجرة عائشة على حالها . وكانت مغلقة لا يمكن أحد من الدخول إلى قبر النبى صلى الله عليه وسلم لا لصلاة عنده ولا لدعاء ولا غير ذلك . إلى حين كانت عائشة فى الحياة وهى توفيت قبل إدخال الحجرة بأكثر من عشرين أو ثلاثين سنة .

وقال فى صفحة ٣٢٨ : ولم تكن تمكن أحداً أن يفعل عند قبره شيئا مما نهى عنه وبعدها كانت مغلقة ، إلى أن أدخلت فى المسجد فسد بابها وبنى عليها حائط آخر .

فكل ذلك صيانة له صلى الله عليه وسلم ، أن يتخذ بيته عيداً

وقبره وثنا . وإلا فمعلوم أن أهل المدينة كلهم مسلمون ، ولا يأتى إلى هناك إلا مسلم وكلهم معظمون للرسول صلى الله عليه وسلم ، فما فعلوا ذلك ليستهان بالقبر المكرم بل فعلوه لئلا يتخذ وثنا يعبد . ولا يتخذ بيته عيدا ، ولئلا يفعل به كما فعل أهل الكتاب بقبور أنبيائهم . انتهى .

وتقدم شرح ابن القيم لوضع الجدران الثلاثة وجعل طرف الجدار الثالث من الشمال على شكل رأس مثلث ، وأن المشاهد اليوم بعد ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله ، وجود الشبك الحديدى من وراء ذلك كله ، ويبعد عن رأس المثلث إلى الشمال ما يقرب من ستة أمتار يتوسطها ، أى تلك المسافة محراب كبير ، وهذا كان فى المسجد سابقاً ، أى قبل الشبك . مما يدل على بعد ما بين المصلى فى الجهة الشمالية من الحجرة المكرمة وبين القبور الثلاثة ، وينفى أي علاقة للصلاة من ورائه بالقبور الشريفة . والحمد لله رب العالمين .

وفى ختام هذه المسألة وقد أثير فيها كلام فى موسم حج سنة ١٣٩٤ فى منى ومن بعض المشتغلين بالعلم نقول :

لو أنها لم تدخل بالفعل لكان للقول بعدم إدخالها مجال . أما وقد أدخلت بالفعل وفى عهد عمر بن عبد العزيز وفى القرون المشهود

لها بالخير ، ومضى على إدخالها ثلاثة عشر قرنا ، فلا مجال للقول إذاً .

ومن ناحية أخرى، فإن النبي صلى الله عليه وسلم سكت على ما هو أعظم من ذلك ، ألا وهو موضوع بناء الكعبة وكونها لم تستوعب قواعد إبراهيم ولها باب واحد ومرتفع عن الأرض .

وكان باستطاعته صلى الله عليه وسلم أن يعيد بناءها على الوجه الأصح ، فتستوعب قواعد إبراهيم ، ويكون لها بابان ويسويهما بالأرض .

ولكنه صلى الله عليه وسلم ترك ذلك لاعتبارات بينها فى حديث عائشة رضى الله عنها .

ألا يسع من يتكلم فى موضوع الحجرات اليوم ما وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الكعبة وما وسع السلف رحمهم الله فى عين الحجرة .

ومن ناحية ثالثة : لو أنه أخذ بقولهم ، فأخرجت من المسجد أى جعل المسجد من دونها على الأصل الأول .

ثم جاء آخرون وقالوا : نعيدها على ما كانت عليه فى عهد الخليفة

الراشد عمر بن عبد العزيز ، ألا يقال فى ذلك ما قال مالك للرشيد رحمهما الله فى خصوص الكعبة لما بناها ابن الزبير ، وأعادها الحجاج وأراد الرشيد أن يعيدها على بناء ابن الزبير فقال له مالك رحمه الله : لا تفعل لأنى أخشى أن تصبح الكعبة ألعوبة الملوك . فيقال هنا أيضاً فتصبح الحجرة ألعوبة الملوك بين إدخال وإخراج . وفيه من الفتنة ما فيه . والعلم عند الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المزمل

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

بين تعالى المراد من المقدار المطلوب قيامه بما جاء بعده (نصفه أو انقص منه) أى من نصفه أو زد عليه أى على نصفه ، وفى هذه الآية الكريمة وما بعدها بيان لمجمل قوله تعالى : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك) الآية :

وفيها بيان لكيفية القيام ، وهو بترتيل القرآن ، وفيها رد على مسألتين اختلف فيهما .

الأولى منهما : عدد ركعات قيام الليل ، أهو ثمانى ركعات أو أكثر ؟

وقد خيّر صلى الله عليه وسلم بين هذه الأزمنة من الليل ، فترك ذلك لنشاطه واستعداده وارتياحه ، فلا يمكن التعبد بعدد لا يصح دونه ولا يجوز تعديه ، واختلف فى قيام رمضان خاصة ، والأولى أن يؤخذ بما ارتضاه السلف ، وقد قدمنا فى هذه المسألة رسالة عامة هى رسالة التراويح أكثر من ألف عام فى مسجد النبى عليه السلام ، وقد استقر العمل على عشرين فى رمضان .

والمسألة الثانية : ما يذكره الفقهاء فى كيفية قيام الليل عامة هل الأفضل كثرة الركعات لكثرة الركوع والسجود ، وحيث إن أقرب مايكون العبد إلى الله وهو ساجد ، أم طول القيام للقراءة ؟ حيث إن للقارىء بكل حرف عشر حسنات ، فهنا قوله تعالى : (ورتل القرآن ترتيلا) نص على أن العبرة بترتيل القرآن ترتيلا ، وأكد بالمصدر تأكيداً لإرادة هذا المعنى كما قال ابن مسعود :

لا تنثروه نثر الرمل ، ولا تهذوه هذَّ الشِّعْرِ ؟ قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة .

وقد بينت أم سلمة رضى الله عنها تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولها : « كان يقطع قراءته آية آية بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . » رواه أحمد .

وفى الصحيح عن أنس : سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كانت مداً ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم . يمد بسم الله ويمد الرحمن ، ويمد الرحيم .

تنبيـــــه

إن للمد حدوداً معلومة فى التجويد حسب تلقى القراء رحمهم الله ، فما زاد عنها فهو تلاعب ، وما قلَّ عنها فهو تقصير فى حق التلاوة .

ومن هذا يعلم أن المتخذين القرآن كغيره فى طريقة الأداء من تمطيط وتزيد لم يراعوا معنى هذه الآية الكريمة ، ولا يمنع ذلك تحسين الصوت بالقراءة ، كما فى قوله صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » .

وقال أبو موسى رضى الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو كنت أعلم أنك تسمع قراءتى لحبرته لك تحبيراً . وهذا الوصف هو الذى يتأتى منه الغرض من التلاوة ، وهو التدبر والتأمل ، كما فى قوله تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن) ، كما أنه هو الوصف الذى يتأتى معه الغرض من تخشع القلب كما فى قوله تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) ولا تتأثر به القلوب والجلود إلا إذا كان مرتلا ، فإذا كان هذا كالشعر أو الكلام العادى لما فهم ، وإذا كان مطرباً كالأغانى لما أثر . فوجب الترتيل كما بين صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلا

معلوم أن القول هنا هو القرآن كما قال تعالى (إنه لقول رسول كريم) وقوله : (ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون) .

وقوله : (إنه لقول فصل) ، وقوله (ومن أصدق من الله قيلا) ونحو ذلك من الآيات .

ولكن وصفه بالثقل مع أن الثقل للأوزان وهى المحسوسات .

فقال بعض المفسرين : إن الثقل فى وزن الثواب ، وقيل فى التكاليف به ، وقيل فى أثناء نزول الوحى عليه ، وكل ذلك ثابت للقرآن الكريم ، من جهة نزوله .

فقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه الوحى أخذته برحاء شديدة ، وكان يحمر وجهه كأنه مذهبة ، وكان إذا نزل عليه صلى الله عليه وسلم وهو فى سفره على راحلته بركت به الناقة ، وجاء عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان واضعاً رأسه على فخذه ، فأتاه الوحى قال أنس : فكان فخذى تكاد تنفصل منى ، ومن جانب تكاليفه فقد ثقلت على السماوات والأرض والجبال وأشفقن منها كما هو معلوم ومن جانب ثوابه فقد جاء فى حديث مسلم :

«الحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض» .

وحديث البطاقة وكل ذلك يشهد بعضه لبعض ولا ينافيه .

وقد بين تعالى أن هذا الثقل قد يخففه الله على المؤمنين ، كما فى

الصلاة فى قوله : (وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ، الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم) ، وكذلك القرآن ثقيل على الكفار خفيف على المؤمنين محبب إليهم .

وقد جاء فى الآثار أن بعض السلف كان يقوم الليل كله بسورة من سور القرآن تلذذاً وارتياحاً ، كما قال تعالى : (ولقد يسرنا القرآن للذكر) فهو ثقيل فى وزنه ثقيل فى تكاليفه ، ولكن يخففه الله وييسره لمن هداه ووفقه إليه .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلا ﴾ .

أى ما تنشأه من قيام الليل أشد مواطأة للقلب وأقوم قيلا فى التلاوة والتدبر والتأمل ، وبالتالى بالتأثر ، ففيه إرشاد إلى مايقابل هذا الثقل فيما سيلقى عليه من القول ، فهو بمثابة التوجيه إلى ما يتزود به لتحمل ثقل أعباء الدعوة والرسالة .

وقد سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه قوله : لا يثبت القرآن فى الصدر ولا يسهل حفظه وييسر فهمه إلا القيام به من جوف الليل ، وقد كان رحمه الله تعالى لا يترك ورده من الليل صيفاً أو شتاء ، وقد أفاد هذا المعنى قوله تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة) ، فكان صلى الله عليه وسلم إذا جز به أمر فزع إلى الصلاة .

وهكذا هنا فإن ناشئة الليل كانت عوناً له صلى الله عليه وسلم

على ماسيلقى عليه من ثقل القول .

مسألة

قيل : إن قيام الليل كان فرضاً عليه صلى الله عليه وسلم قبل أن تفرض الصلوات الخمس لقوله تعالى : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك) والنافلة الزيادة ، وقيل : كان فرضاً عليه صلى الله عليه وسلم وعلى عامة المسلمين ، لقوله تعالى فى هذه السورة : (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك) ثم خفف هذا كله بقوله :

(فتاب عليكم فاقرءوا ماتيسر من القرآن) إلى قوله : (فاقرءوا ماتيسر منه . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً. وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجرا) .

ولكنه صلى الله عليه وسلم كان إذا عمل عملا داوم عليه ، فكان يقوم الليل شكراً لله كما فى حديث عائشة رضى الله عنها « أفلا أكون عبداً شكوراً » وبقى سنة لغيره بقدر مايتيسر لهم . والله تعالى أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المدثر

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ ﴾

الإنذار إعلام بتخويف ، فهو أخص من مطلق الإعلام ، وهو متعد لمفعولين المنذر باسم المفعول والمنذر به ، ولم يذكر هنا واحد منهما .

أما المنذر فقد بينت آيات أخر أنه قد يكون للكافرين ، كما فى قوله تعالى : (لتنذر به قوما لداً) تخويفاً لهم .

وقد يكون للمؤمنين ، لأنهم المنتفعون به كما فى قوله : (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب) .

وقد يكون للجميع أى لعامة الناس كما فى قوله تعالى : (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم ، أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا) .

وأما المنذر به فهو مايكون يوم القيامة ،

وقد قدر الأمرين هنا ابن جرير بقوله : (فأنذر عذاب الله قومك الذين أشركوا بالله وعبدوا غيره) .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، تفصيل ذلك عند

قوله تعالى : (لتنذر به وذكرى للمؤمنين) فى سورة الأعراف .

قوله تعالى ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾.

قد اختلف المفسرون فى المراد من كل من لفظتى الثياب ، وفطهر هل هما دلا على الحقيقة ، ويكون المراد طهارة الثوب من النجاسات ؟ أم هما على الكناية ؟

والمراد بالثوب البدن ، والطهارة عن المعنويات من معاصى وآثام ونحوها أم على الحقيقة والكناية ، فقد ذكر ابن جرير وغيره نحواً من خمسة أقوال :

الأول عن ابن عباس وعكرمة والضحاك أن معناه : لاتلبس ثيابك على معصية ولا على غدرة ، واستشهد بقول غيلان :

وإنى بحمد الله لاثوب فاجر لبست ولا من غدرة أتقنع

وقول الآخر :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

فاستعمل اللفظين فى الكناية ، وقد يستدل له بقوله : (ووضعنا عنك وزرك) .

وورد عن ابن عباس : لاتلبس ثيابك من كسب غير طيب ، فاستعمل الثياب فى الحقيقة والتطهير فى الكناية .

وعن مجاهد : أصلح عملك ، وعملك فاصلح فاستعملهما معاً فى الكناية عن العمل الصالح .

وعن محمد بن سيرين وابن زيد على حقيقتهما ، فطهر ثيابك من النجاسة .

ثم قال : والذى قاله ابن سيرين وابن زيد أظهر فى ذلك .

وقول ابن عباس وعكرمة قول عليه أكثر السلف . والله أعلم بمراده .

وقال غيره : ثيابك هى نساؤك ، كما فى قوله (هن لباس لكم) فأمرهن بالتطهر وتخيرهن طاهرات خيرات .

هذه أقوال المفسرين واختيار ابن جرير منها ، والواقع فى السياق مايشهد لاختيار ابن جرير ، وهو حمل اللفظين على حقيقتهما .

وترجيح قول ابن سيرين أن المراد طهارة الثوب من النجاسة ، والقرينة فى الآية أنها اشتملت على أمرين :

الأول : طهارة الثوب ، والثانى هجر الرجز .

ومن معانى الرجز المعاصى ، فيكون حمل طهارة الثوب على حقيقته ، وهو الرجز على حقيقته لمعنى جديد أولى .

وهذه الآية بقسميها جاء نظيرها بقسميها أصرح من ذلك فى قوله

تعالى : (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان) والله تعالى أعلم .

وقد جعل الشافعى هذه الآية دليلا على الطهارة للصلاة .

قوله تعالى ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ . فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾

الناقور هو الصور ، وأصل الناقور الصوت ، وقوله : (يوم عسير على الكافرين غير يسير)

وقيل : عسير وغير يسير على الكافرين .

وقال الزمخشرى : إن غير يسير كان يكنى عنها يوم عسير ، إلا أنه ليبين لهم أن عسره لا يرجى تيسيره ، كعسر الدنيا ، وأن فيه زيادة وعيد للكافرين .

ونوع بشارة للمؤمنين لسهولته عليهم ، ولعل المعنيين مستقلان ، وأن قوله تعالى : (يوم عسير) هذا كلام مستقل وصف لهذا اليوم ، وبيان للجميع شدة هوله ، كما جاء فى وصفه فى قوله تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) ، ومثل قوله تعالى

(يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه) ونحو ذلك .

ثم بين تعالى أن اليوم العسير أنه على الكافرين غير يسير ، كما قال تعالى عنهم (فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيبا السماء منفطر به) بينما يكون على المؤمنين يسيراً ، مع أنه عسير فى ذاته لشدة هوله ، إلا أن الله ييسره على المؤمنين ، كما بين تعالى هذه الصورة بجانبها فى قوله تعالى من سورة النمل :

(ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله وكل آتوه داخرين . وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب - إلى قوله - من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) .

فالفزع من صعقة يوم ينفخ فى الصور عام لجميع من فى السماوات ومن فى الأرض ، ولكن استثنى الله من شاء ، ثم بين تعالى هؤلاء المستثنين ومن يبقى فى الفزع ، فبين الآمنين وهم من جاء بالحسنة ، والآخرون من جاء بالسيئة .

قوله تعالى ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ . وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟

الْكِتٰبَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَٰفِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾.

في قوله تعالى : (وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) حكى القرطبي في معنى الفتنة هنا معنيين :

الأول : التحريق كما في قوله : (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات) .

والثاني : الإبتلاء ، وقد تقدم للشيخ مراراً في كتابه ودروسه ، أن أصل الفتنة الاختبار .

تقول : اختبرت الذهب إذا أدخلته النار لتعرف زيفه من خالصه .

ولكن السياق يدل على الثاني ، وهو الاختبار والابتلاء لقوله تعالى :

(وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا) .

وقوله : (وما يعلم جنود ربك إلا هو) أي عددهم ، فلو كان المراد التحريق والوعيد بالنار ، لما كان هناك مجال لتساؤل الذين في قلوبهم

مرض والكافرين عن هذا المثل ولما كان يصلح أن يجعل مثلا ، ولما كان الحديث عن عدد جنود ربك بحال ، وفى هذه الآية الكريمة عدة مسائل هامة .

الأولى : جعل المثل المذكور ، أى جعل العدد المعين فتنة لتوجه السؤال أو مقابلته بالإذعان ، فقد تساءل المستبعدون واستسلم وأذعن المؤمنون ، كما ذكر تعالى فى صريح قوله : (إن الله لايستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا) .

ثم بين تعالى الغرض من ذلك طبق ماجاء فى الآية هنا (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين) ، فهذه الآية من سورة البقرة مبينة تماماً لآية المدثر .

المسألة الثانية قوله تعالى : (ليستيقن الذين أوتوا الكتاب) أن هذا مطابق لما عندهم فى التوراة ، وهذا مما يشهد لقومهم على صدق ما يأتى به النبى صلى الله عليه وسلم ، وما ادعاه لإيمانهم وتصديقهم .

وقد ذكر القرطبى حديثاً فى ذلك واستغربه ، ولكن النص يشهد لذلك .

المسألة الثالثة : أن المؤمن كلما جاءه أمر عن الله وصدقه ، ولو لم يعلم حقيقته اكتفاء بأنه من الله ، ازداد بهذا التصديق إيماناً وهى مسألة ازدياد الإيمان بالطاعة والتصديق .

المسألة الرابعة : بيان أن الواجب على المؤمن المبادرة بالتصديق والانقياد ، ولو لم يعلم الحكمة أو السر أو الغرض بناء على أن الخبر من الله تعالى . وهو أعلم بما رواه .

وفى هذه المسألة مثار نقاش حكمة التشريع ، وهذا أمر واسع ، ولكن المهم عندنا هنا ونحن فى عصر الماديات وتقدم المخترعات وظهور كثير من علامات الاستفهام عند كثير من آيات الأحكام ، فإنا نود أن نقول :

إن كل ماصح عن الشارع الحكيم من كتاب أو سنة وجب التسليم والانقياد إليه ، علمنا الحكمة أو لم نعلم . لأن علمنا قاصر وفهمنا محدود والعليم الحكيم الرءوف الرحيم سبحانه لايكلف عباده إلا بما فيه الحكمة .

ومجمل القول إن الأحكام بالنسبة لحكمتها قد تكون محصورة فى أقسام ثلاثة :

القسم الأول : حكم تظهر حكمته بنص كما فى وجوب الصلاة ، جاء إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهذه حكمة جليلة والزكاة جاء عنها أنها تطهرهم وتزكيهم .

وفى الصوم جاء فيه : لعلكم تتقون .

وفى الحج جاء فيه : ليشهدوا منافع لهم . فمع أنها عبادات لله فقد ظهرت حكمتها جلية .

وفى الممنوعات كما قالوا فى الضروريات الست ، حفظ الدين ، والعقل ، والدم ، والعرض ، والنسب ، والمال لقيام الحياة ووفرة الأمن ، وصيانة المجتمع ، وجعلت فيها حدود لحفظها وغير ذلك .

وقسم لم تظهر حكمته بهذا الظهور ، ولكنه لم يخل من حكمة ، كالطواف ، والسعى ، والركوع ، والسجود ، والوضوء ، والتيمم ، والغسل ، ونحو ذلك .

وقسم ابتلاء وامتحان أولا ، والحكمة ثانياً ، كتحويل القبلة ، كما قال تعالى : (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) .

وفى التحول عنها حكمة كما فى قوله تعالى (لئلا يكون للناس عليكم حجـــة) .

والمسلم فى كلتا الحالتين ظهرت له الحكمة أو لم تظهر وجب عليه الامتثال والانقياد ، كما قال عمر عند استلامه للحجر : إنى لأعلم أنك حجر لاتضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ماقبلتك فقبله امتثالا واقتداء بصرف النظر عن ماجاء من أن علياً رضى الله عنه قال له : بلى يا أمير المؤمنين إنه يضر وينفع ، فيأتى يوم القيامة وله لسان وعينان يشهد لمن قبّله ، لأن عمر أقبل عليه ليقبله قبل أن يخبره على رضى الله عنه .

وقد تنكشف الأمور عن حكمة لانعلمها كما فى قصة الخضر مع موسى عليهما السلام ، إذ خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار وكلها أعمال لم يعلم لها موسى عليه السلام حكمة ، فلما أبداها له الخضر علم مدى حكمتها .

وهكذا نحن اليوم وفى كل يوم ، وقد بين تعالى هذا الموقف بقوله : (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) .

وقد جاء فى نهاية الآية الكريمة مايلزم البشر بالعجز ويدفعهم إلى التسليم فى قوله : (وما يعلم جنود ربك إلا هو) .

فكذلك بقية الأمور من الله تعالى هو أعلم بها . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ. قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ. وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ. حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ .

فى هذه الآية الكريمة أن أصحاب اليمين يتساءلون عن المجرمين ، وسبب دخولهم النار ، وكان الجواب أنهم لم يكونوا من المصلين ولم يكونوا يطعموا المسكين ، وكانوا يخوضون مع الخائضين. وكانوا يكذبون بيوم الدين ، فجمعوا بين الكفر بتكذيبهم بيوم الدين وبين الفروع ، وهى ترك الصلاة والزكاة المعبر عنها بإطعام المسكين إلى آخره

فهذه الآية من الأدلة على أن الكافر مطالب بفروع الشرع مع أصوله .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مناقشة هذه المسألة عند قوله تعالى : (ويل للمشركين الذين لايؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون) فى سورة فصلت .

قوله تعالى ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ .

فيه أن الكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين ، كما أن فيها إثبات الشفاعة للشافعين ، ومفهوم كونها لاتنفع الكفار أنها تنفع غيرهم .

وقد جاءت نصوص فى الشفاعة لمن ارتضاهم الله ، وقد دلت نصوص على كلا الأمرين ، فمن عدم الشفاعة للكفار قوله تعالى : (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) .

وقوله : (وما أضلنا إلا المجرمون فما لنا من شافعين) ونحو ذلك من الآيات .

وفى القسم الثانى قوله تعالى : (يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) .

وكذلك الشفيع لايشفع إلا من أذن له ولا يشفعون إلا فيمن أذنوا فيه ، كما قال تعالى (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) .

وقوله : (يومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن)

ومبحث الشفاعة واسع مقرر فى كتب العقائد .

وخلاصة القول فيها أنها لا تكون إلا بإذن من الله المأذون له فيها ، وقد ثبت للنبى صلى الله عليه وسلم الشفاعة العظمى وهى المقام المحمود ، وعدة شفاعات بعدها منها ما اختص به صلى الله عليه وسلم كالشفاعة العظمى ودخول الجنة والشفاعة فى غير مسلم وهو عمه أبوطالب للتخفيف عنه ، ومنها مايشاركه فيها غيره من الأنبياء والصلحاء ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ . كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنفِرَةٌ . فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ .

فى هذه الآية تشبيه المدعوين فى إعراضهم عن الدعوة والتذكرة بالحمر الفارة من الصيادين أو الأسد ، وقد شبه أيضاً العالم غير المنتفع بعلمه بالحمار يحمل أسفارا ، فهما تشبيهان بالداعى والمدعو إذا لم تنفعه الدعوة ، وتقدم للشيخ فى مبحث الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القيامة

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾.

قال ابن جرير: اختلف القراء فى قراءة قوله تعالى: (لا أقسم بيوم القيامة) ، فقرأت ذلك عامة قراء الأمصار، لا أقسم مفصولة من أقسم سوى الحسن والأعرج، فإنه ذكر عنهما أنهما كانا يقرآن ذلك: لأقسم بيوم القيامة. بمعنى أقسم بيوم القيامة.

ثم دخلت عليها لام القسم والقراءة التى لا أستجيز غيرها فى هذا الموضع لا مفصولة، أقسم مبتدأة على ما عليه قراء الأمصار بإجماع الحجة من القراء عليه.

وقد اختلف الذين قرؤوا ذلك على الوجه الذى اخترنا قراءته فى تأويله، فقال بعضهم: لا صلة، وإنما معنى الكلام: أقسم بيوم القيامة، وعزاه إلى سعيد بن جبير.

وقال آخرون: بل دخلت لا توكيداً للكلام.

وذكر عن أبى بكر بن عياش فى قوله: لا أقسم. توكيد للقسم كقوله: لا والله.

وقال بعض نحوى الكوفة : لا ، رد لكلام قد مضى من كلام للمشركين الذين كانوا ينكرون الجنة والنار .

ثم ابتدىء القسم ، فقيل : (أقسم بيوم القيامة) وكان يقول : كل يمين قبلها رد كلام ، فلا بد من تقديم لا قبلها ، ليفرق بذلك بين اليمين التى تكون جحدا واليمين التى تستأنف ، ويقول : ألا ترى أنك تقول مبتدئا : والله إن الرسول لحق ، وإذا قلت : لا والله ، إن الرسول لحق ، فكأنك أكذبت قوما أنكروه ، واختلفوا أيضا فى ذلك هل هو قسم أم لا .

وذكر الخلاف فى ذلك ، والواقع أن هذه المسألة من المشكلات من حيث وجود اللام ، وهل هى نافية للقسم أم مثبتة ؟ وعلى أنها مثبتة فما موجبها ؟ هل هى رد لكلام سابق أم تأكيد للقسم ؟ وهل وقع إقسام أم لا ؟ كما ذكر كل ذلك ابن جرير .

وقد تناولها الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى كتابه دفع إيهام الاضطراب فى موضعين الأول فى هذه السورة ، والثانى فى سورة البلد عند قوله تعالى : (لا أقسم بهذا البلد) ، فبين فى الموضع الأول أنها أى لا : نافية لكلام قبلها فلا تتعارض مع الإقسام بيوم القيامة فعلا الواقع فى قوله تعالى : (واليوم الموعود) .

والثانى أنها صلة ، وقال : سيأتى له زيادة إيضاح ، والموضع

الثانى : (لا أقسم بهذا البلد) ساق فيه بحثا طويلا مهما جدا نسوق خلاصته .

وسيطبع الكتاب إن شاء الله مع هذه التتمة فليرجع إليه .
خلاصة ما ساقه رحمة الله تعالى علينا وعليه :

قال : الجواب عليها من أوجه . الأول ، وعليه الجمهور أن لا هنا صلة على عادة العرب ، فإنها ربما لفظت بلفظة لا من غير قصد معناها الأصلى ، بل لمجرد تقوية الكلام وتوكيده كقوله :

ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعنى . يعنى أن تتبعنى .

وقوله : لئلا يعلم أهل الكتاب .

وقوله : فلا وربك لا يؤمنون .

وقول امرئ القيس :

فلا وأبيك ابنة العامرى لا يدع القوم أنى أفر

يعنى وأبيك ، وأنشد الفراء لزيادة لا فى الكلام الذى فيه معنى الجحد ، قول الشاعر :

ما كان يرضى رسول الله دينهم والأطيبان أبو بكر ولا عمر

يعنى وعمر ، وأنشد الجوهرى لزيادتها قول العجاج :

فى بئر لا حور سرى وما شعر بإفكه حتى رأى الصبح شجر

والحور: الهلكة: يعنى فى بئر هلكة ، وأنشد غيره :

تذكرت ليلى فاعترتنى صبابة وكاد صميم القلب لا يتقطع

والوجه الثانى : أن لا نفى لكلام المشركين المكذبين للنبى صلى الله عليه وسلم .

وقوله : أقسم : إثبات مستأنف .

وقل : إن هذا الوجه ، وإن قال به كثير من العلماء ، إلا أنه ليس بوجيه عندى ، لقوله تعالى فى سورة القيامة (ولا أقسم بالنفس اللوامة) ، لأن قوله : (ولا أقسم بالنفس اللوامة) يدل على أنه لم يرد الإثبات المستأنف بعد النفى بقوله أقسم) والله تعالى أعلم .

الوجه الثالث : أنها حرف نفى أيضا ووجهه أن إنشاء القسم يتضمن الإخبار عن تعظيم المقسم به . فهو نفى لذلك الخبر الضمنى على سبيل الكناية . والمراد أنه لا يعظم بالقسم ، بل هو فى نفسه عظيم أقسم به أولا . وهذا القول ذكره صاحب الكشاف وصاحب روح المعانى ، ولا يخلو عندى من نظر .

الوجه الرابع : أن اللام لام الابتداء ، أشبعت فتحتها . والعرب ربما أشبعت الفتحة بألف والكسرة بياء والضمة بواو . ومثاله فى الفتحة قول عبد يغوث الحارث :ـ

وتضحك منى شيخة عبشمية كأن لم ترى قبلى يسيرا يمانيا

فالأصل : كأن لم تر ، ولكن الفتحة أشبعت .

وقول الراجز :

إذا العجوز غضبت فطلق ولا ترضاها ولا تملق

وقول عنترة فى معلقته :

ينباع من ذفرى غضوب جسرة زيافة مثل العتيق المكرم

فالأصل ينبع ، يعنى العرق ينبع من الذفرى من ناقته ، فأشبعت الفتحة فصارت ينباع ، وقال : ليس هذا الإشباع من ضرورة الشعر .

ثم ساق الشواهد على الإشباع بالضمة والكسرة ، ثم قال : يشهد لهذا الوجه قراءة قنبل : لأقسم بهذا البلد بلام الابتداء ، وهو مروى عن البزى والحسن . والعلم عند الله تعالى . اهـ . ملخصا .

فأنت ترى أنه رحمه الله قدم فيها أربعة أوجه صلة ، ونفى الكلام قبلها ، وتأكيد للقسم ، ولام ابتداء . واستدل له بقراءة قنبل أى لأقسم متصلة ، أما كونها لام ابتداء لقراءة قنبل والحسن ، فقد تقدم أن ابن جرير لا يستجيز هذه القراءة لإجماع الحجة من القراء على قراءتها مفصولة (لا) أقسم .

ولعل أرجح هذه الأوجه كلها أنها لتوكيد القسم ، كما ذكر ابن جرير عن نحوى الكوفة والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ .

هذا الحسبان قد جاء مصرحاً به فى قوله تعالى : (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم) .

وجاءه الجواب : (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) الآية .

قوله تعالى ﴿ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ .

كل المفسرين على أن المعنى نجعل بنانه متساوية ملتحمة كخف البعير ، أى لا يستطيع أن يتناول بها شيئا ولا يحسن بها عملا .

وهذا فى الواقع لم نفهم له وجهاً مع السياق ، فهو وإن كان دالا على قدرة الله وعجز العبد . ولكن السياق فى إنكار البعث واستبعاده ومجىء نظير ذلك فى سورة يس ، يرشد إلى أنه سبحانه قادر بعد موت العبد وتلاشيه فى التراب وتحول عظامه رميما ، فهو قادر على أن يعيده تماما ، كما أنشأه أول مرة ، ومن ضمن تلك الإعادة أن يسوى بنانه ، أى يعدلها وينشؤها كما كانت أول مرة ، والعلم عند الله تعالى .

ويرشد له قوله تعالى : (وهو بكل خلق عليم) ، ومن الخلق

ما كان عليه خلق ، خلق هذا الإنسان المكذب المعترض ، فهو سبحانه يعيده على ما كان عليه تماما ، وهذا أبلغ فى القدرة وأبلغ فى الإلزام يوم القيامة . والعلم عند الله .

قوله تعالى ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ . وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ . كَلَّا لَا وَزَرَ ﴾ .

قرئ برق بكسر الراء وفتحها فبالكسر فزع ، ودهش أصله من برق الرجل ، إذا نظر إلى البرق فدهش بصره ، ومنه قول ذى الرمة :

ولو أن لقمان الحكيم تعرضت لعينيه مىّ سافرا كاد يبرق

وقول الأعشى :

وكنت أرى فى وجه مية لمحة فأبرق مغشياً على مكانيا

وبرق بالفتح شق بصره ، وهو من البريق ، أى لمع بصره من شدة شخوصه .

قال أبو حيان : والواقع أنه لا مانع من إرادة المعنيين ما دامت القراءتان صحيحتان ، وقد يشهد لهذا النص فى سورة إبراهيم فى قوله تعالى : (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار . مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم) .

قال ابن كثير : ينظرون من الفزع هكذا وهكذا ، لا يستقر لهم بصر من شدة الرعب .

وقوله : (يقول الإنسان يومئذ أين المفر كلا لا وزر) تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة ص على قوله تعالى : (كم أهلكنا قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص) .

قوله تعالى : ﴿ يُنَبَّؤُاْ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ .

المراد بما قدم هنا هو ما قدمه من عمل ليوم القيامة ، كما فى قوله تعالى : (يوم يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول ياليتنى قدمت لحياتى) وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه عند قوله تعالى (وبدا لهم سيئات ما كسبوا) من سورة الزمر .

قوله تعالى ﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ .

بينه قوله تعالى : (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) .

وقوله : (ووجدوا ما عملوا حاضراً) وتقدم فى سورة الكهف .

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ .

أى أنها لا تنفعه آنذاك ، كما فى قوله تعالى : (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم) .

وقد بين تعالى بعض معاذيرهم تلك فى مثل قوله تعالى : (قال

الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون) .

وقوله : (فأغويناكم إنا كنا غاوين) .

وقوله : (قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون . قال اخسؤا فيها ولا تكلمون) .

وقوله : (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير) .

قوله تعالى ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ .

فيه النهى عن تحريك لسانه صلى الله عليه وسلم ، وبيان أن الله تعالى عليه جمعه وقرآنه ، وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان لشدة حرصه على استيعاب ما يوحى إليه ، يحرك لسانه عند الوحى فنهى عن ذلك .

وقد بين تعالى مدى هذا النهى ومدة هذه العجلة فى قوله تعالى (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) وفيه الإيماء إلى حسن الاستماع والإصغاء عند الإيحاء به كما فى آداب الاستماع (فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) .

وقوله : (إن علينا جمعه وقرآنه) قد بين تعالى أن جمعه وقراءته عليه فى قوله تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

تنبيـه

إن فى قوله تعالى : (إن علينا جمعه وقرآنه) فيه إشارة إلى أنه نزل مفرقا ، وإشارة إلى أن جمعه على هذا النحو الموجود برعاية وعناية من الله تعالى وتحقيقاً لقوله تعالى (ثم إن علينا جمعه وقرآنه) ، ويشهد لذلك أن هذا الجمع الموجود من وسائل حفظه ، كما تعهد تعالى بذلك : والله تعالى أعلم .

وقال أبو حيان : إن علينا جمعه فى صدرك وقرآنه أى تقرأه .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴾ .

تقدم للشيخ بيانه عند قوله تعالى : (علمه شديد القوى) من سورة النجم .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ .

قد نبه تعالى كما جاء فى مقدمة الأضواء أنه ما من مجمل إلا وجاء تفصيله فى مكان آخر ، وقد نص تعالى على هذا فى كثير من الآيات ، كما فى قوله : (كتاب فصلت آياته) ، وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك فى أول فصلت .

قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾ .

تقدم بيانه للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، عند قوله تعالى : (قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى) .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ . وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ . وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ . وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ . إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ .

لم يبين ما هى التى بلغت التراقى ولكنه معلوم أنها الروح ، كما فى قوله تعالى : (فلولا إذ بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ـ إلى قوله ـ ترجعونها إن كنتم صادقين) ، فهذه حالات النزع والروح تبلغ الحلقوم وتبلغ التراقى . وقد يترك التصريح للعلم كما فى قوله تعالى : (إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب) أى الشمس ، وهكذا هنا فلمعرفتها بالقرائن ترك التصريح بالروح أو النفس ، وقد صرح تعالى بذلك فى قوله : (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون) الآية .

وقوله تعالى (وقيل من راق) .

اختلف فى معنى راق هذه ، فقيل من الرقية أى قال من حوله : من يرتقيه هل من طبيب يرقيه ؟ أى حالة اشتداد الأمر عليه رجاء لشفاه أو استبعاداً بأنه لا ينفعه ، وقيل : من الرقى أى تقول الملائكة من الذى سيرقى بروحه أملائكة العذاب أم ملائكة الرحمة ؟

ولـكن فى الآية قرينة على أن الأول أرجح ، لأن قول الملائـكة يكون فى حق الشخص المتردد فى أمره ، وهذا هنا ليس موضع تردد لأن نهاية السياق فيه (فلا صدق ولا صلى ولـكن كذب وتولى) إلخ ما بعده .

وقال أبو حيان : على أنه من قول الملائـكة من يرقى بروحه ، يكون ذلك كراهية . منهم أن يصعدوا بها ، وفى هذا نظر ، لأن الله تعالى جعل ملائـكة للمشركين وهم ملائـكة العذاب ، وملائـكة للمؤمنين ، وهم ملائـكة الرحمة . ولا يستكره فريق منهما أن يصعد بما تخصص له ، بل قد لا يسمح للآخر بما يخصه .

كما فى حديث الذى قتل مائة نفس ، وأدركته الوفاة فى منتصف الطريق ، فحضرته ملائـكة الرحمة وملائـكة العذاب يختصمون أيهم يصعد بروحه ، كل يريد أن يتولى قبض روحه أولئك يقولون : إنه قتل مائة نفس ولم يعمل خيراً قط ، وأولئك يقولون : إنه خرج تائبا إلى الله تعالى .

وهذا كما تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه من ترجيح أحد المعنيين المختلف فيهما بين المفسرين لوجود قرينة فى الآية . وقد وجدت القرينة وهى ما فى آخر الآية والسياق من أنه ليس موضع تردد (فلا صدق ولا صلى) الآية . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ .

رد على من زعم أنه خلق سدى وهملا ، وأنه لا يحاسب ولا يسأل وبالتالى لا يبعث .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك عند قوله تعالى : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) أى تعالى الله عن العبث ، وقد ساق الشيخ الأدلة الوافية هناك .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ . أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾

بلى إنه على كل شيء قدير ، مجيء هذا الاستفهام الإنكارى أو التقريرى ، بعد أيحسب الإنسان أن يترك سدى . وسوق هذه الآيات . العظيمات الدالة على القدرة الباهرة ، فيه رد على إنكار ضمنى وهو أنه لا يعتقد وجوده سدى ولا حساب عليه إلا من استبعد البعث.

ولو أقر بالبعث لآمن بالجزاء واعترف بالسؤال وعلم أنه لم يخلق عبثا ، ولن يترك سدى. ولكن لما أنكر البعث ظن وحسب أنه يترك سدى ، فجاء تذكيره بأصل خلقته وتطوره ليستخلص منه اعترافه ، لأن

من قدر على خلقه من منيٍّ يُمنَى، وتطويره إلى علقة ثم إلى خلق سوى، فهو قادر على بعثه مرة أخرى .

وقد بين الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هذه الأطوار في أكثر من موضع، وأحال عليها عند قوله تعالى : (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى وأن عليه النشأة الأخرى) في سورة والنجم .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ ، لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا . إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ .

اتفق المفسرون على أن هل هنا بمعنى (قد) أى أن الاستفهام تقريرى يستوجب الإجابة عليه بنعم .

ولفظ الإنسان فى (هل أتى على الإنسان) ، قيل هو الإنسان الأول آدم عليه السلام ، أتى عليه حين من الدهر ، لم يكن شيء يذكر .

وقيل : هو عموم الإنسان من بنى آدم فيكون المعنى على الأول ، أن آدم عليه السلام أتى عليه حين من الدهر قيل : أربعون سنة .

ذكر عن ابن عباس : كان طيناً ثم صلصالا حتى نفخ فيه الروح .

ويكون على الثانى أن الإنسان أتى عليه حين من الدهر ، هو أربعون يوماً نطفة ، ثم أربعون يوماً علقة ، ثم أربعون يوماً مضغة ، وكل ذلك شيء ولكنه لم يكن مذكوراً ، أى ضعيفاً وكلاهما محتمل .

ولفظ الإنسان الثانى فى قوله تعالى : (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) اتفقوا على أنه عام فى بنى آدم ، لأنه هو الذى خلق

من نطفة أمشاج أخلاط ، وقد رجح الفخر الرازى أن لفظ الإنسان فى الموضعين بمعنى واحد ، وهو المعنى العام ليستقيم الأسلوب بدون مغايرة بين اللفظين إذ لا قرينة مميزة .

ولعل فى السياق قرينة تدل على ماقاله ، وهى أن قوله تعالى : (نبتليه) قطعاً لبنى آدم ، لأن آدم عليه السلام، انتهى أمره بالسمع والطاعة (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) ولم يبق مجال لابتلائه ، إنما ذلك لبنيه . والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى : (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) فيه بيان مبدء خلق الإنسان ، وله أطوار فى وجوده بعد النطفة علقة ثم مضغة ثم خلقاً آخر ، وكل ذلك من لاشىء قبله .

كما قال تعالى : (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك عند الآية الكريمة (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) .

قوله تعالى ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ .

الهداية هنا بمعنى البيان ، كما فى قوله تعالى : (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) .

والسبيل الطريق السوى ، وفيه بيان انقسام الإنسان إلى قسمين :

شاكر معترف بنعمة الله تعالى عليه ، مقابل لها بالشكر أو كافر جاحد .

وقوله تعالى : (إما شاكراً) ، يشير إلى إنعام الله تعالى على العبد ، وقد ذكر تعالى نعمتين عظيمتين :

الأولى : إيجاد الإنسان من العدم بعد أن لم يكن شيئاً مذكورا ، وهذه نعمة عظمى لا كسب للعبد فيها .

والثانية : الهداية بالبيان والإرشاد إلى سبيل الحق والسعادة ، وهذه نعمة إرسال الرسل وإنزال الكتب ولا كسب للعبد فيها أيضاً .

وقد قال العلماء : هناك ثلاث نعم لا كسب للعبد فيها .

الأولى : وجوده بعد العدم .

الثانية : نعمة الإيمان .

الثالثة : دخول الجنة .

وقالوا : الإيجاد من العدم ، تفضل من الله تعالى كما قال : (لله ملك السماوات والأرض يخلق مايشاء ويهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثاً ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير) ، ومن جعله الله عقيما فلن ينجب قط .

والثانية : الإنعام بالإيمان ، كما فى قوله تعالى : (إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) .

وقد جاء فى الحديث : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه » . الحديث .

وكون المولود يولد بين أبوين مسلمين ، لا كسب له فى ذلك .

والثالثة ، الإنعام بدخول الجنة كما فى الحديث : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله . قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » .

وقد ذكر تعالى نعمتين صراحة ، وهما خلق الإنسان بعد العدم ، وهدايته السبيل .

والثالثة : تأتى ضمناً فى ذكر النتيجة (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا) لأن الأبرار هم الشاكرون بدليل التقسيم (شاكرا وإما كفورا إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيراً . إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا) .

وقوله تعالى : (إنا هديناه السبيل) تقدم أنها هداية بيان .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان الهداية العامة والخاصة . والجمع بينهما فى أكثر من موضع ، وفى مستهل هذه السورة بيان لمبدأ الإنسان وموقفه من بعثة الرسل وهدايتهم ونتائج أعمالهم من شكر أو كفر .

وقد جاءت السنة بقراءة هذه السورة فى الركعة الثانية من فجر يوم الجمعة ، مع قراءة سورة السجدة فى الركعة الأولى .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : إن قراءتهما معاً فى ذلك اليوم لمناسبة خلق آدم فى يوم الجمعة ليتذكر الإنسان فى هـذا اليوم ، وهو يوم الجمعة مبدأ خلق أبيه آدم ومبدأ خلق عموم الإنسان ويتذكر مصيره ومنتهاه ليرى ماهو عليه من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهل هو شاكر أو كفور . اهـ . ملخصاً .

ومضمون ذلك كله أنه رحمـــــه الله يرى أن الحكمة فى قراءة السورتين فى فجر الجمعة ، أن يوم الجمعة هو يوم آدم عليه السلام فيه خلق ، وفيه نفخ فيه الروح ، وفيه أسكن الجنة ، وفيـه أهبط إلى الأرض ، وفيه تيب عليه ، وفيه تقوم الساعة .

كما قيل : يوم الجمعة يوم آدم ويوم الاثنين يوم محمد صلى الله عليه وسلم ، أى فيه ولد وفيه أنزل عليه ، وفيـه وصل المدينة فى الهجرة ، وفيه توفى .

ولما كان يوم الجمعة يوم إيجاد الإنسان الأول ويوم أحداثه كلها إيجاداً من العـدم وإنعاماً عليه بسكنى الجنة وتواجده على الأرض ، وتلقى التوبة عليـه من الله أى يوم الإنعام عليه حساً ومعنى ، فناسب أن يذكر الإمام بقراءته سورة السجدة فى فجر يوم الجمعة لما فيها من

قصة خلق آدم فى قوله : (الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه) .

وفيها قوله تعالى : (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) مما يبعث الخوف فى قلوب العباد ، إذ لايعلم من أى الفريقين هو ، فيجعله أشد حرصاً على فعل الخير ، وأشد خوفاً من الشر .

ثم حذر من نسيان يوم القيامة (فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا)

وهكذا فى الركعة الأولى ، يرجع المسلم إلى أصل وجوده ويستحضر قصة الإنسان الأول .

وكذلك يأتى فى الركعة الثانية بقصته هو منذ بدأ خلقه (من نطفة أمشاج) ويذكره بالهدى الذى أنزل عليه ويرغبه فى شكر نعمه عليه ويحذره من جحودها وكفرانها .

وقد بين له منتهاه على كلا الأمرين (إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيراً إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا).

فإذا قرع سمعه ذلك فى يوم خلقه ويوم مبعثه حيث فيه تقوم الساعة فكأنه ينظر ويشاهد أول وجوده وآخر مآله فلايكذب بالبعث .

وقد علم مبدأ خلقه ولا يقصر فى واجب ، وقد علم منتهاه ، وهـذا فى غاية الحكمة كما ترى .

ومما يشهد لما ذهب إليه رحمه الله ، اعتبار المناسبات كما فى كثير من الأمور ، كما فى قوله تعالى : (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه) فجميع الشهور من حيث الزمن سواء ، ولكن بمناسبة بدء نزول القرآن فى هذا الشهر جعله الله محلا للصوم ، وأكرم فيه الأمة كلها بل العالم كله ، فتتزين فيه الجنة وتصفد فيه مردة الشياطين ، وتتضاعف فيه الأعمال .

وكذلك الليلة منه التى كان فيها البدء اختصها تعالى عن بقية ليالى الشهر ، وهى ليلة القدر جعلها الله تعالى خيراً من ألف شهر ، وما ذاك إلا لأنها كما قال تعالى : (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) السورة بتمامها .

مسألة

لقد أكثر الناس القول فى اعتبار المناسبات فى الإسلام وعدم اعتبارها ، ووقع فيها الإفراط والتفريط ، وكما قيل :

* كلا طرفى قصد الأمور ذميم *

ومنطلقاً من كلام شيخ الإسلام رحمه الله نقدم هـذه النبذة فى هذه المسألة ، وهى أنه بالتأمل فى الشرع وأحداث الإسلام عامة وخاصة.

أى فى عموم الأمم وخصوص هذه الأمة ، نجد المناسبات قسمين مناسبة معتبرة عنى بها الشرع لما فيها من عظة وذكرى تتجدد مع تجدد الأيام والأجيال ، وتعود على الفرد والجماعة بالتزود منها ، ومناسبة لم تعتبر ، إما لاقتصارها فى ذاتها وعدم استطاعة الأفراد مسايرتها .

فمن الأول يوم الجمعة ، وتقدم طرف من خصائص هذا اليوم فى سورة الجمعة ، وكلام شيخ الإسلام رحمه الله ، وقد عنى بها الإسلام فى الحث على القراءة المنوه عنها فى صلاة الفجر ، وفى الحث على أدائها والحفاوة بها من اغتسال وطيب وتبكير إليها ، كما تقدم فى سوره الجمعة .

ولكن من غير غلو ولا إفراط ، فقد جاء النهى عن صوم يومها وحده ، دون أن يسبق بصوم قبله ، أو يلحق بصوم بعده كما نهى عن إفراد ليلتها بقيام ، والنصوص فى ذلك متضافرة ثابتة ، فكانت مناسبة معتبرة مع اعتدال وتوجه إلى الله أى بدون إفراط أو تفريط .

ومنها يوم الاثنين كما أسلفنا ، فقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن صيامه يوم الاثنين فقال : « هذا يوم ولدت فيه وعلى فيه أنزل » ، وكان يوم وصوله المدينة فى الهجرة وكان يوم وفاته

صلى الله عليه وسلم ، فقد احتفى به صلى الله عليه وسلم للمسببات المذكورة ، وكلها أحداث عظام ومناسبات جليلة .

فيوم مولده صلى الله عليه وسلم وقعت مظاهر كونية ابتداء من واقعة أبرهة ، وإهلاك جيشه إرهاصا بولده صلى الله عليه وسلم ، ثم ظهور نجم بنى الختان ، وحدثت أمه وهى حامل به فيما قيل : إنها أتيت حين حملت به صلى الله عليه وسلم فقيل لها : « إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولى :

أعيذه بالواحد من شر كل حاسد

ثم سميه محمداً » ، وذكر ابن هشام أنها رأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام .

وذكر ابن هشام . أن حسان بن ثابت وهو غلام سمع يهودياً يصرخ بأعلى صوته على أطمة بيثرب : يامعشر يهود : حتى إذا اجتمعوا إليه ، قالوا : ويلك مالك ، قال : طلع الليلة نجم أحمد الذى ولد به .

وساق ابن كثير فى تاريخه ، والبيهقى فى خصائصه وابن هشام فى سيرته أخباراً عديدة مما شهده العالم ليلة مولده صلى الله عليه وسلم ، نوجز منها الآتى : عن عثمان بن أبى العاص أن أمه حضرت مولده صلى الله عليه وسلم قالت :

فما شىء أنظر إليه فى البيت إلا نور ، وإنى أنظر إلى النجوم تدنو حتى إنى لأقول : ليقعن على .

وعن أبى الحكم التنوخى : قال : كان المولود إذا ولد فى قريش دفعوه إلى نسوة إلى الصبح يكفأن عليه برمة ، فأكفأن عليه صلى الله عليه وسلم برمة ، فانفلقت عنه ، ووجد مفتوح العينين شاخصاً ببصره إلى السماء .

وقد كان لمولده من الأحداث الكونية مالفت أنظار العالم كله .

ذكر ابن كثير منها انكفاء الأصنام على وجوهها ، وارتجاس إيوان كسرى ، وسقوط بعض شرفه ، وخمود نار فارس ، ولم تخمد قبلها ، وغاضت بحيرة ساوة ، فكان فى ذلك إرهاص بتكسير الأصنام وانتشار الإسلام ، ودخول الفرس فى الإسلام ، ثم كان بدء الوحى عليه صلى الله عليه وسلم فى يوم الاثنين .

الحفاوة بهذا اليوم

لا شك أن العالم لم يشهد حدثين أعظم من هذين الحدثين . مولد سيد الخلق وبدء إنزال أفضل الكتب ، فكان صلى الله عليه وسلم يحتفى به ، وذلك بصيامه ، وهو العمل المشروع الذى يعبر به المسلم عن شعوره فيه ، والعبادة الخالصة التى يشكر الله تعالى بها على هاتين النعمتين العظيمتين .

أما ما يفعله بعض الناس من احتفالات ومظاهر ، فقد حدث ذلك بعد أن لم يكن لا فى القرن الأول ولا الثانى ، ولا الثالث ، وهى القرون المشهود لها بالخير ، وأول إحداثه كان فى القرن الرابع .

وقد افترق الناس فيه إلى فريقين ، فريق ينكره ، وينكر على على من يفعله لعدم فعل السلف إياه ، ولا مجيء أثر فى ذلك ، وفريق يراه جائزاً لعدم النهى عنه ، وقد يشدد كل فريق على الآخر فى هذه المسأله .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية فى اقتضاء الصراط المستقيم كلام وسط فى غاية الإنصاف ، نورد موجزه لجزالته ، والله الهادى إلى سواء السبيل .

قال رحمه الله فى فصل قد عقده للأعياد المحدثة : فذكر أول جمعة من رجب وعيد خم فى الثامن عشر من ذى الحجة ، حيث خطب صلى الله عليه وسلم ، وحث على اتباع السنة وبأهل بيته ، ثم أتى إلى عمل المولد فقال :

وكذلك ما يحدثه بعض الناس إما مضاهاة للنصارى فى ميلاد عيسى عليه السلام ، وإما محبة للنبى صلى الله عليه وسلم وتعظيما له والله قد يثيبهم على هذه المحبة والاجتهاد لا على البدع من اتخاذ مولد النبى صلى الله عليه وسلم عيداً ، مع اختلاف الناس فى مولده ، أى فى ربيع أو فى رمضان ، فإن هذا لم يفعله السلف رضى الله عنهم مع قيام المقتضى له وعدم المانع منه .

ولو كان هذا خيراً محضاً أو راجحا لكان السلف رضى الله عنهم

أحق به منا ، فإنهم كانوا أشد محبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعظيما له منا ، وهم على الخير أحرص .

وإنما كمال محبته وتعظيمه . فى متابعته وطاعته واتباع أمره ، وإحياء سنته باطناً وظاهراً ، ونشر ما بعث به ، والجهاد على ذلك بالقلب واليد واللسان ؛ فإن هذه هى طريقة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، وأكثر هؤلاء الذين تراهم حرصاء على أمثال هذه البدع ، مع مالهم فيها من حسن القصد والاجتهاد الذى يرجى لهم به المثوبة تجدونهم فاترين فى أمر الرسول عما أمروا بالنشاط فيه . وإنما هم بمنزلة من يحلى المصحف ولا يقرأ فيه ، ولا يتبعه . وبمنزلة من يزخرف المسجد ولا يصلى فيه ، أو يصلى فيه قليلا ، وبمنزلة من يتخذ المسابيح والسجاجيد المزخرفة وأمثال هذه الزخارف الظاهرة التى لم تشرع ويصحبها من الرياء والكبر ، والاشتغال عن المشروع ما يفسد حال صاحبها .

واعلم أن من الأعمال ما يكون فيه خير لاشتماله على أنواع من المشروع .

وفيه أيضاً شر من بدعة وغيرها ، ثم رسم طريق العمل السليم للفرد فى نفسه والداعية مع غيره ، فقال : فعليك هنا بأدبين أحدهما أن يكون حرصك على التمسك بالسنة باطناً وظاهراً .

الثانى : أن تدعو الناس إلى السنة بحسب الإمكان فإذا رأيت من

بعمل هذا ولا يتركه إلا إلى شر منه ، فلا تدعو إلى ترك منكر ، بفعل ما هو أنكر منه ، أو بترك واجب أو مندوب تركه أضر من فعل ذلك المكروه .

ولكن إذا كان فى البدعة نوع من الخير فعوض عنه من الخير المشروع ، بحسب الإمكان ، إذ النفوس لا تترك شيئاً إلا بشىء .

ولا ينبغى لأحد أن يترك خيراً إلا إلى مثله أو إلى خير منه ، فإنه كما أن الفاعلين لهذه البدع معيبون ، قد أتوا مكروها فالتاركون أيضاً للسنن مذمومون .

وكثير من المنكرين لبدع العبادات تجدهم مقصرين فى فعل السنن من ذلك أو الأمر به . . . .

ولعل حال كثير منهم يكون أسوأ من حال من يأتى بتلك العادات المشتملة على نوع من الكراهة ، بل الدين هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فتعظيم المولد واتخاذه موسماً قد يفعله بعض الناس ، ويكون له فيه أجر عظيم لحسن قصده وتعظيمه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما قدمته لك أنه يحسن من بعض الناس ما يستقبح من المؤمن المسدد .

ولهذا قيل لأحمد : إن بعض الأمراء ينفق على مصحف ألف دينار ونحو ذلك ، فقال : دعه ، فهذا أفضل ما أنفق فيه الذهب ،

أو كما قال ، مع أن مذهبه : أن زخرفة المصاحف مكروهة ، فمثل هؤلاء إن لم يفعلوا هذا ، وإلا اعتاضوا عنه الفساد الذى لاصلاح فيه مثل أن ينفقها فى كتب فجور ، ككتب الأسمار والأصفار أو حكمة فارس والروم .

ومراتب الأعمال ثلاث : إحداها العمل الصالح المشروع الذى لا كراهة فيه .

والثانية : العمل الصالح من بعض وجوهه أو أكثرها ، إما لحسن القصد ، أو لاشتماله مع ذلك على أنواع من المشروع .

والثالثة : ماليس فيه صلاح أصلا .

فأما الأولى : فهى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى أعمال السابقين الأولين .

وأما الثانية فهى كثيرة جداً فى طرق المتأخرين من المنتسبين ، إلى علم أو عبادة ، ومن العامة أيضاً ، وهؤلاء خير مما لايعمل عملا صالحاً مشروعاً ولا غير مشروع ، ومع هذا فالمؤمن يعرف المعروف وينكر المنكر ولا يمنعه من ذلك موافقة بعض المنافقين له فى ظاهر الأمر بذلك المعروف والنهى عن ذلك المنكر ، ولا مخالفة بعض علماء المؤمنين ، فهذه الأمور وأمثالها مما ينبغى معرفتها والعمل بها . اهـ .

لقد عالج رحمه الله هذه المسألة بحكمة الداعى وسياسة الدعوة مما لا يدع مجالا للكلام فيها .

ولكن قد حدث بعده رحمه الله أمور لم تكن من قبل ابتلى بها العالم الغربى ، وغزا بها العالم الشرقى ، ولبس بها على المسلمين ، وهى تلك المبادىء الهدامة والغزو الفكرى ، وإبراز شخصيات ذات مبادىء اقتصادى أو فلسفى ، ارتفع شأنها فى قومهم ونفثت سمومهم إلى بنى جلدتنا ، وصاروا يقيمون لهم الذكريات ويقدمون عنهم الدراسات جهلا أو تضليلا فقام من المسلمين من يقول :

نعلم أن المولد ليس سنة نبوية ولا طريقاً سلفياً ولا عمل القرون المشهود لها بالخير ، وإنما نريد مقابلة الفكرة بالفكرة والذكريات بالذكرى ، لنجمع شباب المسلمين على سيرة سيد المرسلين ، ويكون ذلك من باب : يحدث للناس من الأحكام بقدر ما أحدثت من البدع إلى آخره .

وهنا لا ينبغى الإسراع فى الجواب ، ولكن انطلاقاً من كلام شيخ الإسلام المتقدم ، يمكن أن يقال : إن كان المراد إحياء الذكرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله تعالى قد تولى ذلك بأوسع نطاق حيث قرن ذكره صلى الله عليه وسلم مع ذكره تعالى فى الشهادتين ، مع كل أذان على كل منارة من كل مسجد ، وفى كل إقامة لأداء صلاة ،

وفى كل تشهد فى فرض أو نفل مما يزيد على الثلاثين مرة جهراً وسراً. جهراً يملأ الأفق ، وسراً يملأ القلب والحس .

ثم تأتى الذكرى العملية فى كل صغيرة وكبيرة فى المأكل باليمين ، لأنه السنة ، وفى الملبس فى التيامن لأنه السنة ، وفى المضجع على الشق الأيمن لأنه السنة ، وفى إفشاء السلام وفى كل حركات العبد وسكناته إذا راعى فيها أنها السنة عن النبى صلى الله عليه وسلم .

وإن كان المراد التعبير عن المحبة ، والمحبة هى عنوان الإيمان الحقيقى ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « والله لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وماله والناس أجمعين » .

فإن حقيقة المحبة طاعة من تحب ، وفعل مايحبه وترك مالا يرضاه أولا يحبه ، ومن هذا يمكن أن يقال : إن مايلابس عمل المولد من لهو ولعب واختلاط غير مشروع ، وأعمال فى أشكال لا أصل لها يجب تركه وتنزيه التعبير عن محبته صلى الله عليه وسلم عما لا يرضاه صلى الله عليه وسلم .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يكرم هذا اليوم بالصوم ، وإن كان المراد مقابلة فكرة بفكرة . فالواقع أنه لا مناسبة بين السببين ولاموجب للربط بين الجانبين لبعد ما بينهما ، كبعد الحق عن الباطل والظلمة عن النور .

ومع ذلك ، فإن كان ولا بد فلا موجب للتقييد بزمن معين بل العام كله لإقامة الدراسات فى السيرة وتعريف المسلمين الناشئة منهم والعوام وغيرهم بما تريده من دراسة للسيرة النبوية .

وختاماً فبدلا من الموقف السلبي عند التشديد فى النكير أن يكون عملا إيجابياً فى حكمة وتوجيه لما هو أولى بحسب المستطاع ، كما قال شيخ الإسلام رحمه الله، وبالله تعالى التوفيق :

ومن المناسبات ليلة القدر لبدء نزول القرآن فيها لقوله تعالى : (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) ثم بين تعالى مقدارها بقوله : (ليلة القدر خير من ألف شهر) وبين خواصها بقوله : (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هى حتى مطلع الفجر)

الحفاوة بها

لقد بين صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله : « التمسوها فى العشر الأواخر ، وفى الوتر من العشر الأواخر » ، وكان صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر كلها التماساً لتلك الليلة ، فكان يحييها قائماً فى معتكفه ، كما جاء فى الحديث « وإذا جاء العشر شد مئزره وطوى فراشه وأيقظ أهله » فلم يكن يمرح ولا يلعب ولا حتى نوم بل اجتهاد فى العبادة .

وكذلك شهر رمضان بكامله لكونه أنزل فيه القرآن أيضاً ، كما تقدمت الإشارة اليه فكان تكريمه بصوم نهاره وقيام ليله

لا بالملاهي واللعب والحفلات ، كماله بعض صار يعد الناس وسائل ترفيه خاصة ، فيعكس فيه القصد ويخالف المشروع .

ومن المناسبات يوم عاشوراء ، لقد كان له تاريخ قديم وكانت العرب تعظمه فى الجاهلية وتكسو فيه الكعبة ، ولما قدم صلى الله عليه وسلم المدينة وجد اليهود يصومونه فقال لهم : لم تصومونه ؟ فقالوا : يوماً نجى الله فيه موسى من فرعون فصامه شكراً لله فصمناه ، فقال صلى الله عليه وسلم : نحن أحق بموسى منكم ، فصامه وأمر الناس بصيامه. إنها مناسبة عظمى نجاة نبى الله موسى من عدو الله فرعون ، نصرة الحق على الباطل ، ونصر جند الله وإهلاك جند الشيطان .

وهذا بحق مناسبة يهتم لها كل مسلم . ولذا قال صلى الله عليه وسلم «نحن أحق بموسى منكم ، نحن معشر الأنبياء أبناء علات ديننا واحد » .

وقد كان صيامه فرضاً حتى نسخ بفرض رمضان ، وهكذا مع عظم مناسبته من إعلاء كلمة الله ونصرة رسوله ، كان ابتهاج موسى عليه السلام به فى صيامه شكراً لله .

وكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو الطريق السليم والسنة النبوية الكريمة لا مايحدثه بعض العوام والجهال من مظاهر وأحداث لا أصل لها ، ثم يأتى العمل الأعم والمناسبات المتعددة فى

مناسك الحج منها الهرولة فى الطواف ، لقد كانت عن مؤامرة قريش فى عزمها على الغدر بالمسلمين فى عمرة القضية فأمرهم صلى الله عليه وسلم أن يظهروا النشاط فى الطواف ، وذلك حينما جاء الشيطان لقريش وقال لهم :

هؤلاء المسلمون مع محمد صلى الله عليه وسلم جاءوا إليكم وقد أنهكتهم حمى يثرب ، فلو ملتم عليهم لاستأصلتموهم ، فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان الموقف خطيراً جداً وحرجاً حيث لا مدد للمسلمين ولا سبيل للانسحاب ولا بد لهم من إتمام العمرة .

فكان التصرف الحكيم ، أن يعكسوا على المشركين نظريتهم ويأتونهم من الباب الذى أتوا منه .

فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « أروهم اليوم منكم قوة » فهرولوا فى الطواف وأظهروا قوة ونشاطاً مما أدهش المشركين حتى قالوا : والله ماهؤلاء بإنس إنهم لكالجن » ، وفوتوا عليهم الفرصة بذلك وسلم المسلمون .

فهو أشبه بموقف موسى من فرعون ، فنجى الله رسوله صلى الله عليه وسلم من غدر قريش فكان هذا العمل مخلداً ومشروعا فى كل طواف قدوم حتى اليوم ، مع زوال السبب حيث هرول المسلمون مع

رسول الله صلى الله عليه وسـ في حجة الوداع بعد فتح مكة بسنتين .

قال العلماء : بقى هذا العمل تأسياً برسول الله صلى الله عليه وسلم أولا ، وتذكروا لهذا الموقف وما لقيه المسلمون فى بادىء الدعوة .

وجاء السعى والهرولة فيه لما فيه من تجديد اليقين بالله ، حيث تركت هاجر ، وهى من سادة المتوكلين على الله والتى قالت لإبراهيم :

اذهب فلن يضيعنا الله . تركت حتى سعت إلى نهاية العدد ، كما يقول علماء الفرائض وهو سبعة .

إذ كل عدد بعده تكرار لمكرر قبله ، كما قالوا فى عدد السماوات والأرض وحصى الجمار وأيام الأسبوع . الخ .

وذلك لتصل إلى أقصى الجهد وتنقطع أطماعها من غوث يأتيها من الأرض ، فتتجه بقوة اليقين وشدة الضراعة إلى السماء وتتوجه بكليتها ، وإحساسها بقلبها وقالبها إلى الله . فيأتيها الغوث الأعظم سقياً لها وللمسلمين من بعدها .

فكان ذلك درساً عملياً ظل إحياؤه تجديداً له .

وهكذا النحر ، وقصة الفداء لما كان فيه درس الأمة لأفرادها وجماعتها فى أسرة كاملة . والد ووالدة ، وولد كل يسلم قياده لأمر الله ،

وإلى أقصى حد التضحية حينما قال إبراهيم لإسماعيل ماقصه تعالى علينا (يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى)

إنه حدث خطير وأى رأى للولد فى ذبح نفسه ، ولكنه التمهيد لأمر الله ، فكان موقف الولد لايقل إكباراً عن موقف الوالد :

(يا أبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) ولم يكن ذلك عرضاً وقبولا فحسب ، بل جاء وقت التنفيذ إلى نقطة الصفر ، كما يقال :

والكل ماض فى سبيل التنفيذ ، (فلما أسلما وتله للجبين) ، يالله من موقف يعجز كل بيان عن تصويره ويثبط كل قلم عن تفسيره ، ويثقل كل لسان عن تعبيره ، شيخ فى كبر سنه يحمل سكيناً بيده ويتل ولده وضناه بالأخرى ، كيف قويت يده على حمل السكين ، وقويت عيناه على رؤيتها فى يده ، وكيف طاوعته يده الأخرى على تل ولده على جبينه ؟

إنها قوة الإيمان وسنة الالتزام ، وها هو الولد مع أبيه طوع يده ، يتصبر لأمر الله ويستسلم لقضاء الله (ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) والموقف الآن والد بيده السكين ، وولد ملقى على الجبين ، ولم يبق إلا توقف الأنفاس للحظة التنفيذ ، ولكن رحمة الله أوسع

وفرجه من عنده أقرب ، (وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين) .

فكانت مناسبة عظيمة وفائدتها كبيرة خلدها الإسلام فى الهدى والضحية .

وفى رمى الجمار ، إلى آخره ، وهكذا كلها فى مناسك وعبادة وقربة إلى الله تعالى فى تجرد وانقطاع ، ودوام ذكر لله تعالى .

وهناك أحداث جسام ومناسبات عظام ، لا تقل أهمية عن سابقاتها ، ولكن لم يجعل لها الإسلام أى ذكرى ، كما فى صلح الحديبية .

لقد كان هذا الصلح من أعظم المناسبات فى الإسلام ، إذ كان فيه انتزاع اعتراف قريش بالكيان الإسلامى ماثلا فى الصلح والعهد الذى وثق بين الطرفين وقد سماه الله فتحاً ، كما قال تعالى : (فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) .

ونزلت سورة الفتح فى عودته صلى الله عليه وسلم من صلح الحديبية .

وكذلك يوم بدر كان يوم الفرقان ، فرق الله فيه بين الحق والباطل ونصر فيه المسلمين مع قلتهم على المشركين مع كثرتهم .

وكذلك يوم فتح مكة وتحطيم الأصنام والقضاء نهائياً على دولة

الشرك فى البلاد العربية ، ومن قبل ذلك ليلة خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة ونزوله فى الغار ، إذ كان فيها نجاته صلى الله عليه وسلم من فتك المشركين ، كما قال الصديق وهما فى الطريق إلى الغار حينما كان يسير أحياناً أمام الرسول صلى الله عليه وسلم وأحيانا خلفه فسأله صلى الله عليه وسلم فقال :

أتذكر الرصد فأكون أمامك ، وأتذكر الطلب فأكون خلفك ، فقال صلى الله عليه وسلم « أتريد لو كان شيء يكون فيك يا أبا بكر ؟ فقلت نعم فداك أبى وأمى يارسول الله ، فإنى إن أهلك أهلك وحدى ، وإن تصب أنت يارسول الله تصب الدعوى معك » .

وكذلك وصوله صلى الله عليه وسلم المدينة بداية حياة جديدة وبناء كيان أمة جديدة ، وكل ذلك لم يجعل الإسلام لذلك كله عملا خاصاً به والناس فى إبانها تأخذهم عاطفة الذكرى ، ويجرهم حنين الماضى وتتراءى لهم صفحات التاريخ ، فهل يقفون صما بكما أم ينطقون بكلمة تعبير ؟ وشكر لله إنه إن يكن من شيء فلا يصح بحال من الأحوال ، أن يكون من اللهو واللعب والمنكر وما لا يرضى الله ولا رسوله .

إنه إن يكن من شيء ، فلا يصح إلا من المنهج الذى رسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى مثل تلك المناسبات من عبادة فى

صيام أو صدقة أو نسك ولا يمكن أن يقال فيها بما يقال فى المصالح المرسلة حيث كانت .

وكان عهد التشريع ولم يشرع فى خصوصها شىء ، وهل الأمر فيها كالأمر فى المولد على ما قدمه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، وتكون ضمن عموم قوله تعالى (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) ، وضمن قوله تعالى (فاعتبروا يا أولى الأبصار) رأى بقصص الماضين .

ونحن أيضاً نقص على أجيالنا بعد هذه القرون ، أهم أحداث الإسلام لاستخلاص العظة والعبرة أم لا ؟

وهذا ما يتيسر إيراده بإيجاز فى هذه المسألة ، وبالله تعالى التوفيق .

تنبيه

مما يعتبر ذا صلة بهذا البحث فى الجملة ما نقله ابن كثير فى التفسير عند كلامه على قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

قال عندها : وقال الإمام أحمد حدثنا جعفر بن عون حدثنا

أبو العميس عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين إنكم تقرؤن آية فى كتابكم لو علينا يامعشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً .

قال : وأى آية قال قوله (اليوم أكملت لكم دينكم) فقال عمر : والله إنى لأعلم اليوم الذى نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم والساعة التى نزلت فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة فى يوم جمعة .

ورواه البخارى عن الحسن بن الصباح عن جعفر بن عون به ، ورواه أيضاً مسلم والترمذى والنسائى أيضاً من طرق عن قيس بن مسلم به . ولفظ البخارى عند تفسير هذه الآية من طريق سفيان الثورى عن قيس عن طارق قال :

قالت اليهود لعمر : إنكم تقرؤن آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيداً . فقال عمر : إنى لأعلم حين أنزلت ، وأين أنزلت ، وأين رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزلت : يوم عرفة وأنا والله بعرفة .

وساق عن ابن جرير قال كعب : لو أن غير هذه الأمة نزلت عليهم هذه الآية لنظروا اليوم الذى أنزلت فيه عليهم فاتخذوه عيداً يجتمعون فيه .

فقال عمر : أى آية يا كعب ؟ فقال (اليوم أكملت لكم دينكم)

فأجابه عمر بما أجاب به سابقاً ، وقال فى يوم جمعة ويوم عرفة وكلاهما بحمد الله لنا عيد .

ونقل عن ابن جرير عن ابن عباس قرأ الآية فقال يهودى : لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذنا يومها عيداً فقال ابن عباس : فإنها نزلت فى يوم عيدين اثنين يوم عيد ويوم جمعة .

ومحل الإيراد أن عمر سمع اليهود يشيد بيوم نزولها ، فقد أقر اليهودى على ذلك ولم ينكر عليه ، ولكن أخبره بالواقع وهو أن يوم نزولها عيد بنفسه بدون أن نتخذه نحن .

وكذلك ابن عباس أقر اليهودى على إخباره وتطلعه واقتراحه ، فلم ينكر عليه كما لم ينكر عمر مما يشعر أنه لو لم يكن نزولها يوم عيد ، لكان من المحتمل أن تتخذ عيداً . ولكنه صادف عيداً أو عيدين ، فهو تكريم لليوم بمناسبة مانزل فيه من إكمال الدين وإتمام النعمة .

قوله تعالى (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) الأمشاج . الأخلاط ، كما قال تعالى (من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب) .

قوله تعالى ﴿ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾.

بين تعالى أنه هدى الإنسان السبيل ، وهو بعد الهداية إما شاكراً وإما كفوراً .

وهذه الهداية هداية بيان وإرشاد، كما فى قوله تعالى (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) كما أن الهداية الحقيقية بخلق التوفيق فضلا من الله على من شاء، كما تقدم عند قوله تعالى (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان الجمع بين الآيتين ، ومعنى الهداية العامة والخاصة .

قوله تعالى ﴿سَلَٰسِلَا وَأَغْلَٰلًا﴾.

بين تعالى نوع هذه السلاسل بذرعها فى قوله تعالى (فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً) .

قوله تعالى ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ .

مادة يشرب تتعدى بنفسها ، فيقال : يشرب كأساً بدون مجىء من ، ومن للتبعيض وللابتداء ، فقيل : هى هنا للابتداء ، وأن الفعل مضمن معنى فعل آخر ، وهو يتنعمون ويرتوون كما قالوا فى عيناً يشرب بها عباد الله . إذ الباء تكون للارادة ولا إرادة هنا ، فهم يتنعمون بها .

والذى يظهر أن من للتبعيض فعلا ، وأن شرب أهل الجنة على سبيل الترفه والتلذذ ، وهى عادة المترفين المنعمين ، يشربون بعض الكأس لا كله .

وقد دل على ذلك أنهم لا يشربون عن ظمإ كما فى قوله تعالى لآدم (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) ، وسيأتى تعدية يسقون بنفسها إلى الكأس (ويسقون فيها كأساً) ، ويأتى قوله تعالى (وسقاهم ربهم شراباً طهوراً) .

وبؤيد هـذا اتفاقهم على التضمين (فى عينا يشرب بها عباد الله) ، فهو هنا واضح .

وهناك التمعيض ظاهر .

قوله تعالى : ﴿يُوفونَ بِالنَّذْرِ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مبحث النذر وافياً عند قوله تعالى : (وليوفوا نذورهم) الآية فى سورة الحج .

قوله تعالى ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ .

اختلف فى مرجع الضمير فى على حبه ، هل هو راجع على الطعام أم على الله تعالى ؟ أى ويطعمون الطعام على حب الطعام لقلته عندهم وحاجتهم إليه ، أم على حب الله رجاء ثواب الله ؟

وقد رجح ابن كثير المعنى الأول ، وهو اختيار ابن جرير وساق الشواهد على ذلك كقوله (وآتى المال على حبه) ، وقوله (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) .

والواقع أن الاستدلال الأول فيه ما فى هذه الآية ولكن أقرب دليلا وأصرح ، قوله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) .

وفى الآية التى بعدها فى هذه السورة قرينة تشهد لرجوعه للطعام على ما تقدم ، وهى قوله تعالى بعدها (إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً) لأنها فى معنى حب الله . مما يجعل الأولى للطعام وهذه لله . والتأسيس أولى من التأكيد ، فيكون السياق : ويطعمون الطعام على حاجتهم إياه ، ولوجه الله تعالى . والله تعالى أعلم .

مسألة

فى قوله تعالى : (مسكيناً ويتيماً وأسيراً) جمع أصناف ثلاثة : الأول والثانى من المسلمين غالباً أما الثالث وهو الأسير فلم يكن لدى المسلمين أسرى إلا من الكفار ، وإن كانت السورة مكية إلا أن العبرة بعموم اللفظ كما هو معلوم .

وقد نقل ابن كثير عن ابن عباس : أنها فى الفرس من المشركين وساق قصة أسارى بدر .

واختار ابن جرير أن الأسرى هم الخدم ، والذى يظهر والله تعالى أعلم أن الأسارى هنا على معناها الحقيقى ، لأن الخدم لايخرجون عن القسمين المتقدمين اليتيم والمسكين ، وهؤلاء الأسارى بعد وقوعهم فى الأسر ، لم يبق لهم حول ولا طول . فلم يبق إلا الإحسان إليهم .

وهـذا من محاسن الإسلام وسمو تعاليمه ، وإن العالم كله اليوم لفى حاجة إلى معرفة هذه التعاليم السماوية السامية حتى مع أعدائه ، وقد تقدم شيء من ذلك عند الـكلام على قوله تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم) ، وهؤلاء بعد الأسر ليسوا مقاتلين .

قوله تعالى ﴿ وَلَقَّـٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾

تقدم معنى قوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة) ، وهنا جمع لهم بين النضرة والسرور ، والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن النضرة لما يرون من النعيم والسرور لما ينالونه من النظر إلى وجه الله الـكريم كما تقدم ، (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) فيكون السرور نتيجة النظر إلى وجه الله الـكريم . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ . قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ .

فيه التنصيص على أوانى الفضة فى الجنة .

وجاء بصحاف من ذهب وأكواب ، وهى محرمة فى الدنيا ، كما هو معلوم ، وقد بين تعالى أن الذى يطوف عليهم (هم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة الطور عند

قوله (ويطوف عليهم غلمان لهم) ، والقوارير جمع قارورة ، والعرب تطلق القارورة على إناء الزجاج خاصة ، ولكن الآية صريحة فى أنها قوارير من فضة ، مما يدل على صحة إطلاق القارورة ، على غير آنية الزجاج كالفضة مثلا .

قال صاحب اللسان : والقارورة : ما قر فيه الشراب وغيره ، وقيل : لا يكون إلا من الزجاج خاصة .

وقوله تعالى : (قواريرا قواريرا من فضة) قال بعض أهل العلم : معناه أوانى زجاج فى بياض الفضة وصفاء القوارير ، قال ابن سيده : وهذا أحسن . اهـ .

وقال ابن شذياق فى معجم مقاييس اللغة : إن مادة قرّ ، القاف والراء أصلان صحيحان يدل أحدهما على برد ، والآخر على تمكن ، وذكر من التمكن استقر ومستقر ، كما ذكر صاحب اللسان كثيراً من ذلك ثم قال :

ومن الباب القر : بضم الراء : صب الماء فى الشىء . يقال : قررت الماء ، والقر صب الكلام فى الأذن ، وذكر منه الإقرار ضد الجحود لاستقرار الحق به .

ثم ذكر مسألة إثبات اللغة بالسماع أو بالقياس فقال : وهذه مقاييس صحيحة ، فإما أن نتعدى ونتحمل الكلام كما بلغنا عن بعضهم

أنه قال : سميت الفاروره لاستقرار الماء فيها وغيره ، فليس هذا من مذهبنا .

وقد قلنا : إن كلام العرب ضربان . منه ما هو قياس وقد ذكرناه ، ومنه ما وضع وضعا .

والمسألة من مباحث الأصول فى الألفاظ ، هل هى بوضع لا يقاس عليه وتبقى كما وضعتها العرب ، أو أنها توضع بالقياس ؟ وفائدة الخلاف هل المسكرات كلها مثلا يتناولها مسمى الخمر بالوضع فتكون محرمة بنص (إنما الخمر والميسر) الآية ، أو أنها محرمة قياسا على الخمر بجامع علة الإسكار وعليه ، فإذا كانت اللغة تساعد على الإطلاق قياسا ، فهو أقوى فى الحكم بأن يأتى الحكم بالنص لا بالقياس بجامع العلة . ولعل التحقيق فى هذه المسألة ما قاله علماء الوضع من أن اللغات منها توقيفى ومنها قياسى .

وفى قوله تعالى : (قدروها تقديرا) توجيه إلى حسن الصنع فى التسوية فى التقدير ، والمقاسات .

قوله تعالى ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً ﴾ .

وقبلها ، قال تعالى : (كان مزاجها كافورا) ، فقد قيل هما معا ، فهى فى برد الكافور وطيب الزنجبيل .

قوله تعالى ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ .

وهذا وصف شراب الجنة ، والشراب هنا هو الخمر ، وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان هذا المفهوم من أن شراب خمر الدنيا ليس طهورا ، لأن أحوال الجنة لها أحكامها الخاصة ، ويشهد لهذا ما تقدم فى قوله تعالى : (ويطاف عليهم بآنية من فضة) مع أن أوانى الفضة محرمة فى الدنيا لحديث : « الذى يشرب فى آنية الذهب والفضة إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم » ، ومع ذلك فإن أهل الجنة ينعمون بها .

وكذلك ينعمون بخمر الجنة ، وكل أوصافها فى الجنة عكس أوصافها فى الدنيا كما تقدم ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، كما أوضحه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند قوله تعالى (لا يصدعون عنها ولا ينزفون) فى سورة الواقعة .

قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنْزِيلًا ﴾ .

نزلنا وتنزيلا يدل على التكرار بخلاف أنزلنا ، وقد بين تعالى أنه أنزل القرآن فى ليلة القدر فى سورة القدر (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) ، وهنا إثبات التنزيل .

وقد بين تعالى كيفية التنزيل فى قوله تعالى : (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) .

وقد بين تعالى الحكمة فى هذا التفريق على مكث فى قوله تعالى : (وقال الذين كفروا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا) ، وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان هذه المسألة فى سورة الفرقان ، والإحالة فيها على بيان سابق .

قوله تعالى ﴿ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾ .

تقدم بيان مقدار المطلوب قيامه من الليل فى أول سورة المزمل فى قوله تعالى : (يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه) الآية .

قوله تعالى ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾

الأسر : الربط بقوة مأخوذ من الأسر هو جلد البعير رطبا ، وهو القد ، وسمى الأسير أسيراً لشد قيده بقوة بجلد البعير الرطب ، وهو هنا تقويه بشد ربط الأعضاء المتحركة فى الإنسان فى مفاصله بالعصب ، وهو كناية عن الاتقان والقوة فى الخلق .

وقد بين تعالى ذلك فى قوله : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) ، وقوله : (الذى أحسن كل شىء خلقه) .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ .

السبيل هنا منكر ، ولكنه معين بقوله : (إلى ربه) ، لأن السبيل إلى ربه هو السبيل المستقيم .

كما قال تعالى : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) وفى النهاية قال : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه) ، وهو الصراط المستقيم الذى دعا إليه صلى الله عليه وسلم .

كما فى قوله تعالى : (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض) وهو القرآن الكريم كما تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى قوله تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم) ، وقد بين تعالى أنه القرآن كله فى قوله تعالى (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) بعد قوله : (اهدنا الصراط المستقيم) ، كأنه قال : الهادى إلى الصراط المستقيم المنوه عنه فى الفاتحة : هو القرآن الكريم (هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب) إلى آخر الصفات ، فيكون السبيل هنا معلوما .

وقوله تعالى قبلها : (إن هذه تذكرة) مشعر بأن السبيل عن طريق التذكر فيها والاتعاظ بها .

وقوله : (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) ، علق اتخاذ السبيل

إلى الله على مشيئة من شاء ، وقيدها ربط مشيئة العبد بمشيئة الله تعالى في قوله : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) ، وهذه مسألة القدر .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بحثها بحثا وافيا عند قوله تعالى (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) في يونس وأحال على النساء . إلا أن قوله تعالى في التذييل على الآية الكريمة بقوله : (إن الله كان عليما حكيما) أن كل ما يقع في هذا الكون من سلوك وأعمال أنه بعلم من الله وحكمة .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المرسلات

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا . فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا . وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا . فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا . فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا . عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾

يقسم تعالى بهذه المسميات ، واختلف فى (المرسلات) ، (والعاصفات) ، (والناشرات) .

فقيل : هى الرياح ، وقيل : الملائكة أو الرسل ، وعرفا أى متتالية كعرف الفرس ، واختار كونها الرياح ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وقتادة . واختار كونها الملائكة أبو صالح عن أبى هريرة والربيع بن أنس .

وعن أبى صالح : أنها الرسل قاله ابن كثير ، واختار الأول وقال توقف ابن جرير ، والواقع أن كلام ابن جرير يفيد أنه لا مانع عنده من إرادة الجميع ، لأن المعنى محتمل ولا مانع عنده .

واستظهر ابن كثير أنها الرياح لقوله تعالى : (وأرسلنا الرياح لواقح) وقوله : (وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته) .

وهذا هو الذى اختاره الشيخ رحمة الله تعالى عليها وعليه فى

مذكرة الإملاء ، أما الفارقات ، فقيل الملائكة ، وقيل : آيات القرآن ، ورجح الشيخ الأول ، وأما الملقيات ذكرا عذرا أو نذرا .

فقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانها في سورة الصافات عند قوله تعالى : (فالتاليات ذكراً) .

وفي مذكرة الإملاء . قوله : (عذراً) : اسم مصدر بمعنى الإعذار ، ومعناه قطع العذر .

ومنه المثل : من أعذر فقد أنذر ، وهو مفعول لأجله والنذر اسم مصدر بمعنى الإنذار ، وهو مفعول لأجله أيضاً ، والإنذار الإعلام المقترن بتهديد ، وأو في قوله : (أو نذراً) بمعنى الواو أي لأجل الإعذار والإنذار ، ومجيء أو بمعنى الواو ، كمجيء ذلك في قول عمرو ابن معد يكرب :

قوم إذا سمعوا الصريخ رأيتهم ما بين ملجم مهره أو سافع

أي وسافع .

قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴾ .

هو المقسم عليه ، والواقع أن نبين كل قسم ومقسم عليه مناسبة ارتباط في الجملة غالباً ، والله تعالى يقسم بما شاء على ما شاء ، لأن المقسم به من مخلوقاته . فاختيار ما يقسم به هنا أو هناك غالبا يكون لنوع مناسبة ، ولو

تأملناه هنا ، لوجدنا المقسم عليه هو يوم القيامة ، وهم مكذبون به فأقسم لهم بما فيه إثبات القدرة عليه ، فالرياح عرفا تأتى بالسحاب تنشره ثم يأتى المطر ، ويحيى الله الأرض بعد موتها .

وهذا من أدلة القدرة على البعث ، والعاصفات منها بشدة ، وقد تقتلع الأشجار وتهدم البيوت مما لا طاقة لهم بها ولا قدرة لهم عليها ، وما فيها من الدلالة على الإهلاك والتدمير ، وكلاهما دال على القدرة على البعث .

ثم تأتى الملائكة بالبيان والتوجيه والإعذار والإنذار ، (إنما توعدون لواقع) . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ . وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ . وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ .

كلها تغييرات كونية من آثار ذلك اليوم الموعود . وطمس النجوم ذهاب نورها ، كقوله : (وإذا النجوم انكدرت وإذا السماء فرجت) أى تشققت وتفطرت كما فى قوله تعالى : (إذا السماء انشقت) ، (إذا السماء انفطرت) ، ونسف الجبال تقدم بيانه فى عدة محال . وما يكون لها من عدة أطوار من دك وتفتيت وبث وتسيير كالسحاب ثم كالسراب ، وتقدم فى سورة ق عند قوله تعالى (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم) .

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه فى سورة الواقعة عند قوله تعالى : (قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم) .

قوله تعالى ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ . لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾ .

يوم الفصل هو يوم القيامة ، يفصل فيه بين الخلائق ، بين الظالم والمظلوم ، والمحق والمبطل والدائن والمدين ، كما بينه تعالى بقوله : (هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين) ، وكقوله (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود)

قوله تعالى ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

وعيد شديد من الله تعالى للمكذبين . وقد تقدم معنى ذلك للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند آخر سورة الذاريات ، عند قوله تعالى : (فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون) .

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ . فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ . إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾

الماء المهين : هو النطفة الأمشاج ، والقرار المكين : هو الرحم ، وقد مكنه الله وصانه حتى من نسمة الهواء .

والآيات الباهرات فى هذا القرار فوق أن توصف ، وقد بين تعالى أنه الرحم بقوله تعالى : (ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى) والقدر المعلوم هو مدة الحمل إلى السقط أو الولادة .

وتقدم للشيخ التنويه عن ذلك فى أول سورة الحج ، وأنها أقدار مختلفة وآجال مسماة .

قوله تعالى ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾.

فيه التمدح بالقدرة على ذلك وهو حق ، ولا يقدر عليه إلا الله كما جاء فى قوله : (أفرأيتم ما تمنون أ أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) .

وقد بينه تعالى فى أول سورة الحج : ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة إلى آخر السياق .

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا . أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴾

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة طه عند قوله تعالى : (الذى جعل لكم الأرض مهدا) ، والكفات : الموضع الذى يكفتون فيه ، والكفت الضم أحياء على ظهرها ، وأمواتا فى بطونها ، كما فى قوله : (وفيها نعيدكم) ، وقد جمع المعنيين فى قوله تعالى : (والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا) .

قوله تعالى ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ .

بينه بعد بقوله تعالى : (انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب . لا ظليل ولا يغنى من اللهب . إنها ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالات صفر) ، أى وهى جهنم .

وقد بين تعالى فى موضع آخر أنهم يدفعون إليها دفعاً فى قوله تعالى (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا) .

قوله تعالى ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ .

نص على أنهم لا ينطقون فى ذلك اليوم مع أنهم ينطقون ويجيبون على ما يسألون ، كما فى قوله تعالى . (وقفوهم إنهم مسألون) .

وقوله : (وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام على هذه المسألة فى سورة النمل عند قوله تعالى : (ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون) .

وبين وجه الجمع بالإحالة على دفع إيهام الاضطراب عند سورة المرسلات هذه ، وأن ذلك فى منازل وحالات .

قوله تعالى ﴿ كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

فيه النص على أن عملهم فى الدنيا سبب فى تمتعهم بنعيم الجنة فى الآخرة ،

ومثله قوله تعالى : (ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) .

وجاء فى الحديث : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » ، ولا معارضة بين النصين ، إذ الدخول بفضل من الله وبعد الدخول يكون التوارث وتكون الدرجات ويكون التمتع بسبب الأعمال . فكلهم يشتركون فى التفضل من الله عليهم بدخول الجنة ، ولكنهم بعد الدخول يتفاوتون فى الدرجات بسبب الأعمال .

قوله تعالى ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

فى الآية التى قبلها قال تعالى : (بما كنتم تعملون) .

وهنا قال : (نجزى المحسنين) ، ولم يقل نجزى العاملين ، مما يشعر بأن الجزاء إنما هو على الإحسان فى العمل لا مجرد العمل فقط ، وتقدم أن الغاية من التكليف ، إنما هى الإحسان فى العمل (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك فى سورة الكهف عند قوله تعالى : (إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) .

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴾ .

هذه الآية الكريمة من آيات الاستدلال على أن الكفار مؤاخذون بترك الفروع ، وتقدم التنبيه على ذلك مراراً ، والمهم هنا أن أكثر ما يأتى ذكره من الفروع هى الصـــلاة مما يؤكد أنها هى بحق عماد الدين .

قوله تعالى ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

أى بعد هذا القرآن الكريم لما فيه من آيات ودلائل ومواعظ كقوله تعالى : (فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون) .

وقد بين تعالى أنه نزله أحسن الحديث هـدى فى قوله تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء) .

وذكر ابن كثير فى تفسيره عن ابن أبى حاتم إلى أبى هريرة يرويه : إذا قرأ (والمرسلات عرفا) فقرأ (فبأى حديث بعـــده يؤمنون) فليقل : آمنت بالله وبما أنزل .

وذكر فى سورة القيامة عن أبى داود وأحمد عدة أحاديث بعدة طرق أنه صلى الله عليه وسلم قال : « من قرأ فى سورة الإنسان (أليس

ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) قال : سبحانك اللهم فبلى ، وإذا قرأ سورة (والتين) فانتهى إلى قوله : (أليس الله بأحكم الحاكمين) فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين » .

ومن قرأ (والمرسلات) ، فبلغ (فبأى حديث بعده يؤمنون) فليقل : آمنا بالله . اهـ .

وإنا نقول : آمنا بالله كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إلى هنا نهاية الجزء الثامن من الأضواء

وهو الجزء الأول من التتمة من أول سورة (الحشر) إلى آخر سورة (المرسلات) ، ويليه الجزء التاسع من الأضواء ، وهو الجزء الثانى من التتمة إن شاء الله ، ويبدأ من سورة (النبأ) إلى آخر سورة (الناس) . تأليف : عطية محمد سالم ، تلميذ الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه .

وسيلحق بالتاسع كتاب [دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب] ورسالة [منع المجاز عن المنزل للتعبد والإعجاز] تأليف الشيخ محمد الأمين رحمة الله تعالى علينا وعليه ، وفهرس للمباحث الفقهية لما جاء فى أنحاء متفرقة من جميع الكتاب ، ثم ترجمة للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، وهما بقلم تلميذه عطية محمد سالم .

والله نسأل أن ينفع بذلك كله ، وأن يجعله فى صحيفة الحسنات لكل من ساهم فى عمله وإظهاره ، إنه سميع مجيب .

وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

أول المحرم سنة ١٣٩٧ هـ

عطية محمد سالم

تم بحمد الله وحسن توفيقه طبع الجزء الثامن من الكتاب النفيس « أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن » ، لمؤلفه الأستاذ الجليل ، والعالم النحرير « محمد الأمين الشنقيطى رحمه الله » .

وكان الفراغ من طبعه فى شهر رمضان من سنة ١٣٩٧ هـ ويليه بمشيئة الله الجزء التاسع وأوله « سورة النبأ »

وذلك بمطبعة المدنى المؤسسة السعودية بمصر . وهى تفخر إذ تقدم هذا الكتاب النفيس وأمثاله من كتب التفسير والسنة المحمدية ، وكتب السلف الصالح ، وستظل بمشيئة الله وعونه حارسة على الكتاب العربى ، باذلة جهدها فى نشر الثقافة الدينية حارسة لها من التبديل والتحريف ، والله المسئول أن يحقق المأمول .

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى ، وعلى آله وصحبه وسلم ؟

مدير المؤسسة

محمود على صبح المدنى

فهرس

الجزء الثامن من أضواء البيان ، فى إيضاح القرآن بالقرآن

الصفحة	والموضوع
٣	المقدمة : وفيها بيان الغرض من المقدمات فى التآليف
٤	أهم المقصود من تأليف الأضواء أمران
٥	تضمن الأضواء أكثر من ثلاثين نوعا من أنواع البيان
٥	الأضواء ليس تفسيراً لجميع القرآن كبقية التفاسير بل خاص لمنهج مختص به
٦	طريقة العمل فى إنجاز هذه التتمة
	تتبع الأجزاء السبعة للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه للربط بين الماضى والمتبقى . الحصول على مذكرات كان أملاها رحمه الله أثناء الدراسة . العناية بمناسبة السياق
٧	عدم إمكان الإتيان بمنهج الشيخ تماما . مدة اشتغال الشيخ بالتفسير فى المملكة ثلاثين عاما . إتمامه التفسير كله فى المسجد النبوى حوالى ثلاث مرات . تصريح الشيخ بأنه ما من آية إلا وعنده ما قيل فيها
٨	من أحسن ما قيل فى رثاء الشيخ من أبيات فى خصوص الأضواء .

الصفحة الموضوع

١١ أول سورة الحشر . إحالة على كلام الشيخ فى الأجزاء السابقة ، ومن مذكرات الإملاء .

١٢ أصل التسبيح لغة . مجىء هذه المادة فى القرآن بكل تصاريفها

١٣ بيان العموم فى « ما » فى قوله تعالى (ما فى السموات وما فى الأرض) إسناد التسبيح فى عموم القرآن إلى ما دون من .

١٤ إسناد التسبيح لجميع العوالم جماد ونبات وطير وحيوان وإنسان . . . إلخ

١٥ تسبيح الله تعالى نفسه ، تسبيح الملائكة . تسبيح الرعد . تسبيح السموات السبع والأرض . تسبيح الجبال . تسبيح الطير . تسبيح الإنسان . ونظير التسبيح السجود .

بيان هذا العموم هل باق على عمومه ، أم دخله التخصيص ؟

١٦ إثبات التسبيح حقيقة لا مجازاً

١٦ الحامل على القول بتسبيح الدلالة هو تحكيم الحس والعقل وبيان بطلانه .

١٨ عشر قضايا حقيقية فى قصة الهدهد لا يدركها الحس ولا العقل .

١٩ إيمان الحيوانات بالبعث وإدراكها ليوم الجمعة

٢٠ وقوع التسبيح الفعلى حقيقة من بعض أفراد الجماد وما ثبت لفرد يثبت للجنس .

٢٢ مناقشة البلاغيين فى معنى حجابا مستورا وعلاقته بالموضوع . قصة امرأة أبى لهب وحجبه صلى الله عليه وسلم عنها وحجب الحجاب عنها أيضاً

الصفحة الموضوع

٢٣ كلام البقرة والذئب وعلاقته أيضا .

٢٤ إلزام منكرى حقيقة التسبيح عقلا ونقلا

٢٥ قوله تعالى (هو الذى أخرج الذين كفروا من ديارهم) لأول الحشر سبب إجلائهم

٢٦ سبب آخر . ولا يتنافى مع الأول

٢٨ الشبه بين بنى النضير وقريظة

٢٩ معنى الحشر . الأولية هنا زمانية أم مكانية ؟

٣٠ غالبية استعمال كلمة الحشر فى القرآن

٣١ الجمع بين الأقوال فى معنى الحشر والأولية

٣٢ قوله تعالى : (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا)
مناقشة الرازى فى اعتباره الآية من آيات الصفات

٣٤ قوله تعالى : (وقذف فى قلوبهم الرعب)
مفهومها أن الطمأنينة من أسباب النصر والنصوص الدالة على ذلك .

٣٧ أربعة أسباب للطمأنينة .

٣٨ بيان أثر الدعاية فى القتال سواء كانت حسنة مشجعة أو سيئة مثبطة

٣٩ قوله تعالى (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله)
نص على أن المشاقة علة فيما وقع بهم مع أنها وقعت من غيرهم ولم يقع بهم مثلهم . مناقشة الرازى فى تخصيص العلة .

الصفحة الموضوع

٤٢ العلة فى اليهود مشاقة وزيادة وعن قصد .

٤٤ تأثير الدوافع على ارتكاب الجرم فى الحكم على مرتكبه . ومثاله بين آدم وإبليس .

٤٦ إحالة على كلام الشيخ فى مشاقة اليهود خاصة .

٤٨ قول تعالى : (ماقطعتم من لبنة أو تركتموها قائمة) الآية .
معنى اللبنة لغة ، وعرفا عند أهل المدينة خاصة.

٤٩ بيان المراد بالإذن هنا هل هو قدرى أم شرعى والجمع بين القولين .

٥٠ اعتراض اليهود على قطع النخيل كاعتراض المشركين على القتال فى الأشهر الحرم والرد عليهم .

٥٢ قوله تعالى : (وما أفاء الله على رسوله منهم) الآية.
إحالة على سورة الأنفال فى المسألة التاسعة هناك .

٥٣ قوله تعالى : (كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم)
معنى دولة بالضم والفتح.

٥٤ الرد على من يستدلون بالآية على دعوى الاشتراكية .

٥٨ إحالة على كلام الشيخ فى الزخرف على هذه المسألة .

٦١ قوله تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه) الآية .
تقسيم السيوطى الوحى إلى قسمين . مقالة سعيد بن المسيب فى المسجد ورد المرأة عليه .

٦٢ مقالة الشافعى لأهل مكة : سلونى عما شئتم أجبكم من كتاب الله .

الصفحة	الموضوع
٦٣	تنبيه : بيان فعله صلى الله عليه وسلم ينقسم خمسة أقسام . ومحل التأسى منها
٦٦	إحالة على دفع إيهام الاضطراب
٦٧	تنبيه : العمل بهذه الآية من لوازم النطق بالشهادتين
٦٩	تخصيص(ما آتاكم الرسول فخذوه) وعدم تخصيص(ومانهاكم عنه فانتهوا)
٦٩	قوله تعالى : (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم) الآية
	الدوافع الحقيقية للهجرة
٧٠	مشاركة الأنصار المهاجرين فى دوافع الهجرة
	مشاركة المهاجرين الأنصار فى الإيثار على النفس أيضاً
٧٢	مجتمع المدينة كان متكافلا متآخيا .
٧٤	هل يصح الإيثار من كل إنسان .
٧٥	الفرق بين الجود والتبذير .
٧٧	مراتب الإنفاق فى القرآن ثلاثة .
٧٨	جوانب الإنفاق ثلاثة : ماينفق منه . ماينفق عليه .
٧٩	صورة الإنفاق .
٨٠	من آداب الإسلام فى الإنفاق تواضع الغنى ، وتعفف الفقير . قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد) الآية .
٨١	الغاية من جميع الأديان بعد التوحيد ، تحصيل التقوى .
٨٢	إحالة على معنى التقوى عند قوله تعالى : (ولكن البر من اتقى) فى البقرة

الصفحة الموضوع

٨٥ (ولتنظر نفس) أى كل نفس والآيات فى معناها

٨٦ المراد بعد فى الآية .

٨٧ تكرار الأمر بالتقوى فى الآية

٨٨ تنبيه : مجىء قدمت بصيغة الماضى . والمراد الحث على الإسراع فى المستقبل . معنى النسيان فى الآية

٨٩ من هم المشبه بهم والذين نسوا الله

قد جاء وصف كل من اليهود والنصارى والمشركين بالنسيان فى الجملة

٩١ أقوال المفسرين فى معنى أنساهم أنفسهم

مناقشة الفخر الرازى فى الآية

٩٣ تنبيهان : الأول : إحالة على دفع الإيهام

٩٤ الثانى : وجود قرينة فى الآية للدلالة على النسيان المقصود

٩٥ قوله تعالى : (لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة) الآية

لازم الخبر فى الآية

٩٦ السر فى تقديم أصحاب النار فى الذكر هنا

٩٧ التعبير بأصحاب النار وأصحاب الجنة يدل على الاختصاص

٩٩ الرد على المعتزلة . استدلالهم بالآية لمذهب فى أصحاب الكبيرة . إحالة على كلام الشيخ فى عصاة المسلمين وخروجهم من النار وخلود الكفار . فى دفع الإيهام فى سورة الأنعام

١٠٠ استدلال الشافعى بالآية على عدم قتل المسلم بالكافر لعدم المساواة

الصفحة الموضوع

قوله تعالى : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل - إلى - يتفكرون)

١٠١ إحالة على جواب لو - نماذج لآثار القرآن على بعض الناس عند سماعه منهم عمر وجبير

١٠٢ بيان القرآن السبب فى عدم تأثر بعض القلوب لسماع القرآن مع إمكان تأثر الجماد به

١٠٣ مفهوم الآية فى أن المؤمنين تخشع قلوبهم لذكر الله

١٠٤ الراجح من جواب لو فى لو أنزلنا

قوله تعالى : (وتلك الأمثال نضربها للناس)

أصل المثل فى اللغة وفى أسلوب القرآن

١٠٥ الفرق بين المثل بكسر الميم والند والشبه والشكل .

١٠٦ أكثر مافى القرآن من التمثيل والتشبيه من قبيل المركب التمثيلى ، إحالته على نماذج

١٠٨ قوله تعالى : (هو الله الذى لا إله إلا هو) إلى آخر السورة

إثبات تنزيه الله تعالى عما ادعاه كل من اليهود والنصارى والمشركين، من شريك لله سبحانه

١١٠ علاج قضايا التوحيد الثلاث من تلك الآيات

كلام أبى السعود : ترجع الكمالات كلها إلى الكمال فى القدرة والعلم وجود هذا المضمون فى هذا السياق

الصفحة لموضوع

١١٢ بيان أن قوله تعالى : (هو الخالق البارىء المصور) أعظم براهين البعث فى القرآن

١١٣ الخلق والتصوير أهم براهين الوحدانية والآيات الدالة على ذلك

١١٦ وهو أيضاً الدليل على استحقاق الله للعبادة

١١٧ المراد بالأسماء الحسنى ومبحث عددها ومعناها

١٢٠ كلام حسن لابن العربى فى معنى أسماء الله

١٢١ دلالة التذييل بهذه الآيات على تلك السورة

١٢٣ السر فى اجتماع تلك الصفات كلها هنا

١٢٤ البرهان الملزم للاعتراف والتسليم

١٢٦ عود على بدء

١٢٧ سورة الممتحنة

١٢٩ قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم) الآية

إطلاق لفظ العدو على الجماعة والفرد

١٣٠ المراد بالعدو هنا . سبب نزول الآية

١٣١ دخول كل طائفة كفرت بالله فى معنى العدو قديمة كانت أوحديثة

تنبيه : مع الرازى فى تقديم لفظ عدوى فى الآية

١٣٣ العداوة فى غير الكفر لاتقتضى عدم الموالاة — إحالة

١٣٥ تنبيه فى الرد على المعتزلة إن المعصية تنافى الإيمان

قوله تعالى : (إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء) الآية . أصل الثقف :

الصفحة الموضوع

١٣٧ قوله تعالى (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم) الآية

مفهوم الآية أن أولى الأرحام من المؤمنين لايفصل بينهم يوم القيامة

١٣٨ إحالة قوله تعالى (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم) الآية

معنى الأسوة لغة — المطلوب التأسى فى ثلاثة أمور

١٣٩ عدم التأسى به فى استغفاره لأبيه

١٤٠ وهذه قضية عامة فى كل من كفر بالله مع أقرب القرابة . كنوح مع ابنه ولوط مع زوجته .. الخ

١٤٢ مسألة : حول موضوع شرع من قبلنا

١٤٣ وجهة نظر الخلاف بين الشافعى والجمهور فى هذه المسألة

قوله تعالى : (لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة — إلى — الحميد)

١٤٥ بيان معنى استغنى الله

قوله تعالى : (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم) الآية

١٤٦ هل جعل بينهم المودة فعلا أم لا ؟

قوله تعالى : (لاينهاكم الله عن الذين يقاتلوكم — إلى — الظالمون) .

١٤٧ مناقشة أقوال المفسرين فى اعتبار الآية رخصة أو ناسخة لأول السورة

١٤٩ بيان أهمية هذه الآية فى المعاملات الحديثة مع جميع الدول

١٥١ ترجيح النسخ والأدلة عليه

الصفحة الموضوع

١٥٣ ترجيح الطبرى لما أشرنا إليه

١٥٤ كلام الشافعى فى المسألة

١٥٥ وجهة نظر فى الآية

١٥٨ قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات - إلى - حكيم)

١٥٩ بيان الامتحان المطلوب للمؤمنات . وعدم امتحان المؤمنين .

١٦٠ مبحث فى الآية لتخصيص السنة بالكتاب

١٦٢ مبحث رد زينب رضى الله عنها بنكاحها الأول

١٦٤ الفرق بين عصم الكوافر وعصم الكافرات

١٦٦ قوله تعالى : (ولا يعصينك فى معروف)

القيد فى معروف لا مفهوم له

١٦٧ قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم)

١٧١ سورة الصف . قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون - إلى - مرصوص) ، بيان القول المغاير للفعل محل المعاتبة

١٧٤ الاختلاف فى المراد بالبنيان المرصوص وبيان الراجح

١٧٥ بيان كلام صاحب الجمان فى أجزاء الجيش وتقسيماته

٣٧٧ الحث على الطاعة والتحذير من الخلاف

١٧٧ قوله تعالى : (وإذ قال موسى لقومه لم تؤذوننى وقد تعلمون) الآية

ماهو الإيذاء الذى نوه عنه هنا ؟

١٧٩ إحالة على قوله (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم)

الصفحة الموضوع

١٨٠ قوله تعالى(وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل . . . إلى قوله ـ اسمه أحمد) النص على تبشير عيسى به صلى الله عليه وسلم لايمنع تبشير غيره من الرسل به .

١٨٢ قوله تعالى(يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم) . الآية .

١٨٣ إحالة على « كلام الشيخ فى سورتى الأنبياء والشورى

قوله تعالى(يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة) . الآية

تفسير التجارة بما بعدها (تؤمنون بالله) الآية .

١٨٤ بيان حقيقة تلك التجارة . تنبيه : لبيان تقديم ذكر الجهاد بالمال على النفس هنا .

١٨٥ مقارنة بين الآية وبين قوله تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم) بتقديم النفس

١٨٦ أبيات شواهد على معنى تلك التجارة

قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله) . الآية .

بيان أنهم كانوا أنصار الله فعلا كما قال تعالى

١٨٩ سورة الجمعة . مع ملاحظة تقديم وتأخير فى الآيتين الأوليين منها .

١٩١ معنى الأميين

١٩٢ الآية حكم على المجموع لاعلى الجميع إذ كان منهم غير أميين أى العرب . الحكمة فى كونه صلى الله عليه وسلم كان أميا ونص القرآن على ذلك .

الصفحة الموضوع

١٩٢ بيان المعطوف عليه فى قوله (وآخرين منهم)

١٩٣ قوله تعالى : (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)

الاختلاف فى مرجع اسم الإشارة على ثلاثة أقوال والجمع بينها وإحالة على كلام الشيخ .

١٩٥ قوله تعالى : (مثل الذين حملوا التوراة . . . أسفارا)

إحالة على مذكرة الدراسة ـ تحذير طلبة العلم

١٩٦ إحالة على كلام الشيخ فى عدة مواضع فى الأجزاء الثانى عند كمثل الطلب .

وفى الجزء الثالث عند(أعمالهم كرماد). والرابع عند (ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس) مناقشة المفسرين فى اعتبارهم هذا التشبيه مفردا وإثبات أنه مركب .

١٩٧ قوله تعالى : (قل يأيها الذين هادوا إن زعمتم ...) الآية وإحالة

١٩٨ إحالة على معنى تمنى الموت .

١٩٨ قوله تعالى(ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم) بيان ماقدمته أيديهم .

١٩٩ قوله(كل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم) وبيان المراد بالملاقاة الإدراك .

الصفحة الموضوع

٢٠٠ قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ـ إلى ـ تفلحون) . مشابهة هذه السورة لسورة الحج فى مباحثها . ورغبة الشيخ رحمه الله فى التوسع فيها .

٢٠١ السورة تتضمن جميع شروط الجمعة عند الفقهاء — إحالة على مذكرة الدراسة .

٢٠٢ بيان أن المراد بالصلاة هى صلاة الجمعة خاصة — المراد بالنداء هو الأذان ـ الأذان لغة — إحالة على كلامه رحمه الله عند (وأذن فى الناس بالحج) .

٢٠٣ الأذان من خصائص هذه الأمة — بدء مشروعيته .

٢٠٤ رؤيا عبد الله بن زيد الأنصارى .

٢٠٥ سؤال وجوابه حول كون تشريع الأذان كان بمنام صحابى .

٢٠٧ إقرار الرسول إياه جعله سنة .

٢٠٨ مشروعية الأذان بالوحى — الحكمة فى كونه ترك إلى أن جاء بتلك الصورة .

٢٠٩ فضل الأذان وآداب المؤذن .

٢١٠ كراهية التغنى فى الأذان

الصفحة الموضوع

٢١١ ألفاظ الأذان والإقامة

٢١٤ مواضع ذكر أذان أبى محذورة فى صحيح مسلم

٢١٥ ألفاظ الإقامة

٢١٦ الترجيع — التثويب —

٢١٧ عدد التكبير فى الأذان

٢٢٠ صفات الأذان أربعة وبيان من أخذ بكل منها من الأئمة الأربعة .

٢٢٢ ترجيح ابن تيمية رحمه الله لجواز الجميع مادام صح سنده

٢٢٤ كيفية أداء الأذان — حكم الأذان والإقامة

٢٢٥ الشافعى ـ والحنفى ـ مالك

٢٢٦ الحنابلة — الظاهرية

٢٢٦ هل الأذان حق للوقت أم للصلاة ؟

٢٢٩ قول الشافعى يقاتل أهل المساجد على تركهم الأذان
إحالة على كلام ابن تيمية رحمه الله فى المجموع

٢٣٠ لا أذان على النساء

٢٣١ تعدد المؤذنين لصلاة الجمعة

٢٣٣ مكان الأذان الأول (الزوراء) تعيين محل الزوراء

٢٣٤ زمن نداء عثمان قبل الوقت

٢٣٦ تعدد المؤذنين يوم الجمعة

الصفحة الموضوع

٢٣٨ تعدد الأذان للصلوات الخمس فى المسجد الواحد

٢٤٠ خلاف الأحناف فى تعدد الأذان للصبح

تنبيه : ينبغى أن يتعين للأذان الأول شخص يعرف عن صاحب الأذان الثانى .

٢٤١ تعدد المؤذنين لبقية الأوقات الخمسة . موجز الأقوال عند الشافعية .

٢٤٣ صفة آذانهم إذا تعددوا هل يؤذنون جملة معا أم متفرقين على التوالى .

٢٤٤ قول المالكية ـ

٢٤٥ قول الحنابلة ـ قول الأحناف

٢٤٦ قول ابن حزم ـ (الحكمة فى الأذان) وكلام القاضى عياض

٢٤٩ رد على بعض المستخفين بالأذان

٢٥١ محاكاة المؤذن

٢٥٣ بعض الزيادات على ألفاظ الأذان ـ الحوقلة ـ رضيت بالله ربا ـ الصلاة على النبى ـ سؤال الوسيلة .

٢٥٤ عند الصلاة خير من النوم ـ إذا سمع الأذان وهو يصلى ـ إذا دخل المسجد ـ إجابة أكثر من مؤذن

٢٥٥ مبحث أصولى فى الأمر المطلق هل يقتضى التكرار أم لا ـ إحالة على مذكرة الأصول .

الصفحة الموضوع

٢٥٧ الراجح تكرار الإجابة ـ (تنبيه) إذا سمع النداء وهو فى صلاة أو دعاء أو قراءة .

٢٥٨ تنبيه : لا أصل لما زيد فى ألفاظ الأذان . مناقشة ابن حجر لابن المنذر فى الزيادة .

٢٦٠ تاريخ إضافة الصلاة والتسليم على الرسول صلى الله عليه وسلم عقب الأذان (تنبيه) على سبب تلك الزيادة .

٢٦٢ حى على خير العمل فى الأذان ومناقشتها .

٢٦٤ الصلاة بين أذان عثمان والأذان الذى بين يدى الإمام ـ أحسن جواب هو لابن تيمية رحمه الله

٢٦٨ السنة قبل الجمعة عند الأئمة

٢٦٩ قوله تعالى (من يوم الجمعة) . معنى « من » ـ القراءات فى الجمعة بضم الميم وتسكينها .

سبب تسميته بالجمعة

٢٧٠ أسماء الأيام قبل الإسلام .

٢٧١ أول جمعة فى الإسلام قبل الهجرة فى المدينة ـ أول جمعة صلاها النبى صلى الله عليه وسلم ـ وأول جمعة فى غير المدينة .

الصفحة الموضوع

٢٧٣ اختصاص المسلمين بيوم الجمعة . الساعة التى فى يوم الجمعة وخبر أبى هريرة مع كعب الأحبار .

٢٧٥ الحكمة فى قراءة سورتى السجدة(وهل أتى) فى فجر يوم الجمعة .

٢٧٦ سجود التلاوة فى صبح الجمعة عن السلف

٢٧٧ الساعة التى فى يوم الجمعة

٢٧٨ قوله تعالى : (فاسعوا إلى ذكر الله) القراءة فى « فاسعوا »

٢٧٩ الخلاف فى المراد بالسعى والراجح فيه

٢٨١ الخلاف فى القدر الذى به تدرك الجمعة طرفان وواسطة

٢٨٣ أدلة الجمهور ورجحان إدراكها بركعة

٢٨٥ موافقة محمد صاحب أبى حنيفة للجمهور فى إدراكها بركعة

حكم صلاة الجمعة عند الفقهاء ووجود شبه والرد عليها

٢٨٨ رد مانسب لمالك

٢٨٩ مانسب للشافعية

٢٩١ مانسب للأحناف

٢٩١ رد مانسب للحنابلة

٢٩٢ فى الآية قرينة على الوجوب .

٢٩٤ مسألة : المخاطبون بالجمعة ومن لاجمعة عليهم

٢٩٧ دلالة القرآن على إسقاط الجمعة عن الخمسة فى الحديث : المرأة ـ المسافر ـ المريض ـ العبد

الصفحة الموضوع

٢٩٨ سقوطها عن أهل البوادى .

٢٩٩ أقوال الأئمة فى مكان الجمعة : الأحناف ـ المالكية

٣٠٠ الشافعية

٣٠١ الحنابلة

٣٠١ فصل فى اشتراط الاستيطان ودليله من الآية .

٣٠٢ اشتراط الأمير والقاضى

٣٠٦ نزول أهل العوالى إلى المدينة للجمعة

العدد فى الجمعة والخلاف فيه ـ السياق يشهد لمذهب مالك

٣٠٧ قوله تعالى : (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض) .

فيه مبحث أصوله فى الأمر بعد الحظر ـ وإحالة على كلام الشيخ رحمه الله .

٣٠٨ مسألة : وقت السعى إلى الجمعة ـ وخلاف مالك مع الجمهور وترجيح قول الجمهور .

٣٠٩ قيل : أو بدعة فى الإسلام ترك البكور إلى الجمعة .

٣١٠ الغسل إلى الجمعة ـ أقوال الظاهرية أنه واجب لليوم لا للصلاة

٣١٣ قوله تعالى : (وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها) . الآية .

مناقشة عود الضمير على التجارة وحدها ونظائره

٣١٥ تنبيه : تقديم التجارة على اللهو فى إذا (رأوا) . وتأخيرها عند (وما عند الله خير من اللهو) .

الصفحة الموضوع

٣١٩ قوله تعالى : (إذا جاءك المنافقون .. لكاذبون).

كلام أبى حيان فى قوله : نشهد أجرى مجرى اليمين .

٣٢٠ مبحث بلاغى فى تقسيم الكلام قسمين فقط خبر وإنشاء . ومذهب الجاحظ وجود واسطة .

٣٢٢ قوله تعالى : (اتخذوا أيمانهم جنة) ـ القراءة فى أيمانهم .

٣٢٣ قوله تعالى : (فصدوا عن سبيل الله) إحالة

٣٢٤ قوله تعالى : (إنهم ساءوا ما كانوا يعملون) إحالة فى معنى ساء ـ وبيان إساءتهم .

قوله تعالى : (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا) .

٣٢٥ قوله تعالى : (هم العدو فاحذرهم) هذا النص يشعر بالحصر مع وجود العداوة من غيرهم وبيان ذلك .

٣٢٦ قوله تعالى : (ولله خزائن السموات والأرض) إحالة على قوله (له مقاليد السموات والأرض) .

قوله تعالى : (يقولون لأن رجعنا إلى المدينة) إحالة

قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم) إحالة عند المال والبنون .

٣٢٧ قوله تعالى : (وأنفقوا مما رزقناكم) إحالة على أول سورة البقرة

الصفحة الموضوع

قوله تعالى : (ولن يؤخر الله نفسا)

٣٣١ سورة الجمعة . قوله تعالى : (يسبح لله مافى السموات وما فى الأرض) إحالة على أول الحشر .

٣٣٢ قوله تعالى : (هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) إحالة على مذكرة الدراسة . هذه الآية من مآزق القدرية والجبرية . ـ إحالة على مذكرة الدراسة .

٣٣٤ نقل القرطبى أحسن الأقوال فى المسألة .

٣٣٥ قوله تعالى : (خلق السموات والأرض بالحق ـ إلى ـ بذات الصدور)

٣٣٨ قوله تعالى : (ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ـ إلى ـ حميد) كلام الشيخ فى مذكرة الدراسة .

قوله تعالى : (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ـ إلى ـ يسيرا)

٣٣٩ الرد عليهم فى هذا الزعم .

قوله تعالى : (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا) المراد بالنور

٣٤٠ قوله تعالى : (يوم يجمعكم ليوم الجمع) إحالة على عدة مواضع للشيخ

٣٤١ قوله تعالى : (ذلك يوم التغابن) معنى التغابن ـ وبيان المراد به هنا .

٣٤٢ قوله تعالى : (ما أصاب من مصيبة ـ إلى ـ عليم) التنصيص على المصيبة مع أن الخبر كذلك . القراءة فى يهد قلبه . ـ نسبة الهداية إلى القلب تفيد الهداية الخاصة .

الصفحة الموضوع

٣٤٤ قوله تعالى : (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) تكرار فعل الطاعة مع الرسول يدل على وجوب طاعته صلى الله عليه وسلم طاعة مستقله - وعدم تكرار الفعل مع طاعة أولى الأمر يدل على أنها تبع لله ولرسوله .

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم - إلى - فاحذروهم) إحالة على المال والبنون .

٣٤٥ قوله تعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم) هذه بمثابة القيد للطاعة المطلقة قبلها وهى خاصة فى الأوامر ، أى الاستطاعة بخلاف النواهى فبدون قيد قوله تعالى : (ومن يوق شح نفسه) معنى الشح

٣٤٦ علاقة هذه الآية بقضايا الزوجية المتقدم ذكرها

قوله تعالى : (اسمعوا وأطيعوا) إحالة

٣٤٧ قوله تعالى : (إن تقرضوا الله قرضاً حسناً) معنى القرض وكيف يكون لله ويكون حسناً

٣٤٨ إحالة على شكور حليم - قوله تعالى (عالم الغيب والشهادة)

٣٥٣ أول سورة الطلاق . دخول الأمة فى نداء النبى (يأيها النبى إذا طلقتم النساء).

٣٥٤ تقسيم الخطاب الموجه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة أقسام

٣٥٥ المراد بإحصاء العدة

الصفحة الموضوع

٣٥٦ تنبيه : عدة الأمة ومناقشة ابن رشد فى كلامه على مالك ، وبيان خطأ ابن رشد . من كلام العدوى فى حاشيته على الخرشى .

٣٥٨ المراد بالعدة فى قوله تعالى(فطلقوهن لعدتهن) الطلاق السنى والبدعى.

٣٥٩ مناقشة طلاق الحائض

٣٦٠ قوله تعالى (فإذا بلغن أجلهن - إلى - بمعروف) وأن المراد قاربن أجلهن - إحالة .

قوله تعالى : (قد جعل الله لكل شىء قدراً) بيان عظم شأن هذا التقدير فى كل شىء .

٣٦٤ قوله تعالى : (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) إحالة لأقل مدة الحمل وأكثره .

٣٦٥ قوله تعالى: (فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن) وبيان مدة الرضاع اعتبار العرف .

٣٦٦ قوله تعالى (وكأين من قرية) إحالة - فى الآية دليل على أن هلاك الدنيا بفساد الدين .

٣٦٧ قوله تعالى : (الله الذى خلق سبع سموات) . الآية - بيان المثلية .

٣٧٣ أول سورة التحريم - فى الآية رد على من يقول : كانت عمرة عائشة خاصة بها .

٣٧٤ إحالة على تحلة اليمين وهل هو ظهار أم قسم ؟

قوله تعالى : (إن تتوبا إلى الله) إحالة على حقيقة التوبة .

الصفحة الموضوع

٣٧٥ مناقشة جمع القلوب مع إضافته إلى مثنى

قوله تعالى : (وإن تظاهرا عليه) بيان الوقف فى الآية على مولاه أو على جبريل .

٣٧٦ عدم تعارض العطف هنا بالواو مع العطف بثم فى الحديث .

لطيفة فى مظاهرتهما عليه

٣٧٧ قوله تعالى : (عسى ربه إن طلقكن) الخيرية فى النساء ـ والسر فى تقديم الثيبات على الأبكار فى الذكر هنا .

٣٧٨ قوله تعالى : (يأيها الذين كفروا لاتعتذروا اليوم) بيان المراد بالاعتذار المنهى عنه .

٣٧٩ قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا توبوا) إحالة على قوله (وتوبوا إلى الله جميعاً) .

٣٨٠ قوله تعالى : (نورهم يسعى) إحالة على (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم) .

قوله تعالى (يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين) الآية .

بيان نوع جهاد كل من الكفار والمنافقين

٣٨١ قوله تعالى (ضرب الله مثلا للذين كفروا) . الآية ـ نوع خيانتهما

٣٨٢ قوله تعالى (وضرب الله مثلا للذين آمنوا) . الآية .

٣٨٣ قوله تعالى (ومريم ابنة عمران) بيان الروح والرد على النصارى فى عيسى .

الصفحة الموضوع

٣٨٧ أول سورة (تبارك الذى بيده الملك) إحاله

٣٨٨ قوله تعالى (الذى خلق الموت والحياة) إحالة

قوله تعالى (الذى خلق سبع سموات طباقاً) إحالة

٣٨٩ قوله تعالى (فارجع البصر هل ترى من فطور) إحالة

٣٩٠ قوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح)

تنبيه : حول علاقة النظريات العلمية بالقرآن الكريم على ثلاثة أقسام

٣٩١ وجوب التثبيت فى كل نظرية ـ موقف سليمان من خبر الهدهد

٣٩٢ قوله تعالى (ثم ارجع البصر كرتين)

قوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) مهمة النجوم ثلاثة أمور

٣٩٤ الجواب على كون الجن من النار فكيف يعذب بالنار

قوله تعالى (إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا) . الآية من مذكرة الإملاء

٣٩٥ قوله تعالى (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها) . بيان الخزنة

قوله تعالى (ألم يأتكم نذير) إحالة من مذكرة الدراسة

٣٩٧ قوله تعالى (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل) المراد سماع طاعة

قوله تعالى (فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير) عدم انتفاعهم بهذا الاعتراف .

قوله تعالى (إن الذين يخشون ربهم بالغيب) الفرق بين الخشية والخوف

٤٠٠ تمدح العرب لمن يكون فى خلوته كمشهده .

٤٠١ قوله تعالى (وأسروا قولكم أو اجهروا به) الآية . وفيها أن السر والجهر بالنسبة إلى الله سواء . والآيات الدالة عليه وإحالة للشيخ

الصفحة الموضوع

٤٠٢ الفرق بين العليم والخبير والشهيد

٤٠٣ الراجح فى المراد من كلمة « من » أهى فاعل بعلم أو مفعول به

قوله تعالى (الذى جعل لكم الأرض ذلولا) . الآية ومعنى الذلول هنا

٤٠٤ قوله (فامشوا) أمر وفيه مبحث الأمر بعد الحظر

٤٠٦ الأمر بالمشى فى مناكب الأرض يجعل الأمة الإسلامية فى أعز مواطن الغنى والكسب

٤٠٧ قوله تعالى (ءأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض) والقراءة فيها وفى الآية مبحث العلو لله تعالى ـ وفيها إحالة على تفصيل موسع للشيخ رحمه الله .

٤٠٩ قوله تعالى (أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات). الآية

٤١٠ تنبيه : فيه ربط بين الطير فى الهواء والتهديد بخسف الأرض بهم

٤١١ قوله تعالى (أمن هذا الذى يرزقكم من السماء) . وبيان الجواب عليه

٤١٣ بيان مصدر رزق العباد فى الجملة ثم التفصيل

٤١٤ قوله تعالى (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا) الآية . وفيه التنبيه أنه سبحانه الذى يملك إنزال الماء من السماء أو إخراجه من الأرض .

٤١٧ أول سورة ن . وفيه إحالة على أوائل السور عند أول هود

٤١٩ قوله تعالى (ما أنت بنعمة ربك بمجنون . . عظيم) وفيها إحالة على قوله تعالى (أم يقولون به جنة) بيان إبطال دعواهم

الصفحة الموضوع

٤٢٠ قوله تعالى(وإن لك لأجراً غير ممنون) معنى الممنون هنا

٤٢١ المراد بالخلق العظيم ومجيء على واللام فيها . بيان هذا الوصف المجمل وتفصيله من القرآن والسنة

٤٢٢ قضية الأخلاق عامة وأخلاقه هو صلى الله عليه وسلم خاصة

٤٢٤ أثر الأخلاق فى العبادات وفى كل التشريعات الإسلامية

٤٢٥ إجمال الشريعة والبعثة فى موضوعية إتمام مكارم الأخلاق

٤٢٧ تنبيه آخر :اتفاق علماء الأخلاق على أن الأسس الأخلاقية أربعة وبيانها

٤٢٩ بيان أن الله تعالى تعهد نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وبعدها قوله تعالى (فلا تطع المكذبين- إلى- على الخرطوم) وبيان تبرأته صلى الله عليه وسلم مما جاء فيها

٤٣١ معنى تدهن فيدهنون

٤٣٢ قوله تعالى (أم تسألهم أجر) الآية وبيان أنه لم يسألهم .

٤٣٣ قوله تعالى (فاصبر لحكم ربك - إلى - مكظوم) وبيان من هو صاحب الحوت وما نداؤه

٤٣٤ قوله تعالى(لنبذ بالعراء) وبيان الحالة التى كان عليها
قوله تعالى (فاجتباه ربه) وبيان ثم اجتباه

٤٣٥ قوله تعالى (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم) الآية .
عود على بدء أول السورة .

الصفحة الموضوع

٤٣٩ أول سورة الحاقة — بيان معنى الحاقة

قوله تعالى (كذبت ثمود وعاد بالقارعة - إلى - الطاغية)

٤٤٠ قوله تعالى (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر - إلى حسوما) وفيها إحالة على آية فصلت

٤٤١ قوله تعالى (وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات) وفيه إحالة على (جعلنا عاليها سافلها) وعلى (والمؤتفكة أهوى)

تنبيه : هل توجد مناسبة بين هلاك كل أمة ونوع معصيتها

٤٤٣ قوله تعالى (وحملت الأرض والجبال) فيه إحالة على (ويوم نسير الجبال)

« « (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) فيه إحالة على (ووجدوا ما عملوا حاضراً)

قوله تعالى (فأما من أوتى كتابه بيمينه) فيه إحالة على (ووضع الكتاب)

٤٤٤ قوله تعالى (إني ظننت أني ملاق حسابيه) إحالة على (ورأى المجرمون النار) وفيها أن الظن يكون بمعنى العلم

٤٤٥ قوله تعالى (ما أغنى عني ماليه) معنى ما هل هو الاستفهام أم النفى

« « (هلك عني سلطانيه) وبيان معنى هلاك السلطان عنه

« « (إنه كان لا يؤمن بالله العظيم - إلى - المسكين) فيها أن الكافر يسأل عن الفروع

٤٤٦ إحالة على كلام الشيخ بأن الكفر يزيد بالمعصية ، كما أن الإيمان يزيد بالطاعة

قوله تعالى (إنه لقول رسول كريم) بيان المراد بالرسول جبريل أم محمد صلى الله عليه وسلم والراجح منهما

٤٤٧ قوله تعالى (ولو تقول علينا) فيه إحالة على (أم يقولون افتراه) وهو على ظاهره ـ مناقشة أبى حيان

٤٤٨ قوله تعالى (وإنه لحق اليقين فسبح باسم ربك العظيم) فيه إحالة على إضافة الحق لليقين

٤٤٩ درجات اليقين ثلاثة : علم اليقين ، حق اليقين ، عين اليقين

٤٥٣ أول سورة سأل سائل ـ لماذا عدى الفعل هنا بالباء مع أنه يتعدى بغيرها . فيها وفاء بوعد الشيخ رحمه الله بإرجاء زيادة بيان لقوله تعالى : (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا الحق من عندك) .

٤٥٥ قوله تعالى (ليس له دافع من الله ذى المعارج) وبيان معنى وقوعه فى الدنيا أم فى الآخرة .

٤٥٧ قوله تعالى (يوم تعرج الملائكة والروح إليه) وفيه إحالة لبيان مقادير تلك الأيام

٤٥٨ قوله تعالى (يوم تكون السماء كالمهل) فيه إحالة على (فإذا انشقت السماء)

« « (وتكون الجبال كالعهن) جاء وصف العهن بالمنفوش — وفيه إحالة على (ويوم تسير الجبال)

« « (ولا يسأل حميم حميما) معنى الحميم ولماذا لا يسأل أحد أحدا ؟

الصفحة الموضوع

٤٥٩ قوله تعالى (إن الإنسان خلق هلوعا) فسره مابعده

٤٦٠ « « (إلا المصلين) مستثنى من الهلوع ووصفهم الله بتسع صفات وفيها أهمية الصلاة . وفى آخر البحث حكم تارك الصلاة عند الأئمة الأربعة على سبيل الإجمال .

٤٦٢ قوله تعالى (والذين فى أموالهم حق معلوم) تاريخ مشروعية الزكاة بيان الإجمال فى أموالهم - والإجمال فى الحق المعلوم

٤٦٣ بيان أصول الأموال الزكوية - إحالة على بيانها فى النقدين والزروع بيان الزكاة فى الحيوان

٤٦٤ الخلاف فى الخيل وبيان الراجح - اختلاف الأحناف فيما بينهم فيما يخرج عنها

٤٦٩ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أنصباء الزكاة

٤٧١ تنبيه : فى الوقص فى بهيمة الأنعام أنه لازكاة فيه

٤٧٢ كلام مالك رحمه الله فى المعلوفة

٤٧٤ زكاة البقر

٤٧٤ الكلام فى الخلطة

٤٧٧ الشروط فى الخلطة - صحة تأثير الخلطة

٤٧٩ المناسبة بين أنصباء الزكاة فى الأموال الزكوية من حيث المقدار

٤٨١ مايجوز أخذه وما لايجوز فى الزكاة

٤٨٢ من أسرار التشريع الإسلامى فى الزكاة . ومقارنة بينها وبين الضرائب فى غير الإسلام

الصفحة	الموضوع
٤٨٤	زكاة الفطر وفيها ستة مباحث
٤٨٩	مناقشة الأحناف فى القول بالقيمة وانفرادهم بها
٤٩٤	بيان القدر الواجب فى زكاة الفطر
٤٩٥	أقوال العلماء فى وزن الصاع
٤٩٩	بيان وزن الصاع ماء وعدسا ـ بالوزن الحديث الجرام . زكاة الورق المتداول ـــ وإحالة على مباحث الربويات فيها
٥٠١	كلام الشيخ على قول مالك بوجوب أن ينص عند التاجر شىء
٥٠٢	قوله تعالى (والذين يصدقون بيوم الدين) وفيه إحالة على سورة الفاتحة
«	« (والذين هم من عذاب ربهم مشفقون)
٥٠٣	« « (والذين هم لفروجهم حافظون) فيه إحالة على (قد أفلح المؤمنون) تنبيه : موجز عن المتعة عند الشيعة ومناقشتهم من كتبهم بما فيه إلزام لهم
٥٠٤	قوله تعالى (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) القراءة فى شهاداتهم
٥٠٦	مباحث فى الشهادة ـ موارد الشهادة فى القرآن
٥٠٨	بيان الشهود من حيث الجنس والعدد
٥١٠	شهادة جماعة الصبيان
٥١١	شرط العدالة والصدق ـ تاريخ أول تزكية الشهود . مراتب الشهود إحدى عشرة مرتبة

الصفحة الموضوع

٥١٤ تنبيه : فى تفريق الشهود - وتحليفهم

٥١٥ « : فى علاقة الشهادة باليمين فى القضاء

٥١٦ « : منه يتضح السر فى قوله صلى الله عليه وسلم « من حلف بغير الله فقد أشرك »

قوله تعالى :(فمال الذين كفروا قبلك مهطعين - إلى - عزين) ومعنى عزين

٥١٧ قوله تعالى : (إنا خلقناهم مما يعلمون) بيان ما يعلمون

٥١٨ « « : (فلا أقسم برب المشارق) مبحث القسم من الله بالمخلوقات وجمع وإفراد المشارق

٥١٩ قوله تعالى : (يوم يخرجون من الأجداث سراعا) بيان أحوال خروجهم من القبور المختلفة

قوله تعالى : (خاشعة أبصارهم)

٥٢٣ أول سورة نوح - فيه النذارة قبل العذاب وهذا عام فى جميع الرسل

قوله تعالى : (أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون) الآية . بيان طاعة الرسل من طاعة الله

٥٢٤ قوله تعالى (قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا) وبيان مدة دعوته إياهم

قوله تعالى(جعلوا أصابعهم فى آذانهم) بيان الغرض من جعلهم أصابعهم كذلك

الصفحة الموضوع

٥٢٥ قوله تعالى (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ـ إلى ـ مدرارا) . ترتيب إنزال المطر على الاستغفار . وفيها إحالة على (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه)

قوله تعالى (وقد خلقكم أطوارا) وبيان تلك الأطوار ما هى

٥٢٧ تنبيه : حول الأطوار المشار إليها وأنها فى جميع المخلوقات

٥٢٨ قوله تعالى (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات ـ إلى ـ إخراجا) فيها ثلاثة براهين من براهين البعث

٥٣٠ إشكال فى قوله تعالى (ألم تروا كيف) لأنهم لم يروا الكيفية بالفعل والجواب عليه

٥٣٣ قوله تعالى (واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا)

٥٣٤ « « (وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) لماذا دعا عليهم بذلك ؟

٥٣٦ لماذا لم يدع صلى الله عليه وسلم على قومه كدعاء نوح عليه السلام ؟

٥٤١ أول سورة الجن . فيه إثبات سماع الجن للقرآن وإعجابهم به قوله تعالى :(وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا) معنى الشطط هنا

٥٤٢ « « :(وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا) وبيان تلك الحرس

الصفحة	الموضوع
٥٤٣	قوله تعالى : (وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض) فيه أن الجن لا تعلم الغيب . فيها سؤال وجوابه كيف قالوا ندرى ، وفى موضع آخر قالوا (قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد)
٥٤٤	قوله تعالى :(وألو استقاموا على الطريقة) الآية . نص فى أن الاستقامة سبب السعادة
٥٤٦	قوله تعالى : (وأن المساجد لله) الآية. المسجد لغة : المواطن المنهى عن الصلاة فيها ، وإحالة على كلام الشيخ وقد عدها تسعة عشر موضعا
٥٤٨	اختصاص بعض المساجد بمزيد فضل . اختصاص المسجد الحرام
٥٤٩	لماذا كان الإسراء أولا إلى بيت المقدس والمعراج من هناك وليس من مكة مباشرة ؟ مبحث المسجد الذى أسس على التقوى
٥٥٢	ارتباط المساجد الثلاثة بأمور أربعة تربط بينها ـ الحرام ، والأقصى ، والمدينة ـ قباء
٥٥٤	المسجد النبوى وخصائصه .
٥٥٥	مسجد قباء
٥٥٦	لماذا اختص مسجد قباء بأجر العمرة
٥٥٧	تنبيه : حول رسالة المسجد فى المجتمع الإسلامى

الصفحة الموضوع

٥٥٨ اختصاص المسجد النبوى بأربعة مباحث هامة

٥٥٩ الأول فى مضاعفة الصلاة هل هى للفرض فقط أم للنفل أيضاً ؟

٥٦٢ صلاة المرأة فى بيتها أو فى المسجد النبوى

الثالث منها هل المضاعفة مقصورة على ما بناه صلى الله عليه وسلم أم تشمل ما زيد فيه .

٥٦٥ كلام الإمام ابن تيمية رحمه الله فى ذلك

٥٦٦ تنبيه : المضاعفة فى الكيف لا فى الكم

٥٦٧ خصوصيات المسجد الأول .

٥٦٧ المبحث الرابع : مقارنة بين الروضة والصف الأول فى الجماعة وبيان الأفضل .

٥٦٩ المبحث الخامس : حصول المضاعفة مع امتداد الصفوف خارج المسجد

٥٧٠ المبحث السادس : فى تقدم المأمومين على الإمام فى صفوفهم عند الزحام

٥٧٢ المبحث السابع : صلاة الأربعين صلاة وأثرها على من تتاح له

٥٧٥ مبحث السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه إحالة على قوله تعالى (أن تحبط أعمالكم)

٥٧٦ شد الرحال إلى المسجد النبوى للسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مبحث مطول

٥٧٧ كلام ابن حجر فيما وقع فيها من نقاش قديما

الصفحة الموضوع
٥٧٨ مايفيده إبراز البخارى للأحاديث فى هذا الباب
٥٨٠ مناقشة ابن حجر للمسألة ـ وبيان مافيه من المعادلة على نص الحديث فى حالتين .
٥٨٢ وجهة نظر فى عدم انفكاك شد الرحل إلى المسجد عند السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم
٥٨٤ مناقشة قصيرة فى كون الوكيلة تأخذ حكم الغاية
٦٨٦ نصوص عن الإمام ابن تيمية رحمه الله فى فضل الزيارة بعنوان (فصل)
٦٨٨ محط النقد فى هذه المسألة
٥٨٩ جوابه رحمه الله على عمل العلماء واعتذاره رحمه الله عن الجهلاء
٥٩٣ من نذر الصلاة فى مسجد غير الثلاثة
٥٩٤ تنبيه حول مسجد قباء فى الذهاب إليه ، وفى الزحام عليه
٥٩٥ تنبيه ثالث فى الفرق بين عموم زيارات المقابر وخصوص القبور الثلاثة
٥٩٦ مسألة فى منطوق ومفهوم (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) ، وفيها بناء المساجد على القبور ، وفيها إحالة على إفراد الله تعالى بالعبادة وحده
٥٩٨ تنبيه . حول موضوع إدخال الحجرة فى المسجد النبوى
٦٠٠ قول القرطبى : بالغ المسلمون فى سد الذريعة فى قبر النبى صلى الله عليه وسلم
٦٠١ كلام الإمام ابن تيمية رحمه الله ، وصاحب فتح المجيد فى المسألة
٦٠٢ وجهة نظر فى نصوص النهى عن اتخاذ المساجد على القبور وأنها لا تشمل صورة إدخال الحجرة

الصفحة الموضوع

كلام الإمام ابن تيمية رحمه الله فى هذه المسألة مطولا

٦٠٤ تجدد الكلام عن هذه المسألة فى موسم حج ١٣٩٤

٦١٠ أول سورة المزمل ، وفيه بيان لكيفية القيام ، وأن حسن الترتيل أولى من كثرة السجود

تنبيه : فى وجوب مراعاة حدود المد فى القراءة

٦١١ قوله تعالى (إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا) المراد بالقول وبكونه ثقيلا

٦١٣ « « (إن ناشئة الليل هى أشد وطأ) وتوجيه من الشيخ رحمة الله تعالى عليه

٦١٤ مسألة فى حكم قيام الليل أول الأمر

٦١٥ أول سورة المدثر ، وبيان المراد بالإنذار ونوع النذارة فيه

٤١٧ إحالة عند قوله (لتنذر به وذكرى للمؤمنين)

٦٢٠ قوله تعالى : (فإذا نقر فى الناقور - إلى - غير يسير) والجمع بين كلمتى عسير وغير يسير

٦٢١ قوله تعالى (عليها تسعة عشر - إلى - ذكرى للبشر) معنى الفتنة التحريق

٦٢٣ مثار نقاش فى حكمة التشريع ، ووجوب المبادرة للطاعة

٦٢٦ قوله تعالى : (ماسلككم فى سقر - إلى - حين أتانا اليقين) فيها إحالة على (ويل للمشركين الذين لايؤتون الزكاة)

الصفحة	الموضوع
٦٢٧	قوله تعالى :(فما تنفعهم شفاعة الشافعين) مبحث موجز فى الشفاعة
٦٢٨	» » (فما لهم عن التذكرة معرضين) فيه إحالة سابقة
٦٣١	أول سورة القيامة — القراءة فى (لا أقسم) وفيـــه إحالة على دفع الإيهام مطولة
٦٣٦	قوله تعالى : (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه) هذا الحسبان سببه النسيان
	» » (بلى قادرين على أن نسوى بنانه) نقاش المفسرين فى تسوية البنان
٦٣٧	» » (فإذا برق البصر -إلى- كلا لا وزر)القراءة فى برق بكسر وفتح الراء
٦٣٨	قوله تعالى : (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) المراد بما قدم
	» » (بل الإنسان على نفسه بصيرة) وإحالة على (ووجدوا ماعملوا حاضرًا)
	» » ولو ألقى معاذيره) بيان بعض تلك المعاذير
	» » (لاتحرك به لسانك) وبيان السبب
٦٤٠	تنبيه : على وجود دليل نزول القرآن مفرقا أى ثم يجمع
	قوله تعالى : (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) وإحالة على (علمه شديد القوى)
	» » (ثم إن علينا بيانه) وإحالة على (كتاب فصلت آياته)
٦٤	» » (وجوه يومئذ ناضرة) وإحالة على (قال رب أرنى أنظر إليك)

الصفحة الموضوع

قوله تعالى (كلا إذا بلغت التراقى - إلى المساق) بيان المراد ببلغت ونظائره فى القرآن - معنى راق هو من الرقية أم من الرق والراجح فى ذلك

٦٤٣ « « (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) وإحالة على (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا)

« « (ألم يك نطفة من منى يمنى) إلى - آخر السورة — وإحالة على (وأنه خلق الزوجين)

٦٤٧ أول سورة الإنسان — وبيان المراد بالإنسان الأول والثانية المذكورتين

٦٤٧ إحالة على (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا)

٦٤٨ قوله تعالى (إنا هديناه السبيل) أى أبنا له - فيها إشعار بنعم ثلاث لا كسب للعبد فيها

٦٥١ كلام للامام ابن تيمية فى قراءة سورتى السجدة والإنسان فى فجر الجمعة

٦٥٣ مسألة فى اعتبار المناسبات

٦٥٤ يوم الجمعة ، يوم الاثنين

٦٥٦ موضوع المولد

٦٥٧ كلام للامام ابن تيمية مهم جدا فى هذا البحث

٦٦٠ مراتب الأعمال فى الإسلام

الصفحة	الموضوع
٦٦١	ماحدث بعد ابن تيمية رحمه الله
٦٦٤	يوم عاشوراء — الهرولة فى الطواف . . . الخ
٦٦٨	أحداث عظام لم يجعل لها الإسلام ذكريات : يوم بدر ، والحديبية ، والفتح
٦٧٠	تنبيه فى يوم نزول قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم)
٦٧٢	قوله تعالى (إنا هديناه السبيل) وإحالة على الهداية العامة والخاصة
٦٧٣	» » (سلاسلا وأغلالا) وبيان ذرعها
	» » (يشربون من كأس)معنى كلمة (من) هنا
٦٧٤	» » (يوفون بالنذر) إحالة على (وليوفوا نذورهم)
	» » (ويطعمون الطعام على حبه) بيان مرجع الضمير فى حبه وفى الآية قرينة على المراد
٦٧٥	مسألة فى المراد بالأسير
٦٧٦	قوله تعالى :(ولقاهم نضرة وسرورا) إحالة على(وجوه يومئذ ناضرة)
	» » (ويطاف عليهم بآنية من فضة) بيان من يطوف عليهم ، وفيه إحالة
٦٧٧	معنى القارورة ، وهل اللغة تثبت بالقياس أم لا ؟
٦٧٨	قوله تعالى :(ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا)
٦٧٩	» » (وسقاهم ربهم شرابا طهورا) وإحالة للفرق بين شراب الجنة وشراب الدنيا

الصفحة الموضوع

قوله تعالى :(إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا) الفرق بين نزلنا وأنزلنا

٦٨٠ » » (فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) إحالة على أول المزمل

» » (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم) معنى أسرهم

٦٨١ » » (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) . بيان السبيل المطلوب – إحالة على مبحث المشيئة

٦٨٥ أول سورة المرسلات – وقوله تعالى :(إنما توعدون لواقع) هو المقسم عليه

٦٨٧ قوله تعالى : (فإذا النجوم طمست)

٦٨٨ » » (وإذا الرسل أقتت) إحالة على أن الأولين والآخرين لمجموعون

» » (لأى يوم أجلت . ليوم الفصل) وبيان يوم الفصل

» » (ويل يومئذ للمكذبين) إحالة على (فويل للذين كفروا)

» » (ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين) بيان القرار المكين وإحالة

٦٨٩ قوله تعالى : (فقدرنا فنعم القادرون)

» » (ألم نجعل الأرض كفاتا) وإحالة على الذى (جعل لكم الأرض مهدا)

٦٩٠ قوله تعالى : (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون) بينه ما بعده

الصفحة	الموضوع
	قوله تعالى :(هذا يوم لاينطقون) والجمع بينها وبين قوله : (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) وفيها إحالة على(ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لاينطقون)
	قوله تعالى (كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون)
٦٩١	» » ا كذلك نجزى المحسنين) وبيان لماذا جيء بالمحسنين بدل العاملين ، وإحالة على(إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها)
٦٩٢	قوله تعالى : (فبأى حديث بعده يؤمنون)
٦٩٣	مايقوله من قرأ آخر هذه السورة وسورة التين
	جدول الخطأ والصواب

جدول الخطأ والصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٣	٤	فسبحان تمونون	فسبحان الله حين
١٧	١٤	طائمان	طائفتان
٢٦	١٤	بيات	أبيات
»	١٧	يحمل	مجمل
٤٠	١٢	للغة	للعلة
٤٤	١٣	للـكما	لـكما
٥٢	١	ليمثل	لمثل
٥٧	١٠	المسلة	المسلت
٥٨	٢	فيقولون	فيتولون
٦٧	١٣	بينته لـكم وحذرتكم منه	بينته لـكم وأمرتكم به وما تركت شراً يباعدكم عن الله إلا بينته لـكم وحذرتـكم منه
٧٠	١	مساركة	مشاركة
٨٠	١٣	بسماهم	بسماهم
٨٨	١٧	البحث	الحث
٩١	١٥	الذم	الذنب
٩٨	١٤	حبسهم	حسبهم
١٠١	١٣	وجدت	وجد
»	١٨	وربك	ورب
١٠٢	١٦	وغلو	وغلفوا
١٠٥	١٢	وشبه	ومشبه به
١١٦	١٣	يدك	يداك
١٥٢	٨	تنقض	تنقص
١٧٣	٢	تقولوا	تقولون
١٨٤	١٤	ترحرا	تنصرا
١٨٦	٤	إيمان	إيمانا
١٩١	١	وآخرين منهم	هو الذى بعث فى الأميين . الآية
١٩٢	١٤	هو الذى بعث	وآخرين منهم الآية
١٩٦	١٣	الحمول	المحمول
١٩٨	١	عليه	عليهم
٢٠٠	١٨	عالية	غالية
٢٠٥	٢	الله أكبر »	الله أكبر لا إله إلا الله »
٢١٢	٧	متقد	متقدم
٢٢٩	٨	الزجر	الأجر
٢٣٠	٤	الاذان	لا أذان
٢٤٣	١٧	فلان	فلا
٢٥٧	١٦	قال	اله
٢٥٨	٧	وأعزب	وأغرب
٢٧٣	٤	ثيب	تيب
١٧٧	١٥	اشفقا	إشفاقا
٢٨٤	١١	ما دخل	من دخل
٢٨٩	١٠	الخشرى	الخرشى
٢٩٤	١٤	حجة	جمعة
»	١٥	»	»
»	١٦	يمرض	يمرضه
٢٩٩	١٧	ختم	خيم
٣٠٦	٤	حق	حتى
٣١٢	٨	النص	لنص

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣١٢	١١	يوما	يوم
٣١٣	٦	يسوق	يسوغ
٣٣٢	٧	لا شريك	لا شريك له
٣٣٤	٨	مع أن خالق	مع أن الله خالق
٢٤٢	٨	الحيلة	الجبلة
٣٤٣	١٢	شبه الهداية	نسبة الهداية
٣٤٤	٦	يكر	يكرره
»	١٧	والولد	والوالد
٣٤٦	٩	يطالب	يغالب
»	١٢	واسمعوا	واسمَعوا
٣٥٧	٣	شهر ونصف	شهرا ونصفا
٣٥٨	٤	براءة زوجها	براءة رحمها
٣٥٩	١	سها	مسها
٣٦٢	١١	على حجد	على من جحد
٣٦٨	٤	أرض	أرضا
٣٧٨	١٣	من نساء	من نشاء
٣٨٤	١٠	بشر	بشرا
٣٩٠	٢	لنباونكم	ليباوكم
٣٩٩	١١	فلم	مالم
٤٠٢	٧	لايعلم	ألا يعلم
٤٠٩	٦	قوله	كقوله
٤١٢	١٠	إلا وعلى	إلا على
٤٢٠	٧	مهد	قهر
	١٤	يعطيك نترضى	يعطيك ربك فترضى

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤٣٠	١٤	خير	خيرا
٤٣٩	١٣	طفا	طغى
٤٤٠	٣	المحتضر	المحتظر
٤٥٣	٥	ويستعجونك	ويستعجلونك
٤٥٥	١	قضى	قص
	٣	نبأ	نبئهم
٤٦٥	١	السطر كله	مكرر
٤٦٦	١٨	الأصناف	الأحناف
٤٦٧	١٧	للأصناف	للأحناف
٤٧٣	١٠	ويجمل	ويحمل
٤٧٧	١٦	الأنق	الآنى
٤٨٠	١٤	نبذه	بين
٤٨٢	١٦	فتلاحما	فتلاحيا
٤٨٤	٨	أم ؟	أم لا
٤٩١	٦	أعلا	أعلى
٤٩٣	٩	الاشتنان	الأشنان
٤٩٦	١٨	رنانته	رزانته
٤٩٩	١٠،٩	وأنه يسمح	وأنه لا يسمح
٥٠١	١٣	ينص	ينض
٥٠٦	٢	يكروها	يكررها
	١٢	فرجون	فرحون
	١٥	لإرادتها	لأدائها
٥٠٩	١٧	القافة	القافة
٥٢٨	١٠	الحكمة	المسكن
٥٥٤	٣	مسجد	مسجده

صفحه	سطر	خطأ	صواب
٥٥٥	٣-٤	شيبة	شبة
	١٣	أقرت	أقررت
٥٧٦	٢	السلام	للسلام
٥٩٥	٥	زيادة	زيارة
٥٩٧	١١	أبى	أى
٦١٨	١٠	عذرة	غدرة
٦٢٠	١٠	لا يرحى	لا يرجى

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٦٢٢	٦	التحريف	التحريق
٦٣٢	١	للكلام	لكلام
٦٣٥	١	أمانيا	يمانيا
	٦	المكرم	المكدم
٦٥٠	٢	وينصرانه	أو ينصرانه
٦٥١	١٠	نفخ فى	نفخ فيه
٦٨٢	٦	ما ينفع	يقع
٦٨٦	٧	مفعوله	مفعول

آثار الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي

(١)

مطبوعات المجمع

أضواء البيان

في إيضاح القرآن بالقرآن

تأليف

الشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي

١٣٢٥ - ١٣٩٣

إشراف

بكر بن عبد الله أبو زيد

وقف

مؤسسة سليمان بن عبد العزيز الراجحي الخيرية

دار عالم الفوائد

للنشر والتوزيع

آثار العلامة الشنقيطي

أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن

الشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي